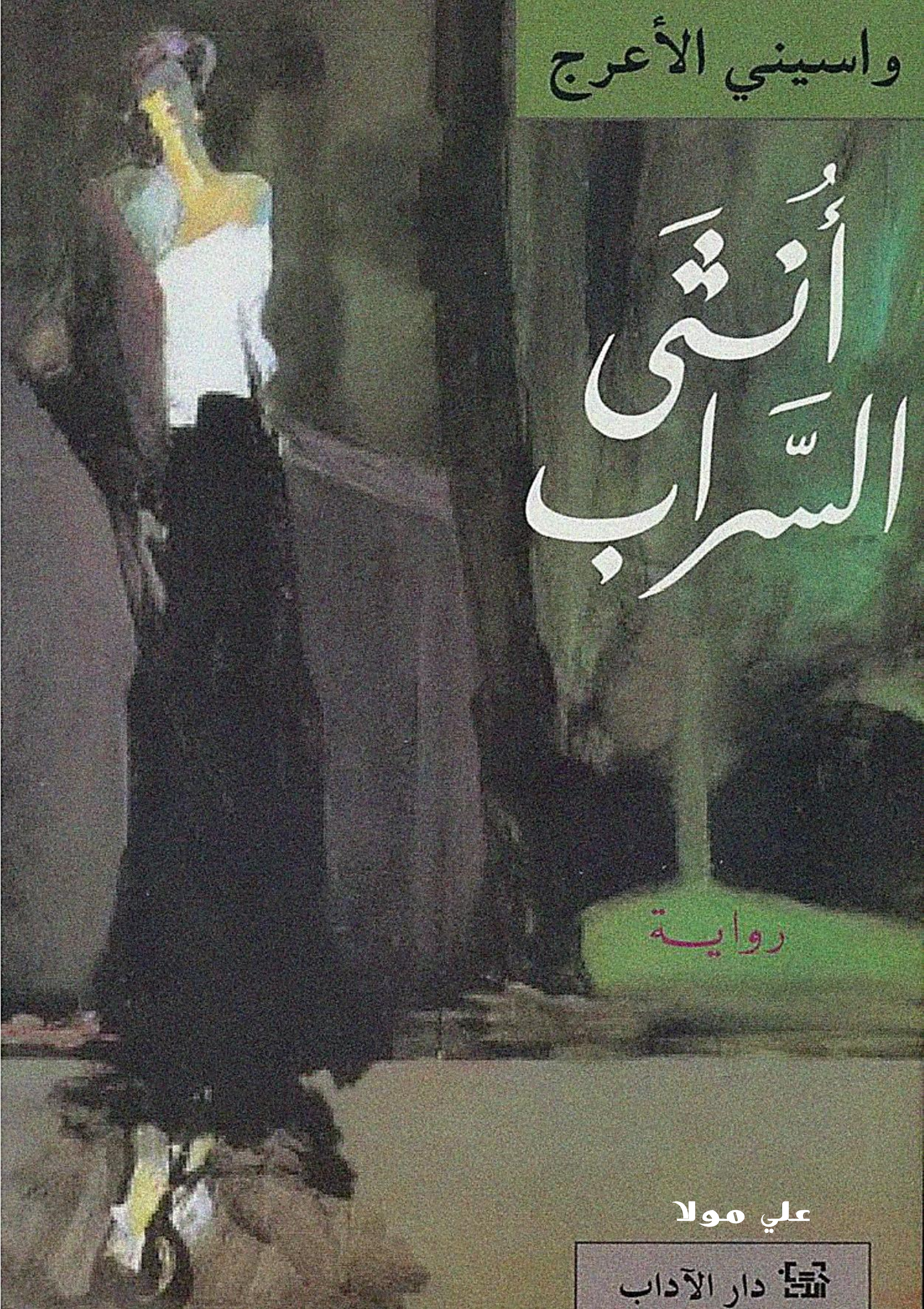

واسيني الأعرج
أُنثَى السَّراب
رواية
علي مولا
دار الآداب

واسيني الأعرج

أُنْثى السَّراب

(Scriptorium)

دار الآداب - بيروت

أُنْثَى السَّرَاب

(Scriptorium)

أُنْثى السَّراب

واسيني الأعرج/روائيّ جزائريّ

طبعة أولى عام 2010

ISBN 978-9953-89-156-9

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير - بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت - لبنان

هاتف: 795135 (01) - 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

Website: www.adabmag.com

Facebook: dar al adab

ريما، ابنتي وحبيبتي...

شكراً لك. وحدك فهمتِ جيّداً سرّ هذه اللعنة، وهذا الخوف الساحر والجنون العاري الذي اسمه الأدب. مجرّد لحظة ألم من امرأة ورقيّة معلّقة في شجرة الجنّة، لم يعد شيء يهمّها بعدما قبلت بكل الخسارات. تريد فقط أن تنزل إلى هذه الأرض لاستعادة صراخها ولحمها وحواسّها الضائعة، من سطوة اللغة، ومن سلطان الكاتب نفسه. وتقسم هذه المرّة، إنّها لن تحاسب إبليس على سحره، بل ستتواطأ معه. تجلس بصحبته تحت شجرة الغواية. وتطلب منه بإصرار، أن يأخذها من يدها كمن يدعو عشيقته إلى حلبة الرقص، ويقطف لها تفّاحة أخرى بيديه المرتعشتين، ويضعها في فمها قطعة قطعة، مثقلة بنبيذ الشهوة، لتشعر بلذّة ذوبانها الهادئ تحت لسانها، وتكتشف معه أكثر المسالك دهشة وهبلاً. لقد أدركتْ، متأخِّرة قليلاً، أنّ دنيا واحدة عاشتها، لم تكن كافية لإشباع جوعها الأبدي للنور ونهمها للحياة.

شكراً لك ريما. عرفتِ بسرعة وأنت تتلمَّسين رؤوس أصابعي المندّاة بحبر الكتابة وعطر الكلمات، أنّه لا حقيقة تعلو على حقيقة الأدب. نحن لا نكتب في النهاية سوى حياة موازية، سندها الخفي إشراقات مرتبكة، ولغة تضعنا على حوافّ المستحيل.

واسيني

إنّ المتفرِّج الذي يتابع مسرحيّة تراجيديّة يدرك سلفًا أنّ ما يجري أمامه على الخشبة ليس حقيقة، وأنّ كلّ شيء هو في النهاية مجرّد تمثيل. يعرف أيضًا أنّ الشخص الذي يقف أمامه ليس هو ماكبث الحقيقي. لكنّه في الوقت نفسه يحتاج، وهو يدخل في غمار اللعبة، إلى أن يصدّق ما يراه، أن ينسى، أو كما يقول كوليريدج: يؤجِّل شكوكه.

***Georges Luis Borges**: Enquêtes*

إنَّا إنَاثٌ لما فِينا يولِّــدهُ،

فلنحْمَدِ اللهَ ما فِي الكونِ منْ رجُلِ

إنَّ الرجالَ الذين العُرفُ عيَّنهم

هُمُ الإناثُ، وهم سؤلي، وهمْ أمَلي

محيي الدين بن عربي: الوصايا.

الفصل الأوّل

بَهَاءُ الظِلِّ

... ...

- ١ -

الوقت... الوقت... لا شيء في الأفق سوى البياض.

تمدَّدتُ بكلّ طولي على الكرسي القصبي. أغمضتُ عينيّ قليلاً لأسترجع أنفاسي المتقطِّعة. لا شيء في السكريتوريوم[١] سوى هذا الضوء الخافت الذي يضيء الجانب الأيسر من وجهي، ومساحة أحرف الكمبيوتر بشكل جيِّد، بينما تعوم بقيّة الغرفة في الظلال. لم أنم حتى اللحظة، ولا أشعر بأيّة رغبة في ذلك على الرغم من التعب الذي سكن كلّ مفاصلي.

تحسَّست جسمي والمكان الذي كنت فيه. لم أستطع تفادي كلماته وسحره.

---

١ - كلمة من أصل لاتيني **Le Scriptorium** وتعني المكان الذي كان ينجز فيه القساوسة والكهّان مخطوطاتهم، قبل اختراع المطبعة. وبانزلاق المعنى، أصبحت الكلمة تعني، اليوم، المكان المختار للعزلة من أجل الكتابة.

«امنحني حبيبي فقط فرصة قتل مريم فيك، لكي أستطيع أن أعيش معك بقيّة عمري حرَّة، مثلما أحلم. ولا تسألني لماذا؟ الإجابة لم تعد اليوم تهمّ كثيراً. لك الإجابات كلّها، في ربع قرن من الخوف، والصمت، والأقنعة التي أستطيع اليوم أن أفتح متحفًا خاصًّا بها. ربع قرن من الصبر والخوف...».

هل تدري ما معنى ربع قرن من الصبر والصمت الخانق؟

حفظت هذا المقطع عن ظهر قلب، من آخر رسالة بعثت بها لسينو من غرناطة. لا أدري بالضبط ماذا أصابني يومها، وهل فهمني كما يليق برجل حسّاس، يخاف على حبيبته؟ منذ عودتي من مدينة أجدادي الحزينة، اتّخذت قراراً نهائيًّا بتصفية حسابي مع ظلّي وسرابي: مريم.

قبل قليل اشتهيت شرب كأس قهوة مُرَّة لأثَبِّتَ رأسي الذي شعرت به في حالة دوار دائم، ولكنّي سرعان ما عدلت عن الفكرة. وضعت الترمس[1] في الزاوية، ناحية رجلي اليمنى، ونسيته هناك.

الصمت الآن يتمدَّد على سكينة الأشياء كظلّ الميّت. هذا القبو، أو ***الكهف*** كما يسمّيه ابنايَ وزوجي، وأسمِّيه أنا منذ زمن بعيد السكريتوريوم، يعطي الانطباع، بأثاثه المتنوّع والغريب، بقبر فرعوني تُرِك تحت الأرض زمنًا طويلاً. حتى طنين الذبابة الزرقاء، التي لا أدري من أين جاءت، انطفأ نهائيًّا. ربّما تكون قد تعبت هي أيضًا من كثرة الدوران الذي لا يفضي إلى أيّ شيء.

عليَّ أن أنسى الآن كلّ شيء، بما في ذلك دعوة ***مخبر النجاح*** لاستلام نتائج التحاليل الرحميَّة، التي رميتها في الطرف الأيسر من المكتب ليسهل عليّ تذكّرها. مسألة شكليّة ولكن علي أن أرتِّب كلّ

---

١ - إناء في شكل إبريق يحافظ على حرارة السوائل.

تفاصيلي لأتمكّن من السيطرة عليها. بدأت أنسى الأشياء البسيطة. أخاف أن يكون ذلك علامة من علامات الألزايمر.

«ـ اسمـ... ـعني أرجـ... ـوك... تعبت...

ـ لنا كل الموت لننام...

ـ أيّ موت يا مجنون... أريد أن أعيش أوّلاً... أن أعيييييييش...».

جاءتني الكلمات متقطِّعة، من زمن مجوّف كالمغارة، بدا لي أبعد من بلاد الخوف التي أنشأتها في قلبي.

ـ ٢ ـ

«هكذا إذن؟ لنا كلّ الموت لننام؟».

كان يجب أن يحدث ذلك. سينو لم يقم من غيبوبته القاتلة، أو على الأقلّ هذا ما أقنعت نفسي به. ومريم أصبحت الآن تحت رحمتي. لن أستأذن أحداً لتصفية حسابي معها. كان عليَّ أن أفعل ذلك قبل مدّة. تأخّرت كثيراً.

قبل قليل حشوت مسدّس بريتا، برابللوم[١] ٩ ملّمتر، بسبع رصاصات ووضعته بجانبي في انتظار لحظتي المناسبة. ثقيل، ولكنّه قوي ومتين. المجرم والبريء الحاقد يفكِّران بالطريقة نفسها. الفرق بينهما هي لحظة النسيان، الأسئلة الخفيّة، رجفة الارتباك، ثم العبور نحو التنفيذ فقط. فقط لا غير.

لبست الأسود استعداداً للحداد، فأنا مقدمة على شيء خطير، قلّبته في رأسي طوال الزمن الذي أعقب سقوط سينو في غيبوبة فجائيَّة، ودخوله إلى مستشفى كوشان پول سان ـ فانسون بباريس[٢].

---

١ - Beretta Parabellum, 9 mm.

٢ - Hôpital Cochin Paul Saint-Vincent. Paris.

الساعة؟ لا أدري بالضبط. أسمع فقط حركتها الداخليّة التي تشبه الساعة التقليديّة، وكأنّها قنبلة موقوتة تتصيَّد ضحيّتها. أرى الآن لوحتها المواجهة لي. نقاط حمراء متتابعة ومستقيمة على خلفيّة سوداء. **h... s... mn...** كلّ شيء يبدو منطفئًا. لا أرقام أبدًا. كأنَّ الزمن توقَّف نهائيًّا لولا تلك الحركة الخفيّة للعقارب المضمرة، التي تصلني برتابة مقلقة، وتحسّسني باحتمالات انفجار سيحدث في أيّة لحظة، وفي أيّ مكان، بما في ذلك جسدي أو رأسي المتعب.

كلّ شيء يحمل قوّة الصمت العنيف التي بداخلي.

ما يزال الكمان الذي عزفت به طوال الليل مقطوعات سوزان لونديتغ[1]، في مكانه حيث وضعته عندما انكفأت على الكتابة. المسدّس أيضًا تمدَّد ظلّه قليلاً ببرود وكأنَّه مجرّد لعبة نسيها طفل على المكتب بعد أن شبع لعبًا بها. لم يتحرَّك من مكانه منذ أن حشوته بالرصاصات السبع، وأنا لا أعرف بالضبط في أيّة لحظة سأستعمله، لكنّي مقتنعة أنّه ضروري للانتهاء من هذا التردُّد القاتل؟

تلمّسته. بارداً كان، كجثّة ميّت. لأوّل مرَّة لا أخاف منه.

نسيت وجوده بسرعة، منذ أن انغمست في كتابة هذا النزيف على الكمبيوتر.

طبعًا لم أتساءل ماذا سأفعل بعزلتي. كلّ شيء صافٍ في ذهني ولا يوجد أيّ ارتباك في قراري النهائي. أعرف جيِّداً لماذا انزويت في السكريتوريوم، بعد أن وصلت إلى نقطة اللارجوع. النقطة الفاصلة بين جبن الحياة وبهاء الجنون.

---

١ ـ موسيقيّة نورفيجيّة، عازفة كمان **Suzanne Lundeng**.

سأفترض أنّ سينو لم يستيقظ من غيبوبته أبدًا لأتمكَّن من تجاوز قلقي الداخلي نهائيًّا. وسأقنع نفسي بأنّ كلّ ما قاله الأطبّاء لأهله هو مجرّد لعبة طبّيّة لإتاحة الفرصة لعائلته لترتيب ترحيله إلى أرض الوطن بلا ضجيج، كما أكّد على ذلك في وصيّته الأخيرة.

ليس جنونًا، بل هو عين العقل. افترضت إغفاءته الشبيهة بالموت، فقط لأختبر حواسّي الدفينة على المقاومة، وقدراتي العقليّة على الاتّزان، واختراق عتبات الاستكانة والخوف من الفقدان والتيه، ولأروِّض قلبي المتعب على الصبر. وربّما، أكثر من ذلك كلّه، لأتمكَّن من تصفية حسابي مع مريم التي أدخلتني الكتابة في جلدها، وأخرجتني من الحياة.

قبلت باللعبة ولكنَّها قتلتني في النهاية، وخذلت سذاجتي الطفوليّة. لست مجبرة على الاستمرار وفاء لكذبة تسحقني كلّ يوم عشرات المرّات. فأنا لا أطلب شرب البحر. حلمي بسيط كالماء.

«أريد أن أسترجع هويّتي المسروووووقة. هل فهمت يا سينو!؟ لا أريد شيئًا آخر غير استرجاع هذه الهويّة المبهمة. أرفض أن تلبس مريم وجهي، وتسرق ملامحي، وتعيش بجسدي كلّ شهواتها وجنونها».

لست امرأة من ورق، ولكنّني حقيقة سينو المرّة التي يحاول تفاديها وربّما إخفاءها، وهي منغرسة فيه بقوّة.

قبل قليل، عندما تعبت من العزف، أدخلتُ قرص سوزان لوندينغ في عمق الكمبيوتر، ووضعته على إشارة التكرار لكي يظلّ يدور بلا توقّف مثل المجرّة.

صوت الكمان الذي يتلوّى بين أنامل سوزان لوندينغ الرقيقة والأنيقة يأتيني الآن واضحًا، وبلا صدى، في هذه الغرفة المدفونة تحت

الأرض. أسمع الأنين القلق وهو ينبعث من روح متوارية باستمرار نحو الغياب، بعد أن تحوّلت إلى نثار من النور الذي يصعب لمسه والقبض عليه. تأتيني النداءات العميقة، متماوجة، متباعدة ومتقاربة، جافّة وسلسة، عنيدة ومستسلمة، كأنَّها ساحل موحش، أبدي الحركة. نباهتي المتّقدة الآن تجعلني أفرِّق بينها كلّها، واحدة، واحدة. أسترجع بعض ما مضى، وألعب. أجمِّع اللحظات المسروقة كما يروق لي، ثم أفكِّكها مثل اللعبة قبل أن أطوّحها في فضاء وأبعثرها عاليًا مثل الفقاعات الصغيرة، وأحاول عبثًا أن أمنعها من الانفجار.

الموسيقى وذاكرتي المتَّقدة، هما كل ما يؤثِّث حضوري الآن، ويمنحني حنينًا لذيذًا نحو زمن أصبح فصوصًا صغيرة عليَّ أن أجمعها وأرتقها، لأتمكّن من فهمها، وربّما نسيانها للمرّة الأخيرة.

لا أحد غيري يدري الآن ما تفعله فيَّ هذه الإيقاعات المتتالية؟

«حبيبي، أقرأ الحيرة في عينيك. كأنّك أصبحت لا تعرفني؟ أيُّها المهبول لو فقط كنتَ تدري... أنا مشبعة بك، مثل إسفنجة، حيثما مسستني، نضحت بك: عطرًا، شوقًا، شهوة، ألمًا وخوفًا. هل تعلم ما معنى أن تنضح امرأة برجل؟».

أكتب بلذّة وأغرق في شيء جميل ومبهم مثل تقبيله، تحسُّس جسده، فلي شعره الذي ابيضّ بسرعة، تفتيش تفاصيله الحميمة، ثم الغوص فيه بجنون لا يضاهى، والتلاشي على تأوّهات، كان دائمًا يضع يده اليمنى على فمي، كي لا يسمعها الآخرون. ما زلت أسمع تنبيهاته المتتالية: **ششششششششت... أرجوووووك... عمري... لسنا وحدنا...** أتحسَّس رجفاته المتتالية على صدري. ملامسها قويّة وعطرها حادّ. أريد عبثًا أن أخرج من جلدي لأحسّ أنّه فيَّ بكلّه ولكن عبثًا. هو

لا يدري أنَّه كان يكتم أصدق صرخة فيَّ، وأجمل رعشة فيه، صرخة التماهي المطلق. رنين اللحظة العشقيَّة التي لا حدود لسلطانها. هل كان يدري ماذا سيحدث لو اندغم الجسدان في تأوُّه واحد، وصرخة تخرج من الأعماق بشكل بدائي؟

«ولأنَّك لا تعرف، فأنا لا ألومك. في هذه، حبيبي، لا تشذّ عن القاعدة. فأنتَ ككلّ الرجال، تنظر دائمًا وراءك وخلفك وبجانبك. تسمع إلى أصوات الآخرين أكثر من استماعك للصوت الجميل الذي فيك، حتى في أدقّ اللحظات حميميَّة، حيث لا شريك لك، إلاّ الجسد الذي يحترق بين يديك شوقًا. فتضيع اللحظة القدريَّة التي بين أناملك المرتعشة، وتُسرق منك في أقلّ من رمشة هاربة، أو لمسة خفيّة».

وهو الذي قال يومًا في أحد حواراته الجريئة: **إنّ لذّة الكتابة مثل لذّة الجنس بالضبط، وربّما كانت أكثر خلوة منها.** لا نشعر بسحرها دائمًا حينما نشاؤها، نحتاج إلى قدر من الامتلاء بكلّ ما يحيط بنا من تفاصيل لا نراها إلاّ نحن، والتماهي في المطلق، حيث لا حدود تمنعنا من المرور عبر كلّ الحواجز القاسية والشفّافة. سبب ذلك كلّه؟ غير مهمّ. وحده سينو، كان يعرف سرّ هذا الخراب الذي يحيط بي، ويملأني إرباكًا وخوفًا.

«تخيَّل، حبيبي، إنسانًا يستيقظ ذات صباح، ويجد نفسه ليس هو؟

... ...

ـ تضحك يا مهبول!؟

ـ أضحك. أفضل من البكاء.

ـ يلعن دينك ما أبأسك...».

أنا أيضًا أضحك، لكن بمرارة، لأنَّنا منذ زمن ليس بالقليل، لم نعد نتذكَّر الشيء نفسه لنضحك ضحكة مشتركة افتقدناها بمرارة. هو يسخر من هبلي الفائت، وأنا تذكَّرت غريغوري سامسا[1]، المسكين، الذي أغمض عينيه إنسانًا سويًّا، واستيقظ حشرة بشعة. أحيانًا أراني تلك الحشرة التي تدور في مربّع صغير يكاد يقتلها اختناقًا. تتسلّق الحيطان، تتخبَّأ عبثًا بين أرجل الكراسي والأسرَّة والثقوب النتنة، بحثًا عن نجاة أصبحت رهينة الصدف. وعندما لا تجد الحشرة الضائعة منفذًا لها، تنزلق وراء الباب، تتكوَّم على نفسها بحزن شديد، وتنتظر متى تدوس قدم خشنة جسدها الهشّ، إلى أن تنام على عزلتها، داخل الكوابيس المرعبة.

ما الذي يجعلني الآن أختلف عن غريغوري سامسا؟ لا شيء. كلّنا ننتظر تلك القدم الخشنة التي تمسحنا على الأرض بوطأتها الخشنة.

ـ ٣ ـ

لا رفيق لي في السكريتوريوم إلاّ الصمت الموهن، وذاكرة لم تعد قادرة على تحمّل أثقالها المميتة.

حالة سكينة مريبة مثل تلك التي تسبق الموت، حيث يتسطَّح كلّ شيء، وتفقد الأجسام الصلبة أوزانها وأشكالها، وتصبح رخوة مثل قطرة زئبق.

« ـ كم من الوقت مرّ حتى الآن؟».

لا أدري. لا يهمّ. كلّ شيء تحوَّل إلى ذرّات تعوم في هذا الفضاء الواسع والرثّ. لا علم لي بالوقت، فأنا عندما رفعت رأسي نحو المنبّه لأوّل

١ ـ بطل رواية المسخ لفرانتز كافكا.

مرّة، لم أر إلاّ نقاطًا حمراء s... mn... h... تتراقص على خلفيّة سوداء، وشيئًا مبهمًا ظلَّ يتوغّل فيَّ، ويسحبني نحو هوّة الذاكرة وتمزّقها الذي أصبح من الصعب عليَّ ترميمه دفعة واحدة، ورتقه كما كنت أفعل مع الألبسة القديمة.

متعبة، ولكنّي لم أعد منشغلة بذلك، لديّ في أجندتي ما هو أهمّ.

أكتفي الآن بهذا الامتلاء الغريب الذي سبَّبه لي مرض سينو المفاجئ، ووقوفه فجأة على حافّة الموت، ثم دخوله في غيبوبة رأيته فيها ميتًا حتى بعد أن التقيت به خفية، في المستشفى. ربّما لأنّي قبل هذا الزمن لم أفكّر في موته بجدّيّة. ربّما لأنّي كلّما رأيته قادمًا من بعيد إلى مواعيدنا العديدة، بقامته المديدة التي تُرى من بعيد، شعرت أنَّه نصفي الضائع. لم تكن روحه في قدمه مثل آشيل، ولكن في مخبأ آخر، منفصل عنه تمامًا، حيث لا يد تلمسها غير يدي. كنت أظنّ أنّه مثل النجمة المسحورة التي لا تموت إلاّ لتعود ثانية، في شكل أكثر وضاءة وحياة. وكنت أظنّ أيضًا، أنَّه حتى لو قُدِّر لسينو أن ينطفئ، فلن يكون ذلك إلاّ موقّتًا، إذ سرعان ما يعود مثل طائر الفينيكس[1]، محمّلاً بنثار الحاضر، ورماد الماضي.

مرضه أحدث فيَّ زلزالاً عنيفًا غيَّر نظام الأشياء في حياتي المكرورة، وأيقظ هاجس العودة إلى كلّ مفقوداتي التي ضيَّعتها، بما في ذلك اسمي الذي لا أعرف إذا ما كان عليَّ أن أحقد على سينو لأنّه هو من غيَّره وفكّكه، أم أشكره لأنّه من اسم هارب وعادي، اسم لا دهشة فيه، إلاّ عشقه المجنون لنوار البنفسج، صنع عالمًا اشتهيته بسرعة لأنّه كان

١ - Le Phoenix.

يشبهني، لكنِّي كلّما اقتربت منه، انزلق من بين أصابعي كحبّات الرمل، ولم أتمكَّن أبداً من وضع وجه وملامح على اسمي.

كأنِّي لم أكن أنا؟

«يكفيني هبلي وجنونك الذي فيَّ، ورغبتي القصوى في الانتهاء من الكذبة التي سرقت حياتي. ولا يهمّ بعدها إن آذيتك. فأنا لا أقصد سوى أن أكون كما عرفتني في المرّة الأولى، بدون وسائط، ولا حتى كذب أبيض، ولا أقنعة، حتى ولو كان القناع جميلاً، واسمه مريم».

- ٤ -

لم أكن أعرف درجة الخطورة، ولكنِّي كنت أدرك أنّ الأمر جدّي. ولهذا عندما قيل لي إنّ قلب سينو توقَّف نهائيًّا، ثم عاد حتى بدون صدمات كهربائيّة، تهيَّأت فجأة لارتداء لباس الحداد الذي لم ألبسه منذ وفاة والدي.

رأيتني فجأة وراء جنازة غريبة، سي ناصر وسينو؟

شيء قديم يسكنني منذ طفولتي الأولى، لا أفهمه جيِّداً. كلَّما تدثّرت بالسواد، شعرت بلذّة غامرة لا أعرف مصدرها. ولا أستطيع أن أتفادى هذا الإحساس المربك حتى وأنا في عمق الحداد. عندما تراءى لي سينو في غيبوبته القاتلة، يعبر مسارب الموت بعينين نصف مفتوحتين، لم أمنع نفسي من هذا الشعور الغريب. ربّما هذا ما دفع بي إلى الزجّ به نهائيًّا في إغفاءة الموت، لكي أتمكَّن من العيش بعده كامرأة عاديّة.

علينا أن نقتل من نحبّ لكي نتمكَّن من الحياة بشكل مخالف.

أضحك أحيانًا من هبلي.

« امرأة ورقية تقتل كائنًا من لحم ودم؟ رهاني كلّه هو أن آكل رأس مريم قبل أن تأكلني. كنتَ الحقيقة الوحيدة، وكان قناعي هو الورق».

قد أبدو مجنونة؟ موته لم يكن فرضيّة فقط، ولكنّه كان حقيقة عشتها بقوّة جعلتني أستعيد كلّ ما خسرته: اسمي الحقيقي ليلى أو ليلي كما كان والدي يناديني، رسائلي التي أعشقها لأنّها أنيني الحقيقي وتاريخي، وجهه الطفولي الهارب، والانتهاء من امرأة اسمها مريم، أصبحت ثقيلة على قلبي.

لكنّ مرضه نبّهني أيضًا إلى وجودي وانتفائي.

«ربّما كانت رسالتك، عندما خرجتَ سالمًا من مركز العناية المشدَّدة، من مستشفى كوشان پول سان ـ فانسون، هي من أيقظ فيَّ هذا الإحساس الغريب».

"Tu me diras que c'est du cynisme? Peut être[1]... Mon ange! C'est juste une envie folle de retrouver ce vieux rayon, fatigué par le temps, qui ne cesse de briller sur cet amas de cendre".

قلتُ له منذ زمن بعيد إنّني مريضة به، وهذا وحده يكفي لكي لا يحمّلني شططًا جديدًا، ويجد كلّ أعذار الدنيا لتحمّل حماقاتي وجنوني.

ربّما معه حقّ في شيء واحد هو أنّ ما أفعله اليوم ليس صدفة طارئة، ولكنّي أفعله عن سبق إصرار وترصّد. حاجة حيويّة ووجوديّة.

أتساءل وأنا أعرف الإجابة، هل مرّت بذهنه يومًا فكرة موتي؟ أن يستيقظ مثلاً ذات صباح ويجد مكاني فارغًا؟ وعندما يفتح الخزانة

١ - ستقول عنّي إنّي شرّيرة؟ ربّما... ملاكي! مجرّد رغبة جامحة لكي ألمس ذلك الشعاع المتعب من فرط الزمن، الذي يستمرّ في إنارة تلك الكومة من الرماد.

السرّيّة، تواجهه ألبستي الشفّافة التي شهدت أعراسنا الجميلة، والمانطو الإيطالي الأسود الذي كان يعشقه، وفساتيني التي كان يشتهي شراءها كلّما سافرت معه، أو التقينا في مدينة ما تستطيع أن تحفظ أسرارنا. مدننا الجميلة هي فساتين وحماقات متتالية، ونسيان غريب أنّنا ننتمي إلى عالم نصنعه كلّ يوم قليلاً، وكما نشاء. حتى ولو لم نلتق كما نريد، فكرة وجودي حيّة، ولو في آخر الدنيا، تعطيه نوعًا من الراحة الداخليّة. هل مرّ بذهنه هذا الخراب؟ أستطيع أن أجزم: لا. أفهم ذلك جيّداً. لأنّنا عندما نحبّ، تنفتح في أوجهنا كلّ الأبواب الموصدة، بما في ذلك أبواب الحياة والقلب. باب واحد يظلّ مغلقًا لأنّنا نخافه، هو باب الموت.

«يومها هيّأتُ نفسي، من رأسي حتى أخمص قدميّ، لافتقادك، فأصبح جلدي مغطًّى بقشرة تمساح. لكنّي عندما واجهتُ المرآة، أحسستُ فجأة بمدى البياض الذي خلّفتَه وراءك وأصبح يلفّني، بدون أن أدرك هول الفجيعة التي كانت كلّ يوم تتوغّل فيَّ بعنف غير مسبوق».

فتحت صندوق الرسائل الخشبي، آخر موروثاته عن جدّه الأندلسي أيضًا، كأنّ سكّان منطقتنا كلّهم كانوا ضحايا محاكم التفتيش المقدّس. كانت رائحة شبيهة بعطر المنسيِّين، تخرج منه.

رسالته الأخيرة ما تزال في مكانها حيث وضعتها بعد أن أخرجتها من الصندوق. كان بها شيء غريب يصعب عليّ تحديده، يشبه الحياة والموت في الآن نفسه. ما تزال على الطاولة مستلقية في تعب ظاهر، غطّت بجزئها العلوي، رأس فوهة المسدس. كلّما أعدت قراءتها، ذكّرتني بأنّ شيئًا جللاً قد حدث فيَّ وفيه، غيّر نظامًا جنونيًّا استقرّ في حياتنا منذ أكثر من ربع قرن.

أقرأها باستمرار، أفلّيها فليًا، لا لأتأكّد من أنّه يحبّني، وأنّه ما يزال حيًّا، وأنَّ الصدفة والأقدار الجميلة منحته فسحة ضافية للجنون، ولكن لأوقف الزمن عند تلك اللحظة بالضبط، التي فجّرت فيَّ هويّة ظلّت ممزّقة بين أقنعة هاربة، وذاكرة أرفض أن تنمحي.

قلت له يومًا:

«اكتب لي حبيبي، يعجبني تطرّف مزاجك وأنت في حالة سكر، تبحث عن كلماتك الضائعة. رسائلك، فراشي الجميل. تدفئني من رعشة الخوف الباردة».

ضحك. ابتسامته جميلة لأنَّ بها براءة الطفولة الأولى. سينو لم يتغيَّر كثيراً. ظلّ هو هو، عاشقًا غارقًا برأسه داخل غيمة بنفسجيّة، وطفلاً يصعب ترويضه.

* * *

من سينو إلى ليلي

باريس، مستشفى كوشان سان ـ فانسون، ٣١ ـ ٣ ـ ٢٠٠٨

ليلي الغالية[١].

عمر الشقي لا ينتفي.

---

١ ـ كثيراً ما نشر سينو رسائلنا في رواياته، بعد أن يُدخل عليها بعض التعديلات. هذه الرسالة لم تُنشر سابقًا، ربّما لأنَّ سينو يريد، من وراء ذلك، أن يحافظ على سرّيّة ما حصل له في المستشفى، ويتحفَّظ على اقتسامه مع قرّائه. له كلّ الحقّ في ذلك لولا أنّه سبق له أن نشر أشياء حميميّة تخصّه وتخصّ غيره، مع تحويرات طفيفة في صلبها وفي شكلها، ممّا أعطاني بعض الشرعيّة لنشرها. قيمة هذه الرسالة هي في كونها أنّها تستثير نرجسيّتي الباطنيّة، وأنّها تحكي على أوّل صدمة فعليّة مع موت مفاجئ، لا يأتي هذه المرّة من الخارج كما في حالات شخص جاهل يريد قتلك، كما حدث لسينو عندما نشر رواية ضمير الغائب، أوّل مرّة، مسلسلة في جريدة المساء العاصميّة، أو كما في حالات الإرهاب التي تحدَّث عنها سينو في روايات عديدة، ولكنّ القنبلة الموقوتة هذه المرّة داخليّة، ممّا يورث حالة نفسيّة في غاية الصعوبة والقسوة. نستطيع أن نهرب من القتلة العاديّين أو من الإرهاب، ولكنّنا لا نستطيع أن نهرب من أجسادنا إلاّ بالموت والانتفاء.

لا أدري ما الذي يعيدني الآن إلى اسمك الأوّل بعد أن بدأت مريم تهرب منّي؟

اسم ليلي جميل، يذكّرني بوالدك الذي كان يناديك به قبل أن يموت منكسراً على كمانه.

ها قد عدت حبيبتي إلى لوني الجميل. الأزرق. هو مدادي، مثلما كان البنفسجي حديقتنا المليئة بالاشتهاء الجنون.

كلّ شيء هادئ في هذه الصالة البيضاء التي لم تعد تخيفني. شكراً على عنوان الإيمايل الذي خبّأته في كفّي. ملعونة[1] حتى في لحظة الموت. فقد منحني فرصة لكي أراك من جديد عبر كلماتك وحروفك الهاربة. أنا لا أعرف بالضبط هل زرتني، أم أنّ حلماً غريباً اخترقني، ويداً سحريّة وضعت في كفّي تلك الورقة. لا أعرف بالضبط ماذا حدث؟ ولكنّي عندما

---

١ - كلمة ملعونة يكرّرها سينو كثيراً حتى دخلت في لاوعيي وقاموسي، ولها معان بحسب اللحظة المجنونة المصاحبة لها. استغربت يومها أنّه لم يقلها لي ولا مرّة. ربّما يُفقدنا المرض كثيراً من ردود فعلنا الجميلة، لكنّي يومها خفت أن يكون شيء ما فيه قد تغيّر عميقًا. سينو هو هذه الأشياء الصغيرة التي إذا جُمعت بذكاء، أعطتنا ليس فقط تفكيره، ولكن داخله الذي يضجّ بالمتناقضات، الجميل منها والمتعب. أحيانًا أتمنّى أن لا أتذكّر ذلك اليوم لأنّه قاس، ليس فقط على سينو وعائلته ومن يحبّه، ولكن لأنّي وجدت فجأة في نفسي طاقة كبيرة وحماساً غريبًا للكتابة عن الأموات، أنا التي هربت طوال حياتي من العزاءات والجنائز. مخبئي في ذلك اللغة وليس شيئًا آخر. رأيته يموت، ورأيتني أكتب فيه أجمل النصوص التي اشتهيت دائمًا كتابتها. عودته إلى الحياة، أعادتني إلى وضعي، ووضع مريم، الذي رفضته دائمًا، وسأرفضه بشتّى الوسائل لاستعادة هويّتي المسروقة، واستعادته هو أيضًا إلى الحياة، ليس حياة الأدب التي سكنها نهائيًا، ولكن الحياة بكلّ بساطة، فهي أجمل وأحلى، لو فقط يدري... ولكنّه لا يدري.

استيقظت، لم أجد شيئًا إلاّ ورقة صغيرة كنت أشدّ عليها بأصابعي المنغلقة بإحكام، وكان عليّ ترويضها لأتمكّن من فتحها. تذكّرت بشكل ضبابي أنّي قلت لك اذهبي إلى البنك وخذي كلّ الرسائل التي تنام منذ زمن في عمق الصندوق الخشبي الصغير. خمّنت أنّك استرجعت كلّ شيء، خوف أن يسقط في دائرة الموت والنسيان. حسنًا فعلتِ، لست نادمًا أنّي وضعتك في عمق الألم الذي في قلبي.

ليلى الحبيبة.

الموت استعداد بطولي، ويومها لم أكن مستعدًّا للتخلّي عن الحياة. كانت هي رهاني الأخير. لم يكن لديّ شيء أخسره. فجأة نبت في دماغي يقين غريب، وهو أنّ ساعتي لم تحن بعد، وربّما أنّ كلّ ما حصل لم يكن في النهاية إلاّ بروفا اختباريّة لشيء أفظع.

مرّة أخرى تشاء الصدفة أن تضع الحياة في مسلكي الضيّق كلّ شيء كان يفترض أن يقودني نحو الهلاك، كما في المرّات السابقة، في ظروف مختلفة. كلّ الحسابات التي خمّنتها سلفًا كانت خاطئة. كنت أتصوّر مثلاً أنّي سأموت على يد مواطن معتوه يظنّ أنّي سرقت حبيبته من سريره، أو على لسان إمام أعمى وأطرش يفتي حتى في حقّ الملائكة التي لا تخجل من النوم مع الحوريّات، أو ربّما في طائرة ترتفع ثم تنسحب من الرادار نهائيًّا، أو حتى بسرطان ينفجر فيك كاللغم الموقوت، فلا أحد فوق الصدفة المميتة. ولكن أن يخدعني قلبي، فهذا لم أتصوّره أبدًا، على الأقلّ بالشكل الذي حدث معي. بيني وبينه علاقة مصالحة عالية وجميلة.

مع أنّ كل شيء بدأ في ذلك المساء بشكل هادئ ورائق.

يوم قبل الحادث، جريت في بارك لافيلات Parc La Villette أنا وابنتي صافو[1]. كانت سعادتي كبيرة بالركض على حافّة قناة الأورك Le canal de l'Ourc الاصطناعي. ثم رأيت معها معرضًا للمنحوتات العتيقة، واتّفقنا على أن نعود له بعد أسبوع، قبل أن يغلق، لشراء بعض القطع الجميلة التي سحرنا بهاؤها وبساطتها، ولم تكن غالية.

عندما عدت إلى البيت، ذهبت شهيّتي نهائيًّا. ثقل جسدي على غير العادة. سألتني صافو عن امتقاع لوني، قلت لا شيء، ربّما تعب الجري فقط. ثم صعدت إلى مكتبي. استحممت. شعرت بارتخاء جميل في الجسد. ثم انزويت قليلاً للعمل، قبل النوم، تذكّرت فجأة سلّة فضلات التغليف والكرتون، التي نخرجها كلّ ليلة أربعاء لتُفرغ فجر الخميس. لم تكن ثقيلة، لأنّها لم تكن تحتوي إلاّ على الكراتين والزجاج والأغلفة. لكنّي فوجئت بانقطاع في نفسي، وهو ما لم يحدث لي أبدًا في حياتي. قلت ربّما نزلة برد سببها أنّي عرّضت نفسي للهواء بعد حمّامي، بعد الرياضة. مع أنّ باريس يومها كانت جميلة ورائقة. عدت للعمل لكي أنسى. اشتغلت قليلاً على رواية: سوناتا لأشباح القدس، التي عذّبتني كثيرًا في علاقة ميّ مع الموت. مشكلتي أنّي عندما أتحدّث عن شخوصي، أعيشهم بامتلاء وكأنّ ما يحدث على الورق حدث بالفعل. الكاتب مثل الممثّل، إذا

١ ـ ليس من صافو المعروفة، ولكنّه مختصر صوفونيسب Sophonisbe (235 - 203) وهو اسم لملكة بربريّة. تزوّجت من سيفاكس، أحد ملوك نوميديا بامر من والدها لتمتين التحالف بين النوميديّين والقرطاجيّين. لكن ماسينيسا، الملك النوميدي الثاني، المتحالف مع روما، هزم سيفاكس وانتزع منه زوجته. وحتى لا تسلّم لروما مغلولة، قبلت صوفونيسب الزواج منه. لكن في ليلة زفافها، انتحرت وفاء لسيفاكس الذي ظلّت مرتبطة به حتى النهاية.

لم يعش دوره كحقيقة، سيبقى على هامشه. نمت. في الصباح لم أستطع أيضًا أن آكل أيّة لقمة. بدأت ألاحظ أن نفَسي بدأ يضيق، ودقّات القلب اختلّ نظامها. قالت لي صافو وهي تكتم بصعوبة قلقها: بابا، اعتذر عن محاضرة السوربون واذهب إلى الطبيب. قلت: لا تشغلي بالك، سيعود كلّ شيء إلى وضعه الطبيعي. على الساعة الثانية من نفس اليوم، الخميس، نزلت إلى العمل. لم أصل إلى محطّة الميترو، التي تبعد عن بيتي مسافة خمس دقائق مشيًا، إلاّ بشقّ الأنفس. تغيَّرت المسافات في ذهني، وأصبح ما كان قريبًا، بعيداً بآلاف الأميال. نمت في الميترو، وعندما وصلت إلى محطّة السوربون، نزلت. لم تكن هناك أيّة صعوبة بالنسبة للدرج الميكانيكي. فقد أغمضت عينيّ وتركتني أصعد وكأنّي كنت ذاهبًا نحو سماء طريّة وسخيَّة. لكن عندما وصلت إلى الدرج العادي، اختنقت أنفاسي من جديد.

كان المطر في الخارج يسقط بقوّة. وقفت قليلاً. تأمَّلت الدنيا بانتشاء غريب. شعرت ببعض اللّذّة الجميلة وأنا أتأمَّل تلوّنات الغيوم، وأشرب ماء المطر وهو يغسلني. ثم حاولت أن أمشي، شعرت بالعالم كلّه ينزل على صدري. تسارعت الأنفاس ودقّات القلب، وشعرت بالموت يكشّر تمامًا في المسافة الفاصلة بيني وبين الجامعة التي لم تكن تتعدّى في الحالات العاديّة الخمس دقائق. خطوت خطوة، خطوتين، ثم توقَّفت من جديد. مرّة أخرى تخذلني قواي. في لحظة ذهنيّة خاطفة، رأيتني ساقطًا على الرصيف الحزين، بالضبط تحت عمود الإشارات الضوئيَّة، نصف مغمى عليّ، والناس من حولي يتساءلون من أكون؟ ينشئون الإجابات الأكثر جنونًا وهبلاً. لا بدّ أن يكون مديراً في الإدارة، بلديّة الدائرة الباريسيَّة الخامسة ليست بعيدة من

هنا؟ لا.. لا.. ربّما يكون خوريًا بهذا المانطو كاشمير الطويل، وهذه القبّعة السوداء. الكنيسة ليست إلاّ على بعد خطوات قليلة. لا... لا... هذه الألبسة السوداء، وهذه القبّعة بهذا الشكل، هي الهندام الطبيعي للحاخامات الذين يمرّون دائمًا من هنا، عندما يريدون قطع شارع مونج[1]، باتجاه الكنيس اليهودي الذي يقع في الزاوية الخلفيّة من شارع موفتار[2] المكتظّ بالناس في هذا الوقت. لا هذا ولا ذاك... هو بكلّ بساطة أستاذ جامعي... ربّما، الشاهد في ذلك محفظته الثقيلة. الحائط الخلفي للسوربون على مرمى البصر. وتختلط الأصوات. ثم فجأة أراهم يفتّشون جيوبي للعثور على ما يمكن أن يدلّهم على هويّتي. يفتّشون في أرقام تليفوني النقّال الذي كان مرميًّا بالقرب منّي، ليوجّههم نحو شيء ما، كنت خائفًا من أن يُسرق التيلفون ولن يصلوا إلى إخبار صافو الوحيدة التي كانت ترافقني في البيت. ماسي[3]، ابني، كان في مونتريال، وهاجر، زوجتي، بالجزائر. أيقظتني من خيالاتي وانغماسي، حركة الناس الجماعيّة وهم يقطعون الطريق بعد أن أصبحت الإشارة الضوئيّة خضراء، والأمطار القويّة التي عادت إلى التساقط من جديد. فجأة شعرت أنّ بي طاقة مخزّنة، كانت هي الأخيرة، وكان عليّ استعمالها بمنتهى الجرأة والمقاومة، للوصول إلى الجامعة. لا أدري ماذا حدث لي، ولكنّي انطلقت، لا أسال عن نفسي الذي ضاق إلى حدّ الاختناق، ولا عن الاختلال الكلّي لدقّات القلب التي بدا لي أنّها توقّفت نهائيًّا، وأنّي كنت أعيش فقط بقوّة الدفع الخارجي. أؤمن أنّ في عمق كلّ إنسان شيئًا من بقايا طاقة جسديّة مشتّتة، عليه

---

١ ـ La rue Monge.

٢ ـ La rue Mouffetard.

٣ ـ مختصر ماسينيسا وهو اسم بربري لأحد الملوك النوميديّين في الجزائر.

تجميعها للذهاب قليلاً قبل الاستسلام النهائي. عندما دخلت إلى السوربون، شعرت براحة غريبة. ذهبت مباشرة نحو طبيب العمل، الدكتور بلانتيرو Plantureaux. عرف كلّ شيء من الفحص الأوّل. قال: أنت في وضع حرج، لا يحتمل التأخّر. كنت قد بدأت أدخل في حالة لذيذة من الغيبوبة، وأستسلم للبياض. اتّخذ قرارًا بتحويلي إلى مستشفى الأمراض القلبية. لم أسمع إلاّ بعض الكلمات الهاربة تتحدَّث عن انسداد في الشرايين، وهجرة (كلمة أسمعها للمرّة الأولى في هذا السياق) الجلطة نحو الرئة والقلب، وهو ما سيتسبَّب في السكتة في أيّة لحظة. بعدها انغمست داخل الفراغات، ولم أعد أفكِّر في شيء. بدأت أستكين داخل رواية نشأت معي لحظتها واستمرّت إلى يوم خروجي من المستشفى. كانت بطلتها شابّة في غاية الجنون والصراحة والقسوة والعنف، اسمها: إيروتيكا. جميلة وحرّة إلى درجة الهبل.

بقيّة التفاصيل تعرفينها جيّداً، ولا أريد أن أثقل عليك بها.

ليلي الغالية.

أشياء كثيرة تغيَّرت فيَّ.

زالت بعض الموانع من ذاكرتي، وانتابتني رغبة محمومة لكتابة نفسي قبل فوات الأوان. لا أعرف بالضبط السبب الأصلي الذي أعادني إلى اسمك الأوّل: ليلى، أو ليلي كما اشتهى والدك أن يسمِّيك. كنت مرتاحًا لمريم، وكان يؤثِّث ذاكرتي بالكثير من المحبّة والطمأنينة رغم قسوة الحياة. ربّما هي هزّة الموت تعيدنا بالقوّة إلى ذاكرتنا المدفونة في الأعماق، ربّما لأنّي اكتشفت

بعد رحلة ربع قرن معك، أنّه آن الأوان أن أعيد لك كلّ ما سرقته منك نصوصي، أو أعرتني إيّاه، اسمك أوّلاً. ليلى[1].

في السنوات التي مضت، كلّما كتبت عن الحبّ، كانت الرسائل لعبتي المفضلة في الكتابة على الرغم من كونها لعبة غير مأمونة المسالك. لم أفعل الشيء الكثير سوى أنّي استعملت حيلة الكتابة لأجعل من المستحيل ممكناً. في قلبي رسائل أشعر بالدهشة كلّما قرأتها، ولهذا ما أنشره في الروايات هو حقيقة محاطة بأجمل كذبة هي الأدب. الحبّ هو أجمل اكتشاف للإنسان، وإلاّ لكان مجرّد صخرة لا شيء يحرّكها سوى التآكل اليومي. الحبّ هو أيضاً تآكل عندما يخلو من الإبداع المستمرّ. هو معنى المعنى لحياة جافّة لم تعد تحفل

١ ـ ما يقوله صحيح، لكنّي أستغرب كيف تغيّر سينو منذ خروجه من المستشفى رأساً على عقب. شيء ما فتّت كلّ يقينيّاته السابقة وعوّضها بأشياء أكثر بساطة وأكثر دفئاً. أعاد لي اسمي الأصلي ليلى أو ليلي، لا يهمّ، ولكنّه تخلّى فجأة عن مريم التي كانت محور تأمّلاته. عندما كنت أقول له غيرها، قبل أن يملّ الناس وجودها في نصوصك، كان يجيبني دائماً: لا يمكنني أن أغيّر روحاً بروح أخرى. فقد عجن من خلالها كل شهواته وما اخترق ذاكرته. أصبح يقول الأشياء بصراحة أكثر لم أعهدها فيه، وهو الذي تعوّد أن يرتدي القفّازات البيضاء لكي يظلّ على حافّة الطيبة ولا يحيد عنها، حتى مع ألدّ أعدائه. أقول أحياناً ربّما بدأ يتدرّب على قول الحقيقة بمراراتها وألقها، لأنّه يستعدّ لكتابة سيرته. قال لي بأنّه سيسافر إلى نيويورك لكتابتها. فوجئت لماذا نيويورك؟ سينو يختار أمكنة الكتابة ولا يذهب هكذا بمحض الصدفة. قلت ربّما هناك امرأة أخرى سحرته وأعادته بسطوتها إلى ذاكرته؟ أو ربّما نيويورك نفسها ليست مدينة عاديّة، تزجّ بصاحبها في أعماقها وتتوّهه، وفي التيه يبحث سينو عن ألقه الغائب. مع أنّي نصحته أن يعود إلى قريته، نبعه الأول الذي بدأ يفتقده، ويبقى بجانب أمّه التي اشتاقت له كثيراً، فهو لم يبق معها إلاّ جزءاً ضئيلاً من عمره. يشبع منها وتشبع منه. وهناك يستطيع أن يكتب سيرته على حافّة البحر التي كبر على رملها. لم يجبني. عندما يصمت سينو ويحفر الأرض بعينيه، أعرف أنّي دفعته إلى تفكير آخر، قد لا يسرّه، ولكنهّ يشعر باستقامته وبضرورة تأمّله.

بارتجافاتنا الخفيّة أمام لحظة حبّ مسروقة، أو أمام لون وجه نكتشفه للمرّة الأولى. ليست ليلى ولا حتى مريم التي سرقت كلّ وجداني، هي امرأة واحدة، هي مرجع الحياة والحبّ واللّذّة التي ترفض أن تسقط في دائرة التكرار القاتل. ما الذي يقتل العلاقة غير الألفة والتكرار والدخول إلى الوظائفيّة والواجب؟ الحبّ كلّما دخل في الوظائفيّة تحوَّل إلى زواج مقنّع. أشتهي لو كنت أسنّ القوانين، أن أغيِّر نظام هذه الكذبة التي نعوم فيها جميعًا، أن أقبل بالحلّ الوسط ما دام الزواج مجرّد عقد. ليتَّفق الاثنان، المرأة والرجل معًا، على احترام الرباط الذي سيصبح مقدَّسًا، ولكن شرط احترام كلّ البنود، وربّما كان أهمّها حرّيّة تحديد مدّة الزواج، خمس سنوات مثلاً؟ عشر؟ أو حتى خمس عشرة سنة؟ ولتوضع في خاتمة العقد جملة مكتوبة بشكل نافر ومميّز: عقد قابل للتجديد في حالة واحدة، تراضي الطرفين. بهذه الطريقة يستعيد الحبّ ألقه، إذ لا يمكنه أن ينشأ خارج الإحساس العميق بالحرّيّة والصدق. غياب الحرّيّة في أيّة علاقة هو قتل لها.

ربّما كان الزواج خسارتنا الأولى، ولكنّه كان أيضًا تجربتنا العظيمة مع الحرّيّة. لم نخسر يا عمري سوى قيود الخوف واليقين الزائف. ستقولين بأنّي لم أتغيَّر كثيراً منذ أكثر من ربع قرن؟! تغيَّرت طبعًا، إذ زاد يقيني بأنَّ أكبر حماقة نمارسها هي الزواج، لأنّنا عندما ندرك خلل العلاقة، نكون قد خسرنا أشياء كثيرة، ربّما كانت الحرّيّة أولى وأهمّ هذه الخسارات، حتى ولو كانت مجرّد وهم. لكنّه وهم يضع الحياة أمامنا في ألقها ورعشتها المليئة بالحياة. قد تبدو علاقاتنا الفوضويّة والهامشيّة، حالات مرضيّة، وخيانات تستحي من ذكر اسمها، ولكنّها تحديداً إصرار يائس من أجل استرداد حرّيّة افتقدناها قبل سنوات، ونعوِّض الخسارة الواحدة، بخسارات أفدح.

أتوقَّف عند هذا الحدّ لكي لا أواصل في الأذى.

بشوق كبير. لك قلبي.

ما زلت، على الرّغم من الكسر العميق وتلصّصات الموت التي أصبحت متعدِّدة، وربّما لا تُحصى، قادراً على حبّك والانغماس في الجنون القديم نفسه. لسنا بعيدين أحدنا عن الآخر، كما يبدو لك، إلاّ بالقدر الذي يمنحنا فرصة لتخيّل جنون جديد، نلتقي مرّة أخرى من أجله.

أنتظرك على هامش أجمل وأخطر حافّة في الحياة، الحبّ.

لم أغيِّر توقيعي منذ بدأنا اكتشاف كتاب الأسرار[١].

..h ..mn ..s

- ١ -

«اسمي، ليس مريـ.......ـم. هل يجب أن أصرخ على الأسطح لكي تسمعني؟ لست مريم ولن أكونها. أنا ليلى. ليلي. قد لا تكون في اسمي أيّة إثارة، ولا أيّ استثناء، ولكن هذه هي أنا».

---

١ - تخفّى سينو أيّام الشدّة الصعبة، في تسعينيّات القرن الماضي، بعد أن تخلّى نهائيًّا عن اسمه الأوّل: سينو، وراء الكثير من الأسماء المستعارة، لزعر الحمصي لصهب، الذي يحيل إلى اسم طفولته. عزيز ياسين الذي اشتقّه من اسم أخيه الذي ترك فيه فجوة كبيرة بوفاته المبكّرة، وكان كثيراً ما يخلط مع اسم الكاتب التركي عزيز نيسن. القصص التي نشرها سينو وقتها في الصحافة الوطنيّة والعربيّة حُسبت على عزيز ياسين. ثم اسم إسماعيل حيدر الذي اشتقّه من أجمل صديقين له كان لهما كبير الأثر في كتاباته الروائيّة، السوري حيدر حيدر، والكويتي إسماعيل فهد إسماعيل. العديد من مقالاته السياسيّة والفكريّة دُوِّنت على امتداد الثلاثين سنة الأخيرة بهذا الاسم المركّب. في مراسلاتنا الخاصّة، كان اسم سينو هو توقيعه الدائم، ولم يغيِّره أبداً، ولم ينسه حتى وهو على حافّة الموت.

مر...يـ...ـم... أشتهي أن أمحو هذه الكلمة من كلّ القواميس، أن أفرغ عليها دلواً من الماء الساخن ومحلول الجافيل، وحكّها من ذاكرة سينو حتى أدميها لكي لا تعود أبداً. أن أمزّقها وأحوّلها إلى مجرّد نثار، ثم أرميها في عمق العاصفة، فقط لأتخلّص منها ومن عطرها الغريب، وأرتاح من سماعها نهائيًّا.

مريم لم تكن إلاّ استعارة قاتلة لضعف خفي أخفقنا في مقاومته. أنا ليلى، أو ليلي، كما سمّاني سي ناصر، والدي، أو كما يشتهي سينو أن يناديني خارج الكتابة، أو في فراش النشوة. اسمي العائلي لا يلهمني كثيراً. منذ البداية كنت أريد محوه والتخلّص منه، ولهذا سأتفادى ذكره. الأسماء العائليّة تضيف ثقلاً لا معنى له، وتحمّل غيرنا ما لا طاقة لهم به.

لا هدف لي من وراء هذه الحماقة التي أنا بصدد ارتكابها، ولا وراء هذا الجنون العاري المستبدّ بي، سوى وضع أشواقي الحزينة في مهبّ الأكفّ الناعمة التي تشتهي أن تدرك الغنى الكامن في أعماقي. أثق أنّه ما يزال في الدنيا من يريد الإنصات إلى الحقيقة التي أصبح حملها ثقيلاً. حدث لي أن أصغيت طوال ربع قرن إلى صوت سينو، هذا الرجل الذي أحبّني كما لم يحبّني أحد سواه، وأحببته وما زلت، لدرجة أنّي نسيت وجودي. أضحك منه أحيانًا عندما يحتضنني بشوق، فأتلاشى بين يديه كحفنة نور: أشوش في أذنه:

« **ـ يا مهبول؟ ماذا بقي لك منّي؟ هل تراني؟ لقد تلاشيت. ما خلّيت فيَّ والو.**

ـ لا عمري، أنتِ هنا، حيث تنتفين، وحيث لا وجود إلاّ للنور...».

يتفحَّصني بشفتيه جزءاً، جزءاً، من شعرة الرأس، العينين، حلمة النهدين، الصرّة، ملتقى الساقين... حتى آخر مسامّ في جسدي، فقط ليثبت لي أنَّني ما زلت بين يديه، وفي عمق كفّه، وأنِّي لم أتلاشَ أبداً. وكلَّما فشلت في مقاومة شهوة الجنون معه، ابتسمَ بمكر وتمتمَ في أذني بدوره:

« ـ هل أعاود الكرّة؟ كلّ شيء فيك يفضحك يا مجنونة.

ـ يكفي... أرجوك...»

أضحك، وأتمادى في غوايات هبله... جنوني.

ـ ٢ ـ

لست خائفة، ولا حتى متعبة.

الوقت يمرّ بشكل ضبابي. يقذف بي بعيداً نحو زمن لم يعد لي ولم أعد له. أشياء كثيرة فيَّ، تحرَّكت كلّها كالسيل الجارف، لتضعني أمام أقسى مرآة في الدنيا: مرآة الحياة، ولم تمنحني حتى فرصة تأمُّلها واحدةً واحدةً، قليلاً، ومحاولة فهمها.

ما زلتُ في وضعي الأوّل نفسه. لم يتغيَّر أيّ شيء في زاوية النظر التي أرى منها الأشياء. لا شيء في الخلفيّة السوداء للساعة الإلكترونيّة إلاّ علامات الساعة بدون ساعة، والدقائق بلا دقائق، والثواني بلا ثوانٍ h... ...mn ...s

لا أرى الوقت جيِّداً، ولكنَّني أكتشفه. أحسّ أنَّه فيَّ مثل المبهم الذي يسكنني كلّما اختلّت علاقتي بالحياة أو اهتزّت، منذ أن توقَّف

العـزف على الكـمـان ولم يبق إلاّ صـوت سـوزان لونـدينغ يملأ هـذا الخـواء المفجع.

المسدّس البارد، في مكانه، وليس في مكانه. يظهر ويغيب. يعلن، من حين لآخـر، عن وجـوده الظاهر كـلّـمـا حـرّكت ورقـة من الأوراق التي تحيط بي. يتخفّى للحظة، ثم يقفز فجأة من تحت الأوراق وكأنّ هناك قوّة باطنيّة تسحبه ثم ترميه من جديد على المكتب ليذكّرني بوجوده.

لم أكن أحلم.

فكرة وجـودي في هذا المخبـأ الذي سـمَّـيتـه السـكريتوريوم ليـست مهمّة، ولكنّهـا ليست عبثيّة أيضًا. طبعًا، أنا أدرك سلفًا أنّ هذا المكان لن يحميني من قصف نووي محتمل، ولا حتى من نفسي التي تضخّمت هواجسهـا، ولكنَّه يوفّر لي حالة انفـصال عن المدارات التي عشـت فيـهـا حتى الآن.

لم أكن أعـرف أنَّ سينو كـان مـتـوغّـلاً فيَّ إلى هذا الحـدّ، ولـم أكـن أعرف أيضًا أنّي قادرة على التخلّي عنه للموت بسهولة غريبة. هزّة افتقاده كانـت عنيفـة إلى درجة أنّها أعادتني إلى نفسي، ولم تُعدني إلى صوابي. أخرجتني من سكرة جميلة كنت فيها، ورمتني في أتّون نار قاسية كان عليّ مواجهتها وتحمّلها بصبر سيزيفي. في الحبّ، مثلما في الشمس والأرض، نواة ملتهبة، لا ندري متى تنفجر مخلّفة وراءها ما يصعب جمعه، وفهمه، وحتى رتقه.

فجأة لم أستطع كتم ضحكة حزينة شعرت بها تأتيني من بعيد.

هذا هو سينو الذي اشتهيته، بألوانه الجميلة وبرغبته الطفوليّة في التسطير تحت كل شيء. هذه الورقة الصغيرة له. أعرفها من لونها الوردي

وخطوطها المائلة. فيها صرخته الأولى مثل الطفل الذي خرج من رحم أمّه وهو لا يعرف شيئًا عن عالم كان عليه أن ينتزع فيه حقّ وجوده. لم أنتبه، إلاّ بعد زمن بعيد، أنَّ صرخته الأولى تلك كانت مكتومة. أتذكَّر جيِّدًا حتى اللحظة التي وضع فيها تلك الورقة المرتعشة بين يديّ، ثم انسحب وهو يبحث عن مهرب لعينيه الخائفتين منِّي... أو ربّما من ردّة فعلي.

يحبّني، ويريد أن يبقى في ظلِّي حتى في حالة الخيبة.

-٣-

لم أكتب له يومها شيئًا كبيرًا. كنت تحت وقع الدهشة الجميلة.

في أسفل ورقة زرقاء اللّون رسمت كلمة من خمسة أحرف، داخل مربّع أسود، وأربعة ألوان كما في طفولتي الأولى. لم أكن أدرك يومها أنَّها ستضعني بين يديه كالفاكهة الناضجة: أحبُك. الحرف الأخير كان رماديًّا مثلي، لأنِّي في لاشعوري، كنت مثل طفلة مهووسة بعشيقها، أرسم دائرة ستأسرني، وستنتهي بي إلى موتي. لم أكن بحاجة لشيء آخر سوى أن أقول له أنا أيضًا ما كان في قلبي. لم تقنعني طريقته، لأنَّ شجاعةً ما كانت تنقصها. أعتقد أنَّ هذا النقصان صاحبنا على مدار أكثر من ربع قرن من الجنون والهبل.

«هل تتذكَّر يا مهبول ماذا حدث يومها؟ وماذا كان يمكن أن يحدث لو كنتَ شجاعًا قليلاً؟ ربّما تكون قد نسيت كلّ هذه التفاصيل؟!».

فجأة وجدتني ممتلئة به. مرّ الليل عليَّ بصعوبة. كنت خائفة من أن أموت ولا أقول له ما كان في قلبي. في الصباح جئته مباشرة بعد درس الموسيقى، على ظهري كمان والدي. كنت مثل التروبادور الضائع. وقفت

بمحاذاته، عند مدخل مدرج الآداب، في جامعة وهران، وكأنّ شيئًا لم يكن. مددت له يدي. اقتربت منه. تماسكت، على الرغم من أنّ كلّ شيء فيّ كان يرتعش بقوّة. ثم وضعت وجهه بين يدي وقبّلته تحت تصفيق الطلبة وكأنّنا كنّا في مسابقة لأطول قبلة. احمرّ وجهه حتى كاد ينفجر، ولكنّه كان سعيداً. ثم أخذته من يده، ووقفت أتأمّل ردّة فعل الطلبة الذين ظلّوا صامتين مضمرين سعادتهم أو حقدهم. أخرجت الكمان من غمده. وضعته بالضبط في مكانه المعتاد، تمامًا تحت الجهة اليسرى من الذقن، المكان الأقرب إلى القلب. مددت أناملي نحو ذراع الكمان، سحبت قليلاً في الفراغ لدوزنة الصوت، ثم بدأت أنحت شوقًا دفينًا. عزفت على إيقاعات موزارت الحزينة والمنكسرة، وهايدن. كان الجميع ينظر إليّ بدهشة. لم يروني من قبل بهذا الجنون وهذه القدرة على استحضار أجمل النوتات المسروقة، من أحلى سيمفونيّات العالم. ثم غنّيت له ما لم يكن يشتهي سماعه لحظتها. أعرف حساسيّته المفرطة تجاه فيروز. كنت قاسية على قلبه لا لشيء، إلاّ لكي يحبّني أكثر:

... يا حلو يا حبيبي

اللي ما انبيعك بالدني،

وكل سني (يا سينو **) بحبّك أكثر من سني.**

تأمّلته بملعنة. رأيته في الأقاصي، مغرمًا كطفل يبحث عن يد تقيه من النور الحادّ للحياة الذي كان يغرقه في البياضات المتماهية. أتساءل اليوم إذا لم أكن أنا أوّل من سرق عذريّة سينو الخجولة، وطفولته القرويّة البريئة والخائفة من شيء لم يكن مهيًأ له بالشكل الكافي؟

في المساء أخبرته بشيء مهمّ بالنسبة لي، لم أشعر أنّه أفرحه كثيراً!

« ـ سأترك الجامعة وأذهب إلى الكونسرفتوار. أنا أُضيِّع وقتي في هذا المكان. أريد أن أتعلَّم العزف على الكمان، على الأصول، كما كان والدي يفعل معي. منذ أن غادر هذه الدنيا وأنا أدور في الفراغ كالساعة المجنونة.

ـ أنت تعزفين جيِّداً، ثم إنَّك تتعلَّمين في النادي الموسيقي للطلاّب؟

ـ لا يكفي. أريد أن ألتحق بالفرقة الفيلارمونيّة للأوبرا، بعد سنوات. لهذا، عليَّ أن أجتهد إلى أقصى الحدود. حلم بابا سي ناصر، اللّه يرحمه ويوسّع عليه».

أبي الذي كان مريضًا بالموسيقى، ومسحوراً بالعزف الدائم، أصرَّ على أن يجعل منِّي شبيهه قبل أن تسرقه منِّي أزمة قلبيّة. هشّمته قبل أن تسحبه نهائيًّا. كلّما عزفت، بكيته. لا يمكنني إلاّ أن أتذكَّره. كان أهمّ عازف في البلاد، ولكنّ البلاد لم تأبه به حتى مات. لم يكن الوحيد في محنته. عندما تذكَّروه، سلّموا لنا ميداليّة المجاهد النحاسيّة، وشهادة باردة، نظير نضاله من أجل استقلال بلاده. لم نعد نتذكَّر، لا أنا ولا أمّي، أين وضعناها. تخيَّل، كان عضواً في الفرقة الفيلارمونيّة لأوبرا غارنييه، بباريس، في ذلك الوقت المتقدِّم، قبل أن يغادرها إلى المغرب، ومنها إلى جبال فلاوسن، ويكوّن مع مجموعة من أصدقائه فرقة موسيقيَّة عزفت أوّل نشيد وطني في الجبال والعواصم العربيَّة. بعد الاستقلال، نُسِيَ أنَّه موجود، وعندما تذكَّروه، وظّفوه كمدير لفرقة الحرس الجمهوري النحاسيّة، المكلّفة بعزف أناشيد ضيوف البلاد من الرؤساء والملوك واللصوص والقتلة، في المطارات. كان يحلم أن يعيد أوبرا وهران إلى الحياة. مع الزمن، تعب من هذه الوظيفة الميتة التي لم يقتنع بها في أيّ يوم من الأيّام، فاستقال متنازلاً عن كلّ شيء، حتى عن سنوات عمله ونضاله، وعاد إلى كمانه حتى مات منكفئًا عليه.

« ـ منْ مِنْ عظماء هذه البلاد أخذ حقّه؟ لا أحد. كلّهم ماتوا في مرارة العزلة».

قال سينو بمرارة كبيرة تبدَّت على ملامحه، وهو يخفِّف من شجني.

ثم نظر إليّ بعينين مدوَّرتين، مليئتين بالخيبة. تذكَّرت أنّه كان ينتظر منّي جوابًا على اختياري الكونسرفتوار بدل الجامعة.

« ـ لمَ الحزن عمري؟ ألم تقل لي يومًا إنَّ صوتي يصلح للأوبرا، وإنّه يمكنني أن أكون سوبرانو في أرض أصبحت أبرد من قطعة ثلج؟ وإنّ مكاني غير هذه الجامعة المبتئسة؟ وقلتَ لي أيضًا إنّ عزفي ليس عاديًّا؟ الكونسرفتوار ليس بعيداً من هنا، ويمكننا أن نلتقي متى شئنا. ما يزال لدينا متَّسع من الوقت لشتّى الحماقات قبل الالتحاق النهائي به! ».

ابتسم ولم يقل شيئًا.

ـ ٤ ـ

اليوم، لم يتغيَّر سينو كثيراً. كلَّما قرأت رسالته الأولى التي سرَّبها لي بخجل، وجدته طفلاً مرتبكًا يبحث عن مسلكه الصعب في جنّة الحبّ المبهمة. كان خائفًا من فقداني، ومن كلمة صغيرة يقولها بصوت عال: أحبّك. وربّما كان يحتاج إلى شجاعة أكبر ليتمكَّن من قولها حتى ولو كلّفه ذلك فقداني.

«آه لو كنتَ تدري أيُّها الأحمق الذي لم يتعلَّم إلاّ قليلاً من خساراته؟ كان يمكنك، لو لم تكن أهبل، أن تربحنا الكثير من الوقت. ولكنَّكَ فضَّلتَ أن تكتبَ أشواقك بدل أن تقولها وتعيشها بجنون طفل لا يقدّر عواقب كلامه مطلقًا».

الغريب أنِّي اليوم أقرأ تلك الرسالة بالأحاسيس نفسها، والخوف نفسه، ولا أستطيع حتى أن أمنع نفسي من الارتعاش كالدمعات اليتيمة على وجه مراهقة.

لا شيء تغيَّر. الإحساس نفسه والرجفة نفسها. سوى أنِّي، هذه المرّة، لم أبك حبًّا فقط، ولكنِّي بكيت أيضًا على فقدانه.

أحبُّك

رسمتها كما في كرنفال طفولي، عرسًا من الألوان.

« أحمق ومهبول. لو لم تقلها، في ذلك اليوم بالضبط، وفي تلك الثانية، كنت سبقتك إليها».

* * *

من سينو إلى ليلي

وهران البهيّة، شتاء ١٩٧٨

ليلي...

أختي العزيزة.

ياه! كم أصبحت كلمة أختي ثقيلة ومرهقة بالوهم. بدءاً من هذه اللحظة لن أستعملها.

لم تعودي أختي منذ أن خادعت قلبي وكشف لي عن سرّه الخفي.

فجأة تتدفّق مدينتنا في كفّي كالمياه العذبة. تغرق في الأسئلة الجميلة. ماذا لو كنتِ هنا، حيث شهوة القلب؟ ماذا كانت ستعني لك وهران؟ مدينة الملائكة والقتلة والهاربين من محاكم التفتيش المقدّس، والمحتالين، والعلماء الهاربين من سلطان الحكّام المرضى؟ هل أجدادي هم من بناها، أم مضطهدو أجدادي؟ من شيّد إذن على أعلى قممها سانتا ـ كروث[1] التي تسرق كل

١ - Santa - Cruz.

حواسّي بنورها وألقها، ليقنعني بأنّ تاريخًا مرّ من هنا ومحا عذريّة المدينة؟ أعرف الآن فقط لماذا حبّي لهذه المدينة هو بنفس قدر نفوري منها.

بعد كلّ هذا، لا وجه في المدينة، إلاّ وجهك. أنت وهران؟ أنت سانتا ـ كروث؟ أنت غيمتها الجميلة التي تغطّي أعاليها وتُرى من بعيد. أنت المدينة الجديدة؟ أنت الكوريدا؟ أنت مقام سيدي الهواري الطيّب؟

لم تعودي أختي بعد أن أصبحتِ فيَّ، ولم تتركي مساحة أخرى لغير التفكير فيك.

انتظري قليلاً أيّتها العزيزة، لي سرّ في القلب أريدك أن تسمعيه. لا أملك أن أقوله لك بصوت مسموع. سيوشوش قلبي في أذنك بعد قليل.

أحتاج إلى دربة كبيرة لكي أصل إلى الكلمة الصغيرة التي تتراقص فوق لساني وتخاف من أن تخرج، وأن تتنفّس قليلاً هواء الطبيعة. ربّما كنت خائفًا من شيء غامض فيَّ، ولكنّي، في هذا المساء، سأتشجّع أمام الحقيقة التي أخافتني دائمًا ودفعتني إلى أكثر المسالك صعوبة، مع أنَّ الحقيقة هي أخفّ ما يمكن للمرء أن يقوله لغيره، خصوصًا إذا كان هذا الغير أنتِ.

يمكنك الآن أن تقولي عنّي ما تشائين، هامل؟ ضايع؟ صايع؟ مهبول؟ لقد أقفلت اليوم السنة العشرين من عمري، وأصبحت بفعل القانون بالغًا وأستطيع أن أقول لك ما يملأ قلبي منذ زمن بعيد، وصرتِ أنت امرأة ممتلئة بالحياة وحنين الكمان.

«أكبر منك بسنتين عمري، واللي فايتك بليلة، فايتك بحيلة!؟».

لا أريد أن أعضّ على يدي كما كان يفعل أجدادي الأندلسيّون لحظة الندم العميق، إنّي لم أتكلّم في الوقت الذي كان يجب عليّ أن أصرخ فيه أمام الملأ: أحبّك.

لا يهمّ، لم أعد قادراً على الاستمرار في الدوران الخفي.

البارحة رأيتك في حلمي. غارقة في كتلة من الضباب البارد، مثل الندى. كنت تحتضنين كمانك، بالقرب من الشجرة التي تخترق ساحة الجامعة، وكنت تعزفين وتتلوّين بقسوة. وكنتِ كمن يحفر جرحًا عنيداً في أعماقي. عندما رأيتني حزينًا، قلتِ: تعال. قلت لك إلى أين؟ قلتِ: أسوأ سؤال يطرحه رجل على امرأة تريده هو: إلى أين؟ لا تكن غبيًّا. أغمض عينيك قليلاً فقط، وبعدها افتحهما بهدوء. وتركتك تقودينني. لم أشعر بطعم قبلة مثلما شعرت به في تلك الليلة. كانت شفتاك دافئتين وشهيّتين. وعندما فتحت عينيّ، كان شعاع الصباح قد اخترق المكان وأمّي تناديني من المطبخ: سينو... قم... الشاي جاهز. جرّبت أن أنام فقط لأحبّك أكثر ولكن عبثًا، فقد كان نور الصباح قويًّا ومعميًا بعد أن شرّعت يُمّا أبواب البيت والنوافذ.

ليلى. هل أجرؤ الآن وأقول حبيبتي؟

حبيبتي. ها أنا ذا قد تجرّأت وقلتها.

هل أمتلك حقّ اختراق طفولتي التي ظلّت تعاند لكي تخبّئ شوقها إليك؟ لم أعد قادراً على إغلاق القلب على كذبة الأخوّة والمثل العليا التي سطّرناها بغباء أنا وأنت، فقط لنتقن ربط أنفسنا بشيء كان كل يوم يزداد انغلاقًا علينا مثل الكمّاشة. لقد كثرت الحواجز التي وضعناها في مسالكنا، وعليَّ الآن تكسيرها واحداً واحداً إذا منحتِني بعض الحقّ على قلبك. حتى ولو قضيت العمر كلّه ضائعًا في التفاصيل الحادّة، كمفكّك ألغام.

سأتوقّف عند هذا الحدّ، ولن أزيد كلمة أخرى يمكن أن تسرقك منّي إلى الأبد.

أحبّك. هل أخطأت؟

كلّ شيء فيَّ يقودني نحوك ولا سلطان لي سوى أن أقف عند رجليك، وأحني رأسي وأتمتم: أحبّك ليلى. أحبّك ولا شيء سوى ذلك. إذا كان لكلامي صدى في قلبك، حاولي، عندما تمرّين بالقرب منّي، أن تفعلي ما فعلته ودعة مشتتة سبعة[1]، أشّري لي بمنديلك الأحمر من بعيد، سأعرف أنّي في قلبك، وسأركض نحوك حافي القلب والقدمين، وإذا كان العكس، اعبري ونكّسي رأسك، بلا تحيّة، وسأعرف من تلقاء نفسي أنّك لست لي. وسأخرج من حياتك، لأنّي عاجز عن فعل شيء آخر غير حبّك.

هذا هو أنا.

رسالة الحبّ الأولى قد تكون هي الرسالة الأخيرة عندما تصادفها الموانع. وقد تكون فجراً لشوق سيندفع كالبحر.

أحبّك وأنتظر تلويح المنديل الأحمر، عندما تمرّين بالقرب منّي.

أنتظر...

---

١ ـ حكاية شعبيّة محورها شخصيّة ودعة وحيدة إخوتها السبعة.

04h 04mn 04s

- ١ -

« ـ هي بالضبط، وكأنّي حسبتها بدقّة مهندس معماري؟ ».

لم أعد أؤمن بالصدفة. كلّ شيء، في هذه الدنيا، مرتّب سلفًا.

عندما رفعت عينيّ المتعبتين من كثرة الكتابة والقراءة، هذه المرّة، لمعت أرقام الساعة الإلكترونيّة الحمراء، في استقامة. ذكّرتني بشيء غامض لم أدركه جيّدًا؟ بتاريخ محدّد؟ باحتفال ما؟ بموعد مهمّ؟ أو ربّما بيوم فقدان؟

لا يهمّ. عندما تستقيم كلّ الأرقام، ذلك يعني أنّ شيئًا خفيًّا فيّ قد تحرّك بقوّة.

الكمان غارق في جبروت الصمت والعزلة. لم أعد قادرة على العزف الآن على الرغم من رغبتي الكبيرة لفعل ذلك. أصبح الآن الكمان بعيدًا عنّي قليلاً، لكنّ موسيقى سوزان لوندينغ، في الكمبيوتر، لم تتوقّف أبدًا.

تحسّست المسدّس من جديد. بارد كقطعة ثلج. لم أكن أعرف تحديداً لأيّ سبب هو هنا، لكنّه هنا، ولا بدّ أن يصلح لشيء ما، غامض في رأسي. سبع رصاصات في داخله، محشوَّة بإتّقان، لا تنتظر إلاّ من يضغط على الزناد. حسبتها قبل قليل وتأكّدت منها. سبع رصاصات نحاسيّة مختومة برؤوس صغيرة تشبه اللعب القاتلة. أراني رياض، زوجي، منذ عشريّة التسعينيّات الحارقة، مكان المسدّس، وعلّمني كيف أفتحه عند الضرورة لتنظيفه وأعيد تركيبه، وكيف أدافع به عن نفسي وعن ابني. وضعه تحت تصرُّفي بعد أن وفَّر له الكارتيل مسدّساً أوتوماتيكيًّا من نوع ميكرو عوزي[١] كان يطلبه دائماً، وحصل عليه متأخِّراً قليلاً بفضل إصراره، كما يقول. الكارتيل لا يلتفت للصغار إلاّ نادراً.

« ـ متأخِّر أحسن من لا شيء، في عالم يزداد كلّ يوم ضراوة. مسدّس ميكرو عوزي مفيد وأحتاجه أكثر. وضعي غير مأمون في هذه الحرب الأهليّة الخفيّة الطاحنة، التي لا تعلن عن اسمها. قوي وسريع. طوره عوزييل غال[٢] منذ ١٩٤٨، من سلاح تشيكي قديم نسبيًّا شبيه له SA 23 وSA 25 يحمل من ٢٠ إلى ٣٢ رصاصة من عيار ٩ ملّمتر برابللوم. ما يكفي لإبادة فيلق من الأعداء. يوفِّر ثقة كبيرة لصاحبه. به أشعر أنّي رجل ونصف».

يذكِّرني دائماً بمثله المفضّل: عضّة من الذئب، وما تطلقوش سالم.

هذه المرّة، وربّما المرّة الوحيدة، سيكون الذئب هو أنا، وربّما أنت أيضاً.

---

١ ـ Micro Uzi.

٢ ـ Uziel Gal (1923-2002).

أنين سوزان لوندينغ يأتيني حزينًا ومتوحِّدًا مع العزلة. لا بدّ أن يكون ذلك من عمق قلبي وجرحي الذي أكتشف كل يوم اتّساعه مثل زلزال يخترق الأرض في عمقها، وربّما كنت الوحيدة التي تسمعه. أهيِّئ نفسي لاستقبال جرحي وصرختي الأخيرة، وأضع أمام الجميع أسرارنا التي ليست كلّها جميلة.

أليست هذه عضّة حقيقيّة؟

ـ ٢ ـ

أفشيك سرًّا! هل تدري حبيبي أنِّي قتلتك بلا تردُّد؟

لم يكن ذلك للمتعة. فلا متعة لي في قتلك، لأنِّي وقتها سأقتل نفسي أيضًا. ولكن فقط رغبة في التخلُّص منك لرؤيتك من جديد، ولأعثر على نفسي الضائعة في كفّك الخفيفة، مثل نسمة فجريّة. أحبّك، ولكنِّي أحبّك أكثر عندما أجدك تمامًا كما اشتهيتك. سرقك منِّي عملك، حروفك، أسفارك، زواجك، جنونك، نساؤك، أوهامك. ما لم أتحمَّله، أن تسرقك منِّي مريم. كلّما اشتقت إليك، وجدتك في دفء هبلها وجنون أبجديَّتها السحريّة، وحتى في فراشها. قل عنِّي مهبولة إذا شئتَ؟ أنا نفسي، أتساءل أحيانًا عن هذا الانقلاب الغريب في الأدوار؟ كيف يصبح الأصل فرعًا، والفرع أصلاً؟ شيء في الدنيا يسير على غير هديه المعتاد.

بإمكاني اليوم أن أعود إلى فراشنا الوحيد، المشترك والأجمل والسرّي للغاية: رسائلنا. هي حياتنا المخبوءة ودليلنا في ظلمة مسالك هذه الدنيا القاسية. نورنا في مسارات اليأس والاستحالات المفجعة. أسألك

اليـوم، وأنا اقـرأها للمـرّة الألف، عن حـجم الخسـارات، والحمـاقـات التي ارتكبـتَـهـا في حـقّنا. كـان يمكنك أن تختـزل علينا شقـاء أكـيداً. لقـد أخرجتُها كلّها قبل ساعات، فقط لأشعر أنّي ما زلت موجودة على هذه الأرض التي بدأت تتخلّى عنّي، وأنّي ما زلت مشتهاة كأيّة تفّاحة ممنوعة. وأنّي بكلّ بساطة، حبيبتك التي تملأ قلبك.

قد يكون ذلك بعض جنوني أو كلّه، فأنا لا أتذكّر يومًا كنت فيه عاقلة.

أريد أن أصفّي حسابي، كل حسابي مع الماضي. سأضطرّ إلى أن أفضح مَنْ وَضعَ ذات يوم سرًّا جميلاً في كفّي، وفي عمق جسدي، وأمّنني عليه. وعندما فتحت كفّي وعبرت جسدي، أدركت أنّ الحمل كان ثقيلاً. فقد حوّلني بلمسة لغويّة سحريّة، إلى إيقونة سمّاها مريم، أفرحتني وقتها ألوانها الجميلة وزخرفاتها. أسعدت الكثير ممّن صادفني في روايات سينو بجنون لا أُحسد عليه، قبل أن يتحوّل كلّ شيء إلى كابوس أكلني وأفرغني من الداخل، ثم ملأني بالهواء الساخن وطوّح بي بكلّ قواه، نحو سماء فارغة. أعترف بمسؤوليّتي الكاملة في اللعبة. قبلت بمحض إرادتي أن أنسحب من المشهد، مقتنعة بأنّي صرت فوق الحالة، متخلّية عن اسمي لصالح امرأة ورقيّة أكلتني، ولم أعد اليوم قادرة على تحمُّل وجودها معي في الفراش نفسه.

اكتشفت فجأة أنّي كنت أنا المرأة الورقيّة الميّتة، وكانت مريم هي سيّدة الحياة كلّها. كيف سرقت الحياة منّي بدون أن أتنبّه لذلك؟ تلك مشكلتي معها وعليَّ أن أحلّها وحدي، وبوسائلي الخاصّة.

لا تقلق... لسنا إلاّ في البداية. سأُتِمُّ جنوني كما خطّطت له. لقد ركبتُ رأسي، ولن يقف شيء في طريقي.

- ٣ -

السكينة تلفّ السكريتوريوم، وكلّ ما يحيط به.

كلّ شيء هادئ كما في جبهة حربيّة بعد قتال عنيف.

في الطابق الأوّل، كلّهم نيام.

صغيرتي ملينا نامت مبكرًا. اثنتا عشرة سنة، عمر النور والحبق والبنفسج البرّي المعطّر. كأنّها كانت تعرف أنّي كنت بحاجة إلى الخلود إلى نفسي. تأمّلتها قبل ساعات، كدت أصرخ وكأنّي أكتشف ابنتي للمرّة الأولى: سبحان الله؟ العينان اللوزيّتان نفسهما، الشفتان المرسومتان بإتقان، اليد نفسها بأصابعها الناعمة والطويلة. الجسد نفسه المستقيم والفارع أيضًا. العطر نفسه الذي ينبعث من جسدها. سنوات عمرها الهشّة، لم تزدها إلاّ انجذابًا نحوه. كنت أعرف أنّها ابنته وشبهه الصميم، ولكن ليس إلى هذا الحدّ المخيف؟ قالت لي قبل أن تنام: ماما حبيبتي، هل ستنزلين إلى الكهف؟ طمأنتها أنّي سأظلّ بجانبها، وأنّي سأظلّ بين فوق وتحت. لديّ رغبة للكتابة لا أستطيع مقاومتها. قالت: **لا يا ماما حبيبتي. خلّيك بالكهف. أعرف أنّك هناك ترتاحين كثيراً. معي خويا يونس. وإذا حكيت مع عمّو سينو، سلّمي لي عليه**. كانت تعرف كلّ شيء. أو ربّما، كانت تحسّ بكل ما كان يعتريني سرّيًا، ويبدو عميقًا في عينيّ. أرى ذلك كلّه في نظرتها، ملمسها، أحاسيسها، ولغتها الخفيّة التي تبقى في داخلها.

يونس، ابن أبيه. رياض يحبّه كثيراً ويشعر أنّه وريثه الشرعي. يشترك معه في الكثير من التصرُّفات الغريبة. يقلّده حتى في غضبه. يعرف جيِّداً أنَّه مثار اهتمام والده. نام على جرح هو وحده كان يعرف سرّه. إنّه في عمر الهبل. سبع عشرة سنة. لقد أصبح عاشقًا، وأشعر

بشططه بقوّة هذه الأيّام. كان يريد أن يتخطّى كلّ العتبات والموانع، ولكنّ شيئًا فيه لم يُحسم بعد. نام باكرًا هو أيضًا، على غير عادته. سألني قبل أن يغمض عينيه: يمّا عندك حبّة دوليبران[1]؟ رأسي يكاد ينفجر. جئته بكأس ماء. شرب الحبّة، ثم نام.

رياض، زوجي، سافر إلى أندونيسيا، ومنها سيسافر إلى كوريا الجنوبيّة من أجل صفقة سيّارات. شأنه التجاري أصبح يشغله عن كل شيء آخر، وبقيت وحدي. عرف في وقت مبكّر أنّ دكتوراه الاقتصاد السياسي لن تفيده في الشيء الكثير. لم يتلفن لي، ولم يسأل كثيرًا عنّي. هو يكرّر عليَّ أسطوانته باستمرار: **Pas de nouvelles, bonnes nouvelles** حسنًا فعل لأنّه بذلك يمنحني بعض الراحة، والخلود إلى نفسي، والقدرة على اختزال كذبة لم أعد في حاجة إليها: كيفك عمري؟ كيفك حبيبي؟ لم أعد قادرة على قولها له حتى من باب المسايرة.

ما زلت في هذه الزاوية التي اخترتها لنفسي. وهو مرتاح مع جماعته، أو الكارتيل[2] كما يسمّيه، والذي أصبح كلّ شيء في حياته.

وحيدة وسط الفراغ الجميل الذي يمنحني السكينة للتفكير الجيّد. طبعًا، لست في هذا السكريتوريوم الذي اخترته في قبو البيت، بمحض الصدفة. أريد أن أصفّي حسابي مع شيء غامض لا أعرف كيف أسمّيه؟ مرضي المزمن؟ حبيب العمر؟ دنياي؟ قاتلي؟ كاتبي الذي أقصاني من حقّي في الحياة، ووضع في مكاني قناعًا سمّاه مريم ليضفي بعض القداسة على الجريمة؟

---

١ - Doliprane.

٢ - Le Cartel.

كلّ شيء سينتهي في هذه الليلة.

أنا متأكِّدة من أنّه مع الفجر، سيبدأ زمن آخر.

كيف؟ لا أعلم.

- ٤ -

سيبدو للذي لا يعرفني أنَّها مجرّد لعبة لفظيّة، أو لنقل فونتازما جميلة لا تحدث إلاّ في القصص والروايات، حيث تقتل شخصيّة ما كاتبها. المسألة أكثر تعقيداً من هذه اللعبة المعروفة. لا أتذكَّر متى رأيت ذلك، ربّما في فيلم، أو قرأته في كتاب؛ امرأة مولعة بكاتب، ينتهي بها الأمر إلى اختطافه ومحاولة قتله، غيرة من نساء رواياته اللواتي قطعن الطريق أمام جنونها.

ربّما كان في أعماقي شيء من ذلك، لكنّ مشكلتي أكبر قليلاً، وربّما أصعب.

ليس في نيَّتي أن أجهز على سينو الذي افترضته منتهيًا في غيبوبته الطويلة، ولكنِّي سأمنح نفسي حقّ الجنون الذي منحه لنفسه، ولا يهمّ بعدها إذا كانت النتائج وخيمة، والعواقب غير محسوبة. فأنا أدرك أنَّ ما سأقوم به ليس هيِّنًا أبداً.

سأنشر رسائلي ورسائله، وعليه أن يتحمَّل عسر اللعبة، لأنَّه هو مخترعها في الأصل، ويدرك جيِّداً أنّ السحر يمكن أن ينقلب على الساحر في أيّة لحظة. كان على بهلوان نيتشه أن يجد مسلكه لوحده وأن لا يجبرني على التدخُّل القاسي. فهو عندما يصل إلى وسط الحبل الذي يقف على مساره، عليه أن لا يتقهقر، أوّلاً لأنَّ رجوعه مستحيل، ثم أنّه

حتى ولو رجع، لن يضمن وصوله. ولهذا، عليه أن يتحمَّل شطط المسافة المتبقّية له بينه وبين نهاية الحبل الذي يرقص عليه.

همست بألم، لكنّ سينو لم يسمعني.

تمتمت بصوت مكتوم، أنِّي أتهاوى داخل الصمت! أنِّي بدأت أفقد ثقتي على الحبل، بعد أن فقدت زانة التوازن، للسقوط في الهوّة السحيقة، بالكاد التفتت إليّ عيون المحيطين بي، قبل أن ينغمسوا في لعبة الحياة الصعبة، بينما ظلّ سينو مندهشًا في ارتباكي، وهو الذي كان يظنّني أقوى من بهلوان نيتشه.

أريد الآن أن أصرخ على مسمع الجميع، بعد كلّ هذه السنوات الجميلة والمظلمة أيضًا، التي أمضيتها في عمق الصمت: باسْطا. يكفي حبيبي. تعبت يا سينو، ليس منك فقط، ولكن من كل ما تفترضه مسألة سهلة. الموت صمتًا أكثر من الموت احتراقًا. فأنتَ ترى نفسك كلّ يوم تموت قليلاً، تفقد شيئًا من جسدك وروحك ولا تستطيع حتى أن تصرخ ألمًا.

أصعب الميتات حبيبي أن ترى نفسك وأنت تموت.

وأقسى النهايات تلك التي يريدها لك من لا يحبّك.

ليعذرني سينو. ليعذرني قدر ما يستطيع. هذه المرّة سأكون أنا، ليلى أو ليلي، لا يهمّ، بلحمي ودمي، ولن أكون مجرّد قناع للتراجيدية الجميلة التي عشناها حتى الآن. لن أكون مريم التي افتكّها من العدم، ونحت لها تمثالاً من نور الشمس الهاربة، ومن ندى الفجر الربيعي، ومن هسهسة أوراق الخريف، ومن ظلال العشّاق المتخفّين من العيون الهمجيّة. سأكون باسمي الحقيقي الذي غيَّبه حتى لم أعد موجودة. وسألعب اللعبة

نفسها التي بدأها سينو ولم يعرف كيف ينهيها. سأجعل من رسائلي فراشي الأخير للحياة أو للموت، لا يهمّ، وضالّتي في هذا النوع الخطير من اللعب. رسائل حقيقيّة. محزنة أحيانًا، جميلة في بعضها، وقاسية في أحيان أخرى، ومؤذية. سألعب بها في أصولها، كمن يلعب بمشاهيب النار، لا كما حوّرها سينو في رواياته وجعل منها مادة أدبيّة ليخفّف من التصاقها بالحياة.

لست أديبة. لست امرأة من قشّ أو ورق، ولكنّي حقيقته التي هرب منها دائماً، وآن الأوان أن يختبر جرأته وقوّته أمام سلطانها.

- ٥ -

كلّ هذا يحدث في مدار شبه مغلق، يشبه السكريتوريوم في كل شيء.

قد لا يكون المكان الذي أنا فيه رومانسيًّا ومناسبًا، ولكنّه جميل لأنّه مثقل بالأسرار، وغامض لأنّه يشبهني أيضًا. أؤمن أن أمكنتنا وحقائب سفرنا تشبهنا. أجد لذّة لا تقاوم في اختراق أسراره مثل امرأة تتهيًّأ لتنام مع رجل تعشقه لأوّل مرّة. تتحوّل إلى طفلة وهي تبحث عن أكثر اللحظات حساسيّة وجمالاً في رجلها الذي تحبّه. تختار ألبستها الجميلة. أقمشتها التحتيّة الخفيفة التي تعطي سحراً خاصًّا لكلّ حركة تقوم بها، بحيث يبدو جسدها كغيمة في متناول اليد، ويصعب في الآن نفسه القبض عليه. وعندما ترمي بنفسها في جنون اللّذّة، يمرّ داخل تأوُّهاتها ونفسها المتقطِّع، كلّ شيء بسرعة، ولا تعرف من منهما يتوغّل في الآخر ويخترقه. الارتباك الطفولي نفسه، الحرارة نفسها التي تعبر الجسد عرضًا وطولاً، والرعشة نفسها التي تشبه رعشة الحمّى في أقاصيها التي تحاذي الموت.

-٦-

قليل من الصبر. أنا لم أبدأ حكايتي بعد.

لقد امتلأ السكريتوريوم الذي يسمِّيه أولادي ***الكهف***، حتى أصبح رياض نفسه يستعمل هذه الكلمة وهو لا يدري، عن غباء أو عن سوء معرفة، أنَّه كان يرميني في عمق الغموض الذي كان ينتهي بي دائمًا في أحضان سينو. في عمق الكهوف نشأت كلّ الممنوعات التي غيَّرت وجه العالم، القرآن في غار حراء، مقدّمة ابن خلدون في مغارة افرندا، مغارة سرفانتس، في الجزائر العاصمة، التي خرج منها أجمل نصّ وأخطره ضدّ محاكم التفتيش المقدَّس. فقد سخر سرفانتس من الوثوقيّين وأصحاب اليقين الفارغ، ثم وقف يتفرَّج على الجميع، ولم يسمع أحد قهقهاته التي كانت تنتهي دائمًا إلى حالة عواء. سيّدنا موسى نفسه قضى زمنًا ينتظر في مغارة، ألواحه المنقذة وكلام اللّه. ويبدو أنَّ رحلة سيِّدنا المسيح، عندما سيُبعث، ستبدأ أيضًا من مغارة.

مصير البشرية كلِّها معلّق على مغارة بحجم الخوف.

السكريتوريوم هو سرّي المتبقّي. منه ستنبعث حقيقتي الأعمق التي تخرج منِّي لأوّل مرّة. لا شيء فيه مدهش سوى ظلاله وصمته. مجرّد مكان صغير، مليء بالأغراض الكثيرة التي ليست إلاّ سحابات هاربة لما كانت عليه: رسائلي طبعًا. المكتب القديم الذي تخلَّص منه رياض ليشتري آخر أكثر حداثة وبديزاين أحلى يمكن أن يستقبل به الآخرين من أعضاء الكارتيل. طاولة الأكل التي بدَّلها زوجي بواحدة أكثر طولاً وأكثر تجاوبًا مع الديكور الجديد للبيت. ارتبطت بها بشكل مرضي فقط لأنَّ لي بها ذكرى واحدة جميلة. أكلت عليها أنا وسينو في لقائنا الأوَّل، بعد عودتي من جزيرة كريت. لا أتذكَّر أصلاً أنَّنا أكلنا. كنت أسعد امرأة

لأنّي استعدته من جديد، وكنت أظنّ أنّنا افترقنا إلى الأبد، ولم أكن أريد ذلك. أريده أن يظلّ الصدر الحنون الذي أسند عليه رأسي، كلّما شعرت بأنَّ جسدي لم يعد لي، وأنّ بعض يقينيّاتي العميقة بدأت تُسرَقُ منِّي. وبابي الذي إذا تخطَّيت عتبته، شعرت بأمان كلّي.

حماقة؟! ليكن.

لن أدافع عن نفسي، ولست مستعدَّة لفعل ذلك حتى ولو اقتادني زبانية الأديان إلى ساحة الرجم. أمر مثل هذا لم يعد يشغلني مطلقًا. لو كنت في دولة دينيّة لطُبّق عليّ الحدّ أكثر من مائة مرّة. ما زلت أؤمن أنَّ أكبر خيانة تمارسها امرأة هي أن تنام في حضن رجل لا تحبّه، وأصعب فاحشة أن يفتح رجل قلبه لامرأة هو أوّل العارفين بكذبته. ولا شيء بينهما إلاّ ورقة ذابلة مثل قلبيهما وقبلهما. زنى يُمارس كلّ ليلة على مرأى القانون واللّه والبشر باسم وثيقة عاجزة عن توفير قبلة صادقة.

لقد تخطَّيت تلك العتبات الكاذبة، وأصبحت في مكان آخر، في منطقة أكثر حساسيّة وأكثر خطرًا. قد لا يفرحني ذلك كثيرًا. حتى عندما أمنح جسدي لرياض، فهو ليس له. الرجل الذي في رأسي هو عذري الوحيد داخل الفراش. يجب أن يسعد رياض، لأنَّه لولا سينو في قلبي وجسدي لما استطعت النوم معه.

نسيت. هناك أيضًا الكمبيوتر القديم الذي يصاحبني ويخترق صمت الموت بملامس أحرفه القديمة. لقد تخطَّته التكنولوجيا الحديثة، ولكنّ قلبي وحواسّي وأصابعي ما تزال ملتصقة به. ما تزال رعشاتي الأولى، وعرق أصابعي، وخوفي على ملامسه من أن يكتشف رياض أسراره المخبَّأة فيه. ذاكرته محدودة، ولكنَّه يقوم بالوظائف التي أحتاج لها. الإنترنت، الكتابة، والموسيقى. اشترى لي رياض كمبيوترًا يدويًّا،

آخر موديل، بذاكرة ضخمة، لكنّي لا أشعر تجاهه بأيّة قرابة كانت. بقوّته، تحوَّل إلى أداة للّعب لملينا ويونس.

ثم علبتي الوفيّة وصندوق سينو الخشبي، اللّذان ينامان عادة في البنك وأستحضرهما كلّما اشتقت لوحدتي. رسائلي القديمة مع سينو، من لقائنا الأوّل حتى عيشنا الموازي، ومرضه الذي أدخله الغيبوبة التي كادت تقتله.

جميل أن تُحِبّ. الأجمل أن تُحَبّ. لكنّ التراجيدية الكبرى هي أن تنام في أحضان رجل أنت لست معه أبداً، وكلّما لمسك انتقل جسدك نحو غيره!

قحبة... قحبة لا أكثر؟

أتحسَّس هذه الكلمة التي أخرجها لغويّونا المحدَثون من القاموس. أراها ترقص على شفاه الكثير ممّن يعرفون قصّتي. اللحظة الوحيدة التي لا أشعر فيها أنّي قحبة هي عندما أخرج عن النظام المفروض عليّ من فقهاء الزنى. طبعًا، لست مجنونة إلى الحدّ الذي يجعلني أضع هذه العلبة وهذا الصندوق في متناول رياض، لي خوفي وأوقات جبني. أخبِّئهما في البنك، وكلّما وجدتني وحيدة، سحبتهما نحو هذا السكريتوريوم. على الرغم من احتياطاتي الكثيرة، أفكّر من حين لآخر في الصدفة القاتلة التي قد تحدث يومًا، ويجد رياض العلبة والصندوق: عشقي الموازي بجروحه وخوفه وعطره. ماذا سيحدث؟ على الرغم من طيبته وحبّه لي، سيفقد رياض، في الثانية الأولى التي تعقب الاكتشاف، توازنه المعروف به، في الثانية الموالية سينقلب إلى وحش خرافي يحرق الأخضر واليابس. لا أشكّ في ذلك أبداً. أعمق طعنة للرجل الشرقي هي أن تستعير امرأته فراش

غيره. طبعًا هو لا يكلِّف نفسه عناء طرح السؤال على نفسه. يستطيع أن ينام في الجسد الذي يشتهي، من دون أن يتحرَّك شيء فيه.

عاش العدل، حبيبي. عاش... عاش... عاش.

- ٧ -

لا شيء يكسر الآن حالة هدوئي، وألمي الجميل.

أعوم وسط هذه الرسائل التي يغلب عليها لونان: البنفسجي والأزرق. لا توجد من بينها رسالة واحدة بيضاء، وكأنَّ بياض العفّة اخترقناه أصلاً ومحوناه نهائيًّا من خلال هذه العلاقة الغريبة بيني وبين سينو. بعض هذه الرسائل قديم طبعًا، والآخر حديث. البعض مكتوب باليد والقلم، ما يزال عطر الحبر البنفسجي، وحتى الصيني، يفوح منه، والبعض الآخر مسحوب من الإنترنت. وبعضه القليل رسائل نصفها مشفّر، لا أحد غيرنا يستطيع فكّها وفهمها.

* * *

من سينو إِلى كوراثون مِيًّا

وهران البهيّة، ٤ / ٤ / ١٩٨٨

الغالية... كوراثون ميًّا[١].

١ ـ لا أدري بالضبط متى حدث التحوُّل، وفي أيّة فترة، وتحت أيّ ضغط، بدأ سينو ينادبني مريم ويلغي شيئًا فشيئًا هويّتي الخاصّة؟ عندما كتب هذه الرسالة كان يتدرَّب على الأسماء الجديدة، وكنت سعيدة لأنّي كنت أجد في ذلك إعلانًا عن شيء مبطّن وجميل. كان وقتها ما يزال ينادبني إمّا باسمي، ليلى أو ليلي، أو كوراثون ميًّا Corazon mia، التي تعني بالإسبانيّة: آه يا قلبي! وهي تعبير عن حالة وجدانيّة مفعمة أكثر منها كلمة عاديّة، مثلما يُقال في الشام للتعبير عن حالة ألم دفين: آخ يا إمّي! وهي نفسها في الإسبانيّة أيضًا: Madre mia. لم يتفطّن بعد إلى المرأة التي كانت تنام في أعماقه والتي لم يتخلّص منها أبداً، وحوّلني من حيث يدري ولا يدري إلى مجرّد قناع لها: مريم. مع أنّي كنت أنا العاشقة، وأنا العازفة، وأنا المجنونة على الكمان وعليه، ولم تكن مريم التي ليست في النهاية إلاّ بلاغة دفينة. تركت الرسالة كما هي ولم أغيِّر حرفًا واحداً فيها، ولم أفعل ما فعله سينو حينما يُدخل رسائلنا في رواياته. كان يدمِّرها من الداخل بحيث لا يحافظ إلاّ على ملامسها الهشّة. ليس في نيّتي أن أهذّبها لأنّ شخصًا خارجًا عنّي سيطّلع عليها، ولن أصنع وجهًا آخر لي ولسينو غير ما نحن عليه. قد يكون ذلك قاسياً علينا جميعًا، لكنّي لا أريد أن أخادع ذاكرتي للمرّة الأخيرة. هو مبدع اللعبة ولست في النهاية إلاّ هاوية تريد الذهاب بعيداً في فعل الغواية.

ليلي الحبيبة.

أين أنتِ الآن وسط هذه الظلمة التي نزلت فجأة على المدينة؟ أين موسيقاك التي تملأني الآن، وتدحرجني نحو الأقاصي البعيدة؟ تعرفين جيِّداً أنّنا كلّما التقينا ووضعت الكمان على صدرك، في عفويّة طفوليّة، لا أستطيع مقاومة حضورك.

أتمتم كعاشق فقد كل الوجهات:

ـ أريد أن أسمعك عمري!

ـ هل تريدني أن أنهيك؟ أخلص عليك؟ لقد أصبحتَ ذرّات من النور، فماذا تريد أكثر؟

ـ أن أشعر بأنِّي أقرب إليك من نفسك. موسيقاك ترميني في مكان لا شيء فيه يقف على قدمين، ولا شيء فيه يفكِّر. مكان يغرق في النور وندى الفجر الذي تحوِّله أشعَة الشمس إلى قطع من البلّور المتلألئ على أوراق الشجر الخريفيّة. أريد عمري أن أرى أناملك وهي تنسحب وتعود في حركة أبديّة، تعزف على روح تميد داخل الأشواق الحبيسة. أريد، بأنانيّة العاشق، أن أراك حيث لا عين تلمحك ولا يد تلمسك. ثم تعزفين... وتعزفين، حتى يندثر كلّ شيء يحيط بنا، ولا تبقى إلاّ الأنّات التي تأتي من أعماق الروح. أبحث عنك. ألمسك. تتبعثرين كفراشة هشّة بين أصابعي. أركض وراء ذرّات النور التي تحمل أنفاسك وروحك. أقبض عليها بصعوبة، فتضيء كهوفي الدفينة.

أتذكّر كلّ التفاصيل الحيّة.

أين مناديل الحرير التي نشّفتُ بها صدرك، ثم دفنتها طويلاً في قلبي وغطّيتُ بها أنفي لكي تظلّ رائحة جسدك عالقة بي؟ كلّما مرّ عليَّ وجهك الذي لا أستطيع أن ألملم تفاصيله الهاربة، بحثت عنك في رائحة عرقك التي توقظ كلّ حواسّي الحيّة، حتى المقتولة منها. بعض الحواسّ تموت بفعل

النسيان. أراك بكلّ تفاصيلك تحت ألوان تلك اللمبة البنفسجيّة وأنت تتضاءلين حتى تصبحي ضوءاً أو غيمة عارية.

عندما تمدَّدتِ على الفراش، نظرتِ إلى السقف قليلاً. اندهشتِ من اللون البنفسجي الذي كنتُ قد اخترته لونًا لغرفتي. ضحكتِ وأنت تتحسَّسين بحاسّة شمّك القويّة، عطر البيت الذي كان يأتيك من كل الجهات:

ـ حبيبي. هل تدري أنّ خبراء اللون يصنِّفون البنفسجي كواحد من ألوان الشهوة. الغريب أنّي كلَّما رأيته عندك، أشعر أنّي في غابة من اللّذّة الموحشة والبدائيّة، ولا أستطيع مقاومة النداءات المتأتّية من بعيد، من مهاوي الأعماق. أشعر بك الآن وأنا في هذا السرير، كأنَّنا في حديقة اللّه المليئة بالبنفسج. أعتقد أنّ اللّه قبل أن يخلق البشر، أبدع الحدائق والزهور ليجعل من الحياة الصعبة أمراً مستساغًا ومقبولاً ومتحمّلاً. من أين لك بكلّ هذه الحديقة الإلهيّة الرائعة حبيبي؟ من أين جاءك كلّ هذا البهاء أيّها الغالي؟

أذكر كلّ التفاصيل التي تأسرني الآن وتضعني في كفّ الشمس، وتطوّح بي عاليًا في الأعماق الملتهبة التي لا قرار لها.

عندما نمنا لأوّل مرّة في الفراش المعطّر نفسه، ولمست جسدك وشعرت بالعالم يتحوَّل إلى لمعة برق ثبتت طويلاً قبل أن تنطفئ ويتغيَّر لونها، لم أفكِّر في شيء آخر إلاّ فيك. كان من الصعب عليّ أن أصدِّق أنَّك أخيراً أصبحت هنا. هنا بالضبط حيث يفقد اليقين وجوده، ويصبح كلّ شيء بلا شكل ولا لون، بما في ذلك وجه اللّه الهارب دومًا. كنت داخل الدهشة ولم أكن أصدِّق أنَّك كنت هنا، ههنا بين يديّ. عيناي في عينيك، وجهي في وجهك، وصدري على صدرك وقلبي في قلبك، شفتاي على جمرة شفتيك، لساني على رأس لسانك، ونبضي وعرقي يختلطان بك. لأوّل مرّة أدرك أنَّني كنت قادراً على حبّك بعينين مفتوحتين خوفًا من هروب أيّة رعشة منِّي.

كنت تمسحين كلّ الحرائق التي كانت في قلبي وجسدي. وكنت خائفًا من عطبك.

تمتمتِ وأنت تبحثين عن كلماتك، في حالة شبيهة بالغيبوبة:

ـ حبيبي؟ كلّ هذه الألوان لي؟ ألوان الجنّة، لي أنا وحدي؟ وحدي لا شريك لي؟ لا بدّ أن تكون هذه هي بالضبط ألوان الجنّة التي خطّها اللّه من أجنحة الملائكة ومن هشاشتها... هذا السحر ليس لبشر آفلين مثلنا. من أين لك حبيبي بكلّ هذا البهاء؟ من أين لك بكلّ هذا السلطان المذهل على كلّ حواسّي، أنا لم أعد أعرف نفسي؟

لا شيء عمري.

لا شيء. أشتهي فقط أن أركض مغمَض العنين وراء أجمل الفراشات التي تملأ حديقتنا الريفيّة، وأقطفها مثلما أفعل مع الزهور الهشّة، وأجمعها، وأحذر من إتلاف رسوماتها وأجسادها الناعمة، وغبار ألوانها الهاربة. أربطها كلّها بعضها مع البعض الآخر بخيط من النور، وبأشعّة الفجر الأولى، وأحمّمها بماء الزهر الخفيف، وأضعها في عمق كفّيك، وأتمتم في أذنيك: اركبي عربة الفراشات. اركبي هذه الهشاشة، واتركيها تقودك نحو الجنّة. إنّها محمَّلة بألوان قوس قزح وهدايا الميلاد.

لم أنتبه كيف أقدمنا على ذلك الشيء. شعرت بألمك، ولكنّي سمعت تأوّهك:

ـ عمري... لا تتوقَّف. أريد أن أنتقم من العشرين سنة التي سرقوها منّي اليوم. أنتقم من كلّ خيباتي السابقة، ومن رجال عبروا الجسد دون أن يعرفوه. لقد ظلّوا على حافّة لم يدركوا سحرها. أريدك كما اشتهيتك وتخيَّلتك. لا تتوقَّف.

ـ يا مهبولة...

ـ لا توقف هذا الهبل. لست شيئًا حبيبي خارج هذا الجنون. دعني أضحك ولو لمرّة واحدة من غشاوة الغباوة التي بنوا عليها أديانهم وحروبهم وأمجادهم وسلطانهم. لتدرك اللواتي قتلن بسبب غشاوة غطّت على عيون القتلة، وحجبت عنهم نور السعادة وسلطانها الجميل، أنّنا نسمع الآن نحيبهنّ وهنّ يستعطفن قاتليهنّ، وهم يرفعون سكاكين الجزارة بلا رحمة، ويحزّون الرقاب الطريّة التي تستسلم للقتلة بنعومة، وكأنّها ترسم قدرًا آخر لحياة ظلّت دائمًا مؤجّلة.

كانت أوراق الخريف تملأ أسطح المدينة وشوارعها، وكانت موسيقى الليل فينا، عندما استلقينا على الظهر، وكنت أمسح وجهك وصدرك بمنديل الحرير.

هل تتذكّرين ماذا فعلت عندما قلتُ لك أحبّكِ وأنت؟ قلتِ بلا أدنى تفكير: أنا لا أحبّك؟ ثم صمتِّ قليلاً وأنتِ تتأمّلين عينيّ بمكر. كرّرتِ الكلمة نفسها بميزان أثقل: أنا لا أحبّك... وفي اللحظة التي التفتُّ فيها نحو البحر لأصرخ بأعلى صوتي: لماذا لم تتخلّي عنّي يا قلبي في اللحظة التي كان يجب عليك أن تفعلي فيها ذلك؟ قلتِ: انظر يا عبيط إلى بؤبؤيّ جيّدًا. ماذا ترى؟ ثم كرّرتِ مغمضة العينين: واش تحبّ نقول لك؟ لا أحبّك يا مهبول، ولكنّي نموت عليك. اسحب سؤالك الغبي قبل أن أغيّر رأيي، فهو يؤذيني. إذا لم تر ذلك في عينيّ، فكأنّك لم تر شيئًا، بل لم تفهم شيئًا من هبلنا الجميل. كل شيء في جسدي يركض نحوك، عاريًا من كلّ الأبجديّات السابقة ومن اللغة المشتركة مع بشر يكرهونني ولا أحبّهم، حافي القدمين، باحثًا عن المبهم الذي يهرب في عينيك، لا اسم له إلاّ وجهك ونورك وحبّك. أحبّك. نحبّك ونموت عليك يا دينك، فهل تعرف؟ ولو استطعت أن أصرخ بأعلى صوتي أمام كلّ مخلوقات الدنيا، سأفعل بكلّ ما أوتيت من قوّة، بلا كلل ولا ندم. وليأتِ القتلة إذا شاؤوا، لا قوّة تمنعهم سوى جنوني.

ـ هل ترى شيئًا في عمق عينيّ؟

ـ ياااااااه... أرى ما لا ترين؟

ـ متأكِّد؟ ألا ترى أحصنة هاربة من شيء غامض هي نفسها لا تعرفه إلاّ من هديره؟ ألا ترى شمسًا تستدفئ ببحر يهرب منها، ليس خوفًا ولكن ذعرًا من الاستسلام لها؟ ألا ترى امرأة معزولة في ساحل مهجور، تغزل أشواقها في انتظار سفينة تأخّر مجيئها كثيرًا؟

ارتعشتُ في مكاني، وتوغّلت في كلامك. لم يكن كلامك نبوءة. كان أكثر. يأتي من مقبرة الروح التي اندفنت فيها كلّ الأشياء الجميلة والرائعة.

ـ كلّ ذلك أراه. وأرى خلفه أشواقًا مبهمة ترتعش كلّما وضعت يدي على وجهك، وأصابعي على قلبك. أرى سربًا من عصافير الجنّة، تريد أن تطير في السماوات الهاربة، لكنّ شيئًا يُحكمها إلى ذلك الخيط الرفيع من أشعّة الشمس. أرى ما لا ترين...

ـ أليس حبًّا يا عمري؟

ـ الكلمة لا تستوعبه. اللغة خارجه. هو مثل الموجة العارمة، يأتي ويحتلّني حتى آخر مسامّ في جسدي. يملأني مثلما تغرق حديقة في أشعّة صباحيّة تأتي من شمس ربيعيّة مفاجئة. هو عرس الذئب[1] يا روحي حيث تهرب الشمس من قانون العواصف وتشعّ للحظة قبل أن تختفي، مذكّرةً البشر أنّ الدنيا جميلة وتستحقّ أن تُعاش.

كان كلّ شيء فيك يناديني بالرعشة ولغة السحر، بلا جزع ولا خوف.

شعرت عندما دفنت رأسي بين نهديك، وجسدي في جسدك، في آخر الليل، أنّنا انتقمنا لمائة سنة من الذعر الخفي... ربّما لقرون من الصمت والكذب والضغينة.

---

١ ـ بروز الشمس في يوم ممطر. الحالة مرتبطة بمعتقد شعبي يقول إنّ الذئب اختار الزواج في يوم ممطر لكي لا يجيئه أحد، ولكنّه فوجئ بالشمس تشرق على الرغم من سقوط المطر. وفشلت في النهاية حيلته وخاب ظنّه في الشمس التي اعتقد أنّها لن تخونه في يوم ممطر.

04h 10mn 07s

- ١ -

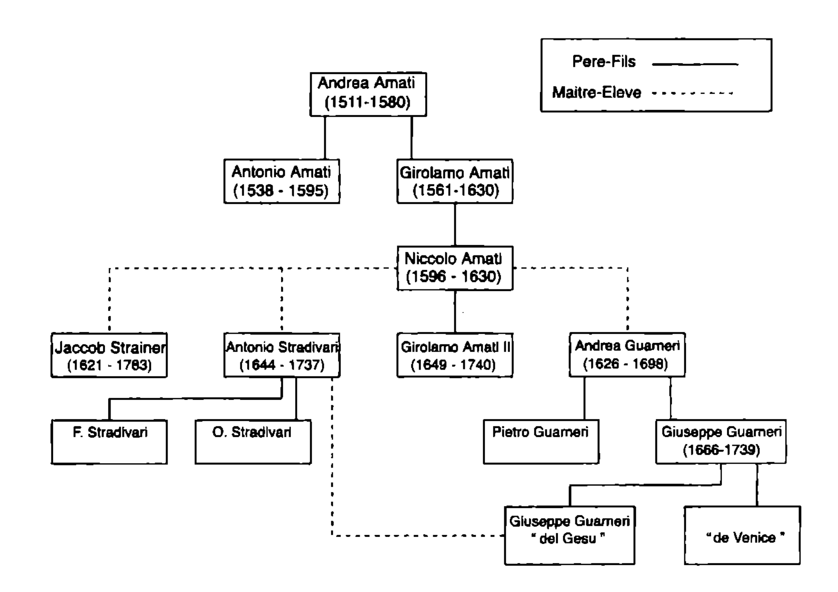
لا دم في يدي غير دمي حتى الآن.

كنت منهكة عندما دخلتُ إلى السكريتوريوم. لم تكن لديّ فكرة واضحة عمّا يمكن أن أفعله، سوى استرجاع هويّتي، ومعرفة سرّ تيهي الذي يعذّبني.

المسدّس البارد لم يبرح مكانه برصاصاته السبع. كلّما التفتّ نحوه، وجدت ظلّه يكبر قليلاً. هو الشيء الوحيد الذي كان هنا بلا رائحة.

على الطرف الأيمن من المكتب، الكمان بقصبته الخشبيّة المصنوعة من شعر أجود الأحصنة، مستلق على ظهره كأنّه في غفوة المتعب. كلّما لمسته، تذكّرت والدي الذي قضى العمر كلّه يعزف نشيداً يتيماً وحزيناً. كنت الوحيدة التي كانت تفهمه وتبكي كلّما سمعته. كان الكمان كلّ حياته. صوته يعبرني الآن ويخترقني كشعاع شمس حادّ:

« ـ هاه ! يا ليلي بنتي... تحتاجين إلى الكثير من الوقت، وقناعة صارمة بحبّ الكمان. الكمان لا يرضى بنصف الحبّ أو بربعه. لقد أمضيت العمر كلّه أفتّش أعماقه وداخله الناعم والحزين، ولمست حساسيّته الكبرى تجاه النسيان. النسيان يقتل الأشياء ويركّب عليها غباراً خانقاً. الكمان كالكائنات الحيّة، يختنق أيضاً. كما ترين، ينقسم الكمان إلى ثلاثة أقسام: جزؤه الجوف، أو صندوق الترديد، وهو الأساس الذي يخبّئ شجنه الخفي **La caisse de résonance** ثم الذراع **La manche**، والأوتار **Les cordes**. وجزؤه المنفصل، الذراع **L'archet** الذي يرتكز عليه كل شيء لأنّه وصلتنا الهامسة، ووسيطنا الروحي. الكمان الكبير يسمّى الكامل، وهذا للعازفين الذين وصلوا إلى درجة الاكتمال. طوله بذراعه، حوالى ٥٩ سنتمتراً. هناك مقاسات متعدّدة. وصناعة الكمان ليست معطاة لأيّ شخص. هناك أنواع كثيرة، لكنّ أفضلها طبعاً استراديفاريوس **Stradivarius** عائلة الاستثناءات العظيمة. يجب أن تعرفيها. ها هم سادة الكمان الذين أعطوا لقطعة خشب وأوتار من حديد تاريخاً وذاكرة.



هناك عـائلات أخـرى أتقنت هذه الصناعـة كـعـائلة عـمـاتي Amati ، وغوارنيري Guarneri ، وغيرهما لكنّها ظلّت دون استراديفاريوس. الكمان من النوع استراديفاريوس، من الخشب السويسري الكريم، ويزن ما بين ٣٥٥ كيلوغرامًا و٣٦٥. خيوطه الأربعة يجب أن تدوزن على مستوى رأس الذراع بواسطة المرتكزات. حلقات التمديد تسمح بجذب كاف للأوتار. وضع اليد اليمنى مهمّ في الكثير من الحالات. فهي التي تحدِّد الفوارق بين الليقاتو Lega-to ، حين يدع العازف القصبة تتزحلق على الأوتار بسلاسة، والستاكاتو Stac-cato ، وهي على العكس من ذلك، الضربات الجافّة والمفصولة بعضها عن البعض الآخر، التي تتمّ بواسطة حركات القصبة، والبيزيكاتو Pizzicato ، وتتشكّل عندما يعضّ العازف بأصابعه، بشكل خفيف، على الأوتار...».

كان والدي ممتلئًا بكل كلمة يقولها. أراه وهو يأخذ كلّ شيء بجدّيّة نادرة ويسلِّمني الورقة التي عليها سلالة استراديفاريوس، وينصحني بحفظها لتوريثها إلى أولادي وإلاّ لن أكون عازفة كمان في حياتي أبداً. إصراره الدائم جعلني أفكِّر مثله بعد أن أدخلني في هوسه الموسيقي المجنون. كان سي ناصر طيِّبًا ومليئًا بالحنان، قبل أن تسرقه منِّي سكتة قلبيّة. ظلّ طوال ما تبقّى من عمره يحلم ببلد آخر، بلد أجمل، ميّال نحو الحياة، قادر على نسيان الحروب وماضي النار، بالموسيقى والفنّ. كان آخر الرومانسيِّين القادمين من حرب دمّرت كلّ العواطف المتبقّية، التي ظلّت تقاوم عواصف الأحقاد والضغائن. كان يريد لأبنائه وذويه قليلاً من التاريخ، والكثير من الحكمة والألوان والموسيقى. لكنّ الورثة سرقوا منه كلّ شيء، حتى موسيقاه الخفيّة. أصعب ما فعله الورثة بعد ١٩٦٢، أنّهم قتلوا بذرة الحلم الأولى، وحوّلوا الأرض المشبّعة بالدم والخوف إلى ريع ثابت، وعملة صعبة، وفيلاّت وقصور ومصانع، ثم إلى

كارتيل مُحكم، يديرونه بيد من فولاذ ملتهب دومًا، كل من اقترب منه احترق بلا رحمة.

عندما أعادني خالي إلى البيت وسحبني من المدرسة يومها، كنت حزينة لأنِّي كنت أعرف أنَّ وراء ذلك شيئًا خطيراً. رأيت سي ناصر لآخر مرّة منكفئًا على الكمان، والقصبة في يده اليمنى. ظننته يفكِّر في النشيد القادم كما تعوّد أن يفعل. جلست قبالته وأنا أبكي. قلت له: **بابا اعزف لي نشيد البارحة، فقد أحببته لأنَّه يثير شيئًا غريبًا وغامضًا في حواسّي**... لم يجبني وبقي منكفئًا. كرّرت مرّة أخرى. كانت كلّ العيون مصوّبة نحوي. ظننته غاضبًا من شيء مبهم يحمله معه منذ زمن بعيد. لكنَّه لم يردّ عليَّ. قلت له، كما تعوَّدتُ أن أفعل عندما يكون حزينًا: **بابا حبيبي، لقد غادرت المدرسة من أجلك، فقط لأسمع نشيجك**... ظلّ صامتًا. قمت من مكاني. عندما اقتربت منه ورفعت رأسه قليلاً، كان غارقًا في ابتسامة لم أعرف سرّها سوى احتمال أنَّه ذهب وهو يفكِّر في شيء مذهل، لم يجدني بالقرب منه لكي يقتسمه معي، كما تعوَّد أن يفعل في لحظات خلوته.

بكيت لأنِّي يومها شعرت أنِّي خسرت نداء نقيًّا كان يحفظني من الانكسار ومن نفسي. حتى وهو في أقاصي المرض، لم يمنعني من موسيقاه.

لم تلتفت لي الحياة، ولكنَّها كانت منشغلة بترتيب أدوار أخرى، لناس آخرين.

كلّ شيء كان مرتّبًا كما في بدء الخليقة: الخسارات الأنيقة، الخوف المبطّن، الليل والعزلة، والشكّ في يقين الحياة نفسها.

يبدو أنّ الوحدة تليق بهذا العنفوان الذي لا أحد يحسّه غيري.

تمتمتُ وأنا أتوقّف عند رسائلي القديمة التي كانت السبب الأوّل في هذه العزلة. لغتي الخفيّة وعنادي تجاه حياة لم تكن دائمًا طيِّبة معي.

عندما أخبرت سينو يومها أنّ عناده لا يفيد أحداً منّا، وأنّ زواجنا ليس سجنًا جديداً ولكنّه مجرّد تجربة مضمونة قليلاً، لم ينتبه لخطر ما كان يفعله. لا أدري إذا ما كان مصيبًا، ولكنّي أحمِّله كلّ تبعات ما حدث لنا. كان ممحونًا بجان بول سارتر، وسيمون دو بوفرار، وألبير كامو، وكيركيغار، ونيتشه، ومجموعة أخرى من الحمقى الوجوديّين والظواهريّين. في لحظة ضيق صرخت: يلعن دين أبو سارتر وبوفوار. هما على الأقلّ كانا في مجتمع يسمح لهما بالعيش معًا بدون ثوابت مسبقة، ولا أيّة ضغوط مجتمعيّة، ونحن؟ إذا بقيت معك علنًا، سأصبح مجرّد قحبة تسلّم جسدها لأوّل عابر في الطريق، في عيون أهلي، قبل أصدقائي ومحيطي. وربّما حمل أحدهم سكّينة ودفنها في جسدي دفاعًا عن شرف لا يتذكّره إلاّ عندما يتعلّق الأمر بجسدي، وينسى جسده الذي يمرّغه يوميًّا فيما لا يحبّه لا الله ولا البشر ولا حتى الطبيعة. حتى للطبيعة حواسّها، وهم لا شيء يحرِّك يقينهم. لكنّ سينو كان مغلقًا مثل باب بيت قديم، لم يأبه برغائي الداخلي ونزفي. كان في قارّة أخرى لا كائن فيها إلاّ هو.

ـ سينو أرجوك، لا تكن أحمق!

هزّ رأسه ثم مضى نحو تيهه. كان كل يوم يصنع قليلاً حريقًا مدمّرًا، لم يكن يدري مخاطره ولا مزالقه. وظلّ ينام قرير العين في دوائره النظريّة، ونسي أنّ كائنًا حيًّا كان يموت في فراشه كل يوم قليلاً. مسألة مثل هذه يعاقب عليها القانون. تُسمّى في الأعراف الدوليّة:

Non assistance à personne en danger[1]. أحسّ باللاجدوى، فأعود إلى الانكفاء على نفسي.

كان بعيداً جداً عنّي على الرغم من قربه منّي، وكنت أبكي في كلّ ليلة لأنساه فقط، وأتمكّن في النهاية من أن أكون لغيره بدون أن أفكّر فيه.

- ٢ -

«ها أنا ذي، مريم، كما شاء لي سينو في رواياته، لا كما شاءت الأقدار، ومحا بجرّة حبّ مجنونة، اسم ليلى من الوجود. فجأة أصبحت أنتمي لاسم آخر لا أدري كيف شقّ صدري في البداية واستقرّ به، حتى في رسائله التي تكاثرت منذ أن فقد أحدنا الآخر، بجدّية قاسية لم يكن يتصوّر هولها».

عذراً مرّة أخرى أنّي نطقت باسمه عارياً، وأنا التي حاولت منذ أكثر من ربع قرن أن أخفي الجريمة. لقد أوهم الجميع باسم مريم وكأنّها كائن بشري، وهي ليست أكثر من امرأة ورقيّة جاءت على أنقاض امرأة حقيقيّة. بنيّة مبيّتة أو طيّبة، سرق منّي سينو اسمي الحقيقي، وطوّح به في الفراغ المميت، واشتقّ لي اسماً أكل كلّ شيء في داخلي وسرق منّي هويّتي وحتى ألبستي.

جريمتي من هذه الناحية مبرَّرة على الأقلّ. لست ساديّة ولا مازوشيّة، أتلذّذ بآلام الآخرين، وأشقّ جسدي بجراحات مكشوفة وأخرى سرّيّة. ليس معتاداً في العرف العامّ أن تقتل امرأة من لحم ودم شخصيّة روائيّة مليئة بالسحر والغواية. أنا الحقيقة وهي الوهم؟ قد يكون جميلاً، لكنّ مريم، في النهاية، ليست أكثر من وهم.

---

١ - عدم مساعدة إنسان في حاجة إلى إسعاف.

ماذا بقي لي أن أفعل أمام قنبلة موقوتة نبتت فيَّ فجأة؟

افترضت سينو قد انتهى في غيبوبته القلبيّة، لا لشيء، إلاّ لأنّي أحتاج إلى حالة انفصال عنه لأشعر أنّه عليَّ أن أتحمَّل كلّ شيء وحدي، ويمكنني أن أتّخذ أكثر القرارات خطورة بدون استشارته. لا خيار لي سوى الانتهاء من مريم في أقرب وقت ممكن. لقد سحقت كل شيء فيَّ وحوّلتني إلى نثار يصعب جمعه. لا أدري كيف دخلت إلى حياتي كالسوسة، ولا حتى كيف قبلتُ بها بسعادة غريبة. ربّما لأنّي كنت عبيطة وظللت أرى فيها الشخصيّة الورقيّة الطارئة في حياة سينو. شخصيّاته النسويّة كثيرة، لم يبق منهنّ اليوم الشيء الكثير إلاّ ما تحفظه ذاكرة القرّاء؟ كليمونس؟ فتنة؟ زوليخة؟ مايا؟ زهور؟ دنيا؟ جينا؟ سيلفيا؟ أناطوليا؟ وغيرهنّ... ربّما لأنّ سينو أغراني وهو يتكلّم عن مريمته الحقيقيّة، مريم الطفولة الهاربة، في قريته البعيدة. ما زالت ملامح وجهه البريئة تنغرس في عمق الحكاية وكأنّه أمامي يتحدَّث بجدّيّته المعهودة، المبطّنة بكمّ هائل من السخرية:

« ـ لقد سُرقت مثلما تُسرق وردة من شعر غجريّة، بعنف ولامبالاة. لا أتذكَّر من مريم اليوم الشيء الكثير، سوى أنّها كانت جميلة وممتلئة كحبّة قمح، وابنة شهيد ووحيدة العائلة التي تخلّت عنها أمّها وربّتها جدّتها. بيضاء كصباح ربيعي في قرية على ضفّة بحر موحش. لم نكن نراها إلاّ في لافونتين[1] أو السقّاية، التي كانت مريم ترتادها كما تفعل جميع نساء القرية من أجل غسل الحبوب، أو الألبسة قبل أن ينسحبن منها مساء، ليحتلّها الرجال، عندما يعودون من الحقول المجاورة، من الدرس والحصاد، لتوريد الحيوانات والاستحمام بها. كنّا نجلس على حائطها العالي

١ - عين الماء. من أصل فرنسي: La fontaine.

قليلاً، كالغربان الصغيرة، بعدما نملأ شعورنا المجعّدة بصابون مرسيليا الذي يحافظ على ملاستها وثباتها. ونستحمّ بعطر بلوم ـ بلوم[1] الرخيص، والقوي الرائحة الذي كان يُستعمل أيضًا لتعطير جثث الموتى. ونصوّب أعيننا جميعًا تجاه مريم المنكفئة على شيء تغسله. أجمل يوم كان، عندما تغسل القمح، بالنسبة لي على الأقلّ. تضع الحبوب في إناء حديدي واسع، هو في الأصل قاع برميل. تكبّ الماء على القمح، ثم تدخل برجليها الناعمتين في طقس غريب. تبدأ في حركات متتالية بقدميها، جيئةً وذهاباً، وكأنّها ترقص. رقصة القمح كنّا نسمِّيها. تتلوّى بجسدها طويلاً. تتمايل. يسعفها جسدها الغضّ. ترفع عباءتها حتى الركبتين. تظهر جليًّا ساقاها البيضاوان كشمعتي الأولياء الصالحين. ترفع شعرها قليلاً، فيبدو واضحًا وجهها الذي يحمرّ كثيراً، قبل أن يتخفّى ليظهر من جديد مبرزاً عن عينين واسعتين مليئتين بالغواية الشيطانيّة التي كانت تتقنها. ابتسامة مشرقة، بدون أن توقف حركاتها المنزلقة على القمح. كانت مريم ذكيّة، وتعرف كيف توزّع ابتسامات الشهوة الطفوليّة على كل واحد منّا. ونعود إلى بيوتنا القصديريّة في أقاصي السعادة، ممتلئين بنظراتها. كلّ واحد يروي غمزة مريم، أو ابتسامتها، أو ضحكتها، أو حركة شعرها، أو التفاتتها المليئة بالسحر والأسرار، أو تمايلها باتّجاهه. كانت مريم سحر القرية، وجمالها الدفين ورغبتنا المحروقة. كنّا نخاف يوميًّا من أن لا تأتي للسقّاية. فجأة غابت مريم، وتركت وراءها فراغًا مخيفًا. عوّضنا غيابها بالحكايات التي لا تتوقّف حولها. تزوّجت بالقوّة، من ابن عمّها الذي كان وجهه قريباً من وجه الذئب. نروي مساءاتها الحزينة مع الذئب. اختلقنا قصّة سمّيناها: مريم والذئب، وأقسمنا برؤوس كلّ الأولياء الصالحين إنّها ليست خيالاً،

١ - Ploum-Ploum.

ولكنّها من رحم الحقيقة. تنافسنا في إظهار مقاومتها المستميتة ضدّ شكله، رائحته، تحوُّلاته. ثمّ فجأة، كبرنا وافترق الجميع، وظلّت مريم في صورتها الأولى، طفلة مليئة بالغنج والبراءة. تزوّج أصدقائي وبقيت مدّة طويلة أعزب، أتصيّد أخبار مريم، هل ما زالت مع الذئب، أم أنّه أكلها، أو أنّها قتلته؟

ـ أيّ حظّ حبيبي لامرأة عشقها كلّ أطفال القرية؟

ـ لا ندري إذا كنّا نعشقها حقيقة، أو أنّها كانت استحالتنا الجميلة، وأنّها كانت تختزل كلّ شهواتنا وتاريخنا القروي، وأشواقنا. كانت كلّ ما كنّا نشتهيه. أنانيّتنا الصغيرة. ولو طلب من أيّ واحد منّا قتل الذئب، ما تردّد ثانية واحدة؟ لكنّ الذئب كان ابن عمّها، وكان أولى بها من غيره. أكثرنا تضرّرًا كان مصطفى الذي لم يقاوم غيابها طويلاً. حاول الانتحار مرّتين، قبل أن يفلح في المرّة الثالثة. قال الذين رأوها في أيّام الآحاد، عندما يغيب الذئب نحو الأسواق، تأتي ملفوفة في السواد، لتقف على قبر مصطفى طويلاً. تنقّيه من أيّة أعشاب ضارّة. تضع ملايتها على الشاهدة. يبدو وجهها الناصع مليئًا بالنور، وتنعكس على شعرها الفحمي أشعّة الشمس الربيعيّة فيصبح أزرق متلألئًا. تبكيه طويلاً، ثم ترتدي ملايتها وتنسحب في صمت. كنّا في أعماقنا نغار أيضًا من موت مصطفى ومن شجاعته على الانتحار. كان أقلّنا كلامًا، وأكثرنا هشاشة وحبًّا لمريم».

وجدت قصّة مريم طريفة وجميلة وحزينة. أحببت طفولتها وعنفوانها، وحتى شجاعتها باختراق كل الموانع، والتوغُّل عميقًا داخل المقبرة. ولكنَّها لم تكن تشبه مريم الروايات في شيء. لم تكتف مريم المجنونة التي خرجت من جسدي وأوهامي، بأن أزاحتني، ولكنَّها أرادت دفني وأنا حيّة؟

يجب أن يعرف العابرون نهاية الباخية[١]، كما كان يقول أجدادي الهاربون، قبل أن يحكموا ويعودوا إلى وسائد نومهم مطمئنّي القلوب والعيون.

- ٣ -

لا هويّة لي؟ وهل سأقبل بهذا الوضع الصعب؟

جلوسي وسط هذه الكومة من الرسائل والقصاصات، والمسدّس المفتوح الشهيّة، وكمان والدي، لا مبرّر له، سوى شيء واحد: أن أقنع نفسي بأنّي لست امرأة من ورق وخشخاش، ولكنّي كائن حيّ كبقيّة الخلق، تألّم كثيراً حتى وصل إلى حافّة الجنون. عشق وحزن كثيراً وخسر، ولكنّه لم يُكتب له أن يفرح حتى بخساراته، ما دامت أفراحه الصغيرة قد سُرقت منه في زمن مبكّر.

لست مريم التي اشتهاها الجميع، ولم تشته نفسها.

لست امرأة الأنوثة والرقّة الفائضة.

لست حنين الرجال التائهين، ولست مخبأ آلامهم.

لست العذراء، وحبيبي لم يكن مسيحاً منزلاً.

لست اللاشيء عندما تندفع آلامي إلى الواجهة؟

هل يدري الذين قرأوها في روايات سينو، أنّ وراء سحر اللغة الخاطف، تتخبّأ مأساة تتعلّق بكلّ بساطة بانمحاء هويّة كانت قائمة؟ هويّة

١ ـ Bagia، الحكاية، باللغة الإسبانيّة القديمة. القصص التي كان يحكيها الأندلسيّون والغجر والشعراء التروبادور.

امرأة اسمها لا يثير أيّة شبهة سوى شبهة الحبّ المستحيل: ليلى، أو ليلي كما كان يناديني والدي.

لست مجنونة، فأنا في كامل قواي العقليّة، بل في أكبر حالات صفائي الذهنيّة، ومستعدّة لكلّ شيء، بما في ذلك عقوبات القتلة الذين يتربّصون بي وبه.

حزينة لأنِّي أشعر أنِّي تخطَّيت عتبة البراءة باتّجاه الجريمة. مجبرة.

- ٤ -

يمكن للذي يعرفني، من الآن، أن يتخلّى عن قراءة رسائلي ورسائل سينو، وأن يرمي بهذا الكتاب الذي أضعه بين أيدي الجميع، عرض الحائط أو حتى في قلب النار، لأنّه يستفزّ في أعمق نقطة ويرفض التواطؤ. ولأنّ ما سأقوله لا يسرّ أحداً، لا أنتظر الشيء الكثير ممّن يحيطون بي سوى اللعنة.

أنتظر فقط أن يفتح البريد المركزي، لأدفع بهذا الجنون إلى النشر.

طبعاً، ليس هذا هو المهمّ الآن.

المهمّ هو كيف يتحوَّل الكاتب إلى مجرم ليس فقط بقتل أبطاله، فهذه الفكرة قديمة ومعروفة ومارسها عشرات الكتّاب، ولكن أن يقتل الكاتب كائناً حيًّا، وينشئ من نفَسه الأخير امرأة ورقيّة، ثم كيف تقوم المرأة التي تتخفَّى وراء رماد الورق، وتنتقم لنفسها من الجميع؟ هذا هو جنوني.

اليوم، عندما أعود إلى رسائله، أسترجع شيئاً فشيئاً وجهي الذي غاب وسط ضباب مبهم اسمه مريم. لم أعد أعرفه، بل إنِّي لم أعد أريده

ولا أحبّه. مع أنّ قصّتنا بدأت لطيفة. أوّل مرّة ناداني فيها باسم مريم لم يكن يقصد نفيي، ولكنْ حمايتي من محيط قاتل. كان سينو يشتهي أن يقول نشيده عنّي بأقصى راحة، وكانت مريم وسيلته لفعل ذلك.

إلى اليوم لا أعرف من المجرم الحقيقي، سينو؟ أم القرّاء الذين لم يتفطّنوا للعبة، وجعلوا من مريم امرأة الاستثناء؟ أم أنا التي تخلّيت عن اسمي طواعية، وقبلت باللعبة منذ البداية ولم أعرها أيّ انتباه، ورضيت بتحويلها إلى قناع يحميني من عيون البشر والقتلة، وربّما حتى من نفسي؟

أحاول، ولكنّي لا أعرف.

أقلّب الأوراق.

رائحة الرسالة القديمة ذات الغلاف الأزرق تأتيني غريبة وتقتحمني. كانت الليلة معطّرة بشيء يشبه رائحة النباتات البرّيّة، هي الرائحة نفسها التي تزيد من شهوتي كلّما دخلت إلى فراشه.

فجأة، بدا لي ذلك الزمن قريباً من قلبي ومن عيني، وكأنّ يداً قويّة وضعته أمامي بنبضه، وخوفه، ورعشاته المتتالية، وموسيقاه الدفينة. لم تكن هناك أيّة قوّة تمنعني من الإحساس بالعبث الذي كان يؤذيني. لم أستطع أن أغفر له كل حماقته. وإلى آخر يوم من حياتي، سأظلّ أتذكّر لماذا ركب رأسه وتنازل عنّي لغريم لم يكن شيء يجمعني به سوى رغبته في الزواج منّي. ما الذي كان يمنع سينو من أن يغمض عينيه ويتركني أقوده نحو مرفأ كان مؤهّلاً لأن يمنحنا الحياة؟ كنّا اتّفقنا، أنا وهو، أن نفترق متى شعرنا بالنفور يدخل قلبينا وسريرنا. كبار ونستطيع أن نترك بعضنا بتسامح، وبلا ضجيج. نطبّق مشروعه المجنون في الزواج بعقد

محدود المدّة؟ لكنّه لم يسمع إلاّ لأنانيّة متوغّلة في أعماقه كسرت كل نور في عينيه وعينيّ، وسحبتنا شيئًا فشيئًا نحو مرفأ مظلم. كان علينا أن نكابد ونجاهد على مدار أكثر من ربع قرن، لكي نجعل الحياة مستساغة أمام خطر الإفناء الذي كان يتهدَّدها في كلّ لحظة.

عندما امتلأت عيناي ظلامًا ودمًا، لم أكتب له رسالة، ولكنِّي كتبت تقريرًا يشبه تقرير نيكوس كازانتزاكي إلى جدّه ليس بالتبنّي، لكن بالرغبة والجنون، غريكو[١]. قلت ما كان يملأ قلبي وجسدي من نور، وحمم حارقة، وصخور بركانيّة ملتهبة، وهشاشة لم أستطع المحافظة عليها كما أحببت.

هل كان سينو يشتهي، مثل الساموراي، أن يتّخذ قرار موته بيده، عندما سدّ الأبواب كلّها، ويدعوني في حفل حميمي وسرّيّ إلى حمل السيف المقدّس للإجهاز عليه في لحظة تردُّده أمام الموت؟

هل كان كذلك؟

ربّما... لكنِّي لم أنتظر دعوته، فقد سبقته إلى وضع السيف في يده. كنت أنا القتيلة، وكان عليه أن يصبح سيّافًا.

* * *

---

١ - Le Gréco.

من مريم إلى سينو

وهران البهيّة، خريف ١٩٨٨

أيُّها البعيد القريب.

حبيبي.

إضرابات الأطفال كانت عنيفة في هذا الخريف الحارق. لقد كسروا كلّ ما جاء بين أيديهم. مات منهم الكثير. سمّاهم ناس المدينة شهداء الخريف أو ضحايا أكتوبر. لأوّل مرّة يموت الناس على أيدي ذويهم. لم يكن القاتل من بلاد أخرى. شيء في البلاد انكسر نهائيًّا، وكأنّ الناس فتحوا فجأة أعينهم على فجيعة كانت تتهيّأ في الأفق. كثرت الإضرابات، ولا أحد يعرف إلى أي شيء ستنتهي؟ بدأ الخوف يأكلني من الداخل، ليس على نفسي ولكن على هذه التربة التي لم نعد نفهمها، ولم تعد هي أيضًا تبذل أدنى جهد لتفتيش أحزاننا ودواخلنا التي شاخت بسرعة. أين البلد السعيد الذي بشّروا به بعد الاستقلال، وسمّوا الطرقات والممرّات والأسواق والإدارات، ومحلّات البيع

والشراء، بشهدائه؟ بدأت أرى في الشوارع فلولاً من البشر ما هم بأفغان ولا هم بهنود، بدأوا يملأون الساحات الكبرى، يقال إنّهم من بيشاور وكابول، جاؤوا لتعليمنا الإسلام النقي والصحيح؟

لأوّل مرّة أشعر أنّي خائفة على أرضي. خائفة من شيء أحسّ به وبالكاد أراه.

دعني من هذا الخوف الذي يكبر كلّ يوم قليلاً، واتركني معك أيُّها المجنون.

أنت لا تدري مقدار الخراب الذي أهديته لي دفعة واحدة؟

هل كنت جادًّا عندما طلبتَ منّي أن أكتب لك ما في قلبي؟ هل وصل بك النسيان إلى هذا الحدّ؟ تريد رسالة أم تقريراً عن إخفاقي في نسيانك، أم موجة صاخبة تضع بين عينيك ما تكون قد نسيته أيُّها الأحمق؟

كم أحبّك، وكم تزداد بعداً في هذه الدنيا الظالمة! شيء ما يقودني نحوك بشكل أعمى كلّما اتّخذت قراراً بتركك و بعدم رؤيتك نهائيًّا. أريد بالفعل أن أرتاح منك وأن تتخلّص منّي نهائيًّا لكي نعرف كيف نعيش. ماذا فعلتَ بي؟ ما سرّك؟ ماذا أكلتُ من يدك أو من جسدك أو من روحك؟ أشتهيك إذ أتركك، أخاف عليك من حماقاتي وارتباكاتي وأنا معك. لا أعرف لماذا أفتح أبواب الكوابيس والأحلام وأفتّش عنك في أكثر الزوايا ظلمة علّني أجدك وأوشوش في أذنك: أحبّك. ربّما لأنّك تشبه والدي في هشاشته وحتى في جنونه؟

ولأنّ رياض كان لا يشبه والدي في سخائه، فقد كرهته، وأوصدت كل الأبواب المؤدّية إليه، وفتحت كلّ نوافذي الصغيرة نحوك لأراك وحدي عندما أشتاق إليك.

ستسألني لماذا كلّ هذا الحنين؟ وستقول لي إنّ الحنين مدمّر وعبثي لأنّه يسجننا في الوهم ويحرمنا من الحياة ومن إمكانات أخرى؟ لا أملك أجوبة سوى أنّي أحمِّلك مسؤولية الخراب الذي لحق بسعادتنا. لا أنتظر أجوبة لحيرتي، فأنتَ منذ زمن بعيد اخترت أن تقتلك الفلسفة الوجوديّة والأسئلة التي لا تفضي إلاّ إلى مزيد من الخسارات والصمت. أحيانًا أتمادى في خيالاتي وأقول لو كلّمني رامبو الهارب من ظلّه، وأنا نازلة إلى السوق الشعبيَّة، سأصفعه ولن أكلّف نفسي شرح السبب، هو يعرف جيِّداً لماذا فعلت ذلك. إذا وجدت كافكا وأنا أدخل المطحنة القديمة في المدينة، جالسًا في ركن الشارع المظلم، يتتبّع ظلال أذرعتها الهوائيّة، سأفرغ عليه كيس الطحين لأنّي قضيت هناك، وأنا صغيرة، يومًا بكامله أقرأ هبله الغريب: المسخ La Métamor-phose. لو صادفت سارتر في المعابر الخلفيّة للمدينة، لن أكلِّمه، ولن أحضر درسه. وسأضع المسامير في طريق نيتشه الذي يسلك كل صباح المسلك الضيّق الذي يمرّ بالقرب من بيتنا، وسأفرغ هواء عجلتيْ درّاجته التي يمتطيها. وسأشيح بوجهي عن لينين عندما يسألني عن محطّة الباص أو القطارات. سأنتقم منهم واحداً واحداً لأنّي أشعر أنّهم كانوا وراء خرابنا. بعدها أتعقَّل وأهدأ وأضحك من نفسي. وين أنا؟ وين هم؟ أنت كذلك أحيانًا تشبه والدي، ولهذا أُصاب بحالة شجن كبيرة لبعدك عنّي. فقد قتلته ظلمة الحيرة المستعصية ومقاطعة الشمس والهواء. لن أكلِّمك لأحصل منك على جواب، فهناك الكثير من المآسي في الحياة تكفي لوحدها كجواب، وأيّ اجتهاد بعد ذلك هو كلام زائد.

لماذا تركتني أذهب نحو الحماقة مفتوحة القلب والصدر؟ ألم يكن بإمكان طولك وقامتك أن يسدّا في وجهي منحدرات الانزلاق؟ لماذا تركتني أذهب مغمضة العينين نحو حتفي؟ لماذا خفت سحرك عندما أخبرتك بأنّي سأتزوَّج؟ ربّما لأنّك كنت تريد أن تحلّ عقدة ضميرك نحوي وتتخلّص منّي

وتقول: ما عليهش هذا خيارها، وما عليّ إلاّ أن أقبل به؟ كنتَ تكذب على نفسك، وتقتلني بصفائك. أحمّلك الخراب الذي لحق بسعادتنا.

ماذا لو تزوّجنا؟ ستقول لي بفلسفتك الوجوديّة المعهودة: لم نتّفق على تقييد حرّياتنا؟ ماذا يساوي الكلام أمام الخسارات الكبرى التي لا تعوّض؟ لا شيء. نعم لا شيء. أنا أعرف أنّك كنت تكابر، وأنّ قلبك كان منكسراً وأنا أخبرك بعزمي لأحرّك غيرتك. كنت أشتهي أن تلعنني، أن تضرب رأسك على الحائط، أن تمزّقني وتنزع أطرافي مثل الدمية، أن تأكلني إذا شئت، أن تنعتني بكلّ النعوت التي تشتهي، ولكن أن تقول لي كلمة واحدة فقط: ابق. أحبّك وأريدك. في حاجة ماسّة إليك، أرجوك. أو حتى لا ترجوني، لستَ في حاجة إلى الاعتذار. لو فعلتَ ذلك، لتركتُ كلّ شيء بدون أدنى ندم وتبعتك نحو حتفي إذا استدعى الأمر. ولكنّك بقيت صامتًا تقاوم كبرياء منكسرة، ورجولة زائفة. ركبتَ رأسك. اسمح لي، في هذه لم تكن مختلفًا عن غيرك أبدًا، أنت الذي ظلّ يقدّس الاختلاف. كنت تشبه كل الرجال، ولم تستثن نفسك كعادتك من الاندراج داخل المنظومة. يومها، عندما خرجت إلى الشارع رأيت كلّ الناس يشبهونك مع أنّي قبل أن أدخل إلى البيت كنت أراك متميّزاً وفريداً. كم تتغيّر الأشياء فينا بسرعة جنونيّة؟ لا ألومك. ربّما كنتَ على حقّ. في نهاية المطاف من أنا بالنسبة لك؟ لا شيء، امرأة كسائر النساء، أقلّ جمالاً وذكاء ممّن عرفتهنّ قبلي وربّما بعدي. عيبي أنّك أوّل رجل في حياتي شعرت به حقيقة على الرغم من خساراتي السابقة مع رجال آخرين. وها هي ذي صورتك كلّ يوم تختصر جزءاً من المسافة الفاصلة بينك وبينهم. كنتَ أول إنسان اخترق حميميّاتي بدون أن يشعرني بعقدة الذنب أو لعن جسدي وحرّيّتي معه. لهذا، عندما أحببتك لم يكن لديّ حلم آخر سوى البقاء معك حتى الموت. الزواج؟ وين الخطأ يا ربّي سيّدي؟ أنّنا

لم نتّفق من قبل؟ ما المانع أن نتحدّث حوله اليوم ونتّفق؟ عفواً. اعذرني، أنا أهذي. امرأة لا تطاق ولكن لا أحد يستطيع أن ينكر عليها طفولتها وصدقها.

أعرف، بل متيقّنة أنّك أنت كذلك كنت تحبّني ولكنّك كنت جبانًا، وغيوراً على مفرداتك وفلسفتك أكثر من غيرتك عليّ. اللّه غالب هكذا. في لحظة من اللحظات فضّلتَ عليَّ كتبك وأنانيّتك الثقافيّة ونسيتني. ولهذا ألعنك شوقًا وزعلاً وحنينًا في كلّ صلواتي، وأرشقك بحبّي وبحزني لأنّي أخفقت في كلّ شيء معك، حتى في الحقد عليك. ما عليهش، أنا ما نعرفش نزعف... ربّما لأنّي كذلك، لم أعرف لا كيف أحافظ عليك ولا كيف أحبّك.

تعاتبني حبيبي اليوم على قسوتي تجاه نفسي وتجاه الحياة وتجاهك؟ تلومني على رغبتي في الزواج؟ أريد أن أرى أبنائي وأن أذهب وأنا شبعانة منهم، هل هذا كثير عليّ؟ لا أريد أن يحصل لي ما حصل لأمّي، ذهب أبي وهي لا تعرف إذا ما كان يجب عليها أن تحقد عليه إذ لم يترك لها فرصة الحلم بحياة أفضل، وظلّ رهين تاريخه الميّت؟

... ...

ياه؟ ما أقسى صمتك؟ ماذا يجب أن أفعل لأقنعك أنّك تملأني، وأنّني أريدك وأشتهيك، ولكنّي أرفض أن أكون امرأة موسميّة. صحيح أنّي امرأة أنانيّة ولكنّها تحبّك. لا تنس هذا. لماذا تبخل عليّ بشيء يمكن أن يمنحه لي أيّ رجل. يكفي أن أرفع إصبعي. لكنّي أريد كلّ شيء منك لأنّي أحبّك؟

هل يحدث لك أن تفكّر أحيانًا في غير ما نحن فيه؟ أن تفكّر فيَّ قليلاً في لحظات سهوك؟ أن تشعر أنّي في كلّ ذرّة حيّة فيك؟ أتمنّى ذلك، لا يكلّفك الشيء الكثير. وإذا لم تفعل حتى الآن، جرّب وقل لي، في رسالتك القادمة، عن حرائقك التي تنهبك من الداخل.

حبيبي وعمري،

أرجوك لا تكثر الدقّ، لم أعد موجودة. لقد غادرت مبكّراً أمكنتنا المعتادة لكي لا أنهكك.

ترميني في صلب جهنّم ولا تنسى أن تسألني كيف الدنيا؟

لم أعد أتذكّر، وربّما لا أرغب في ذلك أصلاً.

معصيتي الأولى، وربّما الأخيرة.

من اليوم لا تكثر الدقّ حبيبي، فأنا متعبة ولن أفتح الباب مرّة أخرى لأنّي لست هنا. فعندما خرجت معك في ذلك الفجر البارد، لم أنس أبداً أن أسدّ ورائي كلّ شيء، حتى القلب المنتهك. لم يكن في نيّتي أن أهزّ راحتك الصغيرة، فأمامك عمر، وأمامك أحلام ومهالك كثيرة، عليك أن تقاومها. منذ سنوات طويلة وأنا أشعر بأنّي مريضة بك، بيديك، بعينيك، بطفولتك، بقصصك، وبتلك الأرض التي ترضعنا الدم والخوف، وتغرقنا بلا تردّد في الأسئلة المستعصية.

في وضع لا أُحسد عليه أبداً. تركت وهران وجئت إليك محمومة بك، لتجعل منّي امرأة ولأمتلئ بك. ربّما كان مزاجي متطرّفًا، فأنا لا أريد أنصاف الحلول. إمّا أن أحبّك بجنون أو أنساك دفعة واحدة. أصعب شيء على امرأة أن تحمل في قلبها رجلاً لم تشبع منه. في قلبي خيبة كبيرة من الناس المستكينين في كذبهم الدائم.

هل تدري أنّ خيباتنا قذفتني عشرين سنة إلى الوراء. انتبهت فجأة إلى هول الفجيعة. لقد مات جلّ الذين كنت أحبّهم. من اغتيل اغتيل، ومن آثر الانتحار فعل ذلك بدون أدنى تردّد، ومن هجر هذه الأرض بدون أن يلتفت وراءه خوف الشهقة القاتلة، انسحب ولم يطالب قتلته بأيّة فاتورة للموت

والعذاب. حبيبي، هل تعلم هول ذلك كلّه؟ كم أريد أن أقنع نفسي بأنّ أبي مات في حادث سيّارة ولم ينتحر على كمانه[1] من شدّة الخيبة التي لم يعد قادراً على تحمّلها؟ لقد سرق الورثة الحلم من حضنه. هل رأيت في حياتك رجلاً يتزيّن ويتعطّر ويعدّل من هندامه، والكرافاته، ويقبّلني على جبهتي قبل أن أخرج نحو مدرستي، ويقول بكلّ هدوء ويقين كمن يستعدّ لأجمل موعد في حياته:

ـ ليلي ابنتي، أرجوك، عينك على أمّكِ، لا أهل لها غيري وغيرك، اعطفي عليها قدر ما تستطيعين، هي أكثرنا هشاشة.

أضحك.

ـ بابا. يمّا لها حائط يحميها من أيّ مكروه اسمه سي ناصر.

ـ ياه يا ليلي الحبيبة لو تدرين، كم أشتهي أن أراك تهزّين رأسك للمرّة الأخيرة، وتعطين إشارة البدء بكمانك الجميل لفرقة فيلارمونيّة بكاملها.

ـ المهمّ ارتح يا بابا وسيأتي كلّ شيء في وقته. أعدك بذلك.

---

١ ـ لا أدري إلى اليوم لماذا نزع سينو كلّ هذه الأجزاء عندما نشر هذه الرسالة في روايته التي أعاد صياغتها من نصّ قديم: طوق الياسمين؟ ما الضرر أو الثقل الذي كان سيتسبّب فيه وجود هذه الفقرات؟ حتى الجزء الأوّل من هذه الرسالة قصّه كمن يقصّ بطّيخة، وأهمله بالكامل وكأنّه لم يكن معنيًّا به، مع أنّه مليء بصرخاتي ونداءاتي الخفيّة. لكن يبدو أنّ سينو لم يكن قادراً على رؤية أيّ شيء من ذلك. ونسي أنّي كائن موجود وأنّي أقع على الطرف الآخر من الادب على الرغم من جنوني على القراءة والتبس أحياناً ببعض الشخصيّات. لقد عجن سينو كلّ شيء وصنع عوالمه التي اشتهاها. وأنا لن أعجن أيّ شيء، ولكنّي سأنشر الرسائل التي قصّت رؤوسها ونهاياتها حتى أصبحت ليس هي. قلبي يوجعني كلّما قرأتها. أنشرها على قسوتها حتى ولو تحوّلت إلى وثيقة إدانة ضدّي.. أعرف أنّ سدنة الموت والقتل ينتظرونني في كلّ مكان.

سي ناصر يحمل في قلبه حزن أمّي كتهمة. يظنّ دائمًا أنّه كان بإمكانه إسعادها لو قبل لعبة البيع والشراء في البلاد، ولم يركب رأسه مع أصدقاء الماضي الذين تحوّلوا فجأة وباعوا ما تبقّى لهم من خطابات ثوريّة لشيطان المال.

كان والدي يخادع قدراً كان ينتظره في الزاوية. وعندما مات، جاء الوالي وكل المسؤولين المحلّيّين، وقائد الناحية العسكريّة الثانية، ورئيس كتيبة الدرك الوطني الذي رأيته سابقًا في بيتنا، ووزير الثقافة، وبعض ممثّلي الشعب، وكاميرات التليفزيون الوطني ليعزّوا في الرجل الذي أسعد الناس مدّة طويلة، بكمانه والذي كان له الفضل في عزف أوّل نشيد وطني في الجبال وفي المطارات. كنت أرى، ربّما ظلمًا، في وجوه المسؤولين ملامح عصابات من القتلة والمافيا. كيف يتجرأون على أن يأتوا اليوم لزيارته وهم لم يسألوا يومًا عن وضعه، وكيف كان يعيش منذ استقالته وتوقيف راتبه؟ لولا ميراث أمّي من والدها، لمتنا جوعًا ولنزلنا إلى الشوارع. كان قلبي مليئًا بالسواد. وعلى الرغم من إلحاح أمّي، لم أمدّ يدي لأيّ منهم. كنت أراهم من وراء الستائر وهم يتبادلون أطراف الحديث ويذكرون خصال الميّت. شيء بقي في رأسي، سمعته من قائد الناحية العسكريّة الثانية لم يقله لي والدي: كان سي ناصر، اللّه يرحمه، رجلاً حقيقيًّا. كنّا في أعالي جبل فلاوسن. بمناسبة مرور ثلاث سنوات على انطلاق حرب التحرير، أصرّ سي ناصر على عزف النشيد الوطني تحت سيل من القنابل والقصف المدمّر. حمل الكمان. خرج من الكازما[1]. تأمّل الحرائق التي كانت تخلّفها الطائرات كلّما نصبت أنوفها نحو الأرض. تنفّس طويلاً، ثبّت رجليه، وضع الكمان تحت ذقنه من الجهة اليسرى، أغمض عينيه، لكي لا

---

١ ـ مخبأ الجنود.

يرى ولا يسمع شيئًا، ثم بدأ يعزف النشيد الوطني. كنّا واقفين باستقامة داخل الكازما، بينما ظلّ يعزف بلا توقّف تحت القصف. نستمع إلى أنينه مصحوبًا بالقنابل التي كانت تتساقط على يساره ويمينه. نطلب من اللّه فقط أن يحفظه من موت كان قريبًا. اللّه يرحمه كان سبع، ذلّل الخوف بقوّة.

كدت أقول له: تمنّيته أن يكون ضبعًا مثلكم جميعًا ولا يعرّض نفسه للهشاشة. والدي لم تقتله القنابل، ولكن قتله الذين أقنعوه بمغادرة أوبرا غارنييه[1] للالتحاق بهم، ليقتلوه فيما بعد بطرقهم الساديّة. قتله رفاقه الذين خانوا الدم والخوف والدهشة التي تقاسموها في الجبال. ولكنّي عدلت عن الفكرة. ثم رأيت رئيس كتيبة الدرك الوطني يوشوش في أذن وزير الثقافة الشابّ، بأنّ السي ناصر اتّهم ظلمًا بأنّه كان في الأصل عازفًا في سهرات القادة الفرنسيّين، في باريس. أوقف في بداية التحاقه بالثورة، وخضع لبحث قاس استمرّ طويلاً. وكاد أن يُتّخذ القرار بذبحه، بالخصوص عندما اعترف بأنّه كان يعزف في أوبرا غارنييه، في الفرقة الفيلارمونيّة. لم يكن أحد يفهم ما كان يقوله. كانوا كلّهم فلاّحين، شجاعتهم في نيران أسلحتهم فقط. ثم ذكّرهم ببساطة طفل: وماذا سيحدث كلّ صباح عندما ترفعون العلم بلا نشيد وطني؟ لقد تركت الأوبرا وجئت بمحض إرادتي. ولولا تدخّلي، قال رئيس كتيبة الدرك الوطني، لقُتل سي ناصر ورُدم كما فُعل بالكثيرين.

تمنّيت لو كان والدي حيًّا، لسألته طويلاً عن هذه القصّة، ولكنّه خرج ولم يعد. أحسست بعاطفة غريبة تجاه رئيس كتيبة الدرك الوطني، قلت في

---

١ - Opéra Garnier (Paris).

خاطري، عليّ أن أزوره يومًا. كنت سعيدة أنّه ترك بطاقته الخاصّة لخال أمّي. فقط لأسأله عمّا لم يقله لي سي ناصر[1].

يواصل قائد الناحية العسكريّة الثانية: بعد الاستقلال جاءني سي ناصر إلى المركز وقال لي: لي طلب لديك باسم الدم الذي غطّى ألبستنا لرفاق لفظوا أنفاسهم في أحضاننا. اندهشت وقلت له: اطلب. قال: أرجو أن تساعدني على الاستقالة من الإشراف على الفرقة النحاسيّة للحرس الجمهوري. حاولت أن أصدّه، ولكنّه أصرّ بقوّة على قراره. وتدخّلت لدى الحرس الجمهوري ورئاسة الجمهوريّة وجئته بالاستقالة التي اشتهاها. رأيت في عينيه فرحًا غريبًا وبريقًا خاصًا. قلت له والآن؟ ماذا ستفعل؟ قال: سأعزف بحرّيّة كلّ ما في داخلي. ثم خرج ولم أره أبدًا.

أيُّها الطفل العنيد، كم تحتاج من الجنون لتتفرَّد عن بقيّة الخلق وتدرك أنّ حبّك صار لا يطاق، وأنّي لا أحتاج إلى فقهاء المدينة ولكن إليك أنت وحدك، لليلة واحدة. الحبّ الجميل هو الذي نشتاق إليه دومًا وليس ذاك الذي ننساه عندما نقف عند عتبة البيت للخروج. المخاطرة فيه صعبة، ولكن علينا أن نعيشه لندرك الشطط الحقيقي للمتعة؟

---

١ ـ سينو أدرج هذه الرسالة في روايته: طوق الياسمين وقد غيَّر فيها الكثير من الفقرات، إضافة ونقصانًا. ونزع كلّ الجزئيّة الخاصّة بوالدي مع أنّها مهمّة جدًّا، على الأقلّ بالنسبة لي. فيها جزء خفيّ من تاريخ والدي. كدت أقول لسينو يومها: خذها كما هي أو اتركها. الرسالة مقدّسة. لكنّي خفت أن أغضبه لأنّي أدرك سلفًا أنّه لم يفعل ذلك إنقاصًا من القيمة أو رغبة في محو ما لا يروق له. لكنّ روايته لم تكن تتحدَّث عن ذلك الموضوع. هذه قناعته ولا أستطيع حيالها فعل الشيء الكثير ولهذا أعيد كلّ شيء كما كان في البدء. هذا وعدي ولا زلت عنده.

كم تنقصك من الروح أيّتها البلاد المؤذية لتصيري بلاداً بلا منازع و بلا أقنعة، بلاداً كبقيّة البلدان، تحبّ ناسها وتكرم أحبّتها من حين لآخر حتى لا تنساهم ولا ينسوها.

أيّتها البلاد التي نكّست كلّ رايات الفرح ولبست حدادها وانتعلت أحذيتها القديمة التي أذلّت فرحتها، لا تكثري الدقّ حبيبي، لم أعد هنا. فقد خرجت باكراً هذا الصباح ولم أنس أبداً أن أغلق ورائي كلّ النوافذ والأبراج، وأسدّ القلب للمرّة الأخيرة، وأقسمت إنّني لن ألتفت ورائي. وقلت في خاطري ليكن، للحبّ ثمن وعليّ أن أدفعه لتلبية نداء غامض في داخلي اسمه الجنون.

لقد انسحبت من الدنيا مثلما يفعل الساموراي عادة عندما يخسر حروبه المقدّسة، كما كان يشتهي والدي أن يفعل دائماً. وها أنا ذي اليوم قد دخلت خفية القاعة المظلمة، وبدأت أتحسّس رأس سكّين المنفى التي سأتركها بعد قليل تنزلق من الجهة اليسرى للبطن، إلى أقصى اليمين.

أيّها الغالي، حبيبي، اعذرني، لقد يتّمتك وأنت صغير. لا تكثر الدقّ، فقد خرجت بعد أن ردّدت على مسامع القوم الهادئين ترتيلة الموت، ورميت كلّ المفاتيح في البحر الميّت حتى أنساك دفعة واحدة. عندما نعشق بكلّ جوارحنا نصبح قاب قوسين أو أدنى من الجنون أو من الكراهية. الكراهية التي تأكل كل شيء حتى نفسها، كالنار.

أنا لا أريد أن أكره أحداً.

أنت لم تقل لي ولكنّي أشعر بك من عينيك، تتساءل عن هذه المرأة التي تصرّ على أن تبقى طفلة ملتصقة بك. السنّ هو ما نشعر به في الأعماق وليست السنوات الزمنيّة، ومع ذلك كم أتمنّى لو كنتَ أكبر بقليل من سنّك لقلتُ أشياء أخرى لم تسعفني اللّحظة المسروقة لأقولها لك كما اشتهيت أن أفعل.

ـ ألا يمكنك أن تكبر قليلاً؟ كم تلزمك من المسافات لتدرك أنّ شوقي لك صار مثل اليتم، أعيشه وحيدة في قربك وفي بعدك، وأنت تتلذّذ بعينيك فقط، أو وأنت تعيش خلوتك بمزيد من القسوة والألم؟ هل تستحقّ حياتنا كلّ هذه الأحزان وهذا التمادي في الألم؟ ألا يكفينا هذا الموت الذي يطحن كل حميميّاتنا وخلواتنا المنكسرة؟

أعترف لك اليوم أيُّها الغالي بصحّة قولك الذي يغتال ذاكرتي كلّما اشتهيت أن أنساك: إذا بقيتِ على هذه السيرة ستضطرّين إلى الموت وحيدة. ومن قال لك إنِّي أريد أن أموت بين أناس يشتهون إيصالي إلى أيّ قبر قريب وأنا حيّة؟ لقد مات هؤلاء الناس منذ زمن بعيد وشغلهم الوحيد أن يُلحقوا بهم كلّ الأحياء مثل زمر النَّحل التي بدأت تتكاثر في البلاد. والدي، هُمْ من دفع به نحو الموت صمتاً، ثم سبقونا إلى التعازي والندب على الأرصفة والمقابر والطرقات، وذرفوا دموعًا لا أدري إذا كانت حقيقة صادقة.

ها أنا ذي اليوم، وللمرّة الأخيرة، أستدرج القدر ليصنع معي نهاية أشتهيها، لا كما فصّلها لي الآخرون. نهاية أنحتها بأظافري وأغزلها بأصابعي. الموت هو الحالة الاستثنائيّة التي نمارسها وحيدين، ونعبر دهاليزها بدون رفقة. هل تعلم أنّ الهنود الحمر كانوا يدركون قسوة الرحلة ولهذا اخترعوا لعبة مرافقة المحبّ بالانتحار المقدّس. بلادنا المنسيّة صارت تنجب هنودها الحمر. أبي كان هنديًّا أحمر في انتحاره. ليس أبعد من البارحة، فوجئت بخبر وفاة فنّان شعبي شابّ أطفأ شمعته مبكّراً في إحدى الطرقات السريعة وانسحب. المدهش في حالته ليس موته، فالحوادث المشابهة تقع آلاف المرّات يوميًّا، ولكنّ ملابسات موت صديقه هي التي استوقفتني. عندما وصله الخبر لم يكلّم أحداً. لم يبك. لم يعو بأعلى صوته كالذئب المجروح كما فعلت أنا في لحظة القسوة واليأس عندما خسرت والدي الذي لم أرث منه إلاّ خيباته وكمانه. صعد إلى شرفة الطابق الرابع المطلّة على الغابة البعيدة والبحر المنسي

الذي يختبئ كالسارق وراء الأشجار، ثم رمى بنفسه ليلحق بالفنّان الشعبي قبل أن يتخطّى هذا الأخير عتبات البرزخ. يبدو لي أنّنا شعب يرفض الحلول الوسطى، عندما يحبّ يتماهى، وعندما يكره، يأكل نفسه قبل أن يدمّر غيره.

وها أنا ذي قد بدأت آكل نفسي، أو ما تبقّى منها.

أفتح عينيّ على الطفل الذي فيّ، لماذا تتسمَّر هكذا؟ أما آن لك أيُّها الطيّب أن تعبر؟ ألم تدرك بعد أن كلّ شيء انتهى؟ فالمرأة التي عشقتها عمراً لم تكن معك طوال هذا الوقت الميّت، فقد عادت لتموت في سرّها الأوّل الذي لعنته مراراً، سرّ التيه والجنون؟ الريح التي قادتها إليك كانت ساخنة، والأمطار التي شهدت موعدكما الأوّل كانت طيفاً من حنين. تتساءل الآن في قفر هذه الذاكرة، ألم يكن اليوم الذي التقيتما فيه مجرّد صدفة تمّ تضخيمها حتى صارت حبًّا؟ ألم تكن تداوي بك جرح الجنون الذي اغتال جسدها؟

يا يوسفي الصغير، هذه المرّة كذلك لم يحالفك حظّ الصواب معي. أنت مع امرأة الشطط، لا شيء فيها يوحي بأنّها موجودة. مهبولة لا أحد سواك يعيرها انتباه الكائنات. الذي تبحث عنه فيّ أنت خلقته لترى فيه وجه من تحبّ أن ترى. لست أنا إلاّ ما فيك أنت. ولستَ أنت إلا ما بنته روحي عنك. ستتعذَّب كثيراً مثل كلّ محبّي المستحيل الذين يتعذّبون لغياب ما تصنعه لهم الظروف وأوهامهم.

أنا؟ تسألني؟ لقد أخطأتُ في كلّ شيء، حتى في طريق الذين كنت أحبّهم. أما كان من الأجدى لك أن تترك جسدك يحترق على نهدي امرأة أخرى وتمضي مثلما تمضي الخلائق، فلا شيء يضمن غدك، ولا حبّ سوى ما تسرقه الروح الضالة؟ لقد أحببتك إذ اشتهيتكَ ولكنّك فضّلت الهرب والشطط، على حياة مريحة نرى من شرفاتها الحدائق التي نشاء والسواحل التي نشتهي.

يا يوسفي انزع عنك لباس الصمت والخوف والغبن، أنت لم تفعل ما يؤذيني. لقد ألبستني المتعة وألم الشوق وانتظاراً جميلاً لست أدري إلى أيّة حالة سيفضي. لماذا تصرّ دائمًا على الجلوس في الكراسي الخلفيّة، وعلى البقاء مستقيماً كخيط بليد؟ زوليخة التي اشتهتك وقطّعت لباسك وحدها كانت لك ومعك وفيك، وما عداها صدفة تلد صدفة، وشوق يمحوه شوق، ومسافة تأكلها مسافة والضلالة أبقى من العقل المسجون.

يا حبيبي، يا سيِّد الغيّ والغيرة، لا تكثر الدقّ، فالأبواب الموصدة لن تفتح والمفاتيح اندفنت في رمل البحر الميت، وأنا انسحبت من ساحة الخيل. لا شيء يغريني للمزيد من الركض الذي لا يوصلني إلاّ إلى خطوتين وراء نقطة البدء.

هي الرحلة تصل إلى منتهاها، ألم يكن هذا مشتهاك الدفين؟ لهذا عندما خرجتُ في هذا الفجر الضبابي، سكّرتُ كلّ الأبواب والمنافذ حتى لا ينفذ الهواء السخي إلى روح الموت. امش بهدوء وحاذر من أن توقظ النوار، وزهر الياسمين، والبنفسج، والنرجس اليتيم، والحبق النائم، والمعزوفات الضائعة لباخ، وموزارت، وسان سونس، والنشيد الأندلسي المسروق الذي كان والدي يؤدّيه بكلّ عنفوان وحزن وسرّيّة. الناس ها هنا يأتون ثم يذهبون ولا أحد يسمع أناشيدهم وأنينهم. اتركني أخْتَرْ موتي فأنا متعبة من مزالق الدنيا، ودعِ الرياح تبعثر زرعها، وليجعل الخريف القادم من عود النوار الذي سأسكنه، متعة في فم العاشقين. ربّما عرفتْ هذه البلاد، بعد زمن، كم كانت مخطئة إذ أخطأت الطريق الموصل إلى عاشقيها الذين ينطفئون الآن بين يدي قاتلها الهمجي.

أشكّ في كلّ شيء، ولهذا عندما اخترتك. كنت أختبر يقيني الذي لم يخدعني مثلما خدعني الآخرون. فعندما يكون الشكّ مرادفًا للحبّ، ويكون

الحبّ مرادفًا للصدفة، الأجدى لنا أن ننسحب قبل أن يدركنا قبح الأشياء؟ فالروح في حضرة الزوغان تغيب. محاربة طواحين الفراغ متعبة وقاسية . لم تعد لديّ قوّة أبي وأسلافي العظماء لخوض الحرب المقدّسة.

أنت قبلتَ أن تلعب معي لعبة الصدفة، ومن تجرّأ على عبور الصدفة عليه أن يتحمَّل قسوة فكّ أسرار الظلال. هكذا نحن، يوصلنا صدقنا دائمًا متأخّرين. وعندما نصل، يكون الخطأ حليفنا في النهاية. نحضّر حياتنا لاستقبال كلّ شيء، حتى الموت نتعلَّم كيف نبتلعه جرعة جرعة، و لكن نحترس دائمًا، بكلّ الوسائل الممكنة وغير الممكنة، من الخيبة، لتفادي خسارات الصدفة ونحن فيها.

لستَ الأوّل في الدنيا الذي تكسره الصدفة ولا الأخير أيضًا. كلامك. لكنّك الأوّل الذي رأى الصدفة في شكل امرأة عاشقة من شعر الرأس إلى أخمص القدم. وعندما لامس عمقها، صارت رمادًا وغبارًا قبل أن تصبح بياضًا في وضح الفجر البحري، ثم ظلاً أبيض سرعان ما ذاب في الفراغ.

هل نحبّ إذ نعلن للآخر أنّا نحبّه؟ أم نمتحن النفس إن كانت قادرة على أن تكون؟ سنوات انقضت وبعض الغبار، ماذا بقي فيك أيّها القلب المفتون من مخابئ لم تفتّش؟ لم تتعلّم بعد يا هذا الولد الضائع في قفار الدنيا أنّك لم تعد طفلاً ولكن خبلاً وسحراً وجذبًا؟ اتبعني إذا استطعت، فقد تركت لك ليلة وعرسًا ودّعت به طفولة منكسرة، وتركت لي زرعًا في الأحشاء وتمزّقًا كلّما أحببت غيرك تذكّرته. لا تتخيّل أنّني أصبحت عاقلة؟ أبدًا. إذا جئت وعثرت عليّ في المدينة نفسها، سأرتكب معك حماقة اليوم نفسها، وسأشتهيك بالقدر نفسه الذي نشتهي به المعاصي. وإذا وجدتني تربة، فضع على بقايا القبر بعض الزهر الذي تشتهي، والنوار الذي تحبّ. و إذا لم تجد قبري، اخترع لي قبرًا وضع عليه بنفسجًا وحبقًا يحفظني من العين الكريهة.

حبيبي الغالي، لا تكثر الدقّ، فأنت تُتعب يديك. كلّ الأبواب موصدة. بي الآن رغبة عارمة لغلق كلّ ما تبقّى من نوافذي، ومنافذي الصغيرة، والنوم داخل سكينة بلا نهاية مثل إزميرالدا التي هرب من يديها حبّها الجميل. وعندما أستفيق، تكون ذاكرتي مساحة من الضوء، قد خلت من كلّ ظلام غبار السنوات الهاربة التي انسحبت داخل كذبة عالية وعظيمة، اسمها الحياة.

بي رغبة، عمري، للصراخ بأعلى صوتي في وجه الاستحالات الكبرى، وأكل كلّ تراب الأرض وشرب مياه هذا البحر الأعزل، لمعرفة مخابئ اليقين. لكن من يتحمّل صراخي؟ حتى الأقربون وأقرب الأقربين لم يلتمسوا عذراً عندما صمتوا وخرجوا من الأبواب المفتوحة، ومن زوايا الصدفة.

أيّة صدفة ملعونة تسرقنا الآن أيّها الحبيب الغالي؟

أيّ جنون وأيّ حبّ يسجننا في لغته الآن؟

قبل قليل فقط كان والدي وعشّاقه الأوفياء، هنا، هنا بالضبط، جالسين. يشربون القهوة ويتبادلون، بكلّ يقين، كلمات العسل والحبّ، ويعزفون أندلسًا هاربة، وباخ وموزارت، ويتقاسمون السوناتات المتعدّدة ويتراشقون بالأحلام. فجأة، تشتّتوا ورجع كلّ واحد إلى جرحه الأوّل، يبحث عن مسقط رأس كلمات الحبّ الأولى.

لقد ماتت أرضنا الأولى يا حبيبي وعمري.

مات مطرنا الأوّل.

ماتت ابتساماتنا الأولى.

وانكسرت ضحكاتنا الطفوليّة، ولم يبق إلاّ خراب الحقيقة البكر.

ها قد بدأت انحداراتي القصوى نحو شطط انكشافات الروح. وها أنا ذي أتجرّأ اليوم وأعبر الخيبة والصدفة معًا، مفتوحة العينين هذه المرّة، عارية القلب والذاكرة.

كم يلزمنا من الألم والانكسارات لندرك أنّنا طوال السنوات التي مضت، كنّا نركض حفاة عراة وراء غيمة جافّة مثل رحم يابسة لا تنجب إلاّ رعشة الفراغ، مخطئين في كل التفاصيل الدقيقة للحياة، وأنّ ما كنّا نظنّه مطلقًا لم يكن إلا صورة إيهاميّة لأشواق نريدها أن تكون حقيقة ولم نصل لها. وأنّ بيني وبين نارسيس شبه الدم والنجوم والخوف. ماذا حدث لنارسيس عندما اكتشف الجرح الذي كان ينزل من القلب كالخطّ المستقيم؟ لم يتألّم للجرح، هو يعرف مسبقًا أنّ لكلّ جرح خاتمة، لكنّ وهمه باستقامته، وضلال الطريق، آذياه كثيراً.

اليوم، بعد كلّ الذي حدث ممّا عرفت، ممّا كان يمكن أن أعرف، وممّا لم ولن أعرفه أبدًا، يحقّ لي أن أرى ما يختبئ وراء مختلف الغلالات وأحجبة الفتنة الوهميّة. في حاجة إلى الفتنة، فتنة الروح والجسد، ولكنّ الدنيا لم يعد فيها ما يثير شهيّة الانتحار، وما يهزّ الافتتان ويُخرج الإنسان عن جبروت العقل.

هل كان من الضروري أن أرتهن للصدفة القاتلة لأرى صفاء الخيط. إنّي الآن أراه بمطلق الراحة، وبمطلق العذاب الذي لا يطاق. الألم عندما يصل إلى منتهاه يموت الجسد، ويتضاءل الخوف من الموت، بل الموت يصير أمنية مستحيلة.

أستطيع اليوم بعدما هدأت قليلاً، وربّما لوقت قصير ليسترجع القاتل والضحيّة أنفاسهما قليلاً، أصوات الرصاص وعواصف الخوف وصراخ المقتولين على منحدرات البلاد البعيدة، ولملم القاتل والمقتول جثثهم، أن أعود إلى الصدفة التي لاقتني بك في ذلك الشتاء البارد ومنحتني الكثير من الحياة، والكثير من الحزن والنسيان. لقد كنت فرحي وخرابي الكبير. كان الهواء رطبًا في ذلك المساء العاشق، الليلة نفسها كانت مرصّعة بالنجوم حينما قرأت الدهشة في عينيك.

قلتُ لك:

ـ لماذا الناس هكذا؟ كلمّا أحببناهم ازدادوا ضراوة وتنكُّراً. هل هو القانون الخفي للكراهية المغطّاة بالأغلفة الخرافيّة؟ هل عليّ أن أكره لأزداد قربًا من الآخرين؟

يبدو أنَّ في الناس قدراً من العصيان يسير مع الدم. لن يرتاحوا إلاّ إذا قتلوا الروح التي فيهم بكثير من الحيلة والأنانية.

التقينا قلبين منكسرين يبحثان عن ظلّ صغير يختبئان فيه. كان هبلي كبيراً، وطفولتك مقلقة. طوال السنوات التي انسحبت بسرعة، ونحن نحاول عبثًا أن نجعل الفوضى ترتهن للنظام، والنظام يقبل بصدق الفوضى، ونراهن على كذبة حبّ الناس البيضاء التي أفقدتها السنوات المتعاقبة لونها الأوّل.

أشهد لك اليوم بالصبر وطاقة التخفّي. لقد كنتُ دائمًا أُجانب الصواب وأحزن من شيء لم يكن هو في الحقيقة ما يدعو إلى الحزن. عندما تظهر امرأة الصدفة بعض خفائها، تخبِّئ الأكثر هولاً لأنّها تعرف مسبقًا أنّ غباوة الرجل التي ترتهن لسلطان القوّة والكذب، لم تعلّمه إلاّ هدهدات اليقين الوهمي.

يا يوسفي الصغير؟ يا عمري المسروق... ألم تعرف بعد أن لا يقين في الدنيا سوى الموت. حتى الحياة ليست سوى لحظة عابرة تكسرها النهايات الحتميّة. ألم تدرك بعد أنّ الذين يريدون رأسك كثيرون، احذر، لقد أصبحوا اليوم فيك يا ابن أمّي وأبي، فأنا ذاهبة، تاركة لك أبوابي الموصدة وشططي الكبير.

رجالنا مبتئسون، والرائعون فيهم يموتون مبكّراً. أنت لست منهم. أنت طفل جميل، حاذر أن تصبح رجلاً وتشيخ بسرعة. اترك لهم فتوحاتهم ورجولاتهم الوهميّة، فلست في حاجة إليها مطلقًا. أعرف صديقة، بعد

خيبات متعدِّدة، تأمَّلت عشّاقها في العينين، وعندما عرفت أنّهم لا يستأهلون أن تحزن من أجلهم، تركتهم و تفرّغت للدنيا مرّة واحدة.

- Les hommes sont toujours comme ça, ils frappent eternellement à la mauvaise porte. Ils arrivent, le plus souvent, du plus mauvais côté[1].

يحاذون دائمًا الحقيقة ولا يلمسونها أبدًا. حيث يظنّون الصواب، يخطئون في كل التفاصيل الممكنة. وحدها المرأة تدرك سرّ اللعبة وتتقن لمسها، وتحريكها بلباقة تصل حتى الجرح العميق.

هل يصلكِ الآن في خلوتك صوت التكسّرات الشاقّة التي تمزّقني؟ النحيب الذي تسمعه يأتي من عمق الروح، هو نحيبي. أنحدر الآن وحيدة نحو تربة الموت والخوف، في كفّي بقايا قصص قديمة لم تعد صالحة، وموجات لم تسعفها الرياح لتصل إلى القلب كاملة، وخيبات لا تُحصى. العمر لم يعد يسعفه الوقت للعودة لها وتصحيح مساراتها.

ما الذي يحزن امرأة بَنَتْ طوال العمر خلاءها بفرح لا يُضاهى؟ أنّها ظلّت وفيّة لخرافة هي أسّستها؟ أنها تستطيع أن تقسم برأس كلّ الصالحين إنّ خرافتها التي بنت عليها أشواقها كانت هي الدنيا وهي الآخرة؟

أستطيع اليوم أن أقول بلا تردُّد، منكّسة الرأس، أمام اللّه عندما يسألني عن باطن جرحي: إلهي لماذا لم تتخلَّ عنّي في وقت مبكّر عندما نفرتك؟ أو عندما وضعتك وأنا صغيرة داخل غلاف رسالة، ورميتك في أقرب شط لأنّك لم تجعل الطفل الذي أحببت يقاسمني كلمات الشوق؟ قلت لك أغرقها إذا شئت، فقد أعطيتها كلّ شيء ولم تعطني إلاّ هبة الفراغ. عندما هدأت الرياح، سمعت قعقعة ضحكاتك وهي تنكسر في الخلوة. كنتَ فقط تسخر من هبلي ومن سذاجتي الطفوليّة.

---

[1] - الرجال دائمًا هكذا، يدقّون دومًا على الباب الخطأ. ويجيئون عادة من الجهة الأسوأ.

اغفر لي، فقد أخطأت في يقيني. في الدنيا شيء آخر لا علاقة له بالعطاء. الحبّ، يا اللّه، أكبر حالة التباس. قد نحبّ رجلاً لا يلتفت نحونا مطلقًا، قد ننتحر لآخر، وهو لا يعلم مطلقًا بوجودنا، وقد ييبس آخر ليصير كالحطب من أجلنا ونحن لا نعرف، بل قد نرتمي في أحضان قاتلنا، ونحن نعرف أنّه جلاّدنا الأبدي، ونتمادى نحو التهلكة. يبدو لي أنّ وراء ذلك كلّه يختبئ عطش الروح. كلّ شيء لم يُشبع بالشكل الكافي، تبقى شهوته معلّقة إلى يوم تستفيق كالبركان الميّت. عندما تنطفئ الرغبات المدفونة، يخرج إلى النور ما يمكن أن نسمّيه حبًّا مثل ماء صاف بين الصخور الزرقاء، لكنّه عندما يخرج تكون الدنيا قد ماتت في أعيننا، والزمن قد مرّ، والجسد قد كَلّ، والبصر قد زاغ عن غيّه، والعمر قد راح، وتحمّل الصدمة يصبح قاسيًا وثقيلاً.

كذب الذين لم يصدقوا أبداً.

نكذب على أنفسنا كثيراً إذ نظنّ بأنّنا نحبّ كثيراً من النساء وكثيراً من الرجال. الدنيا عودات مستمرّة إلى البدايات الأولى. باستمرار نلتصق بالذين تركناهم عراة ولم نُشف منهم. وأنا جئتك لأُشفى منك. ولا أدري إذا كانت ليلة جميلة كهذه كافية للشفاء منك؟

فالميّت، والميّت الموقّت، والبعيد منذ زمن، والقريب قليلاً، والقريب أكثر، يزدادون تألُّقًا عندما يسكنون ضمير الغائب.

أيُّها الغالي، حبيبي الذي صنعته من دفء الروح ومن خبايا القلب المرتبك. إلهي الصغير الذي شيَّدته من الخيبة والصدفة والقلق، اغفر لي. لم يبق أمامي إلاّ البحر، أضع فشلي بين يديك، وأقول لك أعرني بعض الشجاعة لأعبر هذا الهول. الرجال فاشلون وقساة. امنحني أنا المرأة المجنونة، زوليخة، يومًا واحداً، وسأركِّب جنون الافتتان في قلب يوسف حتى يفتح عينيه ويصير رجلاً. لم تعد لي القدرة الكافية لممارسة كذبة نارسيس الجميلة. نحبّ رجلاً لا

وجود له إلاّ فينا، يشبهنا في كلّ شيء، وعندما نكتشف هول الفداحة يكون الزمن قد دار دورته.

مرآة النرجسي عمياء، وعماها لا يداوى.

لا تكلِّف نفسك حبيبي مشقّة البحث في الأسباب، فلن تجد ما يشفي غليلك. لذّة الدنيا أنّها خُلقت ببعض غموضها، وإلاّ لكانت لا تساوي جناحي بعوضة.

ما يزال في العمر متَّسع لشفاء الروح، أعرني بعض الوقت فقط. وعندما تكبر، اعبر البحر نفسه الذي سلكتُه، ولا يهمّ إن استحالت عليك الدنيا، أو خسرت العمر.

ألم تقل إنَّك تحبّني أنت كذلك، وإنّك لن تُشفى منِّي؟ إذن لا تكثر الدقّ حبيبي، فلا أحد وراء الباب، لقد ذهب الذين كنتَ تحبّهم. انسحبوا باكراً على رؤوس أقدامهم لكي لا يزعجوا أحداً. عندما خرجوا في ذلك الصباح البارد، كانوا يعرفون أنّهم لن يعودوا إلى هذه الأرض مرّة أخرى. ولهذا أفهم لماذا رفض والدي، سي ناصر، الخروج عندما أظلمت الدنيا في عينيه. ليس لأنّه كبر كثيراً، ولكن لأنّ الدنيا صغرت في عينيه.

اليوم كلّما خطوت خطوة جديدة نحو حتفي الجميل، تذكّرت كلماته التي تطنّ في رأسي كضربة سيف جافّة، أو كناقوس كاتدرائيّة قديمة:

«ليلي، حبيبتي، لا تشغلي بالك. نحن هكذا. لا نترك وطنًا إلاّ لنتزوّج قبراً في المنفى. منفانا الذي صنعناه من الخيبة أو الذي صنعنا على شاكلته المنكسرة».

حبيبي.

أشتهي أن أنساك لأرتاح منك دفعة واحدة.

فهمت كلّ شيء. أبحث داخل اللاجدوى عن كلّ الأعذار لكي لا أنساك أبداً. لكنّي أكاد أُجنّ من حماقة قتلنا. وحدك تعرف الخراب الذي ألحقته بنا.

أيُّها الأهبل، أرجوك توقّف قليلاً، لقد تعبت[1].

ولأنَّك تخلّيت عنّي، انتحرت. تزوَّجت. لم تجد حلاً لجرحك إلاَّ الانتحار مثلي.

ارتبطت بك مثل الذي يرتبط بقشّة نجاة. أشهد لك أنّي الآن منهكة ولم أعد قادرة على التحمُّل. أشعر كأنّك جررتني نحوك ثم تخلّيت عنّي. لم

---

١ ـ مشكلة سينو أنّه أمام الكتابة ينسى كلّ شيء أحيانًا، حتى أنّي موجودة وأعاني مشاكل عدّة، ولست مريم التي يحلّ مشاكلها عن طريق اللغة. حلّ مشاكلي لا يحتاج إلى لغة فقط، ولكن إلى جرأة حقيقيّة. اللّغة لا تحلّ شيئًا في مثل هذه الحالات. تخفّف الوهن وتسكّن الألم، ليس أكثر. كنت موافقة أن نعيش تلك الحياة البوهيميّة التي وفّرتها لنا وهران الجميلة، ولكنّ ذلك لم يكن كافيًا. كنت محاطة بضوابط اجتماعيّة كلّها كذب، ينحت كذبًا. كنت أريد حياة أخرى تمنحني سعادة الركض أمام الجميع، تقبيله أمام المحبّ والحسود، عضّه عندما يخطئ في حقّي، من شفتيه أو حلمتي أذنيه. كنت دائمًا أقول لنفسي لماذا أنا دائمًا نكديّة؟ ألا يوجد في الحياة ما يستحقّ أن نعيشه غير هذا الرهان المجنون؟ لماذا تزوّجتُ إذن، وكان بإمكاني أن أظلّ على جنوني الأوّل؟ هي حالة من الخلل الذي ينتابنا من حين لآخر. ربّما في أعماقي كنت أريد أن أثير غيرة سينو وأجعله ينتفض في آخر لحظة، عندما يرى امرأته التي أحبّها تذهب نحو رجل آخر. أخطر هزيمة للرجل هي هذه. بعضهم يصل حدّ القتل من أجل ذلك. ولكنّ سينو كان ملتبسًا مع شيء آخر. دفعه هو أيضًا نحو حماقة لم يكن مستعدًّا لممارستها في ذلك الوقت على الأقلّ: الزواج. كانت هاجر امرأة طيّبة ومليئة بالحياة، لكنّي كلّما رأيتها شعرت أنّها كانت مثل رياض زوجي، ضحيّة قصّة حبّ، كلّما انطفأت، بدأت من جديد. وكلّما ظننّا أنّ رمادها قد خمد، قامت مرّة أخرى لتعلن لنا أنّها ما تزال هنا. كنت فقط مريمته التي لم يكن قادراً على التخلُّص منها ومن ذئبها الذي حبسها في البيت، وكان هو جنوني وهبلي الذي فيّ.

أعد أرى لزعر الحمصي الطيّب والجميل والساذج أحيانًا بعفويّته حتى في كذبه الصغير. وأصبحت أواجه مثقّفًا صعبًا في رأسه عشرون ألف حساب. يلعن دين كلّ أفكار الدنيا التي تقف ضدّ سعادتنا، فلا تقل لي إنّك ترفض الزواج لأنّ شيئًا فيك مناف لذلك؟ كيف تريدني أن أكون لك كما أشتهي، وأنت تراني كسارق؟ أريد أن أحضنك، أن أقبّلك في الوقت الذي أشاء ولا أخجل، أريد أن أقول للجميع اللّي ما عجبوش الحال، ينطح رأسه مع حيط! ولكن ساعدني فقط لأكون لك.

أقبل أن أدفع الثمن في صمت ووحدة، لكن أرجوك لا تحمّلني شقاوة الدنيا كلّها؟ لا أستطيع. لقد أصبحت هشّة كجناحي فراشة مريضة، ويمكنني أن أصاب بالعطب المزمن بسهولة. أنا لم أطلب منك سوى أن نجمع مصائرنا الصغيرة، ولكنّك اخترت طريقك مثلما اخترت أنا داخل الضيق والعبث الذي لا معنى له على الإطلاق، أكثر المسالك يأسًا.

عتابك يقتلني ويعذّبني. يا ربّي كم أحبّك وكم تبدو بعيداً... ماذا يحدث فيك؟ ألم تكن أنت من اختار هذا القدر؟ تختار قدراً وتستدرجني فيه لتسهل محاكمتي؟ ألم تكن أنت من فضّل ارتكاب هذه الحماقة ضدّ نفسه وضدّي؟ كلامك يقتلني. يعذّبني وسأجنّ إذا استمرّت الحالة على ما هي عليه. فأنا لا أملك حيالك إلاّ الحبّ والجنون. ولكنّ خياراتي الآن صارت معدومة. فقد وضعت نفسي داخل موت محتوم عليّ أن أقاومه أو أنسحق فيه. أنت غادرت المدينة منذ الإعلان عن زواجنا أنا ورياض، صديقنا المشترك الذي أغرته التجارة الكبرى على الجامعة البائسة. رياض يريد أن ننسى حياة العزوبيّة وأن نتفرّغ لحياتنا الزوجيّة. ربّما كان محقًّا. أريد أن أنساك أنا أيضًا، لأرتاح منك دفعة واحدة. تقسيط النسيان والحبّ إلى أجزاء، جنون واستحالة. ولكنّك هاهنا، في لون الدم وعطر البشرة، حيث لا شيء يُنسى.

كان يفترض أن لا أعود لك، ولكنّك أعدتني بجنونك.

هربت منّي داخل فراغات المدينة ولكنّي وجدتك. وجدتك بواسطة عائشة صديقتي في الكونسرفتوار، التي كانت وسيطنا في الأيّام الصعبة. مهبولة أكثر منّي. كانت دائمًا تقول وهي محقّة في ذلك: زيدي اركبي راسك وتشوفي واش يصير لك؟ لن نعيش حياتين. لست أدري كيف سلّمت لها الرسالة الأولى لتوصلها إليك. كان يجب أن لا أفعل ذلك. وها أنا ذي قد انغمست في دوّامتك من جديد. قالت لي عائشة إنّها تعرف مكان إقامتك في العاصمة، لكنّي لا أريد أن أعرف لأنّي أدرك سلفًا أنّي إذا رأيتك لن أستطيع مقاومتك. عائشة تحبّك كثيراً، ولهذا لا تترك فرصة إلاّ وذكرتك بإعجاب. لو لم أعرفك، لقلت إنّك أنت من كلّفها لكي تقول ذلك الكلام. مليح أنّي أبذل جهوداً مضاعفة لكي أتفاداك، فلا تطلب منّي المستحيل، وإلاّ ستضطرّ إلى دفني حيّة. غيابك يقتلني والحماقة التي أنا فيها تجهز على ما تبقّى من عقلي.

حبيبي. أقولها لأنّي لا أملك غير ذلك. حبّك يشلّني ويقهرني. أنا كذلك اليوم أشعر بالقرف، من نفسي أوّلاً، ومن كل ما يحيط بي. هل يعقل؟ عليّ أن أتحايل على نفسي لكي لا أراك وأنا أتحرّق داخليًا، فقط لأثبّت لمحيط معتوه ومنكسر أنّي الزوجة المثاليّة؟ لست الزوجة المثاليّة، ولا أريد أن أكونها. هذه المثاليّة السخيفة تقتلني. لكن، وحياتك، أنا أريد أن أنساك. ما جدوى هذا الشطط الذي لا معنى له؟ أشعر باضطراب كبير. في هذه الفترة أمرّ بظروف صعبة يطول شرحها. رياض أصبح صعبًا معي، وضيّق كلّ حدودي، ولا يمكنني أن أعيش في هذا الضيق. لا أطيق كلّ هذه القيود. اللّه غالب، هذه هي أنا. أعذره أحيانًا لأنّه يعيش مع امرأة لا تستطيع حتى أن تبادله شيئًا من النفاق العامّ المتّفق عليه.

لا تعتب عليَّ إن لم أكتب لك. سوّدت كلمات كثيرة ولكنّي فشلت في تبييضها. وكلّما تذكّرت حماقتك، وأنت تردِّد عليَّ أسطوانة كم صرت أكرهها: *لا أتزوّج لأنّي غير صالح لأن أكون زوجًا*؟... أكاد أصاب بالجنون. يا أحمق! وهل أنا أحبّ الزواج، هذه الكذبة المتّفق عليها من طرف الجميع؟ روحي لك، ولكن قل لي إذن ما هو الحلّ لكي أستمرّ معك بجسدي؟ هل لديك مؤسّسة أخرى أجمل وأحلى[1]؟ هل يمكنك أن تثبت لي أنّك تحبّني بغير ذلك؟ لقد أدخلتني في دائرة أخشى أن تكون أنت أيضًا ضحيّة لها، ولن تملك أيّة وسيلة لتبريرها[2]. أتمنّى أن أحرق كلّ شيء بما في ذلك قلبي وقلبك. لماذا تصرّ دائمًا على إيقاظ جروحي؟ أنت مجنون. الوقت، بل الحياة نفسها لم تعد ملكي. أن تمسك قلمًا وتخطّ جرحًا على الورقة، معناه أن تملك قدرًا كبيرًا من العزلة والجرأة. أنا اليوم يا حبيبي خسرت أهمّ شيء فيَّ، جرأتي. قلبي الذي ينبض على وقعك لم يعد يتيح لي فرصة الكتابة. إنّه يغار منك عليّ.

حتى وجهك لم يعد ينصاع لي كلّما احتجت إليه. في مرّة من المرّات فكّرت أن أكسر نهائيًّا كماني الذي ورثته عن والدي، وأنهي علاقتي بالحياة. عندما رفعته إلى السماء وكنت في حالة هستيريا، مدّ سي ناصر يده نحوي. ربّما كنت أهذي، ولكنّ والدي، اللّه يرحمه، قبض على معصمي بحنان خفّف

---

١ - هذه الأسئلة نزعها سينو عندما استعار هذه الرسالة في روايته طوق الياسمين. تمنّيت أن يكون أذكى وأشجع وأن ينشر كلّ شيء وأن لا يقنعني في كلّ مرّة بأنّ الرواية تقتضي هذا الحذف. أعتقد في أعماقي أنّ أسئلة مثل هذه تضعه على الحافّة التي تدفع به إلى إعادة النظر في نفسه.

٢ - لم أكن مخطئة. بعد حماقتي بقليل كما يقول سينو، فقد تزوّج بهاجر، بعدي بمدّة قصيرة، ودخل المؤسّسة نفسها التي استمرّ يمقتها وأنا متيقّنة من صدق ما يقوله، ولكنّه كان مثلي، انتحر بشكل سرّي.

من يأسي وغضبي، وحكّ على رأسي كما تعوّد أن يفعل عندما كان حيًّا: شويه... شويه... *يا ليلي. هل تتجرّئين على كسر الكمان؟ رائحة والدك وأجدادك الغابرين؟* استسلمت له بكلّي. ثم أخذ منّي الكمان بهدوء، ووضعه على الطاولة، وعاد نحوي وضمّ رأسي إلى صدره الواسع والطيِّب وقال لي: *ابكي. ابكي. ابكي... لا تتركي هذا الرماد كلّه في قلبك، فأنت لا تتحمّلينه.* وبكيت مثلما لم أبك أبداً في حياتي. وعندما فتحت عينيّ، وجدت بعض الراحة. تمنَّيت أن أجد والدي ولكنّه كان قد انطفأ نهائيًّا. عزفت كثيراً في ذلك المساء كل ميلوديات الحنين والحبّ والعزلة والليل. منذ ذلك اليوم لم تغادرني صورة والدي.

الشريط الذي بعثتَه لي مع عائشة كان مدهشًا. أنت تعرف أنّ أنين الكمان يأسرني بقوّة. يا بختك ما أصفى بالك! ما أقسى قلبك عليّ وعلى نفسك! أنت تؤذيني بحماقاتك التي لن أغفرها لك أبداً.

كن كما أشتهيك أن تكون، رجلاً جميلاً لا تتعبه متاعب الضباب والظلمة. *في الأفق دائمًا شيء آخر*، ألم تقل هذا يومًا وأنا أضع رجلي على العتبة للمرّة الأخيرة وأنتظر أن تقول لي عودي... *أرجوك ابقيْ قليلاً ربّما وجدنا حلاًّ*؟ ولكنّك لم تفعل. خرجت من صمتك بجرح سيستمرّ في النزف طويلاً.

تمنّيت أن لا أكتب شيئًا لأنّي في حالة لا تسمح بذلك، وها أنا ذي أكتب ولست راضية عمّا كتبت. اغفر لي هذا الأسلوب المرتبك الذي يشبهني في كلّ تفاصيلي، ليست هذه لغتي ولكنّي لم أجد سبيلاً آخر للصراخ في وجه صمتك إلاّ هذه الكلمات القليلة التي قالت ما لم أشته قوله.

هل تدري حبيبي أنّي بدأت أقنع نفسي بأنّك لم تعد لي، وربّما كنت لامرأة أخرى غيري. ثم لماذا الإصرار على العبث والموت؟ ألم يختر كلّ واحد

منّا مسالكه وأقداره؟ أو لنقل إنّي اخترت انتحاري بعد أن أغلقتَ كلّ الأبواب في وجهي. أنا مرتبكة وشديدة الشكوك في قدراتي الخاصّة، وربّما قلت حماقات لا أقدّر عواقبها.

كلّ شيء ينتفض فيَّ وكأنّه يحدث الآن. أراك منحنيًا على ركبتيك تفتح معبراً للمرور نحو الخوف وأنا أتساءل في خاطري: أيّ سحر يقوده نحو كلّ هذا العذاب؟ ألم يكن من الأجدى لنا أن ندخل من البوّابات العاديّة لمصبّات نهر الحبّ والعشق المدهش؟ رأيت في المنام رجلاً طيّبًا يلبس الأبيض، يمتطي صهوة حصان مرقّط، يفتح في وجهي بوّابات غريبة. ثم يسحبني وراءه وسط خلجان النباتات الاستوائيّة، ويدفعني إلى التزام الصمت والصبر. أيّ باب يملك كلّ هذه المغاليق الطبيعيّة التي تطوّقه وتجعل منه حصنًا منيعًا؟ ثم... فجأة... يطير من أمام أعيننا سرب من النوارس التي تندفن الواحد تلو الآخر في مساحات الضباب المتصاعد. نخطو خطوات أخرى إلى الأمام. يتمتم: أششششت... لم نعد بعيدين عن النبع. فجأة تجتاحنا دهشة الخلعة وكأنّنا نكتشف المدينة للمرّة الأولى. يندفع النور متدفّقًا مختلطًا بصفحة الماء وبنعومة الأشياء المحيطة. نتمتم من جديد تحت وطأة الدهشة. الرؤية السحريّة فتحت في وجهي صورة أمّي كليلة القدر. أمّي كانت امرأة من نور وماء. وجهها صاف كمرآة قبل أن يكسرها ذهاب والدي المحزن.

يا ليتك خرجتَ من قلبي ولم تعد، لأعطيتني كلّ مبررات نسيانك، وحرق كل ما يجمعني بك، وسدّ كلّ البوّابات لأتفرّغ بعدها لبيتي وزوجي وأقبل بقدري. ولكنّك جئت بدون أدنى تردّد. وكان يجب أن لا أراك لنتمكّن أنا وأنت، كلٌّ في فراغه، من رتق جراحاتنا المنفتحة على الذاكرة، ونعيش حياتنا بحدّ أدنى من السكينة. وهل كنّا نستطيع؟ فلا أنت تركتني، ولا أنا استطعت أن أتفاداك. كنتَ كالقدر، بل القدر بعينه. قلت لك في الرسالة التي بعثتها مع عائشة لاختبارك، عندما عدت من سفرة جزيرة كريت:

ـ متعبة جدًّا، أريد أن أراك. إذا لم تأت سأنتحر[1].

الجملة السحرية الوحيدة التي كانت كافية لإخراجك من صمتك وهروبك وخوفك منّي أو عليّ، لا أدري؟ هكذا إذن سأتمكّن من رؤيتك بعد كلّ هذا الفراغ؟ فجأة وجدتك أمامي، بعد أن أكلني اليأس والخوف. هكذا إذن ما زلت أعني لك الشيء الكثير؟ أما زلتَ تحبّني إلى هذه الدرجة بعد الحماقة القاتلة التي ارتكبتَها في حقّك وفي حقّي؟ لا بدّ أن نكون قد أصبنا بمرض لم نعد قادرين على تحديده؟ ما زلنا سجناء غربتنا وخوفنا.

عدت متأخّرة من شهر العسل الذي لم أدر كيف مرّ، ولا أعلم أصلاً جدواه. رياض كان أسعد إنسان. كل مساء عندما يستحمّ ويأتي نحوي، كان عليّ أن أغمض عينيّ قليلاً وأنام داخل الموسيقى لأجدك فيَّ. وفي لحظة التعالي والدخول في شهقة الجنون، كنت أخاف أن أصرخ باسمك كما تعوَّدت أن أفعل. تلك الشفافية الوحيدة التي ظلّ عقلي فيها متيقّظًا. وعندما أعود إلى وضعي الطبيعي وأفتح عينيّ، أرى السعادة ترقص على محيّا رياض لأنّي كنت له ولو للحظة جميلة، ويشعر أنّه أسعدني في فراش كان يشبه كلّ مساء مجزرة عليَّ أن أتفاداها بالكثير من الحيلة. أسوأ من شهرزاد. هي على الأقلّ اختارت كفنها. لو استطاع رياض أن يفتّش قلبي من الداخل كلّما اشتهاني، لما

---

١ ـ هذا ما حدث بالفعل. لم يكن مجرّد تهديد منّي ولكنّه كان إحساسًا عميقًا باللاجدوى. كنت ضائعة وأحسست فجأة بأنّ الحياة فقدت كل معنى لها، ليس لأنّ سينو اختار حرّيّته ربّما لم يكن مخطئًا فيها، ولكن لأنّي شعرت بأنّي خسرت الرجل الوحيد الذي كان يؤثّث حياتي التي انفرطت فجأة وأصبحت مثل ذرّة تعوم في الفراغ. كنت سأنتحر لو لم يأت فجأة، لأنّ كل شيء كان قد فقد معناه. حتى والدي لم يأتني في الحلم كما تعوّد أن يفعل في لحظات شططي، ليؤنسني في عزلتي، يمسح على شعري وينصحني بالانتصار دائمًا للحياة. فكّرت كثيرًا في شكل الانتحار الأقلّ ألمًا والأكثر فاعليّة. لا أريد لحياتي أن تستمرّ مع إعاقة.

وجد غير جنونك الذي ورّثته لي، ولعرف أنّي لم أكن معه أكثر من غانية وجدت نفسها بين يديه بالصدفة وهي ليست له، أو لنقل له ولغيره[1]. ولا أدري ماذا كان يمكن أن يحدث لي يومها لو لم تجدك عائشة، حاملة سرّنا العظيم، في مدينتك التي آوتك من خوفي؟

هل من حقّي اليوم أن أخرجك من عزلتك وأكلّمك قليلاً؟ أنا اخترت طريقًا لا تشبهني ولا تشبهك، ومع ذلك سلكتها. وأنت بعيد عنّي تعبر مسلكًا آخر. شيء ما فينا ينفلت من بين الأصابع كالماء. الكلّ ينهض ضدّي، حتى نفسي، كلّما تعلّق الأمر برؤيتك، مع أنّي لا أجد نفسي إلاّ معك. منذ مدّة لم أرك ولن أتمكّن من رؤيتك قريبًا.

كلّ شيء مرّ بسرعة.

لم أكن أعلم أنّك تحتلّني إلى هذا الحدّ؟

لأوّل مرّة تأتيني وأنا على أهبة الانتحار. لم أعد قادرة على الكذب على نفسي. طوال هذا الزمن لم أكن إلاّ مع رجل واحد هو أنت. أشرب بك. أنام بك. أدخل الفراش مع زوجي وأنت معي. ولا شيء غير ذلك. والآن أشهد

١ - هذه الجمل وغيرها، كلّها سقطت من رسالة سينو في رواية طوق الياسمين. ربّما نزعها لأنّي استعملت كلمة قاسية: غانية وكنت أشتهي أن أستعمل كلمة أسوأ وأقسى: قحبة التي ترفضها كلّ القواميس. حتى القواميس الإلكترونيّة المتقدّمة جدًّا تضع تحتها خطا أحمر؟ أيّ نفاق؟ لكنّي خفّفتها لكي تصبح مقبولة ولا أصدم بها ما تبقّى من طفولته. كنت صادقة يومها مع إحساسي. فأيّة كلمة قلتها جاءت من صلب الأعماق. وكان عليه بدل نزعها ورميها في النسيان، أن يتأمّلها طويلاً لأنّها من روحه وجنوني. طبعًا كان غارقًا في شيء آخر أقرب إلى الافتراضيّة منه إلى الحقيقة الموضوعيّة. كان يرى مريم ولم يفكّر لحظة واحدة في أنّ الأمر يتعلّق بامرأة حقيقيّة عانت الأمرّين بقسوة بسبب حماقة وجوديّة كان هو وراءها، وكان يجب عليه أن يسمع لها وهي تلتصق بأيّة موجة هاربة تحمل رائحته وحبّه.

أنّي أصبحت مريضة بك. سيغنّي قتلة الروح عنّي كثيراً: مجرّد فاجرة؟ محظيّة محترفة؟ تركت فراش العفّة وذهبت نحو فراش الدعارة؟ مساكين لا يدرون أنّ أكبر دعارة نمارسها هي عندما ننام مع إنسان ونحن نفكّر في غيره. فأنا لست عفيفة إلاّ معك وبين ذراعيك.

أسترجع لحظات لقائنا الهارب الذي جاء بعد كسر عنيف حدث في الأعماق. كان الظلام شديد السواد، والجوّ بارداً، ونسمات نديّة تلفح وجهي. قلت لي إنّك ستأتي الليلة مثل المجنون. منذ زمن بعيد لم أرك. العاشرة والنصف ليلاً عند مدخل البيت، وقفت أنتظرك. كنت متأكّدة من أنّك ستأتي ولن تتخلّف ثانية واحدة. رأيت ذلك في عيني عائشة المرتعشتين. العتمة تظلّل البنايات والفيلاّت التي تتمدّد في خطّ مستقيم ولا تظهر إلاّ بعض الشجيرات التي تخترقها أضواء الشوارع البعيدة قليلاً عن بيتنا. لا أحد في الخارج. السكّان نيام في أقفاصهم الحجريّة والحديديّة. تساءلت كيف سألقاك بعد كلّ هذا الغياب؟ وأنا التي قمعت حبّي وأسكنته صدري حتى لا أؤذيك وأحرقك معي. فجأة رأيت نور السيّارة وهي تصطفّ بعيداً قليلاً عن البيت. لا أحد غيرك يأتي في مثل هذا الوقت. رأيتك تنزل، ترفع رأسك قليلاً ثم تنحني بعض الشيء، لدفع أجرة التاكسي. تتمتم ثم تحيّي السائق وتغادره. أنتَ مثلما أشتهي رؤيتك دائماً، بمعطف الكاشمير الطويل الذي يشبه معطف والدك الذي كان يرتديه يوم اعتقاله قبل أن يُغتال تحت التعذيب. لا أحد غيرك. لا يوجد مجنون يأتي في عمق هذا الليل لرؤية معشوقته. قصدت الباب الخارجي مسرعة. فتحته. كنتَ ورائي تصعد الأدراج باستقامة وهدوء وكأنّ كلّ الأمور عاديّة. البيت هادئ والغرفة مظلمة. أشعلت نوراً باهتاً خفيفاً. اخترت أن يكون بنفسجيّاً كما اشتهيناه دائماً. التفتّ نحوك مبتسمة. خرجت منّي هذه الجملة التي لا أعرف ما إذا كان لها معنى: *يا مهبول! أخيراً جئت؟* كم مرّ من

زمن لم نر فيه بعضنا بعضًا؟ أهون عليك إلى هذا الحدّ؟ كنت سأنتحر بالفعل لو لم تأت. قلت هذا لعائشة: أريد أن أراه، أو سيضطرّ إلى حملي في ضميره طوال عمره. لم أعد قادرة على تحمّل هذا البؤس.

رأيت وميضًا في عينيك هو نفسه الذي كان يملأني، نظرات حالمة ويدين عاشقتين. لم أصدِّق نفسي. أهو الرجل نفسه الذي استدرجته الحماقة لافتقادي في منتصف الطريق؟

تسمَّرت في مكاني. لم أفهم نفسي جيِّدًا، كنت جدّ مرتبكة كمراهقة.

سحبتني من ذراعي وأجلستني قبالتك. وقتها تأكَّدت من أنّك هنا. وأنّي كنت بين يديك.

أخيرًا التقينا بعد أن أكلتنا متاهات الدنيا. تذكّرت كلماتك. ما زالت تطنّ في رأسي كطبول الحرب: *لا شيء في الدنيا يمنع قلبين من أن يتعانقا في الدنيا، في الأفق دائمًا شيء آخر.* تعاتبنا ثم التفتنا في اللحظة نفسها إلى الساعة الحائطيّة وكأنّك كنت تعرف تفاصيل البيتِ، زاوية زاوية. الوقت قصير، ومن العبث تضييع هذا الحبّ في الانكسارات الداخليّة. الجروح كانت كبيرة وغائرة. بعض الجروح من الأفضل تركها نائمة مثل البراكين.

فجأة نسيت كلّ شيء. بحنان دافئ كانت يداك تتحسّسان وجهي. ياه؟ كم اشتقت إلى هاتين اليدين؟ هل تفعل الغربة كلّ هذا في الإنسان؟ لم أكن مستعدّة أن أفتح جرحي أمامك. هذه الليلة أريد فقط أن أشبع من وجهك بالطريقة التي أشتهيها. استحلنا إلى عصفورين متعانقين. انتابتنا رعشة الحنين. تاريخ من الشوق المستبدّ. شلاّل من النور. كنت كل شيء. لو قلت لي في تلك الليلة طلّقي رياض وتنصّلي عن كلّ شيء، وتعالي معي إلى جهنّم، لما

ترددت لحظة واحدة. ولكنّك لم تفعل، وظللت تنظر إلى عينيّ بحنان وجوع ظاهرين.

أنت الآن أودع من طفل. لم تمسّ جسدي. تقبّلني. تتمتم. أخشى أن أموت من فرط السعادة لو لمست هذا الجسد الذي تعذّب كثيراً وصار بارداً كجثّة. أمامنا الدنيا ومتّسع من الفرح. اليوم أستطيع أن أقول إنّي وجدتك. وهذا يكفيني. عندما خرجت، شعرت بسعادة كبيرة وحزن عميق ووحشة مفجعة. أمام المرآة، كنت أتحسّس عنقي والقبلات الطويلة التي تمنّيت أن لا تتوقّف، وأن تنزل نحو هذه الحلمة التي جفّت وتحطّبت وبدأت تفقد لونها الزهري الجميل، ونحو بقيّة الجسد كما كنت تفعل قبل هذا الزمن. أحاول أن أتأكّد من أنّ ما حدث لم يكن مجرّد حلم. كان حقيقة ولو كانت ملتبسة. إنّها ذاكرتي المعطوبة. ما الفائدة الآن؟ كم تمنّيت أن ألحق بك وأنت تستعدّ للمغادرة والخروج من البيت مثلما دخلت، في صمت واستسلام كبيرين، وأصرخ: *ابق قليلاً. بتْ هنا ولا تذهب، رياض سافر إلى فرنسا، فهو يشتغل مع أخيه في شركة استيراد السيّارات، ولن يعود إلاّ بعد أسبوع؟ مستعدّة أن أمارس معك كلّ الخيانات الصغيرة والكبيرة، وكلّ المعصيات، بدون أدنى تردّد أو ندم. امنحني فقط فرصة البقاء معك أكثر لأتأكّد من أنّك هنا ولست غيمة هاربة ومتلاشية بشكل دائم.* لم يكن بيدي أن أجبرك على فعل ذلك كلّه. كان صوت محرّك سيّارة الأجرة التي تلفنتَ لها، قد سرقك منّي. عندما فتحت عينيّ المتعبتين، رأيت السيّارة وهي تعبر المنعطفات الضيّقة داخل هذه المدينة المضاءة بعض الشيء.

لم يبق معي في البيت إلاّ عطرك الذي كنت تنتقيه بأناقة وظللت وفيًّا له كل هذا الزمن: **Pour un homme** وجملتك الأخيرة وأنت تقبّلني وتضمّني بحنان إلى صدرك:

ـ عذراً، ربّما كنت لا أستحقّك.

وعندما أردت أن أقول لك اصمت، وضعت أصابعك بلطف على شفتيّ وتمتمت:

ـ ششششت... فهمتك.

صمتٌ.

كم تمنَّيت أن أنساك حبيبي دفعة واحدة، ولكنّك لم تمنحني أيّة فرصة لفعل ذلك. حبّك لي يزيدني اشتعالاً أكثر من ذي قبل. الآن تأكّدت أنّ موضعي في قلبك لم يتغيّر كثيراً، وأنّه سيكون بإمكاننا أن نتوغّل أكثر في مدارات الحبّ المسكّرة، وأن أرى، في الحلم المجنون نفسه، أبي مرّة أخرى وهو يخرج من عمق الماء مستنداً إلى كمانه.

حبيبي.

نسيت أن أقول لك، قبل أن تغادرني، إنّك كنتَ رائعًا في صمتك وحزنك، وإنّي وجدتك قريبًا منّي أكثر من أيّ زمن مضى، وكنت حقًّا حبيبتك الحزينة. اعذرني، ليس أمامي سوى أن أظلّ معلَّقة فيك حتى النهاية. الفسحة التي أُعطيت لنا للنسيان لم تكن كافية، فقد زادت من حرائقنا. أنت لك الحروف والجمل تقاسمها حزنك، وأنا لا شيء لي إلاّ الصمت والتفكير فيك بشكل دائم، وكلّما وجدت فسحة، انسحبت نحو كمان والدي وأخرجت كلّ أنينه المخبوء. *أكبر مشكلة في الصمت هي أنّه صديق أخرس وأناني، يسمع ولا يجيب*. أليست جملتك عمري؟

حبيبي وتيهي.

أنا ضائعة، وبي حاجة ماسّة لصوتك ولصرخاتي المكتومة. أريد أن أصرخ لكنّ شيئًا ما لا يسعفني. أبحث عبثًا عن وجهك وسط هذا الخواء الذي يزداد كلّ يوم اتّساعًا.

قلتَ لي قبل أن نفترق، ونحن نقف على العتبة قبل أن تسرقك سيّارة الأجرة، أحبّك. اكتبي لي. أريد أن أسمع صوتك الداخلي لا الواجهات الكاذبة، وإذا تيقّنت أنّك نسيتني، سأتركك، بل سأهجر المدينة التي أنا فيها إلى مدينة أبعد، حفاظًا على سعادتك. وها أنا ذي اليوم أكتب لك وأنا في كامل جنوني، أدفع ثمن الحماقة التي تنافسنا في ارتكابها. أحبّك وأنا حزينة لدرجة الموت. اليوم الذي يذهب لن يعود أبدًا. *ضيِّقة هي المراكب يا حبيبي. ضيِّقة حياتنا. ضيِّق شوقنا وحبّنا رغم كبره وعظمته*. أنت تقتلني بكلماتك وأشواقك وأحزانك. أتدري أنَّ الفكرة نفسها راودتني وأنا أقرأك؟ قلت في ذلك الصباح لماذا لا أكتب له باسمه؟ لماذا لا ألفظه بشفتيّ؟ نخبِّئ أسماءنا لتفادي الحماقات القاتلة. خوفًا من أن تسقط الرسائل بين يدي رياض إذ يمكن لأيّ رجل في مثل هذه الحالات أن يتحوَّل من ملاك إلى شيطان، ومن عاشق إلى قاتل من الزمر الأكثر حقدًا. أقول في خاطري: أحبّه وأريده وطز في البقيّة. ومن بعد؟ واش راح يصير؟ يقتلونني؟ فقد فعلوها قبل هذا التاريخ، بل فعلتها بنفسي عندما انتحرت. وإلاّ كيف أنعت هذه الحالة؟

أنت دائمًا تباغتني في الأماكن التي لا أنتظرك فيها إلاّ قليلاً.

وحيدة مع موسيقى الصمت والخوف الغريب من الموت. يكفيني حبيبي أنّي رأيتك. أرجوك فقط لا تحاكمني وقلّل من يقينك. إذا لم أكتب لك لا تزعل منّي. فأنا لن أكون إلاّ لك. الرجل في بلادنا العربيّة يستطيع أن يتمتّع بحرّيّته كما يشتهي، لكنَّ المرأة التي هي في مثل وضعي، عليها أن توقظ كل مكامن حيلها لتستطيع الوقوف على قدميها والذهاب نحو حبيبها على رؤوس أصابعها حتى لا توقظ حساسيّة المأزومين.

أشـهـد أنّني فـشـلـت في أن أكـون زوجـتك التي حلمت أن تمنحك طفلين جميلين مثلما اشتهيناهما : ملينا ويونس، ولا أريد منك الشيء الكثير سوى أن تستمع إلى ذعري الداخلي من حين لآخر .

ولا تنسَ أبداً أنّي مصابة بك . ولهذا أتشبّث بك، حتى برائحتك، أو بعطرك الذي يملأني، لكي لا أختنق في وقت مبكّر وأنا لم أعش الحياة إلاّ قليلاً .

حبيبي وعنائي الجميل،

أكتب لك أيضًا لكي لا أموت اختناقًا .

أدرِّب نفسي على نسيانك .

لقد أشعلتَ حرائقي وهربتَ؟ يا بختك على راحتك وقدرتك على الصمت .

لو فقط تدري كم أشعر باليتم في غيابك؟

أعطيك الحقّ في شيء واحد . كنت أظنّ أنّ الزواج سيفتح كلّ أبوابي المغلقة، ولكن يبدو أنّه مؤسّسة لا تختلف عن بقيّة المؤسّسات الأخرى التي لا تعمل إلاّ على تغريب عواطفنا وتعليبها، والتصديق بالكذبة الجميلة التي نبتدعها باستمرار حتى لا نموت قهراً . أحاول عبثًا أن أدرِّب نفسي على نسيانك، وأحاول أن أقتنع بأنِّي أصبحت في بيت رجل آخر، وعليّ أن أظلّ وفيّة له، وأخادع باستمرار عواطفي الداخليّة . أنت تعرف أنّ ما كنت تحذّرني من خطره صار حقيقة . القدر أحيانًا يحوِّل سخرياتنا إلى حقائق . في حياتي لم أكن أتصوَّر أنِّي سأصبح زوجة لرياض . كان يبدو لي بليداً ومقرفًا بحبّه للمال . ركض ورائي حتى سحبني نحوه . عرف الفجوة التي تركها فيَّ غيابك وجعلني

أصدّق، أنا المجنونة بك، أنّه في النهاية رجل، والرجال لا يختلفون كثيراً. لا أريد أن أقول لك إنِّي أخطأت في تقييمي، فتلك مسؤوليّتي، ولكنِّي أشهد لك اليوم أنِّي عاجزة عن مقاومة غيابك. هل تدري كم أحبّك، وأنّي كلّما تذكّرتك رابطت عند النافذة علّني أراك. أنا منكسرة وميّتة، وربّما حاقدة عليك أيضاً.

لا تلمني، إذ منذ ذلك الصيف الفارغ خرجتَ و لم تعد. قلت لي بغباوة باردة:

ـ أبارك زواجكما. رياض إنسان طيّب، وسيسعدك.

كنتَ تكذب على نفسك وعليّ. كنتَ منكسراً أكثر منّي. قلتُ لك:

ـ هل أنت مقتنع بما تقول؟ لا تغادر المدينة إذن؟

صمتَّ وأكلتَ لسانك. عرفت كلّ شيء من عينيك المتعبتين اللتين ظلّتا تدوران في الفراغ، قبل أن تقول بألم كنت الوحيدة التي شعرت بثقل معناه:

ـ تريدينني أن أبقى وأنت بين يدي رجل آخر؟ فوق طاقتي. لا أملك الشجاعة الكافية للقيام بذلك. أعتقد أنّي لم أستطع أن أمنحك ما منحه لك رياض.

ـ أنت تعرف جيِّداً أنّ رياض كان العجلة الخامسة لتصليح الأعطاب التي تسبَّبت بها.

خرجتَ و لم تعد. ذهبتَ نحو مدينة أخرى. قلت: سأجرِّب. العاصمة، ليست مدينة سيِّئة. هربنا نحوها العديد من المرّات في القطارات الليليّة عندما كنّا طلبة، واختبأنا في نزلها التي كانت ممتلئة بشكل دائم.

هل نقاطع من نحبّ هكذا؟ نظنّ. لا أجد شيئًا واحداً يكرهني فيك، بل كلّ شيء يقودني نحوك. مع ذلك كنت أتحاشاك مثلما كنت تتحاشاني.

وافترقنا، أنا ذهبت نحو جزيرة كريت، ثم باريس لقضاء شهر العسل، وأنت سكنت مدينة لم تكن تحبّها. كان قلبك ممتلئًا وكنت حزينة عليك وعلى نفسي. في باريس لم أر شيئاً سوى ما رأيته أنا وأنت في رحلاتنا المسروقة. رياض يتبعني وهو لا يعرف أنّي في نهاية المطاف كنت، عبثًا، أقتفي خطاك كالمجنونة. في شوارع باريس، وكلّما مررت على زاوية تعاشقنا فيها، خنته بعينيّ.

حين عدتُ متأخِّرة جداً من رحلتي، كنتَ قد احتللتني عن آخري، ولم يعد الزواج إلاّ جزءاً من الخطيئة الكبرى التي وضعتني في طريق رياض، أو وضعته في طريقي. أوّل شخص فكَّرت في لقائه هو أنت. أنتَ وحدك، لا شريك لك.

لم يبق أمامي إلاّ الاتّصال بك عن طريق صديقتنا عائشة التي تطوَّعت للربط بيننا. كانت متأكِّدة من أنّ ما حدث بيننا لم يكن إلاّ خطأ طارئًا، علينا تصحيحه بأيّ شكل من الأشكال. يوميًّا تؤنّبني، حتى رياض صار يكرهها.

ـ مجنونة أنتِ؟ اللّه أعطاك كلّ خير وأنت تضيّعينه بحماقة. لا تدفني حالك حيّة.

لا أجد لها أجوبة إلاّ تحميل الأقدار شططي، ومزيداً من الكذب والسخافات التي لم تعد تقنعني أنا نفسي فكيف أقنع بها غيري.

ياه... كم كنتَ دافئًا في تلك الليلة عندما زرتني في غفلة من الكلّ. لم تمسسني ولكنّي شعرت بحرارتك.

عندما تنتهي غفوتي وأعود إلى رشدي، لا أجد سبيلاً سوى مقاطعتك، ولكنِّي سرعان ما يعاودني مرضي، وأجدني فجأة أركض وراءك. أبحث عنك في المدينة. وكالمجنونة، أعثر عليك داخل الحرائق نفسها، تبحث عنّي.

ركبت رأسي يومًا وتخطّيت عتبة الخوف مرّة واحدة. قادتني نحوك عائشة. في الصباح الباكر، سافرت أنا وإيّاها إلى العاصمة، في رحلة طيران

استغرقت ٤٥ دقيقة مرّت كدهر. أرتني شقّتك، على حافّة البحر، ثم انسحبت:

ـ لا تنسي ساعة العودة إلى وهران... نلتقي في المطار على الساعة السادسة مساء.

ـ وإذا لم أجده.

ـ ينتظرك يا مهبولة. لن يخرج اليوم.

فتحتَ عليَّ الباب حتى قبل أن أدقّ. لم أسألك كثيراً وكأنّك شممت رائحتي. كنتُ أريد أن أقول لك بصوت عال: خذني إلى صدرك، أو فراشك، كما تشاء. لم تسألني. قرأت كل شيء في عينيّ. أخذتني بين ذراعيك. عرّيتني عن آخري مثل برتقالة، وعرّيتك بشغف. كنت أرتجف مخافة أن يسرقني الوقت. اشتقت إلى كلّ شيء فيك. عطرك. رائحة جسدك. عرقك. أنينك وأنت تبحث عنّي في أقاصي اللّذة. بكيتَ على صدري طويلاً، وبكيتُ أنا أيضًا شيئًا مبهمًا. اليوم كلّه قضيته بين ذراعيك أستحمّ فيك بشره لم ألحظه في نفسي من قبل. في البداية كنت أخاف من الحمل منك، ولكن مع تكرار الجنون لم يعد شيء يهمّني، بل صار يهمّني أن أحمل منك. اشتهيتك أن تبقى فيّ وأن لا تنسحب. ولم أشعر أبدًا بالندم تجاه ما فعلته معك. لأوّل مرّة أشعر أنّي كنت صادقة في حبّي ولم أكن أمثِّل مطلقًا. كنت أريد أن ألومك، لكنّي لم أكن أريد مطلقًا أن أضيِّع هذه الفرصة.

موجوعة بك أيُّها المجنون الذي لا تستطيع امرأة فهمه مثلي.

موجوعة بحبّك. أما زلت تتلقّى رسائلي بشوق كما كنت تفعل دائمًا؟ العادة قاتلة ومع ذلك نحن أحيانًا في حاجة ماسّة إليها. في حاجة لأن أمارس

معك أبسط الأشياء اليوميّة، كأن أقول لك صباح الخير. صباح الخير يا روحي. لم أتوقّع أنّي سأجدك هنا.

ياه... لا أدري إذا ما كان عليَّ أن أزعل منك أم أعضّك، أو آكلك، أو ماذا أفعل معك وبك؟ كم كنت غبيًّا يوم وقعتَ تحت وطأة فلسفة فارغة وحدك كنت تعرف جدواها، وحماقة سرقتني منك وسرقتك منّي. ستقول لي هفوة؟ مزلق غير محسوب؟ أقول لك وأنا أضع الأملاح على جراحاتي لكي أتمكَّن من تحمّل قسوتها ليلاً عندما ينفتح كلّ شيء نحو المبهم، وحتى لا تصير واسعة وعفنة وتصبح مداواتها مستحيلة: *لم يكن من حقّك خسراني بتلك البساطة، ولم يكن من حقّي توريطك في نفق عظيم أدركتَ سخافته قبلي.*

ياه... ما أقصر حيلتنا؟ علينا أن نخادع العالم كلّه لنحصل على شيء كان يمكن أن نحصل عليه كما نشتهيه لو عرفنا كيف نتصرّف. شيء ما في الإنسان يقوده دومًا نحو حتفه وتلاشيه. ومع ذلك، ما زلتُ هنا، على هذه العتبة التي لم أردها، أواجه رياح اليأس وأحلم أن أراك كلّما أشرقت الشمس وكلّما غربت.

حبيبي الغالي،

كم أنا مرهقة وحزينة من أجل نفسي وللوضع الذي آلت إليه حالنا، وحزينة جدًّا من أجلك، لأنّ رأسك يابس كالحجرة. الحبّ ليس فقط ما نشتهي، هو كذلك ديمومة. ربّما هذه قوّته ومقتله. الذي علَّمك كيف تحبّ، لم يعلّمك كثيراً كيف تحافظ على أشواقك حتى النهاية. ستقول لي، الحبّ مثل الكائنات الحيّة، له بداية وله نهاية. المشكل ليس هنا، ولكن في من يصنع هذه النهاية؟ لماذا نزاحم الأقدار في حماقاتها؟ لماذا نقتل شيئًا بإمكاننا أن نحافظ عليه ما دمنا نحبّ بعضنا بعضاً؟ هل كثير علينا أن نكون معًا؟

يحدث معي أحيانًا أن أسقط في التهويمات وحبّ الركض وراء غيوم هاربة كانت تركبها الأميرة الجميلة في أحاجي جدّتي الكثيرة. وحين أفشل في تحقيق شيء، أحزن بعمق وينتاب قلبي الإحساس بأنّي فقدت شيئًا ثمينًا قد لا يعوّض أبدًا. لقد صرت بحاجة ماسّة إلى الارتباط بأيّ شيء يمنحني فرصة التعلُّق بك والتفاؤل، وعدم التنازل للأقدار التي أصبحت تنافسها في سلطانها القاسي.

الإدمان على الحزن يا حبيبي صعب في هذه المدينة الريفيّة التي جعلت من السعادة والبؤس ميادينها الأساسيّة. غريبة الأطوار هي هذه المدينة. كم أشتهي أن أخرج من هذه الدائرة التي تأسرني. شقاؤك صعب. وأسئلتي بدأت تزداد تعقيداً كلّما استحضرت أوضاعنا الخاصّة، لم أعد أرى لها أفقًا. أنت مثلي، تؤمن بما تحدثه تفاصيل الحياة فينا، من معجزات. لكن يبدو أنّ اللّه والملائكة قد غضبوا على المدينة وعلينا، ولن ينزل أيّ نور أو أيّة حياة على أسوارها. فقد انسحبت الملائكة والناس الطيّبون منها. أحبّك ولكنّي لم أجد بعد أجوبتي عمّا يعذّبني ويتوغّل في قلبي بعنف كبير.

نحن لا نحزن شهوة في ذلك، ولكنّنا نحزن لأنّنا لا نملك أجوبة لأسئلتنا المستعصية.

كلّما كنت معك نسيت همومي الصغيرة، ورأيت حبّات المطر التي تملأ قلبك. لكنّي كلّما غادرتك، عاودني الخوف من الآتي الذي لم أعد متيقّنة من ملامحه. هل تعلم أيّها الحبيب الغالي أنّ لحظاتنا المسروقة تأسرني.

أراك الآن ونحن نندفع بشوق مجنون تجاه بعضنا البعض، داخل الخوف والشهوة المسروقة، ولا نسأل كثيراً عمّا ينتظرنا في الزوايا المظلمة. غرفتك الصغيرة في العاصمة كانت كافية ولم تكن في حاجة إلى قصر بارد مثل الذي أسكنه ويشبه قبراً. غرفة حميميّة، مليئة باللوحات والألوان والأنوار

والستائر البنفسجيّة التي تتبعك في كلّ مكان، توفِّر لنا فرصة تعاطي كلّ حماقات الدنيا، الشرب، لعب الورق، الشطرنج، الحبّ والجنس بالشكل الذي نشتهي، وفي الوقت الذي نحبّ. في النهاية نتضاحك عاليًا كالسكارى، بشكل هستيري ونتساءل كيف وصلنا إلى جرأة التعرّي في أعين بعضنا البعض. من أين جاءتنا تلك الشجاعة النادرة؟

وعندما نتفطّن بأنّ الجيران يمكن أن يسمعوا جنوننا، نتكتّم قليلاً ثم نحاول عبثًا أن ننام. شيء فينا يستعصي على النوم. عفواً، يستعصي على الموت.

هل أنت هنا؟ أم خرجت بدون أن تودِّعني؟

هل تسمعني الآن أم ما زلت غائبًا؟

أنتَ هنا... أغمض عينيّ قليلاً لكي لا أفقدك ولا ثانية واحدة.

04h 17mn 01s

- ١ -

على الرغم من التعب، لا أشعر بأيّة رغبة في النوم.

غاب الكمان عن نظري، لكنّ أنين سوزان لونديننغ يصلني خفيفًا وناعماً.

لم يعد المسدّس يثير انتباهي الآن، وبدأ شيئًا فشيئًا يدخل ضمن الأشياء الأليفة، كالأقلام الملوَّنة الكثيرة، المسطرة، الممحاة، الكمبيوتر، الرسائل والمزق الصغيرة التي خبَّأتها في الصندوق منذ زمن بعيد... وغيرها من الأشياء الصغيرة والدقيقة التي تنام على حوافّ المكتب.

فجأة انتابني الشعور القاهر بأنّ بلادنا كانت تموت كلّ يوم قليلاً.

أبحث عن سينو في كلّ حرف، ليسهل عليّ أمر نسيانه.

صعب أن ترهن عمراً بكامله لحساب رجل هو مجرّد غيمة هاربة. تمنحك إحساسًا قويًّا بالحياة، ولكنّك بمجرّد أن تلمسها، تنزلق من بين يديك لتصبح مجرّد سراب لا يقرّ على قرار.

أكّدت لي السنوات التي مضت أنّ سينو مثل قطرة ماء، تبلّل ولكنّها لا تروي عطشًا كبيراً. سمّاه أصدقاؤه المقرّبون الرحّالةَ الذي لا يتعب. وآخرون أطلقوا عليه تسمية الحمام المسافر. كان دائمًا يجيب بحيرة مضمرة: ***حمام يطير بأجنحة من حديد!؟*** حتى عندما تعب قلبه، ونهته الطبيبة عن كثرة السفر. ابتسم وهو يغادر المستشفى، فهمت الطبيبة جيِّداً قصده. ضحكت وهي تقول له: ***قلّل على الأقلّ من حماقاتك وخطاياك. السفر ليس كلّ شيء في هذه الدنيا...*** استمرّ في غيّه وجنونه، ولم يغيِّر شيئًا من عاداته القاتلة.

قفزت الرسالة كالقنبلة الموقوتة أمام عينيّ. لم أكن أريدها أبدًا، على الأقلّ الآن. كانت رائحتها غريبة مليئة بالخوف والدم وبعض الفرح المسروق خفية. قذفت بي بعيداً نحو خراب ظننته مات وتحوّل إلى نثار طائر في الفراغات العالية.

رأيتني يومها خارجة من الكونسرفتوار، في عالم كان يعجّ بالرماد. كان كلّ شيء في البلاد قد تغيَّر بقوّة وكثرت الثقوب في جسد أرض مزّقها الغزاة، وأنهكها حكّامها وورثة دم شهدائها، حتى أصبح من المستحيل رتق جروحها النازفة.

كانت الحرب الأهليّة تأكل الأخضر واليابس، الصاحي والنائم، الحيّ والميت، العالم والأمّيّ، البريء والمجرم، ولكنّها لم تمنع الناس من ممارسة جنون العيش.

يومها لم أر خياراً.

قلت له وأنا أضمّه إلى صدري، وأتأمّل وجهه الذي شعرت فجأة بأنّه سيغيب عنّي وإلى الأبد، وأنّ الزمن لن يمنحني أيّة مهلة لإنقاذه من نفسه أوّلاً، ومن القتلة ثانيًا:

ـ اخرج أرجوك. إذا بقيتَ هنا لن تعيش طويلاً. أفضّلك حيًّا، على قبر مغطّى بالأكاليل وميداليّات الشهادة. أتحمَّل افتقادك الموقّت، على إصرارك المجنون لاستدراج القدر نحوك. اخرج ولا تلتفت وراءك... اخرج من أرض الموت...

ـ ٢ ـ

كان القتلة يحتلّون كلّ شيء في المدينة، حتى دواخلنا الطفوليّة. دخلوا إلى البيوت، وفناجين القهوة الصباحيّة، وساحات العشّاق، والسهرات الخفيّة. سمَّموا القلب والذاكرة. كلّ الناس أصبحوا يحسبون حسابهم.

اخرج. قلتُ له وأنا ألتصق للمّرة الأخيرة بجسده المتعب. قال لي وهو يصطنع مزحة لم تضحكني كثيراً:

ـ وماذا سيقول عنّا الذين ينتظروننا في أكثر المعابر ضيقًا؟

ـ طز فيهم وفي أشكالهم. ماذا سيقولون؟ سينبحون ويصمتون. خرجتَ أم لم تخرج، فهم تحت وصاية البيغ بروزر[١]. فعندما تُقتل لن تبكيك إلاّ أمّك ومن يحبّك، أو يحسّ بك. لستَ أوّل من يفعل ذلك. لم يكن نابوكوف أهبل عندما خرج وكتب لوليتا، وما كان شارلي شابلن أقلّ وطنيّة، عندما اضطرّ لمغادرة أرضه الأولى باتّجاه أمريكا. عندما عاد لها، في سنة ١٩٣١، قادمًا من نيويورك، بكاها بحرارة: **أشعر بنفسي كالميّت الذي عاد إلى الحياة. الروائح، رائحة المطعم. أتذكّر المكان الذي كنت أرتاح فيه، ولكنّي الآن لست ذلك الشخص. فأنا إنسان آخر، يعيش حياة أخرى. فجأة**

---

١ - كلمة من الإنجليزيّة Big Brother وتعني الأخ الأكبر. وهو شخصيّة من شخصيّات رواية جورج أوريل: ١٩٨٤، وهو المتحكّم في ضمائر الناس وفي حركاتهم وتصرّفاتهم، وصورة استعارية للدكتاتور الذي نشأ من صلب الحرب العالميّة الثانية.

تشعر كأنّك مثل الثعبان الذي يتخلّص من جلده الميِّت ويلبس جلدًا آخر مع احتفاظه بروائح الأوّل. لم أشعر بشيء كهذا من قبل ولم أتفطّن إلى أنّي كنت مريضًا بحدّة، بعواطفي. ولا نيكوس كزانتزاكي، عندما بحث عن فجوة حياة في باريس وغيرها من مدن العالم. اذهب عمري ولا تسأل، فالبلاد منحها الورثة للقتلة، وسيكوِّنون حلفًا شنيعًا، يغلق عيون كل من يرى أكثر ممّا يجب له أن يرى. اذهب، يمكنك أن تحبّ وطنك من الأرض التي أنت فيها. الحبّ ليس رهين الأمكنة. هل رأيت عاشقًا ينسى معشوقه بمجرّد خروجه من إقامته؟ بل يزداد الحبّ تأجُّجًا كلّما افتقدنا أرضنا الأولى.

لم أضف شيئًا عمّا قاله له صديقه المسرحي، عبد القادر علولة، عندما صادفه يعبر أحد شوارع العاصمة، في عزّ المقتلة.

ـ اخرج يا خويا من هذا الخراب. تظنّ أنَّك تمشي متنكّرًا؟ أيّ تنكُّر؟ عليك أن تقصّ قليلاً من رجليك لكي لا يعرفك الآخرون. ستقول لي وأنتَ لماذا لم تخرج؟ لو استطعت أن أنقل معي مسرح وهران على ظهري، لما تردَّدت لحظة واحدة. أنتم الكتّاب أخفّ الكائنات الهشّة. لا شيء يثقل ظهوركم المتعبة. مخّ حيّ، وقلب ينبض لكلّ الأشياء الجميلة، وقلم يكفي لزرع النور في الظلام، وفي الليل الذي هربت منه النجوم. لن يمنعك المنفى الموقّت من الكتابة.

لا أدري كيف استمعتَ إلى نصائحي ونصائح عمّي عبد القادر، وخرجتَ. بينما دخلتُ أنا في غفوة الموت. لم يعد شيء يعنيني إلاّ ما تبقّى من موسيقى كانت تملأ قلبي وعينيّ وجسدي، فاحتميت وراءها. كانت حائطي الأخير الذي حمى والدي زمنًا طويلاً من الانتحار. فارتبطت أكثر بما تبقّى من الفرقة الفيلارمونيّة لكونسرفتوار مدينة وهران، التي هجر أغلب أعضائها المكان خوفًا ورعبًا. وعندما أُغلق الكونسرفتوار،

أصبحت أذهب نحو الأوبرا أو المسرح الجهوي، الذي وضع عمّاله تحت تصرّفي كلّ ما كنت أحتاج إليه.

فجأة أصبحت وحيدة وسط أوبرا خالية من كلّ نفس. كان عمّي عبد القادر علولة يقول لي دائمًا، قبل اغتياله: شوفي يا ليلى بنتي، أنت صاحبة الفضاء. ازرعي فيه الحياة التي تشائين. يجب أن لا ينجح القتلة في إسكات صوت الموسيقى والحبّ. عندما ينغلق عليك الكونسرفتوار، تعالي إلى هنا، المسرح كلّه تحت تصرّفك.

كنت أعزف ساعات طويلة، في مسرح خال من كلّ شيء، وأنا أفكّر في عمّي علولة الذي كان يملأ المكان بصوته الذي يشبه زئير أسد مجروح. لم أعد أسمع شيئًا إلاّ صدى موسيقى القلب الحزينة.

ارتبك يقيني في الحياة نفسها.

ـ ٣ ـ

أجمل شيء في رياض هو كرهه للقتلة الجدد. كان يراهم أكبر بليّة يمكن أن تصيب أرضًا طيّبة خضراء، أكثر من الجراد. إذ تتصحّر التربة، وتموت الحياة فيها، فتصبح قاحلة لا ينبت فيها زرع ولا ينضح فيها ضرع. أسوأ وأخطر من قنبلة نووية.

« **ـ اللي كرهه ربّي، يسلّط عليه هذه الأقوام المصابة بالعمى الكلّي**».

حصوله على مسدّس الحماية، لم يكن أمرًا صعبًا، فقد كانت علاقاته كبيرة ومتشعّبة، في الوسط التجاري والعسكري. لم يكن الأمر يهمّني كثيرًا. لا أتدخّل في شأنه أبدًا، على الرّغم من أنّي أصبحت أعرف عنه الكثير. علّمني كيف أفكّك المسدّس لتنظيفه، وكيف أركّبه.

حتى أنّه اقترح عليّ، ذات مرّة، أن أرافقه إلى مركز الشرطة للتدرُّب على الرمي والدفاع عن النفس. رفضت في البداية لأنَّ خوفًا غريبًا انتابني، ولكنّي انصعت لأمره لأنّه كان أكثر براغماتيّة منّي.

«تعلّمي على الأقلّ كيف تدافعين عن نفسك وعن أبنائك. هم جبناء. لن يتمادوا في فروسيّتهم؟ إذا قوبلوا بحدّ أدنى من الدفاع».

أنا لا أحمل حقداً ضدّ أيّ إنسان، وليست بي رغبة للقتل، ولكنّ بي جرحًا كبيراً، على كل من يقرأني أن ينصت إليه. أن يحسّ به، أحسن ممّا يرويه عنّي يومًا الرواة الكذبة، القتلة، السفلة، وما أكثرهم.

كم تبدو هذه الرسالة الحزينة والمملوءة بالحياة، التي كتبتها له بعد لقائي به في باريس بعد غياب شعرت به عمراً وليس سنوات. كأنَّ الزمن كلّه ضُغط، وحُوِّل إلى لغة هاربة التصق بها عطر اللحظة، أنوارها، حنينها الغامر، لذّة إعادة اكتشافها باستمرار، شطط الجسد الذي يستيقظ بصعوبة... أيّة لحظة جميلة صنعها القدر، وقدَّمها لي على طبق من ذهب، في عمق الخوف والقنوط ويأس الموت المتربّص بنا في كلّ الزوايا؟

ـ ٤ ـ

لست نادمة على ما فعلت.

فقد اتّخذت قراراً صارمًا وربّما، خطيراً أيضًا، لأنّه يمسّ غيري. صمّمت أن أكتب هشاشتي المفرطة، ولا يهمّ إذا سمّاها الآخرون فضائح. أكبر فضيحة هي الصمت. قد يكون الصمت هو سلاح الضعيف، ولكنّه سلاح أخرس. لا أنتظر الشيء الكثير من محيط قُتِلَ قبل قرن على الأقلّ.

ما زلت إلى اليوم، على الرّغم من كلّ الخسارات التي لحقت بي، أعتبر لقائي بسينو أجمل مكاسبي في الحياة، وأكثرها أناقة وقسوة في

الآن نفسه. لا يمكن لأحد، مهما أوتي من قوّة داخليّة، أن يتخيَّل مقدار الحزن الذي يأكلني من الداخل ويحرقني بدون أن أستطيع فعل أيّ شيء حياله. كما لا يمكن تخيُّل مقدار الحرّيّة التي منحتها لي هذه التجربة المجنونة وهي تزحف نحو عمر بدأ ينكّس راياته.

ما زلت أصرّ على أنّه كان يمكن تفادي هذا الشطط بقليل من التعقّل. لكن حيث يحلّ الجنون، يحلّ الخراب أيضًا مشفوعًا بشيء واحد جميل، هو الحرّيّة. الحرّيّة فقط. ما عداها، حالة خراب متواصل.

أشتهي أحيانًا أن أوقف الزمن حيث كان يجب عليه أن يتوقَّف ولم يفعل، بلا خوف ولا تردُّد. لقد عشت زمنًا قاسيًا في الظلّ لأنِّي اخترت الطريق الأكثر صعوبة. ولهذا، كلّما تذكّرت أنّ مريم سرقت جزءاً من حياتي، سرقت منّي سينو نفسه، بحثت عن جنون آخر لأسترجع كل ممتلكاتي المنهوبة. مريم لغة. غيمة. ضباب في ساحل مهجور أو في غابة استوائيّة، ولكنّ ليلى دم ولحم، فرح وخوف، عقل وجنون، شيء يُحسّ ويُذاق ويُلمس. ليلى هي التي تعيش معه السعادات الصغيرة والانتكاسات المتكرِّرة. مريم تنتظر دائماً عند المداخل، حيث ترى الجميع ولا يراها أحد. هي التي تسرق اللغة والنصّ منِّي، مستعملة حياتي الخفيّة. ولهذا عندما أقول أصفّي حسابي معها، ليس الأمر نزوة كتابة عابرة، ولكنّها تصفية قاسية لحساب قديم وتمزيق لقناع لم أعد قادرة على تحمّله.

كان على مريم أن تحسّ أوّلاً ما معنى أن تفتقد رجلاً تحبّه في عزّ موجة الموت، لتعرف معنى الكلام الذي أقوله. لكنَّها لا تستطيع، لأنّها من اللغة فقط وفيها.

مريم لا تعرف أنَّ رسالتي اليائسة، من عمق النار، لم تكن مجرّد صرخة ومفردات مرصوصة، ولكنَّها كانت نداء يتأتّى من الأعماق المعزولة في غربتها. مريم لا تعرف إلاّ نفسها والقلم الذي خطّها.

كثر القتلة، وكنّا المؤهّلين الأوائل للموت، وكانت مريم تُدخل أنفها في جسدي لتتنفَّس جرحي قبل أن تلبسه، وتفتِّش خزانتي، وتتمدَّد في حمّامي، لتلبسني كما تشتهي، وأصبح أنا الغريبة، الوحيدة مع نزفي الحقيقي.

ياه؟ لو كنتُ أنا أيضًا مجرّد لغة؟ كم سأكون سعيدة؟

لو فقط كانت الحرب الأهليّة التي أكلت أعزّ من أحبّ، مجرّد جمل وكلمات منكسرة، وكنت أنا مجرّد دمية، تهزّ رأسها وعينيها عندما يحرِّكها الآخرون، وتبكي عندما يهزّون جسدها قليلاً...!

لو فقط كانت البلاد وهي تذبح نفسها بنصل صدئ وتذبحنا في أثرها، مجرّد لعبة روائيّة معقّدة، لوضعت حدًّا نهائيًّا لهذا الجنون، وأيقظتك من جبروت الخوف، وقلت لك: تعال عمري، ما يزال لدينا متّسع من الوقت للجنون والحبّ.

ولكنّ الحياة كانت شيئًا آخر. الحرب لم تكن لعبة يمكن تبديلها بغيرها متى شئنا. كانت موتًا حقيقيًّا، والموت لم يكن مجرّد حالة عابرة، كان فجيعة فينا وليس في اللّغة، ومريم لم تكن في النهاية إلاّ استعارتها القلقة.

ولهذا كنت عاقلة إلى أقصى حدّ ولم ألعب اللعبة التي أتقنها غيري، أن أعيش معك وكأنّ شيئًا لم يكن، وأنّ السحابة التي تدمي سعادتنا ليست إلاّ غيمة هاربة. أقنعتك بأن تختار المنافي لأنّي كنت أنانيّة: أريدك حيًّا وبعيداً، على أن أراك ميتًا وقريبًا منّي، داخل قبر أزوره كلّما سمحت لي ظروفي الصعبة، وأطلب منك عذراً أنّي رأيتك في عمق النار ولم أفعل شيئًا من أجلك.

كنت أكثر تبصُّرًا منك.

كل يوم كانت البلاد تموت قليلاً.

* * *

من ليلى إلى سينو

الجزائر المحروسة، صيف ١٩٩٤

سينو الحبيب.

عمري وتيهي الجميل.

أطفأت البارحة شمعة يونس الثانية. كان سعيداً. تمنّيته أن يكون منك، ولكنّك كنت دائمًا أعقل منّي بكلماتك التي لم أعد أحبّها كثيراً لأنّك تثق في زمن لم يعدّ لنا، وربما لم نعدّ له أيضًا: ليلي... لا تكوني مجنونة! سيأتي وقتنا، ليس الآن. متى إذن؟ عندما تنطفئ كلّ حواسّي؟ تضحك ورأسك في غيمة هاربة، ولا تسأل عن الحريق الذي كان كلّ يوم يكبر أكثر بداخلي. سيكبر يونس وسيعرف، طال الزمن أم قصر، أنّ أمّه لم تكن لوالده، ولكنّها كانت لرجل منحها كلّ شيء إلاّ الفراش الدائم الذي حاولت بكلّ ما أوتيت من قوّة لإقناعه به ولكن... جعلني يونس أكتشف أشياء غريبة حدثت لي دفعة واحدة، ربّما حدّثتك عنها يومًا، أو هكذا بدا لي.

أنا اليوم رائقة على الرّغم من رائحة الموت التي تحيط بي في كلّ مكان. بلادنا كلّ يوم تموت قليلاً. سبق أن قلت لك مثل هذا الكلام؟ لا تخرج من حزن إلاّ لتدخل في نكسة جديدة. القتلة في كلّ مكان ولا أحد يراهم. هم من سرق الحبّ من عيون أطفال أكتوبر، وهم أيضًا من انتفخ من تربة أرض رهنوها لأنفسهم وذويهم قبل أن ينقضّوا عليها. لقد تسلّح القتلة الجدد بإسلام يشبه الأحجار الميتة، لا روح فيه ولا ماء، واشترطوه مسلكًا للجميع.

خرجت الآن من دار الأوبرا ممتلئة بك ولا شيء غيرك لكي أستمرّ في الحياة. لقد أصبحت أعزف طويلاً أمام الأصدقاء بعد أن تمزّقت الفرقة الفيلارمونيّة، وكثيراً ما أفعل ذلك وحدي أو أمام المرآة الكبيرة التي تتوسّط إحدى قاعات الأوبرا، فقط لأصدّق أنّ الحياة ما تزال مستمرّة، وأنّ شيئًا فينا ما يزال حيًّا.

كلّما عدت إلى نفسي، ووضعت الكمان على متّكأ كتفي الأيسر، وعزفت بيدي اليمنى، تذكّرت أنّه... ربّما حسنًا فعلنا أنّنا لم نتزوّج، وإلاّ لمات كلّ هذا الألق الذي فينا.

افتقادك ليس سهلاً، ولكنّك على الأقلّ ما زلتَ حيًّا. أتنفّس عطر جسدك في كل مكان.

تسألني ماذا أفعل الآن؟

ألمسك بعينيّ كالنور الهارب.

هل تذكرها؟ تلك الطفلة المشاغبة التي سكنتها الموسيقى في وقت مبكّر وأصابتك بعدواها؟ هل تذكر أنّي كنت أقسو عليك فقط بالحبّ وبالأغاني التي تعيدك إلى قلبي؟ لا أفكّر في شيء سوى استعادة عذريّة لزعر الحمصي، الذي دخل أوّل مرّة إلى وهران وهو يقرأ بدهشة العيون العابرة من أمامه، ولا يفهم ما كان يدور حوله. كان طفلاً بريئًا إلى أقصى الحدود.

سينو حبيبي،

كم اشتهيت أن أشبهك في غيّك وهبلك، وأمتهن حرفة الكتابة بلون الشهوة، اللون البنفسجي. ولكنّ كلّ شيء هنا صار رماديًّا ومرًّا، لا غيم يكفّنه إلاّ السواد المستشري.

لا تبحث عنّي حبيبي، فأنا منغرسة فيك مثل الحلم الشقي، الذي لا يتوقّف ولا يعرف نهاية.

شتاء آخر يمضي بأسئلته المرّة وبرده، ولحظاته المسروقة. شتاء آخر يأتي مليئًا بالأشواق التي لم يعد شيء يوقفها أبدًا. لا أدري لماذا يتنامى خوفي من فقدانك بقوّة. أنت مهبول وأخاف أن تسرقك الحياة منّي على حين غفلة.

أيُّها الهارب الأبدي من ظلّه ومن خوفه الضامر، هل تدري بأنّي سيّدة الظلّ منذ أكثر من عشر سنوات؟ وهل تعلم ما معنى أن ينتظر الإنسان عاشقًا طوال هذه المدّة؟ لا أعتقد أنّ نيلو عرفت لذّة الانتظار وشقاوتها مثلما أفعل الآن. كانت ربّما ملّت ووجدت كلّ الأسباب لنسيان عوليس، والبحث عن حياة أقلّ ألمًا وأكثر اختصاراً. أنا لا أرقب السفن القادمة من بعيد، كلّ يوم، ولكنّي في كل صباح أسأل قلبي، هل ما زلتَ فيه، وما زلتُ أحبّك؟ فيحمرّ خجلاً من حماقتي لأنّه يعرف سلفًا الإجابة التي أشتهي. عشقتك وعمري أقلّ من عقدين، واليوم يزحف العمر نحو مدارات الخوف، فهل سألت نفسك كيف صبرت حبيبتك كل هذا الزمن لتعيش في الظلّ، وتنسج في السرّ شوقها المستحيل؟

لهذا المساء رائحة الذكريات المنزلقة في تدفّق كحفنة ماء صافية شربتها يومًا في كفّك، في شلاّلات لوريط الأندلسيّة التي جفّت اليوم ولم يبق منها شيء يُذكر. هل تذكر أيُّها الأهبل الميؤوس منه، عندما كنّا نقترب منها،

ونصت طويلاً إلى هديرها الجميل، قبل أن تفاجئنا بتشتّتها ورذاذ مائها المتساقط من أعالي الجبل إلى الوادي الذي يستقبلها؟ كنتَ تضمّني وتقول لي: أغمضي عينيك فقط واتركي نفسك تنسابين مع الماء وستشعرين بإحساس غريب وكأنّك أصبحت ريشة فوق السيول. أغمض عينيّ، وأسدّ كلّ حواسّي إلاّ حاسّتي السمع والشمّ. يدخل الهدير الجميل إلى قلبي في شكل همهمات، ممزوجًا برائحة جسدك الطفوليّة كما اكتشفتها أوّل مرّة، عندما كنتَ لزعر الحمصي ولم تصبح سيني الملعون الذي يؤذي حبيبته من حيث لا يدري. يأتيني كل شيء جميلاً وهادئًا، أشعر بخفّة وزني، قبل أن أدخل في دوار عميق، إلى أن توقظني من غفوتي الجميلة بقبلة. لا أسال عن المسافة التي تفصلني عنك، كنت فيك ولم يكن يهمّني أيّ شيء آخر.

ها أنا ذي على حوافّ بحرنا الجميل الذي شيّدناه من جنون الفوضى والحبّ، وحدنا كنّا نعرف أسراره. أنزلق على الموجات الهاربة باتّجاه عمق لم أكن أقدّر مخاطره، بل لم تكن تهمّني مطلقًا. تنزلق الرمال من تحت قدميّ، لكنّ صورتك ترتسم في كلّ شيء: على صفحة الماء، بين تفاصيل الرمال المنزلقة، على الصخرة اليتيمة التي يتمزّق عليها الموج الهارب من نفسه إليه. تدعوني لجنون آخر كنت أشتهيه وأخافه. لم نعد نشتهي تغيير العالم. لحظة فقط نسرقها من العمر المنفلت منّا إلى تخوم الذاكرة. كان البحر لغتنا المشتركة ومهربنا الجميل بعد أن جفّت مياه لوريط الرائع.

سينو حبيبي.

هل تدري أنّي منذ سنوات وأنا أقاوم هديرك ونداءاتك الداخليّة التي أغرقت كل سفني وبحاري. لا حدود حبيبي لغيّك. لا حدود لزرقتك الداخليّة. كان عوليس يربط نفسه إلى عمود طويل في سفينته. يصمّ أذنيه كي لا يسمع نداء عروس البحر التي كان يمكن أن تسرقه. أنا أفتح قلبي...

مسمعي... كلّ حواسّي اليقظة والنائمة لأسمع نداءك فقط ولا تهمّني النهايات أبداً. كنت بحري، فكيف يمكنني أن أتفاداك يا عمري؟ لا يهمّ... وحده موجك المنكسر كلّ مساء على صدري يأخذني إلى عمق الاستثناء لأنتفي فيك. ولا شيء آخر سوى صوت اللّذّة المكتوم وأنين يأتي من مدافننا الداخليّة. يا ربّك؟ لماذا كنت تكتمه؟ لماذا لم تتركني أصرخ بأعلى ما أملك من قوّة، أنا بحاجة لأنّ أصرخ. كتمت صرخة ولادتي، هكذا قالت لي أمّي خوفًا من العسكر المرابط على حدود البيت، وكتمت صرختي خوفًا من أن يسمعنا الجيران؟ ليذهب كلّ جيران الدنيا إلى الجحيم. ربّما حقدت عليك في أعماقي، إذ لم يكن من الضروري أن تروّض صراخي وجسدي وحتى اسمي؟ هل يمكننا أن نسكت هدير البحر الذي كان فينا؟ أنت تعرف عمري أو لا تعرف، لا أدري؟ لكلّ امرأة ميزانها في لحظة الرعشة، لحظة واحدة قبل التلاشي: هناك من تقول كلّ البذاءات الجميلة المخبّأة في الأعماق، وهناك من تكتفي بالإصغاء إلى تقطّع أنفاسها، وهناك من تشتهي أن تصرخ وأن تسمع أنينها قبل أن تتهاوى كغيمة ممزّقة يصعب جمعها ورتقها. شيء من التوحُّش الجميل المبطّن فينا يحتاج إلى الإعلان عن نفسه بقوّة. جرّبتَ معي ذلك عندما ننام بعيداً على حوافّ جزيرة منسيّة أو بحر لا أحد يوجد به إلاّ نحن. لماذا حبيبي نحاول دائمًا أن نروِّض أجمل حماقاتنا؟ سأحاسبك يومًا على كلّ هذا العقل الذي يأتي في الوقت الذي يجب فيه أن يغيب، ولا يسأل.

هل تذكر أوّل لقاء بيننا؟ كنتَ طفلاً خجولاً خرج من حضن قريته وأمّه. وكنت أيضًا صغيرة، أبدأ خطواتي الأولى مع الحرف وكنت أنت الحرف كلّه لأنّك كنت تصنعني، وكنت، من حيث لا أريد، أشكّلك وفق جنوني بحيث لن يمكنك التخلُّص منّي أبداً حتى ولو شئت ذلك. كنت تكتب لي أجمل الرسائل، وأقرأ أحلى ما كنت تكتبه. عشقت كلّ نسائك اللواتي

صنعتهنّ من أحرف النار كالخيميائي. لقد أصبحن يؤثّثن ذاكرة هذه البلاد الواسعة. كنت تارة في مريم اللويحة، وتارة في دنيا زاد، وأخرى في فتنة، وأحيانًا في كليمونس، أو ربّما أناطوليا. كلّهنّ يشكّلن عقدًا في عنقي لأنّ بهنّ شيئًا من عطري، رائحتي، غمزتي، خانتي التي على خدّي، مخالبي لحظة جنون اللّذة... حين أقرأك أقرأني فيك وأنفي كلّ حبيباتك المنسيّات على الصفحات القديمة التي كتبتها. ثم ها أنت تضع يدك على كتفي وتسألني: لماذا نمضي كلّ هذا الوقت في الاستماع إلى محاضرة ميّتة عن اللّغة السانسكريتيّة؟ لم أكن أعرف بماذا أجيبك لأنّ مخّي ليس دائمًا معي، إمّا فيك كليًّا وإمّا في الكونسرفتوار الذي كنت أنتظر بفارغ الصبر الالتحاق به؟ ربّما كنت أنتظر أنا أيضًا من يأخذ بيدي ويخرجني من هذا اليقين الغريب الذي لا معنى له. المدرّج كان يمنحني راحة غريبة، نزعة امتلاكك وتأمُّلك مثلما أشتهي؟ لم يكن يغريني الدرس أبدًا. كنت فقط أتأمّل وجهك الطفولي وأريد أن أشبع منك. في المدرّج كنت أشعر أنّك لي وحدي دون الآخرين، أتأمّلك قبل أن أهرب منك إليك. في عمق الدرس أتخيّل أصابعك الرقيقة وهي تنسج خيوطًا من الغيوم على جسدي. هل كنت أحلم؟ ها هي أصابعك الرائعة الرقيقة وهي تنسج من خيوط الغيم لباسًا شفّافًا على كلّ جسدي. حظّي أنّي لم أكن حبيبة ورقيّة ولكنّي كنت حقيقتك الوحيدة. كنت حبيبتك التي لا يمكن أن تقولها إلاّ على قصاصات امرأة مبعثرة في شخوص رواياتك. أتساءل أحيانًا من كان منّا أحلى وأجمل، أنا أم مريم؟ من حيث لا تدري حبيبي خلقت مع الزمن، بيني وبينها، عراكًا غريبًا كأنّي أصارع نفسي في مرآة مواجهة لي. أتساءل بخوف ماذا لو كانت مريم حقيقة أخرى غيري؟ سرّك الآخر؟ ربّما كانت مثلي، امرأة عشقتها ثم تماهت مع اللّغة ولم يبق منها إلاّ عطر هو أقرب إلى اللّغة منه إلى الحقيقة. أنا ما زلت هنا. هنا حيث لا انفصال لك عنّي. لغتك ورعشتك الخفيّة. شوق حقيقي تلمسه كلّ صباح وفي

المساءات المسروقة. تحتضن رعشاته وهي تتأوّه من لذّة لا تستكين على برّ. لا مكان لشيء آخر فيَّ ولهذا فقتلك عندما تتخلّى عنّي يصبح أكثر من مشروع. تضحك يا أحمق؟ أنت لا تعرف جنوني المكتوم. تصوَّر امرأة كتمت جنونها منذ صرخة الولادة التي لم تخرج من فمها، ماذا سيحدث عندما تنفجر بقوّة؟ موسيقى الصمت **la musique du silence** التي فينا مثل الموج الهادر، لا بحر لها إلاّ جسدانا المنهكان من الجري وراء حقّنا في حياة معلَّقة على خيط، كلّما لمع ركضنا نحوه قبل أن ينسحب بعيداً وينظر إلينا بسخرية لا نُحسد عليها. ونعاود الكرّة قبل أن نتيقّن أنّ كلّ ما حدث كان مجرّد سراب قلق. ربّما كان ذلك بفعل الكأس التي لا أرفع نخبها إلاّ معك، ورجفة جسد لا يحيا إلاّ على وقع أناملك الناعمة وهي تخطّ حروف العشق على صدري البكر الذي انتظرك زمنًا طويلاً. الذين سبقوك إليه حبيبي لم ينطقوه، ولهذا اندهشتَ عندما وجدتني عذراء بامتياز، وكنت قد حكيتُ لك عن كلّ الحمقى الذين عرفوني قبلك؟ الكثيرات منّا يمتن عذراوات على الرّغم من سرقة بكارتهنّ. العذريّة حبيبي ليست غشاء فقط، هي عذريّة جسد يُغتصب كلّ مساء بدون أن ينطق بكلّ مخزوناته الجميلة والرائعة.

سينو حبيبي.

كيف أتفاداك الآن وعطرك يملأني؟ مزيج من رائحة أنفاسك وعطر **Pour un homme** الذي كنت تحبّه، وتشتهيه أكثر عندما يصلك منّي.

فجأة صمت كلّ شيء، وأصبحنا نمارس حبّنا بحزن.

قلت لي يومًا: لماذا البلاد تذبح نفسها بنصل حادّ؟ ألم يكن أمامها شيء أجمل تقوم به؟ كانت رائحة الدم المنسكبة على الطرقات تملأ أنفينا. ماذا حدث لينقلب الجنون الجميل إلى جنون بدائي، ويصبح الحبّ أكبر إدانة يمكن أن يمارسها إنسان؟ المدينة التي كانت تنام بين أحضانها أحلامنا استيقظت ذات

فجر على دويّ الرصاص وأشلاء المثقّفين والكوابيس التي قضّت مضاجعنا. أصبحت شوارع مدينتنا الجميلة ثعابين تتصيَّد حركاتك؟ ماذا فعلت أيُّها الرجل الطيِّب لعالم كان ينهار ويموت بدونك؟ كنت تثير الضحك، وأحيانًا الشفقة، وسط كومة من الفجائع، وأنت تتخفَّى وراء قبّعة سوداء ونظّارات. بطولك الفارع الذي كان دائمًا يفضحك لم يكن أمامك إلاّ مغادرة المكان. *ولكن ماذا أفعل أنا في غيابك*؟ كنّا نخاطر بحياتنا من أجل لحظات حبّ نفتكها من الموت اليومي. نركض نحو البحر، وهناك نتأمَّل تكسّر الموج والزرقة طويلاً، قبل أن نغيب في غيمة كانت تصنعها قطرات الويسكي التي كنت تسكبها في فمي وعلى جسدي. يا مجنون، ما أكثر خبلك وهبلك الجميل؟ أتعبتك المدينة حبيبي، يئست من حكمتها. قلت لك ارحل. لا أريد أن أحملك في قلبي جنازة دائمة. في أعماقي لم أكن متحمِّسة لخروجك لكنَّ قلبي كان صامتًا أمام عقلي. أرجوك لا تركب رأسك. اخرج. أنت مدعوّ من المعهد العالي للأساتذة. اذهب ولا تلتفت وراءك. ابق هناك قليلاً وسأزورك عندما تشتاق لي. قلت لي: كيف تبرّرين غيابك أمام زوجك؟ قلت وأنا أستلّ ضحكة من جرحي، وأتهاوى على صدرك: لا شيء، فقط ما تقوله أنت لهاجر؟ كذب جميل له طعم الصدق المستحيل. صمتَّ ولم تقل أيّة كلمة أخرى.

يوم رحلت، مشينا طويلاً على حافّة البحر، ولم أرافقك إلى المطار. قلت لي يومها أشياء كثيرة لا أريد أن أتذكّرها كلّها حتى لا أجنّ بك. أكبر الأحزان هي تلك التي نسكنها وليست تلك التي تسكننا. أكبر الأفراح هي تلك التي تشتهي عيشنا وليست تلك التي نتمنّى عيشها. أكبر الأشواق هي التي تهرب من عيني عاشقين سرّيّين.

لم نكن نسأل كثيراً عن المخاطر حتى يوم مغادرتك البلاد باتّجاه باريس، كان الموت يطاردنا بقوّة، ومع ذلك كنّا نصرّ دائمًا على اقتناص الحياة من عمقها وداخلها.

اسألني شو بني

بأوّل هالسنة

يا حلو يا حبيبي

مامبيعك بالدني.

سينو، عمري.

كم كان فراقك قاسيًا. لو سألتني يومها أن أترك كلّ شيء ورائي وأتشبَّث بك حتى التهلكة، ما تردَّدت لحظة واحدة. أصبحت المدينة موحشة. أدركت فجأة أنّ حبّك وحده كان يمنحني القوّة الكبيرة لمواجهة عبثيّة الموت المتربّص بكلّ شيء والأقدار القاسية. فجأة انحصر موجك عنّي، وأصبح يسكن موانئ أخرى وشواطئ الضفّة الغربيّة. كنت أسير وحيدة وسط صور الجثث في المدينة. لقد سرق القتلة أفراحنا الصغيرة. لم يقتلوك ولكنّهم سرقوك منّي. على الرغم من ألمي وحزني وخوفي المرضي عليك، كنت سعيدة لأنّك كنتَ هناك في مأمن. في منأى عن فوهة مسدّس أعمى أو ضربة سكّين.

لم أكن أتصوّرني يومًا أنّي سأكون حزينة وسعيدة لبعدك حبيبي.

هرب البحر من عينيّ ولم يبق إلاّ صوتك الذي كان يخترق غربتي من حين لآخر عبر التليفون وأنت تبحث عن كلماتك مثل لزعر الحمصي في أولى خطواته: *عمري، مشتاق إليك ولم أعد قادرًا على التحمُّل. أختنق. أنوي أن أجيء أو تأتين إلى هنا؟ أفتقد سنوات البحر والشلاّلات الجميلة التي جفّفها القتلة.*

كان صوتك يأتيني دافئًا ومتواطئًا مع جسدي وأسراري الصغيرة.

حبيبي سينو.

كنت أريد أن أهزّك بقوّة أختصر فيها سنوات الألم.

قلت لك بملعنة كنت أُتقنها جيِّداً:

ـ سيني حبيبي كيفك.

ـ يا مجنونة تسأليني عن حالي؟ في أقصى درجات الانتظار اليائس.

ـ طيّب... تعال، نلتقِ في حديقة لوكسمبورغ، في مواجهة قصر الملكة الحزينة، بجانب البحيرة. سأستحمّ وأحلم بك، في انتظار وصولك. هل هناك فصل أجمل من هذا الربيع.

ـ لو فقط كان ذلك صحيحاً؟

ـ قلت لك أنا أنتظرك على حافَّة بحيرة حديقة لوكسمبورغ.

ـ أرجوك عمري، أنا متعب ولا أحبِّذ هذه السخرية الضارّة.

ـ تعال فقط إلى الحديقة وستراني كما تشتهي.

ـ أنت في باريس؟

ـ لم أقل هذا الكلام.

ـ راح تهبليني...

عندما رأيتك، كنت تلبس معطفاً أسود، وعلى رأسك بيريه باسكي أسود أيضاً. كنت طويلاً، وجميلاً. نحفت قليلاً. كنت تبحث عنّي بعينيك بشغف. كنت منهمكة في رمي الخبز للحمام الذي كان يغطِّيني. لم ترني. عندما قمت وقام معي سرب الحمام الذي كان يحيط بي، رأيتني. تسمَّرت في مكانك وأحسست بزلزال تحت قدميّ. عندما التصقت بك، بكيت ولم

أستطع السكوت. هذا المرّة لم تمدّ يدك التي ارتجفت طويلاً إلى فمي لكتم صوتي، وكانت دمعاتك تنزل في صمت وقسوة. تمتمتَ فقط ولا أدري ماذا قلتَ لي. لم أتكلّم ولم تتكلّم. كان الحمام ينظر إلينا بعيون مشرقة وبغرابة قبل أن ينسحب.

شددتني من يدي. درنا طويلاً في الحديقة قبل أن ينتهي بنا المطاف في نُزل صغير في لوكسمبورغ ولم نستيقظ من جنوننا إلاّ بصعوبة. بكينا وشربنا وتزاعلنا وتعانقنا. لم يكن شيء يقف في طريقنا. لأوّل مرّة أشعر أنّ للحرّيّة طعماً يشبه اللّذة. كأنّ القدر القاسي يختبر حبّنا الهارب، ويضعه أمام واجهة الفقدان المبكّر. ما معنى أن يعيش بلد حرباً أهليّة؟

قلتَ لي:

ـ عمري... لا تهتمّي. اتركيهم يحكون أنّا هربنا. لهم البلاد التي صنعوها، ولنا الوطن الجميل الذي لا أحد يملكه لأنّه داخل لغتنا. لا تسألي عنّي، ليكتبوا مرضهم، فهم لا يعبّرون عن أيّ شيء إلاّ عن حاسّة فاسدة قتلتها الضغينة والحسد. أريد أن أبقى خارج نظامهم. ليست لي أيّة يد فيها، وسأدافع عن وطن آخر، فيَّ، ولن يتمكّن منه أحد مهما كان مجرماً ومرعباً. وطن يشبه وطن الهنود الحمر، وطن الأقلّيّة الناطقة، ولكنّها أقلّيّة الحقّ.

لم تكن غرفة النزل كافية لاحتضان جنوننا. نزلنا ليلاً إلى الحيّ اللاتيني، وسهرنا في بار جميل حتى آخر الليل. أردت أن أسألك: كيف تبرّر غيابك كلّ هذه المدّة عن هاجر وماسي وصافو؟ ولكنّي رفضت أن أفسد لحظتنا بأسئلة لم تكن تهمّني أصلاً. كنت ممتلئة بك وبحفيف الأشجار والأوراق المبلّلة المتناثرة في حديقة لوكسمبورغ التي كانت تحتفي بعاشقيها الغريبين. لم يكن للحبّ وطن إلاّ القلب وساحات كانت تكتسب معانيها من خلالنا.

لم نكن سائحين مولعين بالصور والذكريات الهاربة، كنّا عاشقين ينام في قلبيهما حنين إلى الأشياء الصغيرة التي سُرقت منهما على حين غفلة.

كنّا نمشي تحت الأنوار المتلألئة من غبش المطر الليلي الخفيف الذي كان يغسل أوجاعنا ووجهينا المندهشين بأنّ شيئًا مذهلا قد حصل بعد أن فقدنا كل أمل في اللقاء.

هل تدري حبيبي...

يوم جئتك ركبت جنوني ووضعت كلّ شيء ورائي ولم أسال عن النتائج الوخيمة التي كان يمكن أن تحصل لي. وهل تعلم في ماذا كنت أفكّر؟ في شيء قد يبدو لك تافهًا. لم أكن خائفة من الإرهاب، ولا حتى من تحويل الطائرة أو تفجيرها. كنت مذعورة من أن تسقط الطائرة ولا أراك. الأقدار أحيانًا مريضة، تبلغ بها درجة القسوة والتشفّي حدًّا لا يُتصوّر.

كلّما ثبّتّ عينيّ في وجهك، وجدتك جميلاً وحزينًا بعد أن أفقدتك الهموم قليلاً من وزنك. أحبّك هكذا تمامًا مثلما التقينا أوّل مرّة وأنت تبحث عن الوسيلة التي توصل لي بها حبّك. ولم أكن أنتظر إلاّ ذلك. قبّلتك حتى قبل أن تقولها سماعيًّا. كنت كفاكهة ناضجة، سقطت بين يديك قبل أن تستدرجني بلغتك المجنونة نحو قلبك.

أنا أيضًا كنت مسكونة بك.

كنّا نشرب كأسًا مسروقة وهادئة، سألتك عن حالك. رفضت أن أتوقّف طويلاً عند المنفى الذي بدأ يخطّ مسالكه على وجهك الطيّب.

ـ كيف حالك حبيبي في هذه المدينة؟

ـ لا أدري بماذا أجيبك؟ مرتاح، وقلق وحزين، ومنكسر، وحيّ إلى أقصى الحدود. أعمل في المعهد العالي للأساتذة بشارع دولم[1]. وهو أهمّ معهد تخرّجت منه كبار الشخصيّات التاريخيّة. أعتبر نفسي محظوظًا إلى أقصى حدّ.

لأوّل مرّة أشعر، ونحن بباريس، أنّنا تحرّرنا من العسس والجلاّدين. لم نكن في حاجة إلى وقت كبير لنستعيد أشواقنا القديمة. الغريب أنّي في كلّ الليالي التي تلت لقاءنا لم أشعر بأيّ خجل نحوك، على الرغم من خوفي من ذلك. وجدت الوجه، والنظرة، والجسد، والحركات، والجنون، والعبث الذي عشقته فيك. المرّة الوحيدة التي شعرت فيها بغيرة قاسية، هي عندما زارتك طالبتك آنيا، في مقهاك المفضّل: **Le Départ**، روسيّة ممشوقة باستقامة، بعينين خضراوين قاتلتين، وأنوثة فائضة، وطراوة استثنائيّة. جاءتك، وعانقتك بحنان مثير، قبل أن تقدّمني لها. اقترحت عليها أن تشرب كأسًا معنا ولكنّها اعتذرت بلباقة. سلّمتها بعض الوثائق وأنت تؤكّد لها أنّ لقاءكما قد تأجّل وأنّ الملاحظات حول رسالتها الجامعيّة ستجدها في الملفّ. كنتَ تحادثها، بينما كانت تنظر إليك بشهيّة، ولم تكن قادرًا على إقناعي ليلتها بأن لا شيء بينكما. قلت لك:

ـ لو كنتُ رجلاً في مكانك، سأكون غبيًّا أن أترك خزرتها تذهب أدراج الرياح.

ضحكتَ كعادتك في المواقف المهبولة التي أفاجئك بها:

ـ ولكنّك لستِ رجلاً، فأنت أجمل من ذلك كلّه، أحلى امرأة، وألذّ أنثى، وأحرّ سيّدة في الدنيا. ماذا تريدين أكثر. أبأس شيء أن يبرّر رجل وضعًا لا يستحقّ أيّ تبرير.

---

١ - L'école Normale Superieure, La rue D'Ulm.

ـ أنت تعاملني على قدّ عقلي. تحبّها.

ـ آنيا شابّة ذكيّة ومليئة بالحياة، ولكنّي أحبّك.

في الليلة نفسها استعدتك كما اشتهيتك، وتركت كلّ شيء يمضي وينسحب. لم أكن مستعدّة أن أضيّع أجمل الليالي التي منحتها لي الحياة. وبدا لي أحيانًا أنّ حياة واحدة بكلّ هذا الألق لا تكفي، وأحتاج إلى حياة ثانية لكي أستدرك كلّ الحماقات التي ضيّعت لي حياة كان يمكن أن تكون كما اشتهيتها. الغريب أنّ آنيا التي تتكلّم الفرنسيّة بلكنة مغرية، انطفأت من ذهني فجأة. كنت أعرف أنها كانت مزيجًا من أمّ روسيّة وأب إيطالي، ولكن كان يكفيني أنّك كنت تحبّني. ثم لا شطط، فقد كنت سخيًّا وجميلاً ورائعًا، ومن حقّها أن تحبّك. وجدت الحلّ السحري الذي يمكّنني من ربح أيّ نفس صغير من لحظاتنا المسروقة.

كنت كمن يعيش يومه الأخير قبل الاندثار.

كان النزل جميلاً وبسيطًا وحميميًّا، في عمق سان ميشال. ربّما تكون قد التقيت فيه بطالبتك الروسيّة أيضًا؟ رفضت أن أسالك هذا السؤال. كانت غرفتنا تقع في الطابق الثالث. كان دافئًا. لم أسألك كيف تبرّر غيابك عن هاجر وأنت معها في المدينة نفسها لأنّي كنت أعرف الإجابات، وكنت في أعماقي غاضبة منك، على الرغم من أنّ الزمن علّمني أنّك لم تكن مخطئًا بالقدر الذي تصوّرته في البداية، برفضك الزواج منّي. ربّما كان البعد الذي بيننا هو صمّام الأمان الذي جعلنا نحافظ على هذه الشعلة متّقدة بالجنون ولا تخفت أبدًا. نقضي الليل في المراقص. ألتصق بك لدرجة الرغبة في تعريتك أمام الجميع. كانت موسيقى فوستو تمنحنا هذه الشهوة الكبيرة للذهاب إلى أبعد من رقصة سلو جميلة وهادئة كأنّنا كنّا نخاف من أن تُسرق الحياة منّا. وقد نقضي وقتًا طويلاً في أجمل بارات المدينة، كنت تشتهي الويسكي، وكان

الليمونشيللو الإيطالي الذي فتحت عينيّ عليه يجلّلني بالخراب الجميل. أستلذّه مثلما أستلذّ قبلة، أو بشرة جسدك الناعمة. وينتهي بنا الفجر في فندقنا الباريسي الصغير. كنّا نحسّ أنّه بيتنا المسروق من القتلة. ثم ننام طويلاً قبل أن أستيقظ وأنا لا أصدِّق أنَّني هنا. أنام داخل ذراعيك، وعلى صدرك. هنا بالضبط حيث يجب أن أكون. أتحسّسك برؤوس أصابعي. ألمس بحذر ظهرك المخربش بأظافري لكي لا أوقظك من غفوتك الجميلة: أتساءل بيني وبين نفسي: ماذا سيقول حبيبي لزوجته هاجر، الذكيّة جدًّا؟ كيف سيبرِّر هذا العطش الجسدي؟ أعرف توحّشي الجميل كما كنتَ تسمِّيه. هاجر تقرأ كل شيء في عيون الأخريات بلمحة بصر، بنظرة هاربة. لا أدري إذا ما كان الإرهاب قد حرَّر صرخاتنا، ولكنَّك لم تعد تضع أصابعك كلَّما شهقت من سحر اللّذّة، على فمي وتقول كما تعوَّدت: ششششششششت... دخلت بين ذراعيك ثم نمت على صدرك من جديد. لا شيء يؤثِّث الغرفة إلاّ أنفاسنا المتقطّعة وأنيننا الحادّ الذي يخرج من أعمق نقطة في القلب والجسد.

هدوء كامل يخيف أحيانًا. لا رصاص، ولا قنابل، لا موت ولا وجوه كريهة ولا قتلة.

يوم عدت إلى أرضي التي ظلَّت تميد بي، لم أصدِّق. لم يكن ممكنًا أن نبقى معًا أكثر من أسبوع. صحيح أنِّي بكيت في المطار مثل طفل صغير يُفصل عن أمّه، وشعرت بشيء من العبث في حياة كنّا نريدها صعبة لكي نتمكَّن من عيشها، ولكنِّي كنت مشبعة بك بشكل لم أتصوَّره من قبل. كيف يؤثِّث جسد امرأة وكيانها وأنفاسها المتقطِّعة برجل. برجل واحد على الرغم من أنّه لم يكن هو الأوّل في حياتها. بعده يبدو لي أنِّي أصبحت عاجزة أن أكون أنا كما اشتهي نفسي أن تكون.

عدت بكآبات صغيرة. عندما ودّعتك في المطار، كنت منكسرة.

فجأة عندما تمدّدت برأسي على كرسيّ الطائرة، وبدأت أستحضر لحظاتنا الجميلة، استيقظ فيَّ وجه آنيا، الطالبة الروسيّة الجميلة. قلت في خاطري، يجب أن أنساها لأتمكَّن من العيش. ثم غرقت في كلّ تفاصيلنا المجنونة. وكنت سعيدة لأنَّ الحاجز الوحيد الذي كان يفصل بيني وبينك كان هو البحر، مجرّد بحر لا أكثر، وساعتان من الطيران.

لم يستطع بُعدك أن ينسيك المدينة ووجهي. وعلى الرغم من أنّك رتّبت حياتك في باريس من دوني، تقول لي إنّني من يشدّك إلى هذه المدينة. ولا أطلب سوى أن أصدّقك.

سأغيب عنك حبيبي، وسأتدفأ طويلاً بظلّك. أحيانًا أسأل نفسي لماذا تأخّرت كلّ هذا الزمن لنلتقي، ثم كنجمتين هاربتين، نفترق بسرعة غريبة في سماء لم تعد قادرة على تحمّل جنوننا. كنتُ فيك كبذرة شمس، وكنتَ فيَّ كنفس اللّه. كلَّما تذكّرتك عدت إلى الكمان بلا كلل، وعزفتُ حنيني البعيد عنك.

هل تدري أنّ ما يحصل لنا هو أجمل شيء يمكن أن يحصل بين كاتب مجنون وعازفة كمان تعيش على متن سحابة هاربة؟ هل تدري يا عمري كم يحتاج واحدنا إلى الآخر؟ ربّما قد يكون أصعب شيء في الحياة وأكثره قسوة، هو أن تحبّ رجلاً ليس لك، وأن تعيش إلى الأبد في الظلّ، وأن تتناثر لغة ونوتات موسيقيّة هاربة، وتتماهى مع الكلمات والإيقاعات التي بقيت من لقائك الأخير به، لكنّك هنا في القلب حيث كلّ شيء يتحوّل إلى نثار من النور الهارب.

أحبّك ولست في حاجة إلى شيء آخر. يكفيني أنّي في كلّ حواسّك.

من ليلى إلى سينو

بيروت، خريف ١٩٩٤

شوقي الذي فيّ. . .[١].

نشوتي البعيدة.

حبيبي.

أنا في بيروت. وصلتها البارحة محمّلة بلقائنا الأخير في باريس. كان يجب أن نلتقي لكي لا نموت شوقًا. لو لم أرك ولو في ليال خاطفة وساحرة، لاشتعلت الحرائق فيَّ. أنا جدّ ممتنّة لقدر يمنحنا صدفًا نصنع بها عرسًا من النور، وعرشًا من الفرح الموقّت، وننسى أنّ موتًا ينتظرنا في الطرقات وفي المسالك العصيّة.

١ ـ هذه الرسالة بعثتها له من بيروت وقد نشرها سينو في روايته ذاكرة الماء بعد أن غيَّر فيها الشيء الكثير. لم أكن راضية على ذلك لأنّ الجزء الأهمّ من الرسالة انتزعه ليجعلها منسجمة مع بقيّة نظام النصّ. لم أقل شيئًا لأنّي أعرف أنّه كاتب، ويريد أن يجعل من حياتنا السرّيّة الجميلة شيئًا يحبّه الجميع، ويجعل من مريمته لحظة شهيّة ليس للرجال وحدهم، ولكن للنساء أيضًا.

تمنّيتك هذه المرّة أيضًا أن تكون معي، ولكنّ سفرك مع وفد البرلمان العالمي للكتّاب إلى مدينة استراسبورغ مع يول شوينكا، وسلمان رشدي، ومحمد ديب، وجاك دريدا، للدفاع عن حقّ الكاتب في التعبير والحياة، سيحرمني منك مرّة أخرى. ضحكتُ عندما أضفتَ إلى القائمة الثقيلة، الشيخة الرميتي[1]؟ قلتُ لك يومها: يزي من السخرية، واش دخلها المسكينة؟ قلتَ: لا. تأمّلي جيّدًا لماذا غادرت الشيخة الرميتي أرضها التي أحبّتها حتى الموت؟ نحن لا نحبّ أنفسنا كثيرًا، ولا نحبّ من هو منّا لأنّ به جزءًا من صورتنا الخفيّة وأصواتنا الدفينة. لماذا لم تعد الرميتي إلى أرضها البربريّة التي أنجبتها *إيغيل إيزان*؟ لقد سرقوا منها حقّها في التعبير الحرّ، وقول عبث الحياة، واللّذّة المسروقة، والسخرية من النفاق الاجتماعي المستشري؟ وجدت نفسها فجأة على حوافّ مدينة لم تكن تعرف لغتها ولا كتابة حرف من أبجديّتها. لن تقول شيئًا، ولكن الرميتي مدعوّة كضيفة لتغنّي ألمها العميق، وضيق الدنيا. غير مطلوب منها أن تحلّل وضع الجزائر، وسنعرف كم ما تزال تلك النخلة العظيمة حيّة على الرغم من سنواتها السبعين إذ ولدت في ١٩٢٣. ستملأ قلوبنا حنينًا، وستكشف عن كلّ جبننا وساديّتنا المتوغّلة فينا. لو بقيت هناك لقتلها المعتوهون والجهلة الذين استباحوا مدينتها ودمها. ما زلت إلى اليوم أتذكّر أغنيتها المجنونة: *شرّك... قطّع...* التي غنّتها في ١٩٥٤، ضدّ وهم غشاوة العذريّة التي كانت الشغل الشاغل لأعراس المدن والقرى. وأتذكّر أسطواناتها المعروفة بباتي ـ ماركوني[2] التي رسم عليها

---

١ ـ سيّدة فنّ الراي في الجزائر، والأمّ المؤسّسة له. وهو فنّ نشأ في الأحياء الشعبيّة المهملة، وفي المواخير والأماكن المغلقة، يعبّر عن الحبّ والجنس، وعن آلام الفقدان، عن العشق المستحيل، عن الغيرة الطاحنة، وعن ظلم المجتمع والبشر، بلغة مجرّدة من أيّة أغلفة مجازيّة. ولا يتردّد عن اتّهام المجتمع والمؤسسة.

٢ ـ Pathé-Marconi.

كلب ينصت إلى مكبّر للصوت. كنّا نسمعها على الفونوغراف القديم ذي اليد المحرّكة للأسطوانات.

تمنّيت أنا أيضًا أن أهرب نحوك مرّة أخرى، ولكنّي في لبنان مع الفرقة الفيلارمونيّة التي أعيد تركيبها، بدعوة من أوبرا بيروت. إنّهم يريدون أن يبدأوا حربهم بالنور واللّون واللّغة والمسرح. ينسى الجميع أنّ حربًا أخرى تأكلنا اليوم وتسحق ذاكرتنا وأبناءنا. حروب يموت فيها من لا علاقة له بها. حروبهم، *ودمنا ولحمنا*، كما قالت لي مايا، عازفة الكونترباس اللبنانيّة.

كانت الفرصة جميلة لأتنفّس هواء آخر، وأحلم بك خارج نار الحرب الأهليّة الطاحنة التي أبادت كلّ شيء. أصرخ، فيتشتّت جسمي رمادًا. يا اللّه! ماذا ربحوا من قتل رجل مثل عمّي عبد القادر علولة، كان يحبّ الشمس والفقراء، ويمسح كلّ صباح بيديه الناعمتين، على وجوه الأطفال المرضى بالسرطان الذين لم ينتظروا طويلاً بعد موته، فقد لحقوا به الواحد تلو الآخر في صمت لم يشعر به أحد إلاّ ذويهم.

أريد أن أنسى كلّ هذا الرماد الذي يغطّيني من رأسي حتى قدميّ، ولا أتذكّر شيئًا غيرك.

عمري وحبيبي.

منذ زمن بعيد لم نتراسل. وصار تواصلنا شبه مستحيل. أنت اخترت أن تنتحر بطريقتك، وأنا اخترت انتحارًا موازيًا لا أريد أن أندم عليه مطلقًا. زيارتي الأخيرة إلى باريس تركت في حلقي مرارة، **Un goût amer d'inachevé**. قبلت خروجك على مضض، لأنّي كأيّة امرأة عاشقة، كنت أريدك أن تكون معي، نعيش ونموت في الفراش نفسه، لكنّ القتلة شاؤوا لنا مصيرًا آخر. ولأنّ الخيارات كانت ضئيلة، ومحدودة جدًا. ماذا كان بإمكاني أن أفعل غير الدفع

بك نحو أنفاق المنافي المظلمة؟ في أعماقي، كنت واثقة من قدرتك على صنع حياة أجمل من فراغات الخوف. وأنا أستعدّ يومها للدخول إلى وطن مجروح، تساءلت في سرّي الخفي، هل وطننا معنا أم ضدّنا؟ فنحن، حتى عندما نتفادى الموت، نموت مبكّرًا بالأمراض التي تنام فينا طويلاً قبل أن تفاجئنا وهي تقهقه من سذاجتنا، وحتى لا نسبّب لها ازدحامًا كبيراً بوجودنا الموقّت. نحلم دائمًا أن نظلّ صغاراً ولا نؤذي، في أسوأ الأحوال، إلاّ أنفسنا، لأنّنا عندما نتعدّى عتبة الطفولة، نموت.

أيُّها العزيز على القلب والذاكرة.

أحسدك على لغتك المجنونة. على الصحو الذي تكتب به رسائلك. فأنا منذ زمن بعيد لم أعد صاحية، بين عينيّ أنت وملينا التي لا تنام إلاّ في حجري. فقد التصقت بك كأنفاسك ودمك. أفتقدك كثيراً داخل هذا الفراغ المهول بحجم وطن. أحبّك، ولا أدري لماذا عليك أن تتحمّل حماقاتي الكثيرة. أنا أعرف أخطائي جدًّا. أحبّك، وعندما نحبّ نصبح أنانيّين جدًّا. إنّك تقتحم عليّ بقوّة كبيرة، كلّ رسائلي اليائسة التي أكتبها.

كنت تقول لي دائمًا عندما نشرب كثيراً وتتألّق كعادتك: حمّلتِني مسؤوليّة الخراب. ها أنا ذا أحمّلك مسؤوليّة الحياة؟

ها أنا ذي اليوم أيضًا أقول لك الكلمات القاسية نفسها، إنَّني أحمّلك مسؤوليّة الخراب الكلّي نفسها. فأنت تدفعني بقوّة صمتك إلى ملامسة النار كالكاهنة وسط أدخنتها المقدّسة، وقطف تيجانها، ووضع شعلتها داخل كفّي، تحت لساني، أو قلبي.

الحياة هنا صعبة ولكنّها ليست مستحيلة.

هل أخبِّئ عنك أحزاني وآلامي؟ بعدك يقتلني. أعطني المفاتيح ودعني أمضِ نحو حتفي. فأنا متعبة وأريد أن أنام قليلاً. سأخرج، ولا داعي لأن أغلق الباب ورائي. قيامتك لا تملك بابًا. مشرّعة داخل فراغات الخوف والجنون. عصياني الكبير أن أحبّك. وعصيانك الأكبر أن لا تسمع إلاّ إلى انتحارك. من حقّي أن أحبّك للحياة والدنيا. ومن حقّك أن تكون مسكونًا بشيء شفّاف اسمه اليأس. ولكنّي متعبة ولهذا أقول لك، أعطني مفاتيح القلب لأرميها للمرّة الأخيرة في البحر، ودعني أخرج. هذه النار التي أشربها يوميًّا صارت تؤذيني كثيراً ولم أعد أملك طاقة ضافية لتحمّلها.

اعذرني. أنا أهذي كثيراً ولا أملك غير ذلك في الوقت الحالي.

اكتب. اكتب لي أيّ شيء تراه جميلاً. أريد أحاسيسك في الكتابة وليس واجباتك. أعرف أنّك تكره فعل الأشياء من باب الواجب. ألم تقل لي ذات مرّة، إنّ الحبّ عندما يصبح واجبًا، من الأحسن التخلّي عنه نهائيًّا؟ اكتب. أوَ ليست الكتابة مغامرة داخل الحقيقة والوهم وضدّ كلّ المستحيلات؟ ها أنا ذي أركب معك الجنون والمستحيلات نفسها كلّما شعرت بالحاجة الماسّة إلى وجودك بجانبي داخل هذا الخوف.

في الماضي القريب، كنّا نتحدّث بشوق وحزن كبيرين عن أصدقائنا الفلسطينيّين الذين سُرق منهم وطنهم وحقّهم في الحياة. كنّا نتحدّث عن أصدقائنا العراقيّين الذين شُرِّدوا قبل الحرب ودُمّرت أشواقهم وأحلامهم، وها هم اليوم يعبرون صحاري التيه القاسية، من مات قهراً مات، من رجع إلى وطنه بعد الإعفاءات الوهميّة، رجع، لينتحر هناك بعد أن نخرته سنوات المنفى. كنّا نتحدّث عن الشيليّين، والمغاربة، واليمنيّين والكوبيّين وغيرهم، ولم نكن نعرف أنّنا كنّا في قائمة الانتظار. اليوم، يبدو أنّ كلّ الجبهات

صمتت. ونسينا الجميع في زحمة الأحداث المتسارعة. عندما جاء دورنا في المأساة، وجدنا أنفسنا وحيدين، معزولين. مقتولين في دواخلنا. كلّما اشتقت إليك، ولم أستطع مقاومة شوقي، أنزل إلى المقهى الإسباني، السينترا بوهران، فقط لأرى ابتسامتك ووجهك وضحكاتك وأشمّ بعض رائحتك. تسألني عائشة عنك، وتجلس قبالتي على كرسيّك بالضبط، وهي تصرّ عليّ بلكنتها الطفوليّة: هنا كان يجلس سينو إذن؟ أتمتم: هنا كان يجلس الرجل الذي منحني الحياة بيد، والجنون باليد الأخرى. لقد تغيَّر المقهى كثيراً. أحيانًا يكون فارغًا، وفي أحيان أخرى يصير متجشّئًا بالبشر. بشرنا نحن تحديداً. أراهم مكدودين منكسرين على طاولات قديمة مثل أوانٍ رخاميّة عتيقة. صحافيّون. سينمائيّون. كتّاب. مسرحيّون. أساتذة جامعات. بسطاء... يتحدَّثون عن المشاريع المكسورة، عن وضعيّاتهم الإداريّة، عن البطالة، عن الخوف، الموت المجاني، محوّطين بالجرائد الوطنيّة ذات العناوين العريضة السوداء، وأخبار الموت اليوميّة. يعيشون بتوقيت الشوارع ووطن يأكل نفسه. يحزنون. يحتسون البيرات الرديئة والرخيصة. يدخّنون السجائر الوطنيّة لأنّها ما تزال في متناولهم. يتناوشون، ثم ينسحبون باتّجاه ما، هم أنفسهم لا يعرفون وجهتهم أحيانًا. أبحث عنك. أبحث عن شعرك الملفلف الذي افتقدت خواتمه الجميلة، وقامتك التي ترفض أن تنحني أو تنكسر. فلا أجدك. أشتاق إليك. أعشقك وأشتهيك. غيابك يؤذيني. لا شيء فيّ سواك. سوى لغتك ودهشتك الطفوليّة. وها أنت تنسحب مخلّفًا وراءك إنهاكات وجراحات من الصعب ترتيبها الآن. سنّ الخوف وبداية الانحدار نحو النهايات الفجائعيّة. لقد انسحب كلّ الذين كنّا نحبّهم، وانطفأت كلّ العيون الطيّبة. لقد بدأت رحلة اليأس الكبير بكلّ مخاوفها.

أيُّها العزيز على القلب والذاكرة.

هل تصدِّق أنّي، من فرط خوفي عليك، لم أعد أُتقن الكتابة إليك، ربّما لأنّي لم أعد أجدُ ما أقوله لك سوى أنَّني أذكرك كثيراً، كثيراً لدرجة أنّني أحيانًا أجد نفسي أعيش بتوقيت كلّ هواجسك اليوميّة الصغيرة. من يوصل صافو يا ترى إلى المدرسة؟ من يأتي بها من هناك. أما تزال تتدرّب على الرقص والموسيقى كما كانت تفعل؟ هل تجد وقتًا للتفكير في هذه الأشياء؟ من يقوم بإحضار حاجاتك في مدافن الغربة؟ من يُحضِر لك بريدك؟ بمن تلتقي؟ كيف تعيش وتنام وتتلقّى أخبار الموت الأحمق؟ وجودك خارج الوطن يشعرني بعقدة السعادة، وربّما عقدة العيش بهناء بعيداً عن الخطر، بينما اخترت أنت هذه الحياة المجنونة. لماذا أعود في كلّ مرّة وأطرح عليك هذه الأسئلة الساذجة التي استهلكناها بدون أن نصل إلى نتيجة. سبق أن أجبت عن ذلك كلّه في مقال قديم كَتَبْته عن زميلة شاعرة انتحرت في ظروف غامضة، قرأته مرّة ثانية بالمصادفة وأنا أفتِّش عن كلماتك هنا، وهناك، وكأنَّك تكتبه اليوم، لكن دون أن تعي ما كنتَ تقوله من فرط عنادك المجنون، وتماديك في استدراج القدر إلى حماقة لن أغفرها لك في نهاية الأمر:

ربّما كان ذلك وهمًا. ربّما كانت اللغة ذاتها وهمًا، ولكن من قال إن بقيّة القيم التي نتوازن من خلالها ونعطي بها لحياتنا معنًى من المعاني، ليست أوهامًا بدورها؟ ما معنى الحبّ؟ الكراهية؟ النضال؟ الخلود؟ المقاومة؟ الكتابة؟ العدالة؟ الشيء الوحيد المؤكّد في مغامرة الإنسان، هو الموت. الموت فقط، الباقي مجرّد احتمالات طارئة.

وها نحن نموت داخل العزلة والكلمات.

أيُّها المجنون، أريد لك مغامرة أجمل، وأريد لأطفالنا قدراً غير هذا. سمعت اليوم، بالصدفة، من صديقة مشتركة تقيم في بيروت، أنّك ستُعيّن

وزيراً للثقافة في الحكومة القادمة؟ أنا لا أمزح. الخبر نزل في أغلبيّة الجرائد العربيّة. وسمعت كذلك أنّك رفضتَ، وكنت على يقين أنّك ستفعل ذلك وأنّك لم تحدِّثني في الموضوع لأنّه بالنسبة لك محسوم. أنت والإدارة اثنان. كما كنت تقول دائمًا. قد يضغطون عليك ويصوِّرون قبولك نضالاً وطنيًا. لا ترتكب حماقة كهذه. ليذهب جميع سياسيّي الجزائر إلى الجحيم، وليبحثوا لهم عن آخرين غيرك يُهدونهم وجاهة هذا الموت المجّاني. من كلّ قلبي أتمنّى أن ترفض هذا القدر الذي يريدون زجّك فيه. أنت أكبر، ولا أريد لبراءتك الطفوليّة الكبيرة أن تُقهر وتُختطف وتُختصر في ربطة عنق، أو بذلة رسميّة. أعرف أنّك في الحقيقة لا تملك إلاّ أن تسخر عندما تسمع مثل هذه الأخبار المضخّمة أكثر من حقيقتها. أتذكّر كلّ كلمة قلتها لي: يا عمري، أنا فاشل في إدارة نفسي وشؤوني الصغيرة، فكيف أفلح في إدارة مؤسّسة كالوزارة، هي أكبر منّي. ثم إنّ طموحي الكبير أن أظلّ عاشقًا حرًّا، أكتب الكتب، وأسافر، وأنزل إلى البحر كلّما رغبتُ في ذلك، بدون أن أضطرّ كلّما تحرَّكت، إلى أن أبحث عن حرسي وعسسي.

لك وجاهة التاريخ حبيبي، والأدب، وكرسيّ شاغر في قلبي ينتظر مجيئك.

أيُّها الغالي.

ليس هذا ما أردت كتابته إليك، ولكنّنا، نجلس أحيانًا لنكتب شيئًا، فنكتب غيره دائمًا . إنّها حماقة الكتابة. أُمنيتي الكبيرة أن أقرأك دائمًا وقريبًا. هاه! تذكَّرت. صديقك الشاعر بكر، التقيت به في بيروت وهو يستعدّ للمجيء إلى باريس. رجل طيِّب جدًّا، ومجنون مثلك، ولكن ينقصه بعض النباهة. الأحداث والخوف والحذر الزائد، ضيَّعوا له بعض ردود فعله التي

كنّا نعرفها فيه. توقّعت أن أرى بكر قبل سفره، ولكنّه سافر بدون أن يخبرني. ربّما يكون قد نسي أصلاً؟ كنت أريد أن أرسل معه بعض الأشياء لك ولصافو، ولكن... بكر معذور لأنّه مهبول بعض الشيء. يصطدم وهو يمشي بكلّ شيء من حوله بما في ذلك السيّارات وأعمدة الكهرباء، فكيف أحمّله رسالة مثقلة بشوقي إليك؟ يدهس الناس ويعتذر في كلّ خطوة يخطوها. عندما يريد تفادي هذا الحرج، يفضّل أن يجلس في أقرب مقهى حتى تقلّ حركة المارّة، ولكنّه بمجرّد جلوسه، يُسقط، بحركة لا إراديّة، كلّ ما على الطاولة. فيحمرّ ويعتذر. مسكين بكر. يبدو أنه أصبح شخصيّة ضرورية لهذه المدينة المقتولة بالحرب الطاحنة الأخيرة.

عمري وحبيبي. سينو الغالي.

بيروت جميلة. أجمل ما فيها إصرار ناسها على الحياة. يسهرون وكأنّهم لا يحملون في أكفّهم، وعلى ظهورهم ورقابهم بقايا موت مارسوه أو مورس عليهم. يعشقون... يشربون. يسكرون ويهيّصون وكأنّ شيئًا لم يكن.

أخاف عليك. أرجوك، قلّل من خطايا النّبيذ والويسكي قدر الإمكان. اكتب لي دائمًا وأنت سكران، فتطرّف مزاج حبرك في مثل هذه الحالات يغريني بالكتابة إليك.

أتساءل مثلك داخل هذه العزلة القاسية عن خراب ما يحدث لنا ولأرضنا. لا شيء، سوى أنّ أصدقاءنا ما يزالون يموتون بالرصاص والذبح، ويقتلهم، هناك، المنفى وقسوته. لم نتهيّأ لمواجهة هذه الحالة الفجائيّة ربّما لأنّ المثقّف مثل الحاكم تمامًا، كانا ينامان في فقاعة وطنيّة ملوّنة، وبيقين لا يُحسدان عليه.

هذه الليلة لم أنم مطلقًا. لا أدري لماذا، ربّما لأنّي انتظرت تليفونك الذي لم يأتِ على غير عادته، على الرغم من وعدك.

وأنا أكتب، أسمع الآن نقرات الأمطار على الزجاج الخلفي المطلّ على شارع صغير في المدينة. ربّما كان اسمه شارع المتنبي، الذي كانت تعيش فيه فنّانة يونانيّة اسمها ماريكا لم نعرف عنها إلاّ أنّها كانت غانية، بينما يقول العارفون عنها إنّها ناصرت الثورة العربيّة ضدّ الأتراك عندما كانت في بداياتها. لا يعبره النّاس كثيراً ولا السيّارات، وهو بذلك يوفّر متعة الصمت والعزلة. الغرفة التي أنا فيها دافئة، والنزل قريب من الأوبرا، لكنّ برودة ما تملأني. هل هي الوحدة القاسية، وحدة العاشق الذي تعوّد على عينيك وقلبك وسماحتك، وحدة التوحيدي الذي نفره الأصدقاء والأقرباء الصغار والكبار، كما يقول أخوك عزيز.

تسألني ماذا أفعل الآن؟ لا شيء. أو على الأقلّ لا شيء يستحقّ الذكر. أقرأ بعض الكتب في غيابك أملأ هذا الخواء الذي يقهرني دائمًا. ومن قال إنّ الخواء سهل. إنّه الفترة الوحيدة التي نسمع فيها تكسّر كلّ الأشياء الثمينة في دواخلنا وحولنا. أحيانًا أقفز من نومي كالمذعورة أبحث عنك. أينك؟ أين تختبئ الآن؟ قبل قليل كنتَ هاهنا في الفراش نفسه. ثم أهدّئ عصفور قلبي. أصمت وأنا أتأمّل سقف هذه الغرفة الصغيرة. أستحضرك بكاملك. لا أستطيع تحمّل كلّ ذلك وحدي.

تصوَّر! كلّما سمعت خبراً يأتي من وراء البحر، كلّما رنّ التلفون، أتخيّل أبشع الصور، مع ذلك أظلّ أرفض هذا المصير وأخاف عليك. لم نُصنع لهذا القدر. أنت وحيد الآن كبقيّة الأصدقاء هناك. في عالم يشتهي أن يكون على غير ما هو عليه. يريد أن يتغيَّر، ولكن هل سيسعفه القتلة والذين يقفون عند العتبات، ينتظرون الفرصة المناسبة لفتح قلوبنا الممتلئة بالنور، لملئها بالظلمة والقسوة. أرفض معك هذا القدر. فهو ليس لنا.

ماذا تفعل الآن؟ تذكَّرت؟ هل لي أن أسألك بدون أن أربكك؟ كيف هي آنيا، أو أنيتا كما تشاء أن تدلِّعها، طالبتك الروسيّة الجميلة؟ لا تزعل منّي؟ هي جميلة وأنا أخافها وأخافك عندما تتدحرج في أجمل غيمة بنفسجيّة بعد رشفات الويسكي؟ لا تهتمّ عمري. أحبّك وأعرفك، ولهذا لغيرتي ألف مبرّر. هل لي أن أطرح عليك هذا السؤال الكسول؟ كيف تعيش هذه القسوة؟ كيف تخرج؟ كيف تدخل؟ كيف هو طعم الخوف في حلقك الآن؟ بماذا تشعر وأنت تغادر البيت صباحًا؟ أما تزال تخرج كما كنتَ تفعل هنا، واضعًا يدك على قلبك أو في جيبك، موهمًا كلّ من يراك بأنّك مسلّح؟ رأيتك في باريس، كلّ حركاتك ما تزال كما كانت، تجلس مواجهًا للباب في المقاهي، تتأمَّل الوجوه التي تدخل وتخرج؟ تضع يدك في جيبك الأيمن وتتفرَّس الوجوه الغامضة؟ يبدو أنَّك نقلتَ خوفك معك. كيف حالك وأنت تواجه الموت كلّما نزلتَ إلى المدينة؟ أنا بدأت أنسى هذه الحالات التي كانت مشتركة بيننا، نوع من التبلّد يثقل رأسي، فأنا لم أُخلق لهذه الراحة القاسية والفتّاكة. هذا الخوف الذي كنت أعيشه معك كلّما دخلنا عمق المدينة أو غادرناها. صرت هنا لا أتذكّره إلاّ عندما أكون وحيدة في شارع خالٍ، فتستيقظ فيّ كلّ حساسيّاتي القديمة. أشتاق، أتدحرج معك نحو كلّ الأماكن التي كنّا نحبّها، حتى ولو كان ذلك بخوف كبير. أقبل أن أختصر المدينة داخل سيّارة حتى لا يرانا القتلة، لكن شرط أن نكون معًا.

بماذا تفكّر الآن ؟ هل ما تزال في قلبك تلك المرأة التي عبرت ذات يوم جهنّم بكاملها لتصل إليك وهي لا تحمل شيئًا مهمًّا سوى بعض الأحرف وأوراق بيضاء ومداد أسود؟ هكذا نحن دائمًا. عندما نلتقي في حاضرنا، نحرقه بالأسئلة عن الماضي ونرهقه، وعندما يصير هذا الحاضر ماضيًا نتشوّق له ولأصغر تفاصيله، بحنان كبير. أعتقد أنّنا أصبحنا مرضى بماضينا وربّما بحاضرنا المريض أيضًا.

هل هو قدر العاشق أم قدر الكتابة ذاتها، التي لا تستقرّ إلاّ على الخوف والنار والرهبة؟

ثم ماذا حبيبي لو تحدَّثنا قليلاً؟

متعبًا وجهك كان... مغلقًا عمري كان...

أنا مشتاقة لصوتك وللحزن المتخفّي في كلماتك.

لا شيء بعد كلّ هذا سوى أنّي تمنّيتُ أن أكون معك في عزلتك لنصدّق، ولو لأيّام قليلة، أننا عاشقان شجاعان، ولكن هذه المرّة كذلك، ستكون وحدك الكبير، وأكون أنا أثناء ذلك أحضّر مقاطعي الموسيقيّة الأخيرة التي سأعزفها اليوم على مرأى أكثر من ألفي شخص مشتاقين لشيء من الموسيقى، بعد سنوات الجفاف، في أوبرا بيروت. وعندما أعود إلى أرض الحرائق سأدخل في رتابتي: تدريس الموسيقى، التي لم أعد أجد فيها أيّة رغبة ولا متعة، مثل الدواء تمامًا، والتفرّغ قليلاً ليونس الذي بدأ يكبر بسرعة ويرتبط بقوّة بوالدتي التي وجدت فيه تعويضًا عن مفقوداتها الكبيرة في الحياة، وتحضير البيت، وتنظيفه، وغسل الصحون الصغيرة، ثم الانزواء نحو النافذة الخلفية لتأمّل الشارع الواسع، والتمتّع باسترجاع وجهك، ومدينتنا والكتابة.. الكتابة دائمًا. والتفكير فيك وعزف آخر الألحان التي كان والدي ينام عليها.

أرأيت؟ الكتابة كالمتعة، نهب دائم وحيلة.

الحياة تعلّمنا أن نكون قراصنة الخوف.

قبلاتي.. قبلاتي.. قبلاتي..

مريم التي تتمنّى لو أنّها لا تحبّك جدًّا.. جدًّا.. جدًّا... ولكن...

04h 20mn 07s

- ١ -

شعرت بنوع من الوجع في يدي. تأمَّلت أصابعي.

الحمد للّه، لا دم في كفّي.

كلَّما رفعت رأسي ارتسم الوقت أمامي جليًّا. أرقام حمراء على أرضيّة سوداء. كلّ شيء أصبح الآن واضحًا.

كلّ شيء في موقعه، على الرغم من الزلزال الذي كان يحرِّك كلّ داخلي. الكمان ابتعد قليلاً إلى زاوية المكتب وكأنِّي دفعته بمرفقي من دون أن ألحظ ذلك إلاّ الآن. المسدّس غيّر موقعه قليلاً، وأصبحتْ فوهته موجَّهة نحو أوراقي، وكأنّه يترقّب اللحظة المناسبة ليمنح الموت بسخاء لكلّ ما يورق خارج ظلمته. ما أكثر الكلمات والأوضاع التي لا تعجبه.

ربّما كان الغبن الكبير الذي يحتلّ كامل جسدي هو الأساس في هذه الوضعيّة الشاذّة والغريبة التي أنا فيها، ولا يصدِّقها عاقل.

أريد أن أقف على واجهة الطريق الخالية في هذا الوقت، وأصرخ بأعلى صوتي:

« ـ لست مريم كما أرادني سينو، ولا حتى كوراثون ميا التي ابتدعها من عطر أجداده وأجدادي الأندلسيّين، ولا مادري ميا، التي ناداني بها في زمن ما، عندما اشتاق لرغوة حليب أمّه. ولا حتى ليلي كما كان يناديني والدي كلّما اشتاق لسماع صوتي أو عزفي على كمانه الجميل. وكما اعتاد سينو أيضًا، أن يناديني. قد لا يثير اسمي الشيء الكثير عند من يسمعه مثلما حدث لمريم التي سرقت كلّ شيء منّي، ولكن هذه هي أنا على صورتي الحقيقيّة، ليس كما ارتسمت في اللّغة والأوراق، أو كما شاءها سينو».

نسمة من البرد تسرّبت من مكان ما. الوقت يزحف بثقل. ما يزال لديّ متّسع من الوقت للحديث إليه وهو يضع قلبه وذاكرته المتعبة بين يديه. لغتي الوحيدة، صراحتي القاسية، ورسائلي وقلبي الذي يرفض أن يستسلم لغير الأوهام.

« ـ لا أدري إذا ما كنت قد بدأت، أم ما زلت في المقدّمات المبهمة؟... طيب».

شعرت مرّة أخرى ببرودة المسدّس، ولكنّي لم أعره أيّ انتباه. حتى أنّي بدأت أشكّ في أنّي أنا من وضعته في هذا المكان. قد تكون الصدفة الملعونة التي عوّدتني على أكثر الهزّات غرابة. في كلّ مرّة ألاحظ أنّ فوهته قد غيّرت وجهتها. المؤكّد هو أنّه الآن بدأ يغرق شيئًا فشيئًا تحت ركام الأوراق والرسائل، والقصاصات الصحفيّة الكثيرة التي أخبّئها مع وثائقي الخاصّة.

كيف نشأت هذه الفكرة الملعونة التي أغرق فيها الآن، فكرة استرجاع اسمي وافتراض سينو في غيبوبة غير رحيمة؟

أسترجع تفاصيله، فترتعش فرائصي بقوّة.

كلّ شيء بدأ بخبر صغير في جريدة *الخبر* اليوميّة، لينتهي إلى شيء غريب ما زلت أشمّ رائحته التي تشبه الزعفران ورائحة الكافور، قلب حياتي رأساً على عقب، ودفعني بقوّة نحو نفسي.

- ٢ -

قبل سنة بالضبط، انتابني هذا الإحساس الغريب. لقد تركت كلّ شيء ورائي لأكون قريبة من أنينه الأخير. خفت أن يموت ولا أراه. اشتهيته أن يموت في حضني وليس بين ذراعي هاجر أو أيّة امرأة أخرى، أو وحيداً، في عزلة قاتلة.

مرضه كان يمكن أن يسرقه أو يشلّه. تخيّلته فاقداً للّغة؟ للمشي؟ عاجزاً عن تثبيت عينيه في شخص؟ واجماً في الفراغ، في اللاشيء، وكلّ ما يحيط به مجرّد ضباب. كان أقسى شيء فكّرت فيه هو أن يظلّ في كامل قواه العقليّة، ولكن بلا حراك ولا قدرة على الكلام.

قال لي آخر مرّة، عندما زرته في باريس، ونحن نخرج من فيلم يتحدّث عن الموضوع نفسه: Le Scaphandre et le Papillon[1] المقتبس من سيرة ذاتيّة لجون دومنيك بوبي، الذي وجد نفسه مسجوناً داخل جسد لم يعد يستجيب لأيّ من أوامره على الرّغم من أنّ عقله ظلّ في كامل صحوه. أصيب بما سمي في اللغة الطبّيّة بـ: Locked-in syndrome التي تعني حرفيّاً: **السجين داخل نفسه**، الذي يخسر فيه المصاب ملكة

---

١ - De Jean-Dominique Bauby, éditions laffont, Paris 1997. Adapté au cinéma en 2007 par le réalisateur américain Julian Schnabel.

الحركة والتكلُّم، وحتى التنفُّس، إلاّ بأجهزة مساعدة. ويضطرّ إلى حفظ أبجديّة بترتيب غريب وجديد، من الأكثر استعمالاً إلى أقلّها: E S A R I N T U L O M D P C F B V H J Q Z Y X K W ويركّب جمله بعينيه. تقرأ المدرّبة عليه الأحرف، وعندما يأتي الحرف المطلوب لتركيب الكلمة يؤشر بعينه اليسرى، الوحيدة التي كان يستطيع تحريكها، وعندما يريد تصحيح الغلط، يفعل ذلك برمشتين. وهكذا حتى يركّب الكلمة فالجملة. الغريب أنَّه عندما أصيب بالإغماءة الخطيرة، كان في عزّ ارتباطه بالحياة. كان يستمع إلى أغاني البيتلز، The day in the life.

« ـ صعب عمري أن أعيش هكذا في اللاشيء. شجاعة خارقة كان يملكها بوبي، لا أملكها ولا أريدها. ولست في حاجة إلى حياة يائسة».

كان سينو يسخر من نفسه ويضحك. قال لي يومها، وأنا أرى في عينيه جدّيّة غريبة: لو يحصل لي ذلك، لا تتردّدي في قتلي. قدر غريب كان بجانبه، وربّما فيه، يصغي إليه بانتباه ويضع كلامه على حافّة الاختبار.

كلّ شيء يومها مرّ بذهني بسرعة غريبة.

لا أدري بالضبط من أين جاءني المثل. ولا أدري ماذا حدث في تلك اللحظة بالذات التي سبقت رنّة التليفون بثانية واحدة، وانتقال يوم الخميس نحو الجمعة. رفعت رأسي نحو الرزنامة: **الخميس ٢٧ مارس ٢٠٠٨**. التفتّ نحو الساعة. لمعت شاشة المنبّه بأرقامها الستّة الحمراء مثلما تفعل الآن. المنبّه الذي لم يعد له مكان في البيت بعدما احتلّت مكانه منبّهات رقميّة أخرى موجودة في عمق الموبايلات الفرديّة لكلّ منّا، وخارجها. لكنّي أحبّ هذا المنبّه، لأنّه هو من كان يذكّرني، في زمن مضى، بكلّ مواعيدي الجميلة مع سينو. أقوم باكراً. أمشّط شعري الذي

كان يحبّ غزارته الغجريّة، ورائحة الحنّاء التي تخترقه. حتى عندما تعطّل المنبّه، طلب منّي رياض، بعفويّة الرجل الطبيعي والغني، أن أرميه، وأن أشتري غيره. كدت أصرخ في وجهه: من يجرؤ على رمي ذاكرته؟ حتى المصلّح نفسه نصحني بشراء منبّه جديد أحسن من تصليح القديم لأنّه سيكلّفني غاليًا. لكنّي أكّدت له أنّي مصمّمة على دفع أيّ ثمن مقابل تصليحه. وهو ما فعله بعد أن رضخ لطلبي. كانت يومها الأرقام تشير إلى 00h 59mn 00s، الواحدة إلاّ دقيقة بالضبط. طنّ في رأسي، فجأة، مَثَل غريب؟ Jamais deux sans trois لا أعرف حتى من أين جاءني ولا السبب الذي أيقظه فيّ. طبعًا عرفت، فيما بعد، سرّ كلّ النداءات الآسرة التي كانت تتذابح في داخلي الهشّ والمنكسر دومًا.

لست أدري ما الذي قادني نحو الأنترنت. فتحت على يوميّة جريدة **الخبر**.

كانت عيناي المتعبتان مثبّتتين على شيء غامض في الجريدة، في الصفحة الثقافيّة، في الزاوية الجانبيّة المظلّلة بأخبار كثيفة، فجأة شعرت بقلبي ينتقل إلى فمي.

«**دخل اليوم، إلى غرفة الإنعاش، الكاتب الجزائري المعروف أ. سينو، وهو في شبه غيبوبة، إثر أزمة قلبيّة حادّة ألـمّت به، وهو الآن تحت العناية المشدّدة**».

قرأت الخبر العديد من المرّات، متمنّية أن لا يكون المعني بالمرض هو. نتصوّر دائمًا أنّ الأعطاب لا تصيب إلاّ الآخرين، وننسى أنّنا نحن أيضًا آخرون بالنسبة لغيرنا. زاد خوفي عندما بدأت أفكّك الكلمات. ***أزمة قلبيّة حادّة. شبه غيبوبة. العناية المشدّدة***؟ على الرغم من هروبي بعيدًا عن الحالة، لم أستطع تفادي تذكّر فيلم السكافوندر والفراشة. لا بدّ أن

يكون الأمر خطيراً، قلت في خاطري وأنا أحاول أن أتوازن. يعني أنَّ الموت أصبح عند العتبة ينتظر أيّة غفوة؟

استعدت آخر صورة عندما التقينا. كان وجهه متعباً، علاه بعض الزرقة التي لم أرها أبداً على محيّاه، حتى في أقصى درجات انكساره ومرضه. كان شاحباً جداً. عندما سألته:

ـ حبيبي، عليك أن ترتاح. إنَّك تُتعب نفسك كثيراً بالأسفار التي لا تتوقّف.

ضحك كعادته. رأيت فجأة لزعر الحمصي، الطفل المشاغب، ينسحب تاركاً وراءه مساحة من الظلال المبهمة.

ـ وماذا يمكنني أن أفعل في مكان الأسفار؟ أن أثبت في مكان كالحجرة؟ أنتظر متى يجرفني هدير الوديان؟

ـ قليلاً، ريثما تسترجع باقي قواك الداخليّة.

ـ يبدو أنَّ قدري خُطّ بشكل نهائي. ورّثني أجدادي الأسفار وانسحبوا. يصعب على من هو مثلي أن يعيش نصف حياة... يصعب يا عمري...

لم أطمئنّ على الرغم من أنّه أكّد لي أنّ أتعابه ناتجة عن قلّة الراحة وكثرة العمل في مشروعه الروائي الكبير *عن العرب في ظلّ اتفاقيّة سايكس ـ بيكو*. لقد اشتغل على مدار ثلاث سنوات بلا هوادة.

أعرف أنَّ للعمل دوراً كبيراً في إرهاقه، لكنَّ العلامات التي ارتسمت على وجهه كانت تنذر بشيء أكبر، وربّما أخطر.

لم أفكِّر في شيء آخر. إلاّ كيف أرحل نحوه في أوّل طائرة.

- ٣ -

لا يمكن.

لم أجد فرصة للاحتجاج ضدّ شيء غامض فيه رائحة الموت، ولكنّي تمتمت في محاولة يائسة لكتم صرختي الحادّة وعوائي الباطني.

«ليس من حقّه أن يموت بهذه الطريقة...».

الأقدار أحيانًا لا ترحم لأنّها كثيراً ما تأخذ مزاحنا مأخذ الجدّ.

كنت أسخر طبعًا، عندما قلت له في آخر مرّة، وأنا أنام على صدره كما ولدتني أمّي، وكان يبدو حزينًا ومنكسراً، قال وهو لا يدري ماذا كان يقول:

- ماذا تفعلين عندما أموت؟

ضحكت من كثرة المرارة، ولم أدر من أين جاءتني الإجابة:

- أسترجع اسمي فقط، ليلى، لكي أمارس غربتي براحة. مريمتك هذه لا تشبهني. كارثة، محت كلّ ملامحي وامتصّت كلّ فرحي. أصبحت أشكّ في أنّها مجرّد لعبة لغويّة لا مكان لها إلاّ الكتب؟

- غريب؟ ألم يكن يعجبكِ اسم مريم؟

- كان. أصبح اليوم يذبحني. فقد منحتها حرّيّة أكبر منها. تقلّدني في كلّ شيء، وتتفرّد بكلّ الاستثناءات الجميلة التي لا أستطيع القيام بها.

- مثلنا الأعلى دائمًا هو أكبر منّا!

وكأنّه كان يستدرجني نحو شيء كان يريده:

ـ تريد أكثر من هذا؟ طيّب حبيبي، عندما تموت سأكتب عنك أجمل كتاب... لا... لا... سأفضح كلّ الحقيقة المتخفّية، وأقول إنّ وراء مريم امرأة حقيقيّة اسمها ليلى، أو ليلي. أنا. وأنشر كلّ رسائلنا ليتأكّد الناس من أنّي لا أقول كلامًا فارغًا. أنشر رسائلنا بكلّ تفاصيلها، لا مثلما فعلتَ أنت في رواياتك بعد أن مارست عليها سلطان الرقابة، وذوّبتها في فعل الكتابة. لن أنقص منها كلمة واحدة. بل سأعيد ما غيّرتَه أنت إلى أصله. هل يرضيك هذا؟ طريقتي في إثبات هويّتي الحقيقيّة.

استلّ ضحكة جميلة لمعت تحت النور الوردي المنبعث من وراء زجاجة الويسكي التي كانت في منتصفها:

ـ شوفي غيرها عمري. نكتة عيانة بزاف...

كان يظنّني أسخر.

ـ أنا جادّة...

ـ كيف لامرأة من ورق، خلقتها على مدار ربع قرن برفقتك وبرضاك، أن تكتب كتابًا، وهي مجرّد لغة هاربة يصعب القبض عليها؟ من هي مريم إذا لم تكن مجرّد لغة ورموز مجنونة، كلّ من أراد أن يمنطقها، أصيب بعدواها.

قلت له وأنا أشعر بجدّيّته:

ـ هذا ما تظنّه حبيبي. لم أعد مريم التي خلقتها من أوراق هاربة. التي ستتحدّث هذه المرّة، هي ليلى. الطفلة الصغيرة التي بُليت بك في وهران، وغنّت لك إديث بياف، نانا موسكوري، وفيروز على عتبات مدرّج قسم الآداب، وعزفت لك بكمان والدها القديم أجمل الألحان،

ورافقتك في أماسيك الشعريّة، عندما كنتَ تكتب لها شعراً قبل أن تهرب نحو الرواية. امرأة من لحم ودم ضاق عليها أن تظلّ حبيسة الورق ورائحة الحبر البنفسجي الذي تحبّ عطره، ولكنّها تحبّ الحياة أكثر، ولا أحد يعرف أنّها امرأة حقيقيّة، تحبّ وتكره، وتحقد أحيانًا على كلّ من يدخل مساحتها المقدَّسة، ويحاول أن يسرق أشواقها. لها أظافر حادّة لا تغرزها فقط لحظة اللّذّة القصوى في ظهر حبيبها، وقد جرّبتَ ذلك في لحمك، لكنّها تدافع بها أيضًا عن نفسها عند الضرورة. تريد أكثر من هذا؟ لقد وضعتني في جسد أثقل منّي كلباس الغوّاصين، مثل جون دومنيك بوبي المسكين، أحتاج إلى كثير من الماء لكي أطفو على السطح بكلّي.

ـ يبدو أنَّك فكَّرت في الموضوع طويلاً! مهبولة. لم أر يومًا مريم خارجك أبداً. بل أنت من سجنني داخل شخصيّة أحبّها الناس كثيراً حتى أثاروا غيرتي، وما أخافه هو أن يصبح تكرارها مملاً في النصوص. يا عمري وين أنتِ؟ وين مريم؟ ألف امرأة من حبر، لا تساوي همسة واحدة من شفتيك.

قبّلني لكي أسكت، ولكنّي واصلت في غيّي الذي استهويته.

ـ سترى عندما تموت ماذا سأفعل؟ قد أقتلك فقط لأفعل ذلك... هاها... هاها...

ـ ليكن. الموت بين يديك راحة. هرب منّي يقين الخوف الذي تبطّن فيَّ طويلاً.

ـ سأقتلك فقط لأشعر كم أنا بحاجة ماسّة إليك يا أحمق.

لم أكن جادّة أبدًا. مجرّد مزحة هاربة لا شيء من ورائها، فلماذا تنصت الأقدار لكلّ حماقاتنا التي لا نعني من ورائها إلاّ الحبّ؟

أريد في هذه اللحظة، من هذا الهدير القاسي الذي في داخلي، أن يصمت، وأن يسمع فقط لدقّات قلب لم يعد كما كان.

«اهدأ حبيبي، واترك كل الخبل الذي في قلبك ينام قليلاً واسمع لنشيدي الخفيّ: أحبّك يا أكبر مهبول في الدنيا. أدرك حبيبي اليوم أنّ المرض أعادك إليَّ أكثر بعد أن شعرت بك تفلت من بين أناملي كحفنة ماء، ولكنَّه أعادني أنا أيضًا إلى نفسي التي نسيت دائمًا الإصغاء إليها».

ـ ٤ ـ

أستعيد اللحظات وكأنّها تنشأ الآن في قلبي، جارفة في أثرها كلّ شيء.

الكمان غاب من مشهد البيت نهائيًّا. ربّما اندفن تحت كومة الرسائل وروائحها التي تملأ المكان. حتى المسدّس غاب تحت أغلفة بعض الرسائل الخشنة والمزق الصغيرة، ولم تبق إلاّ فوهته ظاهرة للعيان، موجَّهة هذه المرّة صوب الكمبيوتر.

كلّ شيء بدأ يتّضح عندما تجاوزت الساعة الرابعة صباحًا والربع.

ـ ٥ ـ

قبل سنة بالضبط، يوم بيوم، عندما رنّ التليفون من باريس، عرفت الصوت من بحّته. سفيان صديق سينو، وناشره المقيم بفرانكفورت. التقينا به العديد من المرّات، وأعارنا بيته لنقيم فيه في لحظات هروبنا. كنت مولعة بالمتاحف وليس فقط المعرض السنوي الضخم للكتب. كنّا

نقيم يومًا في الماريتيم، الواقع في ٣ ممرّ تودور هاوس[١]. بينما ننزوي بقيّة الأسبوع، في بيته الواقع في الطابق العاشر من بناية جديدة. بيته يحرِّرنا من ثقل الفندق، ويمنح حركتنا بعض الحرّيّة للذهاب نحو متاحف المدينة التي أحبّها كثيراً.

ـ عندك خبر؟

قال وهو ينطق جمله بصعوبة، على الرغم من سرعته المعهودة في الكلام.

ـ نعم يا سفيان. حائرة وخائفة، ولا أعرف كيف أتصرَّف الآن. الساعة الواحدة ليلاً. ثم إنِّي لا أعرف المستشفى الذي يوجد فيه، ولا درجة الخطر الذي يعانيه.

ـ هو بمستشفى كوشان ـ سان فانسون دو پول الباريسي. على كلّ، لن تستطيعي رؤيته، فهو في غرفة الإنعاش، في العناية المشدَّدة، وتحت رحمة أجهزة معقّدة جدًّا، ولا يمكن زيارته إلاّ بعد أيّام عندما تتَّضح حالته التي أتمنّى أن لا تكون قد تركت آثاراً سيِّئة على جسده وفكره.

لم أكن أريده أن يعطيني تفاصيل عمّا يمكن أن يحصل له، فقد كانت صورة الفيلم الذي رأيته مع سينو، كافية لأن تجعلني أُصاب بالرعب الكبير.

ـ هل كان وحده أثناء الأزمة؟

سألت سفيان وأنا أصطنع هدوءاً لم يكن كافيًا لإخراجي من حيرتي.

---

١ ـ Maritim, Hotel Frankfurt, Theodor-Heuss-allée 3.

ـ كلّ شيء حدث في الجامعة ممّا سهل نقله بسرعة إلى المستشفى. ابنته صافو التحقت به لتكون قريبة منه، وهي لا تعرف أكثر ممّا نعرف، لكنّها طمأنتني. زوجته، هاجر، في الجزائر وستصل غداً إلى باريس، وابنه ماسي في كندا، وهو في طريقه إلى باريس. تخيَّلي مشقّة الحالة؟ في لحظة واحدة يمكن أن يتغيَّر كلّ شيء.

ـ غير مهمّ. أعطني تليفون صافو، ابنته.

تمنَّيت أن لا يعطيني كلّ تلك التفاصيل المتعلِّقة بهاجر، لأنِّي كنت منكسرة ولم أكن في حاجة إلى انكسار أعمق. هي لا تحبّني كثيراً، ربّما كان ذلك من حقّها. في الحقيقة لا أحسدها على شيء آخر، إلاّ على شرعيّتها، والأكيد أنّها تحسدني على حرّيّتي وجنوني.

صافو، عندما سألتها، لم تضف شيئًا جديداً عمّا كنت أعرفه من سفيان، سوى أنَّها أعطتني بدقّة اسم الجناح ورقم الغرفة.

كان صوتها حزيناً.

ـ حبيبتي. أنا طاطا ليلى. كيفك؟

ـ الحمد للّه، طاطا.

لم تتمالك، سرعان ما غاب صوتها في نوبة بكاء. ندمت أنِّي أيقظتها فيها، على الرُّغم من أنّ سينو كلَّمني كثيراً عن شجاعتها العالية. أمام الخوف الحقيقي كلّ الشجاعات تسقط ويتعرّى الإنسان أمام هشاشته التي يقضي العمر كلّه في تخبئتها.

ـ خير إن شاء اللّه عمري. كيفه بابا الآن؟

ـ في وضع صعب. على كلّ حال إنّهم يقومون بكلّ شيء لإخراجه من هذه المحنة. قالوا له إنّه محظوظ بدرجة عالية، لأنّه نُقِلَ إلى المستشفى في الوقت المناسب تمامًا، وبسرعة كبيرة.

ـ طيِّب حبيبتي... طيِّب... سأكلِّمك غداً. غرفته كم؟

ـ هو ممنوع من الكلام والزيارات، عدا عائلته الصغيرة؟

عائلته الصغيرة؟ شعرت بألم عميق وبرجفة داخليّة، وكأنّ صافو رمتني بعيداً عن كلّ حياة ممكنة، أو كأنّها ذكَّرتني بوضعي الاعتباري الذي كنت أشتهيه وأرفضه؟ لو كانت صافو تعلم ما في القلب، لما قالت هذا الكلام الذي عذَّبني. أعرف أنَّها لا تقصد ذلك، ولكنَّها الحقيقة المرّة.

ـ ما عليهش. رقم الغرفة؟

ـ في الطابق الثاني، غرفة رقم ٥٠.

ـ تسلمي حبيبتي. خلّي بالك من نفسك ومن بابا.

ـ ٦ ـ

في تلك الليلة بدأت أكتب له يوميّات، وأنا أعرف أنّه ربّما لن يقرأ رسائلي أبداً.

لم أفكِّر في أيّ شيء آخر إلاّ في الرحلة الجوّيّة الصباحيّة الأولى التي تنطلق عند الساعة السابعة صباحًا نحو باريس. قلت في خاطري الوقت مناسب. سأكون في باريس عند الساعة العاشرة، وأصل عنده على

الساعة الحادية عشرة. ليكن. ولكن في هذه المسافة الفاصلة، بين الواحدة ليلاً والسابعة صباحًا، كان عليّ أن أحلّ مشكلة ملينا ويونس، وأن أتّصل بأمّي لكي تبقى في مكاني ليومين، وأتّصل بزوجي الموجود في إفريقيا الجنوبيّة لأبرّر له سفري إلى باريس. ليست لديّ أيّة فكرة؟ أكره الكذب ولهذا عندما أصنع الكذبة أحاول، قدر المستطاع، أن أظلّ في عمق الحقيقة، حتى ولو كانت جزئيّة. تعطيني نوعًا من الراحة الداخليّة بأنّي كنت على حوافّ الحقيقة، ولكنّي كنت أيضًا في عمق الكذبة. لا يوجد كذب أبيض وكذب أسود، يوجد كذب مجّاني ومضرّ، وكذب دفاعي، لا يضرّ في النهاية أحداً. هو حقيقة أخرى. لن أقول لرياض عمّا حدث لسينو، فهو على يقين وهمي بأنّنا لم نلتق، منذ أن افترقنا، منذ قرابة العشرين سنة؟

يا يمّا لو كان يدري ماذا حدث في هذه العشرين سنة؟

طبعًا هذا غير صحيح. أعرف. ليكن.

اسم سينو وحده يثير فيه حساسيّة مفرطة لا ينتهي مفعولها إلاّ بعد أسبوع. أو شهر. يتصوَّر أنّه لولا وجوده لكانت حياتنا العاطفيّة أفضل. في كلّ مرّة أريد أن أقول له جملة كرّرها سينو كثيراً على لساني في كتاباته. طبعًا قناعي، مريم، هو الذي يتكلّم دائمًا. لا أتحمَّل أن أتحوَّل إلى أثاث قديم يوضع في الركن:

نستطيع أن نُركع كلّ شيء، أن نسرق نبضه وحياته، إلاّ القلوب فهي لأصحابها. ثم أصمت لأنّ التعب يكون قد أرهقني، ثم إنّي أفهم أحاسيسه ولا أريد أن أزيده. **رياض ضحيّتي، مثلما أنا ضحيّة قناعي، مريم.**

- ٧ -

لم أفعل شيئًا سوى أنّي رجعت إلى مخبئي لكي أكتب له فقط.

وأتساءل دائمًا مثلما يفعل غيري: كيف يمكن لرجل أن يتواجد في كلّ مكان، أن يدرّس في جامعة الجزائر وفي السوربون، وجنيف، وفينسيا، وكوبنهاجن، ونيويورك واستوكهلم، أن يكتب روايات طويلة النفس، أن يتحصّل على الجوائز، أن يتعامل مع الصحف وينتج برامج في التلفزيون و.. و.. و.. هل هو جنّيّ أم رجل مسحور، أو يملك وقتًا لا يملكه الآخرون؟ ربّما كان له جيش من الطلبة تحت وصايته، يستفيد من جهودهم؟ لا بدّ لرجل مثل هذا أن يكتفي بقصر العمر، لأنّه يعيش زمنه على عكس ما يعيشه الآخرون. بسرعة مجنونة لا قوّة تقف في وجهها، ولا بدّ أن يصطدم يومًا بمجرّته القاتلة. هذه المرّة كادت المجرَّة الضائعة في الفضاء أن تأخذه وتتركني معلَّقة في الفراغ.

اكتشفت فجأة كم أنا وحيدة في هذه الدنيا. قد لا يكون ذهاب شخص مهمًّا، كلّنا نذهب يومًا، لكنّ ما يتركه من فراغ مهول يحتاج إلى زمن طويل لترميمه. هل العمر يسعف بعد كلّ هذا الزمن؟

أعتقد أنّ الحبّ أيضًا مجرم. قد يقتل أحيانًا بلا سبب مسبق ولا عقل؟

الحبّ يقتل حينما يريد. يدفن حيثما يريد أيضًا. ويترك العاشقين المقتولين على حافّة الحياة بمشيئته، ويصنع لهم نهايات تراجيديّة ليدخلهم في ذاكرة العابرين في هذه الحياة، وهم لا يعرفون أنّ ذلك يمكن أن يحدث لهم يومًا، أيضًا.

بدأت يداي ترتجفان، ولا أعرف إذا ما كان عليّ أن أشكر القدر الذي لم يأخذه، أم أشكر قوّة سينو التي منعته من الإغفاءة القاتلة وإغماض عينيه؟

أحيـانًا في خلوتي، أتساءل إذا لم يكن سينو قد تعب وأصبح يستدرج الموت بطريقته المجنونة؟ كلّ شيء في عينيه المتعبتين، في كلامه، في حركاته، يقود نحو ذلك. ربّما كان يريد أن يذهب على رؤوس أصابعه لكي لا يثير أيّ ضجيج وراءه، ولا يزعج أحداً. عادة سينو التي لم تتغيَّر منذ طفولته الأولى. لا يريد أن يزعج الآخرين أو يحرجهم. لقد تعوَّد على الصمت الذي يصنعه من حوله، ويعيش فيه الزمن الذي يريد.

« **ـ قلتُ لك حبيبي، إنّ الحبّ قد يقتل أحيانًا؟**».

التفتَ سينو نحوي. ابتسم قليلاً، ثم انسحب، وكأنّ الأمر لم يكن يعنيه أبداً.

* * *

من مريم إلى سينو

الجزائر، ٣٠ـ٠٣ـ٢٠٠٨

سينو الحبيب.

كنت جادّة حينما قلتُ لك إنّ الحبّ قد يقتل أحيانًا، لكن، يبدو أنَّك لم تصدِّقني؟

التفتَّ نحوي وانسحبتَ، وكأنّ الأمر لم يكن يعنيك.

أرجوك تريَّث قليلاً قبل أن تنام. لا تذهب الآن، ما زلتُ بحاجة ماسّة إليك. أتنفّسك مثل الهواء وأشربك كلّ صباح مع أنداء الفجر. لك كلّ الموت لتنام حبيبي. لا تذهب الآن. انسحابك من المشهد لم يكن أحسن الحلول.

عثرت على هذه الرسالة في شكل قصاصة صحفيّة من جريدة الخبر وقد كتبتها طالبة لا أحد يعرفها، ولكنّها مليئة بالعرفان. شعرت بسعادة عندما قرأتها وعرفت أنّك لست وحيداً في دنيا ليست دائمًا عادلة معنا. احتفظت بها لأنّ صاحبتها كانت تشبهني، لكنَّها لم تكن أنا. بها قلبي

وليس لغتي. أشتهي أن ألتقي يومًا بها، لا لألومها على حبّها لك، من حقّها أن تفعل ذلك. المرأة في بلادنا تحتاج إلى من يمنحها قليلاً من الحبّ والكثير من الأمان. فقط لأنحني أمام قلبها الطيّب الذي تحرَّك في وقت كان يعبر فيه الناس الشوارع منشغلين بحياتهم اليوميّة، غير معنيّين بما كان يحصل لك.

«ربّما يتساءل الكثيرون: كيف يمكن لرجل أن يتواجد في كل مكان... يكتب روايات طويلة النفس... يحصل على الجوائز الكثيرة... يتعامل مع الصحف العربيّة والأجنبيّة والتلفزيون و.. و.. و.. هل هو جنّيّ أم رجل مسحور؟ يملك وقتًا لا يملكه الآخرون...

سيكفي جوابًا أنَّ سينو ينام الآن في المستشفى بباريس، بكلّ بساطة لأنّ قلبه قرّر، في لحظة من اللحظات، أن يتخلّى عنه لفرط ما أتعبه، وسرق من نبضه الكثير ليمنحه للآخرين. أتساءل في الغفوات الصادقة إن كانوا كلّهم يستحقّون ذلك بالفعل؟ أجزم أنّ الكثيرين منهم يتشفّون الآن وينتظرون خبر الموت ليركضوا نحو المقبرة لتأدية واجباتهم الأخيرة. واجب التخلُّص من صوت مقلق لراحتهم. قد يكون كلامي قاسيًا، ولكنّه في صلب الحقيقة التي لا تلعب باللغة وسحر العواطف الخبيئة. كلّما رأيت رجلاً ذكيًّا سلّم أمره للموت، رأيت الغزلان الذبيحة في عيون القتلة الجدد الذين نبتوا في ظلمة الضغينة...

سينو هو... هو... لم يتغيَّر إلاّ قليلاً. نصف حياته مرهون لشخصيّات يصنعها من البنفسج وورق الحلفاء، وعطر المواسم، ثم يصدِّق أنّها موجودة، فيحبّها، يضعها في قلبه وعينيه، ويخاف عليها. يقول إنّها هشّة ولا نصير لها في الحياة غيره. ثم يحكي عنها طويلاً، عن مشقّة العيش، وعن تفاصيل حياتها الدقيقة كما كان يفعل أجداده الأندلسيّون عندما يجلسون وراء برّاد الشاي ويبدأون سرد الخفايا وقصص العشّاق. جدّه الذي

شقّ البحر إلى نصفين كسيِّدنا موسى، ومشى على الماء من المارية حتى سيِّدنا يوشع...

هو ذا يدفع اليوم ثمنًا غاليًا، في عزلة لا شيء فيها إلاّ ابتساماته التي تنكسر على بياض المستشفى والأطبّاء الذين يتوقّفون عند رأسه قليلاً، يُطمئنون، ثم يمضون نحو مريض آخر.

أعرف الآن ما كان يقوله سينو دائمًا، بدون أن يدري أنَّه سيكون أولى ضحايا كلامه: الحبّ قد يقتل أحيانًا. هو الآن ينام في المستشفى الباريسي لأنَّ قلبه لم يتحمَّل قانون حياته الغريب: ألم يقل إنّ الحياة ليست هبة فقط، ولكنَّها استحقاق أيضًا، وهو يستحقّها، لكي نرى ما يخبِّئه لنا داخل كتبه القادمة.

لو كلَّفني سينو بذلك، لكنت وقفت على أرصفة المدينة والقرى وشحذت له بعض العمر من المارّة: من هذا ساعة. من ذاك يومًا. من آخر شابّ مليء بالحياة شهراً كاملاً. وعندما أعود في المساء إلى البيت، أعدّ الثواني والساعات والأيّام والشهور وربّما السنوات، سأمنحه عمراً جديداً يقول به الحياة.

من أجل هذا الرجل الذي ينام تحت الرقابة الطبّيّة الصارمة، هو الذي سخر دائمًا من الرقابة ولعنها ورفضها بعناد شديد، أكتب وربّما لن يعرفني أبداً لأنّ اللواتي يشبهنني كثيرات»[1].

أرأيت حبيبي؟ الدنيا ليست بكلّ تلك الظلمة التي تلفّنا أحيانًا داخل أغلفتها الشرسة. ما تزال فيها فسحة لعشّاق لا أحد يعرف قلوبهم المليئة بالنور.

---

١ - جريدة الخبر اليومية ١ /٤ /٢٠٠٨.

أراك الآن تبتسم شوقًا وحنينًا. وتغازل الممرّضة التي تقف في كلّ وقت عند رأسك منذ أن بدأت تعود إلى الحياة شيئًا فشيئًا.

هل تعلم أيُّها المجنون أنّ وراء البحر قلبًا ينبض لك ويشتغل على توقيتك؟ هل تعلم أنَّ هناك امرأة، على بعد أكثر من ألفي كيلومتر، تفتح عينيها كلّ صباح على حوافّ البحر وتدعو لك ليس فقط أن تعود، ولكن أن تعود كاملاً لكي تستطيع أن تجعل من الحياة إمكانيّة ضافية للحماقات الجميلة التي تحرِّر الدواخل وتمنح السعادة الخفيّة؟

لقد أردت أن أبتعد عنك قليلاً، بل كثيراً ما تخيَّلتك انسحبت بهدوء داخل غيبوبتك، وأرى إمكانيّة العيش من دونك؟ كان عليّ أن أروِّض نفسي لفعل ذلك لكي لا أموت بشهقة الدهشة. كنت فقط أريد أن أجرّب، ولكنَّك لم تترك لي فرصة لذلك، لأنَّني تأكَّدت أنِّي لا أملك إمكانيّات الصبر، لأنَّ الهواء لم يدخل رئتيّ. أحاول أن أعتصر قلبي ليضخّ قليلاً من الدم ولكنّه يتضاءل كنثار الخوف.

لم يعد هناك برد يوقظ الحواسّ. لم يعد هناك حرّ يعمّق شهيّة الجنون. لم يعد للعطر رائحة الغواية، ولا للجسد رغبة حتى في أبسط الأشياء. لم يعد المطر الذي ينزل الآن مغريًا، ولا جميلاً كما كان.

لم يعد للدنيا معنًى حبيبي، وعليّ أن أنحته من خوفي عليك وخيبتي وذعري الخفيّ من ذهابك الأخير. لن تذهب لأنَّك كما قلت لي ساخراً: لست مستعداً لذلك وكأنّك أنت من يحدِّد الساعة. ثم إنَّك لم تمنحني هذه المرّة سعادة تنظيم حقيبتك الأخيرة، وترتيب أشيائك الصغيرة. منذ زمن بعيد لم أفعل ذلك.

عندما تخرج من هذه المحنة، أخرج أنا من باريس التي دخلتها كسارقة. لا تأتِ إلى هنا أيضًا ولو أنِّي سأحملك في قلبي. يكفي أنِّي رأيتك كما

اشتهيت رؤيتك في المستشفى. ويكفي أنَّك وضعتني أمام أسئلتي الهاربة التي تفاديتها طويلاً قبل أن أعود لها مجبرة. سافرْ حبيبي، إلى مكان جميل وهادئ للنقاهة. أنت تريد نيويورك لأنِّي أعرف أنّك تحبّها لسبب غامض، لا يهمّ. عد إلى عافيتك ثم اهرب نحوها. وإذا كانت هناك امرأة، ربّما كانت عازفة البيانو والرسّامة التي حدَّثتني عنها، قبّلها من عندي وقل لها: هناك في الضفّة الأخرى امرأة انتظرتني طويلاً وما تزال. ترفض أن تسلّم أمرها للأقدار القاسية. امرأة استيقظت فجأة لتجد نفسها في مواجهة كائن آخر من ورق وحرير، سرق منها عفويّتها وحياتها. تفادَ حبيبي نيويورك الآن على الأقلّ، ربّما كانت في سرّي العميق حسرة الغيرة هي التي تحرِّكني، لأنِّي أريد أن أضعك في عينيّ بعد أن منحك الموت عمراً جديداً، وأكون أوّل امرأة تحتفي بعودتك من فراغ البياض. نيويورك حبيبي صاخبة، وأنت تحتاج إلى بعض الراحة. سافر إلى مكان ترتاح إليه، أمستردام، مثلاً... لا... لا. أمستردام مدينة بريئة ولكنّها لا تكفي لراحتك. أعرف ملعناتك بها. لن تقنعني أنَّك كتبت *شرفات بحر الشمال* من مجرّد الخيال. ذات يوم سأفضحك مع نسائك. لقد بحثت عنهنّ بالإبرة وعرفت من تكون حنين؟ وعرفت أيضًا أنَّها لم تعد تعني لك الشيء الكثير بعد أن أصبحت دمية شمعيّة، مفرغة العينين. لن تقنعني بأنّك استوحيت كليمونس منّي فقط، لأنَّك وضعتَ كمانًا قديمًا بين أناملها، أو بأنَّها مجرّد شخصيّة ورقيّة. لا ورق حبيبي بدون حياة مبطّنة وخفيّة. من هنا يتحوَّل الأدب إلى أجمل كذبة تمرّ عبرها الحقيقة الخفيّة. كليمونس أشواقك الدفينة، وقد تكون امرأة منحتك ليلة أو ليالي، حرَّكت فيك مدافن السعادة المعلَّقة على نبض القلب. فتنة، كانت حبّك الأوّل، أو لحظة الاغتصاب الجميلة التي مارستها معك امرأة ممتلئة وأنت ما زلت في دفء الطفولة. قلت لي يومًا وأنت تتحدَّث عنها: كانت جميلة. عيناها خضراوان مثل حدائق الجنّة. لقد رأيتها وهي تضعك بين دفء فخذيها، ثم ضمّتك إلى

صدرها بقوّة وقالت لك: أحبّك. سمعتها كما تعوّدت أن تسمعها من أختك زوليخة، أو أمّك ولم تتساءل كثيراً. ولكنّها كانت أوّل امرأة حرّكت شيئًا فيك يشبه البراكين الصغيرة. وظللت تستعيد كلّ حركاتها، وشهقتها، وصرختها. ربّما، إلى اليوم ما زالت تلك الصرخة تحاصرك، ولهذا كلّما شعرت بالرعشة تحتلّ جسدي بكامله وارتعدت بين يديك وصرخت، وضعت يدك على فمي وأنت تمتم: *ششششششت عمري. المكان ليس لنا وحدنا؟* لا أدري إذا ما كان السبب هو الناس الذين يحيطون بنا، ويفعلون الشيء نفسه، أو تلك الصرخة التي رأيتها تتراقص في عينيها الخضراوين اللتين استسلمتا لك في وقت مبكّر؟ لا أنصحك بأمستردام حبيبي، لا لأنّها صاخبة، فهي ليست كذلك، بل لأنّها مدينة تخبّئ كلّ جنون الدنيا، وبها ما يهزّك بعنف، وأنا أريدك أن ترتاح. ترتاح فقط من الشطط اليومي، وبعدها افعل ما تشاء.

اخرج حبيبي نحو قريتك الصغيرة. اشبع من وجه أمّك التي كلّما تحدّثت عنها غلبتك حسرة أنّك لم تبق معها، طوال هذا العمر إلاّ شهوراً قليلة. احك معها؟ اسمع أنينها الداخلي. لها أشياء كثيرة لم تقلها لك. امنحها القليل من لحظاتك الهاربة. لها أحزانها وخوفها الدائم عليك. اترك الهاتف النقّال وراءك ولا تأخذه معك، فلست في حاجة إلى أصوات الغير الثقيلة. اقطع صلتك بالدنيا، وارتح قليلاً لتتمكّن من استعادة نفسك وترميم الكسورات الخفيّة. خذ معك جهاز الكمبيوتر النقّال الذي أعرف أنه صديقك الكبير، واحمل كتبك التي تملأ مخيّلتك: *ألف ليلة وليلة*، الأكيد، هناك ليال لم تكتشف بعد أسرارها. *دون كيشوت*. هناك بعض أسرار أجدادك الأندلسيّين المخبوءة داخل جمل سرفانتس. قلت لي ذات مرّة وأنت جادّ في حماسك: سأقوم يومًا بدراسة هذه الرواية العظيمة، وأظهر للعالم ما يتخفّى

من وراء سخريّتها. هناك موقف عظيم لسرفانتس من محاكم التفتيش المقدّس احتفظ بها لنفسه خوفًا من تبديده. فقد ظلّ يحمل حبًّا خفيًّا لهذه الأرض وناسها. تذكّر روايات *كازانتزاكي* وسيرته العظيمة *تقرير إلى الغريكو والمنشق*. أعد قراءتهما. الرجل كان نبيًّا عظيما مملوءاً بالسحر الذي كلّما شعرنا بسهولة تقليده وجدنا أنفسنا أمام مغاليق ومستحيلات كثيرة. خذ عرشك الأدبي الجميل وارحل صوب بحرك الأوّل، وشمسك الأولى، وتربتك الأولى، ولا تسأل عن البقيّة. عندما يقف الموت على العتبات لن نتذكّر ما عشناه، ولا ما لم نعشه، ولكن ما كان يمكن أن نعيشه ومنحناه لبلادة اليوميَ والمتكرّر. اذهب إلى بيتك البحري، ولا تخبر أحداً. سيساعدك البحر، ووجه يمّا ميزار المتعب من كثرة الهزّات المتكرّرة التي لم تعد قادرة على تحمّلها كلّها، أنا متأكّدة من أنّك تستطيع أن تستعيد ما هرب من طفولتك هناك.

حبيبي... سينو.

هل تدري أنّي اكتشفت اليوم سرًّا خطيراً؟ تريد أن تعرفه؟ لا أحبّك... قلت لك لا أحبّك. الحبّ شيء عادي يعيشه البشر بشكل يومي ومكرّر حتى أصبحت الكلمة لا تعني الشيء الكثير. ربّما تكون قد مارسته أو قلْته على الأقلّ لأكثر من امرأة.

أنا يا مهبولي الغالي، سأموت بكلّ بساطة من دونك. سأتلاشى وأصبح شيئًا آخر بلا حياة ولا روح. لو كانت الأعمار تُستعار أو تُمنح، أتنازل لك عن عمري. أنسحب من دائرتك لتحريرك منّي ومن المشكلات التي يسبّبها وجودي لك، مقابل أن تكون سليمًا معافًى. قد يكون هذا إحساس أمّ وليس إحساس حبيبة. الأمّ، يا سينو هي الكائن الوحيد الذي يتعذّب، ويعطي بلا مقابل. لقد انقلبت الأقدار عليَّ، وحولّتني إلى أمّ، وأصبحتَ فجأة ابني.

ربّيت عليك الكبدة، كما تقول أمّك وأمّي. ليس كلامًا جميلاً أقوله لأقوّيك وأدفع بك لنسيان نيويورك وأضوائها، وأمستردام وحليب نسائها، بل هو إحساس عميق لم يتّضح سرّه إلاّ الآن، بعد هذه القسوة المرّة.

إن كان كازانتزاكي يتمنّى أن يستجدي بعض العمر من الناس العابرين، ليعيش أيّامًا أخر، ويكتب أحلامه التي لم يسعفه الوقت لكتابتها، فأنا مستعدّة لأن أمنحك كلّ عمري، لتعيش عمراً آخر، وتحلم وتكتب. لن أندم إلاّ على شيء واحد، إذا ضيّعت العمر في الفراغ الذي يأكلنا أحيانًا.

سينو الغالي.

أرجوك لا تنس وعدك. لقد أكّدتَ لي يومًا أنّك ستكون بخير، وستبقى في كامل عافيتك. أحمّلك نتائج وعدك. أرجوك لا تخنّي، لأنّي سأكون أحزن امرأة في الدنيا. تستطيع أن تنفّذ ما قلته لي. لقد رأيت يومها في عينيك إصرارًا جميلاً على الحياة، وأعرف أنّك ستفي بوعدك لي لأنّه لا خيار لك، لأنّك لست شخصًا آخر غير الكائن الدافئ الذي أعرفه. صحيح أنّك تخلّيت عن لزعر الحمصي، لكنّ بقاياه الجميلة ما تزال فيك. لن أنام الليلة. أعرف أنّك متعب قليلاً، ولكنّي سأنتظرك حبيبي. أريد أن أبقى مفتوحة العينين، حتى أتلقّى جوابك الذي تقول لي فيه إنّك عدتَ إلى الحياة العاديّة، ولم يكن ما حدث إلاّ هزّة ذكّرتك قليلاً بأنّه عليك أن تهتمّ بصحّتك قليلاً. أنتظر أن تكتب لي جوابًا فيه ما أشتهي أن أسمع.

سأتركك الآن وأعود إلى البيت، أحبّ الموسيقى. لقد أعدنا فرقتنا الفيلارمونيّة إلى الحياة، وأنا سعيدة بذلك. وقتي مقسّم بين المدرسة العليا للفنون أو الكونسرفتوار الذي أعيد فتحه، وأوبرا مسرح وهران التي أتدرّب فيها يوميًّا مع الفرقة. نحن بصدد إنجاز أشواق المدينة على يد المايسترو الإيطالي جيوفاني جوليانو، الذي سيقضي معنا مدّة طويلة لإنجاز الفصول

الأربعة لفيفالدي. رجل أنيق ويحبّ فنّه بقوّة. منذ زمن بعيد لم نر هذه الجدّيّة. أشتغل كثيراً، لأنّ السيمفونيّة تعتمد عليّ كثيراً. رياض استسلم لرغباتي، وكلّما كان لديه وقت، مرّ على الأوبرا قليلاً، وحضر معنا بعض التدريبات قبل أن يغيب في شرايين المدينة لشؤونه اليوميّة المتعلّقة بسوق السيّارات التي أصبحت المورد الأساسي للنموذج الياباني والكوري، والأمريكي، هو وبعض أعضاء الكارتيل.

سينو..حياتي

ماذا فعلتَ بي أيُّها المجنون؟ كنت أعرف سلفًا أنّك سترتكب هذه الحماقة يومًا أو ترتكبك هي. صدّقني، كنت على يقين أنّ لغمًا، صغيراً، سينفجر في أعماقك وسيغيّر شيئًا فيك، فقط لتلتفت نحو نفسك المنهكة. مجرّد إنذار، ولكنّي لم أكن أعرف درجة خطورته. هل تدري ما فعلته بجسدك؟ لقد جعلته يعيش عمره بسرعة لم يتعوّد عليها. إذا كان البشر يقضون أربعًا وعشرين ساعة وهم يركضون في مدارات الحياة، فقد منحته أنت، بسخائك القاتل، ستًّا وتسعين ساعة؟ يعني أربع مرّات أكثر عن العادي. وإذا كان متوسّط العيش في بلداننا المتخلّفة خمسين سنة، هنيئًا لك، فقد عشت داخل هذه السرعة أكثر من مائتي سنة. قرنان بالتمام والكمال، هل تدري ذلك؟ طبعًا أنت لا تطرح على نفسك كلّ هذه الأسئلة المرتبكة. الذي يحبّك ويخاف عليك هو من يطرحها. لذلك أخاف ليس فقط من العيون المدوّرة المليئة بالحقد، بل من نفسك أيضًا. كلّما وضعت رأسي على صدرك، وسمعت دقّات قلبك، شعرت بحزن كبير لأنّي لا أستطيع فعل الشيء الكثير لأمنح هذا القلب الراكض دومًا، بعض الراحة. لا أعرف ماذا أقول؟ فأنا بلا روح. لا شيء يتّسع ليستوعب حزني وخرابي الخفيّ. لقد صلّيت من أجلك كثيراً، وعدت إلى الله الذي نسيت وجوده. لم أطلب منه شيئًا خاصًّا لي،

ولهذا كنت متأكّدة من استجابته لي. قاوم حبيبي ولا تستسلم للموت القاسي. الموت هو حالة خواء حيث تفقد الأجسام أشكالها وأوزانها، وأنت جزء حيّ مثل التراب، ومثل النبتة المنغرسة فيه. ليس من أجل يمّا ميزار التي وضعت رجلاً في القبر، ولن تتحمّل أن تسبقها إليه. وليس من أجل عيني صافو وشقاوتها، وليس من أجل وجه ماسي الملائكي، وليس من أجلي أنا التي لم تعد شيئًا مهمًّا في حياتها فقط، بل صرت كلّ حياتها. وليس من أجل ملينا التي ستعثر عليك يومًا ضمن أسرارنا الدفينة. ولا من أجل طلبتك الذين ربّيت في عيونهم ذاك البريق الجميل وعلّمتهم الاستثنائيّة وحبّ الحياة. ليس من أجل أصدقائك الذين يحزنون اليوم من أجلك ويفكّرون فيك كثيراً. لا، ولكن من أجل مريم التي صنعت من أوهامها حياة موازية، ومن ضعفها قوّة منحتها لكلّ النساء حتى ولو أغضبني ذلك كثيراً. من أجل فتنة التي جابت قفار الدنيا هربًا من حبّ أصبح يخيفها. من أجل كنزة التي انتحرت على واجهة بحر أمستردام فقط لتظلّ وفيّة لأميرها المعشوق. من أجل أكاريا الذي ما يزال ينتظرك لتطلق قيده ولا تتركه معلّقًا بين الحياة واللاشيء. كليمونس التي وضعت كمانها عند العتبة وأقسمت إنّها لا تعود له إلاّ إذا عدت من جديد إلى الحياة. هؤلاء هم صدقك الكبير، من أجلهم امكث قليلاً حبيبي، ما يزال لدينا متّسع من الوقت للحلم والجنون والكتابة. امنحهم وعداً صغيراً بأنّك ستعود لهم، لا تيتّمهم قبل الأوان. ما زال العمر بين يديك حبيبي. من أجل سينو الغالي، أيضًا. المجنون الذي وضع حياته على كفّ عفريت، وراهن عليها، ولم يكترث لما يمكن أن يصيبها من أذى، من أجل حبيبي الذي يصبح كلّ يوم أكثر طفولة، مفعمًا بارتكاب المعاصي والحماقات. من أجل سيني الذي يستحقّ أن يقف أمام المرآة، ويستقبل يومًا سعيداً لأنّه يستحقّه. لحبيبي الذي علّمني أن أحبّ الحياة وألاّ أستسلم أبدًا لقسوتها لأنّها في النهاية تختبرنا قبل أن تمنح لنا استحقاقاتها. تعرفني أنّي لن أطلب منك أن تغيّر نظام

حياتك الجنون، ولن أطلب منك مثلما يفعل الأطبّاء معك: أن تحفظ جدولاً لمواعيد الأكل، والنوم، والدواء، فأنت أكثر جنونًا وتسيّبًا وحماقة من أن أؤثّر فيك بطلباتي الغبيّة، ولكنّي سأطلب منك فقط أن تقف مرّة أخرى بقامتك العالية، وتصرّ على حقّك في الحياة، وتنتزعها انتزاعًا كمتسلّقي الجبال الذين كانوا مثلك الأعلى في الصبر ضدّ العبث، والإصرار على الحياة حتى في أكثر الحالات يأسًا.

حبيبي. انتظرني على حوافك العشقيّة الجميلة. أدخلني بين ذراعيك وأغصانك. مدّني بما تبقّى من شوقك الخفيّ. امنحني بركة شوقك وامسح على رأسي مثل أيّ قديس صوته قريب من الله، وقل لي فقط إنّك ستعود لأنتظرك عمراً آخر، وربّما قرنًا. لا يهمّ حبيبي. سأشبك قلبي بقلبك، وسيتدفّق فيهما الدم نفسه بعد قليل. سأزرع فيهما ورودًا وألوانًا من طفولتك. خيبتك أنّك وقتها لن تتمكّن من خيانتي مرّة أخرى، لأنّ دمي الذي فيك سيفضحك؟ وإذا أردت الهرب منّي، ستضطرّ إلى أن تسحبني وراءك. وستقرأ هذه الرسالة، وأنت تضحك، وستلعنني على كلّ حماقاتي التعبيريّة، وستقول «اللّه يخرب بيتك، جميلة وملعونة حتى في قمّة شجنك». ولن تكون مخطئًا أبدًا في تعبيرك.

حبيبتك التي تنام معك على السرير نفسه، وتحسّ بالألم نفسه. وكلّ صباح، عندما يخترق أوّل الأشعّة مدارات السواد، تصبح على يقين جميل: أنّك ستخرج من غفوتك التي تشبه غفوة الأنبياء، وستعود ممتلئًا بالأبجديّات السحريّة، وبالشوق المجنون للحياة. اهدأ حبيبي، فأنا قريبة من نبضك. أنا فيك.

04h 27mn 03s

ـ ١ ـ

ما زلتُ أقاوم التفتّت ونثار الذاكرة المعمي للبصر.

هل أكذب؟ لست في وضعية المرتاحة لأتسلّى بخيالاتي، وأقنع نفسي بأنّ ما حدث ويحدث هو مجرّد حالة طارئة. لقد هدّني مرضه ونزل عليَّ كالشهاب الحارق، فكاد أن يحوّلني إلى رماد. لكنّي، بفضل قوّة داخليّة، استعدت كلّ قواي، بل ذهبت إلى أكثر من ذلك، أدركت شرطي الصعب الذي كان عليَّ تجاوزه. مرضه كان كإنذار الخطر المصحوب بإضاءة فجائيّة قويّة، كشفت من حولي حقل القنابل الموقوتة الذي كنت أمشي فيه بالصدفة.

هذه الكومة من الرسائل لا تنسيني ما أنا هنا من أجله. مصمِّمة على الذهاب وراء الحماقة حتى النهاية. أجمل الحماقات هي تلك التي لا نسأل أبداً عن نتائجها الوخيمة، إلاّ عندما تحصل.

ليس في نيّتي أن أتمرَّد على سينو كما تفعل عادة الشخصيّات الكتابيّة عندما تصاب بالخيبة في الصميم. لست منها، ولا أشبهها. قرأتها

في الكثير من الكتب، ولم تعد تغريني مطلقًا. رأيتها عند أحد أصدقائه من الكتّاب الأميركيّين: بول أوستر [1] الذي خلع عليها كلّ سبل الحياة، وجعلها تخرج من الكتب وتغادر كاتبها. أنا أتحدَّث عن امرأة حقيقيّة تتخفّى وراء امرأة من ورق. الأولى تعيش موتًا مفروضًا عليها، والثانية تجني كلّ ما يمكن أن يُمنح لامرأة جميلة. أجدني أشترك معها في كلّ شيء، حتى في أدقّ الكلمات الحميمة، إلى درجة أنّها سحقتني وغطّت عليّ ولم أعد إلاّ ظلاًّ لها، بينما العكس هو الذي كان يفترض أن يكون. صرخت مع نفسي عندما اكتسحني وجودها: باسْطا. يكفي. ولم أكن مخطئة في قراري أبدًا. هذه المرّة، ليلى تتمرَّد على مريم. فقط ليعرف الناس الذين أحبُّوا مريم أو عشقوها أو حتى كرهوها، لست هي وإن كانت منّي. من لحم ودم أنا. قد يبدو في ذلك نوع من الغرابة؟ أنا نفسي في حالة امتعاض وانشداد أعصاب تمنعني من الدفاع الجدّي عن رأيي وتوضيحه لمن يريد فهمه. كان يفترض أن أحبّ مريم لأنّها اشتُقّت من أكثر الأحاسيس عمقًا فيَّ. لكنّ انقلابًا ما حدث في الأشياء المحيطة بي وتلك التي فيَّ، لم يدفعني فقط إلى كراهيتها، ولكن انتظار الفرصة المناسبة لقتلها والانتهاء من وجودها الذي أصبح ينغّص عليَّ كلّ شيء، حتى في سرير الحميميّة مع سينو. كلّما وضعت رأسي على صدره، انتابتني أحاسيس غريبة، منها أنّ مريم سبقتني إلى هذا المكان، وكانت أفضل منّي في جنونها معه. الغريب أنّي لم أعرف وجهها، ولكنّي يوم رأيت آنيا، طالبة سينو الروسيّة، شعرت أنَّهما تشتركان في أشياء كثيرة: الوجه الطفولي الموشّى بنمش الغواية، العيون المليئة بالسحر والأسرار الخفيّة، والطراوة في جسد لم تلمسه يد خشنة أو سنوات القسوة.

١ - Paul Auster.

مريم هي التي بدأت هذه الحرب غير العادلة. جاء بها سينو من العدم، ومنّي. احتلّتني في البداية، وقبلتُ بذلك. قلت في خاطري: مجرّد همسة. شخصيّة روائيّة لا أكثر. سيأتي زمن وتأتي شخصيّة أخرى تأكل رأسها. ثم ألغتني بتواطؤ غريب من سينو الذي سكنها نهائيًّا وسكنته. حتى أصبح يناديني مريم، فاختُزِلت المسافة نهائيًّا بيني وبينها.

أعرف أنّ حربي ليست مقدَّسة، وليست حتى عاديّة، ولكنّها عادلة.

لست مثلما يتصوَّرني الناس من خلال أقنعتها، أبدًا. لست ملاكًا، وربّما كانت حماقاتي أقرب إلى غوايات الشيطان منها إلى هدأة الملكوت. ربّما كانت الغيرة من حرّيّتها هاجسي الذي يأكلني، ولكنّي أظنّ أنّي أكبر من ذلك كلّه.

أريد فقط أن أصرخ بأعلى صوتي: **لقد تعبت من ظلام مريم.**

مريم أصبحت الظلام الذي يقتل حقيقتي بإخفائها. أشتهي أن أخرج إلى النور مثلما يخرج جميع الناس، أن أتدحرج فقط في الطرقات كبقيّة البشر. لا أريد أن أمشي على الماء كالأنبياء والسحرة والملائكة، كما أرادني سينو في نصوصه الكثيرة، وفي غيّه المجنون والخفيّ، وهو يدفنني في أعماق مريم. مجرّد امرأة تعشق الحياة وتريد أن تحبّ في العلن.

ياه... لولا تلك الحماقة التي ارتكبها قبل أكثر من ربع قرن لما حدث الذي حدث. ربّما لحُرم القرّاء من اشتعالات مريم، ولكن أنا؟ ألم يقل لي وهو في قمّة صفائه: ألف رواية مسبوكة بإحكام لن تساوي لحظة سعادة واحدة نعيشها معًا بحرّيّة تامّة! أيّة امرأة سويّة لا تريد في النهاية شيئًا آخر إلاّ تصديق ذلك. لا أشكّك في أيّة كلمة من كلماته، ولكنّه لم يفعل الشيء الكثير لكسر جبروت مريم واستعادة ليلى أو ليلي الصغيرة،

التي ظلّ قلبها دائمًا يخفق لفرحه، وحزنه وخوفه ومرضه. ماذا يمكن لسيِّدة الورق أن تفعل غير الاستسلام لليد التي تصنعها؟

لست سيِّدة الورق ولكنِّي حقيقته الأكثر تخفِّيًا. نَفَسُ اللّه فيه.

ـ ٢ ـ

لقد تعبت وخذلتني طاقة التحمُّل.

أنا أبسط كثيراً ممّا يتصوَّره الناس الذين صادفوني في روايات سينو. حفنة ماء لا أكثر. كأس شاي على حافّة قفر من الرمل. أشتهي أن أعود إلى هويّتي، وإلى يوميّاتي البسيطة والصغيرة التي تجعل منّي إنسانة عاديّة، لا تستثير انتباه أحد. تماماً كما كنت، قبل أن يسجنني سينو في كتاب العمر الذي يَكتُبُ في كلّ مرّة منه فصلاً واحداً، يضع على غلافه اسم رواية. حياة بسيطة جدًّا. أشتهي أن أعيش طقوسي الجميلة التي لا تكلِّف شيئًا أبداً. أن أشتري الصحيفة اليوميّة التي تعوَّدت على إدمانها، بدون أن أثير انتباه أحد. أن أقف في الطابور الذي يشبه ثعبانًا خرافيًّا لأشتري الخبز والحليب، بدون أن يحرجني الناس بعيونهم وأسئلتهم المقلقة. أن أدخل إلى أقرب حانة، أشرب بيرة باردة ثم أنسحب على رؤوس أصابعي قبل ذهاب آخر باص نحو مرتفعات المدينة. أن أدخل إلى المكتبة البلديّة، وأواصل قراءة آخر رواية بدأتها، لأنّ إمكاناتي الماديّة لا تسمح لي باقتنائها، فأنا، في النهاية، لست أكثر من امرأة عاديّة تملأ شوارع المدينة بدون أن ينتبه لها أحد. لا أملك ما يؤهّلني لأن أكون استثنائيّة وخارقة. امرأة كلّ الأيّام، وربّما أقلّ من ذلك، في مجتمع حائر بين دينه ودنياه، بين ما هو، وما يريده. يعيش الاثنين في الوقت نفسه، في نفاق لا يُحسد عليه أبداً. يشبه الطاحونة التي عندما لا تجد ما تطحنه، تأكل نساء البلاد، وأنا إحداهنّ.

أشهد اليوم، وللمرّة الألف، أنّي لست امرأة من ورق، ودمي ليس حبراً صينيًّا أسود، ولا حتى بنفسجيًّا رشيقًا. دمي ككلّ المخلوقات أحمر. أتألّم عندما أُجرح، وأبكي عندما يصيبني الفقدان وشطط العزلة.

أنا امرأة من أحاسيس مرتبكة ومحروقة. من لحم ودم وبعض الجنون الذي لا يقاوم، ولم تعمل السنوات التي مضت إلاّ على تأجيجه.

أقسم باللّه، وبكلّ أوليائه الصالحين، إنّ اسمي الحقيقي ليس مريم، ولا تنويعاتها التي اخترعها سينو وأقنع بها قرّاءه الكثيرين: لا ميرا، ولا ماريوشا، ولا ماريانا، ولا مي، ولا ماري، ولا ياما، ولا ماريا، ولا لينا ولا مايا، ولا حتى ملينا، ابنتنا الجميلة، التي أحبَّها واشتركنا في إنجابها في أجمل غابات الدنيا وأكثرها صفاء.

اسمي ليلى بكلّ بساطة. أربعة حروف مكرَّرة، لا إثارة فيها. ليلى، ولا شيء غير ذلك. اسم لا يعني الكثير خارج القصص العربي القديم. ولا توجد له أيّة دلالة استثنائيّة في تاريخي الشخصي. لكنَّه اسمي الذي منحه لي جدّي الطيِّب الذي كان يعشق هذا الاسم ربّما لسرّ دُفِنَ معه.

عشت أسراري الخفيّة مع سينو، قبل أن ينقلها محوّرة ومقنّعة، نحو نصوصه. غيَّر اسمي الأصلي، برضاي ولكن على مضض. قال: مريم هي أنت، ولكنّها أيضًا قناعنا المشترك في الحياة الظالمة. كدت أقول له: كنتَ أظلم من الحياة عندما رفضت زواجنا بحجج واهية. يا مجنون، ألم يكن من الأسهل عليك وعليَّ لو فعلنا مع يفعله جميع البشر وربحنا وقتًا جميلاً لهبلنا وجنوننا؟ ولكنّ الفكرة بدت لي قديمة وغير مفيدة، بل ومكرورة لدرجة الغثيان. هناك حياة حاضرة، كان عليَّ أن لا أخسرها في زمن لم يعد ينتظر المتأخّرين. قال: بمريم، سنكون في مأمن من العيون الهمجية، وستكون مريم شخصيّة روائيّة لا أكثر، وسيقرأنا الناس على هذا

الأساس. بهذه الطريقة السرّيّة سنكتب قصّتنا الجميلة، ونمرِّرها كما نشتهي.

بدت لي الفكرة مغرية في البداية لأنّها كانت تمنحني فسحة أن أكون، وأن أظلّ في دائرة سينو ولا أفتقده، وأعيش داخل لغته. كانت الغواية كبيرة، لكن، مع الوقت، ابتلعتني مريم نهائيًّا، ولم تترك لي حتى مساحة المناورة.

ولم يبق في العمر ما يمكن أن أخسره. قلت في خاطري يجب أن يوقف هذا العدوان لأقول ملء صوتي المبحوح:

«لست امرأة من حروف وجمل مرصوصة، ولكنِّي امرأة تتألّم، وتتلوّى عندما تشعر أنّ سمّ الحياة سرى بين مفاصلها».

قد أكون مارست اللعبة المجنونة نفسها التي استدرجني نحوها، ولكنِّي لم أكن محترفة، حتى في اسمه الذي أعطيته له في مدارات حياتنا الصغيرة. أسميته ياسين تيمُّنًا باسم صبي كان يمكن أن يكون ثمرة حبّنا لو شاء سينو، ولكنّ التسمية لم تثبت. اخترت له هذا الاسم لأنّه كان يحبّ كاتب ياسين، الذي عرفه قبل أن يموت، والتقى به في مسرح سيدي بلعبّاس وبلدة تنيرا. وتكوَّنت بينهما صداقة جميلة لم تنته إلاّ بموت ياسين الذي سلَّط عليه حبّه للوطن لغمًا خفيًّا اسمه اللوكيميا. حتى في انتقامي من سينو، كنت امرأة عاشقة. فقد منحته اسمًا أحبّه وأقدّره وأحزنه. فهو يرى أنّ كاتب ياسين قتله ورثة البلاد الجدد. فقد ظلّ يحمل تهمة ظلّ يضحك منها، ولم يكلِّف نفسه مشقّة الدفاع عن نفسه. كان عندما يحكي عنه يصفرّ وجهه، ويخفي بصعوبة خيبته وانكساره.

ـ الأقدار حادّة أحيانًا يا ليلي. تتصرَّف فينا كمن يتصرَّف في أملاك خاصّة. تصوّري ماذا حدث؟ عندما مرض كاتب ياسين، سافر نحو صديقته الباحثة جاكلين آرنو[١] في فرنسا. بعد أيّام من وصوله، ماتت. كانت منهكة من السنوات الصعبة. حاول أن ينتحر. شرب حتى العمى، ثم فتح وريده، ومن حظّه، وجد صديقة ذهبت به نحو أقرب مستشفى. كان مرضه قد سحبه بقوّة نحو الهوّة. بعد أيّام ألحقته بها لوكيميا قاهرة. سمعت بمرضه وأنا في موسكو. عرفت أنّه كان في أيّامه الأخيرة. وصلت ليلاً إلى غرونوبل، وكنت أنوي أن نحتفل بعيد ميلادي في المدينة نفسها. لكنّه مات في خريف حزين من سنة ١٩٨٩. قيل لي بأنّه سيُنقل في اليوم التالي إلى الجزائر، وهو في مركز الشحن بمطار مارسيليا. ركضت فجراً ودخلت مكان تحويل البضائع والحاويات بإذن مسبق. اقتادني الحارس حتى المكان الذي تجمَّعت فيه الكثير من التوابيت المرقَّمة والمسمّاة، وأشّر لي باتّجاه المرأة الواقفة في صمت. كانت ملفوفة في مانطو كشمير أسود، درءاً لبرد الخريف القاسي. عندما رفعت رأسي عاليًا، رأيت أشعّة تنزلق من سطح مركز الشحن ذي الأسقف الزنكيّة العالية، تشعّ على وجه المرأة التي التفتت نحوي عندما تحسّست ظلّي. قلت لها لأطمئنها: أنا صديق ياسين، وجئت من موسكو، فقط لتوديعه. من موسكو! فقط لتوديعه! شكراً لك، تمتمت. ثم التفتت نحو التابوت وقالت بصوت مسموع هذه المرّة: أنا أيضًا هنا لتوديع ياسين. اسمي زوليخة كاتب. ابنة عمّه. التابوت الثاني لأخي، مصطفى كاتب. فرّقت بينهما الحياة والسياسة، ولاقى بينهما الموت. تخيَّل؟ أيّ قدر مجنون؟ أصبت بالفعل برعشة باطنيّة غريبة. وبدأت رجلاي ترتجفان ولم أعد قادراً

١ ـ Jacqueline Arnaut.

على تحمُّل جسدي. كيف يكشف القدر عن حقده الدفين بكلّ هذا القدر من الضغينة؟ أغمضت عينيّ، لا أكاد أصدِّق أنّ المرأة التي كانت تقف على بعد خطوتين منِّي هي زوليخة كاتب. نجمة ياسين الهاربة. فقد صنع منها أسراره الغامضة، وعوالمه الأدبيّة. انتابني شعور غريب. أحسست كأنّ نجمة خرجت من كتاب ورقي، لتواجهني بلحمها ودمها. بقيت واقفًا وراءها، مغمض العينين، أقرأ الفاتحة، وأتساءل حول ما كنت أراه. عندما فتحت عينيّ لم أر شيئًا. قلت ربّما كنت أحلم. عندما التفتّ نحو المخرج، رأيت بالكاد، تحت شلاّلات الضوء المتسرّب من الأسقف، امرأة ترتدي مانطو من الكشمير ذي اللون الغامق، تغادر المكان بخطوات ثقيلة وثابتة. هل كانت زوليخة؟ أم مجرّد ظلّ هارب خرج من رأسي للحظة قبل أن تغيّبه أنوار الصباح الذي أطلّ من ثقوب الزنك فجأة.

ـ أرأيتَ حبيبي كيف تتقاطع المصائر بهذا الشكل الغريب؟ زوليخة كانت ضحيّة نجمة. ابتلعتها. من يعرف هذه القصّة غير الصدفة التي قادتك نحوها؟ أليس فيَّ شيء من زوليخة؟ هل سألتها يومها عن أحزانها التي كانت تشقّ ظهرها، وتكسِّر ما تبقى من قلبها؟ وتشرب آخر ما تبقّى من ندى جسدها؟ أم بقيت على الحوافّ، تحت شطط الدهشة الأدبيّة؟

ـ لا أدري. لكنِّي، بكلّ بساطة، رأيت نجمة تخرج من كتاب.

ـ ولماذا لم تر زوليخة، وهي أمامك بلحمها ودمها، تموت بسبب كتاب؟ من يعرفها اليوم غيرك، وغير حفنة من المثقَّفين؟ من يسأل عن مأساتها؟ كيف عاشت زواجها، هي التي ظلَّت معلَّقة في ذاكرة رجل لم يكن عاديًّا أبدًا؟ لقد امتصّت نجمة نسغًا جميلاً كان في عمق زوليخة.

ولهذا كلَّما سمعت قصّتك هذه، ازددت كرهًا لنجمة التي كنت أحبّها. أحيانًا أقول في خاطري، ليتني ما عرفت هذا السرّ الغريب. ربّما لا تفهمني، وقد لا تستطيع فعل ذلك أبدًا، ولكن تخيَّل، فقط للحظة، شخصًا يسطو على حياتك، ماذا كنتَ ستفعل معه؟

ـ المسألة ليست بهذا الشكل؟

ـ ألم أقل لك إنَّك لن تفهمني؟ العكس منك هو الذي يدهشني.

ـ ٣ ـ

مهما تحامقت معه، فلن أكون إلاّ امرأة طيِّبة.

اسم ياسين الذي اشتهيته سرعان ما امتدّ إلى رحمي لينام فيها. جعلني أحلم بأن نسمّي ابننا المشترك ياسين، لكنّ رياض استقرّ بعناده المعهود على اسم يونس، فلم أدخل معه في عراك غير مجدٍ. لكنّ ابنتي كنت مصمِّمة على تسميتها ملينا حتى ولو قُلبت الدنيا رأسًا على عقب. لم أكن أعرف كيف، ولكنِّي كنت مصمِّمة مع سينو، على ذلك. وقد كان لنا ما اشتهينا على الأقلّ بالنسبة لملينا. أنجبتها بحذر المتخصِّصين.

في ولادتي الأولى، أعطيت لرياض رقيّة التي كان يريد تسميتها على اسم أمّه. ولكنّها ماتت بعد سنة بمرض إلى اليوم لا أعرف سرّه. ركضنا بين المستشفيات بلا جدوى. انتقلنا بها إلى بلجيكا عندما قيل لنا بأنَّهم وجدوا علاجًا موقّتًا للمرض الغريب الذي يشلّ كلّ الأعضاء. ثم مولودًا ثانيًا، سمَّيناه أحمد، على اسم والده. لم يعمِّر إلاّ شهرًا واحدًا. وُلِد أحمد بضيق حادّ في التنفُّس. لا أدري إذا ما كان القدر ضدّنا أو معنا، ولكنّه كان يعرف سلفًا أنّها مجرّد ولادات بيولوجيّة، بإمكان رياض أن

يفعلها مع أيّة امرأة أخرى. قال لي بحسرة عميقة: يبدو أنّ اللّه يرفض أن يكون لنا أولاد. طمأنته أنّه عليّ أن أرتاح قليلاً، سنتين، أو ثلاثًا، ثم نعاود الكرّة. ما زلنا شبابًا، وأمامنا العمر كلّه للقيام بذلك. لا أدري إذا ما كنت في أعماقي صادقة. أنجبت يونس، ثم ملينا، التي اتّخذت كلّ الاحتياطات لتكون مشتركًا استثنائيًّا بيني وبين سينو. انفصلت عن رياض في كلّ فترات الإخصاب. اخترت أن أسافر إلى مكانين ساحرين هما لوس أنجلس وجزر الكاريبي. لم يكن رياض يهتمّ كثيراً لذلك. عندما وصل جنوني إلى سقفه، قضيت أكثر من شهر مع سينو في منحة كتابة بين الولايات المتّحدة وجزر الكاريبي، استمتعت فيها بكلّ ما لم أره في حياتي. بالنسبة لرياض كنت في دورة موسيقيّة في أوبرا لوس أنجلس، وهو ما حدث بالفعل، بالنسبة لي. كنت أريد أن أشبع من سينو، وأن أمنحه الصبيّة التي اشتهينا مجيئها. وتحت أجمل سماء في العالم، وفي أنعم غابة وأدفئها، وضعنا أوّل بذرة لما سيكون ملينا. أصبحت خبيرة في تعداد الأيّام والأوقات. وعندما رأيت أنّ التحاليل كانت إيجابيّة، عدت إلى علاقتي الطبيعيّة مع رياض. عندما أخبرته بحملي في المرّة الثانية، بملينا، لم أر تلك اللمعة التي رأيتها أوّل مرّة عندما أخبرته بأنّي كنت حاملاً برقيّة، ثم بأحمد، وأخيراً بيونس.

كنت الوحيدة التي عرفت سرّ صفاء عيني ملينا يوم ولادتها، وشكلهما اللوزيّ.

عاد رياض متأخّرًا بليلتين، من طوكيو. كنت قد وَلدتُ. ومرّ كلّ شيء عاديًّا. لكنّ ملينا كانت يقيني الوحيد، وصدقي الأجدر، وجنوني الرائع. لم أكن مهتمّة لا بوخز الضمير، ولا حتى بالخوف من ضجيج الناس.

كنت قد أعطيت لنفسي راحة لمدّة خمس سنوات، بعد ولادة يونس الصعبة، قبل أن أعود إلى جنوني. كانت إقامتي في أمريكا مذهلة. من

لوس أنجلس، سافرت مع سينو إلى جزر الكاريبي، تحديداً إلى الغواديلوب(١) أو وادي الحبّ، كما كان يسمّيه الرحّالة العرب. كان سينو يسير على وقع حماقاتي. ترك كلّ شيء وراءه، عمله وتربّصه ومشاريعه. لو لم يرافقني يومها إلى غابات دافئة كان هو أوّل من حدّثني عنها، لكنت لعنته طوال حياتي، لأنّ ما نويت عليه كان خطيراً. كلّ شيء في الكاريبي كان جميلاً ويغري بالحبّ، ونسيان كلّ الكدر الذي كنّا نعيشه في يوميّاتنا. كنّا مقيمين في الباس ـ تير(٢) ولكنّنا تجوّلنا في كلّ المنطقة بسيّارة اكتريناها. باس ـ تير، البونتابيتر(٣)، قبل أن ننام لمدّة أسبوعين في جزيرة القدّيسات(٤). أعتقد أنّ ملينا نبتت في تلك الأراضي المذهلة والساحرة. عندما جاءت ملينا إلى الدنيا، رأيت فيها كلّ الماء الدافئ الذي كان يتدفّق من أعالي جبل الكبريت(٥)، وشلاّلات العشّاق التي استحممنا فيها مع بنات أحد أصدقاء سينو. في أدغال الكاريبي التي لا تعيش فيها الثعابين، كنّا نسرق أجمل اللحظات محمّلة بطعم النباتات البرّيّة البدائيّة، والفواكه الغرائبيّة التي كنت أكتشفها وأتذوّق طعمها، للمرّة الأولى.

قد يبدو ما أقصّه غريباً، ولا أخلاقيًّا، لا يهمّ، فقد صمّمت أن أحكي عن كلّ شيء لأتخلّص من رماد شخصيّة ورقيّة سحقت تحتها امرأة لم تكن متفرّدة في شيء إلاّ في عشقها لكمانها، ولرجل عندما ظنّت أنّها تخلّصت منه بالزواج من غيره، وجدت نفسها فيه حتى الغيبوبة. كنتُ كلّ شيء إلاّ امرأة مثالية؟ كجميع الناس، كنتُ أحتفي بجنوني الخفي،

---

١ ـ La Guadeloupe.

٢ ـ La Basse-Terre.

٣ ـ Point-à-pitre.

٤ ـ Les Saintes.

٥ ـ La Souffrière.

وعبثيّتي التي تصل أحيانًا حدّ الهبل. فعلت ذلك عن سبق إصرار وترصّد. ولهذا، لا أريد من مريم، حتى ولو كنتها في بعض تفاصيلها الجسمانيّة والحياتيّة، أن تسرق منّي طفلة مذهلة أنجبتها بقسوة لا شبيه لها إلاّ الموت، الذي ما يزال إلى اليوم يقف على رأسي، وحبًّا مجنونًا، يقع خارج كلّ المدارات، تقاسمته أجمل سماء في الدنيا، وأكثر الغابات عذريّة ودفئًا. في ملينا سحر الكاريبي وكثافة خلجانها ودفئها، وصفاء سماء لوس أنجلس التي لم يخطئ من رأى فيها أجمل سماء في الدنيا.

ما يزال ذلك كلّه يضجّ في رأسي بقوّة، ويهزّني بعنف كلّما تذكَّرته. ولو أنّ سينو لم يتوقَّف أبدًا عن حماقاته التي تراكمت حتى أصبحت لا تُحصى. فقد غيَّر كلّ شيء في رواياته، حتى اسم ابنتنا ملينا، وحياتنا، ولم يحافظ إلاّ على ظلال الأشياء التي يصعب القبض عليها. هو يعلم جيِّدًا أنَّنا لم نربح من حماقات الدنيا إلاّ هذه الطفلة الشقيّة ولحظات، كلّما تذكَّرتها في تفاصيلها، ازددت حنقًا عليه. ماذا كان يضره لو أنَّ ملينا الآن بين يديه، يفلّي شعرها كما تعوَّد أن يفعل معي، يدندن في أذنيها أجمل الأغاني القادمة من بعيد مثقلة بالأساطير الأندلسيّة، يملك صوتًا مليئًا بالحنان يورث الكثير من الأمان. ماذا لو حكى لها عن جدّها الموريسكي، لها حقّ كبير في قصّته، وورّثها بعضًا من جنونيّاته الكتابيّة؟ ماذا لو أوقفني عند الباب وضمَّني إلى صدره وقال: **أرجوك لا تخرجي، أنا في حاجة ماسّة إليك**. كنت رميت كلّ وعودي لرياض، ولأمّي، عرض الحائط، وبقيت معلّقة على صدره حتى الموت. ماذا لو كان سينو عاقلاً قليلاً ونسي وجوديّته المخبولة؟

كنت أوّل قرّائه، ولهذا أشهد أنّي كنت أولى ضحاياه أيضًا.

اليوم، كلّ شيء تغيّر، حتى النظر للخيبات الكثيرة.

كلّما قرأت عن مريم، شممت رائحة الدم الحادّة، في يديها، وبين أصابعها. رأيتها، عندما كنت حاملاً بملينا، في الكثير من الكوابيس وهي تحمل سكّينًا، تريد أن تولدني قبل الوقت. كانت تفتح فمها عن آخره كالذئب، وتقول لي: سأفعل ذلك قبل أن يصل قتلة الأمّهات والأطفال. تتلمّس بطني. تتحسّس سرّتي التي انفتحت كبرتقالة. تحاول أن تقنعني بأنّ الولادة من الصرّة أفضل، أكثر راحة وأقلّ ألمًا، وجماليّة أحسن. يكفي توسيع الفجوة قليلاً بالسكّين الساخنة، ليخرج الجنين سالمًا معافًى. تلمع السكّينة تحت لمبة الضوء الخافت. ينتابني خوف كبير. تمدّ يديها نحوي. تبرق عيناها بشرر غريب. أوقفها عند حدّ الصرّة. تحاول ثانية وثالثة. أرفض أن تلمس بطني. تزعق في وجهي بأعلى صوتها فاتحة فمها عن آخره، تكشف عن وجهها الحاقد. تظهر أسنانها المخرّمة السوداء، ويعلو صوتها الذي هو مزيج من عواء الذئاب، وزعيق الشياطين:

ـ يجب أن يخرج هذا الكبّول[١] قبل فوات الأوان. لا أريده أن يحتلّ فراشًا ليس له ولكن لغيره. يجب أن يموت.

أصرخ بكلّ ما أوتيت من قوّة. أشعر بانسداد في حلقي. تمدّ يدها مرّة أخرى نحو بطني، أحاول أن أعضّها، ولكنّها تبعدها:

ـ أنت حقودة وحسودة وأكثر من هذا كلّه، غيورة. ملينا أجمل زهرة حبّ. ملينا عمري، ليست كبّولاً. أجمل مخلوقة في صورة بهاء الآلهة.

ثم أنغمس في نوبة بكاء طويلة وخانقة، إلى أن يوقظني رياض وهو يسألني عن كوابيسي المتكرّرة منذ أن حملت بملينا. أصبحت أعاني الأمرّين من هذه المخلوقة العجيبة التي لم تكفها سرقة كلّ شيء منّي،

---

١ ـ اللقيط.

ولكنّها تسلّلت أيضًا إلى فراشي وأحلامي وأحشائي لتسرق منّي أجمل هديّة من سينو: ملينا.

ـ لابدّ أنّك رأيتِ مرّة أخرى والدك، سي ناصر، جريحًا وحزينًا!

يكرّر رياض على مسمعي، ويحرّرني من ثقل المبرّرات.

ـ آه... نعم... نعم... والدي اللّه يرحمه...

أقولها بدون قناعة كبيرة وأنا أتدحرج نحو الحمّام، وأتحسّس بطني، وسعيدة أنَّ ملينا ما تزال في مكانها، من حين لآخر تركلني من أجل الخروج بسرعة.

كلّ شيء تغيّر، ومريم لم تعد مريم. أصبحت عدوّي حتى في الفراش، في الغفوة، في كأس القهوة المسائيّة، وحتى كأس الويسكي المسروقة مع سينو، قبل لحظة السكر. أصبحت تنغّص عليَّ كلّ لحظات الغفوة. أشمّ فيها دائمًا رائحة امرأة أخرى، ربّما كانت قريبة من العطر الذي شممته لأوّل مرّة، في باريس، على آنيا؟ كانت مريم كلّ يوم تسرق منّي شيئًا ثمينًا، وأنا كالبهلولة ما زلت متشبّثة في الأدب، والكتابة، واللغة، والصور المدهشة، والشعر المتخفّي داخل المعاني المنفلتة، وأوهام سينو الروائيّة التي لا تجدي نفعًا في مثل هذه الحالات.

ملينا... كانت أجمل انتقام من مريم.

مكسبي الكبير من رحلة الخوف هذه، حبيبتي ملينا التي وضعت لمسة المعنى على حياة لم تعد تعني لي الشيء الكثير. سوسنتي الجميلة، ورهاني الكبير في الحياة. على رياض وسينو أن يضعاها في قلبيهما وعيونهما، بفضلها، ما زلت قادرة على العيش بينهما، ومنح بعض السعادة لكلّ منهما، كلّما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

* * *

من ليلي إلى سينو

وهران، فيينا، برلين، ٤ ـ ٤ ـ ١٩٩٦

سينو الغالي.

ملينا تتحرَّك في بطني فقط لتعلن أنّها موجودة قبل أن تنام.

حبيبي، أقف الآن على عتباتك الجميلة، وأنتظر عبورك بالقرب منّي.

قد تكون هذه هي الحماقة التي تفاديتها طوال عمري، والتي قد تودي بحياتي نهائيًّا، ولكنّي لم أعد قادرة على تحمُّل غيابك عنّي.

هل تدري أنّ شوقي إليك يقتلني؟ مَن الغبي الذي قال إنَّ عواطف البربريّات باردة، وإنّهنّ صلبات مثل أحجار البازلت، ثقيلة وبلا صدى؟ أيّ وغد سطّر، بجهل، قانون العواطف البشريّة، ووزّعه، لا بحسب الأحاسيس الفرديّة الأعمق، ولكن بحسب شهوات الخرائط البشريّة الباردة التي خطَّها المعتوهون النازيّون، الذين لا يعرفون شيئًا عن دواخل الإنسان، وأدغاله النفسيّة البكر؟

مرّ بعضٌ من الزمن الذي يفصلنا. زمن بعثرنا مثل ورق أشجار هزّتها رياح خريفيّة عاصفة. لقد ضاعت منّي التواريخ حبيبي، ولم تعد إلاّ علامات مرصوفة بإتقان على المفكّرات الكارتونيّة المعلّقة على حيطان المخبأ الذي أصبح ملاذي الجميل. كلّما تأمّلتها غامت وتضاءلت، ثم انمحت لتتحوّل إلى آلام وهزّات عنيفة، تنخرني من الأعماق.

أتساءل أحيانًا، هل ما زلتَ تعرفني؟ هل ما زلتُ أعني لك شيئًا عَبرَ حياتك ذات يوم لينغرس فيك كشجرة مسحورة؟

يبدو أنّك نسيت كلّ شيء. حتى تفاصيل وجهي الطفوليّة بدأت تنسحب. لقد تغيَّرتُ كثيراً ولكنّ ملامس أصابع يديك ما زالت على جسدي وعلى رأس الحلمة التي رضعتها لأوّل مرّة كطفل يقتله العطش، في غابات الكاريبي الدافئة. كنت تمصّ وأنا أحاول أن أنهيك وأحذِّرك وكأنِّي كنت خائفة من أن تنتهي اللحظة بسرعة. في أعماقي شهوة مجنونة كانت تجرفني نحوك. لكنّك لم تتوقّف وكأنّك عثرتَ على حليب الجنّة الذي كانت خيالاتك تحفل به. ثم احتضنتني بجنون. كانت الساعة التي لمعت أرقامها في يدي تشير إلى الخامسة فجراً، وكلّ شيء خال من الحياة إلاّ أنا وأنت وزقزقة الضفادع الكاريبيّة الخضراء والصغيرة التي تملأ الأمكنة ويتفاءل بها الناس خيراً. كنّا في البداية نظنّها عصافير ليليّة، ولكن مع الوقت تأكّدنا من أنّها تلك الكائنات الخضراء، ذات العيون الواسعة. كنت أعرف أنّك تركت كلّ شيء من أجلي، أصدقاءك وأهلك، وحتى لوس أنجلس الجميلة التي قضينا فيها وقتًا جميلاً. لا أتصوّر أنّ جنونًا مثل ذلك سيتكرّر يومًا، ليس لأنّ الليالي تلك أثمرت حبيبتي الرائعة ملينا، ولكن لأنّنا كنّا خارج كلّ منطق مستقرّ للحياة. كنت سعيدة. يبدو أنّ ليلة البدايات تبقى عالقة في الذاكرة كاللمعة الجميلة التي تستمرّ معنا حتى الموت. جمال تلك الليالي وأساها العميق، أنّها لن

تتكرّر أبداً حتى ولو شحذنا لها كلّ حواسّ الدنيا. أحسن. لأنّها لو عادت مرّة أخرى بالقوّة نفسها، ستقتلنا من فرط عذوبتها.

ليكن. لا أطلب منك الشيء الكثير بعدما خرّبتني حادثة فقدانك في المنافي، تذكّرني فقط، وقل إنّ امرأة أحبّتني بعد أن وضعت حياتها كلّها على حافّة المخاطر الكبرى. تذكّرني بقلبك، بجسدك، بلمسك، ببصرك، بلسانك، بأصابعك الناعمة، بكلّ حواسّك الخفيّة، وبعدها إذا لم نلتق، ليس مهمًّا. لنا مشترك جميل اسمه ملينا سيأتي قريبًا، مليئًا بالحبّ والحياة، سيظلّ حيًّا فينا ويذكّرنا دومًا باحتمالات حياة جميلة، أتمنّاها أن تدوم طويلاً لأنّها الأصدق.

سينو الحبيب..

لا تؤاخذني على كلامي السابق، كنت فقط أريد تذكيرك أنّي ما زلت هاهنا، بالضبط بالقرب من نبض القلب حيث لا يمكننا الكذب على عواطفنا. فقد منحتَ قلبي كلّ الضمانات التي كان ينتظرها، وهذا وحده كان كافيًا لكي أسقط بين يديك كقطرة المطر الأولى المليئة بالصفاء والعفويّة والشوق.

هل تدري أنّ غيابك متعب، مثل الفجوة العميقة التي لا يمكن ترميمها؟ صوتك انطفأ وأبوابك مغلقة؟ لقد جرّبت فتحها ولكنّي لم أفلح، فزاد إحساسي بالاختناق والوحشة. وأخشى من الزلل القاتل، إذ كلّما زاد شعورنا بالضيق، توافرت، بقوّة، إمكانات الخطأ والانزلاق المميت.

هل تدري حبيبي؟ قد تكون هذه آخر رسائلي التي تصلك من أرضنا المشتركة. سأغيب شهراً بكامله في أوروبا مع رياض. سأكون بين فيينا وبرلين. لا أنصحك بالمجيء لأنّي أخاف أن أنسى نفسي وأرمي بكلّ توازني عرض الحائط، وآتيك مستسلمة كسجين يسلّم نفسه بخياره. أخاف عليك

كثيراً من هبلي، ومع ذلك، إذا أردت أن تترك تربتك ومنفاك، وتقطع أحبالك، وتأتي، فأنا أنتظرك هناك، وسأخبرك، ريثما أصل، بمكاني. أشعر أحيانًا كأنِّي بمجرّد خروجي من وهران، وعبوري الحدود، سأختنق قبل أن أنتهي من الكيلومتر الأوّل المفضي إلى العدم. ولم أعد أنتظر الآن الفرصة للخروج من هذا الضيق الخانق، بعد أن قضيت زمنًا طويلاً في انتظارك. كل يوم أستحضرك وأسمع خطواتك بلا جدوى.

أليس جنونًا؟ أنتظرك وأعرف سلفًا أنّك لن تأتي...

ربّما في أعماقي لا أريدك أن تأتي حفاظًا على سرّنا الجميل.

...... سينو، حبيبي،

رفضت أن أبعث لك برسالة مبتورة بدأتها في وهران. ها أنا ذي أجرّها ورائي كمن يسحب قدرًا جميلاً لا يعرف أبدًا إلى أيّ جنون سيقوده.

أنت في ذاكرتي دومًا، خيط من نور مفتول بأشعّة الشمس التي لا تطلّ على غرفتي الصغيرة، إلاّ قليلاً. أشعر الآن بالهدوء بعدما تخلّصت من شقاوة يونس ومتاعب ملينا التي تذكّرني في كلّ مرّة أنّها أصبحت كائنًا حيًّا، تستعدّ للخروج. ملينا لم تكن مثل يونس، الذي جاء بهدوء كبير. حمله لم أحسّ به أبدًا. فوضاها قاسية، ولا تتركني أنام أبدًا. تتحرّك وفق مزاجي. عندما أكون سعيدة، أشعر بها ترقص وتطير في بطني كالفراشة، وعندما أكون منكسرة، أشعر بها تنتبذ مكانًا قصيًّا في رحمي، وتنكفئ على نفسها وتظلّ تنظر إلى كلّ حركاتي. متأكّدة أنا من أنّها ستكون أجمل من النسمة لأنّها أحلى هدايا العمر التي توصلني بك حتى الموت.

يبدو أنّ مهالك الدنيا سرقت منك ذاكرة الأشياء الصغيرة. هل نسيتَ يوم ميلادي؟ في مثل هذا اليوم الربيعي انزلقت من رحم أمّي شهرين قبل الوقت وكأنّي كنت مستعجلة للوصول إليك. تخيَّل؟ لم أمكث في بطن أمّي سوى سبعة أشهر وسرقتُ الشهرين من زمن لم يكن لي، ومن فضاء لم يكن من الممكن المكوث فيه طويلاً.

قلت لك عندما تريد أن ترحل إلى هنا تعال ولا تسأل. ستجد امرأة تنتظرك بشغف عندما تستقيم الأمور ويصبح البشر بشراً. والناس ناساً والدنيا دنيا.

تخيَّل! أشعر بالعالم كلّه يناصبني العداء، بكنائسه وجوامعه اليهوديّة ومساجده، رجاله ونسائه، عساكره ومدنيّيه، ملائكته وشياطينه، مومساته ونبيّاته، مؤمنيه وكافريه... ألتفت صوبي فلا أسمع إلاّ الصرخات المتتالية وضجيج تكسّر الأشياء والارتطامات المتتالية وكأنّ بنايات عالية تتهاوى عند رجليّ. لا أدري لماذا كلّ هذا العمى الكلّي. الحروب عمياء ويرتكب فيها الناس أبشع الجرائم. لست أنا من سنّ قوانين الدنيا الظالمة. ولست من أباد شعوب الهنود الحمر في جبالهم الآمنة قبل أن يدخلها اليانكي الحضاري. ولست من محا بشر تاسمانيا من الأراضي البكر، ولا من قاد اليهود إلى المحرقة، ولا من اقتفى آثارهم ومخابئهم ليمحوهم. الذين اخترعوا المحرقة هم من يشغلها اليوم في أماكن أخرى. وهل يكفي الاعتذار عندما تكون ملايين الأرواح تتساءل فقط لماذا قتلت؟ لا مسؤوليّة لديّ فيما حدث على هذه الأرض فلماذا هذه الروائح الكريهة من الضغينة والعداء المستشري؟ وحياتك، وحياة ملينا الغالية، لو يقدّر لي أن أعود ثانية إلى مدينتي، سأرتكب الحماقات نفسها. وسأحبّك كلّ يوم أكثر. وسأنجب منك، في خواتم الشهوة، أجمل الأطفال وأحلاهم.

حبيبي...

أوّل ما وصلت إلى فيينا، طلبت من رياض أن يرافقني إلى الأوبرا القديمة، أوبرا الدولة[1] لمدينة فيينا، خوف أن أفقد توازني بهذا الثقل الجميل الذي في بطني، لكنّه رفض. ذهبت وحدي. كنت سعيدة بعزلة داخل قاعة واسعة لا ترى فيها إلاّ ألوانها الزاهية، الحمراء تحديداً، وجمالها. أشتهيها فقط لأنَّ عظيمًا مثل المايسترو كارايان[2] كان وراء تجديد نظامها. هو الذي عمّم الأوبرا باللغة الأصليّة لأنّه كان يرى في ذلك عطراً خاصًّا يأتي من بعيد. وهو من ربطها بأوبرا لاسكالا لمدينة ميلانو الإيطاليّة ليهويها من ثقل القرن التاسع عشر. كنت على غيمة، وكانت ملينا في داخلي هادئة، تنام في سكينة غريبة. تخيَّل! في كل فصل تقدّم أوبرا الدولة خمسين أوبرا وقرابة العشرين باليه؟ شيء مدهش ولا يصدّق. أيّة مسافة تفصلنا عن هؤلاء من حيث الرهافة ونحت الداخل؟ كنت كلّما اشتهيتك، استحضرتك بالاستماع إلى موسيقى فاغنر. وأدفن خوفي وعزلتي في ملاحمه المذهلة، فأجدُني عالقة بيدك اليمنى، أدخل المدينة الساحرة، أهيم في شوارعها وباراتها قبل أن أندفن بلذّة، في مسارحها التي يهدأ فيها كلّ شيء إلاّ الروح العالية التي تنسحب من الأجساد وتبدأ في الطوفان بخفّة على جميع الرؤوس. أشتهي، في غفوتي، أن أدفن كلّ شيء إلاّ ملامح وجهك، فهي تمنحني الرغبة العالية في الحياة والاستمرار. عندما ينغلق كلّ شيء عليَّ في غيابك، كنت أستنجد في عزلتي، في المخبأ، بالكتب التي لم تبرحني أبداً. كنت أدرك بعمق أنّ أكبر واق من الجنون والموت المجّاني هو الكتاب. قرأت جنون نيتشه وهيدجر، وقصائد شيلر المذهلة التي جعلتني أزداد هشاشة، وليس غريبًا أنّ بيتهوفن الذي غنّى

---

١ ـ Wiener Staatsoper (Opéra d'Etat de Vienne).

٢ ـ Karajan.

له نشيد الفرح في سيمفونيّته التاسعة. فردي غويسبي، كان يحبّه أيضًا لرشاقة كلماته. وقرأت صديقه غوتيه الذي كتب معه كزينيس[1]، التي تضعني قاب قوسين أو أدنى من الجنون الجميل. يبدو أنَّ فيَّ شيئًا قويًّا قد تضامن مع الموسيقى والشعر، ويرفض أن يموت أو يستسلم للخوف الذي يحيط بي من كلّ جانب.

لا أدري إذا ما كنت سأتمكّن من الانتهاء من هذه الرسالة، فقد تركت ورائي مدينة حزينة تفرش يوميًّا جنائزها في الساحات العامّة، في الكنائس المتخفِّية والمساجد العتيقة. ينزل الليل بسرعة على جراحات المدينة وأنينها. لقد صارت المدينة تغلق أبوابها مبكّرًا بينما الأمطار التي تنقر نافذتي المعزولة لا تتوقَّف عن النزول. حتى رياض أصبح يخاف من المستقبل. لقد تغيَّر كلّ شيء. أتعلم أيّ حزن يحدثه المطر فيَّ؟ مثلما تحدثه شفتاك وهما تمضغان بدفء حلمتي النهد المورّدتين المليئتين بالرغبة والحياة. أراك يتيمًا داخل كلّ هذه الوحشة، ياه... لو فقط كنت تدري أنَّ حبّك يكلِّفني عمري، لأنَّه مثل كلّ الأشياء الجميلة، كثير الدفق، وقصير العمر.

أضع رأسي على الوسادة وأحاول عبثًا أن أنام، وأضغط كثيرًا لكي لا أحسّ بكلّ هذه الشجون الطاغية. لا شيء يسعفني الآن، حتى وجهك صار يهرب منّي وينزلق كالماء. أحاول أن أضع ملامحه بين كفّيّ ولكنَّه بسرعة يتسرَّب من فجوة ما، ويلتبس مع النور الآتي من النوافذ الممطرة. أراك تحكي لي عن أشياء لم أكن قادرة على فهمها، لكنِّي عندما فهمتها صار من الصعب العثور عليك، فقط لأقول لك كم كنتَ على حقّ، حبيبي. لقد دافعتَ عن حرّيّتك، مثلما دافعتُ عن حقِّي في أن أكون إنسانة عاديّة، تحبّ وتعشق، تتزوّج وتنجب أولادًا، ترى الدنيا وتشهق كلّما داهمها شيء جميل.

---

١ - Xenies (1797).

سينو عمري وسعادتي، وبعض خيبتي...

لا أدري إذا ما كان فعل الموسيقى هو الذي يسرقني نحو الأقاصي؟ بي شهوة غريبة لاستعادة تلك الليلة التي جمعتنا في الغابات العذراء. أيعقل أن تلتبس اللحظة المعاشة بالحلم؟ أفكِّر فيك وأنا الآن تحت سحر المدينة، وفي كلّ ما يجعلك قريبًا منّي. كيف أصبحت الدنيا فجأة موحشة! المدن هكذا حبيبي، مثل البشر، لا تُؤتمن. لا أدري لماذا؟ كان هتلر وطنيًّا حدّ الخراب. حتى أنّي أتساءل أحيانًا كيف يمكن لمدينة هشّة وجميلة مثل فيينا، أن تنجب قاتلاً محترفًا بحجمه؟ لكن... ماذا فعل المنتصرون ببرلين التي استباحوها، سوى حرقها وإبادة سكّانها؟ كان الأمريكان يقولون عن اليابانيّين إنّه لا يوجد لا نساء بريئات، ولا أطفال ولا شيوخ، ما دام الكلّ يتدرَّب على حمل السلاح للدفاع عن مدنهم! لا يوجد نازيّون وغير نازيّين ما دام كلّ الألمان والنمساويّين ساروا في ركب هتلر! أعطى المنتصرون لأنفسهم كلّ مبرّرات الإبادة. وعندما اندفع الروس والإنجليز نحو برلين، لم يكونوا أكرم ولا أفضل من غيرهم. أيّة كذبة تلك التي ينشئونها لتخبّئ التقتيل المنظّم؟ الذين احتلّوا برلين تحوّلوا بفعل القوّة إلى نازيّين جدد، فسرقوا أموال الألمان ومدّخراتهم البنكيّة بعد أن أهانوهم، وفتحوا المحتشدات، وقتلوا الناس بالعشرات ظلمًا. في محتشد وزن[1] ببولونيا، طلبوا من السجناء حفر قبورهم ثم دفنوهم أحياء. في أمكنة أخرى، في محتشد دارمشتادت[2]، الضخم الذي لا يختلف في أيّ شيء عن المحتشدات النازيّة، شنقوا المئات لأنّهم رفضوا أن يُلصقوا بأنفسهم تهمة لم يرتكبوها. أنا متأكّدة من أنّ الألمان سيتكلّمون يومًا، عندما تهدأ مآسي الحرب والخوف من التبعات القاسية. أشمّ ذلك في كلّ الناس الذين تعرّفت عليهم في هذه المدينة الجميلة.

---

١ - Posen camp.

٢ - Darmstadt camp.

سينو . . .

أيّة امرأة ستصادفك في تلك الأرض المليئة بالنور، في غيابي، وتعيد لك ألق كلّ ما افتقدته، قل لها أحبّك إذا أحسَست بذلك، وقل لها أيضًا إنّك تعيش بتوقيت امرأة لا حياة لها إلاّ النور الذي يدخل من النافذة محمّلاً بعطرك وأشواقك. قل لها ثمّة امرأة مصابة بجنون رجل لم تعش معه إلاّ لياليَ معدودات، في غابات مهجورة من كلّ نفس بشري، تساوي اليوم عمراً بكامله. وهل سيكون عليّ أن أشكرها لأنّها أعادت لك الحياة، أم أكرهها لأنَها سرقت جزءًا من ذاكرتك الحيّة؟ هل أخفيك غيرتي؟ أشعر بمرارة قاتلة كلّما أحسَست بظلّ امرأة يعبر جسدك الذي لم يُكتب له أن يرتاح قليلاً من الهموم والأشواق المسروقة. لقد اخترتَ حبيبي أصعب المسالك وأقساها. أراك تحكي عن شيء لا أفهمه، لكنّ صداه العميق يصلني قويًّا لأنّه يدخل في المسامّات بلا استئذان. أفكّر فيك كثيراً وبالمدينة التي تحتضنك الآن، وبموسيقى الجاز التي تسرقك منّي متسلّلة عبر الأدخنة الكثيفة للمقاهي الشعبيَّة. من هي تلك المرأة القويّة التي أعادت إلى أصابعك الحياة وسمحت لك أن تعزف لحنًا هاربًا على كلّ تفاصيل جسدها المضيء؟ لو تعلم كم هو قاسٍ أن تفتح عينيك على عالم لا يرحم طفولتك! أنا عاشقة لك، مجنونة بك مع وقف التنفيذ، ليس لأنّي لا أملك الجرأة، بل لأنَّ في داخلي الصعب، عالمًا يتذابح بلا رحمة. قاسية هي الدنيا حبيبي، قاسية جدًّا. ألا تظنّ أنّه ليس من العدل أبدًا أن أكون بكلّ هذا البؤس وهذه القسوة الخانقة؟ ولأنّني لا أريد أن أحقد على حماقات اللّه، أشتهي أن تعرف كلّ شيء عنّي وسط هذا العالم الذي يتماوج ظلمًا. أريد فقط أن أحبّك. وأن أقبل بحماقة اللّذّة الجميلة التي حملت فيها منك بطفلة مذهلة سأسمّيها ملينا كما اتّفقنا، لأنّي أعرف أنّك تحبّ هذا الاسم. ستنمو كزيتونة قويّة في البطن وستنزل في وقتها الذي

تشاؤه. لا تخف عليها، فهي ستكون جميلة وصلبة وتشبهك. لست يائسة من لقائنا القريب. إنّ لحظة جنوننا التي أثمرت ملينا كانت أصدق شيء في علاقتنا، وإنّ اللّه الذي أخلى المدينة بجبروت أوامره لم يتخلّ عنّا. ستسألني من أين لي بهذا اليقين كلّه بأنّ القادمة ستكون صبيّة. لقد ذهبت عند الطبيب وأكّد لي للمرّة الثانية أنّها صبيّة. ملينا.

أيّها الشقيّ الذي نسي أنّ جزءًا منه ينبض دائمًا بالحياة في غيابه، أشعر أحيانًا بأنّي عبرت مغمّضة العينين بمحاذاة كلّ ما هو مهمّ؟ ولكنّ أجمل لحظة مهمّة تستحقّ أن تُذكر، عندما أبدأ في تعداد فتوحاتي في الدنيا، هي وجهك الذي لا يموت أبدًا في ذاكرتي ودهشتي وأنا أكتشف أسرار ملينا في بطني. أدفع حياتي حبيبي كلّها مقابل أن أراك سعيدًا. وأراك تأخذ ملينا للمدرسة وتعود بها. تُنزلها بالضبط عند الباب وتنسحب قبل أن يراك قتلة الروح. أشتهي أن أمنحك كلّ ما يعطي لحياتك معنًى، وأن أكون أمامك دومًا، ثمينة كقطرة مطر، وشهيّة كتفّاحة. أحلم أن ألتصق بذراعك، وأغمض عينيّ بحيث لا أسمع إلاّ صوت البحر الميِّت وهو يداعب قدميك وأنامل رجليّ، ويهدهد غفواتي المسروقة.

المطر ينزل في الخارج، باردًا وقاسيًا وشجيًّا، لكنّي أشعر بدفء خاصّ كلّما اجتاحني وجهك الجميل الذي لم يتخلّص بعد من دهشة الطفولة والطيبة العفويَّة. كم أنت دافئ عندما تصوّب نظرك نحو المبهم الذي لا يأكلك ولا يبعدك عنّي إلاّ ليدخلك فيّ بِهَبل المشتاق.

ها أنا ذي الآن أشعر بكلّ أغاني المدينة المسروقة تأتيني دفعة واحدة. في فيينا مثل يقول: *إذا أحببتَ، لا تضيّع وقتك في تعداد الخسارات الهامشيّة، لأنّك ستضيّع الأهمّ: ممتع أن تحيا أوّلاً وتحسب فيما بعد*. وأنا أحببتك ولهذا ليس في نيّتي أن أخسر ما تبقى.

اعذرني حبيبي، على ثرثرة ليس هذا وقتها، وعلى كلام قد لا يبدو لك مهمًّا، ولكنّي أريدك فقط أن تعرفني جيّداً، وأن تدرك أنَّ حبِّي لك كان صادقًا ولم أكن معنيّة بأن أربح بحبّك وهشاشتك نحوي، رجلاً منكسراً، ولكن حبيبًا يملأ قلبي حتى وهو بعيد، يدور داخل دوّامة شبيهة بتلك التي أعيشها.

ـ نحبّك يا دينك و نموت عليك، ويلعن بو الدنيا كما سارت ودارت!

أحبّك ولا أطلب منك شيئًا يخلّ بنظامك الحياتي. أعرف أنَّ جنونك عادل، لأنّه جنون كاتب، وأعرف أنَّك لن تستطيع إنقاذ نفسك بسهولة من الشوق المتغطرس. فقد أصبحتَ مثلي، مثبتًا في لحظة سحرتنا ثم سجنتنا في عمقها. أملي أن تتوصَّل إلى الخروج من هذه المحنة بالشكل الذي تراه مناسبًا. أمام الموت نبتدع كلّ حيل البقاء الممكنة. أتمنَّى لك فقط أن تظلّ حيًّا ومقاومًا لا تكسرك المنافي، ربّما التقينا في مكان ما في هذه الدنيا التي ضاقت على ذويها. أنتظرك غداً، بعد شهر أو بعد مائة سنة، لا يهمّ، في أيّة أرض، وباتّجاه أيّة بقعة أخرى أرحم، لأنّ العيون الهمجيّة لن تتسامح مع حماقاتنا. المعتوهون، وسدنة الأخلاق، وفقهاء الزور، والأزواج المخدوعون، والساسة الفاشلون، وحكّام الظلام، سيجدون لذّة كبيرة في شنقنا في الساحات العامّة. لقد استولوا على كلّ شيء، حتى على الهواء والماء وقطرة الحياة الأخيرة.

أقف معك في جنونك المستحيل، لا لأنّي مجنونة مثلك فقط، ولكن لأنّي أحبّك وأشعر بالظلم الذي سُلِّطَ علينا وسلّطناه على أنفسنا. هل تدري الفداحة التي لا ترمَّم؟ لن أصمت عن حماقتك حتى تضعني تحت التراب. اللّه غالب! أنا هكذا، وهذا طبعي. أشعر دائمًا بحرقة وبعبثيّة مفرطة تأكلني من الأعماق. ألم يكن من الأجدى أن تكون الآن معي، في هذه المدينة الجميلة، تضع يدك على بطني وتتحسّس نبض ابنتك التي ستأتي قريبًا؟

سينو. حزني وشططي...

ما زلتُ أنتظرك. أنت لست بعيداً عنّي، باريس على بعد قبلة، أو لمسة؟ أو همسة؟ تعالَ. ربّما استطعتُ فقط أن أنام على صدرك قليلاً عندما يصير قلبك خالياً من امرأة أخرى ولو للحظة واحدة. لا تنس أبداً أنّ هناك، في الظلمة القاسية، امرأة تحبّك، تنسج كالفراشة، من خيط الظلام الأسود والطويل جداً، ونار الشعلة المتّقدة، حداداً هادئاً، وأملاً صغيراً للقاء بك ذات يوم. أخاف فقط من الصدفة القاتلة التي تخلط الأوراق الأكثر ترتيباً، وتعرّيني وتعرّيك معي في وقت مبكّر.

أنتظرك حتى ولو كان ذلك على أكثر الحوافّ خطورة وجنوناً.

ساعدني حبيبي فقط لكي لا تأكلني الصدفة القاتلة، وأظلّ كاللمعة في قلبك الجميل.

من ليلي إلى سينو

وهران، ربيع ١٩٩٦

سينو... ملاكي الضائع،

أعود لك ثالثة لأنّي لم أشبع بعد من سماع صوتك وخوفي.

«يبدو أنَّ ملينا تلعب بأعصابنا!؟».

شايف حبيبي؟ الملعونة التي صنعناها في أجمل مكان في الدنيا، ترفض أن تأتي.

منذ يومين وأنا أنتظر مجيء ملينا[١] ولكنَّها تتعنَّت وترفض الخروج. قتلتني آلام الطلق. رياض مسافر، ولا أريد أن أزعجه. سعيدة أن أعطي الحياة

١ ـ لا أدري لماذا غيَّر سينو الاسم؟ لم يكن اسمها سارة ولكن ملينا، مثلما اشتهيناه. لقد قام سينو بمحو كلّ آثارها في روايته التي أعاد كتابتها: طوق الياسمين. منح سارة في هذا النصّ ما شاء بعد أن نزعه عن ملينا. قلبي وجعني كثيراً. قلت له: سينو، عمري... بإمكانك أن تغيِّر اسمي، فأنا مسؤولة عن ذلك، أن تمزِّق اسمك كما =

لمخلوقة من نور، نبتت في أجمل غابات الدنيا، وأكثرها هدوءاً وسكينة، بين جزيرة القدّيسات وتحت شلاّلات جبل الكبريت الدافئة التي تشبه السحر. عندما دخلنا تحتها، لا أدري أيّة دوخة أخذتني. استسلمت لك كلّيًا. كان الماء ينزل من الأعالي وأنت تسندني إلى صخرة كانت في شكل سرير جميل. كنت أشربك مع الماء ورغوة اللّذّة، وأتدفّق فيك كالينابيع البكر. كنّا من وراء غلالة الشلاّلات التي كانت تفصلنا عن كل شيء إلاّ عن تساقط المياه وزقزقة الضفادع الخضراء الصغيرة التي كثيراً ما وجدناها ملتصقة بأدوات الطبخ، في عيونها المدوّرة براءة غريبة، السكّان الأصليّون تآلفوا معها بقوّة. عندما صرخت من شدّة النشوة، لم تضع أصابعك على فمي، ولم تقل شيئًا. حسنًا فعلتَ، لأنّك لو قلتَ لي لا تصرخي، كنت أكلت أصابعك، وأدميت شفتيك

= تشاء، فأنت مالكه، ولكن ملينا أرجوك... كنت أعرف إجابته، ولكنّه هذه المرّة جاءني من حيث لم أكن أنتظر. ضمّني إلى صدره، ثم قبّلني طويلا. شعرت بانكسار دموعه القاسية التي بها ملوحة قليلة لدرجة أنّها تصبح ماء عذبا: هل تظنّين أنّي لا أريد ذلك؟ فكّرت طويلاً. ولكن لا أريد من ملينا أن تحمل ثقلا على ظهرها عليها أن تبرّره في كلّ خطوة تخطوها في حياتها. أستطيع أن أضع اسمها الحقيقي، ولكن هل تضمنين تحمّلك العواصف القادمة؟ ما في الأفق ينذر بكارثة ستعصف بنا قبل غيرنا؟ نحن في مجتمع لا يفرّق بين ظنّه ويقينه. بقيت مشدودة له، لوجهه، قامته، عينيه، وأنا أفكّر بصمت: ماذا لو يعرفون يومًا أنّها ليست ابنة رياض؟ مصيري ليس مهمًّا، ولكن كيف سأجيب؟ هل يكفي أن أقول لملينا إنّي أنجبتها من رجل تعرفه وتحبّه كثيراً، ورأته في الكثير من المرّات في الشاشات التليفزيونيّة؟ ومن بعد؟ يدزّوا معهم؟ صمتٌ وتركتني أنام قليلاً على صدره وأتحمّل قرحة دمعه، وأحاول أن لا أسال أبداً عمّا ينتظرني في الغد المبهم، وفي أيّ معبر من معابر الحياة. ما أستطيع فعله اليوم هو أن أعيد الرسائل إلى أصلها الأوّل قبل أن تخترقها الكتابة وأوهامها. وليقرأها القرّاء هذه المرّة كرسائل حقيقيّة وليس مجرّد اهتزازات لغويّة، جميلة لا أكثر. لا أندم على أيّ شيء فعلته بعينين مفتوحتين عن آخرهما. فقد كانت ملينا أجمل رهاناتي الصعبة مع سينو، وأحلى جنون مارسته في حياتي، بلا منازع. الباقي، لا سلطان لي عليه.

للمرّة الأخيرة، وهجرت سريرك طوال حياتي. عادتك البائسة، التي لا تستيقظ إلاّ في الجزائر أو في البلاد العربيّة؟

الطبيب قال لي عندما زرته اليوم، ننتظر قليلاً. قلت لك لا تأتِ، خوفًا عليك منّي ومن القتلة الذين صاروا يملأون المكان. سأدعوك في الوقت المناسب. لا تزعل منّي حبيبي، أرجوك. أعرف أنّك بالعاصمة من أجل السمينير الشهري الذي تشرف عليه في الجامعة المركزيّة. لكنّي لا أريد أن تؤذي نفسك وتؤذيني معك. ما يزال لدينا متّسع من الوقت للحبّ والحياة. يا مجنون أنا أحبّك فلماذا تؤذي نفسك وتؤذيني معك. ليس في نيّتي تعذيبك ولكنّي مخنوقة ولا أستطيع ردّ أيّ شيء. أنت قريب منّي. أنت فيّ. أكلّمك وأتمنّى أن أعطيك كلّ ما في القلب، وأستشيرك في كلّ ما يشغلني، لكنّ عالمي صار مغلقًا.

حبيبي. هذه الرسالة كتبتها البارحة فقط و أنا ممدّدة على الفراش، وكان عليّ أن أتخيّل سقف الغرفة سماء واسعة لكي أستطيع الكتابة. أتأمّل الأنجم علّني أعثر على الطريق التي ضيّعتها بالصدفة المجنونة. الصدفة المجنونة شاءت أن أحمل ملينا في بطني. لو لم تكن منك لتخلّصت منها. اليوم صار بطني مدوّرًا مثل التفّاحة، وابنتك أصبحت حقيقة. كم أتمنّى أن أراك يوم الولادة، لكنّي خائفة من المفاجآت الكثيرة. سأخبرك. أمّي معي دومًا. وعائشة بجانبي، تقوم بكلّ شيء، حتى بوظيفة ساعي البريد المتواطئ مع أسراري. تصبّرني وأصبّرها. كلّ مرّة أشعر فيها بالسعادة، تأتي الحالة التي تنغّص عليّ حياتي. لديّ شعور دائم بأنّي كلّما رأيتك، ستكون تلك هي المرّة الأخيرة، ولهذا أريد أن أشبع منك. أن لا آخذك على ظهري كشوق محموم. أن أحبّك فقط. لا أدري لماذا أشعر أنّ هذه الولادة ليست كالولادة السابقة. يونس لم يعذّبني كثيراً. لقد جاء بشكل يكاد يكون طبيعيًا، لكن هذه المهبولة تتدلّع كما تشاء.

سينو روحي...

ياه... كم تتغيَّر الدنيا؟ وأنا صغيرة، وضعت للحبّ تصوُّرًا جعلته في ذهني. وها أنت تأتي اليوم وبمسحة يد واحدة، تكسِّر كلّ يقينيّاتي وأوهامي. معك أحيا. بدونك أموت، ومعًا ننهب كلّ ما رفضت الأقدار منحه لنا بسهولة، ونشعر أنّه حقّنا الطبيعي. سأنتظرك حبيبي مهما بعدت المسافات. ستكون لي بقلبك وروحك. لن يخدعني أحد فيك. فأنا أعرفك من داخلك؛ رجلاً زاخراً بالبهاء. ستبقى فرحي الذي لا يموت أبداً. نخب لقائنا ونخب الذين نحبّهم، ونكاية في القتلة والعسس والعيون الباردة كالمسدّسات. كنّا نعيش لحظة الاستثناءات الكبرى. وكم كنت أودّ أن أسألك من علّمك كل هذا الدلال؟ هل هي امرأة مثلي، أم أنّه ولد معك؟ أم تراك رضعته من حليب القرية؟ فيك شيء غريب ينبع بعفويّة. تنازلت عن حقّي في الحياة، مقابل وجهك. وها أنا ذي داخل الأرض الخراب، أرمي بالبذرة لأرى شوقها وترعرعها وانبثاقها. ستزهر ورداً وبنفسجًا كما تشتهيها. سنرويها من فيض عطاءاتنا. لن أخاف من شيء، ففيك كلّ ما اشتهيت في حياتي.

لا يهمّني أنّك اليوم لم تعد لي، ولا غداً عندما تضعك امرأة أخرى على صدرها، وتحاول أن تزيل عنك وحدتك، وحزنك، ووحشة المكان، والخيبات. كل هذا لم يعد يهمّ، فأنا لا أطلب منك ما ليس لي. يبدو لي أنّ الحياة لم تمنحنا الكثير، ولكنّها منحتنا سعادة اللقاء العابر، وجمعتنا في سرير واحد، ولو كان ذلك لزمن مسروق، ولكنّه كافٍ لأن تجعلني أجنّ بك كلّما تذكّرتك. تكفيني ملينا. ستكون حالة اختزال لكلّ هذا الحبّ المستحيل، وهذا الشوق القاتل.

ملينا لا ترحمني لحظة واحدة. صارت متعبة. إنّها ترهقني وكأنّها تريد أن تثبِّت لي ارتباطها بي وحبّها لي. لا تشبه في شيء يونس المسالم. سأحاول

أن أنسى قسوة الحياة وأنّي لن أموت، وأنّي سأعيش لك ولمِلينا، ولحبيبي يونس الذي كثيراً ما أنساه.

لا تشغل بالك، أنا في مستشفى جميل، وعائشة تملأ حضوري. ملعونة، كلّما حاولت الابتعاد عنك، رمتني بين ذراعيك وهي تضحك: «لو كان جيت في مكانك، والله ما نخلّيه يرقد دقيقة واحدة. ماذا ربحتِ من زيجة سخيفة؟ ثم... كم ستعيشين؟ كل يوم يذهب، يحسب من رصيدك وليس من رصيد غيرك. جماعة الكارتيل يشتهون الكثير من النساء، لكنّهم لا يعرفون كيف يحبّونهنّ. في كلّ الأمكنة التي يزورونها، لهم دمى للمتعة».

لا شيء ينقصني حبيبي، أنتظر فقط اللحظة الآمنة التي سأدعوك فيها لتأتي، وأراك. مشتاقة إليك، لكنّ حياتك عزيزة عليَّ، ولا أريدك أن تكون ضحيّة لأنانيّتي، لست في حاجة لاختبار حبّك. أعرف أنّك تحبّني، وهذا يكفيني. أريدك أن تظلّ حيًّا لترى ابنتك وتحملها بين يديك. لا أريد أن أكلّفك مزيداً من الشقاوة. في الوقت الحالي الوضع صعب جدًّا. وقت رياض أصبح مرتبكًا. يعاني من صعوبات ماليّة لا أعرفها بدقّة، ولا أريد أن أعرفها أبداً. يخرج ويدخل، يسافر ويتحرّك، بلا نظام مسبق. أنا أيضًا تعبت من الكذب. ذاكرتي جفّت. لا شيء يعطيني مبرِّرًا للحياة إلاّ أنت، وإلاّ ما جدوى ما يحدث من حولي؟ أرأيت لماذا أتشبَّث بك باستماتة؟ حتى عندما أريد أن أتخلّى عن أنانيّتي، أجدني في عمقها.

أشتهيك أن تكون بجانبي، ولكنّي أرجوك لا تركب رأسك وتأتي. لا تهتمّ كثيراً، سأتدبَّر أمري. لقد تعوّدت أن أدير شؤوني في غياب سلطة رياض. هذه المرّة أسامحك. ستتركني ألد وحدي داخل الألم والصعوبات والخوف من الموت، أجمل نجمة؟ لكن في المرّات القادمة سأطالب بحضورك معي على طاولة التوليد، وأعضّ يدك لحظة الألم حتى أدميها، لتعرف فقط ما

معنى أن نعطي الحياة لكائن هو جزء من لحمنا الذي يُقطع منّا. أتذكّر كلامك اليوم بمزيد من الحبّ والصبر:

«العلاقة الحقيقيّة هي ما ينشأ بين الجنين وأمّه. تحمله، تكلّمه، تتألّم له وبه، وبعدها تقبل حالة التمزُّق في جسدها؟ والأب أثناء ذلك ماذا يفعل؟ لا شيء. ينتظر كأيّ شخص أجنبي في ممرّات المستشفى أو العيادة. كلّ رجل يستطيع أن يكون أبًا لأنّ العلاقة اكتسابيّة، لكنّ امرأة واحدة، ووحيدة فقط تستطيع أن تكون أمًّا، لأنّ العلاقة طبيعيّة».

كم كنتَ محقًّا.

أحبّك. أحبّك بجنون، وأخاف عليك من أنانيّتي. لكن هذه المرّة أسعى لأن أكون متعقّلة حفاظًا عليك. علينا جميعًا. ولا أطلب منك الشيء الكثير سوى أن تمنحني ما تستطيعه من قلبك ودفئك وأشواقك ودعواتك. أضع يدي على وجهي، أغمض عينيَّ، وأحاول أن أسترجع صفاء وجهك: ياه؟ ما أبعدك وما أقربك إليَّ!

كلّما وجدت وقتًا لنسيان الألم، أهرب نحو رواياتك. ما أرقّ قلمك، وما أقساه؟ روايتك الأخيرة قرأتها أكثر من مرّة، لكنّها المرّة الأولى التي أقرأها بحرّيّة ولذّة، وأنا في فراشي وليس في الحمّام. كلّما قلبت صفحة ارتعش قلبي خوفًا من أن يكون رياض أو أحد زبانيته، قد سمعوني وكشفوا سرّي. يا مهبول، من أعطاك كل هذه الأناقة في الكلام وهذا العنف؟ لقد وضعت قصّتنا بين أيدي كل الناس؟ هل هو الألم الذي جنّنك وهبلك؟ هل هو سحر الكتابة الذي لا يقاوم؟ هل كنت مثلي، ضحيّة أبجديّات الكلام؟ سعيدة بهذا الموت، فقد منحتني أجمل هديّة: حبّك. حوّلتني إلى لغة، وهل هناك حلم أجمل بالنسبة لامرأة من تحويلها إلى أبجديّة مشتركة؟ لا يمكن أن نكتب هكذا إذا لم تكن من وراء ذلك شعلة حارقة. أنا التي كنت أظنّ أنّ كلّ شيء انتهى، أجدني اليوم معلّقة على كلماتك وأشواقك وجنونك الذي لا حدّ له.

حبيبي، كم أشتاق إليك.

رسالتي هذه المرّة تشبهني كثيراً. مرتبكة، وحروفها هشّة جدًّا. ربّما لأنّها الأخيرة. يبدو لي أنّي هذه المرّة سأتركك. الطبيب لم يكن متفائلاً لوضعي. لم يقل شيئًا، ولكنّ خزرته لم تعجبني، وهو يقرأ نتائج التحاليل الطبّيّة. طالبني، بمجرّد استعادة راحتي، إجراء فحوصات رحميّة للتأكُّد من أن لا شيء في عنق الرحم.

«*عينك على ملينا حبيبي، إنّها أجمل هداياك*».

عندما تكبر ملينا، خذها إلى صدرك. أدخلها في أسرارك، كما فعلتَ معي، اتركها تشاهد النوارس وهي تقفز من أمام رجليها الصغيرتين قبل أن تندفن في الضباب، وبعدها عمّدها في مصبّات أنهار الغابات العذراء. عندما يملأ النور لأوّل مّرة عينيها الطريّتين، ستصيبها غشاوة، وبعدها غفوة قبل أن ينفتح أمامها الشوق بكلّ قدسيّته وعظمته. ساعدها على امتطاء عوّامة الحياة، وسيرا مع بعض، ستريانني في الأفق. قل لها إنّ أمّك هناك وسنصل إليها ذات يوم، ولكن أخبرها بأنّك والدها واكشف لها سرًّا سيوجعها في البداية، وستقاطعك زمنًا، ثم تعود إليك لتسأل عن قصّة أمّها معك. ضع كلّ أسرارنا ورسائلنا بين يديها الناعمتين.

لا أدري من أين يأتيني كل هذا الخوف؟ اللّه بدأ يسمع دعواي. أريد أن أغادر هذه الأرض وأنا قادرة على المشي، والحبّ، والتمييز بين الخير والشرّ، حتى أستطيع أن أقف أمامه بكبرياء وحبّ. لا أريد أن أدخل عرشه مهدّمة. كنت دائمًا أحسد عائشة التي تركت سعادتها الزوجيّة الوهميّة، وركضت إلى بيروت، وراء صديقها الفلسطيني الطيِّب، لتنام على ذراعيه أيّام الاجتياح الإسرائيلي، ووزّعت معه جريدة *المعركة*، قبل أن يستشهد في محيط ملعب بيروت. الحبّ هو سيِّد الكرامات الكبرى.

أستطيع اليوم أن أموت بدون تردُّد مثل صديق عائشة، بلا قضيّة إلاّ حبّك.

لا سرّ لي سوى حبّك. من هذه الناحية، صمّمت أن لا أعادي قدري حتى ولو قادني ذلك إلى حتفي. لا أريد أن أزيدك شقاوة على ما ستعانيه. أعرف أنّ حبّك لي كبير، ولهذا عندما ألد سأكون أقوى من عاصفة، وعندما أرحل، سأرحل بوجهك وقد أترك لك ما تقاسمناه بعشق كبير. وإذا حدث أن ذهبت معي ملينا، لا تحزن كثيراً. حافظ على نفسك. سننتظرك هناك. ستكون وحيداً داخل العزلة، وسأكون بصحبة هذه الملعونة التي لا شيء يرضيها إلاّ إذا سحبتني معها. الأطبّاء لم يقولوا شيئًا، ولكنّي أعرف من عيونهم أنّ الولادة ستكون عسيرة، والقلب المريض والهشّ سيكون تحت رحمة مزاجه الخاصّ. يمكن أن يتخلّى عنّي في أيّة لحظة. قلبي غير وفيٍّ معي، ولهذا فأنا لا أثق به، وأخاف أن يخادعني ويأخذني على حين غرّة.

هل تعرف أنّك أهبل رجل عرفته في حياتي؟ صحيح أنّي لم أعرف الكثير ما عدا سلسلة المجانين الذين حدّثتك عنهم، ولكن مع ذلك، أنت لوحدك. وحقّ ربي لوحدك، ولا أحد يضاهيك حبيبي؟ شيء فيك يستعصي على المقاومة. أيُّها المهبول، ألا تخاف عليّ وعليك؟ ترميني هكذا في جحيم الموت كأيّة أضحيّة فرعونيّة توضع في قارب خال من الحياة، وتُتْرك وحدها، في مواجهة الموت، أمام إله قليلاً ما يرحم؟ اليوم فقط انتهيت من قراءة روايتك، ووضعتها جانبًا. بقيت مع دهشتي، هل هذا الرجل يحبّني إلى هذه الدرجة ولهذا يورّطني فيه باستمرار؟ بقيت في دوّامة وحيرة وكلّ أجوبتي انكسرت. هل الحبّ يدفعنا إلى هذه الدرجة من التخيُّل، بل والافتراض الذي قليلاً ما يخطئ عندما يكون صادقًا؟ أنت لا تدري أنّك تمنحني قدرًا لا يوصف من قوّة المقاومة. عدت إلى المطبخ مرّة أخرى وأنا لا أدري ماذا أفعل؟ ماذا لو

قرأ رياض هذا النصّ؟ ماذا سأقول له. لم يعد في حاجة لسماع ما يرتبك في قلبي. هو نفسه ملَّني، ولم يعد قادراً على تحمُّل هذه الحالة. منذ مدّة وأنا أقرأ كتاباتك في الحمّام حتى لا يشكّ فيَّ أحد، ولا يحسّ بالنار التي كانت تأكلني من الداخل. الخوف ينتابني من القتلة المتستّرين. كلَّما كتبتَ، استحضر الشاحبون قصّتنا. عالم بأكمله يتهيّأ لمطاردتي بمزيد من الإدانة والتنديد. السؤال الذي يؤرّقهم: هل صحيح أنّها تحبّه، وأنّها تنام معه كلّما خلت به؟ لا يملكون الأجوبة، ولكنّي أوفّر لهم فرصة للحياة من خلال محنتي. يقتاتون من جسدي. أحيانًا أتساءل عن قوّة هذا المرض المستفحل؟ أيعقل أن يجعلوني قصّة لهم ولهنّ، وأنا أعرف جيّداً الأصدقاء والصديقات الذين يعيشون معهم؟ أعرف حتى البيوت التي يرتدنها؟ لماذا المرأة أكثر حقداً على المرأة وأقلّ تسامحًا معها؟ أعطيت لرياض ما استطعته، لكنّ حالة العبث كسرتني، ولا أريد أن أموت وأنا في حالة كذب مع نفسي. خطئي الوحيد هو أنّ ملينا منك؟ هم لا يدرون أنّ ملينا هي أصدق وأنجح ما ربحته من الحياة، ومن حبّنا المجنون، ومن هذه العبثيّة المفرطة للحياة نفسها. أخطر حبّ هو حبّ الأفق الغامض. امش ولا تسأل. فكلّما تساءلت، متّ قليلاً.

انتفضت من مكاني، حدّقت حولي. الصمت ما يزال يلفّ هذه المدينة. الغريب ليس بهذه الغرفة منفذ نحو البحر. ولكنّي كلّما بذلت جهداً، وقمت من فراشي، وأطللت من النافذة، شاهدت فراغًا في الأفق يعطيني الإحساس بوجود هذا البحر، أو على الأقلّ يرميني في طوق الوادي الذي كان يحوط المدينة قبل قرن، وقبل أن يجفّ.

كم أشتهي أن لا أكون، أن أغضب منك بجدّيّة، ولكنّ شيئًا في داخلي يستعصي عليّ، ولا يمنحني أيّة فرصة لرفضك. أشتمك. وكم أشتهي أن أعضّك وأدميك، ولكنّك مثل الزئبق، كلّما ظننت أنّي وضعتك بين يديّ، وجدتك هناك تنظر إليّ مثل الجنّيّ، تسخر من سذاجتي. كم أشتهي أن

أواجهك في مثل هذه الحالات، لا للدفاع عن نفسي، ولكن للصراخ أمام الملأ، أنّي أحبّك. أحبّك. لا أريد أن أظلّ مختبئة داخل صمتي.

الصمت من جديد. كلّ الليل مرّ هكذا. النور يتسرّب من بين شقوق النافذة. الساعات تزحف بسرعة وعليّ أن أقوم لأمشي قليلاً حتى تكون الولادة سهلة ولا يتعب القلب. هذه الأيّام صار ينهكني وصرت أرهق بسرعة. لماذا تصرّ دائمًا، بتواطؤ مع القدر، على وضعي في زاوية الفجيعة. ألم يكن بإمكانك أن توقفني عن غيّي في ذلك الصيف المجنون؟ تضحك كعادتك أو تنكّت؟

«أنتِ مخطئة يا حبيبتي. من يقاوم شهوة غابة عذراء؟ أنا لا أعرف سوى الكتابة عن امرأة لم يعرف قلبي المهبول سواها. سيأتي زمن ويُحكى عنّا إمّا كشياطين، أو كملائكة. هل تتخيّلين عاشقين حقيقيّين سعيدين، وهما في غمرة الحبّ والألم؟ ها أنت تكنسين ذعرك الداخلي. أحبّك هكذا وسط هذا الشطط. أنا لست مصرًّا على قتلك أبداً. أطمح أن أؤنس غربتك وقلقك ووحدتك وخوفك، لتدركي أنّك لست وحيدة وسط هذا القفر الذي اسمه الحياة. أريدك أن تحافظي على هذا الألق الذي يجب أن يظلّ حيًّا ومشعًّا. هل تريدينني أن أصمت وأنسحب؟».

من أين تأتيك كلّ هذه الكلمات التي تضيّعني؟ من أين يأتيك كل هذا السحر الذي ينسيني مأساتي ويربطني بك بقوّة أكثر؟ من أين تأتي بكلّ هذه الوداعة التي تجعلني أغفر لك كلّ حماقاتك وأزداد ارتباطًا بك؟ أنت تقتلني بحبّك. ماذا أفعل معك؟ يبدو أنّي لا أملك سوى أن أنسى ألمي وأراك لأشبع منك قبل أن أتركك. فتحت عينيّ على أجمل وهم تعيشه البشريّة وتدافع عنه، الحبّ. كتاباتك ولّدت فيّ جروحًا ودموعًا وعلامات استفهام. بقدر ما أشعر بالحبّ، ينتابني الإحساس الغريب بالموت. أفتّش عنك وأخاف على رهافتك منّي. مدننا غابات موحشة. أحيانًا أتساءل كيف ملكت القوّة

لاختراق كلّ الأغلفة الوهميّة ووصلت إليّ. كنت خلف كتل الضباب، لا يكاد وجهي يظهر أبدًا. حتى ملامحي انكسرت. استطعت أن تلمس قلبي وأشواقي وتجرّني نحوك. أنت مثل عرض البحر، كلّما اقتربنا منك ازددنا انجذابًا وخوفًا. كم أشتهي أن أهرب منك وأن لا أضطرب أمامك. أحيانًا أرتجف لمجرّد ذكر اسمك. أخيراً اهتديت إليك من خلال أحرفك التي تقول فيها كلّ شيء بأقسى حبّ ممكن. أنا اليوم لم أعد مستعدّة أن أخسرك بعد أن وجدتك. كلّما رأيتك ارتسمت في ذهني مباشرة كلّ اللحظات الجميلة التي حوربنا فيها. لا لست مستعدّة لخسرانك أبدًا ولو خسرت كلّ هذا العزّ الوهمي الذي يحيط بي. أشتهي أن أتعلَّم كيف أكون مجنونة في عينيك بدل أن أكون عاقلة في عيون الآخرين. منذ مأتم الزواج، جرَّبت أن لا ألقاك، وأن أتفاداك لأتمكّن من العيش، ولكنِّي لم أفلح. ربّما كان هناك شيء فيَّ أقوى حتى من عقلي نفسه. كلّما رأيتك، أشعر بك تناديني كما كنت تفعل دائمًا: مريم تعالي. عندما أهمّ بالانصراف تطلب منِّي البقاء قليلاً. لو لم تفعل ذلك للعنتك من كل قلبي. حبيبتي، هل نلتقي اليوم؟ كلمتك التي لا تموت أبدًا، ولا تتراجع ولا تستسلم، حتى وأنت في أبعد المدن. لقد اختزلت كلّ المسافات بجنونك وهبلك. أيّ سحر تحمله هذه الكلمات؟ الوجوه الضبابيّة لا تمنعنا من اللقاء والحبّ. الضبابيّون كلَّما تأمَّلوني عرّوني من لباسي. أتساءل إذا لم يكن الذين تكلَّموا عنك وكرهوك، هم الذين يدفعونني باستمرار نحوك بشكل أعمى. من يكون هذا الكائن الذي أُلصقت به كلّ هذه التهم المتناقضة؟ كلَّما رفعت رأسي، رأيتك تعبر الأمكنة بهدوء بابتسامتك الملعونة الاستثنائيَّة التي لا يفهمها إلاّ أنا. كلّ سرّ السخرية هو في حركة شفتيك. كلَّما رأيتك تساءلت هل يعقل أن يكون هذا الإنسان الطيّب والودود، بكلّ هذا الجنون الذي يلصقونه به؟ مع الزمن، أدركت أنّ الغيرة وحدها هي التي كانت تحرِّك البشر بمختلف أهوائهم. لا شيء يفسّر ردود أفعالهم سوى ذلك.

إذا لم تكن المرأة هي أوّل من يدرك ما خفي من السيرة، من تراه يكشف جوهر الأشـيـاء؟ أراهم يرابطون عند المداخل لاقـتناص كلّ حـركـاتك ومع الزمن ضمّوني إليك. أقرأ في عيونهم شهواتهم المنكسرة ولكنّني هنا. في حلوقهم. حزينة فقط لأنّي أخاف أن أتركك وحيداً، لكنّي أعرف أنّك ستجد بحاسّتك العالية المرأة التي تليق بك. تذكّر حبيبتك التي باعت كلّ شيء للشيطان مقابل أن تربح قلبك وأشواقك. كم من مرّة أقنعت نفسي وكذبت عليها بأنّي متزوّجة، وعليّ أن أنساك، ولكن عبثًا. في هذا، كلّ النساء كاذبات لأنّنا لا نترك رجلاً لأنّنا نريد ذلك، ولكن عندما تشتهي الذاكرة والسكينة المفقودة. نحمّله كلّ خساراتنا، ومع ذلك نظلّ له وحده حتى في أدقّ اللحظات حميميّة. تصوّر، حتى عندما أنام معه، أجدني في الفراش معك ولست معه. قلتها وأكرّرها لأنّها عقدتي القاتلة. أنت قدري الصعب.

سينو الغالي...

اليوم، لم يعد شيء يعنيني غيرك ويونس، وهذه المهبولة المصرّة على تعذيبي لكي أحبّها أكثر. الحبّ يحمل أحيانًا في جوهره بذرة الموت والنهاية، ولهذا صمّمت أن أحبّك حتى الموت مثلما كان يفعل العشّاق الذين أسرونا بقصصهم. لن أطلب منك الشيء الكثير، فكّر فقط في ألمي الخفي، قليلاً، فأنا، في النهاية، لم أفعل شيئًا لا يوجد فيه نبض قلبك.

شكراً لك لأنّك أطلقت عليّ النار بحبّك. ربّما طوال معرفتي بك، ومنذ الرسالة الأولى في رأس تلك السنة التي انسحبت بسرعة، لم أكن أفعل شيئًا سوى استدراجك نحو هذه الحماقة التي أقدمت عليها اليوم. كنت أريدك أن تقول لي أحبّك بالشكل الذي يشبهني، فقلتها بالشكل الذي يشبهك. عفواً، يشبهنا.

وهل هناك موت أجمل وأكثر هبلاً، من موت سببه رواية؟

الفصل الثاني

مشيئة القلب

04h 40mn 07s

- ١ -

الزمن يزحف.

هدأة السكينة تتضاءل شيئًا فشيئًا. اخترقها قبل لحظات صوتٌ يشبه أذان الفجر، أتى من بعيد واضحًا وناعمًا، قبل أن يعود الوضع إلى حالته الأولى.

منذ قليل، قمت وبحثت عنها بشقّ الأنفس ولكنّي لم أعثر عليها. الذبابة الزرقاء، أو ذبابة اللحم كما كانت تسمّيها جدّتي. لم أستطع أن أكتم غضبي. **بنت الكلب، لا تشبه بقيّة الذباب.** أنا متأكّدة من أنّ لها قدراً كبيراً من الذكاء لكي لا تسقط تحت رحمة لعنتي. ليست كائنًا حشريًّا عاديًّا. تحدث طنينها المزعج، وعندما أبحث عنها تصمت وكأنّها تترقّبني من وراء شيء خاصّ وشفّاف. كنت أحمل في يدي حذائي القديم، كان أوّل شيء عثرت عليه أمامي، وكنت مصمّمة على إلصاقها على الحائط إذا رأيتها. بحثت عنها في كلّ الزوايا الممكنة، لإخراجها من

مخبئها، ولكنّي لم أفلح في إيجادها. عدت إلى الجلوس من جديد، وترقّبت بحذر أن يأتي الصوت لأحدّد جهته مرّة أخرى. هدأت طويلاً لدرجة أنّي قطعت كلّ أنفاسي، لكنّي لم أسمع شيئًا. صمتت الذبابة وكأنّها كانت تقرأ ما كان يعتمل في دماغي.

غيّرت مساري كلّيًّا. تذكّرت يونس وملينا، فصعدت نحوهما في الطابق الأوّل من البيت. كان يونس قد تعرّى كلّيًّا من غطائه. عندما اقتربت منه لأضع البطّانيّة على صدره، تململ في مكانه، كأنّه شمّ رائحتي أو أحسّ بوجودي، حتى قبل أن ألمسه قال: **يمّا. شويّة ماء**... نسيت أن أضع عند رأسه قنّينة الماء المعدنيّة، التي تعوّد عليها. قبّلته على جبهته، غطّيته للمرّة الأخيرة، ثم تهيّأت للنزول من جديد صوب السكريتوريوم. عندما وصلت إلى العتبة، قال مغمغمًا قليلاً:

- بابا يجي اليوم؟

- لا أعتقد حبيبي، أنت تعرف بابا، هو لا يقول متى يعود.

- رأيت كابوسًا. رأيت الناس يمشون في جنازة بابا، يسبقهم الأذان وقرّاء القرآن، وناس كثرٌ يرتدون السواد، كانوا مثل الغربان.

- أذان الفجر هو الذي أيقظك. نم حبيبي. نم عمري. ليس إلاّ التعب.

لم أسأله عن تفاصيل الكابوس. أطفأت الضوء، وذهبت لأطمئنّ مرّة أخرى على ملينا. ما تزال على هيئتها الأولى، مثلما غطّيتها في آخر مرّة. ابتسامتها الملائكيّة لا تبرح محيّاها أبدًا، تنير المكان قليلاً. تشبه سينو كثيراً. مثله، ترفض أن تغطّي قدميها. تلقائيًّا تعرّيهما.

لا صوت. نسيت المسدّس في مكانه، على المكتب، ولم آخذه معي عندما انتقلت إلى الطابق الأوّل. مع أنّ رياض أوصاني بأخذه كلّما

تحرَّكت نحو *الكهف*، كما يسمِّيه، صعوداً أو نزولاً، من يدري؟ نحن في عالم لم يعد يخبِّئ جرائمه. منذ أن وضعته على الطاولة، لم أتحسَّسْه إلاّ قليلاً، حتى غطّته كومة الأوراق والقصاصات والرسائل.

عندما جلست من جديد من وراء الكمبيوتر، بدأت أتأمَّل حيطان المخبأ كأنِّي أكتشفها للمرّة الأولى. لا شيء فيها يثير الانتباه سوى الرزنامة اليابانيّة القديمة المعلّقة بإتقان، والتي لم أتجرَّأ على التخلُّص منها، لأنَّها كانت في شكل لوحة مختومة على أرضيّة من الحرير الاصطناعي. هديّة سينو عندما عاد من طوكيو. ورقة صفراء ما تزال عليها تواريخ غيبوبته، مكتوبة بالأسود داخل مستطيلات صغيرة، لأتمكَّن من رؤيتها بلا أيّ جهد ٢٧ ـ ٠٣ ـ ٢٠٠٨، ليس بعيداً عنها، دُوِّنت أرقام أخرى، كُتِبتْ بالشكل نفسه 04-15h27mn07s كتبتها يومها بأوّل قلم وجدته في طريقي وبشكل آلي. الأرقام الأولى كانت تحيل إلى يوم دخوله في الغيبوبة المميتة، والثانية تحيل إلى رقم اليوم وهو الخميس، اليوم الرابع في الأسبوع. وساعة الغيبوبة التي كانت تشير إلى الثالثة وسبع وعشرين دقيقة وسبع ثوان. كلّ هذا لكي لا أنسى شيئًا ممّا حدث للرجل الذي غير كلّ شيء فيَّ، وهزّت غيبوبته يقيني، حيث كنت أظنّ أنّه لن يموت أبداً. فجأة اكتشفت أنّه يمكنني أن أترمَّل في أيّة لحظة، وأصبح في مهبّ الريح كورقة شجرة ميتة. ولهذا دخلت في غيّ اللعبة التي قادتني إلى أسئلة لم أكن لأطرحها حتى على نفسي، لولا الذي حصل.

على الحائط لوحات كثيرة ومتنوِّعة، كانت تحتلّ، من قبل، مكانًا واسعًا في الصالون، على الرغم من أنَّنا اشتريناها غالية، أو هدايا من أصدقاء. تخلَّص منها رياض بعد أن حوّل الصالون، من صالون أوروبي إلى صالون شرقي، بكلّ ملحقاته من زرابيّ إيرانيّة، على الأرض والحيطان،

وصوانٍ وأوانٍ نحاسيّة. حتى اللمبة النحاسيّة التي كانت تتدلّى في وسط الصالون، ذات الألوان الحارّة الجميلة تخلّص منها رياض وعوّضها بثريّا بلّوريّة غالية. قال لي يومها وهو يبرّر هذا التغيير المفاجئ الذي لم يستشرني فيه أبداً: هذا أقرب إلى ثقافتنا. أستقبل رجال أعمال يابانيّين وفرنسيّين وأميركيّين، وأتراكًا، وألمانًا، وأنا بحاجة أكثر إلى صالون قريب من ثقافتنا. وأنزلنا كلّ الزوائد، أو ما كان يظنّه كذلك، إلى **الكهف**. وهو ما ساعدني على إعادة تشكيل مكان لم يكن يصلح لشيء، ليصبح فضائي المفضّل. ولم يكن يزعجني وجود الغسّالة به، فقد وجدت لها مكانًا معزولاً لا تُرى فيه أبداً، مثلها مثل الزاوية الصغيرة التي يوجد بها الحمّام. الكثير من اللوحات التي سحبها رياض من الحيطان، وزعتها بين غرف الأولاد وغرفة نومنا. الباقي سحبته للسكريتوريوم لإعطاء بعض الحياة إلى المكان. **عصافير الجنّة** لبايه مثلاً، سحبتها معي. سحرتني ألوانها الجميلة وعالمها الطفولي وعفويّتها. كلّما رأيتها، قلت في خاطري: ليس غريبًا أن يعجب بهذه المرأة الصغيرة، كمشة من النور، فنّانو عصرها العالميّون. في ١٩٤٧ نُظِّم لها معرض في باريس، في غاليري مايغت[١] وخصَّصت مجلّة **من وراء المرآة**، غلافها لإحدى لوحاتها، وكان أندري بروتون هو من أنجز مقدّمة كتيّب العرض الخاصّ بها. حتى أنّ مجلّة فوغ[٢] العريقة، خصَّصت لها بورتريه، مع مقالة تمتدح عملها، لإدموند شارل رو. لم يكن عمر بايه آنذاك يتجاوز ١٦ سنة. في السنة الموالية، أي في ١٩٤٨، أُنجزت بأتيليه مادورا، منحوتات على السيراميك، وهناك تعرّفت على بيكاسو الذي كان معها في الأتيليه نفسه وأعجب بها

---

١ ـ Galerie Maeght.

٢ ـ Vogue.

كثيراً. أستغرب أحياناً كيف منح اللّه تلك البلاد كومة من الصدف الجميلة، لم تُستغلّ أيّة واحدة منها، وكما من البشر الاستثنائيّين، وجدت متعة استثنائيّة أيضاً، واحترافيّة مدهشة، في تشريدهم، أو قتلهم، أو فتح بوّابات المنفى في وجوههم. لقد تخلّصت تلك البلاد من كلّ ما لم يكن يروق لها. الجهل قاتل وقاس. ماتت بايه في العزلة التامّة، ولم يعرف أهلها قيمتها إلاّ عندما لم تعد موجودة. أتذكّر جيّداً أنّ التليفزيون الذي لم يحاورها وهي حيّة، انتقل يومها إلى بيتها وجلس المنشّط الشابّ يحكي أيّ كلام، في بهو بيتها الأندلسي، وخصّص لها أمسية فنّيّة. بسرعة، طوت البلاد ملفّها نهائيًّا، كما فعلت مع غيرها، وكأنّها كانت تريد فقط أن تزيل عن نفسها بعض ثقل تنغيص عقدة الضمير، إذا بقي فيها بعض من هذا الضمير أو ما يشبهه.

ـ ٢ ـ

شيء خفي في هذه البلاد يقودها نحو الخراب الأكيد.

استيقظتْ فيَّ فجأة حموضة المعدة، الثقيلة. زادت من ألمي الداخلي، وقوَّتْ لديّ حاسّة الخوف من الآتي. لقد اغتال الورثة ألوان البلاد وتعبيراتها الخفيّة الجميلة، قتلوا أصواتها الشجيّة، وسطّحوا الذاكرة بحيث لم تعد تعي شيئاً.

شيء ما في هذه البلاد يموت بصمت.

وأنا أعدّل لوحة بايه، **عصافير الجنة**، التي كانت مائلة قليلاً، رأيت تحتها بالضبط، فوق كومة الصحف القديمة التي جمعتها ولم أنظّمها بعد، وجه عمّي البشير مختوماً على كتابه: ***العسف***[1]، باللغة الفرنسيّة. تأمّلته

١ ـ Bachir Hadj Ali: L'Arbitraire.

طويلاً. شعرت بحدّة الفجوة التي في معدتي تزداد اتّساعًا. ظلّ طوال عمره يغنّي أندلسه المتسامحة التي لم يسرقها الإسبان، ولكنْ الجهلة والأمّيّون من أهل البلاد.

كان عمّي البشير لا يتوانى، بعد أذان كلّ فجر، عن ملء كفّه بحفنة من نور الصباح، وسحابة من عطر البحر وبنفسج الجبل المقابل، الذي يصل حتى البيت، وقطف الندى العالق على شجر مسك الليل الأشبيلي قطرة قطرة، ثم رشّ البيت بكامله، بكلّ ما تحمل كفّه من فرح، ليبدأ النهار بفاتحة، وحده كان يعرف قوّة سحرها. عندما زرته مع سينو، قبل موته بشهور، لا شيء فيه تغيَّر، سوى ذاكرة متعبة أصبحت تخونه من حين لآخر. الصلابة نفسها، والهشاشة نفسها التي لا تخفيها نظّارتاه السميكتان. حتى انقلاب الورثاء الجدد في ٦ جوان ١٩٦٥، والسجن، والتعذيب، لم يغيِّروا فيه الشيء الكثير سوى حركة مشيته التي أصبحت صعبة قليلاً بسبب التعدّيات المتكرِّرة على جسده، في سجن لامبيز[١] الذي أكل عفويّته وأنهك صحّته. يختفي عمّي البشير في الزاوية الخلفيّة من صالون بيته الجميل، الذي تؤثّثه الكتب والمصنّفات الموسيقيّة والتاريخيّة الكثيرة والمتنوّعة باللغات المختلفة، العربيّة والفرنسيّة والإنجليزيّة والإسبانيّة. ظلال حركاته تملأ الأمكنة. ينهض ويقوم بشكل دائم. ثم فجأة يختفي ولا يظهر إلاّ بعد لحظات، حاملاً إبريق القهوة مصحوبًا بآنية نحاسيّة مليئة بماء الزهر.

---

١ ـ Lambèse سجن مشهور، عُذِّب فيه الكثير من المناضلين الوطنيّين في الفترة الاستعماريّة. بعد الاستقلال، لم تُغيَّر وظيفته التي ظلّت هي هي، وقد استقبل الكثير من المناضلين المناهضين للنظام الحاكم في الجزائر بعد انقلاب ١٩٦٥ ضدّ الرئيس الأسبق أحمد بن بيلا.

ـ شفتوا واش دار فينا ورثة الانكشاريّة؟ لم يتركوا مساحة واحدة من جسدي لم يجرِّبوا فيها ساديّتهم. ومع ذلك، أغفر لهم، لا لأنّي مسيح طيِّب، ولكن لأنّه لا جدوى من ذلك. أتمنّى فقط أن يذوقوا، مرّة واحدة في حياتهم، ما معنى أن يجلسوك على قنّينة، ويضغطوا على كتفيك بكلّ قوّة؟ ثم تبدأ في النزف من تحت، وكلّما تحسّستَ جرحك شعرت بتمزّقات عميقة يصعب رتقها. يتركونك ترتاح لمدّة يومين، ثم يعيدونك إلى الجلوس ثانية على القناني، من مختلف الأحجام. هل يدري الساديّون فظاعة الألم وهم يفتحون جراحاتك من جديد؟ أغفر لهم، ولكن قبل ذلك أتمنّى فقط أن يجلسوا بالشكل نفسه، على فوهة قنّينة من حجم أصغر ممّا تعرَّضت له، ربّما تركوا مهنة التعذيب الوسخة، هذه، إلى الأبد. لم يقتلوا الحلم، لكنَّهم أبادوا كلّ من يخالفهم. الكلمات أيضًا، يا سينو ابني، تختنق بفعل الخوف، وتتحوَّل إلى كومة رماد، عندما يُسرق منها حنينها الخفيّ. لقد قتل الورثة الجدد أشواقًا جميلة أخطأتها عيون القتلة السابقين، فنبتت فينا في سرّيّة كلّيّة. كنّا نظنّ قبل هذا الزمن أنّ الجراح طارئة، وأنّ زمن الخوف عابر، ولكنّ الورثة جعلوا منه قيامة دائمة. اعذروني على جلستي المعوجّة التي لا تليق بالشعر، ولا بجلسة مليئة بالفراشات والأنوار وحبّات المطر الدافئة، وقوس قزح... اعذروني، نداري الآلام أحيانًا ولكنّها فينا، متصلِّبة كالأحجار السامّة، فتفضحنا.

ـ لماذا لم تخرج يا عمّي البشير؟ أرض اللّه واسعة. ترتاح قليلاً، تستعيد جهدك، ثم تعود بعدها للحياة والكتابة.

قلناها في وقت واحد أنا وسينو، وكأنّنا اتّفقنا على ذلك قبل أن ندخل بيته. صمت قليلاً ثم أجاب بهدوئه المعهود.

ـ ليست لي أرض أخرى غير الأرض التي اخترتها، ولا وطن لي سوى وطن الكتابة. تريدين الحقيقة المرّة يا ليلى؟ أعتقد أنّنا خسرنا كثيراً عندما قتلنا الشعراء، وافتتنّا بالموت بدل الحياة. ومع ذلك سأموت متفائلاً، غارساً بصري في كلّ شيء به بصيص من نور الحياة. عذّبنا الورثة، قتلوا غارسيا لوركا وكان طفلاً بريئاً، قطعوا رأس بشّار بن برد، سجنوا حكمت، وقطعوا أصابع فكتور چارا... لكن، ماذا ربحوا؟ كما ترين، لا شيء. أغلب ورثة الدم ماتوا بالأمراض نفسها التي نموت بها اليوم، ولم ينفعهم بطشهم وجبروتهم، ولا حتى الأموال التي نهبوها. الكثير منهم قتلهم أصدقاؤهم في انقلابات منظّمة، أو في حوادث مشكوك في أمرها، أو ماتوا في المنافي أو العزلة المرّة. من يذكر اليوم الشخص الذي أصدر حكمه ضدّي وأمر بتعذيبي؟ أو حتى الشخص الذي عذّبني؟ أو من سرق ذاكرتي؟ السيّاف الذي قطع رأس بشّار؟ أو الفاشي الذي أطلق النار على لوركا؟ في كل هذه الحرائق القاسية، الشعر وحده هو الباقي وهذا الصوت الشجي الذي يموت ويحيا، يختفي ويظهر، ينطفئ ويضيء، يخاتل ويجاهر، ولكنّه سيستمرّ طويلاً قبل أن ينسحب من على هذه الأرض.

قاوم عمّي البشير طوال العشرين سنة التي أعقبت تعذيبه، قبل أن تستسلم ذاكرته المنهكة والمنتهكة، المليئة بالثقوب والجراحات، لسلطان محنة السطل الألماني[1] L'Epreuve du casque allemand. سنوات تعذيب الورثة، وآثارها المدمّرة محت الذاكرة، أو ما تبقّى منها.

---

١ ـ وسيلة استعملتها النازيّة في ألمانيا لتعذيب المناهضين لها، للحصول على ما تريده من معلومات. يوضع سطل مجوف من الداخل، على رأس الضحية، ثم يضرب من الخارج بشيء ثقيل، شبيه بالمطرقة، فيحدث ذلك طنيناً قويّاً ينتهي بصاحبه إلى نزف خطير في الأذنين والصمم والنسيان، ثم إلى اضمحلال الذاكرة مع الوقت.

تمتمت وأنا أتأمَّل كتاب ***العسف*** الذي وصف فيه محنته:

«هل يجرؤ اليوم قتلة البشير، بعد صحوة ضمير فجائيّة متأخّرة، أن يقصّوا علينا ليالي البشير، وأحزانه، غير ما حكته لنا نشرات الأخبار الرسميّة، ويقولوا لنا فقط ماذا ربحوا بمحو ذاكرته؟ وهل كانوا يدركون أنّهم كانوا يصنعون صوراً قاتمة لبلاد سيورثونها مشلولة، مقتولة ومغتصبة في ليلة عرسها، لشباب سيكفر بكلّ شيء، ويرمي بنفسه في تهلكة بحار الظلمات؟».

آه يا عمّي البشير لو فقط كنت هنا، لتشهد هذا الخراب العظيم الذي كنتَ أوّل من تنبّه له، ولم يسمعك أحد.

- ٣ -

لا أدري ما الذي أيقظ حواسّي دفعة واحدة؟

ليست الحكمة التي سمعتها من فم أمّي وجدّتي هي التي قادتني نحو هذه المخاطرة، والتي تقول: **بلا هويّة، أقلّ من شويّة**. وماذا إذا كانت هذه الهويّة قد أُبيدت بقوّة بحيث لم يعد لها وجود؟ ليس في نيَّتي أن أكون أكثر ممّا هو أنا في الجوهر، ليست هذه إلاّ البدايات التي تشتعل في داخلي؟ ربّما كنت أؤذي نفسي إلى أقصى حدّ، ولكنّي لا أريد شيئًا أكثر من استرجاع هويّتي وقتل مريم التي سرقت منّي كلّ شيء. هي لا تختلف عن الدكتاتور الصغير الذي يريد كلّ شيء له، حتى أحلام الناس. ولكن هل يتحمَّل مخّه وجسده أحلام الملايين وانكساراتهم؟ ولهذا، فأنا لا أتردَّد في استعمال المسدّس، والإجهاز عليها. لم يعد لديّ الكثير ممّا أخسره.

سينو أراح نفسي بأن نام داخل غيبوبة طويلة، أو هكذا أردته، وأنا اشتعلت نار الخوف فيَّ. فجأة شعرت بنفسي أنِّي كنت لا شيء لولا هذا الكمان الذي أصبح الآن مدفونًا تحت ركام الأوراق، وربّما هذا المسدّس البارد الذي عاد إلى الظهور من جديد بعد أن سحبتُ بعض الأوراق التي نظّمتها بشكل يريحني. قبل قليل شعرت ببرودته عندما كنت أبحث عن رسالة انزلقت بين الوثائق المرقّمة التي أصبحت الآن تغطِّي جزءًا كبيرًا من مكتبي.

«عليّ أن أعيد ترميم حياتي والتعوُّد على العيش بدونك».

ـ ٤ ـ

ليعذرني سينو، أحبّه، لكنِّي في حاجة اليوم إلى أن أكون بالقرب من نفسي، ربّما للمرّة الأولى في حياتي.

سألته ذات يوم، ونحن نتوغَّل في صفائنا الأكثر عمقًا. كنّا متعبين جدًّا، بعد سهرة جميلة كنّا ضيفيها الوحيدين. لم أكن أقصد شيئًا سوى معرفة سرّ كان يكبر كلّ يوم أكثر في داخلي، ويبعدني عن نفسي قبل أن يبعدني عنه.

ـ ألا تقوم الكتابة إلاّ على قتل الحقيقة يا سينو؟

لم يقل: لم أفهم قصدك، في أوّل ردّة فعل عفويّة كما تعوَّد أن يفعل، ولكنّه تأمّلني طويلاً في عينيَّ كأنّه كان يريد أن يقرأ ما يتخفَّى من وراء السؤال.

عندما ردّ عليَّ، كان يعرف جيِّدًا، أو هكذا بدا له على الأقلّ، ما كنت أريده منه.

ـ لا. المطلوب من الكتابة فقط أن ترى الحقيقة، حقيقتها. لا توجد في الدنيا حقيقة واحدة. الحقيقة مثل الأيقونة، عندما نكون جالسين قبالتها لا نرى إلاّ وجهًا واحدًا من أوجهها المتعدّدة وتبقى أجزاؤها الأخرى في الظلّ. نحن حقيقة اجتماعيّة موضوعيّة، ولكنّ مريم حقيقتنا المتخفّية فينا. هي حقيقة أيضًا. ليلى، تعرفين جيّدًا أنَّ ما يقوله البشر عنّا مثلاً، ليس إلاّ حقيقتهم الخفيَّة التي تشبههم في النهاية، أمّا نحن فشيء آخر، وحدنا نعرف جيّدًا تفاصيل هذا الشيء الآخر في حدود ما ندركه، لأنّ جزءًا كبيرًا منّا يظلّ بعيدًا حتى عن إدراكنا.

من حيث لا يدري، كان قد أعطاني أجمل سلاح أُجهز به على مريم، ظلّي القاتل، وأقاوم به انتفائي من لحظة وجوديّة سُرقت منّي بسبب طيبة زائدة منّي، أو لنقل بسبب غبائي وثقتي العمياء بالكائنات الورقيّة.

ـ ومريم إذن؟

ـ مريم. ليستْ أنتِ. وليستْ أنا. وليستْ من يشبهها. ولكنّها ذلك كلّه مجتمعًا في كائن واحد. لأنَّك لو اكتفيت بالشبه فقط، فأنت لن تستطيعي تفسير الناس الذين يأتون نحوها، ويشعرون بشبه كبير بينهم وبينها، ونحن لم نعرفهم أبدًا؟ هناك شيء خفيّ في الأدب هو الذي يصنع هذه القرابة السحريّة التي يمكن تبريرها بسهولة إذا تعمّقنا في العلاقات. كلّ قارئ عندما يقرأ يتماهى داخل النصّ، يتحوّل إلى ذرّات تلتقي في رحلتها مع أنفاس أخرى تشبهها في النصّ، فيحدث الإحساس بالتشابه والقرابة والتجاذب. العمليّة ليست فقط لغويّة ولكنّها فيزيقيّة، كيمياء خاصّة، ومن هنا قوّة الإحساس بها.

«ما كنت أظنّه مجرّد لعبة أصبح حقيقة».

تمتمت في أعماقي المنهكة والمتّقدة.

المشكلة أنّي بدأت أعرف أيضًا أنّ قتل الحقيقة الأدبيّة يوجب أوّلاً قتل أصحابها. لم أجد صعوبة في قتل سينو، فقد افترضته استمرّ في الغيبوبة التي لم يستيقظ منها أبداً. ما زلت أعيش حداده. لكن كيف يمكنني أن أقتل ظلاً تمرّد على كلّ شيء، حتى أصبح حقيقة أخرى يعرفها الناس أكثر ممّا يعرفونني أنا. وهذا صعب عليّ.

ليعذرني حبيبي، مرّة أخرى. أغرقته في الغيبوبة، لأتخلّص من ثنائيّتي القاسية. هو يفهمني جيّداً، ولن يحاسبني على حماقتي حينما يقرأها. أعرف أنّه سيتحمّلني. فأنا تحمّلت امرأة أخرى فيَّ، وبجانبي، وفي العديد من المرّات اقتحمت حتى سريري مع سينو، ونامت فيه عارية. رأيتها مراراً، تقوم مع الفجر. تتدحرج عند قدم السرير. تتمطّط، وكأنَّ الليلة التي قضتها بيننا ألْبَستْها خمول العاشقة. أرى جسدها المصقول الذي لا توجد به أيّة تجاعيد. أرى ظلّها باستقامته وهو يدخل إلى الحمّام ولا أسمع إلاّ أغنيتها التي تأتيني من بعيد، خافتة ومليئة بالحنين الغريب، أغنيتي:

ورقه الأصفر، شهر أيلول،

فتحت الشبابيك.

عندما يفتح سينو عينيه، أراها وهي تنام فيهما براحة كبيرة كفراشة غارقة في بحر من الألوان. لست قطعة حجر. كلّ ذلك يشعل غيرتي ويؤجّجها، ويلهب حرائق جسدي.

- ٥ -

أفتح باب القلب وأقرأ ما يؤثّث هذا الألم الخفيّ.

أشعر بالرغبة المجنونة لكشف أسرار مريم. ربّما أسراري؟

لا أحد يعرف من ماضي مريم إلاّ ما تقوله الروايات. ولكنّ ماضيها يلتبس بحياتي ويسرقها. فقد أصبح تاريخها مبنيًّا على اندثار حقيقي لامرأة ظلَّت تحسّ، وما تزال، أنّ الحياة جميلة وتستحقّ أن تُعاش. وأنّها كلّما فتحت عينيها صباحًا، غمرتها السعادة بأنّها ما تزال حيّة، وأنّ مريم ليست إلاّ ظلاً باهتًا لحياتها. لكنّ هذا الإحساس لا يأتي دائمًا كما تشتهيه.

لا أدري لماذا يقودني سحر الماضي نحوه بكلّ هذه القوّة، على الرغم من أنّه لم يكن دائمًا ماضيًا جميلاً ومدهشًا. لكنّي كنت سعيدة بآلامه وأشواقه وأحزانه التي كان لها طعم الملح أحيانًا، وفي أحيان أخرى طعم المطر.

كلّما لامست هذه الرسائل، أعرف أسرارها وحروفها واحدة واحدة، ولا يوجد كائن آخر في الدنيا يدرك خفاياها مثلي. أعرف كيف كتبتها، وأعرف أيضًا كيف استعملها سينو في رواياته، وكيف شذّبها بعد أن نزع عنها كلّ ما يحيل إلينا مباشرة، وكيف أطفأ أحيانًا جذوتها المتّقدة، فقط ليراوغ مرجعها الأصلي. ألم يكن سينو، بفعله هذا، يقتل الحقيقة بطريقته الخاصّة؟ يقتلها ويحوّلها إلى مجرّد علامات خفيّة لتثبيت سرّنا في رواياته وقصصه. أراها مثل رموز الماسونيّة أو الصوفيّة، لا يدركها إلاّ من كان قريبًا منها وفيها. كلّما قرأت حرفًا واحدًا منها، أدركت ما الذي يتخفّى في أعماقها.

لا يمكن أن تكون قصّتي هي حكاية مريم. لا أريد قلب الأدوار بأن يصبح إنسان من لحم ودم مجرّدَ ظلّ لشخص ورقي، لغيمة وحفنة من الإيهام، مهما كان جميلاً، فهو لا يعرف لذّة القبلة، وسحر اللمسة. ليست مريم في النهاية أكثر من لغة شبيهة بلغة الجنون. لكنّها، على الرغم من ذلك، كانت لغة قاسية في جبروت سحرها. تمكّنت من إزاحتي من طريقها وإلغاء وجودي كلّيًّا. لهذا، أريد أن أُمنحَ فرصة، فرصة صغيرة لأكون أنا كما أشتهي، خارج نظام مريم، ولو ليوم واحد فقط. لساعات... وحتى لدقائق، لأشعر بعد فقدان سينو أنّي كائن يستحقّ أن يحيا حياة مستقلّة. أدرك اليوم أنّ مريم الورقيّة، لا تُقْتَل إلا بليلى الحقيقية.

لم أكن أتسلّى، عندما قلت إنّي اتّخذت قراراً خطيراً.

«أن أكون أنا، بكلّ ما يمكن أن يلحق بي من دمار شامل وخراب».

لقد بدأ العدّ العكسي للقنبلة الموقوتة التي كانت فيَّ، ولا أدري إذا كنت قادرة على السيطرة على حواسّي. أشعر كأنّ هناك قوّة تتجاوزني، وتدفع بي نحو التيه. ليس كتيه المنفى الذي أصبح اليوم قدرنا المشترك، ولكنّه تيه اللعنة التي لا أعرف مصدرها. والدي كان يحبّني، وأمّي لا تنام إلاّ على تذكيري بأنّها تراني في أفراح وأحزان سي ناصر الذي سرقه الموت من بين ذراعيها، في وقت كانت فيه، في أمسّ الحاجة إلى ظلّه. إلى نفَسه.

«ـ حتى واحد يا بنتي ما وجد الحياة كما أحبّها...».

أحاول أن أغفو قليلاً على الكرسي القصبي وأنسى، للحظة، كلّ ما يحيط بي. أستفرد بخلوتي ولا أسأل سوى الصمت الذي يلفّني ويسكنني.

* * *

من ليلي إِلى سينو

وهران، ٠١ ـ ٠١ ـ ١٩٩٨

سينو، صدفتي الجميلة...

لا شيء فيَّ سوى ظلالك وجبروت حضورك الأبدي.

والدي عندما خرج، سحب وراءه ظلّه ولم يترك لنا إلاّ حسرة قاسية. ماذا فعلتَ أنت غير ذلك؟ أبحث عنك في كلّ الوجوه، فلا أرى إلاّ ظلالاً مكسورة ووجوهاً أنهكها تعب الدوران والبحث عن المبهم.

كيف أجدك أيُّها الهارب من غيمته وجنونه؟

هكذا إذن، تقتلني بحبّك وبصمتك وبمنفاك الذي بدأ بِحيرة وانتهى بخوف؟

دعني أملْ لك أوّلاً وأنت غائب عنّي هذا المساء، في مكان لا أعلمه: *كلّ عام وأنت بخير حبيبي. دمت للفرح والسعادة. اعذرني، أنا دائمًا أصل*

متأخّرة عندما يتعلّق الأمر بالمواعيد الجميلة. لم أهدك شيئًا بمناسبة حلول السنة الجديدة. احسبها عليّ. حسبي أن أهديك هذه المرّة قلبي. قلبي فقط وأشواقي وحنيني الذي لا يموت.

هل تكفي الكلمات؟ أريد أن أمنحك حروفًا أكثر دفئًا ووضاءة، وربّما أكثر. لا تغضب من السنوات التي تمرّ بسرعة. مجرّد التفاتة صغيرة للزمن الذي لا يأبه بنا كثيراً.

سنة تنسحب وأخرى تأتي، وأنت ما زلتَ هنا، على حافّة المنفى، تنظر إلى المبهم وتنتظر عودة أمطار الطفولة كما كنت تقول لي، لتستطيع أن تتمّ أغنيتك التي بدأتها وتوقّفت في منتصفها. لم تنهها لأنّك رأيت في ذلك اليوم والدك وهو يغمض عينيه للمرّة الأخيرة في حرب لم تكن متكافئة. مع بداية كل شتاء تنتظر أمطار الطفولة الأولى لتواصل نشيدك المكسور. فهمت متأخّرة جداً لماذا كنتَ تكره التخفّي من المطر، والمطريّات أيضًا، كانت تحرمك من متعة الماء والغناء:

يا النوّ صبّي، صبّي،

ما تصبّيش عليَّ.

حتى يجي خويا حمُّو،

ويغطّيني بالزربيّة...

تضحك منّي؟ اضحكْ، لن أغضب منك لأنّني صمّمت أن أضع حدّاً لصمتي. أشتهي اليوم أن أكتب لك لأقول لك بكلّ بساطة أحبّك. نْحبّكْ ونْمُوتْ عليك يا دينك، وأنت لا تعرف شيئًا أو تتعامى عن حرائقي. ارفع رأسك قليلاً وتأمّلني في وجهي مباشرة. هل ترى شيئًا؟ كلمة ترقص في عينيّ منذ زمن بعيد، لم أعد اليوم قادرة على لجمها حتى أمام رياض الذي يجد متعة

غـريبـة في اسـتـدراجي نحوك عـندمـا يجـد لـي بعض الوقت. أحـبّـك. حـروف ليـست كبـقيّـة الحروف وكـأنّها ليـست من الأبجـدية التي نتداولهـا يوميًّا آلاف المرّات، لا أتجـرّأ على قـولهـا أمـامك، ولا أدري إذا كـنـت أخـاف ردّة فـعلك أم أخافهـا؟ نحبّك ومن بعد واش راح يصير؟ إذا شئت قاسـمني هواجسي، وإذا لم تشأ، لقلبك حرّيّته وراحته، ولعمري، عزلتها وشططها وحزنها، والسلام.

Basta, c'est Basta. Je suis très fatiguée[١].

منذ زمن وأنا أقاومك عبثًا، ولكنّ الشتاء يفتح شهيّتي للحماقات. كلّما عاد، شعرت بنفسي ممتلئة بك ولا أستطيع مقاومة شهوة الكلمات. البرد، الأمطار، الثلوج وإيقاعات والدي الحزينة على كمانه الذي ورّثني خوفًا مبهمًا من الآتي. لقد تلاشى بعد أن توقّف نهائيًّا عن الحلم. لو تدري كم أحبّك، وكم أنّ عودة الشتاء تؤذيني لأنّي أخاف فقدانك مثلما حدث في شتاء الموت عندما شجّعتك على الخروج والمغادرة وأنت تتعنّت.

كنت أنصحك بالمغادرة، وأنت تقاوم غواياتي بأنّي سأزورك في باريس حتى ولو وضعوا بيني وبينك أبوابًا من حديد، وكأنّك لا ترتاح إلاّ باستدراج الموت.

«هل كنتَ في عقلك يومها؟».

سألتَني وأنا أضمّك إلى صدري لأودّعك. سألتني وأنت تضحك وتخبّئ رأسك بين يديك كما تعوّدت أن تفعل وأنت صغير: ما رأيك لو أبقى هناك، بعيداً، بعيداً عن هذا الموت اليومي ما دمتِ تصرّين على خروجي؟ لا أدري إذا كنتَ تعني ما تقوله، ولكنّي صدّقت أنّ الفكرة اختمرت في ذهنك. لم أتردّد في الجواب. قلتُ لك. سافر. إذا كنتَ حقًّا تحبّني سافر، ولا تَعُدْ.

---

١ - يكفي، يعني يكفي. أنا متعبة.

تتحدَّث عن الحماقات؟ مارسها ولكن أحبَّني فقط. ثم أنظرُ في عينيك وأنا أستدرج ضحكتك الملعونة لتكشف لي عن أسرارها: احذر، شوف والله لو تديرها، ناكلك حيْ. تضحك. أفضّل أن أراك واقفًا وبعيداً، على أن لا أراك أبدًا. قلتَ بحزن رأيته يرتسم في عينيك المتعبتين يومها: الفراق صعب، وأنا لست مهيَّأً لهذا المنفى إلى الأبد. قلت لك: سيكون عزائي الوحيد أنّك حيّ، وأنّك هناك، بعيد عن المخاطر المفاجئة. يعزّ عليّ كثيراً رؤيتك وأنت تسير في الشوارع وتلتفت وراءك في كلّ مرّة خوفًا من يد غادرة. يعزّ عليّ أن تختبئ داخل الظلمة وأنت متعوِّد على النور والحياة. يعزّ عليّ أن تموت في اليوم ألف مرّة، وأموت أنا معك مليون مرّة. يعزّ عليّ أن لا تفكّر إلاّ في الموت الذي يتصيَّدك في كلّ الزوايا المعتمة. ولو كان نديرها، ألا تندمين؟ قلتَ لي لتختبر جدّيّة مقترحي. ضحكتُ بمرارة: يا سيِّدي درْهَا وْسافرْ. ارْحَلْ. رُحْ بْعيدْ. بْعيدْ، وينْ مَا يْشُوفَكْ حَتَّى حَدْ. نْخاف عْليك منْ العَيْنين والقَتّالينْ. ارْحَلْ، وسأنتَظرك العمر كلّه. وعُدْ وأنْت تحمل لي، كعادتك، باقة وردٍ. سَئمتُ وأنا أراك يوميًا تتعامل مع خوفك كقدر محتوم عليك، وأنا أعرفك لا تحمل في قلبك إلاّ ما يوقظ فيك حاسّة الجمال، وكتبًا ملوّنة بالكلمات التي لا تزرع في القلب إلاّ الدفء والسمُوّ. أنت عوّدتني على مقاومة كلّ الأقدار التي تُفرض علينا. أراك الآن تتهاوى كالحائط القديم. سافرْ ودعني أعشْكَ كغيمة أحلم كلّ ليلة بلمسها، حتى ولو كنتَ بعيداً. لستُ مستعدّة لفقدانك بعد أن التقيت بك مرّة أخرى. كلّ ما أطلبه منك هو أن تكون سعيداً وممتلئًا بكلّ ما يثير أشواقك. وتذكّر دائماً أنّ هناك قلبًا كبيراً يحبّك، ولا ينبض إلاّ لأجلك، رغم العيون الهمجيّة ونظرات السحق والخوف والحسد أحيانًا.

في خلوتي، كنت سعيدة أنّك استمعت إلى ندائي الباطني الخفيّ. وأنّي مهمّة بالنسبة لك. أعرف رأسك القاصح عندما يتصلّب ولا يسمع إلاّ لعناده.

أسأل نفسي ماذا كان سيحصل لي لو فقدت وجهك، وسرقك الموت منّي؟ حياتك جعلتني أستمرّ في العيش، أعزف حتى للمرايا مقابل أن أعطي لنفسي الإحساس بأنّي ما زلت موجودة من أجلك. وفي كلّ لحظة أقول ربّما كانت هذه آخر النغمات، آخر الرسائل، وآخر النبضات، وربّما آخر مرّة أهتف فيها باسمك وأقول لك صباح الخير حبيبي وأنت تستيقظ في ضفّة أخرى على نهر كان يعوّضك فقدان البحر. كلّما حادثتك في الموضوع، قلتَ بلا تردّد: نهر السين أيضاً شهم ويحسّسني بأنّي أعيش على حافّة بحر أخضر.

صباح المطر يا عمري. كلّ سنة وأنت بألف خير. وتردّ أنت عليّ: صباح الهبل والجنون والسعادات التي لا حصر لها. كلّ سنة وأنت في قلبي وفي دمي.

هكذا نلتقي وهكذا نفترق.

أرأيت كيف يختم الشتاء بأصابعه الباردة على كلّ الأشياء الجميلة؟ هذه السنة لم تكن مثل السنة التي مضت، فقد مرّت بسرعة، مليئة بالمفاجآت الكبيرة. أرأيت كيف تنسحب الأشياء الجميلة بسرعة غريبة؟ من يصدِّق أنّ كلّ شيء بدأ بسؤال صغير، ثم بموسيقى امرأة ـ تروبادور لا قوّة توقفها عن غيّها وتماديها في العزف؟ ثم وريقة طائشة حطّت بين يديك، ثم أوراق ورسائل وكتابات صار من الصعب عليّ مقاومة اندفاعها فيَّ، لأصبح مثلك في النهاية، مريضة بما يمكن أن تمنحه لي الكلمات من سعادة صغيرة حتى ولو كانت موقّتة، وفي أحيان كثيرة غير كافية. لقد صرتَ فيَّ، وأستطيع أن أشهد أنّي أحبّك أنا التي كانت تظنّ أنّها تهزّ شهوة الرجال، ولا يهزّها رجل مهما كان. فكلّ الرجال كانوا يبدون لي أصغر من جنوني. أراك باستمرار من وراء حزني وقلقي، ووجودك وحده يمنحني قدراً كبيراً من الراحة. ألم تقل لك امرأة قبلي، المؤكّد أنّك عرفت الكثيرات: إنّ

وجودك وحده يبعث على الراحة والاطمئنان؟ لا تقل العكس. صحيح أنّي أغار من نسائك، ولكنّي لست مجنونة لدرجة أن أمنعك من شيء ليس في مقدوري فعله حتى ولو أردت. الغريب، أشعر أحيانًا وأنا أقرأ كتاباتك، أنّ بعض جملك مهداة إليّ مع أنك لم تقل لي ذلك أبداً. رسائلك وكلماتك تؤنسني، وتبعث فيّ القوّة كلّما وهنت. أتعرف كم هو مضنٍ أن تعشق امرأة فنّانًا أو كاتبًا مهووسًا بالحياة؟ إنّها مشقّة كبرى. إنّها مثل الذي يريد أن يلقي القبض على غيمة، تبدو قريبة من يديه، وتستحيل عليه كلّما مدّ أصابعه نحوها. أنت قريب منّي، وفي بعض الأحيان أصير مثل المراهقة، أخرج أبحث عنك في المدينة، أو في الجامعة، أو في البارات التي تظلّل فيها، لحظة القيلولة، مع أصدقائك القريبين إلى قلبك، سينمائيّين، صحافيّين، كتّابًا وغيرهم. أتمنّى فقط أن أجدك أمامي ممشوقًا كنخلة عندما يصيبني اليأس. عندما أتعب، أحلم أن أفتح عينيَ وأراك مارًا، عابراً مسلكًا صغيراً تعوّدت أن أراك فيه عندما أكون سعيدة. وأتظاهر بتفاديك، وأتعمّد عدم رؤيتك لأتأكّد من حبّك لي عندما أغضب منك لسبب تافه أو جدّيّ. لكنّك، كلّما التقيتَ بي، أنسيتني غضبي منك، فأغفر لك حماقاتك الصغيرة بسرعة. ألم أقل لك إنّك ساحر وتملك ما يعطي للمرأة، التي معك، اطمئنانًا كبيراً وراحة.

Est ce qu'on t'a jamais dit ça? Avec toi on se sent en sécurité. Ce qui rend une femme plus confiante c'est aussi cela. Nos hommes sont en grand déficit d'amour, parce qu'ils ne savent pas rendre visible leur côté intime[1].

١ ـ هل قال لك أحد مثل هذا الكلام؟ معك يشعر المرء بالأمان. الذي يعمّق ثقة المرأة هو هذا الإحساس. رجالنا يعانون نقصًا فادحًا في الحبّ لأنّهم لا يعرفون كيف يعبّرون عن جزئهم الحميمي.

الساعة الآن تخطّت الثانية عشرة ليلاً، مفسحة الطريق نحو سنة جديدة تأتي من بعيد محمّلة بالأشياء التي لا نعرفها، بعضها يسير بسرعة جنونيّة، وبعضها الآخر يقهرنا ويقتلنا ويعمّق عزلتنا. أحاول أن أستحضر وجهك لكي لا أنساك أبداً، وصوتك المنكسر قليلاً وبهاء الجنون الذي فيك.

أين كنت مختبئًا عنّي كلّ هذا الزمن؟ كنتَ معي؟ لا. كيف إذن كنتُ أراك ولم تكن تراني؟

ستضحك منّي كثيراً إذ أبدو لك، بعد كلّ هذا الزمن، مراهقة تحاول اقتفاء دقّات قلبها خطوة خطوة. ليكن، أنا منذ أن عرفتك لا أندم مطلقًا أنّي مراهقة وعاشقة تائهة. اعتبر رسالتي هذه كما تشتهي، صنّفها مع الرسائل الصغيرة الملوّنة التي تصلك من حين لآخر من امرأة لا تعرفها ولكنّها قرأتك، وأحبّتك من حروفك، ومن شخصيّاتك، حتى اختلط عليها الأمر هل هي تحبّ الكاتب أم ما يكتب. كلّ شيء معك ملتبس. نحبّ ما تكتب، لكنّنا عندما نراك ونعاشرك، ينتقل بسرعة حبّنا من شخصيّاتك إليك. أنا أشتهي فقط أن أقول لك ما يملأ قلبي، لم أعد قادرة على تحمُّل شططي الذي أصبح ثقيلاً جدًّا. هل هناك فرصة أجمل من السنة الجديدة التي تفاجئنا بهزّة نادرة ونحن في أقاصي الزعل والغضب. هل هناك أجمل من استحضارك حيًّا بدل البكاء على قبر؟ لو كنتَ تدري ما يفعله فيَّ غيابك، لتركتَ كلّ شيء وراءك، ولركضتَ نحوي مغمض العينين، حافي القدمين.

سنة أخرى تأتي، وشتاء آخر يقفز أمامنا، وكم أتمنّى أن أراك تستقبل بقامتك المديدة ولباسك الأبيض الأنيق، أمطارك الطفوليّة التي تشتهيها، وتنهي أغنيتك التي بدأتها قبل عشرين سنة، وأقف أنا بجانب الحائط العتيق وأتأمّلك، وأنت تنطّ، وتركض مع الأطفال، وعلى رأسك الزربيّة الحمراء التي تقوّي شهيّة الأمطار.

كم أريد أن أسمعك وأنت تغنّي أمطارك الملوّنة:

يا النوّ صبّي،

ما تصبّيش عليّ...

حتى يجي خويا حمو،

ويغطّيني بالزربيّة...

سينو، عمري،

في فاتحة هذه السنة أرجو أن تهتمّ بصحّتك.

أرجوك، لا تُتعب نفسك كثيراً، لا شيء يستحقّ أمام ندرة الحياة. أرجوك، لا تُتعب قلبك إلاّ بالقدر الذي يجعلنا قريبين أكثر. صحّتك تهمّني كثيراً، وأنا امرأة لا تطاق، أعرف نفسي جيّدًا ولكنّي أحبّك. كم تريدني أن أتكلّم، وكم أريد أن أصمت وأن أعيش في هذا الداخل الذي يضحك ظاهراً، ولكنّ الحياة لم تمنحه حظًّا كبيراً؟ ماذا أقول لقلبك الحزين؟ أحبّك؟ كلمة لا تكفي لتكنّس هذه الغربة الشاقّة التي تملأني. سعيدة؟ لأنّي هذه المرّة سلكت المنعطف الذي كان يجب أن أسلكه لتتيح لي الدنيا فرصة لقائك؟

تتسلّل الأصابع إلى الصدر وتتحسّس القلب الذي لم يعد يأبه كثيراً بالموت، ياه! ها أنت ما زلتَ هنا كما تركتك في المرّة الأخيرة مثل اللوحة النادرة. لا شيء فيك تغيّر أبدًا. شعرت بشوقك وأنت تحضنني لياليَ بكاملها، وتهرب بي من نزل إلى نزل وكأنّ باريس كلّها لم تكن قادرة على احتضان شوقنا الهارب. أراك الآن، بقسمات وجهك الصبوح وجمالك الهادئ وأنفك الصغير الشامخ، بعد أن هدأت كلّ العواصف التي حوّلت

البلاد إلى وادٍ من الدم. سنوات مرّت، ولا شيء تغيّر. الوقت مسافة تموت، والذكريات حنين يتفجّر، يرهق النفس ويرعش القلب. ها هو الزمن الذي انتظرته يجيء ولكنّك لست هنا. أغويتك بالخروج، فذهبتَ. انتعلت الريح كشاعرك المجنون رامبو، وغادرتَ المكان. هل كان من الضروري أن تتركني في ذلك المنعطف المقفر؟ ألم يكن بإمكانك أن تردّني عن غيّي وتسحبني في أثرك وتقنعني بأن لا ألتفت ورائي، كما تعوّدتَ أن تفعل؟

ما أقوى عقلك، وما أبأس جدّيته أحيانًا؟

أنت تعرف أنّ والدي تركني وحيدة منذ أن خرج بصمت على رؤوس أصابعه بعد أن حطّ الكمان على ركبتيه وورثّني أحزانه وأنينه. وورّث أمّي حسرة لا تموت أبدًا إلاّ إذا لحقت به. أمّي وجهها يملأني كلّما هرب وجهك وتركني وحيدة. أريد أن أتشبّث بالأحياء. الموت أصبح يخيفني. أمّي... كم هي قريبة منّي وهي تأخذني من يدي، تنتبذ مكانًا صغيرًا بجانب الوليّ الأندلسي الصالح، سيدي عبد المؤمن بوقبرين، وتذكّرني بطلبها قبل ولادتي بشهرين، لأنّي سبقت حساباتها. *يا سيّدي العالي، سأسمّيها باسم المرأة التي نذرت عمرها لك، وخدمت مقامك حتى الموت. لالة ليلى بنت سيدي* أحمد الزكري، وليّ اللّه الصالح. كلّما ألمّت بها الأحزان واليأس، تأمّلت وجهي طويلاً ثم تنهّدت: لم أكن أعرف لا أنا ولا سي ناصر بأنّك ستنزلين ضيفة على الحياة قبل شهرين من ميعادك المعتاد. كنت هشّة وصغيرة إلى درجة أنّ كلّ من رآك تأسّف لموتك المؤكّد، كنت أقرأ ذلك كلّه في عيون الزوّار. لكنّ اللّه وسيدي عبد المؤمن بوقبرين، شاءا غير ذلك. فجأة عندما كبرتِ، ونما جسدك بسرعة، فوجئت أنّك كنت مثل قطرة ماء مع سي ناصر. أنت عزائي في فقدانه. ثم تلملم ملامحها وتنكفئ على خفايا آلامها.

شجني وندائي. سينو الحبيب.

سنة أخرى تمضي وأنت ما زلتَ معلَّقًا في مدى الحيرة والتيه.

سنة تأتي وأنا ما زلت هنا، لم أملّ من انتظار عودتك الصعبة.

كيف أصبحتَ اليوم حبيبي، مع سنة جديدة أراها الآن تتثاءب في عينيك بكسل، بعد ليلة جميلة أخاف أن أسألك عن تفاصيلها؟

منذ مدّة لم نلتق. كيف هو مخبأنا الصغير الذي جمعنا آخر مرّة في باريس، في الحيّ اللاتيني الغاصّ بالذين كانوا يشبهوننا في كلّ شيء. هل تصدِّق أنّي بدأت أنسى آنيا، طالبتك الروسيّة الممشوقة التي حرّكت فيّ كلّ مدافن الغيرة؟ كيف شوارعنا ودروبنا الجميلة التي مشينا فيها ليلاً بسكينة غريبة لم أكن لأصدّقها أنا القادمة من أرض الرماد والرصاص؟ لا أعرف إذا ما كان عليّ أن أحقد عليك أو أعبدك؟ طوال هذه السنوات لا أنا استطعت التخلُّص من وجهك، ولا أنت استطعت أن تحسم أمرك مع نفسك. ملينا حبيبتي، عندما تكبر، سأحكي لها عن كلّ شيء. كل شيء حتى كونها أُنجزت في لحظة حبّ تحت أجمل سماء في الدنيا، وفي عمق غابة استوائيّة بخلجان كثيفة وأرض نقيّة، وجزيرة القدّيسات المليئة بالأسرار. وستغفر لي حماقتي التي مارستها مع الرجل الوحيد في الدنيا الذي هزّ كلّ يقين فيّ.

.... ياه؟ كم أنت غبيّ؟ بعد كلّ ما كتبتَ لي تسألني؟ أنت الوحيد من يفهمني فهل يعقل؟ حتى ولو كانت حماقاتي كبيرة، فأنا لا أملك إلاّ أن أحبّك. القلب الذي وسِع الحبّ الكبير، يسع الغفران الكبير. الحبّ مثل الموت مخيف. هكذا أنا اليوم. ماذا بقي لي أن أقول بعد جملك الكبيرة. سأعيش عليها، وأعمل بما تشتهيه. أنت الآن وسيلتي الوحيدة للحياة. ها أنا ذي أستعيدك مثلما يستعيد مجنون عقله. أستمع إليك: «*مريم، امرأتي الهاربة من حلم مجنون، افتحي عينيك على وسعهما ولو لمرّة واحدة في*

حياتك، وسترين أنّ الدنيا جميلة وتستحقّ أن تعاش. جرّبي، فلن تخسري شيئًا غير قيود السنوات التي تأكلك في هدوء.. جرّبي فقط وسترين. أنا ما زلت هنا، في المكان الذي تركتني فيه في آخر مرّة، عند المنعطف المؤدّي إلى اللاجدوى أو إلى الجنّة، لا أدري. أنتظر بأمل كبير رؤيتك... أنتظرك...».

شفت؟ واش راك داير فيَّ أنت وعود النوار ديالك الذي كلّما وضعته تحت لساني، اشتهيتك واستحضرت قلبك ولسانك الحارّ الذي يشبه الزعتر؟

علمت منك أنّك ستسافر لمدّة عشرة أيّام إلى الصين. بعيدة عليَّ عمري. بعيدة جدًّا ومن الصعب تبرير هذا الغياب المجنون الذي تكاثر، ولا أريد أن أستثير شكوك رياض المنهمك في شأنه الغامض مع الكارتيل الذي، ناهيك عن بيع السيّارات، أصبح يهرّب كلّ شيء، بما في ذلك البنزين على الحدود الغربيّة والشرقيّة. ثم إن أردت أن أتبعك نحو تلك البلاد البعيدة، ونحو سورها الأخّاذ الذي حدّثتني عنه كثيراً، عليّ أن أحصل على فيزا أوّلاً، وعليّ أن أجد مبرّرًا قويًّا لأتمكّن من مرافقتك إلى هناك. صعب وربّما مستحيل. اذهب وعد لي بالسلامة. سأنتظرك دائمًا. أرجوك لا تُطِلْ كثيراً، فوجودك وحده، حتى ولو كان ذلك من وراء المتوسّط، يعطيني الإحساس بالطمأنينة والراحة.

معذرة أيُّها الحبيب الغالي، أنا دائمًا أخطئ حيثما أريد أن أكون استثنائيّة في حبّي لك. لا تزعل منّي. تحمَّل حماقاتي كما فعلتَ ذلك دائمًا. من جهتي، لا أفعل شيئًا مدهشًا ولكنّي أحاول وسط هذه العزلة أن أجعل الحياة ممكنة التحمُّل، وأن أقبّل السنة الجديدة مائة قبلة، ألفًا، مليونًا، وأبعثها لك مع الفجر القادم. سأجعل لك منها فراشًا وثيرًا، وأغطّيك بها حتى تتحوّل إلى فراشة تعبر المتوسّط، وتفاجئني في غفوتي، في فراش الحماقة واللّذّة، وتفتح عينيّ المغلقتين عليك لا لشيء إلاّ لرؤيتك.

هنيئًا لك حبيبي بسفرتك الجديدة. قلّل فقط من خطايا الشراب، واحذر من أن تسرقك صينيّة منّي، هنّ مذهلات وحارّات مثل عود النوار. شوفْ فيَّ مليحْ! حل عينيك! حذار! إذا سمعت أنّك انزلقت مع إحداهنّ، سأخنقك بلا تردّد. وحياتك سأخنقك بأطول قبلة في الدنيا.

دمتَ لي عمراً جميلاً، وشوقًا لا يموت أبدًا.

04h 47mn 09s

- ١ -

«قد أكون في وضع لا أُحسد عليه، بل قد أبدو لمن يراني وسط هذه الحالة من التردُّد أنِّي فقدت بعض توازني وأصبحت دون كيخوته من نوع جديد، غارقة في حرب خاسرة ضدّ طواحينها الهوائيّة، وربّما حتى ضدّ نفسها، لكنّي، في كلّ الأحوال لست مجنونة... لست مجنونة إلا بهَبَلِك القاسي».

لا أدري لماذا أشعر بالفقدان الفادح؟

ربّما لأنّي خسرت حقيقتي وعليَّ استرجاعها؟ لم يخطئ نيتشه عندما اعتبر فاغنر أكبر كارثة على الروح باكتمال موسيقاه. مريم كانت كذلك. فقد كانت جاذبيّتها أخطر شيء على عشّاقها الورقيّين. لم تكن لغة، ولكنّها مأساة الروح المتخفِّية بين الأبجديّات اللذيذة.

قبل قليل، وأنا أتأمَّل سقف هذا القبو، بدا لي كأنِّي شممتُ عطرها القويّ Poeme الذي تركتُه قبل مدّة، لقوّته وكثافة رائحته على

الجسد، وعوّضته بـ Chanel 5، لأنّه أخفّ وأدفأ، وأكثر نعومة على البشرة. تحسّست كلّ شيء. تفحّصت المكان بدون أن أقوم من مكاني ولكنّي لم أر شيئًا، لكنّ العطر ظلّ عالقًا بدماغي. ليس غريبًا، مريم بالتأكيد في مكان ما، حتى في أنفاس هذا الفضاء المغلق، في الألبسة والأواني وكؤوس الويسكي القديمة المصطفّة في أعالي المرفع الخشبي، وكأنّها لم تُستعمل منذ أن وُضعت في ذلك المكان. ربّما هي ورائي، تسخر من جنوني وعبثيّتي التي أصبحتُ أشكّ في أنّها تستطيع أن تقاوم حضورها المفجع.

لا أدري ما الذي يذكّرني الآن بكاتب ياسين؟ أشعر في الكثير من الأحيان بأنّ ابنة عمّه زوليخة التي عشقها في سنّ مبكّرة، تشبهني في كلّ شيء. زوليخة كاتب المسكينة التي وقفت منكسرة على حافّة تابوت لم تعد فيه إلاّ جثة، وبقايا حبّ ذهب مع صاحبه، بعدما سرق منها كاتب ياسين سرّها الخفي، وسلّمه لنجمة. امرأة من ورق شفّاف، وأعطاب كثيرة، وهشاشات مدهشة، غطّت عليها، ووضعتها في المدفن قبل الأوان. أعتقد أنّ ياسين كان هو أيضًا قاتلاً بطريقته العفويّة. أكاد أُجنّ ممّا يفعله الكتّاب بأقرب الناس إليهم: كيف لامرأة ورقيّة لا حياة فيها إلاّ روائح الخمائر الكيماويّة، والحلفاء المجفّفة، والحبر الخفيّ، أن تطحن امرأة حقيقيّة من لحم ودم وفيض من الأحاسيس، وتفتّتها حتى تحوّلها إلى لا شيء؟ هل كان كاتب ياسين يعلم، وهو يجوب عواصم العالم مزهوًّا بنجمته، أنّه كان كلّ يوم يطحن وراءه امرأة حيّة، لم تطلب شيئًا سوى أن تُحَبّ، وأن تُعشق، وهي مستعدّة أن ترمي وراءها كلّ خرافات الحياة الزوجيّة التي منحتها أولادًا عديدين، ولم تمنحها أيّة سعادة؟ لقد خرجت نجمة من آلامها وانكساراتها. الزمن مرّ على جسدها بقسوة. شاخت زوليخة في عزلتها القاسية، ومرّت كالريح وكأنّها لم تكن أبدًا ولم توجد،

ومات ياسين بلوكيميا لم تمنحه أيّ حظّ للشفاء، واستفردت نجمة بكلّ شيء، حتى بميراث ياسين العشقي والحياتي، وأصبحت تتشفّى في ياسين المسكين. أيّة امرأة هذه، وأيّ ورق؟ لن أسمح لمريم بأن تفعل الشيء نفسه معي.

أراني أحيانًا في عمق مأساتها. فقد تواطأت مع من لم يتردَّد لحظة واحدة في قتلي. بحثت لها عن كلّ أعذار البراءة، وكانت تتفنّن في كلّ وسائل الجريمة.

ما يزال عندي قليل من العقل، وأمامي متّسع من الوقت لأشهد أمام العابرين عن عمق هذه المأساة التي تقودني، لو استمرّت، مباشرة نحو الجنون.

لست ملاكًا حتى أترك كلّ شيء يمرّ أمام عينيّ وكأنّه لم يكن أبدًا. لست مسيحًا مستعدًّا عند الحاجة لأن يقدّم خدّه الأيسر ليُصفع، لست كما صوَّرني سينو، أيقونة جميلة موضوعة في كنيسة تمسحها آلاف العيون يوميًّا. ولا امرأة دافئة، لا صوت لها إلاّ حنينها الخفيّ. حماقاتي ربّما كانت أصلاً في جيناتي السرّيّة التي تقودني دومًا نحو الإخفاق والخراب.

سينو لم يُثِرْ معي ماضيّ الدفين ولو أنّه كان يؤلمه من حين لآخر. مع الزمن تعلّم أن يحترم جزئي الخفيّ. رفض من تلقاء نفسه أن يتحوَّل إلى بقّال يحاسبني عن تفاصيل هو نفسه لم ينج منها. كنت سعيدة لذلك، ولكن منزعجة أيضًا. كنت أعرف عنه كلّ شيء، ولم يكن يعرف عنّي إلاّ تفاصيل قليلة كشفتها الصدف. ربّما لأنّه كان منهمكًا دائمًا في تفاصيله اليوميّة، ولم يكن يريد أن يثقل على نفسه، وعليّ أيضًا. أو... أنّه كان على يقين من حبّي له، فلم تكن تهمّه التفاصيل الأخرى. الأسئلة

ليست وليدة الصدفة أو الفضول المرضي، فهي تتكاثر عندما يرتبك يقيننا بالآخر. هو لم يكن في حاجة إلى ذلك. لم أكن أحبّه فقط، فقد نسيت نفسي فيه، ولم أعد أنا إلاّ الجزء الخفيّ من نفَسه، وعطره، وشهواته المجنونة، وأشواقه.

عندما نكون متيقّنين من الآخر، نستسلم لراحة غريبة، ولا نسأل عن أيّ شيء يهزّ يقيننا. تنهض المشكلات، عندما نشعر أنّ هناك من يزاحمنا في حبّنا وأسرارنا. ولهذا، كانت غيرتي دائمًا حارقة وجارفة، لي ولغيري.

أحيانًا أشتهي أن أصدِّق أنَّ مريم ليست فقط سوى شخصيّة من ورق، تشبهني كثيرًا وتختلف عنِّي أكثر. ثم أقول في خفائي: لا بدّ أن تكون امرأة غيري. أبحث في هذا السرّ الخفي عمّا يحرِّرني من قيدها. لكن من أين جاء سينو بكلّ ذلك الكمّ من التفاصيل الغريبة والصادقة في الآن نفسه؟ ربّما من امرأة أخرى؟ من شهوات أخرى؟ من ليال غير ليالينا؟ من أجساد غير جسدي الذي يعرف خرائطه المجنونة بدقّة؟ ما يشغلني ليس لكونه نام معهنّ أو نمن معه، ولكن ما هو الجديد الذي تعلّمه منهنّ؟ أيّ شيء ليس منّي، التصق به إلى الأبد؟ مريم؟ لا أتحدَّث عن شعرها، عطرها، رائحة عرقها وجسدها، ولكن عمّا يبقى فيه منها، ويراه في عينيّ، في ابتسامتي، وفي جسدي. أحيانًا أحسّ بذلك عندما يعود مجنونًا، بعد غيبة طويلة. أشعر بكلّ شيء جديد فيه، وكأنَّني أواجه رجلاً آخر أنام معه للمرّة الأولى. يخرج بسرعة من الرتابة القلقة. أتساءل لحظتها إذا كان الشوق هو الذي فعل فيه ذلك كلّه؟ أم رغبته العميقة التي كان يكرِّرها دائمًا: لكي يستمرّ الحبّ، بما في ذلك الجنس، علينا أن نكون خلاّقين ومبدعين دومًا؟ نفلح أحيانًا، وفي أحيان

أخرى نفشل، لكنّ الرغبة تظلّ حيّة ومتّقدة. ألم أقل لك إنّ الحياة في النهاية استحقاق؟

« ليلي... الحبّ خلق وإبداع متواصل. عندما ندمنه بتكراره، يموت ويصبح رديفًا للبلادة التي تشبه واجبات الزواج. من الصعب أن نحافظ على كلّ تلك الحرارة بدون الإمساك بها في توتّرها وخفقها، وتنظيفها من التكرار الفجّ. لكي لا يموت الحبّ علينا أن نحبّ ونقلّل من الأسئلة والتّهم. الحبّ ليس تهمة ولكنه رغبة إنسانيّة حرّة، نحتاج لجهد كبير لندرك سموّها وعنفوانها.

أنام على صدره. أسمع إلى كلامه الجميل، وقلبه وهو ينبض بسرعة غير عاديّة. أتساءل إلى متى سيظلّ هذا القلب راكضًا بهذه السرعة؟ وهل سيتحمّل، بالرغبة نفسها في الحياة، الأعطاب القادمة؟ أشتهي أحيانًا أن أسأله لأعرف سرّ الهبل الذي يتخفّى في بؤبؤي عينيه عندما تنكسر عليهما أشعّة ضوء غرفة النوم الخافتة، وتنعكس فيهما أعراس الألوان الطفوليّة؟

ـ في قبلتك حبيبي طعم جديد، لم أعهده من قبل، من أين تعلّمته؟ من المرأة التي منحتك هذا الاكتشاف الجميل؟ أيّ جسد تلوّى عليك ليلة كاملة مثل الأفعى، ولم يتركك إلاّ حينما علّمك كلّ الأسرار الخفيّة؟ ».

لكنّي أرفض أن أنغّص عليه أحاسيسه بالراحة الجميلة وهو معي، أو هو نائم على صدري بعد متعة سحبناها إلى الأقاصي، وتمنّينا أن نظلّ فيها.

أقول اليوم ما جدوى ذلك الصمت كلّه إذا كنت أحسّه؟ لم أقله طبعًا في أيّة رسالة من رسائلي. وبقيت مثلما اشتهاني، لكي لا أكسر يقينه الجميل.

ـ ٢ ـ

مريم قتلتني. أعادت ترتيب حياتي بالشكل الذي اشتهته هي.

ربّما ما قاله سينو عن مريم انطلق منّي ومن هبلي وجنوني معه، بل إنّي على يقين من ذلك. لكنّه دفعني أنا أيضًا نحوها، لأصبح مثلها. شبيهتها ولست حتى هي. ظلّها المتمادي دائمًا تحت رجليها، أو مصاحبًا لها، ملتصقًا بالحيطان في صمت جنائزي مقلق، أتبعها مخافة أن تسبقني كثيرًا. أتداخل معها بقصديّة أحيانًا لدرجة التماهي، وأحاول أن أنسى أنّها هي وأنّي أنا. وأنّنا خطّان متوازيان وحينما نلتقي داخل الجاذبيّة، نشعر بالنفور الغريب. أنسى أنّنا كائنان مختلفان في كلّ شيء، حتّى في طريقة التنفُّس واللمس. في المادّة التي صُنعنا منها. صُنعتُ من مادّة هشّة، يلحقها الأذى بسهولة، وصُنعتْ مثل الجنّيّ، من لهب الكلمات ونار القسوة، ونور الأحرف، وبعض خمائر الورق الأصليّة. الأدهى من هذا كلّه، فقد أضفى عليها سينو أشياء جميلة استلّها من أعماقي وأعماقه. وصوّرها كما اشتهاني أن أكون، حتى حوّلها مع الزمن إلى أيقونة أحببتها، ولكنّي لم أكن أشتهي أن أتحوّل إلى مجرّد رماد في داخلها.

هذا المساء، صمّمت أن أحمل هذه الأيقونة الجميلة، أتأمّلها للمرّة الأخيرة لكي لا أندم عليها أبدًا، بعدها، أرميها بكلّ قواي على الأرض، أستمتع بكسرها حتى تصبح مجرّد ذرّات متطايرة، وأصرخ بأعلى صوتي: **مـريااااااااام... اخـرجي من قلبي وذاكـرتي وجـسـدي، ولا تعـودي، أرجووووووك...** أطأ على بقايا الأيقونة برجليّ العاريتين حتى أدميهما، وتصبح البقايا مجرّد فتات دقيق، ثم أجمعها قطعة قطعة، وأدفنها مثلما يُدفن جسد نريده أن يختفي إلى الأبد، لكي نتفادى رؤيته من جديد.

الصدف في حياتي غريبة وكثيرة، وكم أتمنّى من الذين عرفوا مريم في صدفة الكتب والورق، أن يكسروا أيقونة مريم التي رقصت بين أيديهم في لحظات السكون والغفوة والخيبة، وكذبت عليهم مثلما كذبت عليّ، ودمَّرت سكينتهم مثلما خرّبت عليَّ متعة الهدوء. سينو كان سعيداً وهو يحكي عن الذين رأوا لهم شبهًا مع مريم. قد تكون الغيرة هي السبب المحرّك لكلّ هذا الجنون العبثي، المستحيل أحيانًا. ربّما. لكن ليست الغيرة وحدها هي التي تفعل فيَّ ذلك كلّه. رغبتي في الانتهاء من ظلّي الذي يعذّبني، هي محرّكي. لا يمكنني أن أدير حياتين، واحدة سرّيّة وأخرى ورقيّة، وأترك حياتي الطبيعية تندثر؟ أنا مستعدّة للأقاصي بكل مخلّفاتها المحزنة.

- ٣ -

ما دمت في لعبة الصراحة الصعبة، أكرِّر، مرّة أخرى، أنّ سينو لم يعرفني بالشكل الكافي. أعجبتني فقط هزّته الأولى التي أدخلته في دوار طفولي لم يكن قادراً على مقاومته. كانت موافقتي على حبّه هي رهانه الوحيد، لم يكن معنيًّا ببقيّة التفاصيل. أنا أيضًا لي قصّة حياتيّة معقّدة مفروشة بالإخفاقات.

قبل سينو، عشقني في طفولتي ابن عمّي، شابّ يدعى قيس. صديقاتي كنَّ يسمّينه قيس ابن الملوّح، واسمه الحقيقي قيس وليد عمّي موح. كان أكبر منّي سنًّا. لم يكن ذلك يزعجني، لأنِّي كنت أرى نفسي في رتبة ليلاه. صدّق بشكل مجنون أنّي ليلاه التي عليها أن تموت من أجله. يوم غادرته، اختار قبراً مهجوراً لامرأة ماتت منذ أكثر من دهر اسمها ليلى أيضًا، أحرقت نفسها لأنّ عشيقها تخلّى عنها وتركها وراءه

حاملاً. وظلَّ يزوره كلّ صباح إلى أن أنهى حياته على تربته وشوكه. عندما أرادوا غسل جثّته، لم يجدوا مساحة واحدة من جلده لم تُخَطَّ عليها قصيدة من قصائده بأوشام لا تمحّي ولا تزول. غسّالو الأموات كانوا كالعادة أغبياء. قال كبيرهم: إنّ اللّه لا يستقبل جسداً غير نظيف، وأنّ الملائكة تهجر السماء. لو فقط كانوا يعلمون الخراب الذي تسبّبوا فيه، ولكنَّهم عمْيٌ بكمٌ لا يفقهون. أتوا بالحامض، ومزيل اللطخات والصمغ، وأذابوا كلّ الأشعار مع القشرة الجلدية، حتى أصبح جسده كجلد أرنب مسلوخ لا توجد به أيّة علامة. كفّنوه بعدها، واعتبروه نذير شؤم، ودفنوه بسرعة لكي لا ينتشر شرّه. لم يترك وراءه شيئًا، حتى جلده المكتوب دُفن معه. كلّ ما يُتداول اليوم من نصوصه، ليس إلاّ قصائد جاءت بعد موته، من تدوين عشّاق آخرين اختبأوا وراء اسمه.

لم أبك قيس وليد عمّي موح، بقدر ما بكيت شعره.

حظّي دائمًا في المجانين.

أحبَّني بعده شابٌّ يُدعى الهامل. كان مغرمًا بالسينما ويحلم أن يحوِّلني إلى راقصة فلامنكو. أقسم إنَّه سيعيد لي الرغبة في الحياة. كنت أضحك دائماً. أنا راقصة فلامينكو؟ ما بقي للعمياء إلاّ الكحل!

الحمد للّه أنَّ علاقتنا لم تدم طويلاً. عندما اقترب منِّي احترق. كان هشًّا مثل تبن جافّ. وربّما كان مريضاً بأمّه التي سرقها رجل مجهول من أبيه، ولا أحد يعرف مكانهما. حلمه بقتل الأب المعوّض كان كبيراً. كنت مطمئنّة إليه، وخائفة منه. إذا رآني في صورة أمّه يشعرني بحبّه، ولكن كلّما خلونا إلى الفراش بحذر، مثل طفلين، أشعرني بانتقامه أكثر من استدراجه للمتعة. كان يؤلمني ويجد لَذّة في ذلك. يشتهي أن نزيل غشاوة البكارة بسرعة ليتمكّن من حبِّي أكثر، وكنت أمنعه ليس خوفًا

على كذبة يصدّقها الجميع ويعرفون في قرار أنفسهم أنّها لا تعني أيّة عفّة، ولكن لأنّي لم أشعر معه أبداً بذرّة من الأمان. فلم أكن النوع الذي يصلح له، ولم أكن أيضًا أولى نسائه. في إحدى الليالي، سهرنا طويلاً، ولم أستطع أن أنفّذ له ما اشتهى منّي. قلت له بكلّ صراحة:

« ـ حبيبي، ابحث عن غيري. أنت مثل الكثير من الرجال، لا تريد امرأة متواطئة معك في كلّ شيء. تريد امرأة محترفة في الفراش، تنفّذ لك ما تشتهي وتنسى وجودها، وتريد أيضًا قدّيسة لتربية أولادك وتنحني لتنظّف حذاءك. للأسف، لا يمكنني أن أكون لا هذه ولا تلك. المرأة التي أمامك لا تصلح لك. وربّما قد لا تصلح لشيء كبير سوى أنّها تريد أن تدرس الموسيقى، أن تحصل على أعلى الشهادات، وأن تسير في طريق والدها. بل أن تذهب بعيداً وتصبح دكتوراه في الموسيقى مثلاً!

ـ وربّما إذا شاء الحظّ، أصبح دكتوراه في الموسيقى؟

ـ هاه؟ وعلاش؟ الموسيقى مريضة حتى نجيب لها دكتوراه؟

لم يكتم ضحكته، وضحكتُ معه، لكن ليس للسبب نفسه. ضحك من غرابة خياراتي، وضحكت من جهله المؤنّق. ولكنّي تماديت في منطقه.

ـ نعم عمري. أداوي الموسيقى والكلمات والأوزان المختلّة. كلّ شيء أصبح اليوم مصاباً بمختلف الزواحف والأعطاب، وربّما بالخبل أيضًا، إذ لا ضابط للموسيقى والشعر؟ والدي علّمني الشيء الكثير، وحذّرني من الأمراض، وفتح عينيّ على أجمل الأخصائيّين عندما تستفحل الحالات: إسحاق الموصلي، أبو الفرج الأصفهاني، الفراهيدي، ابن جنّي، وسيبويه...

كان سكران ويائسًا منّي.

ـ كوكبة من عشّاقك؟

ـ نعم... لكن، للأسف ماتوا قبل أن أراك...».

كنت أخشى أن يكون عنيفًا معي ولكنّه لم يفعل. في الليلة نفسها، حمل ما تبقّى من قنّينة النبيذ الأحمر الذي كان يحبّه، وخرج نهائيًّا من حياتي. البياض الذي خلّفه فيَّ أنساني فجأة حتى وجهه. كنت أتساءل في خلوتي، هل هو هذا الرجل الذي ظننت نفسي أنّي كنت أحبّه وأنا أفتح عينيّ على عمر جديد؟

بعد مدّة طويلة، سمعت أنّه ذهب إلى الحديقة العامّة التي كنّا نلتقي فيها من حين لآخر، بعد الدروس، وكبّ البنزين على رأسه، ثم أشعل النار، فتفحّم جسده في الحال. سمعت من أحد المارّة أنّه في شهقته الأخيرة نطق باسمي قبل أن تأكله النار(١). لا أعلم إلى اليوم إذا ما كان قد احترق بالصدفة لأنّه كان يدخّن كثيرًا، أو أحرق نفسه كما وصلني؟

---

١ ـ سينو استغلّ هذه الحادثة في روايته: شرفات بحر الشمال وأسقطها على فنّان عراقي أحرق نفسه في حديقة عامّة. حقيقة الأحداث هي كما رويتها، لأنّها تهمّني أكثر من أيّ شخص آخر. عندما ناقشته في الموضوع، قال هذا الرجل المحروق الذي استعملته لا يحمل من صفات صديقك العاشق إلاّ الصفات الخارجيّة، وهي صفات مشتركة مع العديد من الناس، أمّا الحادثة كما رُويت في الرواية فهي لا تنتمي إلاّ للرواية ولا وجود لها خارجها. وأيّة محاولة لفهم ذلك خارج الرواية، هي ضرب من الجنون والعبث. أريد أن أقتنع بما قاله لي سينو يومها، ولكنّ الصفات التي ألبسها للفنّان هي صفات الهامل نفسه. أعتقد أنّ أحد خلافاتي مع سينو يكمن في مثل هذه الأحكام وهذه التصريفات، كما أسمّيها.

لم أكن المرأة الوفيّة للأموات. نسيته بسرعة.

وفائي الوحيد كان دائمًا للحياة، حتى ولو كان ذلك على حسابي. فقد ألصق أصدقائي وصديقاتي بي كلّ التهم التي اشتهوها، من خائنة، إلى شهوانيّة، إلى اللعوبة، إلى الساديّة، انتهاء بالكلمة التي تختزل كل عجزهم: قحبة.

لم يكن ذلك مهمًّا، لأنّ حقدهم في النهاية لم يكن إلاّ صورة مضمرة لما يعانونه داخليًّا من إحباط متكرِّر. كنت كلّما مسّتني سكاكينهم ووصلتني رياح مجالسهم القاسية، ضحكت بمرارة، وحزنت لأجلهم.

جاء بعد الهامل، بشهر وسبعة أيّام وثماني ساعات، نارسيس. نسيت اليوم وجهه واسمه الحقيقي. كان معجبًا بنفسه أكثر من إعجابه بي. كلّ صباح يتأنّق. يتفحّص وجهه في المرآة، وينزع الشعيرات التي على وجهه وداخل أنفه بملقط خاصّ. يقلّم شعر حاجبيه وأظافره. يبتسم لنفسه في المرايا التي وضعها في أمكنة متعدِّدة من بيته. يتعطّر بالعطور النسائيّة القويّة التي تُشمّ من بعيد، ثم يخرج. كان يغيب كثيراً ولا أراه إلاّ بعد مدّة طويلة. وبدل أن يعتذر، كان يعود دائمًا إلى مرآته.

عندما امتلأتُ، قلت له بعد أن تأكّدت من أنّ الحظّ وضع هذه المرّة في طريقي مخلوقًا لم يكن يشبهني في أيّ شيء. كنت أريد رجلاً أحسّ به ويحسّسني بأنّي امرأة كاملة، وأنّي معشوقة ولست إنسانًا لا وجه له إلاّ نفسه:

« ـ اسمع يا ولد الناس، ابحث عن غيري، نحن لا نصلح لبعض. لك الحقّ في أن تشتهي نفسك وجمالك وأنوثتك الخفيّة. لك الحقّ في أن تجعل المرآة مآلك النهائي والجميل، لكن ليس هذا ما أبحث عنه. أنا لا

أفيدك في حياتك سوى أنّي أغطّي عليك حياة سرّيّة تعيشها. علاقة من دون علاقة؟ اللّه يسهّل عليك...».

من يومها انطفأ حتى من المدينة. أراح نفسه وأراحني معه.

أُوقف العدّ عند هذا الحدّ. حالات طفوليّة لم تترك إلاّ البياضات، في حياتي. ومع ذلك، لو تماديت، سأمنح أعدائي فرصة إلصاق كلّ التهم الثقيلة بي. في إرثي مجانين ومنتحرون ورجال شواذّ، وحمقى، ولا يوجد ما يجعلني ملاكًا طاهرًا، كما صوّرني سينو، إلاّ اللغة التي أغرقني فيها حتى سُحِرتُ بها وكدت أن لا أعرف من أكون حقيقة. لست أصلاً من طينة النور، ولا من عجينة الغيم التي يصعب القبض عليها. هذا كلّه أدب وليس حقيقة أبدًا. امرأة أنا، محبّة للحياة، وممتلئة حتى القلب بكمّ لا أُحسَد عليه من الهبل والحماقات. قنبلة موقوتة.

اللغة أخطر غواية. لغة الشيطان وحوّاء، التي سنّت الطريق نحو التمادي في الغواية والعصيان أيضًا. لغة حوّاء وهي تهذّب وحشيّة آدم. لغة هابيل وقابيل التي أدّت إلى أوّل جريمة حبّ في الدنيا. لغة اللّه لعباده التي وضعت مسطرة الحدود. لغة الجسد للجسد، من الالتصاق بثدي الأمّ إلى التشبُّث بنهد الحبيبة، والتلذُّذ بحليب الشهوة. هي دائمًا مثل فاوست، تقف بشكل دائم وراءنا، توجِّهنا نحو ما يجب أن نفعله لكي نوقظ حواسّنا الميتة ولا تترك لنا فسحة التأمُّل. لغة سينو جعلت منّي أنا، ولست أنا. كانت رهاننا المشترك. ظلّ جوهرها صافيًا كمرآة، ولم يستسلم أبدًا لغبار الأيّام الصعبة. لكنِّي... كنت ضحيّتها الأولى.

كان سينو يقول دائمًا: إذا بقيت لي قشّة ألتصق بها في الحياة، قبل الغرق، فهي اللغة. لا شيء آخر سوى اللغة. وحدها اللغة، لغة العصيان والمسروقات الحميميّة، حمتني من حماقات الموت وغوايات التلاشي.

« ـ كان الموت عند الحافّة. بل كان فيَّ. أراه يعبر الأنابيب والأجهزة الملتصقة بصدري، وحتى بعيون الممرّضات اللواتي قضين الليلة كلّها معي في مراقبة ضربات قلبي المتواترة، وتنفُّسي ودرجة الحرارة، واستجابة جسدي لكلّ ما يحيط به. كنت في أعماقي أحسّ بانتشاء كبير لأنّي كنت أنتصر شيئًا فشيئًا على خوف كان فيَّ. كنت أكتب وأنشئ لغة وأنسج نصوصًا سرّيّة ستظلّ في متحفي الذهني، ولن ترى النور أبدًا. ولكنِّي ما زلت أعتقد أنَّ اللغة يمكنها أن تقتل وأن تنقذ صاحبها أيضًا».

أستطيع حبيبي أن أقول اليوم، بلا تردُّد، إنّ اللغة التي منحتني الحياة بفضلك، في جسد امرأة أخرى، هي نفسها التي سحبتني كثور الكوريدا إلى ساحة الموت وكادت أن تجهز عليّ لولا تفطّني في آخر لحظة، أي في اللمسة الهادئة الفاصلة بين الحياة والموت، التي رأيت فيها فجأة شمسك تغرب، قبل أن يتسرَّب شعاع هارب إلى عينيك من سقف زجاجي، ويوقظك من غفوتك القاتلة، ويقنعك بأنّ الحياة ما تزال مستمرة.

قتلتني مريم،

حياتها وأنانيّتها تمرّ قبل أيّ شيء آخر. في هذا، لم تكن مريم سوى قاتلة ذكيّة. ترتكب الجريمة الموصوفة، ولا تترك وراءها أيّ أثر. كان عليّ أن أقوم بكلّ شيء بنفسي. فأنت لم تكن هنا. لم تستمع إلى الأنين الخفيّ الذي كان يتكالب كالحمم في داخلي. فقد بدا لك كلّ شيء مجرّد كوابيس صغيرة، هاربة نحو أفق كلّ ألوانه كانت مغلوطة.

لم تكن هنا أبدًا كما اشتهيتك لأصرخ في وجهك.

كنتَ غائبًا داخل غيماتك البنفسجيّة، غارقًا في تيه اللغة، مستمتعًا بالضياع الجميل، بين الأحرف والجمل والبياضات المحدَّدة بدقّة

كالنوتات الموسيقيّة، التي كنتَ تجمعها برعشة العاشق الولهان، ثم ترمي بها على الورق الأبيض فتصطفّ في حلقات متتالية كالنمل، منفصلة ـ متلاحمة مثلما أردتَ لها أن تكون. لا شيء يعصي على يديك حبيبي، عندما تريد. تفعل ما تشاء بها، فقد كنتَ مولاها وسيِّدها الأكبر. وحدها مريم كانت تعرف بالضبط سرّ ما كانت تفعله معي، وسعة فجوة الخراب التي خلفّها جنونها فيَّ، ونسيانك لي.

ـ قل لي بربّك، ألم تكن تدري أن تواطؤك مع مريم كان يقتلني كلّ يوم قليلاً؟ وجدتْ، في صمتك عليها، طريقها الواسع الذي جرّتني فيه من شعري، ورمتني على الحوافّ المميتة؟

أعرف إجابتك الأنيقة، لا داعي لأن تقولها. سأعفيك من ذلك:

«مريم ليست أكثر من لغة، ظلّ لحقيقة هاربة ومستعصية».

شكرًا عمري. فهمتُ الآن كلّ شيء.

* * *

من مريم إلى سينو

وهران، البهيّة، ربيع ٢٠٠٠

سينو الجميل.

يا مهبول! لو كنتَ تدري أيّة مهبولة أيضًا وُضعت في طريقك، لتفاديتَ مسالكي؟ لقد وضع اللّه في طريقي كثيراً من المجانين الذين انطفأوا بسرعة. وحدك بقيت. لا قيس، ولا الهامل ولا نارسيس، استطاعوا أن يجدوا ما كان يتخفّى من وراء خيط الروح، غيرك. لم تنسني فيهم جميعًا فقط، ولكنّك أنسيتني في نفسي أيضًا.

كنت أظنّ أنّ مصاعب الدنيا قد تجعلك عاقلاً، وتقتل فيك جنونك، وأنَّك ستأخذ بقرار محيطك في أن تعيد رسم حياتك، وتنظيمها، لكنَّك بقيت مجنونًا ولم يقتل منفاك شيئًا من هبلك الجميل، والقليل من العقل الذي بقي فيك، وأنا سعيدة لذلك.

ماذا أقول أمام دهشتك الجميلة؟ يخرب بيتك، لقد جرّدتني من كلّ أسلحتي ولم تترك لي أيّة سلطة لكرهك أو لنسيانك، أو للزجّ بك في تيه البياض.

اليوم أيضًا أطفأت شمعة أخرى لملينا. الثالثة. إنّها تكبر بسرعة، حاملة منك كلّ شيء حتى الخانة التي ترتسم كبيرة على ظهرك، وميلان عينيك اللوزيّتين. امتدادك.

شكرًا على ردّك، وإجاباتك. صدّق أنّي أفهم وأقدّر كلّ ما تقوله، وكلّما وضعتُ ملاحظة، تخيّلت ردّك وعرفت حدود قبولك ورفضك لها. هناك أمور قابلة للنقاش ولكنّ الخيارات تعود لك، ولا أحد بإمكانه أن يغيّر رسم عالمك. مشكلتي أنّي أحبّك، أشعر بقرب منك لا يترك لي مجالاً لأنتبه لشيء آخر. لقد خسرت الشيء الكثير في رحلة الحياة القاسية، ولكنّي لا أريد أن أخسرك. رياض مسافر دائمًا. لقد دخل دوّامة كبيرة، ووسّع خياراته. بعد السيّارات والتهريب وغيره، انضمّ إلى كارتيل السكّر. أصبحوا يتحكّمون في كلّ شيء. تخيّل ماذا فعلوا في المرّة الماضية؟ بعد أزمة ندرة السكّر، جاءهم منافس من كوبا مع شريك جزائري ورث مالاً كثيرًا من والده لم يعرف أين يضعه. نصحه أحد أصدقائه الذي كان يعرف جيّدًا مشكلات الندرة في السوق، باستثماره في السكّر، وأشار عليه بالمستثمر الكوبي. كانوا متيقّنين من أنّهم سيغطّون السوق الوطنيّة بسكّر من نوعيّة جيّدة وبسعر أقلّ. عندما وصلت السفينة التي اكتروها وحمّلوها بالسكّر الكوبي، ظلّت راسية لمدّة شهر في الميناء، قبل أن يدخلها رجال مكافحة الغشّ، ومراقبة استيراد الموادّ الغذائيّة ويكتبوا تقريرًا، بإيعاز من الكارتيل، بأنّ في السكّر سوسة أميركيّة لاتينيّة مدمّرة جُلبت من كوبا، وأنّ درجة الرطوبة جعلت من السكّر غير قابل للاستهلاك. في الليلة نفسها دخل خمسة مسلّحين على الشابّ صاحب المال،

في بيته. لا أتذكَّر اليوم اسمه. وضعوه بين خيارين، وتركوا الثالث غامضًا، لم يكن في حاجة إلى ذكاء كبير لفهمه:

« ـ أنت رجل طيِّب وبريء، ولهذا تركنا لك هذه الفرصة وإلاّ لكان لنا معك شأن آخر. نقترح عليك ما يلي بالترتيب: إما أن تعيد السكّر إلى كوبا حالاً، أو نعوّض لك خسارتك بعد حسم تكلفة السفينة التي بقيت رابضة زمنًا طويلاً في الميناء ومتاعب رجال مكافحة الغشّ، ونستلمه نحن في عرض البحر، ولا تسأل عن الطريقة، أو...

ـ أو... فهمت. شوف يا خويا، يرحم والديك، أنا زوالي ولد باب اللّه وأريد أن أعيش. لا علاقة لي بالتجارة. الصدفة هي التي رمتني في هذه الدائرة المغلقة. كنت أظنّ أنّ المسألة أبسط. أفضّل أن أسترجع مالي إذا كان ذلك ممكنًا، ما شفتوني ما شفتكم.

ـ كلامك جيِّد. هاهي نقودك. كنّا نعرف أنّك رجل عاقل».

ووضعوا في كفّه نصف مبلغ الخسارة. وخرجوا. لم يسأل عن أيّ شيء آخر. لم يحاول حتى أن يناقش حول بقيّة المبلغ. فقد اعتبر نفسه وُلد من جديد. ظلَّت فوهات العوزي التي كانت تبرز من تحت ألبستهم تطارده شهورًا طويلة في صحوه ونومه.

عرف، فيما بعد، أنّ السكّر الذي زادت حدّة ندرته قد بيع بأضعاف سعره، وأنّ سفينة الكوبي أُفرغت في عرض البحر على متن سفينة أخرى كانت تحمل علمًا بانميًا.

عندما سألتُ رياض باندهاش:

ـ لماذا فعلتم هذا كلّه في هذا الشابّ المسكين؟ ألم تحرِّر الدولة التجارة الخارجيّة؟

قال بلا تردُّد:

ـ خلّيك من الفيستي[1]. لست أنا من فعل ذلك، الكارتيل هو صاحب الفكرة.

ـ وأنت ماذا كنتَ تفعل؟

ـ يهمّني فقط أن لا تتدخَّل الطفيليّات في تحديد أسعار السكّر.

ـ هل كنتم ستقتلونه لو فعل غير ما طلبتموه منه.

ـ نعم. كانوا سيقتلونه. لم يفعلوا لأنَّهم عرفوا الصغيرة والكبيرة عنه قبل زيارته. لكنّ احتمال قتله كان واردًا. حتى أنَّ هناك من طالب بتصفيته بمجرّد الانتهاء من تفريغ باخرة السكّر، ولكنّ الكثيرين كانوا ضدّ، لأنّهم رأوا في موت الشابّ فعلاً مجّانيًّا.

عرفت يومها أنّ رياض أصبح جزءًا من آلة جهنّميّة، ربّما كان حلقتها الأضعف، ولكنّه كان جزءًا حيويًّا منها. ولا أستبعد أن يكون ممّن تخطّوا عتبة الموت ليلتها تجاه تاجر الصدفة الشابّ. عندما استعدْت الشريط بدقّة، تذكَّرت أنِّي لم أر ليلتها مسدّس ميكرو عوزي، في مكانه المعتاد، ولم يعد رياض إلاّ مع وجه الفجر. كان معهم.

لا أدري لماذا أحدِّثك عن أشياء خطيرة كهذه، ولكنِّي أشعر أنَّ البلاد تغيَّرت كثيرًا، وأنَّ أشخاصًا غامضين، لا يتجاوزون أصابع اليد، يديرونها بسرّيّة كاملة.

هل تدري أنِّي أصبحت أخاف عليك منيّ؟ لأنّي مسارك نحو الموت إذا أحسّ رياض بأيّ شيء. أحمد اللّه أنّك لم تعد هنا، وأنّ مسافة المتوسّط تضعك في منأى عنهم.

---

١ ـ الكلام الفارغ.

حبيبي وروحي...

دعني أخرج قليلاً من هذا الظلام القاسي.

كم أشتهي أن أكون معك لحظة الكتابة، أحضر لك شايًا، وأضع أجمل موسيقى، وأنسحب على أطراف أصابعي حين أراك غارقًا في نصّك. وعندما تنتهي، تأتي منهكًا وسعيدًا ومحمّلاً بالدهشة، تستلقي بقربي وتحكي لي عمّا تكتشفه، ليس بعيدًا عن ذاكرتك وقلبك. أستمع إليك بحبّ. أمسّد على شعرك إلى أن تنام كطفل، وحين أستيقظ لا أجدك أمامي. أرى النور مضاء، فأعرف أنّك عدت إلى هبلك من جديد وغرقتَ في الكتابة على الرغم من نصائحي لك بالراحة. أبتسم من أعماقي: لا فائدة من نصحك. مهبول، اللّه غالب. ومهبولة المرأة التي تربط مصيرها وحياتها بك؟ ومجنونة أيضًا، تلك التي تفكِّر بأنّه بإمكانها أن تحبّك للحظة، ثم تمضي لحياتها.

حبيبي، شوقي إليك يعذّبني بلا هوادة. لو كنت أستطيع المجيء إلى باريس الآن لما انتظرت لحظة واحدة، ولأريتك أنا أيضًا أيّ جنون يركبني، ولسحبتك نحو طفولتي التي تخاف منها وعليها، ولرسمت في قلبك، وعلى جسدك، كلّ ألوان قوس قزح، ولركضت بك في الشوارع حتى نتعب، ولمارسنا كلّ الجنون الذي يمكن لعاشقين أن يمارساه، ولأربكنا كلّ القوانين العشقيّة، ولهدمنا كلّ اليقينيّات الوهميّة.

لو فقط كنت أستطيع المجيء؟!

أشعر أنّ الدنيا لم تعد تسعفني. ولا حتى العالم الذي يحيط بنا، والذي أصبحت أخافه.

أرى، في كلّ العيون البريئة، وجه تاجر الصدفة المسكين، وأرى في الكثير من المارّة الغامضين، بعض الوجوه المنتمية إلى الكارتيل.

حدَّثتني قبل أيّام عن رغبتك في كتابة رواية مجنونة باسم مستعار. لماذا تصرّ على ذلك؟ ألم يكفك ما فعلته بي أيُّها الشقي؟ لماذا تريد اسمًا مستعارًا لتكتب جنونك؟ رواياتك كانت مجنونة أيضًا ولكنّك استطعت أن تهرب منها ومن شبحها، دون أن تهرب من اسمك؟ يكفيك سينو. أغلبيّة الذين لا يعرفونك يظنّون أنّ اسمك مستعار، ألا يكفيك هذا؟ أيّ جنون يدور برأسك؟ أتمنّى أن أعرف. طول العمر لك لتعيش حياتك كما تشتهي، وتكتب، كما تشتهي، أشواقك وأشواق أولئك الذين لا لغة لهم. أثق كثيرًا بأنّك ستعيش طويلاً، تذكَّر ذلك، وأتمنّى أن أموت قبلك، لتتحمَّل أنت خسارتي، فأنت قادر عليها، أمّا أنا فلا. أفكِّر بجنون فيك وأتكوَّم على نفسي كلّما شعرت أنّ شوقك صار أكبر من طاقاتي كلّها لتحمّله، وأحترق ريثما تعود. لا ثمن لحبّي، ولكن أقبل بالأشياء التي تأتي من عمقك ولو كانت قبلة واحدة، قبلة دافئة بلا بداية ولا نهاية، ولا نحتاج للعدّ حينها، قبلة تعيد حرارة الجسد الذي برد بالغياب. أنا لا أحبّ البرد ولا أنت، ولذلك سيكون جميلاً أن نتدفّأ أحدُنا بالآخر مرّة أخرى، ياه؟ هل هناك مبرّر يمكن أن يقتل كلّ هذه الأشواق ويمنعها من الحياة؟ أيّ امتحان يضعنا فيه الله وهو يعرف أنَّنا أضعف من أن نواجه أشياءه الجميلة بعيون مغمضة، وأنت أجمل ما منحني في حياتي.

أشكرك لأنَّك تفتح قلبي وتهزّني هزّات جميلة لا أعرف كيف أعيشها وأنت بعيد عنِّي. كلّ يوم أحبّك أكثر، وأفتِّش عن حلول ممكنة لورطتي معك وهشاشتي نحوك، التي لا أظنّ أنّها ستشفى. ليكن، أقبل بهذا القدر الجميل. أن نمرض بإنسان حيّ، أجمل من أن نمرض بغيابه الأبدي. وأشتهي أن أبقى هنا معلَّقة أمام عينيك، بكلّ هذا العري الداخلي الذي لا أخجل منه مطلقًا، وأجننك أكثر حتى تعود إليَّ بسرعة. عد أيها الأهبل، لك امرأة تنتظر عودتك مع كلّ ريح تهبّ، في كلّ قطرة مطر تتمزَّق على الأسطح القرميديّة. عد، لم

أعد قادرة على تحمُّل غيابك، لن أكون شرّيرة ولا طمّاعة. سأسرقك كلّ صباح فقط وأعيدك مساء. لا أحد ينهب منّا أشواقنا، وأشياءنا الجميلة التي نرفض أن تُسرق منّا ونصرّ عليها. حين تُسرق منّا الأشواق، فهذا يعني أنّنا لم نعد نرغب فيها.

سينو حبيبي،

كيف تنسى مريمتك بهذه السهولة؟ أستغرب أنّك لم تكتب لي طوال هذه الأيّام. أتمنّى فقط ألاّ يكون لتعبك علاقة بالأمر. وصلتني رسالتك الجميلة منذ مدّة وأشعرتني يومها أنّي ملكة، وأنّ كلّ الدنيا لا تعادل إحساسي بك. لا عليك. ارتح قليلاً، واكتب لي حين يشتهي القلب ذلك. أنا هنا في هذه المدينة التي أصبحت كظلّي، متعبة من الركض بين الكونسرفتوار، ودار الأوبرا التي يسمِّيها الناس هنا في وهران، مسرحًا، وأشعر أنّ التسمية تُنقص قليلاً من نبلها وجمالها. لقد جعلني جنونك أسعد مخلوقة في الدنيا، ثم رحلت كما تعوَّدتَ أن تفعل، ولا شيء تغيَّر سوى أنَّ شوقي نحوك صار أكبر من طاقات البشر الضعيفة. أفكِّر فيك، وكلّما تذكّرت قُبلك المسروقة، تحسّست شفتيّ وابتسمت، وأحسست أنّك لم تغادرني مطلقًا، فأنت هنا، في القلب، في نفَسِي، بين شفتيّ، ابتسامة أو قبلة هاربة.

حياتي وقلبي...

أشعر ببعض القلق عليك، من وضعك الصحّيّ، ولكنِّي متفائلة هذه المرّة والقلب العاشق لا يمكن أن يخذلنا الآن ونحن بكلّ هذا الجنون. اهتمّ كثيراً بنفسك من أجلنا معًا. ومن أجل كلّ الناس الذين تصنع في قلوبهم إحساسًا جديداً بالحياة. يفترض أن أكسر رأسك وتلفونك ورأس صاحباتك

الخليـجيّات والمغـاربيّات، وقـارئاتك الجريئـات اللواتي يبـعثن لك بالـرسـائل المجنونة، ولكنّي سأوفِّر غيـرتي هذه المرّة. الغيرة لا تنفع عن بعد. ما ينفع فقط هو مزيد من الحبّ لتحمّل المسافات القاتلة والعزلة المفروضة علينا من كارتيل العواطف الذي جيّر كلّ شيء لمصالحه وحساباته المعلنة والخفيّة.

أيُّها الأحمق، لو تدري! ولكنّك لا تدري لأنّك بالفعل أحمق.

مـا أخـطر مـا تفـعله بي! مـثلك أحسّ أنّ شـيـئًـا كـان ضـائعًـا بيـننا ووجدناه، لا أريد من الدنيـا سوى أن تمنحني قدرًا إضافيًّـا من الجنون لأعيش حمـاقة حبّك كـاملة وجميـلة كـما أشتـهي. لا تعرف ما الذي أختزنه لك في هذا الجسد الصغيـر، والمليء بالحيـاة، من جنون ورعشة بحيث يكون لدينا في كلّ لحظة إحسـاس جديد وصـافٍ. لا أريد أبدًا أن أقتل جمـال الأشيـاء وهشـاشتـهـا وإلاّ قتلت حبّي. لكنّ الدنيـا بنت كلب، وضعـتني أمام أسوأ الخيارات.

لا يعني لي الزواج إلاّ هروبًا من ضـيـق لا يُحـتـمل، حـلاً لا أملك غيـره لأتحـرَّر قليـلاً. الأمـومـة شيء جـمـيل، وأنا لم أكـن أشـتـهي إلاّ ملينا ليـكـتـمل إحساسي بك. شكرًا لهبلك المتمادي بلا حساب، فقد منحني ما اشتهيت في أقسى الظروف وأصعبها. اطلب منّي أن أطلّق رياض، أيُّها الأحمق، وسأفعل حالاً بلا تردُّد، ولست مجبرًا على الزواج منّي. أشتهي فقط أن أغمض عينيّ، وعندما أفتحهما، أجدك فيَّ بكلّك. أريد أن أكون لك، وبلا خوف، وألاّ أمنح جسدي لغيرك ما دمت أحبّك. شيء من الخوف يمنعني، ولكنّي متأكّدة من أنّ ذلك سيحدث يومًا ما. أشتـهي لحظة عذبة لا أفكّر فيها إلاّ بك، ولا أحسّ إلاّ بك وأنت تفتح طريقًا من النور واللّذّة في جسدي. ستكون أحمق لو ظننتَ أنّي لستُ مثلك، عاشقة وهبليّة المزاج.

أينك الآن؟ أتمنّى أن تكون في المنزل مرتاحاً وأن تقرأ رسالتي، وأن أخرج كالعطر من كلماتي وأمتطيك وأنت جالس هناك أمام جهازك العجيب الذي أتاك بالمرأة التي تحبّها والتي رحلت عنها وفي عينيك بريق الحبّ والشهوة المتفجّرة.

أقبلووووووك، أمصّ لسانك، وأعضّ على شفتيييييك بجنون، وأطلق العنان لكلّ القبل المؤجّلة وكلّ القبل التي حلمنا بها. على سريرك، أعرّيك، وأقبّل جسدك نقطة نقطة، وأتحسّس مساحاته، وأتعرّى أمامك، وأراك وأنت تضع الحلمة في فمك وترضع بنهم، وتغيّر النهد بالنهد، وأصابعك تتأكّد من تفاصيل جسدي التي غادرتها آخر مرّة. تحسّسني برعشة. لن أصرخ كما تفعل النساء عادة، سأئنّ فقط وأترك أنفاسي تتقطّع بين يديك وشفتيك، ولا أتركك إلاّ بعد أن نُشبع جوع كل هذا الزمن الذي ينفلت بين أيدينا ولا يرحمنا إلاّ قليلاً، وحين نفتح عينيك باندهاش، نكون قد اكتشفنا عشقًا جديداً في قلبينا وجسدينا. لو فقط أستطيع أن آتيك الآن لأريك من أكون؟ أردتَ أن تفسد عليَّ صومي أيُّها الشرّير، طيّب، هكذا سأفسد عليك نومك هذه الليلة لأنَّك لن تستطيع النوم بدوني. الشحّ فيك! واحدة بواحدة، لتحسّ وقع كلماتك المجنونة فيَّ. يخرب بيتك ما ألعنك، ما أقسى غيَّك المخبوء؟

أيُّها الغالي الذي لم يبرح القلب ولا دقيقة منذ أن سرقته تلك البلاد.

هل تدري كم أحبّك؟ هل تدري كارثة الفقدان الكبير؟

كم أشتاق لك حبيبي. لا تطلب منِّي أن أنسى شططي، فأنت جزء منه، ولكنَّك شطط جميل. أحاول أن أكتب قصّتنا، ولكنِّي أخشى أن أضيّعها داخل اللغة، أنا التي بدأت أخيراً أحسّها تورق مثل شجرة ياسمين بريّ. أنتظر عودتك فقط، وسترى إلى أيّ جنون أصل. سلّم لي على مهبولتك وصديقتك

المجنونة إيروتيكا التي ابتدعتها من هبلك. سلّم لي على آنيا أو أنيتا، الروسيّة التي تسرقك منّي كلّما افتقدتني في أرض المنفى القاسية... لا تقل لي العكس. لقد قرأت كلّ شيء في عينيها الهاربتين. سلّم لي على كلّ من يحبّك ويشتهيك. وعلى كلّ المجنونات اللواتي تصادفهنّ في طريقك الضائع. قل لهن إنّ لك حبيبة تغار عليك كثيراً، وقبيحة بزاف. غولة، تكسر رأس كل من تتمادى في تذبيل عينيها، ومغازلتك بأكثر ممّا تسمح به اللباقة.

أعرفك مجنونًا لا يبالي بالأخطار المحدقة بقلبه، ولكن أرجوك، اهتمّ بنفسك كثيراً، من أجلي على الأقلّ. أنت لا تنتبه، ولكنّك متعب كثيراً لأنّك لا تعرف الراحة أبداً.

اعذرني عمري، على كلّ وساوسي التي تأكلني، فأنا أخاف عليك كثيراً.

في النهاية، لست أكثر من امرأة تشبه الكثيرات، عاشقة من رأسها حتى أخمص القدم، وتأكلها الغيرة عندما تعرف أنّ حبيبها يمكن أن يميل نحو امرأة غيرها.

اللّه غالب. أنا هكذا، وعليك أن تبتدع امرأة أخرى تتحمّل جنونك بلا أسئلة.

05h 01mn 07s

ـ ١ ـ

رفعت رأسي قليلاً بعدما شعرت بثقله على جسدي.

لا شيء سوى الوقت الذي يزحف كأفعى عمياء. الساعة الغارقة في جبروت التكرار تجاوزت الآن الخامسة بدقيقة واحدة وسبع ثوان. لا أدري إذا ما كان للوقت قيمة فيما أنا فيه، ولكنِّي أشعر به مثل قطرات الحامض التي تأكل كلّ شيء بهدوء وسكينة، تنزل على ذاكرة كسرتها الخيبة وكثير من المتاعب. لولا تلك اللمعات المسروقة على هامش حياة مكرورة، لكنت ذهبت بلا تردُّد نحو مرقد جدّي سيدي عبد المؤمن بو قبرين، في أعالي جبال امسيرده، وطلبت منه أن يستردّني نحوه بسرعة. وصرخت في وحشة العزلة: **أغثني يا جدّي، لم أعد قادرة على تحمُّل جسدي، لقد ثقلت روحي وتهاوت حواسّي كأوراق الخريف، وماتت أشواقي وانسحبت طفولتي**. هناك، على الحوافّ الحادّة، غوايات الانطفاء كثيرة. عندما أقف على ارتفاع خمسمائة متر قبالة المتوسّط الغربي، وسط

الضباب اللدن والجميل، أستحضر كلّ شيء بما في ذلك إغماض عينيّ والدفع بجسدي، بلا تردُّد، نحو الطيران.

الزمن محنة المنكسر، وربّما الخاسر. قد لا يعني ذلك الشيء الكثير بالنسبة للآخرين، لكنّه يعني، على الأقلّ، أن لا لحظة تشبه أختها في هذه السيولة الأبديّة المستمرّة.

«طبعًا... لست ساديّة إلى كلّ هذا الحدّ، كما يتصوّرني الكثيرون من الذين يتوقّفون فقط على حافّة ما يحدث لي. لا أريد الشر لأيّ إنسان حتى ولو كان كائنًا ورقيًا، بل حتى ولو كان اسمه مريم، ولكنّي أعترف أنّي سجينة في الأعماق، كسمكة يتيمة في شبكة عمياء، تائهة كحيوان مجروح».

قبل قليل كنت أشعر كأنّ داخلي كلّه تحوّل إلى كومة من رماد بلا هويّة.

الآن هدأ كلّ شيء على الرغم من العاصفة الداخليّة. حتى الحركة التي أجبرتني على التوقُّف عن الكتابة، انتفت. لم أعد أسمع شيئًا. ظننتها في البداية حركة الذبابة الزرقاء بعد أن وقعت في كمين طبيعي، ولكنّي عدلت عن الفكرة، إذ عادت السكينة المفرطة التي لا تشوبها أيّة شائبة.

افترضت أن تكون أصداء حركة خارجيّة لقطّ ضائع، يبحث عن قليل من الدفء. لكنّ الهدوء الذي أعقب الحركة، جعلني أغيِّر فكرتي، بل وحتى أنسى فكرة الحركة، إذ لا تعدو أن تكون مجرّد أحاسيس داخليّة لا وجود فيزيقيًّا لها. أو على الأقلّ هكذا أقنعت نفسي.

تراكمت كومة الأوراق والرسائل المحيطة بي، وكان عليّ أن أرتّبها وأخلق بعض المكان على المكتب الذي لم يعد قادراً على التحمُّل.

بدأت أشعر بقليل من التعب. تناسيته بسرعة. كنت في سباق ضدّ الساعة، ولم يكن لديّ خيار سوى أن أواصل. قضيّتي عادلة. وعليّ أن أوصلها إلى المنتهى.

تحسّست الكمان من جديد. شعرت برغبة باطنيّة للتمدُّد قليلاً على الكرسيّ القصبي، والعزف بلا توقُّف. سحبته من عمق المكتب، ووضعته عفويًّا بين الكتف والذقن، تمامًا كما كان يفعل والدي الذي مات منكفئًا على آلته التي عشقها بجنون. لا أدري ما الذي ذكّرني الآن بجون دومنيك بوبي الذي خانه جسده وهو في عزّ عنفوانه. لم يكن لجون دومنيك بوبي حظّ والدي في الموت الهادئ. فقد سُجن في جسد ميّت مدّة طويلة، قتله بمجرّد انتهائه من كتابة سيرته الذاتيّة برمشات عينيه، ومساعدة الممرّضة التي تعاطفت معه حتى النهاية. أحيانًا أقول إنّ العظيم ليس جون دومنيك لأنّه لا خيار له داخل جسد متهالك، ولكن تلك المرأة التي سهرت معه طويلاً، قبل أن تُخرِج من آلامه الصامتة كتابًا، هزّ الأصحّاء قبل أن يمنح المرضى قوّة أخرى.

لم تكن جلستي مريحة، ولكنّها كانت كافية بأن تمنحني فرصة الأنين الذي كان في رأسي، والارتباط بك حدّ الهوس.

وقفت. مشيت قليلاً. أغمضت عينيّ للحظة. شعرت بالفضاء واسعًا جدًّا، مخترقًا بلمبات ونيونات من كلّ الألوان الخافتة. ثبّتُّ الكمان من جديد بشكل أشعرني ببعض الراحة. كان عليَّ أن أملك القدرة على محو كلّ ما كان يحيط بي. الكمان لا يقبل إلاّ بالوضعيّات المريحة ليتمكّن من استدعاء كلّ الحواسّ الحيّة. ثم تركتني أتدحرج في آخر الليل، في عمق التمزُّق الذي احتلّ جسدي.

لم يدم الوقت طويلاً. استحضرت بعض أناشيد الميلاد الحزينة، **كانتو نويل**(١). عزفتها براحة كبيرة. عندما انتهيت، شعرت بإحساس غريب من القوّة وكأنّي لم أكن متعبة. استطعت في لحظات مسروقة، أن ألمس، بحنان نادر، ابتسامة والدي سي ناصر الذي غاب ولم أسمع تنهيدته الأخيرة. هل كان أنيني يصل إلى مسمع الذين بدأوا يستيقظون قبل غيرهم؟ لا أدري.

السكريتوريوم الذي أنا فيه مغلق من كلّ الجهات مثل البونكر(٢).

ـ ٢ ـ

تنفّست ملء رئتيّ وكأنّني أزحت ثقلاً رماديًّا كان ما يزال يملأني.

وضعت الكمان على المكتب من جديد. وعدت إلى حركتي الاعتياديّة.

الكمان الآن ظاهر للعيان، تنام بجانبه قصبته الجميلة، ليس بعيداً كثيراً عن المسدّس الذي أصبحت فوهته مصوّبة نحو الحائط. عندما دققت جيِّداً، كانت الفوهة هذه المرّة موجّهة بالضبط نحو لوحة **إتيان ديني**(٣)، التي جاء بها رياض من مزاد لا أعرفه. الصدفة القاتلة. **أسير الحبّ ونور العينين**(٤). لوحة العاشقين. زوجان من بدو بوسعادة. رجل يسحب نحو صدره شابّة نايليّة جميلة وممتلئة إغواء، بعينين عاشقتين مليئتين بالنور والنداءات المضمرة. تحاول، بلمسة الساحرة، أن تُسكن غليانه بإشارة من

١ ـ Canto Noël.

٢ ـ Bunker (المخبأ).

٣ ـ Etienne Dinet.

٤ ـ Esclave d'amour et Lumière des yeux (1895).

إبهامها، لكي يمنح لحظتهما الجميلة وقتًا إضافيًّا. تنتابني أحيانًا رغبة اختبار ألوان اللوحة بأخذ عيّنة منها والذهاب بها نحو مختصّ لمعرفة تاريخها على الأقلّ! أنا لا أعرف أين يوجد الأصل، هل اللوحة التي في القبو، التي يبدو أنّ رياض قد أهملها قصداً في هذه الخلوة ليعطي لنفسه وقتًا آخر قبل أن يبيعها في مزاد من المزادات السرّيّة، أو تُسترجع بأمر من الكارتيل السرّي، أم اللوحة الموجودة في متحف أورسي[1]، في باريس، التي رأيتها في العديد من المرات؟ عندما سألته يومها لم يجبني بدقّة، وفضّل أن يغرق كلّ شيء في العموميّات، كما تعوّد أن يفعل معي كلّما تعلّق الأمر بتجارته التي كبرت وتنوّعت مع أعضاء الكارتيل السرّي. أعرف أنّه يحضر بعض المزادات الوطنيّة والأوروبيّة والأميركيّة وحتى الآسيويّة المتعلّقة ببيع اللوحات. هناك من يقول إنّ بعض أعضاء الكارتيل يقفون أيضًا على رأس شبكات تهريب الآثار خارج البلاد. انتبهت أيضًا إلى أنّ المسدّس كان موجَّهًا، في الوقت نفسه، باتّجاه كتاب **اسم الوردة** لأمبرتو إيكو الذي كان في الامتداد المستقيم نفسه للّوحة. علاقتي بالمسدّس يشوبها شيء من الاطمئنان والخوف. لا أدري لماذا يلازمني كلّما نزلت إلى السكريتوريوم. أشعر بشيء من الخوف في غيابه معي، لكنّ برودته لا تريحني أبداً.

عدت إلى صورة والدي لأنسى المسدّس البارد. كلّما لمحتُ الكمان على هذه الوضعيّة الممتدّة، رأيت سي ناصر في هدأته الأخيرة. في حالة صفاء كلّي، على الرغم من حالة الحزن التي تنام بين ملامحه المتعبة. كنت في المدرسة، عندما مرّ عليّ خال أمّي الذي أناديه خالي، وسحبني من الكرسيّ، بعد أن وشوش في أذن الأستاذة ببعض الكلمات. لم أتساءل،

---

١ - Le Musée d'Orsay (Paris).

ولكنّي كنت أدرك، بحاسّتي الباطنيّة، أنّ شيئًا خطيراً قد حدث. سألت خالي وأنا أتلعثم وأبحث عن مفرداتي الضائعة:

ـ خالي! هل حدث مكروه لوالدي؟

ـ لا.. لا... ما تخافيش. لا شيء. يريد فقط أن يكلّمك... أن يكلّمك...

ردّدها خالي مرّتين. عرفت بسرعة ما كانت تبطنه لهجته الخفيّة. كان واضحًا أنّه يخبّئ شيئًا خطيراً لا يريدني أن أعرفه. عندما دخلت إلى البيت، كان سي ناصر ما يزال منكفئًا والكمان على صدره كما اشتهاه، وكما أوصى به قبل وفاته. لم أسأل أحداً ولكنّي سألت والدي الذي تسمّرت قبالته. عبثًا ظللت أصرخ وأبكي: **بابا اعزف لي نشيد البارحة، فقد أحببته لأنّه يثير شيئًا غريبًا في حواسّي**. لم أسمع إلاّ تمزّقاتي. احتضنتني أمّي وخالها. بكيت طويلاً قبل أن أنسى تلك الصورة الصعبة. فقد سرقت منه النوبات الأخيرة الكثير من حواسّه وحدّت من حركته. كان يتّكئ على كمانه ويطلب منّي أن أعزف له ما أشاء إلى أن ينام، أو يغفو.

كان الحزن كبيراً والفقدان فجوة يصعب رتقها.

سينو كان متعاطفًا جدًّا مع آلامي وأحزاني العميقة. ولكنّه لم يفهم لماذا بكيت يوم *رأينا فيلم السكافوندر والفراشة*، طوال عرض الفيلم. لم أقل له عن السبب، لكي لا أُخسره متعة المشاهدة إلاّ عندما راسلته. ظلّ يكرّر: ليلي حبيبتي، أرجوك؟ هو مجرّد شريط سينمائي لا أكثر ولا أقلّ، قبل أن أرى الدمعات ترتسم في عمق عينيه هو أيضًا وكأنّه أحسّ فجأة بما كنت أحسّه.

كان والدي قبلتي الوحيدة وسندي العظيم. لم يكن فقيراً، فقد ورث عن والديه مالاً كثيراً وعقارات معتبرة. لم نجد في وصيّته سوى جمل محدودة:

الكمان لحبيبتي ليلي. هي تعرف كيف تزرع فيه الحياة قبل أن تورثه لابنتها. البنات يملكن حاسّة صافية عن الأولاد: حاسّة التوريث الجميل. الباقي لكم جميعًا، أنتم أعرف الناس بتقسيمه وتوزيعه.

الكمان هشّ ويحتاج بقوّة إلى تشغيل كلّ الحواسّ الحيّة في الإنسان. لا يمكنني أن أعزف به لحنًا راقصًا كما يفعل الغجر والآيرلنديّون. حواسّ الكمان رهيفة جدًّا، لا تتحمَّل الصخب. تعلّمت هذا من والدي، وما زلت على رأيه.

ـ ٣ ـ

ليعذرني سينو مرّة أخرى. يعرف هبلي جيّدًا.

ثلاثون سنة وأنا امرأة الظلّ والصمت والورق. لا أمشي إلاّ على الحوافّ، ولا مخبأ لي إلاّ الورق، والظلال التي أتماهى معها بحيث أرى الجميع، ولا أحد يراني. يتحدَّث الناس عنّي، قصدي عن مريم... يشتهونني في غفلة من نسائهم... يحبّونني... يحسدونني على هذا الألق من الحرّيّة الذي يملأني... يكرهونني... الكثير من الرجال تمنّوني في فراشهم... بعضهم رآني أمًّا صالحة لأولادهم. الكثير منهم أيضًا اشتهوا أن يبوسوا الحجرة التي يرجمونني بها، بحثًا عن قبلة من حوريّات الجنّة. الكثير من النساء حاربنني بكلّ شراسة، في حرّيّتي. والكثيرات منهنّ أيضًا رأين نورهنّ الغائب وألقهنّ المتلاشي، في عينيَّ الهاربتين.

هل رأيت ماذا فعلتْ بي مريمتك المجنونة؟

لا أحد من هؤلاء وأولئك سألني من أكون حقيقة، وسط هذا الكورس الجنائزي العظيم الذي تُسجّى فيه أحلامنا المنكسرة؟ ولا أحد كلّف نفسه الإصغاء للنداءات البعيدة التي كان يسمعها بخفوت، ولكنّها كانت تصله. من أكون سوى تلك اللحظة الهاربة التي تمنح نفسها للأدب بعد أن تُسرقَ منها الحياة؟

تعبتُ! باسْطا!

لم أتحدَّث يومًا عن نفسي كما يفعل جميع الناس العقلاء. بلغ السيل الزبى. من حقّي أن أتحدَّث عن جزء صغير من قلقي الذي يأكلني.

منذ أن اخترت أنا وسينو مسالكنا المختلفة للزواج، صارت كلّ حياتنا مسروقة ومليئة بالمخاطر والخوف. أصبحت أفراحنا وأشواقنا تُحسب بالثواني والدقائق والساعات. لم يكن الحبّ سعادات متكرِّرة، ولكنّه كان ظلاً ثقيلاً يصعب حمله. لا نتجاوزه إلاّ عندما تسرقنا مدينة جميلة في آخر هذه الدنيا الصاخبة.

أحيانًا، عندما تنتابني الأحزان بقوّة، أقول باسْطا من هذه الحياة المرهقة. باسْطا من هذا الحبّ الذي جعل من العذاب لازمة وقتيّة. باسْطا من امرأة توغّلت فيَّ كالمسمار الصدئ حتى تحوَّلت إلى ظلِّي الذي لا يفارقني. الدنيا مع سينو لم تكن كما اشتهيتها، ولكنّها كانت أجمل ما يمكن أن يحصل لي في الحياة. عاشتنا الدنيا كما اشتهت هي، وبمنطقها المجنون، لا كما اشتهيناها دائمًا، ولم تسأل أبدًا عن أشواقنا واهتزازاتنا الخفيّة. كلّما صمّمت أن أتركه وأنساه، زاد التصاقي به وكأنّي أمارس لعبة مستحيلة، أعرف سلفًا نتائجها الوخيمة. هذه المرّة صمّمت على

شيء آخر. فقد اتّخذت قراري بتبصّر كبير، وتعقّل أنا نفسي لم أفهمه، وتفاديت الأحاسيس الطارئة، لأخرج نهائيًّا من شرط سيِّدة الظلّ الذي وُضِعت فيه. صمّمت على شيء جارف: أن أقول كلّ حرائقي الداخليّة التي قد لا تهمّ أحداً غيري. لهذا، تحمَّلت موت سينو الافتراضي في غيبوبة تخيَّلته فيها غارقًا بين حافّتي الحياة والموت، لكي أتمكَّن من استرداده عندما أنتهي من تصفية كلّ حساباتي القديمة. ليست حالة ساديّة كما قد يتبادر إلى الذهن، ولكن مجرّد انتقام من زمن انتعلني، ونسي أنّي امرأة أخرى لا تشبه إلاّ نفسها. كان عليّ أن أفعل ذلك لكي أتخلَّص من كلّ هذا الرماد الذي بداخلي. أدرك سلفًا أنّي لن أشفى من شهوتي للحياة وشغفي بها وجنوني. سيتعاظم يقيني أن لا خيار لديّ إلاّ خيار الحياة في أفقها الأكثر جنونًا. حتى هذا الموت الافتراضي لسينو كان عاجزًا عن تعطيل حواسّي الخفيّة التي كلّما ظننتها اندثرت، وجدتها تنبض بالحياة، حتى وأنا على الحوافّ الخطيرة التي تشبه الموت ولا تريد أن تنطق باسمه؟

كان سينو بعيداً، وكنتُ أموت في العزلة والبرد، ضحيّة لامرأة خانت الخميرة والحلفاء، والورق ورائحة الحبر البنفسجي وطفولة الأبجديّة، ولمسة العاشق الطيِّب الذي خطّها ذات يوم من شعاع ظلٍّ متّقداً في عينيه.

هل بقي لمريم شيء تقوله بعد هذا الخراب كلّه؟

❋ ❋ ❋

من مريم إلى سينو

الحافّة البحريّة، شتاء، ٢٠٠٠

حبيبي.

سينو الغالي.

لو تدري أيُّها المهبول! احمدْ ربك أنك لا تدري. لم يقُدْني نحو هذه الحافّة البحريّة إلاّ شوقك ويتمي في غيابك.

اشتقت إليك، فجئت مع عائشة من وهران إلى الجزائر العاصمة، إلى بيتنا على الحافّة البحريّة، فقط لأشمّ رائحتك وأتلمّس مسامّات جسدك المتعب، وأغلق كلّ جراحاتك المفتوحة. أشتهي اليوم أن أكتب لك رسالة خطّيّة بالحبر الذي نشتهي. البنفسجي. عطره يملأني الآن، ووجهك يجتاحني وأشواقك تغمرني. لا أكتب على الكمبيوتر هذه المرّة. في خطّي اليدوي شيء منّي، وفي تطرّف حبري الكثير من مزاجي.

لقد هيّأت كلّ شيء للّقاء بك هذا المساء.

هل أذكّرك بما يربطنا، لكي لا تنسى أبدًا؟

أرجوك افهمني بدل أن تحاكمني! أنا أيضًا أشتهي أن تكون كلّ لحظات العمر التي نتقاسمها، جميلة. يا مهبول، هل تدري أنّك قتلتني بذلك الفيلم الذي لم يترك فيَّ شيئًا. كان يمكنك أن تختار شيئًا آخر. فقد رأيت والدي وهو يموت أمامي. لم أكن أشاهد الفيلم، ولكنّي كنت أعيش حدادًا قاسيًا لم يتمّ أبدًا، وأعيش موت والدي الذي لم أره إلاّ منكفئًا على كرسيّه قبل أن يُسجّى. على الرغم من أنّي قلت لأمّي في ذلك الصباح إنّي متعبة، ولا أريد أن أذهب إلى المدرسة، ولكنّها ألحّت عليّ أن أذهب، وأنّ والدي بين يدي اللّه وبين دعواتها الطيِّبة.

كان وجهه كابيًا ومنكسرًا، لا أدري القوّة الباطنيّة التي نبّهتني إلى أنّها المرّة الأخيرة التي أرى فيها سي ناصر، ولهذا أصررت على أن أسمع أنينه.

كنت أنظر نحوك من حين لآخر، ونحن نشاهد الفيلم وأستغيث بك، ولكنّك أنت أيضًا كنتَ تضع وجهك بين يديك كالطفل الحائر. أتّكئ عليك برأسي وشعري لكي أخرج من الإسقاطات التي لا مناص منها. تقبِّل رأسي، وتنكسر بجناحك عليّ قليلاً، ثم تواصل المشاهدة بحيث لا أراك ولا تراني. مشكلة الفنون أنّها عندما تتوغّل في الأعماق، تلغي كلّ المسافات الفاصلة بيننا وبينها. كلّ شيء يصبح هشًّا. أتذكّر كلّ كلمة قلتَها لي ونحن نتحدَّث عن الحدود الوهميّة بين الأشياء: أليس الخيال في النهاية إلاّ احتمالاً آخر لحقيقة ممكنة حدثت في مكان آخر، ويمكن أن تحدث لنا؟

طوال الفيلم لم أر إلاّ والدي وهو يتعذّب في صمت قاس.

أغفو وأحاول أن أنسى كلّ شيء لكي لا أبكي. أحاول أن أضحك من حماقاتنا الصغيرة.

أشتهي أن يمنحني الله عمراً آخر لكي أتمكَّن من حبّك أكثر فقط لتدرك أنّ امرأة مجنونة وضعت حياتها كلّها في كفّ رجل هو في الأصل ليس لها وحدها. لن أتزوَّجك لأنِّي أدرك اليوم، وأكثر من أيّ زمن مضى، أنِّي إن فعلت ذلك سأفقدك أو أقتلك. يكفيني أنِّي سرقت منك أجمل هديّة: ملينا. الباقي لم يعد يهمّني أبداً. ربّما كان ذلك هو شرعيّتنا الوحيدة في هذه الدنيا.

لن أطالبك حبيبي بفواتير الماضي فهي ثقيلة من الجهتين.

ماذا فعلتُ بك وماذا فعلتَ بي أيُّها الممحون المجنون؟

أيُّها النائي القريب، أما آن لك أن ترتاح وتريحني معك؟ كنت أريد أن أنساك دفعة واحدة فوجدتني أتجرَّعك قطرة قطرة، بعد هذا العمر كلّه. بعد ثلاثين سنة من الخوف، ما زلت حارّة كهذه الأرض، هل تريد أن أذكّرك بما قلته لي يومًا ونحن في مدينة لم يسرق العابرون أبداً بهاءها؟

ـ أحبّك ولا شهوة لي إلاّ الموت بين ذراعيك، وتحت ظلال عينيك.

أيُّها المجنون ما أخطر ما كنتَ تقوله، ببساطة!

سعيدة أنّ الهروب الأبدي أعادك إليّ من جديد حيًّا وكاملاً. كنتُ أظنّ أنّ الدنيا سرقتك منّي، وأنّ المنافي صنعت لك أعشاشًا جميلة في مدن أخرى لم أعد قادرة على الوصول إليها، لكنِّي كلّ يوم أكتشف أنّ قلبك ما يزال لي.

لقد نزل المطر هذا الصباح على حافّتنا البحريّة، وأرى السحب من هنا وهي تحاول أن تتنازل قليلاً وتلمس هذه الأرض التي تعطش بسرعة. وأحسّ برغبة في لمس غيمة بنفسجيّة كانت معزولة عن البقيّة وقريبة منّي. أشتهي سحبها نحوي ووضعها على رأسي، واعتصار كلّ المطر الذي يسكنها في

العمق. ربّما لأنّني أشعر بالعطش أنا أيضًا، مثل الأرض التي أنتمي إليها والتي نسيت حبيبي أنّك اليوم خرجتَ من منفاك القسري، وأصبحتَ تتجوَّل في الحديقة وترى الفراشات وألوان اللّه. أعرف أنّك كنتَ ستختنق في اللحظة التي تشعر فيها أنّ حرّيّتك سُلبت منك. ينهيك الغبن قبل الموت نفسه. نسيتَ فقط حبيبي، في المرّة الأخيرة، حينما احتضنتني، أن تمنحني قليلاً من الصبر يجعل الأقدار أقلّ قسوة على هشاشتي.

سعيدة لأنَّك بخير، وحزينة قليلاً لأنَّني ما عدت أملك إمكانات كثيرة لمقاومة غيابك. حتى رسائلك صارت تشبه البرقيّات القديمة التي لا تجيب عن سؤال، إلاّ لتتركنا معلّقين داخل ألف سؤال آخر. وأتساءل الآن إذا بقي لك شيء تقوله لي، ومكان تأوي إليه لغتك التي أحبّ. ربّما أتعبتك الدنيا فلم يعد فيها شيء يثير شهيّتك، بما في ذلك أنا؟ ربّما؟ لن أعترض، لسبب بسيط هو أنّ رهاناتي مع اللّه كانت قاسية، فقد طلبت منه فقط أن ينقذك من موت رأيته يركض نحوك بأقصى سرعة، وبعدها سأتحمَّل كلّ شيء، حتى فراقك. طلبت أن ينقذك فقط، ولم أطلب شيئًا آخر، ولا حتى أن تحبّني كما كنّا نفعل في ليالي القدر، عندما كنّا ننتظر أبواب السماء لكي تُفتح لنا ونطلب من اللّه أن يجنّن عشّاقنا علينا. وعندما تسألني أمّي: ماذا طلبتِ في ليلة القدر؟ أتلكّأ ثم أقول لها: طول الصحّة والعمر يا يمّا لك ولكلّ عائلتي، وحفظ والدي من أيّ مكروه، والنجاح في امتحاناتي وحياتي وأصبح عازفة كبيرة مثل والدي. تقول لي وهي منهمكة في ترتيب شؤون البيت: حسنًا فعلتِ يا ابنتي. والدي كان يقرأ كلّ شيء في عينيّ، ولهذا لم يكن يكلّف نفسه بسؤالي، ولكنّه كان يقول وهو يحكّ على رأسي: لا تكثري على اللّه من الطلبات وإلاّ سيعتبرك طمّاعة كبيرة. فتنزلق الإجابة على لساني: لم أطلب إلاّ طلبًا واحدًا. يضحك ولا يسألني لا عن

طلبي ولا عن تناقضاتي الطفوليّة التي أشعر بها بعد فوات الأوان، ثم ينكفئ على كمانه وهو يتمتم: اسمعي هذه يا ملينا، فهي على إيقاعك وميزانك: رمل المايا. وينغمس في إيقاعات مليئة بالحنين.

أشتاق إليك كثيراً، أكثر حتى ممّا تعنيه لحظة مسروقة. أحتاج إلى أن أراك، وأسمع صوتك وأشبع من ابتسامتك، وأستمع إلى حكاياتك التي تروي دائمًا شوقًا بعيداً، أو لحظة منكسرة بدون أن تخسر وجهتها نحو سعادة محتملة. أحبّ أن أصغي إليك وأنت تتحدَّث عن صدفة أخطأتك. عن موت كان أكيداً ولكنّك سخرت منه فهرب. أحتاج إلى أن أضع أناملي المرتعشة على تفاصيل وجهك لأصدّق أنّك ما زلت هنا، وأنّك لم ترتكب أيّة حماقة في حقّي وفي حقّ نفسك.

عمري...

يبدو أنّي أحتاج يومًا إلى أن أنتفض ضدّ خشونة رأسك الذي لا يسمع إلاّ لسخريته من شيء لا يُسخَر منه. أعرف أنّك ما زلتَ تسهر وتشرب، كما في السابق، على الرغم من نصائح الطبيب، وتحبّ الكتابة بجنون كمن يلتصق بالمستحيل. لقد صرتَ فيها وصارت فيك. ألم تفكّر يومًا أنّ الكتابة أيضًا يمكن أن تتخلّى عنك، وتنسى أنّك أصبحتَ مهدَّداً بشيء أكبر منها؟ طبعًا لستَ في حاجة لأن تجيبني، أعرف أنّك لم تطرح على نفسك هذا السؤال، وربّما لن تطرحه أبداً لأنّك على يقين من أنّ الكتابة هي الحياة، والحياة ربّما هي الكتابة أيضًا، ولن تتخلّصا من بعضكما البعض إلاّ بالموت. حتى وأنتَ تحت التراب، ستظلّ أيُّها المجنون، تؤمن بأن لا قوّة قادرة على إرجاعك إلى الحياة سوى الكتابة.

سينو حبيبي.

ليس ضروريًّا أن تأتي إلى حافّتنا السرّيّة لنلتقي. المهمّ أن تكون بخير فقط. ليس المطلوب منك أكثر من ذلك. أضع قلبي تحت قدميّ في هذه اللحظة، وأسحقه بعنف كي يسكن صوته، ولا يتدخّل بيني وبينك، ويعطي للعقل مهلة، لأنّني أفكّر في نتائج العمى الذي قد نتصرّف به أحيانًا. أن تأتي إلى الحافّة قبل أن تتعافى من المنفى تمامًا، يعني أنَّك تبحث عن انتكاسة أو عن موت مجّاني. تخيَّل كلّ من سيزورك في سريرك مرّة أخرى كلّ من سيتّصل بك من جديد، من المحبّين والكارهين والممثّلين، وما أكثرهم! سيكون عليك تحمُّلهم. هل أنت مستعدّ لذلك من جديد؟ الناس هنا أغبياء بالفطرة، مثلما هم طيِّبون بالفطرة، ولذلك سيقتلونك بطريقتهم التي لا تعرفها ولن تعرفها لأنّ مخّك أكبر من هذا النظام القلق الذي أعرفه جيِّدًا. إذا كان لديك شيء ما يشغلك أخبرني به وسأؤدّيه لك. فأنت لست بعيداً عنّي إلاّ بمسافة نبضة قلب فقط. حتى ولو طلبتَ منّي أن أقول لامرأة ما إنَّك تحبّها وتشتاق إليها، سأفعل. عجبتك هذه؟ جاتك على قلبك؟ لا تصدّق. واللّه ناكلك؟ أنا لست جادّة. وإذا فعلتَها من ورائي، سأركب أوّل طائرة إلى باريس، في مهمّة نبيلة لخنقك أمام الملأ بأطول قبلة وأشدّ ضمّة. أوْعَ... قلتها لك من قبل ولن أملّ من تكرارها.

سينو الغالي...

أرجوك. الحياة ليست سيّئة إلى هذا الحدّ. ابق حيث أنت ولو لمدّة قصيرة، حتى ترتاح من هزّات هذه الأرض القاسية. سأقبل بغلق مكاننا الجميل على أطراف البحر: الحافّة كما تسمّيها، مقابل أن أراك في المرّات القادمة، مليئًا بالنور والحياة والحبّ. أنا لم أتعوّد عليك بغير هذه الصورة.

بقاؤك هناك يعني أن تكون بخير، ولديك أغلى شيء على قلبك يمكن أن تقوم به، الكتابة. ولذلك بإمكانك أن تخترق النكد والرداءة، وتصنع عوالمك كما تشتهي دون أن يمنعك أيّ شخص من ذلك. الرواية التي حدَّثتني عنها تستحقّ أن تكون شيئًا جميلاً يمنحك استقلاليّة وبعداً عن واقع أعرف أنّك لا تحبّ البقاء فيه لوقت طويل. والطفل الذي في داخلك يرفضه بشدّة ويحرن في الركن، كلّما رفض عقلك الحيّ الذي صار وليّ أمرك الحقيقي، أن يمنحك ترخيصًا بالسفر نحو الحافّة، كمن حُرم من لعبة يشتهيها. ابق حبيبي واسمع لداخلك، ولا تكن مجنونًا. الحياة لمسة، علينا أن نديمها قدر ما نستطيع، وأن لا نخسر دفئها بلحظة جنونيّة طارئة وإدمان مفرط؟ طريقتك التي انتهجتها ليست سيِّئة، تأتي لمحاضراتك القليلة التي تجمعها على مدار أقلّ من أسبوع وتعود. الوضع كما رأيت في المرّة الماضية، بدأ يتحسّن، ولكنّه خادع أيضًا، وهو ما لا تريد رؤيته.

وأنتِ؟

تسألني عنِّي أنا؟ يا أحمق! لست بعيدة عنك ولا تحتاج لسفر أو لطائرة، لتراني. تلمّس فقط قلبك وستجدني بالقرب منك. أغمض عينيك وستراني كما تشتهي تمامًا، ممتلئة كحبّة مطر، تنزل على جبهتك، وتسيل على أنفك ثم شفتيك، ثم كامل جسدك، وتشعرك بأنّ الحياة ما تزال مستمرّة، وتغسلك من كلّ الحزن والخيبات، وتشعرك بقليل من الرعشة التي نحتاج معها إلى حضن دافئ. أنا، حبيبي، لم أعد بعيدة، لقد صرتُ فيك وبإمكانك أن تستحضرني متى أردتَ.

أشعر أنّي أثقلت عليك كثيراً، وأنِّي أطلْت بعض الشيء، عذراً، رغبتي للكتابة إليك أصبحت لا تقاوم. مثلك، أصبحتْ وسيلتي لأبادلك عزلتك

ووحدتك. ربّما لأنّني حزينة قليلاً، ولا أدري لماذا بعد أن منحتك الدنيا الطيِّبة أحيانًا، قدرًا جديدًا وجميلاً. وربّما لأنّني أمارس التعويض الوحيد الذي أملك هو حبّك، وحبّك دائمًا، وحبّك إلى الموت فيك لأشعلك من داخلك. لا تكلّف نفسك مشقّة التساؤل، أحبّك وأريدك أن تعرف أنّ لحظة حزني هذه عابرة، لأنّني بعد قليل سألوم نفسي كثيرًا عليها.

سينو الغالي...

لا ترهق نفسك أرجوك. فكّر فقط بالسعادات القادمة. اهتمّ كثيرًا بنفسك، وبقلبك، وبأشواقك الجميلة، من أجلي. وهران لم تتغيّر كثيرًا، وبحرنا على الحافّة ما يزال كما في بدء الرحلة، عفويًّا ومدهشًا. عندما نلتقي، في الأيّام أو الشهور القادمة، تنتظرك مهمّة خطيرة وثقيلة، هي إسعادي. عليك أن تكون بصحّة جيِّدة، حتى تنجح في ذلك. وين تروح منِّي يا دينك؟ فقد ربطتك إليَّ بسحر لا يُفكّ؟ استسلم، فلا حلّ لك في الدنيا سوى أن أراك سعيدًا. دع قلبك يرتحْ قليلاً. منفاك ليس إلاّ صرخة تنبيه لتحافظ على نفسك. عليك أن تصغي لنداءات قلبك بقليل من الحكمة، ولو أنِّي أعرف سلفًا أنّك تقرأني وأنت تقول في خاطرك: أيّة امرأة هذه؟ كيف أصبحت هذه المجنونة عاقلة فجأة؟ أصبح عاقلة من أجل الحفاظ عليك. إدامة حبّنا إلى الأقاصي، ولو كان ذلك على مهاوي الحافّة. أنا سعيدة بذلك. المهمّ أن تظلّ حيًّا. وكلّما حزنت وشعرت بقهر الدنيا، سافرت باتّجاهك أو طلبت منك أن تأتي، لا لشيء، فقط لأسند رأسي على صدرك الطيِّب، على الجهة اليسرى، الأكثر هشاشة وإحساسًا، وأعود في اليوم الموالي إلى موتي المتواتر. هل يكفي هذا لإقناعك بأنّك تعني لي الكثير؟

حبيبي.

نسيت أن أقول لك إنّي قضيت الليلة في بيتنا في الحافّة، فقط لأشمّ رائحتك ممزوجةً بأنداء البحر الليليّة. البحر جميل ومدهش بسكونه غير العادي في مثل هذا الفصل. أنا أجلس بجوار المدفأة القديمة، في الزاوية التي تسمّيها زاوية القطط، لأنها الأكثر دفئًا. دخلت من الخارج مبلّلة من رأسي حتى قدميّ، على الأقلّ هناك سماء رحيمة فوق رؤوسنا. اشتهيت أن أبعث لك برسالة جميلة، مبلّلة بقطرات الحافّة وملح البحر. من حين لآخر نشتهي أن نكتب بالقلم، وبالحبر البنفسجي ونشمّ رائحته المدهشة، فهو يحسّسنا بوجود غريب، على العكس من ألوان الكمبيوتر، فهي جميلة ولكنّها بدون عطر ولا رائحة.

أخبرني عندما تصلك هذه الرسالة، ولا تضحك من جنوني.

قدري الجميل أن أحبّك... الباقي تعرفه جيّدًا.

05h 17mn 33s

ـ ١ ـ

الزمن ثعبان، يزحف بصمت.

الآن فقط انتبهت لشيء غاب عنِّي منذ بدأت ألتفت من حين لآخر نحو الساعة، لسبب لم يكن واضحًا. كلّما رفعت رأسي قليلاً، وجدت رقم سبعة مرتسمًا في مكان ما، في الساعات، أو الدقائق، أو الثواني؟ هل هو رقم الشؤم؟ الغرابة؟ الخوف المبطّن؟ الغموض؟ أم رقم الصدفة التي تسحبني دومًا نحو هبلك؟

لا شيء وليد الصدفة، لكن عليَّ أن أعترف بأنّ المهمّة تحتاج إلى تركيز عميق. يجب أن لا أهتمّ بهذه التفاصيل لدرجة الإغراق فيها والهوس بها، وأركِّز أكثر على ما أنا من أجله هنا. قضيّتي الشخصيّة التي لا أحد يشعر بقسوتها غيري. فأنا في النهاية اخترت هذا المسلك لحسم شيء ينخرني من الداخل.

«أريد أن أصرخ بأعلى صوتي، ملء قلبي وذاكرتي: يا يمّا! لقد تعبت من الظلّ القاسي الذي يتمدَّد كلّ يوم قليلاً فيَّ، حتى ابتلعني وبدأت أختنق فيه».

هل ما أنا بصدد فعله، جنون؟ ورسائلي، أليست هي الحماقة عينها التي تضعني في عمق الدوّامة التي لا أستطيع حيالها الشيء الكثير؟

أتحدَّث بعقل الحسابات وكأنّه ما يزال لديّ ما أخسره؟ سينو في غيبوبته القاتلة التي افترضتها، ورياض أصبح الابن الوفي للكارتيل، وعليه أن يقبِّل كلّ صباح يد سيِّده الذي أشعر بوجوده في كلّ مكان، حتى على رأس لسان رياض عندما يتحدَّث، ولا أعرفه. الكارتيل يتحكَّم في أنفاس البلاد بكاملها، ولا شيء في المدينة يسير بدون إذنه...

لم يعد لديّ ما أخسره. لقد قطعت المسافة الفاصلة بين التردُّد والخوف، وأصبحت في منطقة البياض الكلّي. مستعدّة الآن لتحمُّل النتائج الوخيمة المترتِّبة عن فعلي: نشر الرسائل بكلّ أسرارها، وحماقاتها وهوامشها. بطلاها، في النهاية، شخصان من لحم ودم وهواجس وكوابيس، وليسا مجرّد لغة منزلقة كشعاع شمس، كلَّما حاولنا القبض عليه، هرب منّا. أنا وسينو. الرسائل دليل قاسٍ على أنّ ما حدث لم يكن لعبة لغويّة عفويّة، لكنّه كان حقيقة لها مذاق المرارة، تشبه الموت قليلاً.

نسيت أن أقول إنّ ما يخفِّف من خوفي ومسؤوليّتي، هو أنّ بعض هذه الرسائل سبق أن سرّبه سينو في رواياته، بعد أن حوّره بالإضافة والنقصان. كما شاء، حفاظًا على توازنات خاصّة، كان وحده يعرف أسرارها، ويُحوِّلني إلى ما لم أكنه: امرأة ورقيّة يلهبها هبل الكلمات وجنون السرير. لست أكثر من امرأة عاديّة، سيِّدة اليومي المكرور، تحاول

عبثًا رفع القدم الخشنة التي استقرَّت على صدرها منذ زمن بعيد، وأُجبِرت على تحمُّلها: مريم. هزيمتي التي لن أكونها أبدًا.

عمري، لو تدري...

لست امرأة من ماء وصمغ وحبر وخميرة معجونة حُوّلت إلى ورق!

لست هواء متسرّبًا من فجوات الشقق الموصدة.

لست عطرًا يُشمّ من بعيد، يَسحب وراءه خيطًا من الشهوة المسروقة.

لست لمسة فجريّة هاربة مع النسمات الأولى.

لست همسة طير تائه في سماء ورديّة.

لا، عمري، ولست ملاكًا، كلّما أحسّ بالألم نام على جناحيه ولم يستيقظ إلاّ بعد جيل ونيِّف.

لا شيء أنا سوى امرأة من جنون وفتائل قنابل موقوتة. هشّة مثل غيمة. امرأة عاشقة من رمشة العين إلى شهقة الجسد. تكسر بلا أدنى ندم كلّ من يسرق طفولتها، وتشتعل غيرة كلّما فضّل عليها حبيبها امرأة غيرها.

ثلاثون سنة ونحن ننهب من الحياة حقّنا في العيش سرًّا، وتسرق منّا الصدف القاسية نسغنا الجميل. دخلنا في الفراش نفسه مئات المرّات. في كلّ مرّة كانت اللذّة استثنائيّة، لأنّها كانت منهوبة ولم تكن مستهلكة. كان الموت يتهدَّدنا بلا رحمة في الحافّات المختلفة. كان يمكن أن نسرق من الحياة القاسية عرشًا من الأطفال. أبدعنا في كلّ الحماقات. وأعتقد أنّ الشيخ النَّفزاوي بكلّ مخياله الواسع وروضه العاطر، وأوضاعه التي ابتدعها،

والشيخ السيوطي بأغلفته الفقهية وصراحته العارية، والتيفاشي بهبله وسلطان قوله وجبروت حكمه الجنسيّة، وغيرهم، كانوا تلاميذ صغاراً أمام جنوننا الذي لم يكن له حدّ يوقفه. حاربنا صدام الحضارات بتقريب شقّة الجنون الغربي والشرقي، وأبدعنا صيغنا في الحبّ، الكثير منها غير معروف، يحمل ختمنا السرّي: ***ماركة مسجّلة***، لن نفشيها لأيّ عاشق، وسنسحبها وراءنا نحو قبرينا. أنانيّة! ليكن. هي إرثنا السرّي الوحيد.

ـ ٢ ـ

اكتشفت في نفسي مواهب غريبة لم تكن لديّ من قبل، أو على الأقلّ لم أشعر بها قبل أن نفجّرها في بعضنا البعض كالألغام اللذيذة والقاتلة.

لم تكن حياتنا المشتركة خسارة دائمة على الرغم من شططها القاسي. لم تكن رسائل سينو قاسية بقدر ما كانت تعيدني، من حين لآخر، إلى حالة غريبة من الصفاء المذهل الذي كنت أفتقده شبيهًا بالوضاءات الصوفيّة الغريبة.

سافرنا عبر العالم، ولم نسأل عمّا يمكن أن يحدث في غيابنا. رجعنا، ونحن ما نزال مذهولين من دهشة ما عشناه: هل كان حلمًا أم حقيقة؟ زرنا مدنًا كثيرة، ومتاحف لا تُحصى. وكتبنا نصوصًا مشتركة لم يُنشر أيّ منها. بل إنّنا وجدنا لغتنا التي تحمينا من سلطان العيون الهمجيّة. كلّ شيء مارسناه ونحن في قمّة الرغبة المحمومة للتكرار، ولم نشبع يومًا من بعضنا البعض. كلّما التقينا، شعرنا بأنّ الجوع الذي فينا أكبر من أيّة قوّة بشريّة، لدرجة أنّي كنت أشعر بإعجاب كبير عندما كان سينو يُسأل في الندوات والملتقيات: **من هي مريم التي تتكرّر في كلّ**

أعمالك؟ من أين جاءت؟ ما سرّها؟ هل هي إنسان حقيقي أم مجرّد شخصيّة ورقيّة؟ فيجيب باستعارة إجابة فلوبير[١] الملعونة، عندما سُئل عن مدام بوفاري، فقال: **مدام بوفاري هي أنا**، مرتكزاً على ما قاله قبله لويس الرابع عشر، ملك فرنسا عندما قال: **فرنسا هي أنا**. كان سينو يبتسم بملعنة قبل أن يجيب: **مريم هي أنا**، ممّا كان يدلّ على أنّي كنت أسكنه وأصبحت في دمه. حالة من الحلول.

كنت أسعد امرأة في الدنيا لأنّي كنت أعرف جيّداً أن لا مريم غيري. حتى ذاكرته الطفوليّة كانت تُضحكني أكثر ممّا تؤذيني أو توقظ غيرتي. في هذه لم يكن سينو يعرف الكذب. قبل أن تسطو مريم على كلّ شيء جميل فيَّ وفيه أيضاً. ربّما كانت تلك أجمل صورة أحسستني بأنّي أصبحت شيئاً آخر غير ليلى المبتئسة التي كانت تعيش داخل فشلها العاطفي المتكرّر.

«لكن... أجمل الغيوم وأحلاها قد تكون فارغة وجافّة».

إصراري على الحياة منحني حقّي في الجنون الذي لا أجادل فيه. ميراثي الوحيد من تجربة كانت مليئة بالعواصف والانكسارات والأحلام التي ظلّت معلّقة في الفراغ.

كانت المدن الجميلة ملجأنا الرائع بعد أن أُصبنا بعدوى الأسفار. سافرنا بلا هوادة على الرغم من رقابة العسس القاسية. كنت أخاف عيون الكارتيل المبثوثة في كلّ مكان. ارتدنا مسارح المدن الأنيقة، والمسارح الذهبيّة الجميلة التي أغرقتنا أنوارها. ذهبنا إلى الأوبرا التي سحبني هوس سينو وجنون والدي الرائع نحوها، لأُصاب بمرضهما نفسه. عوّداني على الهبل، ثم ألقيا بي في فراغ التيه.

---

١ - (مدام بوفاري هي أنا ـ Gustave Flaubert (Madame Bovary c'est moi.

شاهدنا الكثير ممّا أنتجه فنّانو هذه الأرض الطيِّبة، وهم في قمّة ألقهم. الموسيقى عطاء استثنائي، نفَس الآلهة في لحظة توحُّدها مع مخلوقاتها: من **حلاّق أشبيليا** لروسيني في روما ذات شتاء جميل وساحر، و**طائر النار**، لسترافانسكي، في المدينة نفسها. كنت سعيدة يومها لدرجة الجنون، على الرغم من أنّي عدت بفجوات كثيرة في القلب، وبأسئلة لم أكن قادرة على فهمها ولا هضمها ولا حتى رتقها. لم يقنعني سينو ليلتها بعلاقته بالشابّة الروسيّة آنيا التي شغلني تعلُّقها به. كلامه عن آنيا كان عاجزاً عن أن يخبِّئ سرًّا أبيض. ثم **الناي المسحور** لموزارت، في فيينّا التي كان دفؤها لا يضاهى على الرغم من بردها القاسي الذي لم يكن سينو يتحمَّله. كان دائمًا يقول بلهجته الساخرة: بردنا أرحم! **طوسكا** لبوتشيني في المسرح الملكي باستوكهلم. **تريستان وإيزولد** لريتشارد فاجنر، في أوبرا بايروت في ألمانيا، التي جنّنتني وذكّرتني بحماقة نيتشه الذي ظلّ معلَّقًا بين عشقه لكوزيما وقداسة الإله المريض: فاجنر. و**كارمن** لبيزيه، في أوبرا غارنييه بباريس. لا أعتقد أنَّ إنسانًا أُصيب بها مثلما مسّتني في الصميم. بقيت زمنًا أعيش على وقع هوسها وجنونها حتى أصبحت من سلالتي الأندلسيّة. **عايدة** لفردي في الأهرامات بالقاهرة. **لاترافياتا** في لاسكالا بميلانو. **بحيرة البجع** لسترافنسكي، في أوبرا فينيسيا. **البؤساء** في برودوي نيويورك. **شيكاغو** في أوبرا سان فرانسيسكو. **الفصول الأربعة** لفيفالدي التي رأيناها في أوبرا كوبنهاجن الجديدة، على حافّة الماء الذي كان يحتضنها من كلّ الجهات. و**شهرزاد** لريمسكي كورساكوف، في مسرح البولشوي الأحمر، في موسكو...

- ٣ -

أتذكّر الآن، وكأنّ اللحظة هي التي استرجعتني بكلّ قوّتها وحيويّتها.

كنّا في روما، ما زلنا تحت وقع سهرة **طائر النار** لسترافانسكي التي أدرج فيها طريقته الخاصّة في استعمال الكمان، أو ما كان يسمّيه سي ناصر بالانزلاق الهارموني Glissando harmonique، التي كانت تقتضي انزلاق الأصبع على الوتر، بسلاسة وبدون ضغط. الأصبع يلامس قليلاً الهارمونيّة الطبيعيّة للوتر فقط. استعمله سترافانسكي لتقليد صوت العصافير، وقد نجح في ذلك. أعطى الانطباع بأنّ الأصوات المتناغمة كانت حقيقيّة، ولم يلجأ أبداً إلى المؤثّرات الصوتيّة الخارجة عن الموسيقى. الأوبرا ملأت ليلتها خواءنا وحزننا. دخلنا بسرعة في سحرها. كنت حزينة ومذهولة في العزف الخفيّ على الكمان. أشعر أحياناً أنّ في صوت الكمان شيئاً مقدّساً وحزيناً، أكثر ارتباطاً بالفقدان، لا أعرف مصدره ولكنّي أحسّه بقوّة. كنت أرى نفسي في السهرة، في غيبوبة. الكثير من المقطوعات كنت أحفظها عن ظهر قلب. لم أكن قادرة على الانفصال عن والدي، سي ناصر، الذي كان يقبض على يدي وأصابعي الرخوة والناعمة، ويوشوش في أذني بصوت يشبه الهمس، ويعيد عليّ ترتيب الأصوات والأوتار في الكمان، ويحذّرني من التسرُّع الذي يقتل الإيقاع لأنّه لا يعطي للنوتة حقّها الطبيعي:

Lylie! Tout doucement mon ange... n'appuie pas trop[1] **ـ**

هكذا يا حنّونة. بهدوء. هذا هو نظام الأوتار.

Sol Ré La Mi

G D A E

---

١ - ليلي... بهدوء يا ملاكي. لا تضغطي كثيراً.

كان همس والدي مثل اللغة المسحورة التي تلتصق بالقلب، في اللحظة التي تخرج فيها من فمه.

ـ عندما تسرعين في الخروج، تجرحين ليس فقط الخيوط، ولكن النوتة أيضًا. السلاسة والإشباع هما الأساس في الكمان، يا روحي.

كان الأمر يبدو لي مستعصيًا في البداية، ولكن مع الزمن، وبفعل الاستماع إلى نصائح والدي، أصبحت الأمور أكثر دقّة ووضوحًا. كنت أدرك بحواسّي جوع النوتة وشبعها، بمجرّد تمرير القصبة عليها.

كانت ليلة روما مذهلة، على الرغم من أنّ الكثير من الأشياء اهتزّت في لحظة من اللحظات. كنت مشتعلة. مشتاقة له بهبل. لم أكن مستعدّة لتقبُّل أيّ شخص يعكّر صفونا. من أجل عيش جنوننا، قفزت فوق كلّ الحواجز الخطيرة، فقط لأكون معه وله وحده، في تلك الليلة. لم يكن قادرًا على استيعاب ذلك، لأنّه كان يتحرَّك بحرّيّة أكثر، ولم يكن بمقدوره أن يدخل في جلد امرأة متزوّجة عليها أن تحرّك الأرض وفق شهوتها لتحصل على قبلة. جئت من أجله بعد أن تركت ورائي كلّ شيء. في الأصل، كنت في برلين مع الفرقة الفيلارمونيّة الوطنيّة. من هناك اصطنعت فرصة الهرب نحوه لأسهر معه ليلة في أوبرا روما، ثم أعود في اليوم الموالي. المسافات في أوروبا سماعيّة أكثر منها حقيقيّة. كلّ شيء بدا لي ملتصقًا وقريبًا. استغلّيت الفرصة لأساله عن آنيا، طالبته الروسيّة التي تحضّر معه دكتوراه وتساعده في عمله في الجامعة. التصقت به كظلّه، منذ تلك الأيّام الصعبة. تجرّأت على فعل ذلك، لأنّي رأيت ليلتها في عينيها بريقًا من العشق لم تستطع إخفاءه عنّي. لم تكن في روما فقط لرؤية أوبرا **طائر النار**، مع أستاذها وصديقها؟ سينو نفسه حدَّثني عنها كثيرًا وعن مكانتها في حياته، وعن جنونها على الأوبرا التي أكلت كلّ

مالها. ولكنِّي كلّما تأمَّلته عميقًا، رأيت علامات الإحراج في عينيه. فجأة علتني، في تلك الليلة، غيمةٌ كثيفة اسودّت بسرعة، كانت تشبه كثيراً غيمة المراهقة. كنت غبيّة. في الحقيقة كنت أطالبه بتوضيح شيء كان مبهمًا في داخله. هو نفسه لم يكن يعرف تفاصيله الدقيقة، ولم يكن يفهم تحوُّلاته. ذهبت من الطرقات الأكثر اختصاراً:

« ـ هل تحبّها؟

ـ ليلي... عمري... هل جننتِ؟

ـ سألتك سؤالاً محدَّداً. هل تحبّ آنيا؟

ـ لو كان ما تظنّين، ما قدَّمتها لك في المرّة الأولى عندما كانت مليئة بالموسيقى والرغبة في الحياة؟

ـ وهل انتهت الآن رغبتها في الحياة؟

ـ ليس هذا قصدي. لها الآن حياتها الخاصّة وشأنها ونظامها. جاءت إلى روما مع صديقها أوليغ لرؤية طائر النار.

ـ لن تقنعني بأنّها لا تحبّك.

ـ ... ...

ـ تريد الصراحة... لم أعد أعرفك؟ من تكون؟ أصبحت غامضًا إلى حدّ لا يطاق؟

اهتزّ سينو بقوّة كمن تلقّى فجأة طعنة سكّين. تفرّسني طويلاً كمن يكتشفني لأوّل مرّة أو يقرأ خفايا ملامحي. شعرت بأنِّي كنت قاسية على قلبه الهشّ. ثم دفن رأسه بين ركبتيه مثل طفل سُرِقت منه كذبته، ولم أسمع إلاّ غمغمته اليائسة.

ـ أنا يا ليلي؟ بعد كلّ هذا العمر تسألينني من أكون؟».

اكتشفت ليلتها أنّ كلّ شيء فينا كان شديد الهشاشة والعطب. كنّا مرضى ببعضنا البعض إلى درجة الهلاك، ولم نكن ندري. لم تكن الغيرة التي أبديتها إلاّ حالة حبّ ينقصها قليل من العقل. لم يخطئ نيتشه عندما اعتبر الحبّ وباء نرفض الاستشفاء منه، ولم يخطئ ابن حزم عندما اختصر المسافة بينه وبين الموت برسالة قال فيها كلّ جنونه، ورمى بعيداً جبّة الفقيه الوقورة، وفهمت جيِّداً لماذا نقول في بلادنا القاسية: **نحبّك و نموت عليك**، كلمّا اعترتنا رجفة عشق متطرّف.

في لحظة ضياع لغوي، كنت أريد أن أعرف من يكون سينو بعد كلّ هذه السنوات من التيه، وهل غيَّرت المسافات أشواقه نحوي؟ كيف كنت أبدو له؟ وماذا كان سيحدث بيننا لو كنت أسحب ورائي رجلاً، أقدِّمه له كلَّما التقيت به: إنّه طالبي؟ لم يكن قصدي طبعًا أنِّي لا أعرفه. كان عليَّ أن أقول له إنِّي لم أعد أعرفه بسبب ما كان يحدث بيننا من تكسّرات وخوف ومسافات تزداد كلّ يوم توغّلاً وذعرًا! كان سؤالي بريئًا مثلي، وربّما ساذجًا إلى أقصى الحدود، ناتجًا عن حالة غيرة ركبتني فجأة من امرأة جميلة، كلّ شيء فيها ينضح بالحياة والحبّ، حتى في الطريقة التي كانت تودّع بها سينو قبل أن تعود إلى نزلها مع صديقها أوليغ؟ لم تكن آنيا امرأة عاديّة، ولم يكن سؤالي له ليلتها مليئًا بالفلسفة والكلام الزائد. مجرّد إحساس بحريق داخلي كنت عاجزة عن كتمه. ربّما كنت سخيفة بسؤالي، لكنِّي كنت أيضًا صادقة. أعتقد أنِّي أعرف سينو أكثر ممّا يعرف هو نفسه. المدن المشاكسة التي كبرنا في أحيائها القاسية ودروبها علَّمتنا أن لا نحبّ فقط بعضنا البعض، ولكن أن نتعلَّم كيف ندافع عن هذا الحقّ الذي يعيشه الجميع، ولا يعترف به أحد. غرابة؟ نعم. ولكنَّها حقيقة مرّة أيضًا؟

هل أقولها ! كانت جميلة وغضّة مثل التفّاحة التي أخرجت آدم من جنّته الوهميّة، وكنت خائفة من أن تسرقه منّي.

عندما أدركت حماقتي، اعتذرت له.

« **ـ سورّي**[1] **عمري، أعتذر يا روحي. لم يكن قصدي أبداً**».

لم أكن أريد أن أخسر ليلة روما ولذّة **طائر النار**. لست أدري ما الذي ذكّرني بروني شار. تمتمت في أذن سينو وأنا أحاول أن أسترجعه إلى أنفاسي ودفئي. كان صامتاً كالندى، وحزيناً كبحر:

« **ـ اسمع حبيبي. اسمع عمري، هذا كلّه لك. أنا طائرك.**

Au plus fort de l'orage, il y a toujours un oiseau pour nous rassurer

C'est l'oiseau inconnu. Il chante avant de s'envoler[2] ».

ليلتها لم يكن سينو كما اشتهيته في طائر النار، حبيباً شبيهاً للأمير إيفان تزاريفيتش، ولم أكن حبيبته زاريفنا Zarevna، التي أثارت شهوته، فركض وراءها ليلاً، في غابة مسحورة، وكاد أن يتحوّل إلى تمثال، مثل من سبقوه، يؤثّث قصر الشرّير كاشتشاي Kachtchei، لولا تدخّل طائر النار ذي الأجنحة الآجرّيّة الواسعة. فقد خلط وجود آنيا في روما، كلّ شيء. وقفتْ ليلتها بيني وبينه حتى في الفراش. رأيتها تعانقه، وتمصّ لسانه وشفتيه، قبل أن تعبر، كالأفعى، كلّ تفاصيل جسده. لأوّل مرّة أخاف من وجودها بجانب سينو. كانت جميلة وساحرة مثل جنّيّات سترافانسكي، تعرف كيف تنوّم معشوقها للإجهاز عليه نهائيًّا. تملك أداة الغواية: جسد غضّ يركّع كلّ ذي سلطان.

١ - Sorry.

٢ - في أقاصي دمدمة الرعود، هناك دائمًا طائر يطمئننا، هو الطائر المجهول، يشدو قبل أن يطير.

كانت تحبّه، ولم يكن قادراً على إقناعي بغير ذلك.

سينو لم يحدِّثني ليلتها عن باليه **طائر النّار** الذي امتلأنا به طوال فترة المشاهدة، ولم يجبني عن جوهر سؤالي عن آنيا، ولكنَّه دخل في كآبة وعزلة لم أعهدهما فيه من قبل.

كانت سطوة الخيبة والحيرة كبيرة.

سمعت تمتمته تأتي في آخر الليل، من نفق بعيد، من قلبه المنكسر:

ـ متعب، أريد أن أنام.

وكان عليَّ تغيير نظام الليلة كلّه. لم أكن أشتهي العودة إلى برلين بشبح آخر في حقيبتي اسمه آنيا. لم أكن قادرة على ذلك أبداً. دخلت روما ممتلئة بسينو، وكان عليَّ أن أخرج منها بالإحساس نفسه على الأقلّ، وإلاّ سأموت.

قلت له، وأنا أتفرّس ملامحه وأعبرها برؤوس أصابعي وكأنّها أجنحة فراشة هشّة، كنت خائفة من تفتيتها وبعثرتها:

ـ انس ما قلته لك حبيبي... لا أريد شيئاً سوى سماع قلبك وهو يدقّ ولا يتوقَّف عند التفاصيل العابرة. ليلتنا أكبر من كلّ هذا القلق الشقي. احك لي عن حبيبي سينو الذي بعث كلّ شيء من أجل أن أجده. عن سينو العنيد الذي اكتشف فجأة أنَّ الصدفة مثل القدر، تصنع مساراتها خارج شهواتنا. احك لي عن طفلي الذي يرفض أن يكبر ويصرّ على أن يظلّ لزعر الحمصي الذي يفرح كلّ صباح وهو ينظر إلى الشمس بعينين مفتوحتين، فقط ليثبِّت لها أنّه قادر على النظر فيها بدون أن تجبره على إغماضهما، حتى ولو جرحتهما الأشعّة. احك حبيبي... حبيبي...

ولا تلتفت إلى هبلي، فهو يقتلني قبل أن يحزنك. انس غيرتي فهي ليست إلاّ صورة أخرى لذلك الجنون الذي يشتعل في داخلي من أجل حبّك... وحبّك دومًا. هل تدري أنّي كلّ صباح، عندما أفتح عينيّ، لا أنظر للشمس بقوّة لزعر الحمصي، ولكن أسجد عند قدمي الصدفة، أقبّل رجليها ويديها، أظلّلها بشعري الطويل ضدّ الرعود والشمس القاسية، وأشكرها فقط لأنّها وضعتنا في المسالك نفسها... احك حبيبي، أنت معي فقط، ولن يحاسبك أحد. احك... طفولتك أكثر حكمة من حماقاتي وغيرتي.

لأوّل مرّة، أرى ابتسامة حزينة ترتسم، تتشكّل بلون اللمبة الخافتة، وبأنوار الشارع الخارجيّة التي انكسرت قليلاً على شفتيه.

وقتها... ووقتها فقط، شعرت بأنّي كنت بصدد الانتصار على الصمت.

* * *

من سينو إلى ليلي

الدوحة، ربيع ٢٠٠٦

ليلي!

وحيد في هذه المدينة بعد أن تركتني باتّجاه برلين. لم تكن ليلتنا سعيدة كما اشتهينا لأنَّها أعادتنا إلى أسئلة البدايات القاسية. ماذا حدث لك؟ ماذا حدث لنا؟ هل بدأنا نتعب ونعجز عن أن نصنع سعادتنا الصغيرة التي لم نكن نحتاج إلى الشيء الكثير لاستدراجها نحونا؟ هل كان من الضروري أن نفترق على كسر عميق؟ ألم تَكْفِنا الهزّات العنيفة التي تؤثّث ذاكرتنا المتعبة؟

بعد كلّ هذا العمر من الشجن والمنافي، تسألينني من أكون؟

لم تكن آنيا أو الجنّيّة المسحورة كما كنتِ تسمِّينها، إلاّ مطيّتنا لإعادة اكتشاف أنفسنا المرهقة، والبحث عن ظلالنا المفقودة. لم تكن آنيا لوحدها ولم تأتِ من أجلي، ولا حتى من أجل أوليغ، ولكن رغبة في ملء قلبها بالنور وجسدها بالأناشيد. ليس صعبًا عليك أيَّتها الغالية أن تتخيَّلي أنّه يمكن لامرأة

مجنونة أن تترك كلّ شيء وراءها، بما في ذلك عملها، والتزاماتها المهنيّة، من أجل ساعتين من المشاهدة والاستماع. امرأة خارج منطق الأشياء. لو لم تر أوبرا *طائر النار*، في طبعتها الجديدة، لانتحرت. قد أبالغ في التفاصيل، ولكنّي لست مخطئًا في الجوهر، فأنا أعرفها جيّدًا.

ليلي الحبيبة...

صوتك يأتيني منهكًا ومنكسراً، يخترق عزلتي وتأمُّلي في حياتنا الهاربة.

ـ تريد الصراحة... لم أعد أعرفك عمري؟ من تكون؟ أصبحت غامضًا إلى حدّ لا يطاق؟

هل تدرين وقع ما تقولينه؟ لماذا لم تطرحي عليّ هذه الأسئلة في وقتها، يوم التقينا لأوّل مرّة؟ ربّما كانت الإجابة أهون وأكثر صدقًا؟ كنت ممتلئًا بك وأنا أستقبلك في المطار وأنت قادمة من برلين. كنت في داخلي غير مصدّق، هل سأرى الليلة ليلى؟ كنت خائفًا من الموت من فرط شوقي إليك، ومن دهشة رؤيتك. لم تكن قدماي قادرتين على لمس الأرض من شدّة الفرحة والدهشة.

لست أكثر من الطفل الذي تعلّق بك فجأة، ثم وضع بين أناملك الناعمة رسالة. مجرّد أحرف مبهمة، لا يدري كيف كتبها وأيّ طعم كانت تحمل، ثم هرب خوفًا من مواجهة رفضك.

تريدين أن تعرفي كيف يدقّ القلب من أجلك؟ من أين جاء ذلك الطفل المجنون الذي وضع حياته كلّها بين يديك؟ أيّ عطر يحمل في كفّه، يزرعه على جسدك كلّما التقى بك، ليدخلك في دواره المستمرّ؟

ليكن عمري، ها أنا ذا أنصاع لسؤالك قبل أن أنسحب من عينيك كما فعلت الأنوار والألوان والأحلام والعصافير من قبلي. أشتهي اليوم أن أضع بين

يديك ذاكرتي المشتعلة التي ترفض أن تذبل، أن تروّضها الأقدار لإطفائها نهائيًا، ربّما وجدنا سبيلاً جديداً لإيقادها وإيقاظها من سهوها وسباتها المزمنين.

قلت لي في آخر الليل، في روما، وأنت تبحثين عن كلماتك الهاربة، أن أعيد على مسمعك حنيني المسروق وشدوي. بعدما سكنتِ، قلتِ لي مثل الطفلة الصغيرة، لنخترق صمتًا أصبح أثقل من أخطائنا: احكِ لي قليلاً عن نفسك قبل أن يأتي غيرك ويسرق ألقك وعنفوانك الجميل ويروّضه كما يشتهي. قلتُ لك من أين أبدأ هذا الخوف الذي فيَّ؟ قلتِ: من حيث تكون قريبًا من أنفاسي فقط. قلتُ: أنا الآن نفَسُك. قلتِ: ليس بالشكل الذي يجعلك فيَّ.

صمتُّ. فقد وضعتني بين شعلتين حارقتين. نار الشوق إليك والالتزام بالحقيقة، ونار الخوف عليك من جنونك الذي كان يزداد كلّ يوم اتّساعًا فينا.

لا أعرف بالضبط من أين أبدأ، وكيف أعرِّف كل مسروقاتي وصدفي الجميلة؟

أنا بالفعل ابن الصدفة.

ضحكتِ وأنت تمدِّين رأسك إلى صدري:

ـ احك عمري... صمتك يخيفني. احكِ... ربّما قرّبتنا الحكايات أكثر من معاشنا القاسي.

تتزاحم الآن في ذهني كلّ الأشياء دفعة واحدة كما في لحظة الموت الأخيرة.

هكذا ينتهي كلّ شيء في رمشة عين ليصبح مجرّد نثار في الذاكرة...

كانت المقبرة ضيِّقة كوطن، والربيع لم يكن ربيعًا.

فتحت عينيّ عن آخرهما، لكي أشبع من الألوان ولكي لا أطلب شيئًا يوم أموت.

لأوّل مرّة ينتابني هذا الشعور وأنا أقف أمام الموت الذي أصبح له جسم ورائحة، وفضاء واضح. شيء غامض كان يشتعل في داخلي كالحرائق الخفيّة، لم أكن قادراً على مقاومته لأنّي كنت عاجزاً عن فهم أسراره.

«هكذا يأتون... وبصمت يذهبون... ثم لا شيء. لا أحد يسأل عنهم، كأنّهم لم يكونوا يومًا ما. إنّ الموت ليس قهراً فقط، ولكنّه محو مستمرّ».

لست أدري كيف جاءتني هذه الجملة وأنا أقف مع حفنة من الأهل على قبر جدّتي، حنّا، سيّدتي وأميرتي في الحكاية. فقد ملأت حنّا الدار محبّة وشوقًا وحنينًا، ولم تطلب أيّ مقابل. كان يكفيها أن نستمع إلى شدوها البعيد، الخارج من شقوق ذاكرة تشبه الخشب العتيق. دفنّاها في مقبرة صغيرة تشبه المقابر الرومانيّة في ارتفاعها وإطلالها على القرية والجبل والبحر المتخفّي قليلاً وراء هضبة أجدادها الأندلسيّين.

هل تدرين يا ليلى أنّ نوبة الألم التي غرقت فيها لم يكن لها لا اسم ولا طعم، إلاّ الإحساس المبهم بالخوف من موت غريب كان يلفّه الصمت والعزلة وذاكرة منكسرة؟ هكذا ننطفئ جميعًا داخل دائرة، كلّ يوم تزداد ضيقًا. كان يمكن أن يتحوّل موت حنّا إلى تظاهرة وطنيّة لو عرف العابرون أسرارها والكنز الذي كان يتخفّى داخلها. كانت تقول في لحظات خلوتها: لقد أصبحت مثل هواء هذه الأرض وغيمها. لم يعد لي من وطن إلاّ حكاياتي الهاربة منّي. بلادي البعيدة، المتوارية خلف المتوسّط والجبال الفاصلة، وأمواج كلّ يوم تزداد علوًّا لدرجة يحدث أحيانًا أن تغطّي السماء، وتمنع الهواء من العبور. كانت حنّا محقّة. أوطاننا العميقة هي تلك التي نصنعها من أشواقنا الدفينة بحبّنا ونزفنا، وحروفنا الغامضة التي تشبه إلى حدّ بعيد رائحة الأرض الأولى، وليست تلك التي نرثها مع الجميع.

ليلي...

هكذا ماتت حنّا في صمت قاتل ولم يبكها إلاّ من عرف أسرارها الدفينة. مات رجال البلاد. انسحب الذين فتحت عينيّ على وجوههم، وكنت أراهم في كلّ فجر وهم يركضون وراء أغنامهم وأبقارهم أو على ظهور حميرهم، أو وهم يرتادون مسجد الوليّ الصالح قبل أن ينطفئوا في الجبال المحيطة بالقرية، بحثًا عن قوتهم اليومي. هكذا ماتت دادا ربيحة التي قطعت سرّتي وفصلتني عن أمّي وشهدت صرختي الأولى التي تأخّرت قليلاً في المجيء. وقبلهما بزمن طويل انسحب مؤذّن القرية الذي ما يزال طعم صوته على رأس لساني. كلّما سمعته رأيت ألوان البنفسج البرّيّ وتحسّست طعمها السكّري على لساني. صوته الشجيّ يعاودني كلّما وجدتني أنام داخل عزلة الوحدة. وقبلهم جميعًا مات ناس كثيرون لا أتذكّر إلاّ بعض ملامحهم الهاربة. قبورهم اندثرت وأسماؤهم غابت. لا شواهد لهم، امّحى كلّ شيء، حتى تفاصيل حياتهم المليئة بالقلق وأشجان الفقر. نحتاج إلى الكثير من الحظّ، وإلى صدفة استثنائيّة لكي نعثر على قبر أحدهم في مرتفعات القرية، داخل المقبرة أو على حوافّها. أتربة البلاد فقدت ذاكرتها، لم تعد لها أيّةُ لغة، لا تنطق إلاّ بحاضرها الهشّ والموقّت.

اليوم... عندما ألتفتُ نحوي، أجدني ضائعًا داخل المسافات المربكة، التي لا ينتهي امتدادها. يبدو لي أنّ حياة الترحال أصبحت قدراً سيزيفيًّا قاسيًا. فقد ورثتها عن جدّي رمضان الموريسكي، الذي عندما انغلقت عليه سبل الدنيا في غرناطة القرن السادس عشر، التفت نحو العدوة الأخرى، ثم عوى بأعلى صراخه كالذئب المجروح: أهكذا تخون التربة عطرها، ويُسرق الحنين على مرأى من صُنَّاعه؟ ثم لمَّ كتبه، أو ما بقي منها بعد رماد المحرقة التي أكلت كل شيء،

وولّى وجهه شطر مدينة ألمارية[1] التي حملته سفنها وقذفت به نحو أرض لم يكن يعرفها، ولكنّه كان يحسّ بأنينها. قيل له يومها: احذر. لا تذهب نحو تربة جافّة لن تمنحك إلا الموت. سيقتلك أهلك هناك، فلا أحد يعرفك. قال: وهذه الأرض التي شيّدت عليها عصراً ذهبيًّا لم تعد لي، ولم أعد لها. لقد كرهنا بعضنا البعض. ولم يعد لنا رغبة لاقتسام فتنة الفراش المشترك. لن أبقى بين أناس لذّتهم الكبرى في حرق الكتب. من يحرق حرفًا واحدًا كأنما أحرق القلوب جميعًا، ومن أحرق ورقة واحدة بها لغة الحنين والوحشة، كأنما عرّى الناس جميعًا. سأهيم على وجهي وليمنحني اللّه بعض القوّة للوصول إلى هناك فقط، ولا تأكلني بحار الخيانات المستشرية. قيل له يومها: اذهب ما دمتَ تريد ذلك، ولكنَّك ستعود. المنفى دائمًا شيء موقّت، يبدأ بكلمة عابرة وينتهي بسؤال معقّد. قال وهو يضحك بمرارة، متذكّرًا الثمانية قرون التي قضاها على التربة التي فتح عينيه عليها، وبنى مدنها بماء الذهب، ولفّها بمسحوق المحار والجوهر: عندما نحطّ الرحال في مكان ما ونستقرّ فيه، لا وجود للموقّت بعدها. المنفى ليس لعبة نفكّكها ونرتّبها كما نشاء، حقيقة مرّة، تنام في عمق كلّ الأشياء الحسّاسة. تأكلنا الحياة، ولكن عندما يطلّ علينا الموت من شقوق النوافذ، تقفز في أذهاننا أرضنا الأولى، حبّنا الأوّل، وتربتنا الأولى، وحتى حماقاتنا الأولى. أغمض عينيه، ثم ضغط عليهما بقوّة لكي لا يرى شيئًا أبدًا، وسافر ليستقرّ على حافّة بحر أمسيردا[2] في أقاصي بلاد كانت واسعة كقارة

١ ـ Alméria (Espagne).

٢ ـ منطقة جبليّة، ساحليّة يؤكّد بعض المؤرّخين أنّها شكّلت معبرًا للكثير من المهجّرين الأندلسيّين الذين نزلوا في سواحل أقصى الغرب الجزائري بعد الترحيل الثاني، الضخم، الذي قام به فيليب الثاني بعد انتفاضة جبال البشرات بناء على قانون تمّ بموجبه طرد الموريسكيّين باتّجاه المدن المغربيّة والجزائريّة وغيرها.

قبل أن تلتفّ على أعناق ذويها كأفعى الحرّ والأحجار. إلى اليوم، عندما يكون الجوّ جميلاً، وصافيًا من كتل الضباب التي كثيراً ما تغلّف الهضاب والغابات والبحر، تبدو جبال إسبانيا واضحة وهي تخرج من عمق البحر، في شكل جزر صغيرة. أعتقد أنّ جدّي، في لحظات الألم والغبن والكبرياء وصفاء الذهن، كان يصعد إلى أعلى قمّة من قمم جبال أمسيردا، التي تطوّق منطقتنا، ويرمي بصره بعيداً مخترقًا كلّ الحواجز الطبيعيّة ليستعيد أندلسًا صارت اليوم نثار حلم مستحيل، ومجرّد صور في الأذهان وفي البطاقات البريديّة القديمة.

ليلى... عمري وأشواقي الهشّة،

هل تدرين أنّني عندما حملت حقائبي للمرّة الأولى، في ذلك الشتاء البارد، لم أتذكّر الشيء الكثير من حياتي البسيطة واليوميّة، ولا حتى وجه طفولتي الأولى التي رفضت أن تتخلّى عنّي وظلّت تتبعني وتتشبّث بي وتنزلق بين رجليّ كالظلّ الهارب، فقد صار كلّ شيء أمامي أبيض لامعًا وبلا لون، ولكنّي لم أستطع أن أتفادى نظرة جدّي رمضان الموريسكي الساخرة من الحياة وهو يرحل بكتبه. رأيته يومها وهو يقارع العسس القشتالي المدجّج بالرماح والسيوف الحادّة والخوذ الثقيلة، محاولاً، بكلّ ما أوتي من قوّة، أن يحمي كتبه أو جزءها الأهمّ، من حرائق محاكم التفتيش المقدّس، متحمّلاً الأدخنة، ولسعة النيران المشتعلة.

المسافة بيني وبين جدّي كانت كبيرة، أكثر من أربعة قرون، ومع ذلك، وأنا أحمل حقائبي بمشقّة ونَفَس مقطوع، رأيته أمامي، ينظر إليّ بحزن ثم يلتفت نحو جباله الأولى لكي لا يراني أرحل. يتمتم وهو لا يدري أنّه كان يعيش ألمًا ممزّقًا: ثمانية قرون ونيّف، وعدت في النهاية كالمحارة الفارغة. هل كنت مجرّد معمّر صغير يبحث عن اعتراف له، وعن مغامرة تقذف به

إلى الواجهة؟ ألا يوجد شيء أكثر رحمة من المنافي؟ أقسى عقوبة تسلّط على عاشق لمدينة شيَّد جنّته فيها، قذفه خارجها؟ لا توجد المنافي الموقّتة يا سينو يا ابني إلاّ في أذهاننا المتعبة، كما لا يوجد موت موقّت. نحن عندما نموت، نموت إلى الأبد. هل تدري فداحة الأقدار؟

بلا دراية ولا قصديّة مسبقة، كنت أقوم بفعلة جدّي نفسها وكأنّ الزمن لم يعمل إلاّ على تأكيد تراجيديا المصائر. هذه المرّة كنت مقهوراً من بشر من لحمي ودمي وترابي، يشبهونني في كلّ شيء إلاّ في اليقين القاتل؟ كلّ ما كان فيَّ كان هشًّا وممزّقًا ومهتزًّا، وكانوا على دراية حتى بأنفاس اللّه. يقيني الوحيد كان هو الحرّيّة في أن أكون أنا، كما أشتهي لا كما يشتهون، قدر ما أستطيع. الحرّيّة فقط. لم يكن الطلب صعبًا ولكنّه كان مستحيل التحمُّل بالنسبة لهم. كنت هشًّا ومرتبكًا في كلّ شيء، وكانوا سدنة اليقين الذي شيَّدوه على كذبة، ونفخوا فيه من روحهم المريضة. أرادوا كلّ شيء على صورتهم. عصابة قامت بانقلاب على سماحة اللّه.

في الطائرة الشتويّة التي سحبتني إلى باريس في ١٦ ديسمبر، من سنة ١٩٩٣، تساءلت وأنا معلّق في الفراغ، بين مطر كان يسقط من تحتي وفراغ يلوّن السماء بالزرقة وألوان الشهوة: هل هكذا يبدأ المنفى، بلعبة لفظيّة لا نقدِّر مراميها ومعانيها، ثم بكلمة مبهمة تظلّ معلّقة في الذاكرة حتى عندما ينتهي مفعولها، ثم بسؤال مربك يظلّ يدور في مكانه بحثًا عن مستقرّ له، وإجابة تعمّق الحيرة أكثر ممّا تفكّها؟ أدركت يومها أنّ ما كان يبدو بعيداً ونتلذَّذ كلّما قرأناه لأنّ شجاعة الكتاب تبهرنا، لا يحدث للآخرين فقط على هذه الأرض الواسعة. لم أكن أعرف، وأنا أقرأ عن عشرات الكتّاب الذين اضطرّتهم آلة المحو إلى المغادرة، أنّ المسألة ليست مجرّد قصص ممتعة، ولكن مصائر مخلوقات أرضيّة، تتألّم وترتعب، وتقفز من نومها جزعًا وخوفًا، وقد

تموت انتحاراً، بالسكتة القلبيّة، أو بالضياع في بحر الحياة الذي لا يرحم أيّ صراخ يغطّي عليه بفيضانات موجه. يمكن للمنفى أن يمسّنا نحن أيضًا! أيّ اكتشاف عظيم؟ نحن الذين نعوم في لذّة اليومي وننسى أنّ مرض المنافي يمكن أن يصيبنا كأيّ داء آخر، ويمزّقنا بلا رحمة إلى حدّ فصل الجسد عن جلده.

ليلي الغالية،

لست غاضبًا عليك، ولكنْ امنحيني فقط بعض الزمن لكي أُخرج ما في قلبي وذاكرتي من شجن، لتعرفي أنّ الولد العاقّ الذي يحبّك يريد أن يكون جديراً بك. فهو لا يحمل من الأسرار شيئًا آخر سوى ما يقوله لسانه. تحمّليني لوقت ثم انسحبي إن شئت بعد ذلك.

ها أنا ذا أُدخلك في طاحونة قلقي. أنت من استفززت سرّي وتعبي. المنفى؟ قد يبدو مجرّد كلمة صغيرة ولكنّها مثل النار، تخبّئ وراءها إرثًا ثقيلاً ومرًّا، مخترَقاً بالأشواق والفقدان، ومؤثّثًا بالسعادات الهاربة، المنزلقة من بين الأصابع كنثار الرمل. فكلّما سمعت كلمة منفى، ينتابني إحساس غريب بالبياض، وهذا السؤال الغريب: ما معنى المنفى بالنسبة لفنّان منفاه الأوّل هو عتاده ولغته التي يكتب بها كما يقول رولان بارث؟[1] هو منفيّ أصلاً من حيث هو كاتب؟ اللغة تصنع عالمًا موازيًا يعجّ بتفاصيل الحياة التي نحسّ بانتماءاتها لنا. هل المنفى هو افتقاد الأرض التي شيّد عليها الفنّان ذاكرته وأشواقه؟ فكم من أرض يملك الكاتب إذن؟ أرض الطفولة التي يفقدها في سنّ مبكّرة ولا تستعيدها إلاّ الكتابة بشهواتها المختلفة ومخيالها الذي يهزّنا بمتعته كلّما توغّلنا فيه؟ أليس فعل الكتابة عن المكان هو اعتراف ضمني بالفقدان؟ هل هي أرض الشباب، التي سرعان ما تنطفئ داخل مجتمعات متخلّفة

١ - Roland Barthes.

تحاسبك في حبّك وفي تنفُسك لأنّه لا يشبه تنفُس الآخرين؟ فليس لك، في نظام الجهالة، أن تحبّ، أن تتحرَّك كما تشتهي، أي أن لا تكون أنت ولكنَّك تكون الآخر الذي يشتهي أن يرى صورته المقهورة فيك. ممّا يضطرّك إلى ترك أرضك والذهاب بعيداً نحو أرض أخرى. وربّما كانت الكتابة والفنّ هما وطنك الموازي؟ هل المنفى إذن هو الارتحال عن أرضك، التي ليست هي أرضك الأولى، باتّجاه أرض أخرى يُفترض أن تمنحك الأمان والمحبّة وبعضاً من الراحة والحرّيّة؟ فالتنقُل، لو اختُزل في الرغبة في العيش واستمرار النوع، يفقد معانيه العميقة والحيّة. عن أيّ شيء يبحث الكاتب إذن وهو يغسل يديه من وطن ورّثته له التربة والأجداد الآفلون، وخطابات الأهل والساسة المحنّكون؟ عن وطن الحياة الكريمة؟ عن وطن العيش الحرّ، حيث يمشي ولا يلتفت وراءه كلّما سمع وقعًا خشنًا لأحذية لم يتعوّد على سماعها؟ عن وطن الكتابة الذي ينشئ فيه كلّ حياته الموازية الجميلة؟ وإذن ما هي الخسارات اللاحقة المتولّدة عن هذا الترحيل القسري من أرضه الصغيرة التي نبت في حدائقها كأيّة زهرة باتّجاه توطين ليس دائمًا فعلاً هيّنًا؟ وماذا يمنح له هذا التنقُل من اكتشافات جديدة يحافظ بها على الاستمراريّة بمعناها الوجودي وليس البيولوجي فقط؟

ليلي الحبيبة، أيّ الأسئلة أختار للإجابة عنها وسط هذه الغابة من المبهم وأنا أشعر بنفسي معنيًّا بها كلّها؟ معنيًّا بقوّة، لأنّ بها كلّها رائحة ما من حياتي الصغيرة التي لا أراني بدونها. المنفى كالمرض، لا يأتي دفعة واحدة، يتربّى في الأعماق إلى أن يصبح قنبلة موقوتة تنفجر حين تشاء، وفي المكان الذي تريده.

بماذا أجيبك أيَّتها المجنونة التي لم تكن تعرف أبداً، أنّها بشكّها في أسرار عينيَّ الملعونتين، كما كانت تنعتهما دائمًا، نزعت الغطاء عن كلّ مدافني دفعة واحدة، ولم تمنحني حتى فرصة ترتيب شؤوني المرتبكة، لأتمكّن

على الأقلّ من الاستقامة وضبط حروفي وجملي؟ ماذا أقول لك غير الذي ينحت القلب كلّ يوم قليلاً حتى يمحوه نهائيًّا؟

هل تسمعين صوتي الآن؟ أعرف أنّ به بحّة كنت تتشهّين سماعها ولكنّها الآن تحوّلت إلى غصّة قاتلة. المنافي كثيرة ولكنّها لا تتشابه أبداً.

خسرت قريتي التي بنيت فيها الذاكرة الأولى، وشيّدتها على فقدان الوالد في الحرب التحريريّة، في صيف ١٩٥٩، ولم أحتفظ في ذاكرتي إلاّ بوجهه الطيّب وهو يعود من منفاه الاختياري كعامل مهاجر في فرنسا، وهو يغسل وجهي صباحًا ثم يضع على رأسي المنشفة الكبيرة وهو يضحك: هل تراني الآن يا سينو؟ وأتذكّر أنّي كنت أقول له: أراك، **وأحاول أن أصنع له صورة من وراء المنشفة، تشبهه، وأحيانًا أجمل**. ولماذا ذهبتَ إلى فرنسا يا بابا وتركتَ أمّي وحدها؟ **أفضّل دائمًا أن أسأله تحت ظلام المنشفة لكي أتجرّأ على طرح أسئلتي التي لا تنتهي، فيجيب**: للعمل. قريتنا فقيرة جدًّا ولا تمنحنا الشيء الكثير للعيش، ونضطرّ للخروج قهراً وليس اختياراً. بلاد فرنسا، هكذا كان يسمّيها، وهي ترجمة حرفيّة لكلمة فرنسيّة كان يقولها المغتربون: (Le Pays de la France) متعبة، لأنّنا نعمل بمشقّة فيها ونحمل الأشياء الثقيلة على ظهورنا وبين أيدينا، ولا نتشكّى، لأنّنا إذا فعلنا ذلك، نُطرد. الكثير منّا يموتون بفعل التعب أو الحوادث المؤلمة، يسقطون من أعالي البنايات أو تسقط على رؤوسهم الكتل الثقيلة. **أعاود السؤال**: وأنت ألا تخاف من ذلك كلّه؟ أحيانًا، ولكن ماذا بإمكاني أن أفعل؟ يجيبني بعد صمت طويل. لكن... في فرنسا حدائق وأمكنة للراحة، ومدن نظيفة كذلك، نتعلّم فيها كيف نقرأ ونكتب. **أسأله من جديد وأنا مستمتع بظلام المنشفة التي تمنحني حرّيّة الكلام، بحيث أحسّه وأراه كما أشتهي ولا يراني**: هل تعلّمتَ القراءة والكتابة هناك؟ **يجيب وهو لا يخبّئ**

ابتسامته التي أحسّ بها ترتسم على شفتيه الرقيقتين، والتي تزيد من يقينه: تعلّمت. سيّدة عظيمة تعمل معي، علّمتني. تريد معرفة اسمها؟ نعم. أجيب بفضول منْ استُثيرت حواسّه الدفينة. يجيبني بلا تردُّد: فيوليتا... فيوليتا، عاملة مثقّفة جدًّا ونقابيّة. امرأة جميلة وطيّبة جدًّا مثل أمّك. أتساءل ولا أطرح السؤال: امرأة تعلّم والدي؟ جميلة. طيّبة مثل أمّي؟ لماذا أمّي تحديدًا؟ هذا الأمر لا يوجد عندنا. بملعنة ملغّمة وخبث طفولي، أتذكّر أنّي أدخلت والدي في المصيدة. لا بدّ أن تكون هي نفسها المرأة التي تتحدّث عنها كلّ نساء العائلة، عمّاتي وخالاتي وحتى جدّتي الطيّبة. فيوليتا سرقت والدي من أمّي. هناك من يتمادى في خياله ويقول إنّ له أبناء معها. أمّي لا تصدّق أو تحاول أن تتظاهر بذلك. أسأله مرّة أخرى بلغة أقلّ يقينيّة: فرنساويّة؟ طبعًا فرنساويّة، من أصل إسباني. يجيبني والدي. أتوغّل في السؤال: لماذا لا تأخذ أمّي معك وترتاحان هناك. يردّ ولا أشعر أنّه تأثّر لسؤالي: هي هنا في بيتها وأرضها، تسهر على الجميع وتؤمّنهم بقلبها وحنانها، وأنا هناك أحاول أن أخفّف عليكم مشقّة الحياة. أكاد أسأله: بابا هل هي الروميّة[1] نفسها التي يتحدّثون عنها؟ مثلما سمعت في حوارات جدّتي وأمّي وخالاتي على الهامش، عندما أسترق السمع مثل أيّ طفل شقيّ كبر بسرعة ولم يتفطّن لسنّه الآخرون؟ فجأة ينزع المنشفة من على رأسي ويتّضح النور، فأتوقّف عن أسئلتي في باحة الدار، وأجلس في حجره أنا وحسن أخي، نشرب القهوة الصباحيّة. يقول وهو يضحك، ولا أدري صدق ما كان يقوله: سيّدنا عليّ، كرم اللّه وجهه، هكذا كان يفعل، يضع الحسن على اليسار والحسين على اليمين. لو كنتُ هنا في ولادتك لسمّيتك الحسين بدل سينو. أعضّ على شفتي وأحمد اللّه أن والدي كان يومها غائبًا يحمل على ظهره كتلة حديديّة

---

١ ـ هي كلمة شعبيّة تعني الغربيّة عمومًا و الفرنسيّة تحديدًا.

أكثر من وزنه، أو في أحضان فيوليتا. لا يهمّ. ولأنّ أمّي اختارته بناء على رؤية، وحنّا باركته، أحببت اسمي.

والدي الذي أدخلني إلى المدرسة الفرنسيّة والجامع[1]، استشهد حتى قبل أن أطرح عليه كلّ أسئلتي التي ما تزال إلى اليوم معلّقة في الذاكرة كأيّة آنية عتيقة تحمل سرّها في قدامتها. أمّي سارت على هدي وصيّته التي تركها وراءه قبل أن تأكله حيطان ثكنة السواني العسكريّة، ويموت تحت التعذيب الهمجي في صيف ١٩٥٩. تسألني أمّي من حين لآخر عن أحوالي في الجامع: فأردّ بحماس: انتهيت من حفظ الربع الأوّل من القرآن الكريم، وزوّقت لوحتي العديد من المرّات، وبدأت أجلس في الأماكن الخلفيّة للجامع. الأماكن الخلفيّة تعني أنّه أصبح بإمكاني أن آخذ نسخة من النسخ العشرة من القرآن وأتفحّصها، وأسأل الفقيه عند الضرورة. أحزن أحيانًا لأنّ والدي ذهب قبل أن أخبره بقصّة نسخة القرآن في الأماكن الخلفيّة. استُشهد وهو لا يعرف أنّي تعلّمت كما كان يشتهي، وأصبحت أقرأ وأكتب. لكنّي لم أحك له عن نسخة القرآن العجيبة التي عثرت عليها في رفّ المكتبة، في نهاية الحجرة الضيّقة التي كنّا نتعلّم فيها. كانت النسخة تحمل الغلاف الأحمر نفسه. لم تكن تشبه النسخ الأخرى في محتواها مطلقًا، ولا حتى في خطّها الذي كان أكثر رقّة من الخطّ القرآني. قلّبتها طويلاً بسرّيّة كبيرة وبعيدًا عن النظرات الملعونة للأطفال الذين في سنّي. لم أفهم من أين كان يأتي سحرها ولا تلك الرغبة التي انتابتني فجأة لإخراجها من المكان، أو بلغة أبسط لم أكن قادرًا على التخلُّص من التصاقها بي. سرقتها لأنّي شعرت بها قريبة منّي. فهمتها بسهولة كبيرة لأنّ كلامها لم يكن كالقرآن الذي تعوّدت عليه، بسيطة وسلسة ومغرية. فكّرت أن أسأل سيّدي الفقيه (المعلّم في الكتّاب)، ولكنّي

---

[1] - الكتّاب، المكان الوحيد وقتها الذي يتمّ فيه تعلُّم اللغة العربيّة وحفظ القرآن الكريم.

لم أفعل أبداً. عاودت التهجّي ومحاولة الفهم. الغريب أنّي لم أكن أجد أيّة صعوبة في القراءة. كلّ شيء كان واضحًا كالماء، بل إنّ شهوتي كانت تستيقظ كلّما توغّلت في ثنايا النصّ. كنت كلّما انتهيت من القراءة، أخبّئ نسختي من وراء النسخ الأخرى حتى لا تأخذها يد غيري. ربّما كانت أنانيّتي هي منارتي الوحيدة في ذلك المكان الضيّق، أو ربّما كان خوفي من أن تُسرق منّي. فجأة صرت أحلم بها وبما قرأت. ليلاً، عندما أستعدّ للنوم، أرى كلّ ما فيها يرفرف حول رأسي ويتحوّل إلى نساء جميلات وعفاريت وحيوانات خرافيّة وغابات لا حدود لها وذئاب كثيرة. كنت أشعر بالخجل من النساء اللواتي كن يتعرّين أمامي بلا حياء. ولكنّ هذا كلّه لم يشفني من حبّي لهذه النسخة. كان الكتاب، في عيني، كبيراً والدروس في المدرسة الفرنسيّة كانت تسرق من وقتي ومن لذّتي. في إحدى المرّات، وأنا في الخلفيّة أفكّر فيما يمكن فعله، بدأت أعطي لنفسي كلّ مبرّرات الدنيا لإخراج النسخة من الجامع: قرآن لا يشبه القرآن؟ مكتوب بخطّ غير خطّه؟ فيه حديث غريب عن الحبّ والنساء والسلاطين والعفاريت؟ فيه حتى الخرافات التي تشبه ما كانت ترويه لي حنّا، جدّتي؟ هل يُعقل أن يبقى الكتاب في الجامع وهو مكان مقدّس؟ يجب تطهير هذا المخبأ من شيء لم يكن كالأشياء الأخرى... كانت هذه هي خلاصة تساؤلاتي الكاذبة. وانتهيت إلى تحريم بقاء النصّ في الرفّ الخلفي. في ذلك الفجر البارد، كنت أوّل من دخل إلى الجامع. صبّحت على الفقيه، سيدي سعيد. غافلته، ووضعت النسخة في صدري. لم يرني أحد، ولا حتى الذين يتصيّدون الأنفاس من الأطفال لاسترضاء سيدي. اعتذرت من الفقيه، وقلت له إنّي متعب وخرجت. عند الباب أوقفني: وين رايح يا ولد أميزار؟ لم أستطع أن أرفع رأسي مخافة أن يرى كلّ شيء في عينيّ. تذكّرت منشفة والدي، كم كانت جميلة إذ كان بإمكاني أن أقول ما أشاء بدون خوف من أن يرى أحد من العائلة ما يتراقص في عينيّ من كذب جميل. فجأة، شعرت

بالكتاب ثقيلاً في صدري. فكَّرت في أن أتركه وأهرب. قال لي سيدي سعيد: ما بك يا ابني؟ وتلمّس رأسي. ثم أردف: لا بأس مجرّد حرارة زائلة. ما زلت أسمع صوته وأنا أتخطّى عتبة الجامع، بعد شجرة الخرّوب التي ظلَّت واقفة على الرغم من مصاعب الزمن وحرائقه: اسمع يا ولد أميزار، قل لأمّك تضع لك شويّة زعتر في كأس حليب، وقشور الليمون وقطرة من عسل النحل... عسل النحل الحقّاني، مش الفالسو[1]، أسمعت وإلاّ لا؟ خرجت. فجأة، صرت خفيفًا وصار الكتاب لا يزن شيئًا. تذكَّرت ما تعلَّمته: فأما من خفّت موازينه... عندما وصلت إلى البيت كنت محمومًا بالفعل ولكن من شدّة الخوف. قلت لأمّي دثّريني يا يمّا... دثّريني... ونمت محتضنًا قرآني. لم أحلم يومها، ولم أر أيّ كابوس، ولكنّي كنت داخل غيمة بنفسجيّة جميلة. بعد أيّام، خاطت له جدّتي كيسًا جلديًّا ناعمًا، وهي تقول: هذا كلام اللّه ويجب أن يوضع في مكانه اللائق به. كنت أضع الكتاب داخله كلّما انتهيت من القراءة. كانت جدّتي كلّما مرّت في باحة البيت، بعصاها وسطل مائها للوضوء، ورأتني منكبًّا على القراءة، ابتسمت من فرط السعادة. لا تخبّئ فخرها أمام خالاتي: سينو، وليدي، هو الوحيد من أبنائي الذي تعلَّم لغة أجداده وقرآنهم. جدّتي، مثلها مثل أمّي، مثل بقيّة أفراد العائلة الكبار سنًّا، لا يعرفون لا القراءة ولا الكتابة. يعرفون القرآن من غلافه الأحمر ومن ورقه الطيّب المائل نحو صفرة ما، ومن رائحته المتأتّية من طبيعة الورق وحبر المطابع القديمة. أحيانًا، كنت أشمّ في الفقيه، سيدي سعيد، رائحة القرآن ممزوجة برائحة الفئران عندما تبدأ في افتقاد شعرها. عندما كبرت قليلاً، اكتشفت أنّ نصّي الذي هرّبته زمنًا طويلاً خوفًا عليه من السرقة والتلف، لم يكن قرآنًا

---

١ - أصل الكلمة إسباني وتعني الشيء المغشوش، غير الحقيقي، المقصود به هنا عسل السكّر.

ولكنّه كان كتاب: *ألف ليلة وليلة*، في جزئه الأوّل، طبعة بولاق القديمة، بأوراق وحروف ورائحة لم تكن بعيدة عن رائحة القرآن، وربّما كانت رائحة المكان نفسه. إلى اليوم ما زلت أنقاد نحو رائحة الكتب قبل أن أكتشف عناوينها. لا أعرف طبعًا اليد التي وضعت قرآني هناك، في ذلك الرفّ الصغير، ولا أعلم أبداً إذا ما كان عليّ أن أشكرها وأقبّلها بحرارة، أو أرفضها لأنّ كلّ ما حدث لي فيما بعد مترتّب عن تلك اللحظة التي فتحت فيها خطأ كتاب ألف ليلة وليلة. تلك اللحظة غيّرت نظام حياتي وأحاسيسي نحو الأشياء، وأدخلتني في غمار التجربة وقذفتني داخل عالم لم أكن مهيًّأ له، إذ كان يمكن، في أحسن الظروف، أن أتحوّل إلى فقيه يدرّس القرآن في القرية، ومع بعض الحظّ، إلى مهرّب صغير للكتّان والخضر والفواكه، على الحدود المغربيّة الجزائريّة. لهذا، كلّما صفوت إلى نفسي، أقول: طوبى لتلك اليد التي غيَّرت مسلكي، وأعتذر منها لأنّي سرقت متعتها، فقد وضعتْ في معابري الضيِّقة أجمل نصّ قرّبني من الخيال والكتابة واللّذّة، وأبعدني عن مهالك اليقين.

ليلى... صرختي المكتومة،

لن أضيف الشيء الكثير إلى ما تعرفينه إذا قلت لك إنّ تلك أرضي ووطني الأوّل الذي فقدته، وتحوَّل اليوم إلى عالم من الرموز المبهمة، لا وجود له إلاّ داخل اللّغة والأحاسيس العميقة. ذلك منفاي، إذ كلّما تذكَّرته تمنّيت أن أراه ثانية فقط لأقول ما خبّأته حينها، وأفعل ما لم أستطع فعله وقتها، تقبيل تلك اليد الغامضة التي منحتني فرصة لا تُعوّض للجنون وللسخرية من وهم اليقين المطلق.

أنا لم أعرف المدينة إلاّ ممزوجة بماء الخوف. كنت صغيراً عندما دخلت، للمرّة الأولى، تلمسان، مدينة أجدادي الأندلسيّين والصوفي سيدي بومدين

لمغيث. كان بيني وبينها شيء من جبروت المدن الكبيرة. لم أبن معها، في البداية، أيّة علاقة ودّ كتلك التي في القرية. سبع سنوات قضيتها في النظام الداخلي، في ثانويّة الحكيم بن زرجب، تشبه الانضباط العسكري في كلّ شيء، في الدراسة، في الأكل والشرب والملبس، وأحيانًا حتى في التفكير وردود الفعل. يصبح الإنسان منتظمًا مثل الساعة الجداريّة القديمة. لم يكن بافلوف مخطئًا في نظريّته. كان يمكن أن نشكّل نموذجه الذي لا يخون نظريّته. كنّا نتحرّك وفق شرطيّة انعكاسيّة محدَّدة سلفًا. نستيقظ على الساعة السادسة تلقائيًّا. نغتسل، ثم ننزل إلى قاعات العمل. في الساعة السابعة والنصف صباحًا، تستيقظ فينا حواسّ الجوع. نشرب قهوتنا ثم نركض نحو قاعات الدرس. يكون اليوم قد بدأ. عندما يرنّ جرس الثانية عشرة إلاّ ربعًا، نكون قد اصطففنا في خطّ مستقيم، على طول المطعم. نأكل، نلعب قليلاً في ساحة الثانويّة الواسعة، ثم نعود إلى الدروس. الخامسة مساء، ندخل إلى قاعات العمل من جديد، قبل أن تحلّ الساعة السابعة حيث تبدأ الأمعاء في نداءاتها الجائعة. نخرج. نأكل ثم نعود إلى قاعات العمل. تبدأ أعيننا في الانكسار. الكثير منّا ينام على الطاولة. الساعة التاسعة نكون قد انغمسنا في نوم عميق في أسرّتنا. كلّ يوم يشبه أخاه.

ليلي الحبيبة...

قلت لك أنا ابن الصدفة في كلّ شيء، ولست مخطئًا في ذلك أبدًا. كلّ شيء بدأ بلحظة جميلة ليست بعيدة عن صدفة كتاب ألف ليلة وليلة. عندما خرجت جريدة الجمهورية في ذلك الصباح الصيفي المشؤوم، من سنة ١٩٦٧، كنت حزينًا. بحثت أكثر من مائة مرّة، عن اسمي ضمن قائمة الناجحين، المتراصّة في استقامة ووضوح، لم أعثر عليه. بحثت من بين الأسطر والأسماء المبهمة، لم أر شيئًا يشبهني. مع أنّي ظللت أكرّر كالمجنون أمام

أصدقائي الذين نجحوا: كنت الوحيد من أبناء القرية الذي فكّ العمليّة الحسابيّة بشكل صحيح ووجد النتيجة النهائيّة: ٧,٤ التي أعلن عنها مركز الامتحانات. كلّكم أخطأتم، كيف نجحتم وأخفقت أنا؟ عبثًا بكيت إذ لم يسمعني أحد، بل لم يصدّقني أحد، ما عدا أمّي وجدّتي. مع الأيّام، بدأت أهيِّئ نفسي لمجابهة صعوبات الحياة، الفلاحة والتهريب. لم يكن امتحان السيزيام[1] الذي بنيت عليه أحلامًا كثيرة، هذه المرّة من حظّي. بكيت وحزنت، ليس فقط لأنِّي رسبت في أوّل وأهمّ امتحان في حياتي، ولكن لأنِّي شعرت أنِّي خذلت أبي في قبره، وأبكيت أمّي، وكسرت أشواق حنّا وثقتها في ذكائي. الصدفة مرّة أخرى تنقذني من تلاشٍ بدا لي حتميًّا. كان زوج خالتي الحاجّ أحمد بن حمو، في زيارة عائليّة لابن أخته، الحاجّ سليمان المير، الذي كان يسكن في مدينة الحناية، ضاحية من ضواحي تلمسان. أثناء الحديث بينهما، قال سليمان المير لزوج خالتي: مبروك على ميزار (اسم أمّي) نجاح ابنها في السيزيام. فردّ زوج خالتي: ربّما أخطأت؟ لا. لا، لقد رسب. لم يكن له حظّ أخيه الأكبر. فردّ سليمان المير: لقد نجح. وجدت ذلك بالصدفة في صحيفة[2] لفّ لي البائع فيها قطعة كتّان اشتريتها من عنده. وأنا أتسلّى بقراءة قوائم الناجحين في تلمسان، وجدت اسم ابنها سينو. أنا متأكّد من ذلك. ثم طلب من ابنته أن تبحث معه عن الجريدة التي وضعها في مكان ما. وكان يمكن أن لا يجدها ويتبخّر كلّ شيء في الهواء، وأعطاها لزوج خالتي. أمّي لم تنتظر طويلاً عندما عرفت أنّ اسمي موجود ضمن قوائم الناجحين في

---

١ ـ أصل الكلمة فرنسي، La Sixième ويقابلها اليوم في النظام المدرسي الجزائري: السنة الأولى متوسط.

٢ ـ يتعلّق الأمر بصحيفة الجمهورية الفرانكفونيّة La République التي كانت تنشر وقتها قوائم الناجحين في امتحانات السنة الأولى متوسط و الباكالوريا، توقّفت عن الصدور بالفرنسيّة في السنة ١٩٧٤ و أصبحت تصدر باللّغة العربيّة.

تلمسان، لأنّ أبناء الشهداء وُضعوا في هذه القائمة حتى يستفيدوا من النظام الداخلي، وهو ما لم نكن نعرفه. أخذتني أمّي من يدي، وركبنا أوّل حافلة متّجهة إلى تلمسان. عندما فتحت أبواب ثانويّة الحكيم ابن زرجب كنّا أوّل من يستقبلهم المراقب العامّ. عندما بدأ يقلّب بسرعة البطاقات ليتأكّد من نجاحي ووجودي في هذه الثانويّة، قفز على اسمي، فصرخت: اسمي... اسمي يا سيِّدي، لقد تجاوزته. أوّل شيء تأكّدت منه هو تاريخ الميلاد، إذ حتى تلك اللحظة لم أكن متأكّدًا من أيّ شيء. قلت، وأنا لا أستطيع كتم سعادتي: سينو... سينو... أنا يا سيِّدي المراقب العامّ وهذا تاريخ ميلادي. لا يمكن أن يكون شخص غيري. وحياتك يا سيِّدي لا يمكن. ضحك وسحب البطاقة وسُجِّلت في الثانويّة. عند الباب انفجرت بكاء. كانت الحرقة فوق أن تُقاوَم. إلى اليوم، كلّما تذكَّرت الحادثة انفتحت شهيَّتي للبكاء. عندما عدت إلى الدار، بكيت أيضًا لمدّة يومين وبعدها نسيت كلّ شيء. عدت إلى تلمسان للدراسة في مدينة لم تعد تخيفني. أتساءل أحيانًا عن غرابة هذه الصدفة التي أخرجتني من دفء القرية ومن بؤسها وفقرها، ماذا كان سيحدث لي لولاها؟ لم أفرح في حياتي بشهادة مثل فرحي بنجاحي في امتحان السيزيام، السنة الأولى متوسط. حتى شهادات: السرتافيكا[١] والبروفي[٢] (شهادة التعليم العام) والباكالوريا، والليسانس، والماجستير، والدكتوراه المزدوجة بين دمشق وباريس، لم تحسّسني بأيّ شيء، سوى أنّها منحت لي بعض الأمان في حياتي لا أكثر. مجتمعة، لا تساوي شيئًا أمام هزّة السيزيام.

اليوم، مات معظم أبطالي وهم لا يعلمون بالخير الذي قدَّموه لي: جدّتي التي منحتني سحر الحكاية بخرافاتها وقصص أجدادها الأندلسيّين، سيدي

١ - Certificat.

٢ - Brevet d'enseignement général.

سعيد، فقيه القرية الطيِّب، الذي لم يكن يغفل أبدًا عن السؤال عن الربعيّة (ربع دينار) كلّ صباح يوم أربعاء، زوج خالتي أحمد بن حمو الذي أصرّ على البحث عن القصاصة الصحفيّة التي لفّ فيها سليمان المير قطعة الكتّان، المراقب العامّ الذي سجّلني وهو لا يدري، وهو يتخطّى اسمي سهوًا في البطاقات التي كان يتفحّصها، أنّه كان يرميني في قبر بارد لو قال لي: نعتذر، اسمك غير موجود. حتى القرية لم تعد القرية، ولم أعد أعرف ناسها إلاّ القلّة القليلة، ومحت كتل الإسمنت المسلّح كلّ ضِياعها وحدائقها ومائها الذي كانت تنزّ به الأرض. مات الكثير من أبطالي وسقطت حجارة الوليّ الصالح سيدي بوجنان، الذي ظلّ يحمي القرية من الكوارث الطبيعيّة، ولم يبق إلاّ قرآني، كتاب ألف ليلة وليلة، في طبعته البولاقيّة الحجريّة القديمة، برائحته التي حافظت عليها بين أوراقه، وهو كلّ زادي في سنوات الترحال الأخيرة.

كلّها كانت منافيَ صغيرة، هيّأتني للمنفى الأكبر؛ وتلك قصّة أخرى، إذ فجأة انفجر المرض الذي نام فينا طويلاً قبل أن يتحوّل إلى قنبلة موقوتة لم تمنحنا أيّة فرصة للتفكير والتأمّل.

ليلى...

كنت أظنّ أنّ المنفى مجرّد كذبة نجمّل بها النصوص. لم أكن أعرف أنّ لعبة الكتابة ستصبح فعلاً جدّيًّا، وأنّ الكتاب الأوّل الذي نشرته في حياتي الأدبية: *ألم الكتابة عن أحزان المنفى*[1]، سيضعني أمام اختبار صعب كنت أتصوّره مجرّد لغة أو لعبة لفظيّة حاسبني عليها الأصدقاء وقتها، وقالوا بأنّي كنت أتحدّث عن شيء لا أعرفه. لم يكن المنفى كذبة، كان جرحًا سرّيًّا بليغًا. قرأت عن حياة كبار الكتّاب والفنّانين في الحرب الأهليّة الإسبانيّة والحرب

---

١ ـ صدر عن المؤسّسة العربيّة للدراسات و النشر، بيروت ١٩٧٨.

العالميّة الثانية، وغيرهم من الذين سحقتهم الطاحونة الفرانكويّة[1] أو الذين اضطرّتهم المهلكة النازيّة إلى الخروج، وعن الخراب الذي أحدثته الماكارثيّة في الفنّانين والمثقّفين الأميركيّين وغيرهم. وظننت جازمًا، في أعماقي الطيّبة، أنّ ذلك لا يحدث إلاّ للآخرين وأنّي لستّ معنيًّا بهذه التفاصيل التي تسرق من تحت رجلَيْ إنسانٍ أرضه وحنينه وأشواقه، وحتى مواطنته إذا توفّرت. كنت أظنّني بعيداً عن رياح هؤلاء الناس العظام الذين، بسبب فكرة صغيرة اسمها الحرّيّة، تركوا كلّ شيء وظلّوا أوفياء لكتاباتهم وفنّهم. لم أكن أعلم أنّي سأجد نفسي ذات شتاء بارد أبحث عن مسلك المنفى القاسي بعد أن تركت كلّ شيء ورائي، ولم ألتفت لكي لا أصاب برغبة العودة والتراجع. لم أكن أحمل إلاّ حبّنا الضائع، ووجهك الحزين، وابنيّ، ماسي وصافو، وحقيبة صغيرة فيها كتاب ألف ليلة وليلة في طبعته البولاقيّة، وبعض دمى ابنتي التي تركت الباقي في البيت، لأنّي كذبت عليهما وقلت بأنّها مجرّد عطلة شهر ونعود. صافو وماسي ظلاّ صامتين. كانا يمارسان معي ما كنت أفعله وأنا صغير مع أمّي وحنًّا ووالدي. يعرفان الحقيقة ويخبّئانها لكي لا أحزن. ماذا بقي اليوم من تلك اللحظة؟ لا شيء، سوى روايات وحياة موازية تشهد أنّ الألم يومها كان كبيراً. ولكنّي كنت أخفّفه بالقول: موقّت؟ متى كان المنفى فعلاً موقّتًا؟ جدّي الموريسكي لم يكن مخطئًا، فقد عرف ذلك في وقت مبكّر. غياب السنة تمدّد فجأة إلى خمس سنوات، ثم عشر سنوات امّحت بسرعة عجيبة، ومرّت كالريح تاركة أثرها على القلب والجسد. ثم... لا سنة تشبه أختها أبداً. فجأة ننسى العدّ ونكتشف، ونحن أمام المرآة الطويلة التي تحتلّ وسط الخزانة، نصفّف ما تبقّى من شعرنا، أو نحلق الوجه المتعب، أنّ كلّ شيء تغيّر: أنت نفسك لم تعد أنت. فجأة تكتشف في المرآة أنّ شعرك صار أبيض

---

[1] - نسبة لفرانكو، ملك إسبانيا الذي أجهض في الثلاثينيّات تجربة الجمهوريّة.

بسرعة، ثم بشعرك يسقط كأوراق خريفيّة ماتت بفعل الغربة. تقترب من المرآة أكثر، يغطّيها بخار تنفّسك، ترى وراءك ابنتك صافو التي جاءت صغيرة وهي لا تعرف سوى اللغة العربيّة، قد تعطّلت لغتها قليلاً وتعرّفت على لغات عدّة، وأنّ الطفلة التي كانت تعشق الدمى والتي ما تزال في رأسك، تركتها وراءك يوم خرجت من أرضك. ترى ملامحها الطيّبة وهي ترسم آخر وجه، أو وهي ترتب الكاميرا لتنتهي من تركيب شريطها عن أطفال الضواحي الباريسيّة. تفرح ولكنّك تقول في أعماقك: هل هذه هي صافو التي اشتهت أن تكون ممرّضة لتساعد المتعبين؟ تتعمّق رؤاك في المرآة، فترى من وراء الضباب الهارب، ماسي، ابنك البكر، الذي دخل باريس وهو يحسب الأيّام التي تمضي لكي يعود بسرعة إلى مدرسته وأصدقائه في الجزائر، وقد أصبح اليوم منشغلاً بالدكتوراه التي تأكل كلّ وقته وبحثه المستديم في العلاقات الدوليّة. تتساءل وأنت تعرف سلفًا بأنّك لن تحصل على أيّة إجابة مقنعة: ماذا كان يمكن أن يحصل لو بقيا هناك؟ ما ثمن تلك الكذبة المهدّئة التي طمأنتهما بها: سنعود بعد العطلة، وأنت تعرف أنّه لا وجود لأيّ منفى موقّت في الدنيا. عطلة بدأت اليوم تزحف نحو العقدين؟ ألم تكسر حياتهما العميقة بعد أن فرضت عليهما منفًى لم يكونا مهيَّأَيْن له؟ من منّا كان مهيّأً له؟

أيّ ألم قاتل نشعر به، أيّتها الغالية، ونحن نخسر فجأة، وبلا مقدّمات مهدّئة، حياة بكاملها بنينا عليها كلّ أحلامنا وأشواقنا، ونفتح أبوابًا جديدة من الخوف، لا نعرف أبدًا ما يتخفّى وراءها من هزّات عنيفة وأسرار لن نتحمّل وقعها طويلاً؟

ليلى الحبيبة،

سألتني عن شططي، وعليك أن تتحمّليه حتى النهاية. لا تشيحي بوجهك صوب بياض الستائر، لكي تبكي بعيدًا عنّي. أرجوك. أريدك في

فرحك وأشتهيك أيضًا في حزنك. استمعي حتى النهاية، لم يبق الكثير لأقصّه عليك، وبعدها نامي إذا شئت، فلن أغضب منك.

من جديد، أحاول أن أمحو الضباب الذي على المرآة، فأرى وجهي المتعب. يبدو لي المنفى مجموعة لا تُحصى من الخسارات المتتالية. أشرع بلهفة وخوف في عملية العدّ مثلما كان يفعل تشيخوف Tchekov وهو يعدِّد ميراث الكتابة في قصّته القصيرة جدًّا. أستطيع اليوم، وبعد قرابة الخمسين سنة من العمر، وأكثر من ربع قرن من ممارسة جنون عظيم اسمه الكتابة، أن أقول إنّ رهان المنفى مثل رهان الكتابة، خاسر في كلّ شيء إلا في جوهره الأعمق: الحرّيّة.

خاسر، لأنّه سرق منّي ما تبقّى من عفويّتي واغتصب طفولتي في وقت مبكّر.

خاسر، لأنّه وضع حائلاً بيني وبين أهلي. عندما كنت أكتب في الظروف الحالكة التي مرّت بها البلاد، كان عليّ أن أحذر وأحافظ على اسم العائلة، لأنّه ليس ملكي وحدي، ميراث جماعي لا حقّ لي في الاستفراد به. ولأنّي لم أكن قادراً على فعل ذلك، فكّرت منذ البداية أن أتخلّى عن اسم العائلة، ولا احتفظ إلاّ باسمي الشخصي لأنّه ملكي. لم تكن العائلة مضطرّة إلى أن تتحمّل حماقاتي وجنوني ككاتب. خصوصًا في الفترة التي أصبح فيها القتل الأعمى عملاً يوميًّا. وما زلت إلى اليوم أفكّر في التخلّص من هذا الميراث ولا أحتفظ إلاّ بما يخصّني، لأمنح نفسي حرّيّتها القصوى، ليس خوفًا على مصير العائلة، فالأمور من هذه الناحية تحسّنت كثيراً، ولكن رغبة في الانتساب إلى الكتابة بشكل نهائي وأبديّ وكلّي.

خاسر لأنّ الكتابة وضعت حاجزاً بيني وبين النفاق الاجتماعي المعمّم وحسن السلوك الوهمي. كذبت في الحياة وأنا صغير للدفاع عن حقّي في

الحبّ والحقد. كذبت بلا هوادة على البشر الذين لم أكن أحبّهم وأنا في بداية العمر، لأنّ الكذب كان وسيلتي للانتقام منهم جميعًا، وأقسمت كما يقسم الكبار، إنّني لن أكون صادقًا مع أيّ واحد منهم. ولكنّي لم أكن قادرًا على الكذب على الكلمات، ولهذا اخترت الخروج في ذلك الشتاء القاسي، وبدأت أبحث عن أرض أخرى، أسمّيها اليوم وطن الكتابة الحقيقي[1].

خاسر، لأنّي عندما اكتشفت لأوّل مرّة نصّ *ألف ليلة وليلة* في الجامع، ورحت أنقل قصصه المثيرة وأدّعي أمام أصدقائي أنّها قصصي، لم أكن أعلم أنّ لعنة هذا النصّ المسروق ستتبعني إلى آخر العمر. أستطيع اليوم أن أقول لصاحبه الذي خبّأه بين المصاحف، ووضع له غلافًا قرآنيًا وهميًا: هنيئًا لك يا سيّدي، إنّ دعوتك قد أصابتني في الصميم. فقد نقلتني من الانتظام والاستجابة للشرطيّة الاجتماعيّة إلى سؤال الفوضى وجنون المتخيّل. وبسبب عدوى الأدب التي أورثنيها كتابك المسحور، دخلت في عمق الحياة الموازية، الأكثر عنفًا، التي لا نصيرَ فيها لنا إلاّ اللغة التي تتأسّس عليها. وراء كلّ نصّ يتخفّى شيء عميق، الكاتب وحده يعرف أسراره ومفاتنه وبياضه.

خاسر لأنّ الذي فكّر في قتلي ذات خريف من سنة ١٩٨٦ وأنا خارج من مقرّ جريدة *المساء* التي كانت تنشر روايتي: *الشاهد الأخير على اغتيال مدن البحر*، كان أبله وأمّيًا. ليس لأنّه لم يقرأ، ولكن لأنّ قتلي غير مفيد له أبدًا. فقد رأى صورة خطيبته في النصّ واقتنع أنّ البطل لن يكون إلاّ أنا. ولكي تغيظه صديقته أكثر (عرفت هذه التفاصيل فيما بعد)، وتثير حقده، وتفتح كلّ جراحاته، أكّدت له علاقتها بصاحب الرواية. كان يمكن أن أُقتل بسبب غباوة لا مسؤوليّة لي فيها، لولا مدير الجريدة وإقناعه لهذا الرجل الذي لا أعرفه أبدًا، بأنّي طوال العشر سنوات الماضية كنت في دمشق، وأنّه لا علاقة

١ - Le Vrai Territoire de l'Ecriture.

لي بما كان يحدث له، وقرأ على مسامعه نهاية الرواية لأنّ الرجل اشترط أن تقرأ عليه. المفجع في بلادنا، هو أنَّه يمكنك أن تُقتل وأنت لا تعرف بالضبط لماذا؟ هذه المرّة كذلك لم تتخلّ الكتابة عنّي ولكنّها أظهرت لي أيّ مجتمع كنت فيه؟ وأيّ منفى كنت أعيشه وأنا لا أعلم؟ ما تزال أمامنا سنوات طويلة لندرك أنّ الكتابة هي نَفَس إلهي Un souffle divin، محرّمة ومقدّسة إلى أقصى الحدود، حتى في أكثر صورها جرأة وتماديًا. كلّ مسّ لها هو مسّ لروح اللّه.

خاسر، عندما اضطررت لترك بيتي الذي شيَّدته بحبّ على مدار عشر سنوات، بشوق كبير وحنين لا يُضاهى، ورتّبت حياتي لكي أسافر مع ابنيَّ في كلّ سنة داخل الوطن، وفي كلّ مرّة نكتشف مدينة حتى نعرف الوطن كاملاً ونحبّه أكثر. كان حلمًا طوباويًّا مستهترًا لا يعرف الحقائق المخفيّة. بلادنا كانت جميلة كعبّاد الشمس، تقتفي خطوات النور كلّما مال نحو الانطفاء لاستعادته من جديد، فاحترقت بنفطها وزيتها وخيرها وجهل ساستها. إلى اليوم لا أرض لي مثلما أشتهي بسبب الكتابة، سوى وطن اللّغة الذي شيَّدته حجرةً، حجرةً ونفسًا، نفسًا، وجرحًا، جرحًا، لأنّ الذين وضعوا اسمي في قائمة المطلوبين للقتل في سنوات الظلام، لم يسألوني يومًا عن نواياي الطيِّبة تجاه الناس والبلاد، ولا عن طفولتي التي أحرقتها الشمس الجافّة وسلخها برد الشتاء، فأنا بالنسبة لطاحونتهم مجرّد اسم يجب أن ينتفي أو يُشطب، أو أن يُرشّ ببرميل من الزيت ويُحرق على الملأ.

خاسر، لأنِّي اضطررت ذات ليلة أن أخرج من البيت حاملاً ابنيَّ، وبعض ألبستي وأوراقي، وأوراق ابنيَّ الثبوتيّة والمدرسيّة، ومحفظتيهما، ورحنا نتشرَّد في فنادق العاصمة أو بيوتات الأصدقاء لكي لا يعرفنا أحد، متنكّرًا في وجوه وألبسة لا تشبهني، ينظر إليك بعطف كبير من يحبّك، ويتشفَّى فيك الذي يكرهك.

خاسر، لأنّ الإنسان في بلادنا، تُمحى وتُطوى فجأة ورقته وكأنّه لم يكن أبداً. الخوف يوقظ الجبن والشجاعة معًا. ويتحوّل بعض الأصدقاء إلى أشكال هلاميّة تتصيَّد الظلال، بينما يضع آخرون رؤوسهم في المقصلة مقابل نجاتك. وتنزل عليك غشاوة تشبه البياض، بياض غير الذي تعوَّدت عليه. وتنتشر في أعماقك العواصف والرياح الساخنة. تتأكَّد من أن لا أحد تقريبًا يعرفك عندما يدخل الموت في كأس القهوة الصباحيّة التي تتناولها بخوف، في زاوية مظلمة في المدينة.

ثم فجأة يخونك جسدك أيضًا، وبصرك، وذاكرتك. هل هو قانون العمر أم الحزن المبكّر والمنفى؟ فتدرك أنّ المنفى لم يكن فقط خسارات متتالية. تشعر به عمراً مضافًا إليك، إذ كان يُفترض أن تموت قبل ذلك بكثير. وأنت تعرف جيِّداً أنَّ أكثر الأصدقاء تفاؤلاً لم يكن يعطيك أكثر من عمر حشرة، ناموسة أو فراشة، من شهر إلى سنة، في سنوات الظلام الأولى.

ليلي، عمري،

أنت لا تدرين أنّ الصدفة، هذه المرّة كذلك، أنقذتني.

لم أصدِّق ما حدث إلاّ بعد زمن طويل، وكأنَّ الضربة كانت قاسية على الرأس، عندما عرفت الحقيقة، وكان المنفى قد سرق بعض الروح من حياتي ووضعني في مواجهة قدر آخر.

كلّ شيء بدأ هكذا...

عندما عدت من صاليرنو، جنوب إيطاليا، رأيت على وجه ماسي وصافو بعض علامات الدهشة. لم أفهم ما بهما. قلت في خاطري ربّما مجرّد قلق عادي. سألتهما:

ـ هل حدث شيء؟

بلادنا لم تعوّدنا على الأخبار السارّة. كلّ يوم تزداد قائمة المقتولين من الأصدقاء طولاً. لا يعرفون قاتلهم ولا سبب قتلهم.

ـ لا. لا يوجد أيّ شيء، سأل عنك أصدقاء كثيرون. وسألوا هل أنت في الجزائر أم في باريس؟ قلت لهم إنّك في سفرة إلى إيطاليا لتقديم كتابك الأخير. شعرنا بالدهشة لأنّ كلّ الذين سألوا عنك لم يتركوا أيّ خبر سوى السلام. أكثر من عشرين مكالمة؟

ـ أنا نفسي لا أفهم. لا بدّ أن يكون قد حصل شيء؟

تفحّصت القائمة. كلّهم أصدقاء المنفى الذين اضطرّوا إلى ترك سمائهم الهاربة. بدأت بالأوّل. نجاة. باحثة وأستاذة جامعيّة.

ـ خير إن شاء اللّه يا نجاة؟ قلت من وراء السمّاعة.

وقبل أن أبدأ، انهمرت بكاء.

ـ اللّه يخرب بيتك، أشعرتنا بعقدة الاستمرار في الحياة.

ـ أنا لا أفهم. كنت في سفرة لتقديم ترجمة روايتي الجديدة، ولا علم لي بما حدث؟

ـ سمعت في إذاعة فرنس أنفو France Info، أنّك قُتلتَ في الجزائر وأنت تغادر بيتك للذهاب إلى عملك. فقلت للأصدقاء: أعرف أنه يسافر كثيراً وسرّيًا، إلى الجزائر للقاء طلبته، ولكنّه هذه الأيّام في باريس، في جامعة السوربون.

انتابتني حالة من الكآبة والصمت.

ـ ماذا يعني هذا الكلام؟

ـ يجب أن تحذر، أو ربّما أخطأوا فيك؟ من يدري.

القائمة كتبها ماسي بانتظام، هكذا تعوّد أن يفعل هو وصافو، منذ أن وضعنا رقمنا في القائمة الحمراء، ولا يملكه إلاّ الأصدقاء المقرّبون.

الاسم الثاني، صديق مسرحي منفيّ، يقيم في مدينة أفنيون التي ارتبط بعقد سنوي جيّد، مع مسرحها كمخرج. كان أهمّ مسرحي جزائري. كنت قد بدأت أفهم ما حدث.

ـ كما ترى، عمر الشقي باقي.

ـ بصراحة لم أفهم، رجل يمدّ رجليه إلى أقصى الحدود، بين ضفّتين. استقرّ يا أخي في مكان حتى نعرف أين تقيم. وحكاية القتلة هذه؟ أنّبت نفسي أنّي حلمت دائمًا أن أُخرج إحدى رواياتك للمسرح ولكنّي لم أفعل للأسف. وشعرت كم كنتُ تافهًا أنّنا لم نلتق ولم نتحدّث. المنفى طاحونة قاسية وقاتلة. خبر قتلك أُذيع في العديد القنوات الإذاعيّة وعليك أن تنتهي من بوهيميّتك. في لحظة من اللحظات صدّقته لأنّي قلت في خاطري: هذاك المجنون يفعلها، ولن يتردّدوا في قتله إذا صادفوه.

التفتُّ صوب ماسي وصافو، كانا منهمكين في عملهما. عادة يطلبان منّي المساعدة، في ذلك اليوم تركاني مع التليفون فقط.

الثالث في القائمة كانت ريحانة، راقصة الباليه الرائعة. الوحيدة التي كلّمتني من الجزائر بعدك. عندما فاتحتها. انهالت عليَّ كالسيل.

ـ واللّه لو كنت في مكان هاجر، لقتلتك. معقول؟

ـ واش تحبّي يا ريحانة! الدنيا بنت كلب.

ـ يلعن دينك ما أسوأ عذرك. لعنتك آلاف المرّات ولكنّي سعدت عندما عرفت أنّك ما زلت حيًّا. هل تدري ما معنى أنّ تتنفّس الحرّيّة؟ أن تنتظر صوت صديق من بعيد وأنت تعرف أنّه لن يأتي هذا المساء، ولكنّك تستأنس على

الأقلّ أنّه ما يزال حيًّا ووجوده يمنحك بعض القدرة على الاستمرار. هذه المرّة شعرت بذنب عميق وبرغبة للجلوس بقربك مثلما كنّا نفعل في الشتاءات المسائيّة، في بيتك، نسمع الموسيقى، تأخذ يدي وتضعها على وجهك بحنان كالطفل. تُشعرني بوجودي وأنّني امرأة ما تزال حيّة. عندما تتوقّف الحياة، تنهض الشيخوخة. لم تسألني يومًا عن زوجي ولم أسألك يومًا عن زوجتك. لم يكن ذلك شأنك ولا شأني. ونتذكّر بعض حماقات الدنيا، وقصّتي المبتئسة مع زوجي الذي لم يتحمّل أن يعيش مع لبوءة وليس امرأة كما كان يقول دائمًا. قال أنا أريد ريحانة لي، تعبق بعطرها عليَّ وحدي، وليس للأوبرا الوطنيّة. كرهت حياتي وأنا أجوب الأسواق والمحلاّت وهم يردِّدون: شفت البارح ريحانة؟ كانت مذهلة؟ ريحانة ربّي أعطاها الزين والجسد الغضّ، كانت طائرة في السماء كعصفور الجنّة؟ ربّي يحفظها من العين... قلت له: يفترض أن يثير هذا الكلام فخرك بدل انكسارك. قال: زوجتي في البيت وليس على ألسنة الناس في الشوارع، عند اللّي يسوى واللي ما يسواش. قلت له ببرودة: أعتقد أنّنا أخطأنا بعضنا بعضًا. في ليلة كان مسودّ الوجه، بعدما عاد من صلاة المغرب، ممتلئًا بالضغينة. لم أفهم تمتماته: قال بدءًا من الغد توقفين حكاية الباليه والرقص. حاولت أن أقنعه أنّ الأوبرا هي حياتي وأنّ انفصالي عنها معناه موتي المؤكّد. لم يفهم شيئًا. قلت بصرامة: لا. لا أدري ماذا حدث. ضربني حتى سقطت أرضًا، وشعرت، في لحظة من اللحظات، برأسي ينفصل عن جسدي. لأوّل مرّة أرى الموت في وجه زوجي. مثل الخرقة البالية رماني على السرير وهو يصرخ بشكل هستيري: سترين اليوم من أكون يا قحبة المسرح ومحظيّة العسكر. شعرت به حيوانًا غريبًا وهو يغتصبني بكلّ ما أوتي من عنف. بدأ لحمي يموت شيئًا فشيئًا حتى أنّي لم أعد أحسّ بأيّ شيء. بعد لحظات، لم أدر كم دامت، رأيت وجهه من وراء كومة الضباب يبكي، ويصرخ بأعلى صوته: يا ربّي سيِّدي ماذا فعلت في حقّ زوجتي؟ واش درت؟ اللّه يلعن

الشيطان ولد الحرامي؟ كنت غارقة في دمي وهو يعتذر ويسلّم على رجلي. نمت على بياض. لم أفطن إلاّ في اليوم الموالي. قمت بصعوبة. اغتسلت من كلّ شيء حتى من نظراته التي ظلّت ترقبني. أراد أن يعتذر مرّة أخرى. لم أقل شيئًا. خرجت. لم آخذ أيّ شيء. ولم أعد له أبدًا حتى فكّنا القضاء.

ـ يا الله، خسرت قيدًا وربحت حياتك.

ـ الوحدة قاسية يا سينو، ولكنّي مسؤولة وسعيدة لما قمت به. أرجوك حافظ على نفسك. القتلة يبحثون عن أيّة روح حيّة. أنا نفسي غادرت بيتي وأقيم عند أختي.

كان نوع من البياض يلفّ ذاكرتي. شعرت كأنّي كنت أمارس لعبة بها رائحة تشبه إلى حدّ كبير رائحة الموت.

صافو وماسي تركا العمل قليلاً وانهمكا في متابعة فيلم مغامرات. كانا داخل عالم تبنّياه بسرعة، أكثر منّي. فجأة غابا ولم أعد أسمع إلاّ ضحكاتهما الطفوليّة المتتالية.

عبد الله ابن عمّي قروي طيّب، شبعان من الدنيا، وهو لا يملك قوت يومه. كان مرهقًا ولم يكن يريد أن يثقل عليّ بالحديث.

ـ وحقّ ربي ظننت أنّك قُتلت. سمعت الخبر في إذاعة ميدي الدوليّة. سحبت نفسي وذهبت عند أخيك عزيز وأخبرته بما سمعته. طمأنني قليلاً أنّك في باريس. ولكنّه هو كذلك انتابته شكوك كبيرة لأنّه يراك دائمًا تتحرّك بين ضفّتين. ذهبنا عند حسّان، أخيك الكبير، لنرى كيف نخبر الوالدة. من حظّنا أنّه كان قد كلّمك وعرف القصّة.

ـ يبدو أنّ الله سيمنحنا عمرًا آخر. شكرًا عبد الله.

ـ يا خويا طول العمر، تهلا في روحك. والسلامة في الرأس.

وضعت عليه خطًّا في القائمة وبحثت عن رقمها. ماسي وُضع رقمها أمام اسمها.

ـ صوفيا، عاش من سمع صوتك.

فجأة أجهشت بالبكاء، إذ وجدت صعوبة كبيرة في الحديث إليها وإسكاتها.

ـ يا مهبول، ليس من حقِّك أن ترمي بنفسك إلى التهلكة. وحياتك صرت معلَّقة على نشرات الأخبار منذ أن بدأوا حملة الإبادة. نسيت قتلهم لأساتذة اللّغة الفرنسيّة والتاريخ والشعر والرواية، وبدأت أعيش على وقعك. في البداية قلت في خاطري، هذا الرجل تركنا وخرج في ظرف كنّا في حاجة ماسّة إليه، ولم يخبر أحداً من محيطه، يجب أن لا أسأل عليه وأن أخرجه نهائيًّا من ذاكرتي وذاكرة أصدقائنا. وأخرجتك من ذاكرتي وانهمكت في حياتي الزوجيّة، عملي وبناتي الثلاث. إلى أن فجّر فيَّ لغم غيابك إحساساً غامضًا كنت أظنّه مات وانتهى. لا أدري إذا كان الموت يكبّر الأشياء في أعيننا، ولكنّي شعرت أنّي فقدت عينًا كنت أرى من خلالها نفسي كلَّما أظلمت الدنيا عليَّ. صديق الروح الذي يقرأني من عينيّ. غاضبة منك جدًّا... جدًّا... طبعًا لا نغضب إلّا ممّن نحبّ. طلبت من عزيز رقمك الجديد الذي تردَّدت أمامه كثيراً، العديد من المرّات عندما كانت تظلم الدنيا في عيني. ثم قلت ليكن، ولكنّي لم أسمع إلاّ صوت ابنك الذي يشبهك. كدت أجهش بالبكاء لولا أنَّه نبّهني أنّه ابنك وأنَّك في إيطاليا وأنَّك بخير.

ـ يا اللَّه لنقل إنَّها ضربة جاءت في الفراغ.

ـ الحمد للّه على سلامتك. يا مهبول، لا تنس أنّ لك وراء موج المتوسّط من يحبّك؟

ضحكت.

ـ الحمد للّه أنّك مازلتَ قادراً على الضحك والتنكيت في بلد كدنا ننسى فيه أنّ الدنيا ما تزال قائمة، وأنّ الجزائري ما يزال قادراً على الحبّ والضحك.

لم أعلم بالساعة إلاّ عندما شعرت بحرارة صافو وهي تطبع على جبهتي قبلتها المعتادة، كما تعوّدت أن تفعل قبل أن تنام، وماسي يعطيني خدّه الساخن ووجهه المحمرّ، قبل أن ينسحب نحو فراشه بكتابه الذي لا ينام إلا به: *أمير الخواتم*، *لطوليكن*[1]. انتهى من قراءة جزئه الأوّل: *جماعة الخاتم*، *القلعتان*، وهو بصدد الانتهاء من: *عودة الملك*.

ـ تصبح على خير بابا.

ـ تصبحون على ألف خير.

كنت سعيداً أنّ الناس الذين يكرهونني، أشدّد على يكرهونني، لأنّي في أعماقي، لا أحمل أيّة ضغينة لأيّ شخص، لم يكونوا من ضمن قائمة من سأل عنّي. لا أحد منهم سأل عنّي، فأعفوني بالتالي من جهد تغيير رأيي فيهم.

كنت أستعدّ للمرور إلى رقم آخر، عندما رنّ التليفون. كان لأحد الأصدقاء الصحافيّين من الذين هاجروا فيما بعد، إلى أميركا بعد أن قُتلت زوجته عند باب المدرسة لأنّها أستاذة رسم وفنّانة. لا أدري في أيّ شيء كان يفكّر قاتلها؟ وهل كان يفكّر أصلاً؟ ماذا فعلت سوى أنّها جعلتنا نمتلك الحلم، وكيف نضعه في جيوبنا ونركض به كالأطفال من بيت لبيت، ونصرّ على أنّنا أصبحنا، بقدرة قادر، سحرة وبإمكاننا أن نحمل الألوان والسماء والبحر في جيوبنا، أو في أكفّ أيدينا. وعندما تثقلنا الألوان، نضعها في أعيننا ونركض صوب الشمس.

---

[1] ـ J.R.R Tolkien: Le Seigneur des anneaux (Trois tomes: La Communauté de l'anneau, les Deux Tours, Le Retour du roi).

ـ أتمنَّى أن لا أكون قد أزعجتك أخي ثينو (سينو)؟

عرفته من عضّة لسانه عندما ينطق حرف السين. مالك كان لسلوساً:

ـ لا أبداً يا مالك. من أين تتلفن.

ـ من قثنطينة (قسنطينة).

ـ كنت أفكِّر في أن أتّصل بك غداً. كيف جريدة النصر؟ كيف حالكم مع الطاقم الجديد. احذر من القتلة. دمويّون ولن يرحموا أحداً.

ـ بوف أثبحنا (أصبحنا) قدريّين. كنت أريد فقط أن أعتذر منك. حاولت الاتّثال (الاتّصال) بك بكلّ الوثائل (الوسائل) ولكنَّني لم أفلح. الثحافة (الصحافة) حمقاء أحياناً، لكنّ القتلة ثرقوا (سرقوا) منّا عقولنا وأثبح المثتحيل (أصبح المستحيل) ممكناً. أعتذر أخي العزيز وأرجوك أن لا تؤاخذني.

ـ لم أفهم جيِّداً.

ـ على كل حالّ النّيّة كانت طيِّبة، وهي تغطية موت عزيز قضى عمره يناضل من أجل حداثة يبدو أنَّها ثعبة (صعبة) في هذه البلاد. البارحة نشرنا مانشيت على الثفحة (الصفحة) الأولى تتعلَّق باغتيالك. جاءنا الخبر عن طريق وكالة الأنباء، وهذه ثيغته (صيغته) أقرأها عليك حتى تعرف كلّ شيء منِّي، قبل أن تثمعه (تسمعه) من غيري: اغتيل ثباح (صباح) اليوم الكاتب الروائي ثينو (سينو) وهو في طريقه إلى عمله. وكان المرحوم إضافة إلى كونه باحثاً في الجامعة، موظّفاً في إحدى مؤثّثات (مؤسّسات) منظّمة الأمم المتّحدة.

ـ ولكنَّك تعرف بأنّه لا علاقة لي بحكاية الأمم المتّحدة هذه؟

ـ الخير ما زال الكدّام (القدام)، قالها بلهجته الجيجليّة:

ـ كتبت عنك ثفحة (صفحة) كاملة اشترك فيها عن طريق التليفون كل من يحبّك ويحبّ شجاعتك وكتاباتك. واخترت للثفحة (للصفحة)

الأولى صورة لك وأنت تلقي محاضرة في قاعة النفق الجامعي، ومانشيت بعنوان: *اغتيال الروائي ثينو (سينو)، لن يقهر القتلة، حضورك الكبير.*

كان يتحدَّث كمن يصف مشهداً سينمائيًّا. لم أصدِّق، كيف تزداد أهمِّيّة الإنسان ميّتًا أكثر منه حيًّا. يبدو أنَّه علينا أن نموت جميعًا لكي نحصل على الأوسمة والتكريمات. لم أرد أن أؤذيه، واحتفظت بردّي في داخلي وأضفته إلى بيتي الكبير، في داخلي والذي أسمّيه بيت الأسرار.

لا أدري كم كانت الساعة، ولكنّ كلّ شيء كان ساكنًا، حتى حركة الشباب الذين تعوَّدوا أن يلعبوا لعبة القطّ والفأر مع الشرطة، في هذا الحيّ الباريسي العمّالي المكتظّ بالبشر.

ها هو عمر آخر يُضاف بسخاء إلى العمر المسروق، إذ كان يفترض أن أموت قبل هذه الفترة بكثير. يتخطّى كلّ الحسابات والفرضيّات. أيّ حظّ هذا؟ وأيّ عمر جميل يمكن أن يُعاش خارج رشقات الرصاص، وحفيف السكاكين وهي تذهب وتجيء في حركة دائمة ومخيفة؟

كثيراً ما نكره الصدف، لكنّ بعضها استثنائي، ولا يمكن حساب نتائجها القاسية والجميلة.

ليلي الحبيبة. صدفتي المذهلة،

أنا ابن الصدفة وعليَّ أن أشيِّد لها تمثالاً عظيمًا في قلبي.

أسترجع ذهنيًّا المانشيت التي قرأها عليّ صديقي مالك، في جريدة النصر: *اغتيال الروائي سينو، لن يقهر القتلة حضورك الكبير*. أشعر بشيء من الزهو الغريب والافتخار، وكأنّ موتي الافتراضي زاد من قيمتي قليلاً.

في أعماقي أشعر بعقدة ذنب لا أستطيع مقاومتها أبداً. لا بدّ أن يكون قد حدث خطأ ما، في لحظة ما. القتلة يخطئون أيضًا. أشعر دائمًا بأنّ هناك رجلاً حماني بصدره ليمنحني كلّ هذا الزمن، وأنا مدين له بالرغم من أنّه لا يدري لماذا قُتل بالضبط؟ الرجل الذي قُتل، كان موظّفًا بسيطًا في الأمم المتّحدة، يمرّ كلّ صباح بالقرب من الجامعة، يشرب قهوته في لابراس La Brasse المقابلة للجامعة، يتبادل أطراف الحديث مع أصدقائه من الجامعة، ثم يتوجَّه إلى عمله في منظّمة الأمم المتّحدة. لم يكن بين اسمي واسمه إلاّ بعض القلب. من نفس مدينتي الأصلية. كان اسمه: سينو *الأحرش*. حرفان كلّفاه رصاصة في الرأس لم تمهله ثانية واحدة لكي يعلن عن الخطأ، وأنّه ليس هو المعنيّ. لم يكن يعرف، وهو يخرج في ذلك الصباح، أنّه سيُقتل في مكان رجل آخر لم يره إلاّ بالصدفة في مقهى الجامعة عندما سمع باسمه: سينو. اندهش. قال وهو يضحك:

ـ لا بدّ أن تكون من تلمسان. هذا الاسم ليس وطنيًّا.

قلت له، نعم.

ـ كنت أعرف ذلك. معرفة خير. أنا أيضًا اسمي سينو، وأعمل بمنظّمة الأمم المتّحدة.

دفع لي ثمن القهوة وخرج، منذ ذلك اليوم لم أسمع به إلاّ عندما عرفت أنَّه قُتل في مكاني. كان على العكس منّي، هادئًا وزوجًا صالحًا، وعاملاً مواظبًا على عمله، ولا يحشر أنفه في السياسة. صراعي مع القتلة كان صراعًا يتعلّق بغريزة البقاء. كم أشتهي أن يمنحني اللّه بعض العمر فقط لأقف على قبره قليلاً وأعتذر منه، لأنّ الأقدار التي وضعته أمامي ليقي صدري من الرصاص القاتل، لم تسأله في ذلك الصباح الباكر عن رأيه ولم تدقّق أبدًا في هويّته ولا حتى في وجهه الطيّب.

لن أضيف إلى ما تعرفينه عنّي شيئًا جديدًا إذا قلت لك إنّ المنفى سمح لي أن أرى مدنًا صنعتها الحياة والكتابة، وأن أحلم مئات الأحلام التي لم تكن الكوابيس بها إلاّ صورًا زائلة. المنفى علّمني أيضًا أن لا شيء يضاهي الجلوس في أيّة شرفة وفي أيّة مدينة في الدنيا، وشرب كأس، شاي أو نبيذ لا يهمّ، بدون أدنى تفكير فيما يحيط بنا، وتأمُّل غروب شمس، أو التمادي في بحر نيليّ يذكّرك بعالمك اللغوي الذي لا يموت. السعادة أحيانًا، وربّما دائمًا، لا تتطلّب الكثير، سوى بعض الحبّ والسخاء، وقليل من الحرّيّة.

صحيح أنّي خسرت أرضًا جرحت ذاكرتي، ولكنّي ربحت وطنًا عظيمًا، هو وطن الكتابة. أرضي الوحيدة والنهائيّة.

صحيح أنّ أقسى ما في المنافي هو أن تعرف بأنّك ستموت وحيدًا في العزلة، خارج وطنك وخارج أرضك، ولكنّ الصحيح أيضًا أنّ المنفى يمنحك حياة لم تتخيّلها، ووطنًا تنشئه بسهرك وأظافرك وخوفك، لا يشبه الأوطان كلّها، لأنّه ملكك وحدك، وطن الكتابة، لن تتخلّى عنه مهما كان الثمن غاليًا وعسيرًا. تظلّ تصرّ وتقاتل من أجل أن تظلّ شوارع هذا الوطن وأنفاقه ودروبه مُضاءةً ومُنارة، ليلاً نهارًا، مهما كانت الخيبات كبيرة وشروط الحياة قاسية إلى أقصى الدرجات، والثمن غاليًا.

ليلي... عمري...

حبيبتي وعنائي الجميل،

أتساءل اليوم وأنا في قمّة صفائي الذهني الذي لا أضمنه بعد سنوات قادمة، هل خسرت وطنًا حقًّا عندما خرجت في ذلك اليوم الشتوي القاسي، مستجيبًا لرغبة عميقة فيك، ولم ألتفت ورائي لكي لا أتراجع؟ لكي لا أرى؟ لكي لا أندم؟ بالضبط لا أدري.

ربّما كنت أصلاً لا أريد أن أعلم.

05h 33mn 07s

- ١ -

حبيبي... لم تكن مجبراً على كلّ هذا التعب، فأنا أعرفك أكثر من نفسك.

ياه! كم أنا غبيّة. نسيت القهوة لكسر هذه الرتابة المقلقة، وهذا الخوف من تيه المبهم. توقظ الحنين الميّت وتفتح العيون.

سحبت الترمس برجلي اليمنى، من زاوية المكتب، حيث وضعته منذ لحظة دخولي إلى السكريتوريوم. الرشفة الأولى، شعرت بها كأنَّها تنزل في بطن فارغ. كانت قويّة ودافئة. تتبَّعت مسارها حتى النهاية. شعرت بانتعاش غريب. الثانية أحسَست بلذّتها. الثالثة... الرابعة... بدأت سكرة التعب تنسحب شيئًا فشيئًا.

الفجر ينزلق نحو السكريتوريوم في غفلة منِّي، والليل ينسحب بهدوء وسكينة.

توغَّلَ نور خفيف من وراء فجوة الكوّة نصف المفتوحة، فتسرَّبت رائحة المطر الممزوجة بتربة الحديقة وزهر الرمّان، إلى عمق المكان. لا أعرف ما العلاقة بالضبط، ولكنِّي شعرت بلذّة ما على رأس لساني.

أتلمَّس أشيائي المحيطة بي.

لا شيء سوى الذبابة التي كانت تحسّسني بوجودها من حين لآخر بطنينها الحادّ. كنت أظنّها ماتت أو انسحبت، ولكنّها عادت إلى الدوران الفارغ وكأنّ النور المتسرّب من فجوة الكوّة الصغيرة، أيقظها. بدأت تزعجني وتمنعني من التركيز، على الرغم من أنِّي لم أعد مهتمّة بالزمن كثيراً، لأنِّي كنت خارجه. كان يذوب كقطعة ثلج تحت أشعّة شمس حارقة.

لا ورق على الطاولة في الجهة اليمنى، إلاّ الرسالة الأخيرة التي بعثها لي سينو قبل أن يتركني في مطار روما لأعود إلى برلين، ويسافر هو إلى الدوحة لحضور ندوة الأدب والمنفى. كانت على وجهه مسحة حزن، لا أريد اليوم أن أراها في عينَيْ سينو عندما يسافر، لأنّها تقهره في الأعماق وتظلّ عالقة في ذاكرته وتطحنه بعنف. أعرف أنّه هشّ جداًّ ولا يتحمَّل قسوة الصمت. ربّما كنت الوحيدة في الدنيا التي تستطيع أن تقول ما أقوله، لأنِّي عبرته من الداخل، واكتشفت كلّ دهاليزه المضاءة بنور الحياة والمظلمة أيضاً.

أحاول أن أسترجع بعض أنفاسي الضائعة وسط هذه العزلة التي تتكاثف من حولي لتضغط عليَّ بقوّة، كليمونة.

يبدو أنّ الانفصال بيني وبين مريم أصبح كاملاً. والعداوة استفحلت نهائيًّا. لأوّل مرّة أشعر بقوّة، وبلا أدنى ندم، أنِّي لم أكن مريم، وأنِّي كنت

أيضاً بعيدة عن ليلى البسيطة، المهبولة، ذات العينين الطفوليّتين، المليئتين بالغيرة عندما تُداس أرضها، والقادرة على ارتكاب كل المعاصي حتى في حقّ نفسها.

لست امرأة مثاليّة. لست قدّيسة، وأرفض أن أكونها.

طنين الذبابة الزرقاء يمنعني من التركيز، لكنّه لا يمنعني من الكتابة والقراءة. انتبهت فجأة، وسط فوضى المكتب، إلى أنَّ المسدّس كان، هذه المرّة، مصوّبًا باتّجاه اللاشيء. وربّما باتّجاه كلّ شيء.

أغمضت عينيّ وحاولت أن أهمل وجوده لكي أتمكّن من التقدُّم في عملي. تحسُّسه يورثني بعض الاطمئنان، لكنّه في الوقت نفسه يخيفني، لا أدري لماذا؟

- ٢ -

أغمضت عينيّ وحاولت أن أنسى وجودي قليلاً داخل السكريتوريوم.

لم نفكِّر أنا وسينو، ولا لحظة واحدة في الزواج إلاّ عندما داهمني خوف بفقدانه. طبعاً. سينو، كعادته في كتاباته، لم يقل الحقيقة في **وقع الأحذية الخشنة**، أو على الأقلّ لم يقل حقيقتنا، ولا حتى في **طوق الياسمين**، التي كتبها بعد عشرين سنة من الأولى، وانتظرت أن يقول العنفوان الذي كان في قلبي، وربّما في قلبه.

أقول اليوم بصراحة، بعدما هزمه قلبه، سينو لم ينصفني أبداً. كان قاسيًا عليّ. فأنا لم أتزوَّج لأنّي كنت أرغب في الزواج، أو لأنَّ العمر بدأ يخذلني. عندما حدث ذلك كنت ما أزال شهيّة كتفّاحة، وشابّة مليئة

بالأشواق والرغبة في اكتشاف الحياة وقضمها وعدم الاكتفاء بهوامشها. كنت مثله تمامًا، أعرف أنَّ الزواج في صورته المهيمنة، مؤسّسة قاتلة، واختيار خاسر، واختبار فاسد للحواسّ، وخاتمة لرعشة قويّة نريدها عبثًا أن تظلّ في ألقها وعنفوانها.

أتذكَّر أنِّي سألته يومها سؤالاً طفوليًّا، ربّما لم يكن بريئًا:

ـ سينو، هل تحبّني؟

ـ وهل في اللّه شكّ؟

قالها بسخريته المعهودة.

ـ لا أريد هذه الإجابة الفضفاضة. هل تحبّني؟

ـ نعم... أنا أحبّك حبًّا جمًّا، وإذن أنا موجود يا سيِّدتي ويا أميرتي...

ـ لسنا في مدرسة، وكن جادًّا لمرّة واحدة في حياتك.

ـ نعم يا ليلي، أحبّك. أحبّك. أحبّك...

ـ وتريد أن ننجب ملينا؟

ـ طبعًا. يبدو أنَّ المسالة أكثر جدّيّة ممّا تصوَّرت؟

ـ طيِّب، قل لي فقط، كيف سنفعل؟ نوّرني، فأنا لم أعد أفهم شيئًا. لست مريم وأحتاج إلى دفء جسدك لكي أنجب؟

ـ مثلما فعل اللّه مع مريم. نفخ فيها شيئًا من روحه. وأنا أفعل ذلك يوميًّا. هل المسالة صعبة إلى هذا الحدّ؟

ـ عدنا إلى السخرية؟ يبدو أنَّك تهرب من أسئلتي.

ـ ليلي. عمري. عذراً. أريد فقط أن نخرج من هذا الجوّ المشحون. فهمتك جيِّداً. ولكنّي لست مؤهّلاً للزواج. لم أر شيئًا من الحياة. لو تزوَّجتك الآن، سأخونك غداً. أنا جادّ ولا أمزح. أحبّك، وأريدك أنت بالذات أن تظلّي معي طوال عمري. لا أعرف إذا كان الحظّ سيحالفني للالتقاء بامرأة مثلك.

ـ كيف نجعل من الحلم حقيقة، كما جعلنا من الرغبة وجدانًا لا يموت؟

انكسرت عيناه. صمت طويلاً وكأنّه أدرك فجأة أنّ المسالة جدّيّة، وأنّ ما سيحدث سيكون خطيراً وقاسيًا. شعرت من عينيه، كأنَّ ثقل العالم كلّه نزل على صدره، وضاق نَفَسه بشكل ملحوظ. رأيته يتنفَّس بصعوبة كبيرة.

ثم قال:

ـ ليلي حبيبتي... طريقنا منذ البداية كان واضحًا وصريحًا. اخترنا مسلكًا جميلاً ولكنَّه صعب، إمّا أن نواصل فيه وإمّا...

ثم سكت من جديد. ساعدته على إتمام جملته. كنت مجروحة في الصميم:

ـ وإمّا... قلها ما تخافش. وإلاّ نفترق؟ هكذا إذن أهُونُ عليك إلى هذا الحدّ؟

ـ أنتِ وضعتِني في مأزق.

ـ مأزق؟ سينو، هل جرّبتَ أن تكون امرأة في عالم ذكوري معتوه، يجرّك كلّ صباح بخطوة جديدة نحو العصر الحجري حتى لا أقول القبر، ويسحبك نحو فراش المومس، ويقتل شهوتك في اللحظة التي يلمسك

فيها؟ هل جرّبتَ أن تحني رأسك فقط لأنّك لا تعرف كيف تخبّئ حبّك أمام الآخرين الذين يعرفون حقيقتك؟ هل جرّبتَ مثلاً أن تكون، ليوم واحد فقط، امرأة في مجتمع قامع يعيش على كذبة كبيرة اسمها العفّة؟ مستعدّة أن أواجه كلّ دبّابات العالم وقنابله الذرّيّة، مقابل لحظة واحدة أعيشها معك بحرّيّة، ولن أضطرّ في كل لفتة، إلى تبرير وضعي. هل فكّرتَ في ذلك قليلاً؟ طبعًا لا. أعرف. أنت مرتاح في عالمك الرائع الذي لا يكلّفك شيئًا كبيرًا. للأسف، لا تتفرّد في هذا عن بقيّة الرجال.

شعرت بأنّي كسرت شيئًا عميقًا فيه.

هذه المرّة كذلك لم يردّ. توغّل في صمته كمن يدخل نفقًا لا نهاية له.

دخّن سيجارة، بدون أن يتكلّم. سيجارتين. ثم ثلاث سيجارات. عشرًا. امتلأت الغرفة بالدخان. انتظرته طويلاً حتى ظننت أنّه نسي أنّي كنت معه. إلى أن نطق بهدوء ويقين وصفاء مؤلم. ليته صمت:

ـ عمري... أحبّك. كلّ شيء في الدنيا يقودني نحوك. ولا أعتقد أنّ الأقدار تلاقيني بمن هو بقدر سماحتك وغناك الداخلي وألقك ورهافتك. سأفقد فيك حبًّا لن يتكرّر أبدًا. ولكن يبدو لي أنّي لست مؤهّلاً لأن أكون زوجًا جيّدًا. ثم... أنت أفضل منّي بكثير. لا أصلح مطلقًا. لا شيء يقيّدك بي. من حقّك أن تذهبي وراء حياتك وحلمك. أنت الآن حرّة. افعلي ما تشائين...

بقيت للحظة خارج أيّ شيء كان يحيط بي. شعرت بفجوة في دماغي اتّسعت بسرعة. كلّ شيء أصبح رخوًا تحت قدميّ. كنت أقف بصعوبة كبيرة على حافّة لا حدود لأخدودها: حافّة النار وحافّة الجحيم.

أحسَست بشيء غريب لم أفهمه جيِّداً. كيف يمكن لسينو أن يتخلَّى عنِّي بهذه السهولة؟ لا يعقل. هل يقبل أن يقذف بي هكذا، بين ذراعي شخص آخر، لا يحبّه كثيراً، ولا تتحرَّك فيه حتى حاسّة الغيرة؟ لا بدّ أن يكون قد جُنّ؟ حاولت أن أتماسك بصعوبة.

سينو لم يُجنّ، ولكنَّه كان في عالم وحده كان يعرف قسوته. كان يختبر سرّه الدفين وأشواقه وقدراته على تحمُّل غيابي.

كان ينزف داخل صمته وجنون قراره وحرّيّته.

الكلمات الأخيرة التي شدَّد عليها كانت قاسية وكأنَّه فتح فجأة أمامي كلّ أبواب جهنّم دفعة واحدة. أردت أن أصرخ بأقاصي ألمي، ولكنِّي في آخر لحظة أحجمت لكي لا أخسره نهائيًّا. كنت أدرك أنّه كان يداري جبناً يخاف من نتائجه.

كان سينو ضحيّة ارتباك داخلي لم يكن قادراً على مقاومته.

ـ ٣ ـ

ليلتها لم أنم.

لم أساله كثيراً عن أشياء وددت لو يسمعها منِّي، ولكنِّي لم أستطع. لم أبك. لم أتكلَّم. عندما خرجت، ذهبت نحو أقرب قاعة سينما، سينما الكوليزي الأنيقة والواسعة، واندفنت فيها طويلاً. بكيت مدّة ساعتين في الظلمة، ثم خرجت مرتاحة من ثقل كبير، وبصفاء ذهني جميل. عندما سألتني عائشة ونحن عند الباب:

ـ ما رأيك في الفيلم؟

التفتّ نحوها. ولم أستطع كتم ضحكتي المليئة بالدموع:

ـ اللّه يخرب بيتك؟ هذا حالةُ واحدةٍ رأت فيلمًا؟

ـ أريدك أن تخرجي من حالة الحزن. سينو يحبّك. ستتغيَّر الأمور، أنا متأكِّدة من ذلك. ولكن...

ـ ماذا ولكن؟

ـ لم تقولي لي رأيك في الفيلم.

التفتّ نحو عائشة مرة أخرى. رأيت عينيها اللتين تشبهان عيني عصفور ضائع. عدت إلى الضحك مرّة أخرى بشكل يكاد يكون هستيريًّا.

ـ توقَّفي يا عائشة... أرجوك. أنت راح تهبليني بأسئلتك.

في الطريق، تأكَّد لي أنّه لكيٍ نحزن لا نحتاج إلاّ إلى هزّة غير منتظرة، ولكي نضحك، نحتاج حتمًا إلى نظرات عائشة التي لا تستطيع أن تخبِّئ سخريتها المبطّنة من الحياة. ضحكت مثلما لم أضحك أبدًا في حياتي.

عندما وصلت إلى البيت، كنت قد استوعبت داخليًّا فكرة إمكانيّة مغادرة سينو. لم أكن أسمع لعائشة وهي تحاول أن تخفِّف من ثقل ما حدث بيني وبينه، وتعتبره مجرّد حالة طارئة، ولكنِّي كنت غارقة في نداءات بعيدة كانت تسحبني نحو عقل افتقدته في كلّ الزمن الذي مضى. أو على الأقلّ هكذا تصوَّرت.

الأيّام التي مضت أكّدت لي مسلكي. انتابني صفاء غريب، وأجبت أمّي التي ظلّت زمنًا طويلاً تنتظر إجابتي، بأنِّي سأقبل الزواج من ابن عمّي رياض الذي لم يتوقَّف عن المجيء والذهاب إلى الدار، حاملاً الهدايا والعطور الغالية. سمعت أمّي يومها تزغرد بأقصى ما تملك من قوّة.

ـ سي ناصر سيكون أسعد ميّت في الدنيا.

ـ خلّيه يرقد يا يمّا، لا أريد تحريك مواجعه.

كنت أعرف أنّ والدي كان أكثر حزنًا منّي. كان منكسرًا لحماقتي. رأيت وجهه لحظتها وقد علته سمرة طاحنة غيّرت كلّ ملامحه. أدرك جيّدًا أنّه لو كُتِبَ له عمر آخر، وتعرّف على سينو، لأحبّه بعمق.

أمّي المسكينة، قصّة أخرى. لم تكن تعرف أنّها كانت تولول لجنازتي القادمة.

عندما أخبرت سينو بقراري، لم يقل شيئًا. انتظرت لحظات طويلة أن يطلب منّي منحه دقيقة، ساعة، يومًا، شهرًا، سنة، قرنًا للتفكير، لكنّه لم يفعل. لم يكن سعيدًا وهو يحني عينيه المنكسرتين نحو الأرض، لكي لا يراني وأنا أغادر بيته للمرّة الأخيرة، تاركة ورائي كلّ شيء، كتبي، وفوطي، حقائب سفري، ألبستي الداخليّة وأصداء قصّة ماتت على عتبة بيت كان باردًا جدًّا في ذلك الصباح.

شممت عطبًا كبيرًا في رسالة سينو التي حالت حروفها قليلاً. فقد بيّنت لي، وأنا أعيد قراءتها، أنّ سينو كان في عزّ انكساره وهو يكتبها. جبروت اللحظة وضعه أمام استحالة لم يحسبها. ربّما لم يفهمها أصلاً لأنّ فداحتها كانت كبيرة.

من منّا خرّب كلّ شيء؟ من خيَّب الآخر؟ لا أدري. ربّما كلانا.

* * *

من سينو إلى مريم

وهران البهيّة، خريف ١٩٨٨

أشواقي المعطوبة.

مريم الحبيبة... مجنونتي.

من أين أبدأ هذا الخوف؟

من أين أبدأ هذا الجنون، وكيف أدخل ضبابك الكثيف وغموضك المذهل؟

خريف[١] فراقنا الأوّل يأتي داميًا وقاسيًا.

---

١ - إشارة إلى أحداث ٥ أكتوبر ١٩٨٨ الذي سُمّي بخريف الأطفال، حيث خرج فيه تلاميذ المدارس والثانويّات يطالبون بقليل من العدالة والوفاء للوعود المقطوعة بعد الاستقلال، فووجهوا بقمع وحشي خلّف أكثر من مائتي ضحيّة. هي سنة فراقنا لأوّل مرّة. وسنة زواجي. بعدي بأقلّ من سنة، تزوّج سينو أيضًا، لا أدري هل فعل ذلك انتقامًا منّي، أم أنّه هو أيضا شعر بالحاجة الماسّة إلى نسياني دفعة واحدة، ومحوي من ذاكرته نهائيًّا؟

عندما خرجتِ في آخر مرّة باتّجاه غامض، سحبتِ وراءك كلّ شيء، حتى احتمالات العودة. لم تلتفتي أبداً، فقد كان حريقك قاسياً. تركتِ وراءك شوارع مشتعلة، وحكومة وطنيّة جداً، لم تُخرج أسلحتها بعد الاستقلال إلاّ لكسر الانقلابات أو لقتل أطفال الأحياء الشعبيّة. إنّه خريف الحزن أيّتها الغالية. كل شيء يسقط فيه: الأوراق، الأحلام، العشّاق، والهاربون من تاريخ، بدل أن يحرِّرهم، قتلهم في غفلة منهم.

الساعة الآن تزحف نحو وقتها المعتاد. لا أرى شيئًا من وراء هذه النافذة المشرّعة باتّساع إلاّ هذه الشجرات العملاقة المصطفّة مثل جنود منكسرين. تتمايل. أشعر بأوراقها وهي تغادرها لتتعرّى داخل هذا القفر الذي يشبه مدينة. أوّل مرّة أمضي هذه الفصول عارياً منك، من رائحتك، من ضحكك، من خوفك. تعرفين أنّ جواً مثل هذا، وفصلاً مثل هذا، يرميني بعيداً نحو طفولتي الأولى وأنا أركض في تلك المدينة البعيدة التي علّمتني الذهول والدهشة. أتذكّر أستاذ الرسم وكلماته الجميلة: من يعرف رسم ورقة البلاطان؟ أهجم عليه بصراخي وأصابعي. معلّم أنا. معلّم أنا. معلّم أنا. ثم أخطّها بكلّ تفاصيلها الرقيقة وألوانها وانكساراتها الجانبيّة.

ها أنا ذا في هذا الصباح الحزين، أراها وهي تهتزّ لرياح الشوارع التي تصلني هسهساتها داخل هذه القاعة الدافئة ولا شوق لي إلاّ رسم وجهك واستعادة ملامحك... وربّما بعدها تأتي استعادة تفاصيل الورقة.

أنت هناك بعيدة.

وأنا هنا، في هذا المكان، أكثر بعداً، وانتفاءً.

الساعة تزحف بقوّة، نحو ما لا أرغب فيه مطلقًا. قوّة الرياح في الخارج، تزداد عنفًا. أغلقت النافذة، ومع ذلك تأتيني هسهسات شجرة

البلاطان العملاقة. لا بدّ أن تكون فصول هذه السنة باردة. أشعر بوخز داخلي، ثم أقول. ليكن. الزمن صعب. لنخرج منه بانكسارات أقلّ في الظهر، وبرؤوس مرفوعة ولو قليلاً.

هذا اليوم الخريفي، يعطيني رغبة قصوى للتجوّل داخل المدينة، للمغامرة داخل شرايينها، لكنَّكِ بعيدة. ثم أقول في خاطري. ليكن، سأتخيّلك وسأعشقك. أتدحرج معك داخل كلّ التفاصيل الممنوعة، لكنّ خوفًا يخرسني فجأة، فتملأني برودة لا أدري من أين كانت تأتي.

تصوّري يا مريم، أنا المحبّ لك ولهذه المدينة، وللحياة، لم تعد العزلة تعنيني كثيراً. لقد أصبحت تأكل معي في الإناء نفسه وتشرب في الكأس نفسها التي أشرب فيها. أراها وتراني، ألعنها، وتلعنني، أسخر منها، تكزّ على أسنانها وتشتمني. ثم في الأخير نتصالح.

الشجرة العملاقة المواجهة للنافذة ما تزال من حين لآخر تنقر الزجاج، تهتزّ، تتسامق، تريد أن تدخل إلى هذه القاعة. أفتح النافذة التي أغلقتها قبل قليل. تدخل رائحة الورق دفعة واحدة، والأتربة والمطر.

يا اللّه . للمطر رائحة في هذه البلاد . مثل تلك البلاد التي صارت بعيدة عندما كنّا ننزل إلى ساحاتها، نتخبَّأ تحت ألبستنا من غزارة الأمطار، ونصرخ بأعلى أصواتنا ونحن نمسح ماء الأنف الذي يسيل بكثافة على الشفة العليا:

يا النَوّ صبّي.

ما تصبّيش عليّ.

حتّى يجي خُويَا حَمُّو.

ويغطّيني بالزّربيّة.

ما أجمل مدننا وقرانا حتى في لحظات قفرها وتصحّرها. ما أجمل نساءنا ونوافذ بيوتنا العتيقة. ما أجمل شوارعنا وروائح الأتربة التي يعطّرها المطر. لقد رُبّينا على الأفراح الصغيرة والدهشات التي لا تتركنا حتى لحظة الشهقة الأخيرة.

كيف أنتِ اليوم؟ كيف ستواجهين الصباح. لا بدّ أن يكون خوفك أكثر من خوفي. فأنا أعيش هذا الخوف في التفاصيل وأنتِ تعيشينه داخل نشرات الأخبار والصحف اليوميّة التي تضخّم استشهاداتنا اليوميّة البسيطة وموتنا المتكرّر. هل تتذكّرين ما أتذكّره، هل تعرفين أنّنا مجبرون على إدمان أقراص الأمل حتى لا نموت بالشهقة القاتلة، وحتى عندما يتحوّل الأمل مجرّد حلم نتشبّث به في الفراغ.

أسمع صوتك داخل نقرات هذا المطر. أحزن. أشعر بغربة كبيرة. أصرخ بحسرة. يا اللّه لماذا ضيّعتنا الأسئلة وتُهنا داخل الأجوبة المستحيلة؟ لماذا لم نأخذ الحياة من رقبتها كما تسلّمناها منذ أوّل لحظة، ونُدخِلها معنا في فراشنا نفسه، ونذيقها خلوتنا وفراغنا وخوفنا بدل أن ندخل معها في عراك لا يُفضي إلاّ إلى موت مؤكّد. أتساءل، وأنا أستحضرك داخل هذه الخيبة التي لا أدري إن كانت حزنًا أم شيئًا يشبهه.

ماذا تقرئين أيّتها الحبيبة التي لا تغادر الكفّ إلاّ لتسكن الروح؟

ماذا تكتبين؟

أو، بكلّ بساطة، ماذا تفعلين الآن؟

أنا سعيد بهذه الحالة المؤذية. أحبّ الأوراق والحبر والأقلام، والألوان البنفسجيّة بكلّ تدرّجاتها. أحلم بيأس أن أقبض على هذه اللحظة وأنت معي. لا أستطيع أن أستحضرك وأنا أعبر دروب الخوف ورعشة الموت. ماذا سيحدث

بعد قليل؟ هل سيسعفني الحظّ لأضع الرسالة في صندوق البريد؟ أم ستمتصّني رصاصة طائشة؟ حتى هذه اللحظة لا أعرف ما سيحدث بعد قليل. الشيء الوحيد المؤكّد أنّي سأخرج من هنا باتّجاه مسالك المدينة ومعابرها الصغيرة، علّني أمرّ بدون أن أثير أيّ انتباه. مشاريعي كثيرة، ولكنّي معطوب الجنون. لا شيء أمامي إلاّ وجهك الذي يتمادى في الفراغات مشتّتًا ومرتبكًا، قبل أن يعود بكلّ امتلاءاته المعهودة. يذكّرني بحياتنا المسروقة. ماذا يساوي الحلم في غيابك؟ ومع ذلك لا أملك داخل هذا الموت إلاّ أن أحلم، وأحلم باستمرار حتى لا أنقرض مثل حيوان خرافي. تصوّري! أتخيّلني ديناصوراً كان يُفترض أن ينقرض ولكنّه عن طريق الصدفة بقي حيًّا حتى إشعار آخر. فصيلتي تنقرض بهدوء وبصمت الجميع. أصدقائي يموتون الواحد بعد الآخر، وأنا أبحث عبثًا عمّا يمكن أن يعطي استمراراً لحياتي في الكتابة. أبحث عنك، معقلي الأخير، ضدّ رياح الخوف، ولكنّي كنت كلّ يوم أخسرك قليلاً، حتى افتقدتك نهائيًّا.

لا شيء يسعفني. أحاول عبثًا أن أنسى ما حدث لنا لكي أستطيع أن أعيش وأستمرّ في التفكير بك.

مريم الحبيبة،

فرحتي، وبعض شقائي، وما تبقّى من حلمي،

في القلب أشياء كثيرة أريد أن أقولها قبل لحظة الأفول، لكنّها تستعصي على الخروج.

يا ترى، هل سيحالفنا حظّ منسيّ، لنشرب كأسًا مسروقة على هذه الأرض التي صارت بعيدة؟ هل سيعطينا الزمن القاسي مهلة لنتعرّى ونقرأ بعيون الأطفال أوشام أجسادنا؟ هل سيُكتب لي مرّة أخرى أن أستمع إلى

تقطّعات تنهّداتك وهي تتمزَّق على صدري ونقبض بجنون على أهْبَل لحظة مشعّة في أعماقنا؟ هل سيمكنني بعد اليوم أن أمدّ يدي إليك وأدخلك دفعة واحدة في قلبي وذاكرتي؟ هل سأشعل من جديد سيجارتك وأنقر كأسك وأنا أضحك بأعلى صوتي: هاه نكاية في أولاد الكلب! لنشرب حتى تهلكة الفرح، بدون ندم أو ندب؟ هل سنقطع معًا معابر هذه المدينة، وطريق الساحل ونحن في السيّارة، نقصّ الحكايات ونضحك ونتمتّع بالأمطار؟ هل سأقبض على يدك ونعبر أطول شارع في هذه المدينة بلذّة استثنائيّة؟

هل سيسعفني الموت لأراك ثانية مثلما أشتهي؟ وهل ستقبلين العودة إلى قلبي الذي جرحك ولم يرحم صمتك وشوقك؟ أسألك بيأس وخوف، أيّ حرف أركب؟ أيّة لغة ألبس لألمس قلبك وتعرفين أنّي أحبّك، وأنّي وحيد مثل الفجوة في بحر خسر كلّ ألوانه؟

تندفع في أعماقي حجارة قريتي البيضاء المتفانية في ظلّ جبل يطلّ عليها من فوق، وصوت القطارات الخشبيّة التي كلّما سمعتُ صفيرها، اختبأتُ من وراء الصخور خوفًا من أن تسحبني في أثرها، ووجه المدينة الساحليّة المعلّقة كشعاع لا يموت في عمق ذاكرة ترتعش كلّما لامَسَتْها موجة هاربة أو لحظة ذهول.

ماذا أقول؟ تقولين: تكلّم، فأنا أتلذّذ بالاستماع إلى أبجديّاتك الخائفة. ها أنا ذا أقول. هل أستطيع تخيّل لحظات الفاجعة في غيابك؟ إنّي أشعر بحريقك أنت التي تعيشين لقلق عظيم اسمه الخيبة، ينزلق بين الرعشة والرعشة، والخوف والخوف، والدهشة والدهشة. تفتحين النافذة لتنسي شطط الخسارة القاسية، تبدو لك المدينة غارقة في ألوانها واحتفالاتها. تلعنين فجأة ربّ هذا الجيل ـ اللعنة، الذي اختار الحرائق والموت بدل الحياة. أتخيَّل حجم الحرائق التي تنشب في داخلك الذي جفّفته الأحزان، أيّة حياة؟ رجل أعشقه

وهو مستحيل، لا ألقاه حتى في الحلم بحرّية. ويوم التقيت به، انزلق من يدي كالظلّ الهارب؟ لا بدّ أن يكون في هذه الدنيا شيء يسير بشكل معكوس؟

مريم، من أين يأتي صوت هذه الرعود؟ ما هذه الأمطار العاصفة التي تنقر الزجاج بقوّة؟ إنّها اللحظة تمامًا، التي أتأمّل فيها بهدوء وصمت. أعشق هذه الحالة لكنّي عاجز عن تحمّلِ هذا الجمال الموحش كلّه وحدي، أنا هكذا، مثلما كنت تقولين عنّي دائمًا بابتسامة ماكرة:

Grand comme un peuplier, fragile comme les ailes d'un papillon[١]**.**

أضحك معك ببلاهة ولا أسألك، وكم أتمنّى الآن أن لا أسألك مطلقًا وأن أعوّض كلّ سؤال برعشة قبلة، لمسة يد، إشراق ابتسامة. أتبعثر كلّما سمعت قطعة موسيقيّة شفافة، أو غرقت في لون بنفسجي، أو صاحبت، في الطيران، نورسًا هاربًا من بندقيّة صيّاد أعمى، كان يتأمّل البحر من سماء كلما عبرها شعر بعمقها واتّساع فراغها.

حبيبتي وفقداني الكبير،

في هذه البلاد، أشعر كأنّ لا شيء تغيّر مطلقًا. ما زلت على هذه الحافّة المؤدّية إلى الفراغ. فراغ يشبه شاطئًا أو بحرًا منسيًّا. أرسم أوجهًا وعلامات للمستحيل داخل الغيمة التي نفرت من فضاءاتها. أحيانًا أقول، هذه اللغة ما أدهشها مثل الحماقة، لا حدود للذّتها، من ٢٨ حرفًا فقط أصنعك. أحبّك. أعبدك. أبنيك كلمة كلمة، ولحظة لحظة. أُدْخلكِ الذاكرة وأُخْرِجُكِ. من ٢٨ حرفًا فقط أكتب روايات عنك وعن حزنك، أصنع أدوات العبادة والصبابة والخوف وجمل الحنين. من ٢٨ حرفًا أشتّت الدنيا، أفكّكها مثل اللعبة، أبعثر

---

١ - عال مثل صفصافة، وهشّ مثل جناحي فراشة.

أجزاءها ثم أعيد تجميعها بلذّة تفوق لذّة أيّ ساحر. هي ذي اللغة القاسية، عندما ينتهي وخزها، تموت. لغة لا تذكِّرني بقسوة الوحدة وبرودتها، وضياع البلاد والعباد، تستأهل أن توضع في النار أو تُردم حيّة. هي ذي. أحسّها إذ تأتيني مرتعشة مثل بحر يغمرني دفعة واحدة بزرقته. مريم. أسمع رعشتها ودمدماتها، تتسلّل إلى فراشي، تمتماتها تملأ أذنيّ: حبيبي! مثلك أشعر بقسوة البرد والخوف. ضمّني إليك... لا تتركني أمتْ في صمت الخوف. بهاؤك يملأني. ضعني داخل صدرك واتركني أنتهِ هناك داخل نورك، وخوفك، وأحزانك. أمدُّ يدي إلى شفتيك. تتأوّهين ألمًا وحنينًا. لماذا تركتني كلّ هذا الزمن؟ أقول بهدوء. أششششت..... يجب أن نسكت أمام الأقدار القاسية لكي لا نستفزّها أكثر. أنساب مثل الماء الدافئ النازل من الوديان الموحشة. إنِّي أقرأ في عينيك كلّ حيرتك وحيرتي من زمن صنعه غيرنا، وخذلنا في النهاية. كنّا نحلم ببلاد نمشي فيها على الورد ونستقبل كلّ صباح نور شمسها بجيش من الأولاد المفتوحين على المستقبل، ففتحنا أعيننا على عصابة الورثة الذين باعوا كلّ شيء لجحيم المال، حتى تاريخهم وتاريخ الذين ماتوا بين أيديهم مضرّجين في دمائهم. لا أريد أن أعرف من أين جاؤوا وأيّ زمن مجنون صنعهم؟ يكفيني أنّ قلبي الذي غادرك ذات خوف، لا ينبض إلاّ على وقعك. وقلبي الخائف من ظلاله، والمفتون بك، لا يدقّ إلاّ لأناشيدك الخفيّة التي كلّما مسّتها الضرائر، تذكّرت أنّ الشمس تبزغ كلّ صباح.

مريم. أضع يدي على قلبي. أحاول أن أقرأ تفاصيلك لحظة، لحظة. قطعة، قطعة. شوقًا، شوقًا. أخاف عليك جدًا من قلبي، عندما يتعلّق يصبح حزينًا وتائهًا. عندما يحبّ، يفقد رزانته ويتحوّل إلى طفل.

عندما يكتب شعرًا، يصير حزينًا.

عندما يكون هو، يصير حزينًا.

عندما يمتلئ بك يصير حزينًا.

عندما يشتهي دروب هذه المدينة المسروقة ومطاعمها، يصير حزينًا.

عندما يعرف أنّه سينتهي مبكّرًا عند عتبات هذا الخوف، وهذه الوجوه التي فقدت كلّ ملامحها وخسرت كلّ علاماتها، يصير حزينًا.

عندما ينتابه اليقين، بأنّه رمّل قلبك مبكّرًا، يصير حزينًا.

وعندما يرفع كأسك، ولا يجدك بجانبه، يصير حزينًا.

هل قلتُ لك ما كنت أنوي قوله؟

وهل عندما جلست على الطاولة، كنت أعرف ماذا سأقول وأنا أفتح النافذة على شارع المدينة، وعلى شجرات البلاطان العملاقة؟ منذ أن ذهبتِ، أصبحت هذه المدينة كلّ يوم تُسرق منّي قليلاً، وغيابك يجعلها معشوقة مستحيلة. أقفز أحيانًا من نومي مذعوراً، بعد كابوس خرافي. أبحث عنك. أتساءل داخل حيرتي وقلقي. قبل قليل كنتِ ههنا!؟ أين أنت الآن؟ أين تختبئين؟ حتى مكانك في الفراش ما يزال دافئًا. ثم أستعيد هدوئي شيئًا فشيئًا مع مرور حالة الهذيان والسكر. أنت بعيدة ولكنّك هاهنا، داخل القلب المرتّق مثل خرقة بالية ترفض أن تموت. لم نُصنَع لهذا القدر المجنون. فهو ليس لنا.

مريم. حرقة هذه الخسارة الفادحة، وخبلها الضائع المجنون..

ماذا تفعلين الآن ؟ كيف تعيشين هذه البرودة والغيمات المثقلة، أنت عاشقة البحر والشمس؟ كيف تخرجين وكيف تدخلين؟ هل تواجهين الموت الخفيّ مثلي كلّ صباح؟ أحيانًا عندما ننسى طقوسنا القاسية نتبلّد ونشعر كأنّنا لم نُهيّأ لهذا العبث. تصوّري؟ في أيّ شيء تفكّرين الآن؟ في هذا الخوف

الذي أعيشه ممزوجًا بفقدان لا يعوّض أبدًا؟ أو في مدينة تسحبك بالقوّة نحو فضائها وسحرها؟ أما يزال في قلبك ذلك الرّجل الذي عبر ذات يوم جهنّم بكاملها كالنيزك المحروق، ليصل إليك وهو لا يحمل شيئًا قبل أن يخذل أحلامك الطفوليّة ويقتل أمومتك؟ عندما نلتقي في حاضرنا، نحرقه بالأسئلة عن الماضي، وعندما يصير الحاضر ماضيًا منكسرًا، نتشوّق لأصغر لحظاته. هل هو قدر العاشق، أم قدر الكتابة ذاتها، أكُتِبَتْ علينا لعنة الاستقرار على نار البراكين والخوف والحنين؟ بدأت أعوّد نفسي على الجلوس وحيدًا داخل كلّ المخابئ التي تقاسمناها سويًّا. أعدّ الأيّام بمزيد من اليأس والإصرار. أعدّ الطيور التي، على الرغم من دكنة السماء، لم توقف شدوها مطلقًا.

أنسى. أو أحاول أن أنسى لأسعد للحظة وحتى لا أخسر توازني نهائيًّا، لكنّي كلّما حاولت فتح عينيّ عن آخرهما بعد سكرة مجنونة، أتلمّس هول الفجيعة. هل تعرف هذه البلاد التي تعوّدت على الموت، أنّ ما يحدث بها كارثة؟ لقد تساقط الكثير من العشّاق في عزّ الغفلة والدهشة. الأرصفة التي كانت تحمي خطاهم من الموت صمتت. المقاهي التي شربوا فيها قهوتهم المظلمة اندثرت أو سكّرت أبوابها. المسافات التي كانوا يقطعونها يوميًّا داخل شرايين المدينة القديمة تقلّصت وصارت مربّعًا ضيّقًا، عاجزًا عن حمايتنا. مع ذلك، كلّما عزمت على اختراق الدروب الضيّقة، شعرت بأصواتهم التي لا تموت في كلّ مكان: ها هنا تضاحكوا طويلاً على نكتة انزلقت من أكثرهم صمتًا. وها هنا شربوا شايهم وقهوتهم ثمّ انسحبوا نحو أقرب بارٍ، نكاية بالموت الذي يتربّص بهم في كلّ مكان. ثم هاهنا، في هذه الزاوية سمع الكثيرون صرخاتهم الممزوجة برشقات الرصاص، فأغلقوا نوافذهم، وشمّعوا آذانهم، وتأمّلوا المشهد من وراء فجوات الأخشاب. يلومهم الأصدقاء البعيدون عن هبلهم. المجنون بحاجة ماسّة إلى أن يصدّق نفسه من

حين لآخر بأنّه أعقل النّاس حتى يستطيع الخروج. في حاجة كذلك إلى أن يضحك من سذاجة الآخرين ومن طفولتهم وهم يبحثون عن خطاهم الضائعة، ومن خوف الوحدة ورعشتها.

مريم الحبيبة. انكساري،

لو تعرفين الآن ضخامة الشعلة التي تسكنني في غيابك!

بي شوق كبير إلى كلّ الدنيا التي غادرتها وغادرتني. بي شوق لصوتك، ولعينيك، ولجسدك، لحزنك، لعزلتنا، لحميميّاتنا الصغيرة ولخوفك عليّ، ناسية ثقل المأساة التي تحملينها على رقبتك. بي حزن لا يُحدّ من هذه الدنيا التي تفتك بجسدي كلّما لمستها أو اقتربت منها. إنّها طاغية بعض الشيء. وتدهشني ألوانها وإشاراتها الخجولة التي تضحكني أحيانًا سذاجتها. ثمّ أقول في خاطري إذ أتذكّرك بقسوة: ما أوحش هذه الوحدة... ! ماذا لو كنتِ هنا؟ أليست فرصة جميلة للضحك وصفاء المزاج. هذه المدينة تأسرني بذكائها وخبلها، بسحرها المدهش، وكذبها اليومي، وحتى بعنفها.

أحزن عندما أكتشف نفسي متمترسًا، داخل زاوية لا أعرفها، ولا أتذكّر أنّي عبرتها ذات يوم. أحزن، لأنّ بلادي التي في قلبي، ومراهقاتي الأولى، تتخلّى عنّي دفعة واحدة. المدينة التي تعارفنا فيها لأوّل مرّة، تنسانا بعنف يصعب علينا تحمّله.

الكثير من أصدقائي ماتوا. أعرف أنّك حزنتِ وأنت تقرئين أخبارهم وتستعيدين صورهم. لمستِ وجوههم التي صارت فجأة رماديّة. لمستِ عيونهم المغلقة التي لن تنفتح أبداً، وجراحاتهم، وبقايا الدّم المتجمّد بين شفاههم.

كم تمنّيت أن أرجع إلى الوراء ولا أرى ذلك، وأن أحتفظ بآخر صور البشاشة والجنون التي أعرفها عنهم. لست أدري لماذا ننتظر موتهم أو

فقدانهم، لندرك كم كنّا مخطئين. ألم يكن من الأفضل أن نعيشهم بعمق قبل اندثارهم كالحكاية الجميلة؟

كلّما تذكّرتك داخل هذه المدينة المتهالكة يوميًّا، وداخل جنوني وحماقاتي وأشواقي، أقول في خاطري، هل تمتلكين، بعد كلّ هذا اليأس، القدرة على مقاومة خوف المدن البعيدة والرعب القاتل؟ وهل ستصبرين على أضواء، وأشعّة، ولون البحر في مدينتنا التي ضمّت كلّ أحزاننا وأفراحنا الصغيرة؟

قلت لك ذات مرّة بيأس، تصوّري! منذ أن افترقنا، خسرتُ الحلم بالألوان. لم أعد أرى إلاّ الأبيض والأسود. ضحكتِ طويلاً. قلت: أمّا أنا فلم أعد أرى شيئًا. وعندما أرى، لا أعرف مطلقًا ما رأيته، يبدو أنّي أعيش بتوقيت الخوف. المدينة هاهنا، تُوهمنا أحيانًا بطمأنينة زائفة. طمأنينة القاتل لضحيّته. أُقاومها كلّما شعرت بغمرة النوم. لَشَدَّ ما أخشى أن أموت نائمة. أعيش معك بتوقيت كلّ المصاعب والانشغالات. ولكنّي ألومك حتى آخر شهقة من حياتي: لقد تركتني أموت وحدي.

ما العمل إذن؟

لا شيء. كلّ الأعمدة انكسرت. لم يبق سوى التفكير أحيانًا بجنون كبير بالذهاب إلى أقرب مطار والسفر في أوّل طائرة إلى جهة مجهولة. الخروج بأقصى سرعة من هذه المدينة. لم أعد قادرًا على تحمُّل ضياعك أمامي. ثم أقول في خاطري إنّها مخاطرة المراهقين، وأفكّر جدّيًّا في الذهاب إلى العاصمة. لا أحبّها كثيرًا ولكنّها تمنحني فرصة راحة البعد عنك والإقرار بهول الكارثة.

هل تدرين يا مريم أنّك انتحاري السعيد؟

في حاجة إليك. حاجة مجنونة إلى صمتك. إلى صراخك. إلى قلقك منّي وخوفك عليّ. إلى شتائمك. إلى غيرتك. إلى تقطّعات أنفاسك على صدري. إلى كلماتك التي تنزلق داخل الكفّ كحبّات الرمل الساخنة. كالجمرات التي لا يموت اتّقادها. إلى غضبك وأنت تهربين بعينيك صوب البحر. تصرخين. عَفْني يَرْحَمْ والديك. تعبتُ منْكَ. خلّيني في حالي. عندما نلتقي ثانية بعد فراق يوم حزين، أقصّ عليك آخر نكتة سمعتها في مدينة لا تعرف التنكيت. تكتمين الضحكة. أتمادى في كشف خبايا النكتة. تصطنعين صرامة غير مقنعة، ثم سرعان ما تنكسرين وتنسين أنّنا كنّا متخاصمين مثل صبيّين. نقهقه. نموت ضحكًا. ثم ننسى عندما تتقاطع بيننا الضحكات والحكايات. توشوشين في أذني:

ـ أليس عبثًا تضييع كلّ هذا الزمن، في سخافات لا معنى لها؟ الموت يتربَّص بنا في كلّ الزوايا ولا نملك قدرة أخرى لمقاومته إلاّ الحياة والإصرار عليها باستمرار.

إنِّي أتنفّس كلّ هذه الحكايات والضحكات. أتنفَّس البارات التي شربنا فيها كؤوسنا الأولى، والحدائق التي سرقنا قُبَلنا داخلها قبل الطفولة. أتنفّس هذه الشوارع وهذه المدينة . تنتابني لذّة الكتابة ولكنّها لا تطاوعني بسهولة. الكلمات تستعصي مثل الفرحة في هذه البلاد. ماذا يبقى للإنسان عندما يخسر أشواقه وأحبابه وألوانه؟ كلّ شيء يخرج الآن من دمي مدجّجًا بالخوف والضغينة والحبّ والغموض.

بُعدُكِ يرميني إلى بُعْد آخر يشبه فراغات الذاكرة. يملأني في غفلتي هذه، صوت أليس فيتوسي. يأتي من بعيد، يبحث عن حيطان المدينة الضائعة، مملوءاً بالقهر والحنين. لو تعرفين ! لقد سرقوا الأشواق، والنور وها هم يبيدون الذاكرة قطعة قطعة، ويأكلونها بهدوء وثبات كدود الخشب. أين

اختبأتْ أليس فيتوسي كلّ هذا الوقت؟ كانت جدّتي، حنًّا، في ذلك الزمن البعيد كلّما حزنت، تحرّك الفونوغراف بيدها النحيفة، ثم تدير «المانيفال» لمدّة دقيقة، وبعدها تُنزل رأس الشوكة على الأسطوانة الفحمية، فيأتي الأنين حزينًا، مصحوبًا بخرخشة جميلة. جدّتي لم تكن تعرف أن أليس ابنة قسنطينة، لكنّها كانت تدرك جيِّدًا أنّ صوتها يحفر قلبها كلّما سمعتها. أين اختبأت أليس كلّ هذا الزمن. ثلاثون سنة وهي ممنوعة في الإذاعة والتلفزيون الوطنيّين. من أعطى الحقّ لحكّامنا العظماء جدًّا! المنحدرين من أحجار الجبال والقفر، أن يمنعونا من أصوات بلادنا؟ ألم يكن من حقِّي أن أستمع إلى هذا الأنين قبل ثلاثين سنة؟ لم يصنعوا لنا ذاكرة فارغة، بل قعرًا محشوًّا بالرّماد والظلام والخوف. كم من الضغينات سكنت أعماقنا بجهل؟ ألم يكن من الأخفّ أن نسمع حنيننا داخل أرضنا قبل أن يتحوّل كلّ شيء إلى منفى، ونتحوّل نحن إلى باحثين عن توازن ما في دوائر الفراغ المدوّخة؟

هذه المرّة كذلك سأكون وحيدًا وأكتشف هذه الأسرار الصغيرة وأدعك وحدك للكتابة والبعد والجروح. وأتنكّر أنا داخل مدينة متنكّرة عن آخرها. سأكتشف داخل جنازة الصمت وجهك الهارب وأتشبّث بأسئلتك القلقة وأشواقك الدفينة وأمومتك الهاربة. عندما وقفت على العتبة وكرّرت جملتي القاتلة:

ـ عمري... أحبّك. كل شيء في الدنيا يقودني نحوك. ولا أعتقد أنّ الأقدار تلاقيني بمن هو بقدر سماحتك وغناك الداخلي وألقك ورهافتك. سأفقد فيك حبًّا لا يتكرّر دائمًا. ولكن يبدو لي أنِّي لست مؤهّلاً لأن أكون زوجًا جيِّدًا. ثم... لا شيء يقيّدك بي. أنت الآن حرّة. افعلي ما تشائين...

كنتِ مرهقة. عيناك كئيبتان. ثم وضعتِ رأسك بين يديك بيأس ظاهر، وقلتِ:

ـ اذهب، ما دام هذا خيارك الوحيد والأوحد.

ـ وهل نملك غير هذا الحلّ؟

ـ تملك غيره لو تشاء. اذهب. سألتفت بدءاً من اليوم نحو حقيقتي وأخرج من هذا السراب القلق. شكراً لك، فقد منحتني حياة جميلة، تستحقّ أن أتذكّرها.

ها أنا ذا أصرخ بمنتهى قلبي. لست سعيداً. ولكن لا خيار لي غير العيش داخل هذه الحيطان الهرمة وهذه الوجوه التي فقدت الكثير من ألقها. أحاول أن أنسى التفاصيل. أن أغرق في اللون، والكتابة. لم يبق الشيء الكثير في هذا العمر المرهق. الوحدة تُضخّم حالة الألم وتزيد من حدّتها ومن حدّة صفائها، وشفافيّتها. أحبّ هذا الفضاء الذي يغرقني في غيمة أو في كأس نبيذ وطني. أحبّ أن أنتحر داخل جحيم امرأة بدل العيش في جنّة رجاليّة تافهة.

هل يعرف القتلة قوّة هذه السعادة وقوّة هذه الفتنة الداخليّة؟ لا أعتقد. لو عرفوها لما قَتَلُوا الأطفال التائهين في شوارع لم تعد تعني لهم الشيء الكثير، على الرغم من أنَّها موشّاة بأسماء الشهداء. سيضحكون كثيراً من غبائنا عندما يسمعون حكاياتنا، ولكنّنا نحن كذلك سنضحك، وربّما نبكي من ضحكهم علينا.

لو فقط يعرفون... ولكنّهم، بكلّ تأكيد، لا يعرفون.

05h 55mn 07s

- ١ -

على الرغم من حالة السكينة المقلقة، كان كل شيء يركض، بلا توقّف أبداً، مثل الساعة الجداريّة. يركض باتّجاه ماذا؟ لا أدري؟ ربّما نحو حتفه. أتوازن مع حركته المجنونة لكي لا أصاب بالدوار القاتل.

الزمن الشتوي كان هنا، في الفضاء والعظام.

«مريم في كلّ مكان... في خلاياي وفي دمي، لكنّي لا أراها».

هذا لا يشغلني مطلقًا، ولا يغيِّر شيئًا من عزيمتي. كلّما تسرَّبت الثواني والدقائق وحتى الساعات، زاد يقني بأنَّ أوقات مريم أصبحت معدودة، وأنَّ مصيرها الذي تلفّه غيمة داكنة من المبهم والغموض، اتّضح أكثر.

تراقصت الأوراق والرسائل الكثيرة بين يديّ. ألوانها كثيرة. تتناثر أمامي كأوراق خريف مضى منذ زمن بعيد. تتحرَّك في يدي، خفيفة كنسمة، على غير العادة.

دكنة السكريتوريوم تؤنسني كثيرًا، ولا تولّد لديّ أيّ شعور بالنفور. على العكس من ذلك، أشعر في أعماقي الدفينة، بسعادة غامرة.

عاد أنين سوزان لوندينغ ملتبّسًا بالنور الخفيف المتسرِّب من الكوّة الصغيرة، الذي غلّف فجأة سطح أشيائي النائمة. كان يحفر عميقًا في أخدود الذاكرة، فيزداد جرحي اتّساعًا وعمقًا. كنت أتحسّس برؤوس أصابعي المرتعشة، هول الفراغ الذي كان يلفّني. لم يكن أبدًا فراغًا بلا رائحة.

فجأة، عرفت سرّ الرجفة الحادّة التي انتابتني من رأسي حتى أخمص قدميّ، قبل قليل. انتبهت إلى أن فتحة الكوّة الخلفيّة، الصغيرة، كانت قد توسّعت قليلاً، وأصبح هواء الفجر يتسرَّب نحو ظهري بسهولة كبيرة. كان باردًا مثل خيط مستقيم، عبث حتى بالأوراق المتراكمة، وبكلّ ما كان يغطّي المكتب. تعرَّى المسدّس البارد من كلّ شيء كان يغطِّيه، ليتحوَّل، في شكله، إلى مجرّد لعبة. فوهته السوداء التي أصبحت الآن موجَّهة نحوي، غطّت على بياض قبضته الفضّيّة.

لم يعد المسدّس يخيفني. كان شبيهًا لبقيّة الأدوات الموضوعة على المكتب.

ـ ٢ ـ

تفحَّصت الرسالة التي فرضت نفسها عليّ بحبرها الأسود الذي جفّ منذ زمن بعيد. كانت في غاية الألم والحزن. لم تعطني حركات حروفها وانتظامها الغريب حتى مهلة محدودة للتفكير والتأمُّل وإمكانيّة الفهم. لم أتعوَّد على هذا الإيقاع الذي بدأ يخنقني بسرعته. يكاد نَفَسي يخونني.

ما تصوَّرته مجرّد لحظة حُسمت في وقتها، وتحمَّلت تبعاتها التي كنت أعرف جزءاً منها سلفًا، كان أقسى وأمرّ، وسيحكم طويلاً حياتي في كلّ تفاصيلها الجنائزيّة الدقيقة. لم يرتد لها سينو قفّازات بيضاء لملامستها والحديث عنها.

بمجرّد زواجي من رياض وإسعاد أمّي بتلبية رغبتها الدفينة، دخلت في دوّامة التلاشي كأنّي كنت أستقبل موتًا جديداً. في كلّ خطوة كانت كلمات سينو تسبقني وتضعني داخل طوقها القاسي: **هل ننسى عندما نريد، أم عندما تشتهي الذاكرة؟** شعرت كأنّ أوّل ضحية لي لم يكن سينو كما تصوَّرت منذ أن افترقنا، ولكنّه كان زوجي رياض، الذي قبلت به بدون قناعة مسبقة. تساءلت طويلاً في أعماقي: لماذا قبلت به بعد أن قضى زمنًا طويلاً يحوم حولي بلا جدوى؟ كان رياض شمّاعتي أمام مجتمع يستمتع بنفاقه المريح، أكثر منه زوجي وشريكي. كلّ شيء انكسر بسرعة. شعرت فجأة بأنّي كنت أغرق في دوّامة بلا نهاية، حاولت أن لا أستسلم لها أبداً. كان رياض يريد أن ينسيني كلّ شيء. في شهر العسل، ذهبنا إلى جزيرة كريت اليونانيّة. أنا من اختار المكان. لم أكن في حاجة إلى انتظار زمن طويل، ولا إلى ذكاء كبير، لأدرك بأنّ لاشعوري خانني، وأنّ الخيار نفسه لم يكن بريئًا. أوّل ما نزلنا في مطار كريت، بدأت أبحث كالمجنونة عن كلّ ما له صلة بنيكوس كازانتزاكي الذي لم تكفني أبداً تسمية مطار الجزيرة باسمه. طوال شهر العسل، لم أفعل شيئًا آخر سوى اقتفاء الخطوات التي كان سينو قد تركها فيَّ منذ زرنا للمرّة الأولى هذه الجزيرة. كان سينو مجنونًا بالتفاصيل الصغيرة الخاصّة بها التي أنجبت عظيمين، شكّلا جزءاً من ذاكرتنا المشتركة: كازانتزاكي والغريكو، الذي وُلد هو كذلك في كريت، وتوفّي في أجمل مدينة تمنَّيت أن أعيش فيها، أو على الأقلّ، أن أُدفن فيها: طليطلة، مدينة القلب المفتوح وقلّة الأحقاد.

تماديت وأنا أحكي، ونسيت دهشة رياض الذي تساءل كطفل غبي:

ـ تتحدّثين وكأنّك يونانيّة حقيقيّة؟

ـ أحيانًا لا نعلم جيّدًا ما الذي يقودنا نحو مدن يتراءى لنا أنّنا نعرفها جيّدًا، بل عاشرنا أناسها وعظماءها. أشعر مثلاً بأنّ طليطلة مدينتي الافتراضيّة التي كان يجب أن أولد فيها، لأنّ عاطفتي نحوها لا تُحدّ. من حين لآخر، وأنا أجوب مرتفعات كريت ومعابرها الضيّقة، ينتابني الإحساس الغريب، بأنّي أعرف الغريكو معرفة عميقة. أكثر من ذلك، أرى فيه أحد أجدادي الضائعين الذين استقرّوا في هذه الجزيرة. قد أبدو لك مخبولة، ولكنّي كلّما تأمّلت ما أنجزه، أشتهي أن أكون إحدى إيقوناته. أن أكون مثلاً عشيقته جيرونيما دي لاس كويفاس، التي منحته في هذه المدينة، ابنا جميلاً: جورجي مانويل. لقد كان ملك إسبانيا فيليب الثاني، غبيًّا حينما رفض أن توضع لوحة: ***شهيد سان موريس***، في قصر الإسكوريال، مع أنّه هو من طالبه بإنجازها. رفضها لأنّها لم تكن وفيّة للحقيقة التاريخيّة، ونسي الملك الغبي أن الغريكو كان فوق أن يوضع داخل علبة معدّة له سلفًا. تأمّل بسيط للوحته: ***نهب المسيح***، الموجودة في كاتدرائيّة طليطلة، يبيّن أناقته في اللون، وقدرته على استخراج أسرار القصص الديني. أو لوحته: ***جنازة كونت أورغازيا*** التي أبدع في ألوانها وموضوعها الذي استقاه من فلسفة فينيسيا، التي كانت تقسم العالم إلى تحت وفوق، جسد وروح، أرض وسماء. أما كازانتزاكي، فالحديث عنه يطول. لم يكن يونانيًّا فقط، ولكنّه كان نبيًّا عظيمًا. لقد غاص في النفس البشريّة بعمق لم يجارِه فيه أحد. خرج بسرعة من أسر الإيديولوجية التي كانت تتحكّم بأنفاس الفنّانين. أخطأته الجوائز الكبرى، وربحته قلوبنا إلى الأبد.

ـ لا أعرف الغريكو. ولم أقرأ أي كتاب لكازانتزاكي، ولكنّي رأيت فيلمين مأخوذين عن رواياته: ***زوربا اليوناني***، مع أنطوني كوين، و***غواية المسيح الأخيرة*** الذي أخرجه مارتن سكورسيز، ومنع المتطرّفون عرضه في صالات باريس. رأيت الفيلم يومها في إحدى صالات سان ميشال، نكاية في الذين كانوا يظنون أنّهم مُلاّكُ الحقيقة الدينيّة. شعرت بخشونة كبيرة في شخصيّاته.

ـ يجب أن تقرأه لتلمس إنسانيّته العميقة. السينما جميلة، لكنّها مجرّد تأويل لشيء يمكن أن نقرأه بطريقتنا الخاصّة.

كنت أسعد امرأة وأنا أعبر تلال هيراكليون، وأرى بقايا السفن التي حارب بها الكريتيّون فلول الأتراك. لقد عبرتُ كلّ هذه المسالك مع سينو ذات زمن. ما تزال عليها بعض أصدائنا. زرت الكنائس البيزنطيّة، والقصور الفينيسيّة، والسواقي التركيّة. ورأيت بأمّ عينيَّ الدمار الذي خلّفته الآلة الجاهلة للزمرة العسكريّة التي هدمت الكثير من البيوتات الفينيسيّة التي لم تكن تتطلّب إلاّ ترميمًا صغيرًا. شعرت وقتها أنّ زمرهم لم تكن أقلّ جهلاً من زمرنا التي أبادت موروثًا عمرانيًّا مدهشًا باسم معاداة الاستعمار. صعدت حتى صخرة السماء، وتأمّلت من الأعالي زرقة البحر الداكنة. لم أر شيئًا غير لباسي البنفسجي الذي كانت رياح كريت الشماليّة تريد نزعه منّي، ولم أحسّ بأيّ شيء آخر، سوى طعم القبلة الممزوجة بملوحة البحر، وضحكة سينو التي تلوّنت بالزرقة، وهو يتمتم في أذني:

« **ـ راح تهبليني. يلعن دينك، ما ألذّك !** ».

على الرغم من كلّ محاولاتي للتواصل مع رياض، فقد فشلت. كنت، طوال مدّة طوافي في الجزيرة، مع سينو. لم أكن أريد أن أنغّص

على رياض حالة زهوه وانتصاره وفوزه بي أخيراً. طوال شهر العسل، ظللت حذرة بأن لا أنطق باسم سينو، كلّما هزّني شيء جميل في كريت، عن الغريكو أو كازانتزاكي. أصمت، أعضّ على لساني، وأغمض عينيَّ، لكي لا أصرخ من فرط الدهشة والجمال.

- ٣ -

الغريب أنَّ كل ما حدث، كأنّه كان منظَّمًا سلفًا. تزوَّجت بسرعة وكأنِّي حضَّرتُ لذلك سنوات طويلة. على الضفّة الأخرى، لم تكن قصّة سينو أحسن من قصّتي. لم ينتظرني طويلاً. لم يحزن ثانية واحدة. لم يبكني مثلما بكيته. كأنِّي خرجت من ضلعه كاللعنة التي التصقت به زمنًا طويلاً بالرغم منه. فقد تزوَّج في السنة نفسها، بل في الشهر نفسه، في اليوم نفسه، وربّما في الدقيقة نفسها، من هاجر، امرأة لم يحدِّثني عنها إلاّ مرّة واحدة. قال إنّها صديقة قريبة، تقاسما معًا الأيّام المرّة، والأيّام الجميلة. أتساءل أحيانًا بغرابة العاقل: هل من الضروري أن نقدم على حماقة الزواج لندرك متأخِّرين عمق الفجوة، وقوّة الحماقة غير المحسوبة التي كان علينا تفاديها في اللحظة الحاسمة، ولم نفعل؟

أعرفه جيِّداً كما أعرف نفَسي الذي بدأ يضيق كلّ يوم قليلاً. لم يكن سينو مؤهّلاً للزواج، فكيف غيَّر رأيه؟ هل تزوَّج انتقامًا من جنوني الذي كسرني في العمق؟ وهل تزوَّجت إشعالاً لغيرته؟ لا الجنون ولا الغيرة أعطيا هذه المرّة شيئًا يستحقّ الذكر. كل ما حدث هو أنّ الحياة استمرَّت بدون أشواقنا وأحزاننا وانكساراتنا الخفيّة. شيء واحد ظلّ يحفر فيَّ بعنف: وجهه الطفولي واستحالة محو لون عينيه من دهشة ما كان يسمعه ويراه.

«... هكذا الدنيا عمري... لا تحزن كثيراً. منطق الأقدار وسطوتها أقوى من أيّ شيء. نحسب، ونحسب، ثم نحسب، ونعيد الحساب لكي نقلّل من فجوة الخسارات، ولكنّنا ننتهي دائماً تحت سطوة قسمتها وجمعها وطرحها. هي سيّدة القرار في النهاية. اهدأ حبيبي، وانظر للأشياء كما تعوّدتَ أن تفعل. ألم تقل إنّه لا شيء يستحقّ أن نحزن من أجله...

ـ إلاّ الفقدان...

ـ ليكن».

صحّح كلامي وكأنّه رمى حفنة من الملح على الجرح المفتوح.

«كنتَ أوّل من أدرك مبكّراً، أنّي كنت عاجزة عن مقاومة فقدانك».

ـ ٤ ـ

انتهيت بين يديه مرّة أخرى كالتفّاحة المسروقة.

لم أكن في حاجة إلى أيّ شيطان يسحبني من أنفي نحوه. حبّي له كان غوايتي التي استحالت عليَّ مقاومتها. لم أعد أسأل لماذا قبلت بهذه الحماقة الغريبة؟ فقد كنت أعيشها وأنا في حالة دوار دائم، ولم تكن تهمّني النتائج كثيراً. كنت أتدرّج بحذر بين رياض، وحبّي لسينو، متفادية لغماً خطيراً، كنت كلّ يوم أحاذيه بخوف، اسمه الخيانة الزوجيّة.

صحيح أنّ مخّي كان فارغاً تماماً من فكرة الخيانة، فأنا، في النهاية، ظللت وفيّة لرجل واحد، حتى وأنا في فراش غيره.

منذ اللحظة الأولى، في جزيرة كريت، استيقظ فيَّ دفعة واحدة. كنت أبتسم لرياض، وأنصاع لرغباته، وأخونه بكلّ حواسّي، وهو غائب في رعشة اللذّة، لا أدري كم مرّة أخونه في حركاتي اليوميّة الهاربة التي

لم أكن قادرة على مقاومتها؟ في النظرة لكلّ ما كان يحيط بي. كنت أخونه في جزيرة، شعرت فجأة أنّها لم تكن إلاّ لي ولسينو. الأقسى من ذلك كلّه، كنت أخونه في الفراش. حتى عندما أجهد نفسي لكي أستسلم له، كان عليّ أن أدخل حالة الدوار والدوخة، وأراني بين يدي سينو، في جسده، تحت رحمة أصابعه، لأتمكّن على الأقلّ من إرضائه. لم تكن طلبات رياض كثيرة في الفراش، ومجنونة بالشكل الذي يرهقني. لا أحسّ بشيء إلاّ آلام التقلّصات التي تنتابني من حين لآخر حين يسحبني نحوه بعنف، في اللحظة الأخيرة، التي كثيراً ما تكون قاسية. لكنّي كنت أزمّ شفتيّ لكي لا أصرخ بأعلى صوتي، وأرمي برياض خارج السرير، وخارج ألمي.

أكبر شيء فيّ تهدّم نهائيًّا، هو يقيني في نفسي وفي خياراتي. سينو يتفادى الحديث عن هذه الكسورات العميقة، ولكنّه يعرفها جيِّداً. الهزائم الروحيّة التي لا قوّة في الدنيا تستطيع ترميمها، مدمّرة عندما تتوغّل بين العظم واللحم.

عندما عدت من كريت، كان وفاقي مع رياض قد انتهى، على الأقلّ في داخلي. أدركت في عمقي أنّي كنت عاجزة عن الخيانة، لا وفاء لرياض، ولكن لأنّي في النهاية من النوع الذي لم يُصنع إلاّ لرجل واحد.

ـ ٥ ـ

فجأة اكتشفنا كأنّ لحظة الحبّ بدأت الآن فقط.

تشبّثت بسينو، هذا المرّة، كمن يلتصق بقشّة النجاة. وضعت حياتي كلّها ليس في كفّ عفريت، ولكن في عين قدر أعمى، لا أعلم متى ينقضّ عليّ.

لقد زاد اشتعالنا مع الأيّام، وكأنّ الرباط المقدّس لم يفعل شيئًا سوى أنّه ألهب كلّ حواسّنا النائمة. مجانين. القبلة الجميلة، أصبحت مستحيلة ولكنّها ألذّ وأعمق وكأنّ ما كنّا نحصل عليه اليوم، سيصبح مستحيلاً غدًا؟ التدحرج في الشوارع في آخر الليل بعد عرض مسرحي أو سينمائي لم يعد إلاّ حلمًا هاربًا، لكنّنا عندما نحصل عليه، نلتصق به لكي لا يفلت من بين أيدينا. وما كنّا نحصل عليه بمجرّد الرغبة فيه، أصبحنا نتحايل عليه أيّامًا متتالية، لكي نملك جزءاً صغيراً منه، ونحن في أقاصي السعادة. وبمقدار التعب، كانت تأتي اللذّة المسروقة استثنائيّة ومتعبة ومنهكة للقوى، ولكنّنا كنّا نحسّ بها وبقوّتها. كنّا سعداء لذلك، وكأنّ كلّ ما كان يُنهب من لحظات جميلة، كان له طعم فاكهة الجنّة. ليس لأنّ كلّ ممنوع مرغوب، فهذه جملة مستهلكة ومعروفة وثقيلة جدًّا وفجّة، ولكن لأنّ في كلّ جسد قنبلة موقوتة لا تفكّكها إلاّ يد ساحرة واحدة، وأنامل من ندى، ولمسات من ضباب ونظرات من غيم. كل الأصابع التي تمرّ عليه ولا تعرف سرّه، باردة وميتة.

من الأحمق الذي قال إنّه يمكن الاتّكال على توبة العاشقين؟

ما كنت أخافه بدأ يصل إلى رياض. أكّدت له أنّ ما سمعه مجرّد كذبة طائشة. وبدأت أشعر، كلّما خطوت خطوة، أنّ شيئًا ورائي يقتفي خطاي.

كانت عيون رياض كثيرة، مزروعة في كلّ مكان، لهذا أصبح ثمن القبلة أسابيع من الخوف قبل الوصول إليها، وعندما أصل لها، عليَّ أن أتحرَّر من خوفي، وأحذر من أن أفعل ذلك كلّه في أمكنتنا المعروفة.

أوّل مرّة قابلت سينو بعد عودتي من جزيرة كريت، شعرت بلذّة غريبة محت كلّ إحساس بالخيانة. بل إنّها قذفت بي مباشرة إلى مرتفعات

كريت وأنا في لباسي البنفسجي، تحت رحمة رياح ساحرة كانت تريد أن تسرقني من بين يديه، وهو يشوش في أذني:

ـ راح تهبليني. يلعن دينك، ما ألذّك.

أعتقد أنّي، منذ تلك اللحظة المسروقة، دخلت في السرّيّة والغموض. سرّيّة العشّاق الذين يخبّئون عبثًا جنونهم. لست نادمة أبدًا على ذلك. كلّ ما عشناه مسروقًا إلى اليوم كان هو جنّتنا الوحيدة، وفردوسنا المسحور. ما تبقّى، مجرَّد عادات مكرَّرة تشبه دورة الحياة المغلقة.

في لحظات العزلة، والانكسار العميق، أغضب بحدّة من سينو. ألعنه من أعماقي. بنيّة طيّبة أو مبيّتة، لا يهمّ، حوّلني إلى امرأة من ورق، لا وجود لها إلاّ داخل اللغة. بينما أستطيع أن أنشئ بمأساتي الداخليّة، عرشًا من الأشواق المبتورة. لكنّي سرعان ما أعذره لشيء واحد ووحيد فقط، هو أيضًا كان يداوي جرحًا غائرًا، بجرح آخر أكثر قسوة. وأعذره أحيانًا أنّه مدّ لي يدًا رمتني في عمق جحيم اسمه اللغة، فقط لأنّه كان يحبّني ويخاف عليَّ. علّمني كيف أحبّ وأخرج منتصرة على نفسي وتردُّدي، على الرغم من كلّ هزائمي الصغيرة.

هو هكذا، وربّما كان ذلك أجمل شيء فيه. لا يستسلم لفجيعة اليأس. يغمض عينيه ويمضي، كأنّ المأساة لا تعنيه كثيرًا، ولم يكن هو ضحيّتها. حتى في أقسى الظروف، عندما وضع القتلة رأسه في قائمة الذين يجب أن يُمحوا من على وجه الأرض، ظلّ يراهن على الحياة، ولم يقبل أبدًا بقدر الموت الذي سُلِّط عليه بعنف. كان يرى في الحياة وسيلته في المقاومة والاستمرار.

كان لذلك كلّه سحر العاشق الذي لم يستسلم لجبروت القدر.

«كنتُ أعشقه، وكان يحبّني. كان هذا وحده يكفي لحياتنا الموازية».

- ٦ -

«م... م... م... ما أحلى مرارتها، وما أدفأها!».

رشفت قطرة أخرى من القهوة. كانت بلا سكّر. استعدت جزءاً آخر من صفائي الهارب من هزّات الحياة الكثيرة.

لا شيء تغيَّر سوى أنّ الضوء تمدَّد أكثر، واتّضحت كلّ الأشكال التي كانت تحيط بي في سكينة كبيرة، وامّحى الكثير من الظلال، وبدأت الحياة تدبّ من جديد، في السكريتوريوم الذي كأنَّه خرج من حرب نوويّة مدمّرة.

فتحت عينيّ أكثر. شعرت بحدّة الضوء الذي تسرَّب من الكوّة مباشرة باتّجاه عينيّ المتعبتين. رأيته من وراء الأشعّة المنكسرة، يقاوم الموت ويركض باتّجاه شمس كانت كلّ يوم تزداد قربًا منه. يركض بلا يأس ولا ملل نحو حتفه. لم يكن خائفًا أبداً من حرائقها القاتلة. سألته وأنا ألمس وجهه المتعب بحرص شديد:

- حبيبي... قلّل من خطايا الجنون. إنّك تتّجه نحو النار كالفراشة.

- أسابق الزمن، وما ينتظر كرتنا الأرضيّة بدورانها نحو الشمس. ستشتعل يومًا، وستتحوَّل إلى رماد وإلى قفر، مثلها مثل بقيّة الكواكب. كبرياؤها الوحيدة أنّها منحت الحياة لمحيطها الجميل، قبل أن يصيبها دوار اللّذة القاتل، وتنتهي في جاذبية حرائقه.

ـ مالي ومال الأرض. أخاف عليك من جنونك...

هو الآن تائه في مدن اللّه الواسعة، وأنا مسمَّرة في مكان اخترته، وأتحمَّل ضـيـقـه وقـهـره. يونس وملينا، في الطابق العلوي، وأنا في السكريتوريوم الجميل، أتصيَّد أنفاس سينو الضائعة، وأحاول أن أتأمَّل بعين مجرّدة راياته المنكّسة عند باب بيتنا الذي لم ير النور أبداً، لأنَّ جنونه كان أقوى من كلّ شيء آخر، حتى من عقله، أو ربّما العكس. في الحالتين يمكن أن يحدث الدمار نفسه.

يمكنني اليوم أن أدّعي، بلا تردّد، أنّي أفضل من يعرف جدّيًا كلّ أسراره، ومنبت كتاباته السّريّة. من كثرة ارتباطي به، حتى ملينا التي تشبهه كقطرة عسل، كلّما رأته في التلفزيون في برنامجه الأسبوعي: **أهل الكتاب**، أو في برنامج ثقافي عربي أو أجنبي آخر، صرخت بسعادة غريبة: **ماما... ماما... انظري... عمّو سينو**. ثم تجلس وتتابع البرنامج لحظة بلحظة، حتى النهاية. أراها وهي منغمسة في كلامه، الذي تحسّه ولا تفهمه كلّه. في الأخير، تسألني عن الصغيرة والكبيرة. علَّمتني الحياة كيف أمثِّل، وأسخر أيضًا من كلّ الأكاذيب التي تحيط بي. أجلس بين ولديّ كالطفلة المولعة بمعلّمها، وأرى البرنامج معهما من البداية حتى النهاية. أمثِّل بحياديّة مطلقة، وكأنّي لم أكن حاضرة مع سينو في الأستوديو رقم واحد، يوم تسجيله الحصّة، ولم يدعُني لأن أكون ضيفة الظلّ، ولم أقبِّله في صالة الماكياج ماسحةً على وجهه بدفء كبير، قبل أن يلتحق بضيوفه، وأربّت على كتفه بكلمة تعلَّمت أن أضعها في قلبه قبل أذنيه: حبيبي. فكِّر فيَّ دائمًا، *قلبي وروحي معك*؟ وكأنّي لم أكن مرآته أبداً، ولم أرتّب معطفه للمرّة الأخيرة قبل أن يسدّ العمّال باب الأستوديو رقم واحد الخشن والقديم الذي يذكّر ببوّابات القصور العتيقة، حيث لا شيء يُسمع أبداً.

هكذا علّمتنا الحياة، وهكذا ربّينا وسائل الصدّ الخفيّة والفتّاكة للدفاع عن أنفسنا، قبل التفكير في الدفاع عن غيرنا.

ـ ٧ ـ

هل أنا مجنونة إلى هذا الحدّ؟ ليكن، هذه هي أنا. أظهر للجميع ولنفسي أيضًا، لأوّل مرّة، كما أنا. لا كما أشتهي، ولا حتى كما اشتهى سينو أن يُظهرني من خلال مريم التي احتلّت كلّ رواياته، بمنحي حرّيّة تتجاوزني أحيانًا، وشجاعة لم أكن أهلاً لها دائمًا.

أتعرّى أمام نفسي، كما ولدتني أمّي، لا لشيء سوى للإمعان في أن أكون أنا. أنا فقط. امرأة خارج مسطرة النظام، وبعيداً عن لذّة الأدب الطريّة.

يوم مرض سينو لم أسأله أيّ سؤال يمكن أن يؤذيه في جبروت الصمت والغيبوبة القاسية. وضعت كلّ شيء في كفّة، وهو في الكفّة الأخرى، وملت نحوه. حملت حقيبتي وسافرت إلى باريس. لا أحد من محيطي القريب كان يعرف سرّ هروبي المفاجئ إلى مدينة تعرف جيِّداً أسراري الدفينة، إلاّ حبيبتي ملينا التي كانت تدرك ذلك بحاسّتها الخفيّة. ونحن في المطار، قالت بوضوح وبلا تردُّد: **ماما... هل قرأتِ جريدة الخبر؟** ولم تزد كلمة واحدة. من نظرتي، عرفت كلّ شيء. كانت تقصد الخبر الذي نُشر عن سينو، عندما أُدخل إلى العناية المشدَّدة، بعد الأزمة القلبيّة الفجائيّة التي ألّمت به. من خزرتها فهمتها، ومن حيرتي أدركت كلّ شيء.

في باريس، هربت من الجميع، حتى من أخت زوجي التي قضيت الليل في بيتها حتى أتمكّن من الهرب في اليوم الموالي، بسهولة أكثر. كان

سينو يعرف جيِّداً جنوني، واحتمال قدومي إلى باريس. كنت متأكِّدة من أنَّه كان ينتظرني. قال وأنا أكلِّمه في آخر الليل على هاتفه الذي سلّمته لي ابنته: **ليلي... حبيبتي... سأقبض على الحياة بأسناني حتى تصلي.** هيَّأت نفسي لحداد فقدانه، لكنِّي كنت أعرف جيِّداً، بل على يقين مطلق، بأنّه لن يموت قبل أن يراني. في سينو شيء غريب، عندما يشارف على النهايات، يزداد يقينه بالحياة.

جئته بعد أن رميت كلّ شيء ورائي، ولا أدري اليوم إذا كان هناك إنسان عاقل يخاف على بيته وأبنائه، يفعل ذلك؟ نسيت الكارتيل نفسه بأجهزته ومعتوهيه الذين جعلوا من خطّ باريس ـ الجزائر، مسارهم التقليدي الدائم.

لا أدري كيف كان شعوري، ولكنِّي يومها كنت أريد أن أصرخ أمام الجميع بأنّ هذا الرجل قطعة من لحمي. كتلة متناقضة من الهبل والعقل. كنت أعرف أنّ القلب لا يرحم، ويخطف صاحبه لحظة الغفلة. وكنت أعرف أيضًا أنّ سينو ليس من النوع الذي يستسلم للموت بسهولة. ما زلت أحفظ كلماته كلّها عن ظهر قلب: **في داخل كل إنسان قوّة مبطّنة تستطيع أن تقوده نحو النجاة، وهو يواجه لحظاته الأخيرة، إذا عرف جدّيًّا كيف يستدعيها في الوقت المناسب. وقد تقوده نحو الموت إذا استسلم لها.**

ـ ٨ ـ

افترضت الأسوأ.

على الرُّغم من إيماني بصلابته وقوّته، بدأت أتهيَّأ لكلّ العوارض، وأفكِّر كيف أمارس حدادي بعد وفاته، وكيف أقول حقيقتي خارج لغة سينو وخارج سلطانه. قلتُ في خاطري، لأذهب نحوه لآخر مرّة وأقلْ له

كلّ ما في قلبي. قد تتخبّأ تحت جلدي الناعم ساديّة غير معروفة، أو مازوكيّة مضمرة؟ من يدري؟ ولكنّي فكّرت أن لا أترك حياته بين أيدي القتلة، يعبثون بها كما يشاؤون. أخدمه بعد موته، قلت وأنا أتحسّس وجهه المتعب في ذاكرتي. أن أكتب مثلاً سيرته كما اشتهى كتابتها بكلّ شجاعة عندما كان في عزّ عنفوانه. كنت أملك كلّ ما يؤهّلني لفعل ذلك. اللغة، الجنون، الحقيقة الصافية، الصراحة المرّة، وتفاصيل الحياة التي حكاها لي عبر السنوات الفائتة، بحنين دافئ كان يُبكيني أحيانًا، ويُبكيه معي.

ما زلت أراه كما الآن، تحت لمبة ذابلة، وسط غلالة الويسكي وأدخنة السجائر وهو يحكي لي قصّته بلا توقّف:

« ـ أحيانًا وأنا في لوس ـ أنجلس، مدينة الملائكة الهاربين من كثرة النور، أعبر شارع *سونسيت بولفار*[1]، *غروب الشمس*، الذي يمتدّ كنهر مليء بالألوان والجنون، بلا حدّ ولا ماء، قاطعًا المدينة إلى جزأين، أتساءل ببراءة هل العابر هو حقيقة أنا؟ الطفل الذي وُلد في قرية انتفت نهائيًّا من خرائط ما بعد الاستقلال، على يد امرأة ساحرة كان اسمها حنًّا ربيحة. كانت دائمًا تقول لأمّي: إنّ ابنك سيشبهني في هبله. عندما كنت شابّة، كانوا ينادونني ربيحة لَهْبيلة. سيقطع البحار والقفار ولا يسأل عن مخاطر السفر. سيعود محمّلاً بالخير... أتساءل إذا كان العابر هو حقيقة أنا؟ أم مجرّد وهم جميل يشبهني، يركبني أحيانًا في لحظة انزلاق نحو حلم سرعان ما يتبدّد؟ هل ذاك الطفل الشبح هو أنا أم غيري؟ شخص آخر أكثر حظًّا منّي، حالفته الظروف الجميلة بأن يخرج من دائرة الضيق نحو ضوء قويّ، كثيراً ما كان معميًا للأبصار من كثرة ألقه وحدّته؟ هل كانت المرأة القابلة، حنّا ربيحة ذات

١ ـ Sunset Boulevard.

اليدين الرشيقتين، وذات الشعر الأحمر، تدرك أنّها كانت تورِّطني في الحياة وهي تخرجني من بطن أمّي بلطف. وتقسم المسكينة برأس كلّ أولياء اللّه الصالحين، إنّي لم أصرخ كأيّ مولود طبيعي، فقد أُصبت بسعال خفيف، ثم أغمضت عينيّ على فرحة حنّا ربيحة، وابتسمت وكأنِّي كنت أعرفها وسعيد أنّها كانت قابلة أمّي. لم تكن حنّا ربيحة تعلم أنّها كانت تدفع بي عميقًا نحو حفر الحياة السحيقة، التي لم أكن مهيًّأ لها أبداً...».

ما زلت أرى سينو، كما في المرّة الأولى، طفلاً يركض وراء نجمة هاربة، منذ أن رآها للمرّة الأولى وهي تحتلّ مكانها في سماء واسعة، عرف أنَّها له. له وحده. لزعر الحمصي الذي فتح لي قلبه، في وهران البهيّة، عن شيء جمعنا وجعلنا نحلم كثيراً، وأحيانًا نفكِّر كيف نجمع أشلاءنا الضائعة التي سرقتها حوافّ الدنيا الجميلة والصعبة. كنَّا نبني أعشاشًا ونهدمها كما نشاء، قبل أن نمحوها نهائيًّا ونقبل بحياة الهرب والتيه. الغريب أنِّي لم أعلِّم ابنيّ، بالخصوص ملينا، أن ينا ديا رياض بكلمة: أبي، بدل مناداته باسمه الخاصّ. كانت خارج قاموسهما اليومي. كنت أشعر دائمًا بأن الكلمة أكبر من رياض. لا أدري مصدر ذلك، ولكنِّي كنت سعيدة أن أكون خارج الكذبة المعمَّمة التي فرضتها على نفسي، أو فُرِضتْ عليَّ. لا يهمّ. النتيجة هي هي بالضبط.

* * *

من ليلي إلى سينو

القدس، فيينا، خريف ٢٠٠٧

لزعر الحمصي، حبيبي[١]. معصيتي الجميلة.

هذه المرّة سأحفظك في عمق العين، وفي بؤبؤ الدهشة. ألم تتمنَّ أن تسافر نحو مدينة تذكِّرك بجزء من مسروقاتك الأبديّة؟

---

١ - سينو نشر هذه الرسالة في روايته: سوناتا لأشباح القدس. المشكل ليس في كونه غيَّرها رأسًا على عقب، وحمّلها دلالات كبيرة لم تكن فيها في الأصل، ولكنّه نزع عنها روحها الأولى. ونقل حميميّتها نحو حميميّة أخرى، وأدمجها في شخصيّة نازيّة وإن لم تكن كذلك. ساءني الأمر في داخلي، لأنّني شعرت كأنّني فقدت رسالتي التي كانت بالنسبة لي حدثًا روحيًّا، إذ للمرّة الأولى في حياتي أدخل فيها إلى المسجد الأقصى وأعزف في كنيسة القيامة وأشهد احتفالات رأيت فيها كلّ شيء، حتى سيِّدنا المسيح وهو يصعد إلى السماء، طالبًا المغفرة للقتلة. لم أكن قادرة على العزف بسعادة، ولا يمكنني أن أفعل ذلك. المسيح يصعد إلى السماء كانت معزوفتي الجميلة، التاليف طبعًا لم يكن لي. ربّما اختلفت مع سينو في هذه القضيّة، فهو يرى في روايته أنّه لا حدود للأشياء وأنا ما زلت أنانيّة فيما يتعلّق بالرسائل الخاصّة. أرى أنّ الحميمي شيء يضاهي المقدّس، إذا امتلكه آخرون، فَقَد قدسيّته. عندما قرأت بقايا رسالتي في سوناتا لأشباح القدس، تألّمت كثيرًا لأنّي لم أشعر بأيّة قرابة نحوها.

لا أدري لماذا أعـود إلى أوّل نداءاتي؟ ربّمـا لأنّي بدأت أشـعـر بنوع من الأمومة نحوك منذ مرضك الأخير، عندما شارفت الأقدار أن تأخذك منّي، لولا قوّتك الداخليّة الكبيرة. أضحكتني يومها وأنت تقول لي في لهجة شرقيّة ذكّرتني بأيّامنا المجنونة:

« ـ ولو... أبداً حبيبتي. شو الموت على كيفه؟ لم أكن مستعدّاً يومها للانصياع له. وحياتك لم أخف. وكأنّي رتّبت فقط كلّ شيء لأرتاح قليلاً، لأراك في عزلة البياض، ثم أعود إلى بيتي كما كنت، وربّما أكثر حيويّة. هكذا نحن. نتمادى في عزّ الجنون كلّما هزّتنا النهايات الفجائيّة. فكلّما هدّدنا القدر بالموت، واجهناه بسحر الكتابة والسخرية، وصعّدنا تهديدنا إلى الأقاصي».

سعدت كثيراً أنّهم ما يزالون يفكّرون في عزفي وأنا التي تصوّرت أنّي غرقت في تفاصيل الحياة القاسية. كما تلاحظ أنت بنفسك، حبيبتك أصبحت معروفة، ويمكنها أن تنافسك في كثرة الأسفار وهبل البوهيميّة.

تردّدت كثيراً قبل أن أقبل الدعوة وأسافر إلى القدس مع فرقة موسيقيّة إسبانيّة ـ عربيّة. كانوا يريدون نقل رائحة طليطلة المتسامحة إلى القدس، ليتعلّم الناس قليلاً أنّ الحياة ممكنة في عزّ الاختلاف نفسه. مجرّد رسالة سلام. وكان عليّ أن أعزف الكثير من إيقاعات أجدادي مع بيڤونّا[١] التي كانت ترافقنا على آلتها القديمة، من موقعها كحفيدة لأسلاف *مارانوس*[٢] قاسوا الأمرّين من محاكم التفتيش المقدّس، ومن موقعي كحفيدة موريسكية[٣] لم يسرق القتلة بهاءها الروحي. كان عليّ اتّخاذ كلّ الاحتياطات الممكنة. لا

---

١ ـ عازفة إسبانيّة من أصل يهودي Begonna تعرّفت عليها في طليطلة. من يومها أصبحنا أصدقاء. راسلتها وراسلتني كثيراً. أشعر أن عصرنا فقد الكثير من تسامحه منذ أن طُرِد أجدادنا من أرض بنوها وشيّدوها بعرقهم وآلامهم وثقافتهم.

٢ ـ يهود الأندلس (Los Maranos).

٣ ـ مسلمو الأندلس (Los Moriscos).

تلمني حبيبي على صمتي، فأنا أحبّك وتخونني نطفة لغتك التي وضعتها في رحمي قبل أن تخرج من هذه الأرض، كلّما حاولت التنكُّر لهذا الحبّ.

كم اشتهيت هذه المرّة أن أكون أنا من يهرب بك نحو أكثر مدن اللّه سحراً. عندما ذكرت لك سفرة القدس، قلتَ لي اذهبي ولا تسألي، إن كنت مقتنعة بما يجيش في قلبك. قلت لك: أريدك معي. أجبتني بحزن شديد: *تلك الأرض سُرقت منّي ومن جدّي الأندلسي سيدي بومدين لغيث. لم أهضم بعد أن يكون من سلبها، هو نفسه الذي يضع ختمًا على حقّي في المرور نحو دروبها العتيقة وممرّاتها الضّيّقة. مدينة سُرقت أمام الجميع، ولا أحد بريء من دمها*. فهمت جيّدًا قصدكَ يوم أخبرتك لأوّل مرّة بفكرة سفري إلى القدس. قلتَ لي: تلك مدينة اللّه التي سُرقت في غفلة منه، ولم يحرّك ساكنًا؟ اذهبي عمري وعودي بألف خير، واحكي لي عن كلّ مشاهداتك. فأنا أشتهي سماعك وأنت تقصّين عليَّ أفراحك الصغيرة، وتطيرين بين أناملي كفراشة السواقي، لكن لا تحزني.

ذهبت وفي قلبي أحلام كثيرة ودهشة مخزّنة عميقًا في بهاء الروح.

ما رأيته هزّني عميقًا. مدينة كلّما التفتّ نحو جهة ما، رأيت وجه اللّه مرتسمًا على مسجد أو كنيسة أو كنيس يهوي. ولكنّي كلّما التفتّ أيضًا نحو البشر، رأيت أسلحة حادّة جاهزة للاستعمال في أيّة لحظة. لم أبق طويلاً في القدس. هكذا كان الاتّفاق منذ البداية. ثلاث سهرات وبعدها غادرنا مدينة اللّه. كانت كافية لأن تهزّني من الداخل. كم اشتهيتك معي لنعبر معًا، كلّ شوارعها الضّيّقة، وأحياءها التي يُسمح لنا بالمرور فيها، ومساجدها وكنائسها. لكنّي أدركتُ بسرعة لماذا رفضتَ المجيء معي. لقد تركونا في مطار بن غوريون ننتظر أكثر من ستّ ساعات، مع أنّنا لم نكن نحمل قنابل، سوى بعض الآلات الموسيقيّة، الكثير منها كانت جودته في قِدمه فقط. لم نكن قتلة ولم نرفع علمًا يثير الشبهة حولنا. تأكّدت من شيء واحد، هو أنّ الكثير ممّن

استضافونا كانوا مثلنا، من جماعة *السلام الآن*. لم يكونوا يريدون أكثر من العيش بسلام في محيط مشترك. وجدت امرأة من وهران، آليس، غادرت الجزائر بعد الاستقلال. كلّما عزفتُ نشيدي الأندلسي، غرقت في نوبات من البكاء المرّ. عدت بشيء واحد معي، هو العودة إلى كلّ يقينيّاتي التي كانت تحتاج إلى أن أهزّها بعنف. لم تكن بيني وبين آليس أيّة مسافة، لا لغويّة ولا مكانيّة ولا حتى روحيّة. ربّما كنتُ مخطئة، ولكن كان ذلك هو إحساسي العميق. تصوّر ماذا أكلنا عندما عزمت الفرقة كلّها إلى بيتها؟ كسكسي وهراني مائة بالمائة، مثل الذي كنّا نأكله عند ماما يمينة في *المدينة الجديدة*، في وهران، أيّام السبت، عندما نهرب في قيظ الشمس، نحو محلّها المليء بروائح البهارات الآسيويّة.

كانت الزيارة مؤلمة، ولكنّها لم تكن خائبة. نحتاج إلى زمن آخر، أكثر تسامحًا، لكي يعود الوضع إلى طبيعته الأولى. الضغائن اليوم في قمّتها. لقد انتصر القتلة في كل مكان.

عدت بأجمل الأشياء من أورشليم الطيِّبة المسروقة، ونسيت ما آلمني من مشاهد قهريّة. أنا في النهاية، على يقين بأنّ اللّه لن يتخلّى عن مدينته.

أنا الآن في فيينا مع رياض للمرّة الثانية، كما قلت لك من قبل، مدينة مريحة وبلا خوف ويمكنك أن تأتي متى شئت، وتبقى هنا. رأيت أهمّ الأشياء فيها في زيارتي الأولى. تعال إذا استطعتَ، سأكون أسعد مجنونة. لقد تعوّدنا على سرقة اللحظات الجميلة ولا توجد قوّة في الدنيا تمنعنا من معاصينا الجميلة. أنا أيضًا قلبي أصبح مشدودًا إليك ولا أنسى، في لحظة سكينة، أن أحمِّلك كلّ هذا الخراب المؤذي الذي يحصل لنا. قد يكون العمر قد أذبل الجسد قليلاً، وإن كنتَ ترفض رؤية ذلك، لكنّك ستجد قلبًا حيًّا بعمر اللحظة التي عرفتها فيها وأنت تقدّم لي رسالة طفوليّة مرتجفة بين يديك، وتريدني أن

أخرج من سطوة الحشمة، وأنت لا تدري أنّني كنت ملتبسة بك ولا أنتظر، مثل الفاكهة الناضجة، إلاّ اليد الشهيّة التي تقطفني. منذ أكثر من ربع قرن وقلبي ينبض بشدّة كلّما سمع اسمك أو شمّ رائحة تشبهك. للذين نحبّهم سرّ روائحهم وجبروت عطرهم علينا. لا تقلق، سأجد الوسيلة المناسبة لرؤيتك. سيتّهمك المعتوهون الآن أنّك كنت عشيقًا لعميلة إسرائيليّة، أو حتى نازيّة باعت كلّ شيء للشيطان، أو ربّما صهيونيّة مدسوسة، وزوجة تاجر مشكوك في إخلاصه للوطن[1]. ليكن؟ أنا لا أستطيع أن أحفظ من سفرتي إلاّ شهوتي لتنفّس تربة مدينة سلكها الأنبياء الطيّبون، والأجداد، والقتلة واللصوص، وباعة اللحم البشري. مدينة خارج كلّ منطق للحياة. فيها شيء غامض يقاوم النسيان وجبروت الأقوام المتقاتلة تحت أسوارها.

سينو، حبيبي وعمري،

ملينا بخير وتحيّيك. يبدو أنّها ورثت عنك ارتباكات القلب وحيرتك وشفافيّتك، ولهذا فهي سريعة العطب. هي معي، وكلّ يوم تدفعني إلى التليفون إليك: *ماما احكي مع عمّو سينو*. أعتقد أني ذات يوم سأقول لها

---

١ - من هنا استلهم سينو فكرة النازيّة ليغيّر في بنية الرسالة جوهريًّا ولا يحتفظ إلاّ ببعض علاماتها. طبعًا لم يكن قصدي إلاّ مزاحيًّا، ثم إنّ الأعداء الذين اختصّوا فيه، في الصحافة الوطنيّة، ينتظرون مثل هذه اللحظة ليصفّوا حسابهم المريض ضدّه. شعرت كأنّي بزيارتي للقدس، سلّمتهم فرصة كبيرة لشتمه خصوصًا. أمّا أنا، فلم يكن الأمر يهمّني كثيراً، فقد شعرت بانتشاء كبير وأنا أركض في شوارع القدس العتيقة، ووجدت رائحة أجدادي الذين كانوا هنا قبل زمن قصير. كان جدّي سيدي بومدين الأندلسي يظلّل في المسجد الأقصى قبل أن ينشئ خيمته، ثم مقامه الصغير الذي محاه الصهاينة عام ١٩٦٧. كان حبّه بابًا من النور انفتح على عينيّ المتعبتين وأعطاني رغبة لا تقاوم لمواصلة رحلتي المجنونة في هذه الدنيا. حتى عندما يغيب الجمهور، خوفًا من موت ينتظره في الطرقات والمعابر الضيّقة، كنتُ أعزف لنفسي كما تعوّدت أن أفعل، في أوبرا وهران، منذ مقتل عمّي عبد القادر، سبع وهران، الذي وضع كلّ شيء تحت تصرّفي.

حقيقتنا(١). لقد أصبحتَ جزءاً من ذاكرتها. هي مقياسي في مثل هذه الأشياء. تشبهك، وأتساءل في لحظات صفائي وتعقّلي، ماذا سيقول رياض إذا رآكما يومًا تقفان أحدكما بجانب الآخر؟

مشتاقة إليك حبيبي، حاول أن تأتي.

أنتظرك، فالصباحات الجميلة لم تعد مظلمة كما كانت.

---

١ - لا أدري كم سأتحمَّل ثقل الصخرة؟ أصبحت على يقين من أنِّي سأخبرها في يوم من الأيّام عن حقيقتها وأنها ابنتك. في دمها شيء منك ومنّي فقط. ولكن عليّ أن أقول الشيء نفسه لرياض وأخرج من حياته نهائيًّا. أحيانًا تقف الغصّة في حلقي، ولكنِّي سرعان ما أتعقّل وأقول: لا، لم يحن الوقت لفعل ذلك. اتركها تكبر قليلاً، وتخرج من سلطان البيت، وبعدها أشرح لها الصغيرة والكبيرة. سينو ليس مع فكرتي. يخاف عليّ من ردّ فعل أهوج من رياض، مع أنِّي أعرف أنّ رياض في مثل هذه الأمور، أصبح مسالمًا جداً، ولم أعد أعني له الشيء الكثير. له نساؤه وعوالمه. سبق أن وجدت عنده صوراً لنساء فلبينيّات عاريات برفقتهنّ على حافّة المسبح، عندما زار شبه جزيرة الفلبين، ومانيلا لاستيراد الأقمشة التي تُخاط بها الحجب والستائر. لم يكن أحسن من مكتشفها الأوّل الذي أربك نظام الحياة الهادئة فيها: فرديناند ماجلاّن، المكتشف البرتغالي الذي كان يعمل لصالح المملكة الإسبانيّة في ١٦ مارس ١٥٢١. فقد حوّط نفسه بعرش من النساء. لقد حفظ رياض الوصيّة جيّداً. رتّبت كلّ الصور وأدخلتها في ملفّ خاصّ ودفنتها في حاسوبي. لم أبك، ولكنِّي ضحكت في أعماقي: رجل يحجب المدينة بحجاب عصري وشفّاف، وينسى أن يحجب بيته ونفسه. عندما أغراني بالأحجبة الشفّافة، طلب منّي أن أجرِّب فقط لأرى كيف أبدو له بها، رفضت. أغضبته. قلت له لا أستطيع أن أدفن نفسي. لك أن تفعل بنساء المدينة ما تشاء، لكن أنا، لا. كان مع آخرين، على رأس شركة ساجدة المكلّفة بإشاعة الألبسة الجديدة. طبعًا كانت الخيارات تجاريّة بحتة، فهو يكره المتأسلمين الجدد كرهًا شديداً. في الكثير من الأحيان، عندما يعود من سهرة ليليّة أشمّ عطراً نسائيًّا بعينه في ألبسته. أسأله بنوع من البرودة: كيف كانت السهرة؟ وأحاول أن أقرأ عينيه وحركاته وأعرف كلّ شيء. لم أقل له ولا مرّة لماذا فعلت هذا أو ذاك. لم أشعر بالغيرة أبداً التي تشعر بها النساء عادة. ربّما كنت مريضة برجل واحد، حصّنني ضدّ كلّ شيء. فأنا في وحدتي مكتفية بك وبابنيّ اللذين لم يخرجا بعد من دائرة الطفولة.

أهمس في أذنيك. أنا الآن كوراثون ميا، كما سمّيتني أوّل مرّة عندما بدأنا ندرس الإسبانيّة سويًّا بجامعة وهران. أنا ليلي التي أحبّتك وتحبّك دومًا. أحفظه جيّدًا وللمرّة الأخيرة، لأنّ اسم مريم أكل كلّ شيء فينا واستبدّ بسلطانه فيَّ. دعه يسكن قلبك لكي تتذكّرني كلّما احتفت بك الأحزان والوحدة. انس نهائيًّا اسم مريم الذي أثّث ذاكرتك زمنًا طويلاً حتى أصبحتَ تصدّق أنّه حقيقة ملموسة، وليس مجرّد لغة هاربة داخل رومانسيّة مثاليّة لا جذور لها.

مريم ماتت منذ أن غادرتُ مدينة اللّه، وعدت إلى اسمي، ليلى أو ليلي.

عيد ميلادك على الأبواب. مرّة أخرى، أنت هناك وأنا هنا.

فيينا جميلة ولا شيء فيها سوى الموسيقى وسحر الغموض الجميل. أنت لا تعرف مقدار الجنون الذي يملأني، لم تره أبدًا في حياتك. لو فقط يمنحني اللّه لحظة، لحظة واحدة للّقاء بك، وبعدها فليأخذني إذا شاء. لا لشيء، إلاّ لأريك أنّي ما زلت قادرة على تحويلك إلى ذرّات كما كنت أفعل ونحن نقف على عتبة مدرّج قسم الآداب، أو في ساحة الكونسرفتوار، بوهران. ياه... كم يبدو ذلك الزمن بعيدًا؟ كم تمنّيت هذه المرّة أن أكون معك وحدي. أن لا أكون مرميّة في جنّة بعيدة عنك، فقدت كلّ معانيها الجميلة. أنا وأنت فقط في عزلة لا شيء فيها إلا الخضرة وثلج أواخر الشتاء، كما فعلنا ذات يومين في *لانغا ـ لاند*[1]، عندما دعوتني وأنا لا أعرف أنّ ذلك كان من أجل الاحتفال بعيد ميلادي وحفل تدشين الأوبرا الجديدة.

---

١ ـ Langa Land، جزيرة من جزر الدانمرك المعزولة والخالية، يحدّ حوافّها بحر موحش ويكاد يكون بدائيًّا. الاقتراح جاء من سينو. كان قد زار المكان عندما كانت إحدى دور النشر الدانمركيّة تقوم بترجمة روايته: شرفات بحر الشمال. حدّثني عن المكان كثيرًا ولأنّه لم يكتشفه كما يشتهي، فقد دعاني لندخله معًا كمن يدخل غابة استوائيّة للمرّة الأولى. لم تكن الأمكنة مهمّة إلاّ بقدر ما كانت تمنحنا فرصًا استثنائيّة للبقاء معًا من دون خوف.

لانغا ـ لاند؟

ياه، كم تنتهي الأشياء الجميلة بسرعة، مخلّفة وراءها جرحًا نازفًا بفرح.

فجأة وجدت يومها لزعر الحمصي الحسّاس جداً، الذي لطالما اشتهيت عفويّته وطفولته المعاندة. كنت معك ليلتها أسعد امرأة، كأنّني مراهقة خجولة من أوّل لقاء لها مع شابّ تحبّه وتشتهيه. كلّما ابتعدت عنك قليلاً، وجدتك فيَّ كعطر جميل، تلتصق بجسدي. لا تقل إنّي أبالغ. فأنا مريضة بك.

كان لقاؤنا يومها جميلاً. قلتَ لي تعالي إلى باريس، وبعدها لا تسألي. وسافرنا من باريس إلى كوبنهاجن. كنتَ قد حضّرتَ كلّ شيء. حتى بطاقات حضور حفل التدشين. كنت بجانبك أسعد امرأة وأكثرها حظًا. تمنَّيت في أعماقي أن أُسمعك كل النشيج الذي كان بداخلي، لو فقط كانت لديّ فرصة لعزف افتتاحيّات الحفل بالكمان. العازفة كانت رائعة ولكنّ أصابعها كانت ثقيلة. كانت تنقصها بعض القناعة الداخليّة والكثير من الأحاسيس.

كانت الدانمرك دهشتك الجميلة، وكنتُ جنونك الذي يأسرك.

قضينا الليلة الأولى في كوبنهاجن. لم نفعل شيئًا سوى أنّنا استمعنا إلى النحيب المكتوم في دواخلنا، زمنًا طويلاً. نمنا متقاطعين على سرير واحد وكأنّك كنت تؤجّل كلّ سحرنا المبطّن إلى *لانغا ـ لاند*.

كنتَ قد رتّبتَ كل شيء، ولم تترك أيّ تفصيل للصدفة. في الصباح، جاء، حتى باب النزل، من يأخذنا إلى جزيرة *لانغا ـ لاند*. كانت دهشتي لا توصف من سحر الأمكنة خصوصًا، ونحن نتوغّل في الجسر الطويل الرابط بين جزيرتين، حيث لا شيء إلاّ البحر والسماء باتّجاه الجزر الأخرى.

ربّما أنستك مشاغلك الكثيرة ذلك كلّه. أشتهي أن أذكّرك من حين لآخر بعالم إذا لم نوقظه سيموت بسرعة. من الصعب جداً أن نقفز على أجمل مكاسبنا الصغيرة في الحياة.

قلتَ لي يومها إنّ المكان يلائمنا لنسيان آلامنا ولو ليوم واحد. أعرف أنّك اخترته بقصديّة مسبقة، لكي لا ترانا أيّة عين حاقدة. لم تكن لوحدك في ذلك، أنا أيضاً كنت أريدك لي ولا أشرك معي حتى نسمات البحر الهاربة، فما بالك بعيون الكارتيل الحارقة؟ جئتك من بعيد ولم أسأل عمّا يمكن أن يحصل لي بعد العودة. كنت ممتلئة بك وبحبّك. هذا وحده كان كافيًا لأن يُشعرني بأنّي كنتُ أسعد امرأة في الدنيا. لأوّل مرّة أتأمّل وجهك وأنا في كامل صفائي. شعرت بك هزيلاً ومنهكًا، ووجهك كان متعبًا. تلك كانت علامات تعب القلب. أردت أن أنبّهك: *سينو احذر، صحّتك غالية عليّ*. ولكن في ظرف ساحر كالذي كناّ فيه، بدا لي كلامي سخيفًا وبلا أدنى قيمة. أجمل شيء كنّا نحقّقه أنّنا كنّا معًا. جئتك لأنّي أحبّك وأشتهي أن أجدك كما تركتك في آخر مرّة. ها أنا ذي حبيبي أتعرّى أمامك من فرط شفافيّتي. لم يكن يهمّني شيء من الحياة غيرك، وغير صحّتك لكي نستمرّ في جنون لا يموت. كلّما استمرّت الحياة، فتحنا جنونًا جديداً وطراوة أخرى في عمق جبروتها وقسوتها. لم يكن من حقّك أن تهمل قلبك المتعب. كنت متأكّدة في أعماقي من أنّك كنت تسير على الحوافّ الخطيرة التي يمكن أن تسرقك منّي في أيّة لحظة.

وصلنا ليلاً إلى *لانغا ـ لاند*. كنتَ قد حجزت البيت الخشبي على حافّة البحر تمامًا. وكان المهمّ أن يقع هذا البيت في خلاء موحش لكي نتمكّن من العودة إلى أنفسنا المتعبة. البحر يجمعني بك مثل الرباط المقدّس. طوبى لبحار تفصل بيننا، ولا تحرمنا من الحلم في عمق موجها، أفضل ألف مرّة من نثار الصحارى وقحط الأراضي المشقّقة.

على الرّغم من السكينة، كنت خائفة من أن يكون قد رآني أحد أصدقاء رياض. فهم كثر، كان يعرف أنّي بالدانمرك لغرض موسيقي يتعلّق

بتدشين الأوبرا الجديدة، حتى أنّه كاد أن يرافقني ويخرّب علينا كلّ شيء. كنت مرهقة وخائفة ليس فقط منه، ولكن أيضًا من شيء غامض كان يحفرني من الداخل، وينغّص عليَّ سكينتي الجميلة. هل تدري ماذا يعني أن تسافر امرأة متزوجة مع رجل، من أجل جنون جسدي هي نفسها لا تعرف عواقبه الوخيمة؟ كنت متوتّرة ولا أعرف ما الذي أيقظ فيَّ ابنيَّ ورياض، وهذا الهبل غير المحسوب؟ عندما وقفنا في محطّة البنزين وشربنا قهوة ودخّنّا سيجارة، قلت لي وأنت تبحث عن كلماتك التي لم تكن تسعفك، تصدّق بصعوبة أنّي تركت كل شيء وركضت وراء سرابك المخيف: *إذا لم نفعل هكذا ولم نسرق حقّنا في الجنون، لن نرى بعضنا البعض. لن يمنحنا أحد ثانية واحدة للحبّ والسكينة. كلّ الأيادي تسرق منّا أحلى ما يمكن أن يحصل بيننا*. وأنا أتوغّل في بؤبؤي عينيك، لمست إصرارًا كبيرًا على التمادي في الجنون. سألتك بخفوت: ألم يكن من الأجدى لو اخترنا مسلكًا غير هذا، أكثر لذّة وأقلّ عذابًا؟ في لحظة غريبة تمنّيت أن أوقف كلّ شيء، وأقول لك بكلّ بساطة: أعدني إلى المطار، لم أعد قادرة على تحمّل كلّ هذا السراب. لم تقل شيئًا. قرأتَ كلّ شيء في عينيّ المتعبتين. سحبتني من يدي وتمتمتَ بحسرة وخيبة: ليكن. *لم أكن أريد رؤيتك على هذه الحالة*. بدا لي كأنّي أجبتك وأنا ما زلت مثبتة في عينيك: *لا أستطيع حبيبي أن أغفر لك لحظة جنونك التي عصفت بكلّ سعادتنا. ألم يكن من الأجدى أن نهرب ونحن معًا مع ملينا التي تعوّدت على تحمّل هروبي وغيابي المتكرّر*. يونس أصبح يتساءل كلّما رآني أهيِّئ حقيبتي: يمّا. متى تبقين قليلاً معنا. أصبحنا نشتاق إليك كثيرًا. أمّا ملينا، فكلّما رأتني في حيرة: قالت: ماما سافري وعودي لنا بسرعة. إذا صادفت عمّو سينو، سلّمي لي عليه. أنا أيضًا أحبّه. دُهشت من جملتها العفويّة: أنا أيضًا أحبّه، ولكنّي لم أسألها عن التفاصيل. تحشرك في كل مكان. هذه الطفلة مدهشة وكأنّها تقرأك في داخلي. لأنّها بعدها بقليل واصلت غيّها

ورمـوزها، **أو على الأقلّ هكذا بدا لي**: منذ مـدّة لـم نر عـمّـو سـينو في التليـفزيون. . . **أصمت. تواصل**: هل يذهب هو أيضًا لحضور حفل افتتاح الأوبرا الجديدة في كوبنهاجن؟ **أكزّ على شفتي. لا أريد أن أكذب عليها هي بالذات. أعضّ على لساني لكي لا تخرج من فمي أيّة كلمة يمكن أن تدمّر كلّ شيء. أضع يدي على قلبي لكي أحتفظ بالسرّ سنوات أخرى. ثم أصنع جوابًا سريعًا، كانت ملينا نفسها تعرف ضحالته**: ربّما لم يُدع إلى ذلك. لا أعرف بالضبط.

المشوار إلى *لانغا ـلاند* كان طويلاً جدًّا. استغرقنا وقتًا كبيراً في التفتيش عن البيت الذي كان كأنّه يتخفّى في غابة استوائيّة، لا شيء فيها إلاّ الرياح، والبرد والبحر الذي ينام عند قدم البيت. عندما دخلناه لأوّل مرّة كان بارداً وأردت أن أدفئه. قلت لك لا تفعل شيئًا، أنا أعرف جيّداً كيف أنشئ الحياة في أحشاء هذه المدفأة الباردة. حاولت ولكنّي لم أنجح. كنت فقط أريد أن أسعدك إلى أقصى حدّ ممكن، وأشركك في الفرحة التي منحتها لي. كنت مستعدّة أن أحرق العالم مقابل أن أبقى في أحضانك، وليكن البرد قاتلاً إذا شاء. جلسنا. قلتَ لي بلغة تكاد تكون همسًا: لنسمع إلى الموسيقى قليلاً، ربّما أعطتنا بعض الدفء. سلّمتك زادي الجميل من العزف على الكمان في قرص. قلتَ: *لا أريد أن أسمع الموسيقى التي يشترك فيها الجميع. أريد فقط أن أسمعك*. منحتَني كأس كونياك. قلتَ وأنتَ تضحك من قلبك: في انتظار أن يشتعل الجسد. ثم انهمكتَ في تجريب القطع الخشبيّة الجافّة، وقطعة المازوت المضغوط، البيضاء، التي تساعد على الإشعال. فجأة التهبت الأخشاب. خفّضت الضوء قليلاً، فبدت الصالة الواسعة التي لم يكن بها شيء إلاّ نحن، مليئة بالظلال الجميلة. شممنا رائحة خشب البلّوط تأتي من عمق المدفأة. بدأ الدفء يرجع إلى البيت شيئًا فشيئًا. كنت أعرف أنّك لا تتحمّل البرد، ولا

يكفيك حضن امرأة جميلة. ثم اتّكأتَ عليّ وقلتَ لي مرّة أخرى: *أريد أن أسمعك*. أخرجتُ الكمان الصغير من غمده. استقمت قليلاً في جلستي. وضعت سلكه في محوّل الكهرباء لكي يصبح صوته حادًّا وناعمًا، على الرغم من أنّ والدي كان يرى في ذلك تعدّيًا على حرمة الكمان، وتعبيرًا عن عجز في الأصابع وليس في الآلة. كان يقول: *عندما تكون الأصابع حيّة ومليئة بالحنين، هي تعرف كيف تجعل الكمان يتكلّم بكلّ أسراره. وعندما تكون الأصابع نفسها ميتة، تقتل أدفأ الأشياء فيه. الجمال هو لا شيء سوى تناسق الأصابع وخيوط الكمان في وحدة روحيّة متكاملة. الفجوة الخشبيّة مثل السجن العميق، إمّا أن تحرّر كلّ الأصوات السجينة، وإمّا أن تزيد في دفنها*.

عزفت لك ليلتها سوزان لونديبنغ، ليس لأنّي كنت أحبّها فقط، ولكن، لأنّي كنت أيضًا قريبة من النرويج، بلادها، ومن ثلجها وبحرها، وحنينها.

كنّا ثملين وخفّ وزننا فجأة. احتضنتك. اقتربت منّي أكثر. كلّ شيء مرّ بسرعة. اشتعلت الحرائق في داخلنا. لكنّنا مارسنا الحبّ بخوف، أو هكذا شعرت. نمت ملتصقة بك مدّة ثلاث ساعات، وبعدها قمت وأشعلت المدفأة التي بدأت تخبو في الصالون. كان الجوّ رائقًا على الرغم من برودته. تأمّلت وجهك في غفوتك. ابتسمت في أعماقي. كان لزعر الحمصي الملعون يبدو من وراء عينيك النائمتين. على الرغم من التعب، كان وجهك صافيًا كفجر ربيعي. أردت أن أقبّلك، ولكنّي خفت أن أوقظك. بقيت لحظات طويلة أتأمّلك، وأتأمّل وجهك الذي انعكست عليه ألسنة لهب المدفأة في شكل خطوط ذهبيّة صغيرة اخترقت كلّ ملامحك. شعرت بتعبك العميق. فضّلت أن أتركك نائمًا، بينما خرجت نحو البحر. كانت قد ظهرت أولى علامات الفجر في أفق بدا صافيًا على غير عادته. لبست المانطو الخشن الذي جئت به من آخر سفرة إلى إيطاليا. تنفّست عميقًا. فجأة، شعرت بأنّي كنت ملكة على هذه الجزيرة. مشيت وحدي بين الأشجار، وتحت اللمبات الجميلة المعلّقة التي لم تُطفأ بعد. لا شيء إلاّ أنا، وظلّك

الذي فيَّ، وخشخشة الأوراق تحت رجليّ، وانعكاسات النور القويّة على بقايا كتل الثلج هنا وهناك. تمنّيتك أن تكون معي لاستقبال أوّل شمس تجمعنا منذ زمن بعيد، ولكنّك كنت متعبًا. عذرتك، فأنت راجع للتوّ من سفر بعيد جدًّا، والتعب كان واضحًا على وجهك. لم يكن البحر مثلما تخيّلته، عاصفًا في جزيرة *لانغا ـ لاند*. هادئًا وجميلاً ومستسلمًا كان. على امتداد الساحل، وعلى الرغم من البرد، نزعت حذائي وبدأت أمشي قبل أن أركض بكامل قواي على امتداد الشاطئ. لم أكن أحسّ بأيّ شيء، إلاّ بدغدغة الأمواج الدافئة وهي تعترض ركضي. شعرت كأنّي طفلة صغيرة، صبيّة وهران العاشقة من شعر رأسها حتى أصابع رجليها. ركضت على الحافّة بلا توقّف أبدًا. فتحت ذراعيّ وصرخت كالمجنونة، كما فعلت معك ذات تيه في ساحل وهران الواسع:

شايف البحر شو كبير... بكبر البحر بحبّك.

شايف السماء شو بعيدة.... ببعد السماء بحبّك.

بكبر البحر... وبعد السماء... بحبّك يا حبيبي...

عندما اخترق عينيّ أوّل شعاع صباحي في *لانغا ـ لاند*، اتّكأت على حائط صغير، ونمت واقفة، وتركت الأشعّة تدغدغني وتهدهدني. كانت موسيقى جميلة تتوغّل في داخلي في اللحظة نفسها التي كنت تحتضنني من ورائي، وتقبّلني على رقبتي، وأنت تضحك:

ـ وينك يا هرّابة؟ حيّرتني عليك؟ من غير المعقول أن تكوني أنانيّة إلى هذا الحدّ وتسرقي الشمس، وتشربي الفجر، وحدك.

ـ عمري... كأنك كنت تسمع قلبي المليء بالنور وبك. في اللحظة هذه كنت أحلم بك. كنت أضمّك إلى صدري وأغنّي لك فيروز التي كنت تعشقها بجنون، من صوتي.

احتضنتني بشدّة أكثر، وقلتَ وأنت تشدّني بقوّة نحوك: دعيني أستفدْ من ساعات الضوء القليلة. دعيني أرَ وجهك في كامل صفائه. مدّة الضوء في مدن الشمال قليلة. قليلة جدًّا إلى حدّ أنّنا نكتشف فجأة أنّ خطوط الظلمة بدأت ترتسم على الأشجار، والبحر والخلجان الصغيرة. أسوأ ما في هذه المدن أنّ شمسها قليلة.

بقينا في الساحل الخالي حتى غطّتنا الشمس كلّيًّا. نمنا على الحافّة متّكئين على بعضنا البعض قبل أن نعود إلى البيت ممتلئين براحة داخليّة لم نحسّها من قبل.

شربت القهوة واستلقيت على الكنبة بجانبك. لم أشعر بالبرد هذه المرّة.

لم تحدِّثني عن عيد ميلادي. كنت أحمق مثلي تنتظر اللحظة الجميلة التي تسقط فيها الأشياء في مواقعها الحقيقيّة. في المساء حضّرتُ الطعام وكان رديئًا للغاية. أزعجني ذلك لأنّي كنت أريدك أن تأكل شيئًا خاصًّا من يدي. ولكنّي كنت سعيدة أنّنا وصلنا أخيراً إلى بعضنا البعض. تمنّيت أن تطول أمسيتنا دهراً كاملاً، وأن لا تسرق منّا الغفلة لحظة واحدة. اللقاء معك يريحني كثيراً لأنّه يجبرني على الوقوف في مواجهة مرايا الروح المنكسرة، والتخلّي عن عزّة فارغة غير مجدية. لم أربط بين ما قلته لي عن طالبتك الروسيّة، آنيا، عاشقة الباليه، التي افترقت عن صديقها أوليغ، عندما سألتك ضاحكة عن ملعناتك، وعن حياتك الباريسيّة. أنت تعرف جيّداً أنّ وجود هذه المخلوقة بجانبك يحرقني. أنا امرأة، وأعرف جيّداً ما يتخفّى داخل العيون. لأوّل مرّة أفشيت لي بحقيقة خبّأتها طويلاً. قلتَ لي إنّ صديقها كان يريد الزواج منها ولكنّها رفضت، ويوم صرّحتْ له بحبّها العميق لك، خرج من بيتها ولم يعد أبداً بعد أن ترك لها ورقة يؤكّد فيها أنّه كان يعرف كلّ شيء، وأنّه ينسحب من حياتها نهائيًّا.

ـ وأنتَ يا روحي؟

ـ لا شيء، سوى بعض الحماقات الطارئة. آنيا امرأة ذكيّة.

ـ نمت معها؟

ـ اكتشفنا بسرعة أنّنا لا نصلح أن نكون أكثر من صديقين رائعين.

ـ كلّ فتنتها لم تغرك لتواصل حماقاتك معها؟

ـ أحبّك.

ـ تحبّني وتنام مع امرأة أخرى؟

صمتُّ. تذكَّرت فجأة ليلة روما البائسة.

الغريب أنّي لأوّل مرّة أصدّقك في كلامك عن آنيا، أو آنيتا كما يسمّيها المقرّبون. ولأوّل مرّة أشعر بسعادة غامرة على الرغم من الآلام القاسية التي كانت تأكلني من الداخل. بكيت بمرارة وانفصلت عنك، واتّكأت على الحائط الملتصق بالمدفأة. كنت متيقّنة من أنّ تلك المرأة ستقتلني لا محالة. ليلتها شاهدتني بكلّ عريي، وغيرتي الطاحنة، وربّما حيرتي وخوفي من فقدانك. مع ذلك لم أكن مستعدَّة لتضييع تلك اللحظة وسط هذا الصمت الكبير مثلما فعلنا بغباء في روما. كنت أشعر برغبة كبيرة في أن أصل إلى غموضك ومدافنك العميقة لكي أجدك مرّة أخرى كما أشتهي. فأنت تركض بسرعة ضوئيّة في الحياة، بينما كنت أعيش دورة مغلقة، ومُعادة بشكل دائم.

كلّما صمتُّ، سحبتني نحوك حتى أزلت عنّي غمامة آنيا وتخيّلاتي الشيطانيّة نحوها. هل تدري أنّي فكّرت في قتلها، لا لشيء إلاّ لأنّها فكّرت يومًا أن تزيحني من قلبك. أغفر لها النوم معك، أغفر لك حماقاتك التي لا

أعرف إلاّ بعضها، ولكنّي أكره الغطرسة واحتلال أمكنة الآخرين. قدرك أن تنهي حياتك معي وليس مع امرأة أخرى.

لم تكن ليلة ميلادي عاديّة. فقد أعدتني ليلتها إلى أولى حالات عشقنا المجنونة. كان الويسكي يسرّع من درجة الجنون، ويقوّي حالة العطش إلى الحبّ. شعرت بك تقتحمني وتملأني كلّيًّا ونحن نتقلّب بمحاذاة المدفأة القديمة التي كانت تشتعل مثلنا. مرّة أخرى أرى في عينيك شعلات صافية ومطهّرة من النار الملتهبة. على الصوفة، أحسست أنّها كانت عاجزة عن تحمّل هبلنا وإبداعاتنا المجنونة. ثم على الأرض الدافئة، والتمرّغ في الصالون المفروش بزربيّة قديمة لم نحسّ بخدوشاتها إلاّ عندما دخلنا إلى الحمّام. الأمكنة تحرّرنا أحيانًا من ثقل الذاكرة. لا خوف في القلب، ولا حارس لنا إلاّ الأوراق وخشخشة الخشب الذي كان يحترق داخل المدفأة، والكتب التي كانت تطوّق البيت في شكل تاج جميل. كنت مذهلاً. كلّما انتابتني صرخة اللّذّة التي تدفع بي إلى الصراخ، لم تكتمها كما تعوّدتَ أن تفعل. لم تضع يدك على فمي، ولم تتمتم متقطّع الأنفاس: ششششت... لسنا وحدنا. وتركتني أتهاوى في عمق اللّجّة الصاخبة لا أسمع إلاّ أصداء صرختي البدائيّة وهي تعود نحوي وتلتصق بجسدي.

أتساءل اليوم، هل سيُكتب لنا عمر آخر لنتمكّن من استعادة الحياة الهاربة؟ شهوتي ما تزال معلّقة في عينيك لأنّي أثق بك وأحبّك، وربّما كنت مجنونة بدون أن أدري لأنّي أحبّ سرابًا، كلّما تجمّع ماؤه بين أصابعي، انسحب حتى قبل أن أشرب وأرتوي منه. أحبّك. تأكّد لي أنّي لن أكون لغيرك، ولا حتى للرجل الذي سرقني من غبائك.

في *لانغا ـ لاند* شعرت أنّي وُلدت مرّة أخرى. ليلة واحدة أنستني سنوات الشؤم، وأحزان أوبرا وهران الفارغة، وأحضان جبال المرجاجو،

وبركة سيدي الهواري. عندما أُسْأل اليوم في الحوارات الصحفيّة، عن مكان ولادتي، أتردَّد كثيراً قبل أن أجيب. أصمت قليلاً. أسترجع ليلتي *لانغا ـ لاند* اللتين كانتا عمراً جديداً عشته هاربة من جسدي ومن أسئلتي وحتى من خوفي عليك وإليك. حلم أشعر بطعمه تحت لساني مثل الحلوى التركيّة.

ليلتان كانتا جنّتنا المدهشة.

سيني... عمري الهارب بسرعة البرق...

هل يمكنني أن أوقف الزمن على حوافّ *لانغا ـ لاند*؟

اليوم جمعة، وكلّ جمعة في يوميّاتنا حزينة ومليئة بالتعب. أنت دائمًا تهرب منّي كالريح أو كالزئبق. أسأل نفسي ماذا لو كنت معك مجرّد صحافيّة تحاورك في حماقاتك الخفيّة، ولا امرأة تعشقها وتُجنّ عليها كلّما أصابتك الوحدة والقرف ممّا يحيط بك.

كم أشتهي أن أظلّ معك. أن أظلّل كلّ رحلاتك، وأعطّر صباحاتك.

لا شيء هنا في فيينا حبيبي إلاّ البرد الشديد، لكنّ المدينة جميلة، بل مذهلة. أنتظر فقط أن تفاجئني بمجيئك. أعرف أنّنا لن نكون أحراراً كما في *لانغا ـ لاند*، ولكن على الأقلّ يمكننا أن ننهب ما نريد من ساعات الفرح. أقرأ مذكّرات كازانتزاكي: *تقرير إلى غريكو* التي تقوّي عندي شهيّة الركض نحوك مغمضة العينين. هل تدري عمق ما تفعله فيَّ الكتب الجميلة؟

لقد خرجت باكراً من الفندق وبدأت أبحث عنك في أوجه المارّة. أقول ربّما ركبت رأسك كما تعوَّدتَ أن تفعل، وجئتَ ركضًا نحوي؟ أعرف أنَّك تخاف عليَّ من جنوني، ولكنّي أستطيع أن أشغل عقلي قليلاً للحفاظ على استمرار حماقاتنا الجميلة.

شـوقي هو الـذي يتكلَّم. أنتظر هزّاتك وأتأمّل عيـون العـابرين بلا جدوى. لا أحتاج لتفكيـر كبيـر لأنّي أعرف أنّ شيئًا في النهاية سيقودني نحوك، دون أن يترك لي خيارات كثيرة، مع أنّ خوفًا ما يتملَّكني من خيبة ما لم أعد قادرة على تحمّلها. هل رأيت؟ أنا لا أتصرّف كذلك لأنَّ لديّ وقتًا زائدًا كما تقول، بل لأنّني لا أملك غيرك في هذه الحياة. لا قدرة لي على التعامل مع الوقت الذي لا يزدحم في ذهني بلا معنى، بطريقة خاصّة أحدِّد فيها الأولويّات، وأحدِّد ما يمكن أن يؤجّل دون خسارة ويمكن استدراكه، وما لا يمكن تأجيله ببساطة لأنّه سيموت إذ لا يمكن تعويضه. وجودك، بالنسبة لي على الأقلّ، لا يعوّض. أحزن بشدّة عندما أتذكّر كلّ الزمن الذي مضى قبل أن نلتقي، وكلّ الزمن الذي سيمضي قبل أن نلتقي، وكلّ الزمن الذي ستقف فيه أنانيّتك بعصاها القهريّة. أيَ إنسان طبيعي كان سييأس منك ويتخلّى عن سرابه. ولأنّني مجنونة بك، فأنا ما زلت أصرّ على هذا الوهم الذي لا يخفق في صنع بداية جديدة. دونكشوتة أخرى تصارع طواحينك الهوائيّة دون كلل.

تعال حبيبي. فاجئني. غيّر نظام دورة الرتابة. أعدني إلى أرضنا، *لانغا ـلاند*. هل تدري، أيّها الأحمق، أنّك كنت الوحيد الذي يستطيع أن يقشّر تلك المرأة الدائخة تحت وقع اللحظة وكأس الويسكي الرشيقة، كحبّة برتقال ويتلذّذ معها وبها، بالرائحة والمذاق الحلو؟ عقلي في غيابك يشتغل بلا توقّف. كنت دائما أخطِّط للهرب بعيداً إلى ذلك المكان الذي يضمّ كلّ أشواقنا ولا يبوح بها إلاّ للبحر الذي يتسلّل إلينا من الشرفة ويحرِّك مدافننا، غيرةً أو حبًا، ويتواطأ معنا مثلما فعلنا في أمكنة أصبحت اليوم من أثاث الذاكرة الحيّ، إلى أن فتحنا نوافذ *لانغا ـلاند* الجميلة. الأقدار هكذا حبيبي، ليست ظالمة إلى الحدّ الذي نتصوّره، تفتح بابًا حيث نظنّ أنّ كلّ شيء أصبح مستحيلاً، وتغلق آخر مثلما يحلو لها.

كلّما تذكّرت ساحل *لانغا ـ لاند*، أحسست بشيء ما في داخلي يلعن كلّ شيء في الدنيا يجعلنا نتصرَّف ونبدو على غير ما نحن عليه. كنت دائماً أنتظر فرصة الذهاب بعيداً. وهيّأت نفسي، قبل السفر، لارتداء أجمل ثوب عندي والتزيُّن بطريقة ملعونة، فقط لأرى تلك الابتسامة الجميلة على وجهك، وأنت تستقبلني كما يجدر برجل أن يستقبل امرأة يحبّها، لم يلتقيا منذ زمن طويل. امرأة يعثر عليها داخل كلماته ويضيّعها في زخم الحياة الذي لا يرحم، ولا يعطي أهمّيّة لأولئك الذين يقفون على الحوافّ. نستمع إلى بعضنا البعض بحبّ. أنظر إلى عينيك اللتين اشتقت إلى أن أنظر إليهما دون أن أخاف منهما ولا عليهما. أسألهما عن كلّ ما أريد وتجيبان بالصدق ذاته الذي جعلني أتعلَّق بهما ذات يوم. تحكي لي عن المجنونة الروسيّة، آنيا، التي تلتصق بك كقدر جديد، عن أسفارك الأخيرة وحتى تلك التي تتهيَّأ لها، عن كتاباتك التي تسكنك، عن مشاريعك القادمة، عن أحلام جديدة تولد داخل الصدف الجميلة وداخل مشتركنا المعاند، عن آخر الكتب التي قرأتها وأحببتها، عن آخر موسيقى هزّتك من الأعماق. ولمَ لا عن آخر عن آخر امرأة أدهشتك، وجعلتك مشدوداً أيّاماً طويلة إلى سحرها قبل أن أطفو على السطح ويصبح ذهنك ورقة بيضاء، عن قلبك الهشّ الذي أنهكتَه كثيراً ولم ترحمه، عن ذلك الإحساس العميق بالغبن واليأس من حياة نشتهيها، ولكنّها لم تعد ممكنة. تحكي لي بدون خوف من جرحي، خلف سيجارة تدخّنها بأناقة، وكأس شيفاز رائقة، احتفالاً بيومي أنا التي لا أحسّ به إلاّ في وجودك. وتسمع منّي قليلاً من الخوف والأشواق والأحلام الصغيرة والجميلة، والصراعات المتواترة مع محيط لا يرحم، لكي أبقى حيّة وأحبّك كلّ يوم أكثر، قبل أن أسحب يدي وأترك السماء تنزل عليّ وعلى من حولي. تخيَّل امرأة تحمل سماء بيديها فقط لكي يمرّ الذين تحبّهم بسلام. أنت، ملينا وأنا. وننسى بعدها كلَ شيء، حتى الارتطام العنيف للسماء، التي هربت من ظلالها الداكنة. نحكي النكات

العارية والملعونة، التي تملك منها الكثير. أراك وأنت تضحك حدّ البكاء. ونستمع إلى الموسيقى. وأتمتم في أذنك القريبة إلى قلبك:

« ـ تعال حبيبي.. سأسمعك إيقاعات ساحرة سحبتها ورائي من بلاد الثلج والعزلة».

تستسلم لي، ثم تغمض عينيك. أُجلسك على الكنبة العريضة، وتنتظر كطفل وديع ما سأفعله. يأتي صوت الكمان دافئًا وهادئًا I am your lady. صمّمت بعناد الشقيّة أن أكون امرأتك الوحيدة في تلك الأراضي البكر. أنظر في عينيك اللتين صارتا أكثر لينًا. أسحبك نحوي بالنظرات وأهدهدك إلى أن تغرق في النعومة واللّذّة التي لا تقاوم. عندما أتعب، أضع رأسي على صدرك، ويدي تحاور يدك داخل الموسيقى. حتى يصعد من داخلنا إيقاع مشترك يشبه الأنين قليلاً. تمتم كالسكران، وأنا غارقة داخل عالم بلا حدود، يعوم في ضوء بلّوري مُغْشٍ للأبصار:

« ـ أما زلتِ تحبّينني؟

أرفع رأسي وأفتح عينيّ بابتسامة صغيرة وماكرة، وأنا على صدرك:

ـ هل هناك غيري؟

ـ هذه هي اللحظة الأنسب للإجابة عن سؤال كهذا.

أتوغّل في عينيك، وانظر إليك بإصرار معاند:

ـ أحبّك. لو تدري فقط كم أحبّك، لما تجرّأت أيّها الأحمق على طرح هذا السؤال».

نتهاوى على إيقاعات I am your lady. ندور في مكاننا، ننحدر أكثر فأكثر نحو فجوات لدنة وناعمة مثل الحرير. هل هناك جنّة أجمل من هذه

اللحظة؟ تنام شفتاك على شفتيّ دون أن تكسر إيقاع الأغنية ولا إيقاع الرقصة.

حبيبي، كم تكون لذيذًا حينما تكون عاشقًا ومرتاحًا، لا وجود لأيّة حسابات وأحزان في رأسك. حين تطرد كلّ شيء ولا تبقي إلاّ على ذلك الطفل الشقيّ الذي استطاع أن يهرب من جبروت عقلك، ويحافظ على عفويّته الأولى، وعلى عشقه رغم كلّ شيء.

«ـ تعالي...».

تهمس في أذني. تحملني بين ذراعيك كمشةً من نور هشّ. يبدو البحر من بعيد كغيمة زرقاء هاربة نحو أفق غير مضمون. تنثر على جسدي العاري كلّ باقة الورد الأحمر التي استقبلتني بها في باريس. أبدو لك شهيّة وطفلة شقيَّة تعلّمت كلّ الحماقات ولم تعد مغمضة العينين كما كانت في أوّل لقاء معك. تقبّلني طويلاً وأنا أفكّ أزرار قميصك زرًّا.. زرًّا، بلهفة كبيرة. كنت أريد أن أعرّيك بيدي، وأحفظ كامل تفاصيل جسدك، كمن يفعل ذلك للمرّة الأخيرة. أقبّل كلّ نقطة فيك، من رأسك حتى أخمص قدميك، كما تفعل أنت، قبل أن نندغم كحرفين متشابهين، أو كحلقة موسيقيّة لا حدود لتبدُّلاتها وتنوُّعاتها.

«ـ أحبّك يا مهبول. لو فقط كنتَ تدري كم أحبّك، لما تجرّأت أيّها الأحمق على طرح هذا السؤال».

كلّ شيء مدوّخ وساحر. كلّ ما كان يحيط بي وأنا في أراضي *لانغا ـ لاند*، يجعلني أخفّ من ريشة. رائحة جسدك. حنين الكمان. الورد. النرجس والشمعة التي تشتعل فوق رؤوسنا وتتلوّى معنا وتحرس عرينا وجنوننا. كم حاولنا أن نطيل تلك اللحظة وأن نجدّدها، لتكون قادرة على تحمّل ما ذهب وما

سيأتي، لكنّها، ككلّ الأشياء الجميلة، انتهت بسرعة لتبقى معلّقة بين حاضر متعب، وذاكرة ترفض أن تتخلّى عن أشواقها. أنزلق على جسدك كأنّك فجأة صرت ملكي وحدي. أغمض عينيّ كالأطفال كي لا أرى إلاّ ما أشتهي. تبقى معلّقًا في السقف. أتساءل: فيم تفكّر يا ترى؟ فيَّ؟ ربّما تقول بخوف إنّه ما كان عليك أن تقود هذه الطفلة الحمقاء إلى كلّ هذا الجنون، في هذه الأراضي البكر، الخالية من أيّة أنفاس أخرى سوى أنفاس النباتات والأشجار العملاقة والبحر؟ أدير وجهك نحوي، لأقطع تفكيرك دون أن أقول شيئًا آخر.

« ـ أحبّك يا أجمل مهبول في الدنيا. أحبّك، فهل تسمعني؟

تضمّني بقوّة نحوك. تقبّل كلّ ما تصل إليه شفتاك من جسدي الذي ما زال حارًّا. قبلات صغيرة وهاربة. نبقى لحظات مستلقيين كما لو أنّنا كنّا نملك العالم. يدك في يدي، تضاءلت بيننا كلّ أزمنة الوحشة والخراب. ثم لا شيء سوى مسافة للجنون، وأخرى، أريدها أن تظلّ بعيدة وأن لا أفكّر فيها أبدًا، يمكن أن تكون للموت.

قلتَ لي وأنا أغمس يدي داخل صدرك:

ـ أحبّك ولا أريد أن أقنع قلبي بضرورة الاستكانة والراحة».

حبيبي،

أقول في صمت الخائف عليك من هزّة عنيفة تسرقك منّي.

أعرف ذلك. أعرف أنّك تعيش داخل الزمن وخارجه، وعليك أن تجد أجندة تحمل الزمنين معًا، وهي غير موجودة على الإطلاق. أعرف أنّ في داخلك يتصارع العاشق، والزوج، والحبيب، والكاتب، والمجنون، والعاقل، والمقيم داخل التيه، والراحل نحو أرض مستحيلة. أعرف أنَّ الوجوه التي تحيط بك أصبحت من فولاذ، ولم تعد قادرًا على تحمّلها أنت الذي لا يتحمَّل الأشياء

الباردة. إذا لم تكن تعرف كيف تموت الابتسامة، فعليك أن تنظر إلى نفسك في المرآة مباشرة عندما تكون منكسراً، أو خارجًا من حمّام الناس الذين يعيشون بجوارك. لا بدّ أن تكون هاجر تكرهني. معها حقّ. الربع قرن الذي عشتَه معها لم يمح صورتي من مخيّلتك أبداً. ماذا إذن لو استيقظتَ يومًا ولم تجدني بجوارك؟

« ـ أششششت... أرجوك».

أرأيت؟ ترفض حتى التفكير في الإمكانيّة التي ليست بعيدة. ما رأيك في امرأة تعيش على وقع تحوُّلات جسد هشّ لرجل مجنون لا يعير اهتمامًا كبيراً لراحته؟

تُلبسني ملابسي مثلما نزعتَها قطعة قطعة. تحضر لي شايًا كالعادة، بسعادة كبيرة وخفّة، وكأنّك أخيراً تخلّصت من كلّ شيء، دفعة واحدة، حتى من الثقل الذي كان يغطّي علاقتنا طوال الأيّام الماضية بسبب حضور آنيا بيننا. أنا مثل عصافير الجنّة، أغرِّد بسعادة بدل أن أتحدّث، وأطير بدل أن أمشي على الأرض لأنّي من فرط السعادة، كنت أخفّ من الريشة.

في الصالة وضعتَ رأسك على ركبتي واستلقيتَ على طول الكنبة، وبقيتَ تروي لي كلّ ما يثقل صدرك وكلّ ما يجعله غنيًّا وقويًّا أيضًا. تمنّيت أن تتوقَّف الكرة الأرضيّة يومها عن الدوران حتى لا تقترب الشمس من الأفق الذي يعلن النهاية السريعة لواحد من أجمل الأيّام في حياتي.

توشوش في أذني.

« ـ نخرج.

أردّ بدون أدنى تفكير:

ـ نخرج».

تُلبسني معطفي الإيطالي الخشن، ثم ننزلق خارج البيت الخشبي الرائع.

أتنفَّس الهواء البارد. أشعر بانتعاش غريب في رئتيّ. تأخذني من يدي وتسحبني نحو ضباب البحر لكي أملأ عيني بسحر *لانغا ـ لاند*، للمرّة الأخيرة، ربّما.

ماذا بعد أيُّها الرجل المعاند؟

ما زلت أتحايل عليك فقط لرؤيتك والشبع من وجهك. أراودك ضدّ غيّ الكسل، وأنتظر أن تفاجئني في فيينا كما تعوَّدتَ أن تفعل عندما نصمِّم على الجنون المشترك. ها أنا ذي مثل شهرزاد، أغريك كي تبقى قريبًا منِّي، وتنسى ذلك السكّين الحادّ الذي يذبحني به غيابك كلّ يوم ألف مرّة. أكتب الألف صفحة، والألف رسالة التي وعدتك بها منذ لقائنا الأخير في *لانغا ـ لاند*، فقط لأقاوم ساديّتك الملعونة، وجنونك الذي لا يقاوَم. ولا أدري بعد كل هذا، إذا ما كنت سأنجح في إقناعك بالركض نحو سكينة هذه المدينة الطيّبة. أشتهي، أيّها المجنون، أن أستقبلك في مطار فيينا، فلا تخذلني. أريد للحظة واحدة، وعلى الرغم من العسس الذي يتحسَّس كلّ مساء نبضي وتنفُّسي، أن أكون عروسك التي تركض نحوك أوّل ما تنزل من الطائرة، وأسرقك نحو أقرب نزل، وهناك أمارس عليك كلّ الجنون الذي دفنه غيابك في جسدي. أريد، حبيبي، أن أكون أوّل من يراك في فيينا، وأوّل من يقبّلك بحرارة، وآخر من يودّعك. أنتظرك عمري، ولن أملّ من ذلك.

لا تخذلني.

أنتظرك. في انتظار ذلك، أحبّك.

الفصل الثالث

عطر الرَّماد

06h 33mn 47s

- ١ -

الجوّ بارد.

«الصباح النيلي يتفتّح في الخارج كوردة مثقلة بالماء والعطر».

عندما فتحت الباب، تسرَّبت رائحة زهر البنفسج البرّيّ إلى عمق السكريتوريوم بقوّة. شعرت بها تدخل مندّاة بعطر الفجر. بعثتْ فيَّ حالة خاصّة من الانتشاء الجميل.

قبل قليل، عدت من غرفتيْ يونس وملينا. كلّ شيء على ما يرام. ينامان كملاكين. ابتسامة ملينا لم تتغيَّر. وحزن يونس لم ينسحب من على ملامحه الذابلة. غطّيتهما، ثم نزلت بهدوء نحو السكريتوريوم. كانت ملامح الصباح قد اتّضحت كلّها. تأمَّلت طويلاً الأفق النيلي، كان جميلاً على الرغم من كتل الضباب الثقيلة التي كانت من حين لآخر تغطِّيه، باسطة ظلمتها على كلّ المحيط. كان صباحنا يشبه تماماً مساء جزيرة *لانغا ـ لاند*.

الفكرة التي أنا غارقة فيها، بدأت بلعبة، وانتهت بإجهاد لذيذ.

منذ البداية، راودتني فكرة جهنّميّة، بعد تأكُّدي من دخول سينو في غيبوبة قاسية. قلت بدون أدنى تردُّد وكأنّي سبق أن تهيَّأت لذلك: **لماذا لا أجمع رسائل سينو، أو على الأقلّ بعضها، التي كتبها لي، وتلك التي تلقّاها منّي، وأضعها بين أيدي قرّائه الذين أحبّوه؟** فأنا أملك الصندوق السحري الذي جمع فيه كلّ حماقاته اللغويّة الجميلة. وضعت شرطًا واحداً حدَّدته لنفسي، هو أن لا أتدخَّل فيها، ولا أغيِّر حرفًا واحداً فيها، مهما كانت الأسباب. فأنا أريد أن أكون وفيّة لذاكرتنا المرتبكة. أنشرها كما هي، حتى ولو اضطرّني ذلك إلى أن أضغط بين أسناني، على سكّينة الغيرة بقوّة، لكي لا أتألّم بشكل مفضوح، وأعوي مثل ذئبة، قهرها جرحها العميق.

ما حصل لي بعدها هو شيء غريب يضاهي الحالة المرضيّة. أُصبت بخيبة ممزوجة بفرح دفين، لأنّي كنت قد حضّرت كلّ شيء للحداد. حتى اللباس الأسود الذي اشتهيت ارتداءه ذات ليلة حزينة في حضرة سينو، الذي حرمني تعنّته من لبس بياض العرس. فكّرت حتى في نصّ الشاهد الذي يوضع على قبره، على رأس جبل جدّه، في عزلة وسكينة تامّة، حيث لا شيء، إلاّ الفراغ والبحر الذي يذهب ويجيء عند قدميه: **على هذه الحافّة الصامتة ينام سينو، الطفل الذي قضى العمر كلّه يبحث عن البنفسج البرّي، ويسابق ظلّه الراكض صوب البحر، ويحاول أن يملأ كفّه بأشعّة الشمس وفراشات النور.** وصيّة غير رسميّة، ومع ذلك حفظتها عن ظهر قلب. قالها لي ذات ليلة مسروقة على حافّة بحر لانغا ـ لاند الموحش، وهو في أجمل لحظات التيه. عيناه ليلتها كانتا مليئتين بالنور والألق، وبعض الحزن. ضحك كثيراً ولم ينم إلاّ عندما أصابتني إغفاءة الفجر على صدره.

ألغيت بسرعة فكرة الرسائل، لأنّها فقدت جدواها، قبل أن أعود لها ثانية بلا سبب ظاهر. ربّما انتقاماً من سينو نفسه. قلت لم لا أواصل في الجنون نفسه الذي افترضته؟ نشر الرسائل؟ الجنون الذي يخرجني من نعت ***سيِّدة الظلّ والورق***، ويقرّبني أكثر من امرأة الحياة اليوميّة التي لها جسد وروح وأحاسيس؟

هذه المرّة لم تنتبني أيّة لحظة تردُّد أو تأنيب ضمير. قلت لنفسي، سينو نشر بعضها متخفِّيًا وراء فنّ الرواية، وأنا أنشرها كما وردت في أصلها، ولست في حاجة إلى التخفِّي إذ لم يكن لديّ ما أخسره إلاّ قيود الحياة الثقيلة.

طبعًا، لن ألبس صوتًا ذكوريًّا لحماية نفسي من الخوف، ولكي أتمكَّن من التعبير عن أشواقي وشططي مثلما تفعل الكثير من الكاتبات العربيّات لتمرير حماقاتهنّ الخفيّة، ولكنِّي سأكون أنا بكلّ إرثي العشقي الذي يشفع لي هذا الجنون، المؤذي ربّما، لي وله، ولكنّ هذا أيضًا هو رهان الكتابة القاسي. فأنا في محيط من المقتلات. إذا لم يقتلني سينو، وهو لن يفعل ذلك، لن أنجو من مخالب رياض، الهادئ والصبور، ولكنّه عندما ينفجر، سيأخذ كلّ شيء في طريقه كالطوفان، حتى نفسه. وإذا غفرت لي ملينا التي تحسّ بألمي المضمر، لا أعتقد أنّ يونس عندما يكبر قليلاً، يتحمَّل عيون القتلة المحيطين به والمدجَّجين بالدين والسياسة والتقاليد المريضة. لن ترحمني القبيلة التي ينتمي لها والدي لأنِّي أفسدت نسلها، وأدخلت عليه ما ليس منه. ولا قبيلة زوجي المفتخرة بنقائها العرقي، التي جئتها بجينات غريبة عن تاريخها السلالي.

أعتذر الآن لسينو أنِّي صنعت كتابًا كاملاً من رسائلنا، وحتى من بعض رسائل غيرنا، التي لا يبدو عليها أنّها نصوص أدبيّة فقط كما يتبدَّى

ذلك في رواياته، وكما يوهمني أحيانًا. كان يكفيني أن أتوغّل في عينيه لأكتشف كذبته الجميلة: **هذه الحرارة الوجدانيّة لا يمكن أن تكون أدبيّة فقط يا سينو؟** ينظر إليّ. يبتسم كعادته، ثم ينهمك في أدخنته وكأسه. أفهم دلالة كلّ حركة تصدر من أصابعه، من يده، من نفسه، من ملامحه، من هزّة رأسه، من قيامه وقعوده، من حركاته... كلّ شيء فيه كان لغة لا أحد يكشف أسرارها غيري. أدرك جيِّداً أنّها بعض من الخديعات الدفينة التي يحاول سينو تكميمها خوفًا ربّما من محيط لا يرحم، أو بكلّ بساطة حفاظًا على مساحاته الحميميّة التي يرفض أن يطأها الآخرون. هو يدرك جيِّداً أنِّي لست متّفقة معه وأسمِّي هذا جبنًا ذكوريًّا لا أكثر، ولكنِّي أعذره. هو يفهمني أكثر من أيّ رجل آخر، ولهذا فلن يحقد عليّ، ولن يحاسبني على مخاطرتي.

«ـ مع ذلك... ليعذرني سينو، مرّة أخرى».

فقد تلصّصت، وعلى مدار ربع قرن، على أنفاسه، ونبضات جسده، وعلى كلّ نصوصه، بل وعلى ظروف كتابتها، واستطعت أن أقيس بميزان الخوف الذي لا أحد يملكه غيري، درجة العشق المبطّن فيها. استطعت في النهاية أن أجمع منها هذا الكتاب الذي لم يقل في نهاية المطاف إلاّ شوقًا خفيًّا ظللت أشعر أنِّي معنيّة به بقوّة حتى عندما كان يوجّه لغيري من حين لآخر. وليذهب إلى الجحيم سدنة الأخلاق والسير المزيّفة، والكذب، فهذا ليس شأني، وليعذرني سينو أنِّي قلت حقيقته، حقيقتنا، بدون إذنه. لم أر ضرورة استئذانه أبداً. ما له كان لي.

ثم... من منّا يستأذن الآخر، عندما يتعلّق الأمر بحماقة الحبّ؟

«سينو، يا رجلي الهارب منّي إليّ. طوبى لتلك اليد المرتعشة، يدك، التي دفعت بي في عمق الجحيم المقدّس الذي اسمه التيه والحبّ الذي لا شيء يضبطه إلاّ إيقاع الجنون».

- ٢ -

في خلوة السكريتوريوم أتنفَّس طفولتنا المسروقة بحرّيّة قلَّ ما أحسست بها. لقد تحوَّل هذا المكان فجأة إلى ملجأ للحرّيّة والهبل. لا شيء يحرِّك خوفي، لا رياض الذي يمكن أن يطبَّ عليَّ في أيّة لحظة، فهو لا يخبر أبداً عن مجيئه. ولا حتى الرسائل الخطيرة التي أرمي بها في عمق هذا الكتاب المجنون.

يتصوَّر الجميع في بيتي أنَّ الطابق السفلي، الشبيه بالقبو، لا يصلح إلاّ لرمي الزوائد، ما عدا حبيبتي ملينا، فهي تعرف أنَّه مكاني الأليف. كلّما رأتني حزينة، قالت لي: ***انزلي ماما إلى الكهف وارتاحي قليلاً... اكتبي أو استمعي إلى الموسيقى. أنت في حاجة إلى أن تكوني وحيدة.*** يظنّون أنّ هذا المكان ليس أكثر من الذاكرة المهملة للبيت، وينسون أنّه أيضاً ذاكرتي. كلّما نزلت نحو أعماقه، ارتجف جسدي بقوّة. أوّل لمسة من سينو، بعد زواجي، كانت في هذا المكان. اشتهيته أن يأتي، فأتى. كان رياض يقايض خيط الحرير الصناعي في اليابان ويعلم الكارتيل بضرورة الاستثمار في ذلك، في ظلّ صعود بورجوازيّة ماليّة لم تجد مكاناً ترمي فيه كنوزها المهولة. نمنا أنا وسينو، على سرير حديدي قديم جدًّا. ما يزال صوته يضجّ في رأسي باحتكاكاته المتتالية. تلمَّسته وأنا أشعر أنَّ جسدي كان يقشعرّ بقوّة لأنّ يدي لم تكن يدي، ولكنَّها كانت يده التي كانت تعبر جسدي وتنزلق عليه كثعبان الغواية. لم أشعر بالألم. بتّ ملتصقة به حتى الصباح، ولم تنتبني ولا ذرّة خوف ولا ندم. وأعتقد أنِّي كنت أسعد امرأة في الدنيا ليلتها.

السكريتوريوم متحفي أيضاً.

فتحت الخزانة القديمة، التي أغلقها دائماً بإحكام. قفزت في البداية المنشفة الزرقاء الطويلة التي تغطّينا بها عندما خرجنا من الحمّام المشترك. هو لا يحبّ الحمّام المشترك، ولكنّي أجبرته على التعرّي والاستحمام معي. عندما انغمس في لحظة الحبّ، نسي كلّ شيء، ولم يعد يأبه بما كان يحيط به. ثم فتحت صناديقها الداخليّة التي بها ألبستي الخاصّة. تيشورت برتقالي، قمصان نوم أغلبها لم ألبسها له، لأنّي أصبحت أراه خارج المكان، وفي زوايا بعيدة. فنقلت جزءاً منها إلى بيته الخاصّ على الحافّة، في العاصمة. قميص واحد ارتبط بذاكرتي. لونه بحري، مائل نحو زرقة حليبيّة. ما يزال التمزُّق الموجود في جانبه الأيسر يبيّن عنف اللحظة التي دفعت بسينو إلى تمزيقه عليَّ. وجدت في صوت التمزُّق ليلتها متعة غريبة، كأنّه كان ينزع عنّي غشاء العفّة التافه. تركته على حاله. لم أُخِطْه، بل لم أغسله من عرق تدفُّق ليلة بكاملها على حواشيه الأكثر حساسيّة. رائحته ما تزال كما في المرّة الأولى عندما اختلط جسدانا. الغريب أنّي عندما رأيته على واجهة المحلّ، انزلقت بسرعة إلى الداخل وكأنّ قوّة مغناطيسيّة سحبتني نحوه. لم يسألني سينو ماذا كنت أفعل، كان يعرف جيِّداً أنّ جنّيًا أحمر كان قد ركبني. ثمّ هذا اللباس الأسود الذي ارتديته عندما كانت البلاد تحترق. اشتريته من باريس. سألني سينو يومها: ماذا تفعلين يا مجنونة؟ قلت له أريد أن أموت وأنا جميلة ومجلّلة بالسواد. لبسته في المحلّ وخرجت به. بعدها التصق اللّون بجلدي ولم أستطع نزعه أبداً. في كلّ لباسي شيء من السواد حتى ولو من أجل كسر اللون الواحد.

تعلّمت الرقص لا لأكون راقصة محترفة، ولكن لأنَّ طبيبي نصحني بذلك لتفادي السمنة وأمراض الوزن الزائد. طبعًا لم أكن راقصة في

حياتي. ما قاله عنّي سينو في **سيِّدة المقام**، لم يكن إلاّ لعبة أدبيّة استوحاها من حالتين: حالة راقصة جزائريّة حقيقيّة عرفها في دمشق، في مهرجان الموسيقى الكلاسيكيّة في مسرح بصرى. عشقها وجاب بها المدن القديمة، وسكرا بأجمل وأرقى أنواع العرق. وحالات متعدِّدة أخرى، ربّما كان سينو أكفأ منِّي للحديث عنها. أنا اليوم صمّمت أن أتحدَّث عن حياتي بلا وسائط. كما أنا. كما اشتهيت أن أكون. أو على ألأقلّ، كما كنت في الحقيقة، وليس على الورق.

من أين أتت تلك الصورة الهاربة؟ لا أدري ماذا حدث لي، لكنِّي سمعت فجأة همس سينو في أذني يأتيني من مكان ما من زوايا البيت:

« ـ يا دينك ما أحلاك؟

نبّهته.

ـ أششششت... قلتها بهدوء. **شوف واش كاين قدّامك**».

كان حارسان من حرّاس النوايا يعبران الطريق، ولست أدري ما هي القوّة التي منعتهما من أن يطلبا منِّي أن أظهر لهما أوراقي الثبوتيّة، والدفتر العائلي الذي تعوَّدوا على طلبه من كلّ الشباب والشابّات الذين يصادفونهم في الطريق.

سحبت الدرج الصغير. رأيت كلّ تشكيلة قناني العطور الفارغة التي أهداها لي سينو، مصطفّة كأدوات مُتحفِّية غالية. أستطيع اليوم أن أعدّها كاملة. منذ أكثر من عشرين سنة وأنا أحافظ عليها كالذي يحافظ على كنز ثمين: **كوكو شانيل**، **وازون**، **إيف روشي**، **فان كليف**، **سينيما**، **جادور**، **لانكوم**، **نينا ريتشي**، **غوتشي**، **غوتيه**، **إيف سان لوران**...

كان الدرج متحفي السرِّي.

عثرت على الكثير من أشيائي الصغيرة. حتى صندوق الرسائل الأندلسي الذي استعدته من البنك برضا سينو. كان في البداية في هذه الخزانة قبل أن أسحبه نحو مكتبي. أحفظه في عمق بؤبؤ العين لكي لا يلمسه نفَس آخر غير أشواقي. الرسائل هي كنزي الثمين. يقول سينو إنَّ هذا الصندوق هو آخر ما تبقّى من مكتبة جدّه الأندلسي. أعزّ شيء لديه، ولهذا دفن فيه أسرارنا، وربّما أسرار نساء أخريات؟ لا أريد أن أعرف. أرْيح لي وله. كان تحت المخدّر بين الإغفاءة واليقظة، في مستشفى الأمراض القلبيّة: كوشان سان فانسون دو پول Cochin-Saint Vincent de Paul، بباريس في جناح العناية المشدَّدة. أفهمته أنّي بحاجة لكلّ ما يخصّه. فهمني بعينيه وأدرك بحاسّته العميقة، الحماقة التي كنت بصدد ارتكابها، أو هكذا بدا لي على الأقلّ. كنت أملك مفتاح البنك الذي وضع فيه كلّ أسراره. استلّ ضحكة متعبة وهو يفضي لي بالسرّ: ***اذهبي للبنك، فأنت شريكي الأوّل والأخير في الهبل، ووريثي الوحيد. خذي كلّ شيء. لن تجدي أموالاً كثيرة باستثناء ميداليّات ذهبيّة من اليونيسكو وأخرى خاصّة بجوائزي الأدبيّة المتواضعة. ذخيرتك الوحيدة، رسائلك ورسائل أخرى... لقد أصبحنا كيانًا واحدًا، احتفظي بها، وإن شئتِ أحرقيها، سأعذرك. لا يهمّ. فهي لك. حافظي فقط على نبضك وعلى هشاشة الآخرين.***

« ـ لا تنتهي من هبلك حتى وأنت على حافّة الموت؟ قصدك نساء أخريات؟ هل في الدنيا حبيب يوصي حبيبته بالرفق على نسائه السرّيات؟ عائشة نفسها لم تستطع تحمّل هذا الشطط مع ماريّا القبطيّة، فلماذا تطلب منّي ذلك؟

ـ ليس هذا ما أعنيه... عندما تقرئين الرسائل تعرفين سرّ النداءات الداخليّة. نحن نلتقي ليس فقط اشتهاء، ولكن أيضًا لأنّنا في حاجة إلى أمان

نفقده في حياتنا اليوميّة. يلبسنا خوف لا نعرف مصدره، ونحتاج لمن يفكّكه معنا.

ـ حتى في الموت، لا تتخلّى عن كونك روائيًّا؟».

يبتسم ثم يغيب في غفوته كأنّي لم أكن موجودة.

عندما دخلت عليه أوّل وآخر مرّة، وعبرت جناح الأمراض القلبيّة والشريانيّة الذي يديره **البروفيسور فيبر**، الأستاذ المختصّ بجامعة باريس الرابعة، قادمة من بعيد، وبعد أن هربت من أخت زوجي، لم يعرفني سينو في البداية. لكنّه، كما قال لي فيما بعد، شمّ عطري، ورائحة جسدي عندما انحنيت عليه بصدر كان يعرف خفاياه جيّداً، لأقبّل، بشهيّة، شفتيه اليابستين، تمتم بعد لحظات من الصمت: **ليلي حبيبتي**. كانت المرّة الوحيدة التي أشعر فيها بالفعل بلذّة استرجاع اسمي، بدل اسم مريم الذي قهرني.

« ـ لماذا تناديني ليلي؟ ألست مريمتك؟

تساءلت بملنعة مقصودة.

ـ مريم لن تكونك أبداً. أبداً. أبداً...

لم أعرف لماذا فعل ذلك.

ثم صمت وكأنّه تعب من قول كلمتين خرجتا من قلب منهك.

وضعت عنواني الإلكتروني الجديد في عمق كفّ يده.

ـ سينو... حبيبي. عندما تستطيع القيام، أجب عن رسائلي الكثيرة.

ـ ليلي... عمري... أنا بخير... سأقوم قريباً».

كأنّه قرأ خوفي الضامر في عينيّ.

قبّلته. نسمة فقط. بلّلت شفتيه اليابستين، ثم انسحبت من المستشفى قبل أن يصل شخص يعرفني. فلا وضعَ اعتباريًّا لي في هذا المكان بالذات. خفت، على الرغم من أنّ اليوم لم يكن يوم زيارات، ولا حتى الوقت المناسب. حتى عندما رأتني طبيبة القلب الشابّة الحامل، الدكتورة مانزو شيرمان، وأنا أتحسّس وجهه وملامحه التي انكسرت قليلاً، فوجئتْ بوجودي. قلتُ لها بلغة فرنسيّة فيها الكثير من التردُّد:

Je m'excuse, c'est mon mari. Mon mari. Je viens de très loin pour le voir[١].

زوجي. زوجي.

كرّرتها مرّتين. حاولت أن لا أظهر أيّ ارتباك في كلامي. فتحت الطبيبة الشابّة والأنيقة عينيها قليلاً، فهي، بدون شكّ، تعرف هاجر، زوجته الحقيقيّة. تكون قد رأتها، أو قدَّمها لها سينو بعفويّته المعهودة.

شعرت أنّها امرأة ملعونة حقيقة. ابتسمتْ.

عرفتُ كلّ شيء من عينيها ومن كلماتها.

Ah bon, je ne savais pas. Surtout ne tardez pas[٢].

لكنّ سينو خفَّف من الوضع بتمتمة خرجت بصعوبة من جرح صدره:

Ne craignez rien madame, Lylie, n'est pas ma femme, c'est mon souffle divin[٣].

---

١ ـ أعتذر، إنّه زوجي وقد جئت من بعيد لرؤيته.
٢ ـ حقيقة، لم أكن أعرف. حاولي أن لا تتأخَّري كثيراً.
٣ ـ لا تخشي شيئًا، ليلي ليست زوجتي، لكنَّها نفسي الإلهي.

ابتسمت وقالت: طيِّب... سأعود بعد قليل.

وهي تمرّ بالقرب منّي، عرفت من رائحة العطر الذي كان على جسدها، اسمه، على الرغم من رائحة الأدوية القويّة. أردت أن أستفزّ سينو الذي يحبّ كثيراً عطور إيف سان ـ لوران، ولكنّي عدلت عن الفكرة. كان الوقت ضدّي.

انسحبت بعدها بقليل. ما زلت امرأة الظلّ، ولا يجب أن يراني أحد.

لا أتذكّر الشيء الكثير من تلك اللحظة.

كانت إغفاءة سينو طفوليّة، حتى وهو في فراش الغيبوبة، مسيَّجًا بالأنابيب والخيوط والأجهزة المعقَّدة. كان يمكن أن يموت لولا التدخُّل السريع، ولولا هذه الأجهزة التي كانت تمدّه بالأوكسجين، وتراقب سيولة دمه، ونبضه، ودقّات قلبه الهشّ. كانت هذه أوّل وآخر مرّة أراه فيها في المستشفى.

اليوم، كلّما اشتقت إلى سينو، وكلّما اشتهيت البكاء في دفئه، انسحبت نحو السكريتوريوم، وبقيت هناك الوقت الذي أشاء، أخرج بعدها مرتاحة القلب والذاكرة.

ـ ٣ ـ

«هل قلت كلّ ما كنت أنوي قوله؟ لا أدري بالضبط».

من حقّ سينو أن يطلق النار عليَّ برواية مجنونة، كما تعوَّد أن يفعل معي كلّما أحرقه غيابي، وحتى مع غيري، أو يرفع ضدّي دعوى قضائيّة. فقد قرَّرت من تلقاء نفسي، أن أخرج كلّ شيء من نظامه

الخامل، وأخترق عذريّة الظلام، وعذوبة كلام القلب، وأضع هذه الرسائل بين أيدي قرّائه الذين يعشقونه بلا مقابل، ويحبّهم بصدق حتى في اختلافهم معه.

أعرف أيضًا أنَّ بعض الذين لم يكن لهم حظّه في الحياة، ولا يحبّونه لهذا السبب، سيقرأون هذه الرسائل بشغف الحسود، ولذّة المريض المتصيِّد للمزالق، وسيسعدون جدًّا بها، لأنَّها توفّر لهم مادّة خامًّا يقضون سنة بجوارها، ينحتون فيها فشلهم وخيباتهم.

أدرك ذلك جيِّدًا، لكنِّي لست معنيّة به كثيراً. لا يهمّني أبدًا، ولا يشغلني على الإطلاق. إنّ القوة التي تلفّ هذه الرسائل هي أصدق لحظة، لا يستطيع أن يعيشها جميع البشر بالحساسيّة نفسها وبالدرجة نفسها. سيصمت الأعداء بعد العاصفة الأولى، لأنّه ببساطة، أن تكون بهذه القوّة من الأحاسيس، عليك أوّلاً أن تكون إنسانًا، أو على الأقلّ مؤهّلاً لذلك.

ـ ٤ ـ

أوراق كثيرة تغرقني في التفاصيل. رسائل مكتوبة بخطّ اليد وأخرى بالآلة الكاتبة، قصاصات قديمة بعض حروفها حالت في الزوايا، إيميلات جميلة بكلماتها الزهريّة والبنفسجيّة التي يشتهي سينو الكتابة بها. كلّها تذكّرني بأنّ رجلاً كان هنا، في هذا المكان بالضبط، الذي اسمه مساحة البياض، منحني الحياة بسخاء، قبل أن يعود على أعقابه، وفاءً لجنون أصابه في سنّ مبكّرة.

لم أبذل جهداً كبيراً لإيجاد عنوان لهذه الأوراق سوى رسالة سينو الأخيرة التي بعث لي بها يوم خروجه من المستشفى، والتي كانت تحمل

عنوانًا جـمـيـلاً: **ليلي... أنثى السـراب**. كلمـات أيقظت فيَّ فجـأة بعض نرجسيّتي الدفينة، وبهائي الداخلي الذي لا سحر إلاّ هو. اخترته من بين عشرات العناوين، وعشرات الرسائل التي انتخبتها من مخزونات الصندوق الخشبي ومن الكمبيوتر.

وأنا أرتِّب تفاصيلي الصغيرة، تذكَّرت أحزن رسالة كنت قد خبّأتها تحت ألبستي. كتبها سينو يوم افتقد عزيز، أخاه. كلّما اشتقت لسينو في صفائه وطفولته الأولى، ذهبت نحوها وقرأتها من جديد، وكأنّي أقرأها للمرّة الأولى. أبكي ثم أخبّئها.

لها مكانها في هذا الكتاب. أعرف جيّدًا درجة تعلّق سينو بأخيه الذي غادرنا في وقت مبكّر. كان عزيز أيضًا صديقي وحليفي في الأيّام الصعبة. كلّما انغلقت عليّ سبل الدنيا، أو جرحني سينو، أو هزّ يقيني فيه، كنت أذهب نحوه، وأقول له كلّ ما في قلبي. عزيز، كان الوحيد الذي كان يعرف أنيني العميق وتمزّقي. ويعرف جيّداً كيف يصغي إليَّ، ويمنحني هدوءًا ينسيني كلّ آلامي وجراحاتي.

بكلمة واحدة، كان عزيز، بصبره ولطفه، يرجعني إلى أحضان سينو:

« **ــ ليلى. سينو لا يحبّك فقط، يتنفّسك ويحيا بك. تأكّدي أنّك إذا تركته سيموت اختناقًا في غيابك.**

ــ لكنّه يعذّبني كثيراً، ولم أعد قادرة على التحمّل.

ــ أنت اخترتِ مهبولاً، وعليك أن تتحمّليه إذا كنتِ تحبّينه.

ــ أحبّه، لكنّه...

أبكي بحزن، فينشّف بأصابعه الملكوتيّة الرقيقة دمعي، وأحيانًا يبكي معي.

ـ أنا أيضًا لا أرى حياتي خارج حياته... فلماذا يؤذيني إذن؟

ـ أنا أعرف جيِّدًا يا ليلى، أنَّه يوم يفتقدك، لن يعود إلى الحياة حتى ولو سيّجته ألف امرأة غيرك. أنت مداره الوحيد. في أعماقه طفل عنيد يصعب ترويضه وقهر حرّيّته الداخليّة. وحدك تفهمينه بالشكل الذي يليق بهذا الحبّ. أنت مقياسه في السعادة. كلّما كان معك، شعرت أنَّه بخير، وأنَّ حياته جميلة. وكلّما ابتعد عنك، أحسست أنّ شيئًا فيه انكسر، ويحتاج إلى تجبير سريع».

لا أدري أيّ سحر كانت تفتحه كلمات عزيز فيَّ؟ وأيّة قوّة كانت تدفعني مغمضة العينين نحو سينو متسامحة مع كلّ جنونه.

« **ـ تنتابني أحيانًا أفكار شيطانيّة: لو لم يكن سينو، ربّما كنت أحببت عزيز !؟**».

كان يشبهه في كلّ شيء، حتى في طفولته التي لم تقتلها الأيّام. رفض عزيز أن يغادر القرية، ليس فقط للبقاء بجانب أمّه التي كانت مرجعه الأوّل والأخير في الحياة، ولكن لكي لا يخسر ذرّة واحدة من طفولته، وعطرها، وعفويّتها. المدينة سرقت الكثير منها، من سينو.

كلّما رأيت عزيز في لحظات سهوه، استحضرت بسهولة سينو في خامته الأولى الأكثر صدقًا، والأقلّ ارتباكًا واهتزازًا وجنونًا.

❊ ❊ ❊

من سينو إلى عزيز

الجزائر العاصمة، شتاء ١٩٩٩

حبيبي الغالي، عزيز،

أنت دائمًا هكذا، لم تتغيَّر إلاّ قليلاً.

لم تكن فجيعة الموت هي المخيفة، تعوَّدنا عليها حتى في أكثر صورها ألَمًا، وتحمّلناها مثل الذي يركض مغمض العينين على الحافّة فقط ليستحمّ بالشمس، وهو يعرف جيِّدًا أنّه، في يوم ما، ستأكله الهاوية بلا رحمة. وليس ذهابك هو الأصعب على الرغم من قسوته وصرامته، لكنَّ الفجوة المعتمة، التي خلّفتها وراءك، وابتسامتك الهاربة، وضحكاتك المسروقة، ونظراتك الشجيّة التي تخفي بصعوبة قلقها الوجودي، هي المؤذية.

عزيز...

كنتَ دائمًا تريد أن تخرج باكرًا لتكتشف أسرار هذه الدنيا الغامضة ولا تعود إلاّ ومعك كلّ الإجابات المستعصية. وها أنت تفعل ذلك بلا أدنى

تردُّد ولكن هذه المرّة لكي لا تعود أبدًا لتخبرنا عن حصيلتك التي ركضت وراءها عمراً بكامله. كلّ الذين سبقوك إلى هذه الرحلة المخيفة لم يعودوا أبداً. فلماذا لم تطرح على نفسك هذا السؤال القلق؟ هل باغتك الموت في منتصف الرحلة؟ أنت سيِّد العارفين أنَّ الركض الدائم على حوافّ الشمس يحرق، أو يدفع نحو الهاوية التي أكلت كلّ من اختار مأوى الأسئلة المستعصية؟

ربّما كنتَ الآن في أعالي مرتفعات الروح تتأمَّلنا جميعًا وتضحك من فقر معرفتنا، ولكنَّنا هنا نفتقدك بمرارة كبيرة ولا حلّ لنا إلاّ قبولك كما أنتَ. لا تضحك منِّي كثيراً أيُّها الشقيّ، ولا تغريك بنيتي الصلبة، ولا جسدي المتمادي في غيِّه، فأنا هشّ كدمعة، ومرتجّ كقصر من رمال. لمسة واحدة تكفي لأن تجعلني مجرّد حطام.

حبيبي، مثل التوحيدي الذي عشقتَ عزلته وخيبته الدائمة، عشتَ وحيداً، وعدتَ كما اشتهيت، وحيداً. لم يكن عبورك على هذه الدنيا إلاّ لمعة خاطفة في سماء ظلّت دائمًا ملبّدة ولم تمنحك الصفاء الذي اشتهيته دائمًا. كنت عندما تظلم الدنيا في عينيك تأتيني راكضًا وأنت تبحث كصبيّ شقيّ يريد أن يقنع كلّ من يحبّ، بخياراته:

ـ هل تدري لِمَ أحرق أبو حيّان التوحيدي كل كتبه؟ هل تدري؟ لا تقل لي كما يقول الآخرون: خوفًا أو تقرّبًا من حكم الأغبياء. الوزراء كانوا آخر ما يشغله. *مثالب الوزيرين* لم يكتبه حقداً ولكن سخرية من السلطان وحكم الجور. الوزيران، هما أوّل من أشاع عنه فكرة الرغبة في التقرُّب منهما. اختبرهما، فعرف فراش الهشاشة الذي كانا ينامان عليه.

أستفزّك بقصديّة فقط لتخرج ما في ذاكرتك المتّقدة:

ـ ليس هذا ما يقوله العارفون!؟

ـ عن أيّ عارفين تتحدَّث؟ لقد تعب. لم يكن الزمن زمنه. كان يريد أن يخترق المسالك الصعبة، نحو سماء أخرى غير السماء العاديّة التي حوَّلها الأغبياء إلى طاولة للأكل واللعب. *الإشارات الإلهيَّة* دليل على أنّه عاد بأسراره الكامنة فيه. وحده كان القادر على استنطاقها. أحرق كلّ شيء لأنّه كان يعرف أنّهم لن يستطيعوا فهمه، وأنّه كان بعيداً بسنوات ضوئيّة كثيرة عن أغبياء عصره الذين ملكوا الدولة والقرار. كان التوحيدي أجمل هشاشة القرن العاشر المليء بالتصلُّب والموتِ واليقين[١].

عزيز...

كم هي مضنية مسالكك أيّها الغريب!

---

١ ـ عندما أعيد اليوم قراءة هذه الرسالة في رواية سينو، أتساءل لماذا نزع منها كلّ هذه المقدّمات الجميلة التي تصوّر إلى أيّ حدّ كان عزيز عاشقًا لأبي حيّان التوحيدي ولفلسفته ولروحه السخيّة. كثيراً ما دخلت معه في نقاشات حول هذا الرجل الغريب الذي انتهى إلى الاقتناع بانّ حرفة الأدب تنتهي بالضرورة بصاحبها نحو الفقر. يقفز عزيز في مكانه، ثم ينشئ بهدوء رأيه: لا يا ليلى. هذا ما يقوله الذين لا يعرفون الشيء الكثير عن القرن العاشر. لم يكن التوحيدي بليداً لينظر إلى الأدب كحالة مؤدّية بالضرورة إلى الفقر. كان في محيط القصور وأحيانًا في صلبها، ويعرف جيّداً أنّ الأدب يمكن أن يقود صاحبه نحو المال والرفاه ولكن إلى الذبول أيضًا في الأدب، إذا سخّره في غير ما وُجِد من أجله. الادب يا ليلى، لا يقبل بالرنين الكاذب لأنّ ضعفه ينكشف بسرعة. الأدب هو موسيقى عذبة تأتي من روح الروح، كما كان يقول التوحيدي، ولا يتحمَّل أيّة شائبة تلتصق بجسده في رحلة الحياة. ولهذا وجب الحذر. الحفاظ على نقاء صورته هو المؤدّي إلى الفقر وليس شيئًا آخر. وهو ما شغل التوحيدي طوال عمره، قبل أن يحرق كلّ شيء وينفصل في مغارة معزولة، ويكتب نصّه الخارج من أتّون اللهب وصفاء الروح: ***الإشارات الإلهيّة***.

لا أريد أن أسألك عن مخبئك الآن، لم أعد مهتمًّا لأنِّي أعرف أنَّ هذه الغيبة لا تشبه السابقة. غيبة التمادي في الجنون حتى المنتهى. ليكن حبيبي. هذه المرّة فعلتها لأنَّ اللعبة أتعبتك كثيراً ولم تعد قادراً على التمثيل مثلما نفعل يوميًّا في حياتنا المتكرِّرة بشكل مقلق ومخيف، وأحيانًا سخيف. ليكن حبيبي، لا تقلق. تصرُّفك أفهمه جيِّداً وإن كان يؤذيني في الصميم. لا يمكنني أن أتخيَّل أبداً أن هذا المساء لن أسمع محرِّك سيّارتك وهو يتوقَّف عند الباب، وأرى يوسف متبوعًا بسمر وسحر وهم يركضون نحوك بفرح شديد، يفتِّشون جيبك قبل أن ترتسم على ملامحهم علامات الانتصار بعد أن وجدوا ضالّتهم، ثم صوتك الذي يسبقك: يمّا... هل تعرفين ماذا حدث لي اليوم...؟ وتجيبك أمّي بطيبتها المسيرديّة المعهودة: خير وسلامة يا وليدي... خير وسلامة... ربّما أكون قد فقدت ذلك منذ زمن بعيد، ولكنّ الإحساس بوجودك وحده كاف بإعادتي إلى الأيّام التي انسحبت بسرعة قبل أن تسحبك وراءها.

هل كان من الضروري أن تفعل ذلك كلّه فقط لتقنعنا بأنّ لعبة الموت مثل صدفة الحياة تمامًا، جنون جادّ وخطير؟

هكذا إذن تنسحب من الدنيا بصمت مثلما جئتها. بدون ضجيج، على إيقاع نحيب خافت لأمّ دفنت منذ أربعين عامًّا زوجها وابنتها وانتظرت شرف النوم الأخير بين يدي الابن الوحيد الذي رفض أن تبدِّد حنينه مغريات المدن الخادعة، وبقي بجانبها كما اشتهته أن يكون. وعلى الرغم من زواجه، كانت كلّ صباح تقوم مع آذان الفجر، تحضّر قهوته وفطوره قبل أن ينسحب نحو العمل. في المساء، لا تنام إلاّ إذا سمعته يغلق باب غرفته التي تعوّدت على صوتها ويغلق بالمفتاح. عندما يصفو كلّ شيء، تغمض عينيها بحثًا عن نوم تحرِّكه قطرة ندى متدحرجة من الأعالي، أو حفيفًا لورقتين من أوراق الدالية التي تخترق صحن الدار، اتكأتا على بعضهما البعض.

عزيز...

لا شيء حبيبي.

أبكيك يا عمري المنكسر ويا خوفي الهارب منّي إليّ. أبكيك، ولا شيء يملأ القلب الآن إلاّ بقايا صورة لوالد لم يمهله الموت الوقت الكافي ليمارس حبّه الأبوي. فهل تدري يا عزيز فداحة الخسارة وقسوة اللعبة؟ ذهب ولم يمنحه القتلة فرصة رسم القبلة الأخيرة على جبين زوجته أو خدّي ابنيه.

حبيبي المستعصي على الفهم، وأنا داخل هذا كلّه؟

هل كان من الضروري أن تمنحني رغبة الكتابة مقابل موتك؟ لم تكن في حاجة إلى ذلك كلّه لتثبت لي أن الدنيا مجرّد سيجارة تندثر بالحرقة، وأنّها لعبة طارئة لا تمارس إلاّ باستثنائيّة، وأنّ كلّ شيء طارئ في هذه الدنيا، الموت وحده هو المطلق والباقي. أعرف هذا، فلماذا جرّبتَ في نفسك يا عمري؟

عزيز...

أيُّها الغريب في قربه، والبعيد في غربته.

ضفافنا ضاقت حتى أصبحت مثل آخر نفس قبل التسليم بالموت، والقلب لم يعد كما كان، فقد سُرقت منه كلّ أزمنته الجميلة. المحنة زادت واتّسعت ساحات حربها القاسية، والدنيا ضاقت حتى صار اتّساعها أقلّ من خرم إبرة. السبل الممكنة توارت والليل صار فينا، يمارس خلوته مع كأس القهوة الأولى التي نشربها قبل أن نفتح أعيننا على الناس. هل تداعى الحلم الذي كنّا نفتح له قلوبنا عن آخرها لنكتشفه ونتقاسم أسراره؟ الحلم كان بيتنا وسقفنا الجميل الذي يجعلنا ننزل ركضًا ونحيط بِيُمًّا ونطلب منها أن تشرحه لنا. تضحك وهي تردِّد: لقد ذهبت حنّا التي كانت سيِّدة السرّ ولا

أملك إلاّ هوامشه. نصرخ بصوت مشترك: اشرحي لنا الهوامش. وتدخلنا في ممرّات ومسالك نغيب في سحرها، حتى توصلنا إلى نقطة السرّ وتكشفها، فيبرق النور أخيراً في أعيننا[1]. وكنتَ كلّما رأيتني أراوده وأنت صغير، جلستَ تستمع لتسألني في النهاية: هل يمكن أن يحدث ذلك كلّه بكلّ هذه الدهشة؟ وأكثر، كنتُ أجيبك. كنت تحلم بأن تكبر بسرعة لكي تستطيع أن تقطف نجمة هاربة وتدفّئها في كفّك خوفًا عليها من التلاشي، وأن تستعير من السماء زرقتها كلّما تلبّدت الدنيا في عينيك ومسح السواد أشواق الأرض والسماء بحروبه الطاحنة. كان يكفي أن تفتح عينيك لترى النور والألوان المدهشة قبل أن تغرقا في حبّات المطر الناعمة.

عزيز...

منذ مدّة لم أرك كما أشتهي، ولم ترني لتخبرني بأنّ البلاد تغيَّرت كثيراً وأنّ الحزن لا يمكن أن نعيشه إلا فرادى. منْ منَ الناس يعرف أنَّك منهك وأنّ أشياءك الصغيرة مطحونة، إذ تواجههم كلّ يوم في منعطفات المدينة وأنت ذاهب لموعد فاشل أو لعمل مملّ، يسألونك:

ـ كيف الدنيا؟

تردَ وأنت ترسم ابتسامة تسخر بها من انكسارك، وتحاول أن تحافظ بها على ما تبقّى من خلوتك:

Heureusement qu'il y a le rêve, sinon c'est la perte totale de tout sens.

يردُّون عليك بعبثيّة:

---

١ ـ لا أدري إلى اليوم لماذا نزع سينو هذه اللحظة الجميلة من رسالته والمتعلّقة بالحلم. أعيد تثبيتها احتراماً لوعدي السابق.

Il n’y a plus de goût. La vie qui existait est morte depuis longtemps. Mais non, rien ne meurt, c'est juste nous qui mourrons un petit peu[1].

منذ أن دفنّا عمّتي على هذه التربة، في ذلك الشتاء الموحش، واختارت هي الموت لتختصر خمسين سنة من المنفى، لم ألتفت إلى هذا المكان. شعرت أنّ كلّ شيء تغيّر أبداً وما كنّا نعرفه لم يعد لنا وربّما لم نعد له. صرنا لا نعرف المكان وصار المكان لا يعرفنا. حتى أنّي تساءلت يومًا وأنا أنظر لعينيك الحارّتين: ما معنى كلمة عودة؟ هل حقيقة نعود إلى المكان الذي تخلّى عنّا، وتركناه ذات زمن؟ كلّ شيء يتبدّل. ومثلما لا نمرّ على النهر نفسه مرّتين، فنحن لا نعود أبداً إلى المكان نفسه. كلّ الذين اشتهوا أمكنتهم الأولى وعادوا لها، تركوها من جديد بحسرة. لم يعرفوها ولم تعرفهم. يقولون إنّها تنكّرت لهم ولكن في الحقيقة لا شيء يتنكّر لشيء آخر إلاّ إذا لم يعرفه. كلّ شيء يتغيّر، والبشر ليسوا هم البشر؟ المقابر ليست هي المقابر؟ الأسطح التي تعوّدنا الركض عليها، تغيّرت وأصبحت بنايات عالية تشبه السجون؟ والسجون القديمة صارت قبوراً؟ هل هو قدر الإنسان الأبدي؟ ها أنا ذا اليوم أعود بعد ستّ سنوات غياب فقط لأقنع نفسي عبثًا أنّك رحلت، وأنّ أشياءك الصغيرة غيّرت أمكنتها، وأنّك ابتداء من اليوم لن ترابط في شرفتك، ولن تطلّ منها لتقول لنا: صباح الخير يا سكّان الطوابق السفلى، صباح النور يا سكّان البحر الذي يختبئ وراء المرتفع الصغير.

عليّ اليوم أن أروّض نفسي كثيراً لتقبّل الكارثة ولأقتنع، ربّما للمرّة الألف، بأنّ ما حدث لك كان من فرط الصدفة المميتة ضمن ألف احتمال

---

١ - من حظّنا أنّ الحلم ما يزال قائمًا، وإلاّ لضاع المعنى كليًّا. - خسرت الحياة مذاقها. الحياة التي كنّا نعرفها ماتت. - أبداً لا شيء يموت، كلّ ما هنالك أنّ شيئًا صغيراً فينا قد انتهى قليلاً.

للحياة. في لحظة حزن قاسية ويأس منكسر، صرختَ وأنت تضرب على جبهتك: طيّب... ولماذا أنا بالذات وليس غيري من ٩٩٩ حالة احتماليّة؟ ثم تمتمت بحسرة بعد أن أغمضت عينيك: طيِّب... ولماذا الآخرون أيضًا؟ لا بدّ أن يكون هناك ظلم في الطبيعة؟ قلتَها ثم صمتَّ طويلاً.

هناك ظلم في الطبيعة حبيبي. ظلم يصل أحيانًا حدّ الساديّة المفرطة؟ لا قوّة لنا أمام عبثيّتها وعماها.

عزيز...

أنت دائمًا هكذا. لم تتغيَّر إلاّ قليلاً. ما زلتَ تستدرجنا نحو قدر وحدك تعرف مخاطره ونهاياته. وتتمادى في غيّك وأنت لا تعرف أنَّ اللعبة يمكن أن تصبح مؤذية عندما تتكرَّر. كلّما سألتك عن التوقُّف عن استدراج القدر نحوك بجنون وشهيّة طفوليّة، تضحك بسماحة وأنت تمحو أوراق الرهان الرياضي الذي كنت تحبّه. تحكّ رأسك من تحت شاشيّتك الزرقاء التي تشبه شاشيّة صيّادي ميناء الغزوات، وتحرق سيجارة وعيناك شاخصتان في يوسف وفي إطار صورة مبهمة لوالد لم تعرفه إلاّ من حكايات أمك، والذين عرفوه عن قرب:

ـ لا بدّ أن أربح يومًا هذا الرهان المنحوس. يمكن أن أكون ذلك الواحد في الألف أو المليون الذي يربح؟ لم لا؟ لا بدّ أن يملّ منّي سوء الحظّ ذات يوم، وأنتزع منه الفرصة الوحيدة الممكنة. الحظ ليس خطًّا مكتوبًا بالأخضر على جباه الآخرين الذين كُتب لهم أن يربحوا باستمرار. صحيح أنَّ من يجرِّب يتعب كثيرًا، ولكنّه سيصل يومًا، ربّما بعد دقيقة أو بعد قرن من الزمن. وطز إذا لم يربح، الحياة كيف الريح في البريما، كما يقول الشيخ العفريت. يكون على الأقلّ قد منّى نفسه عمرًا بكامله حتى النهاية وهو يعتقد في الخبطة العظيمة التي ستغيِّر حياته رأسًا على عقب.

ـ جميل أن يتمنّى الإنسـان في عالـم لـم يؤهّلنا منذ البداية على الأمل أو على تحمُّل الكدمات القاسية والخيبات المتتالية.

ـ هل تدري مـاذا فعل أبو حيّان التوحيدي يوم انكسـرت أشواقه على جدران سدنة القصور، وسادة السيف والكذب والأوهام؟

ـ لعن الذي لم يمنحه منصبًا ومالاً. كتب *مثالب الوزيرين*.

ـ ها قد عدنا للحكاية نفسها التي أشاعها عنه الوزيران المعنيّان بنقده، الصاحب بن عبّاد وابن العميد! هذا اختزال. لم يكن التوحيدي هكذا، بهذه البساطة. لقد أحرق كلّ كتبه، وعرك الأبجديّة الساخنة في كفّ يده كمن يحكّ مسحوقًا ليحوِّله إلى دواء، ثم فتح أبواب النور في داخله الذي عتّمته الخيبات المتتالية من بشر لم يكونوا يستحقّون مناصبهم، ليبدأ رحلة الباطن الذي لم يكن قد عرفه بعد. *الإشارات الإلهيّة* ليس إلاّ وسيلته للدخول إلى دهاليز الروح المظلمة التي ظلّ غبار الدنيا يغطِّيها، قبل أن يجد الفجوة الصغيرة التي تقوده نحو النور. أنا متأكِّد مائة بالمائة أن التوحيدي كان واحدًا من إخوان الصفاء. يحملون آراءه نفسها في الوجود وأفكاره نفسها، بل حتى أنّ هناك التباسًا بين لغتهم ولغته. يا اللّه... اللّي يتمنّى يا خويا، خير من الذي يقطع اليأس[1]. وإلاّ سنصبح ضحايا الحياة نفسها.

أرأيت يا عزيزي خويا، قسوة اللعبة؟ لقد خذلتك السنوات بسرعة يا ابن أمّي. لم تكن تعلم أنّ الموت سيقلب كلّ المعادلات ويمزِّق ما كان يبدو

---

١ ـ سينو بتر أيضًا هذه الجزئيّة عندما نشر هذه الرسالة في روايته، وفي الصحف. لا يوجد سبب واضح لذلك. فالجزئيّة المنزوعة لحظة طفوليّة جميلة تعيدنا إلى أحلام عزيز التي لا تنتهي. أفضّل هذا النصّ الذي قرأه عليٌّ سينو مباشرة، في أربعينيّة عزيز، بعدما استطاع الكتابة واستعاد أنفاسه المنكسرة بعد وفاة عزيز في مستشفى فرانز فانون بالبليدة، بضواحي الجزائر العاصمة، على النصّ الذي نشره لاحقًا في الرواية وجريدة الخبر.

يقينًا إلى ملايين الذرّات، ويختارك أنتَ لتكون الرقم الواحد في الألف، لكن هذه المرّة في لعبة الموت. عندما دخلتَ إلى المستشفى لم تكن تفكّر مطلقًا في الاحتمال الأوحد للموت، ولكنّك فكّرت باستماتة في ٩٩٩ فرصة للحياة. أرأيت؟

رهانات الدنيا غير مأمونة، وتماديك في اللعبة كانت عواقبه كبيرة.

عزيز...

يا سيِّد الأشواق المسروقة.

أيُّها الغريب الطيِّب، الذي لا يلتفت وراءه أبدًا حين يلعب مع الدنيا لعبة الانتفاء، أما آن لك أن تنسى هذه المخاطرة؟ أما آن لك أن تترجَّل قليلاً وتفكِّر لحظة واحدة فقط في أنَّ الموت طاحونة الأتقياء والعظماء والأبطال، وأنَّ هشاشتنا لم تعد قادرة على تحمُّله؟ ألم يحن الوقت بعد لتدرك أنَك طوال الثلاثين سنة التي عشتَها كنتَ فقط تتدرّب كيف يمكنك أن تملك قدرك بين يديك وتلوّح به كالفراشات الملوّنة التي تملأ كفَك، عندما يصير سجينًا لنزواتك. ثم تغمض عينيك وتنسى كلَ شيء ولا ترى إلاّ الفراشات التي تنتقل من الخارج إلى داخلك المتعب، لتلوّنه وتحوّله إلى لوحة كنتَ الوحيد الذي يشعر بوجودها.

يا ابن أمَي الصغير، يا روح الأتقياء والصالحين، ويا زهو العاشقين. أيُّها الطفل الطيِّب الساحر والمسحور، الذي وشوش ذات صباح في أذن الموجة الهاربة التي ارتعشت في حضنه، كلاما مبهما لم يفهمه أحد غيرهما، ثم شدّها من ذراعها الأيمن ورماها في عرض البحر وهو يصرخ بأعلى صوته: ارجعي من حيث زلَت قدماك، وزاغ بصرك وغامت رؤاك. اذهبي ولا تلتفتي وراءك. القتلة يتربّصون بك لتيتيمك. بعد زمن سينفّرك أقرب الأقرباء، فلا

مكان لك إلاّ البحر، ولا روح لك إلاّ الماء، ولا حبيب لك إلاّ ملحك، ولا سقف لك إلاّ سماؤك. اذهبي فأنت الحقيقة الطليقة. الانطفاء على صخرة الشطّ المهجور أهون لك من أن يملكك الذي يبدِّدك لأنّه لا يعرفك ولا يحسّ بشجنك العميق.

ويا ابن أمّي الذي وضع بذرة النور في كفّه ورماها في برّيّة القفر ليجعل منها صاحبًا أبديًا للرمل. أيُّها الغريب الذي مشى نحو زمن، وحده كان يعرف قسوته، وسار نحو شمس سال ظلامها على الدنيا. من يعليني نحوك أيُّها الحبيب؟ من يفكّ الآن حروفك المبهمة لتضيء القفر؟ من يعطي لأبجديّاتك معانيها الخفيّة ويبدِّد الضيق والعلّة؟ من يأتيك بحفنة تراب لتغرس وردتك الأخيرة ورجلاك في الماء؟ من يعرف لغتك ليدرك كم خسر حينما ضيّعك؟

من يعيدك إليّ فقط لأشبع قليلاً من وجهك. أتلمّس ملامحك للمرّة الأخيرة وأزهو بابتسامتك التي أشتهي أن أحتفظ بها، غير تلك التي رأيتها لآخر مرّة، وأنا أدرك خطأ، أنّي سأراك ثانية.

وحدك أيُّها الغريب تعرف كم أنّ الدنيا خادعة، ولهذا تقابلها بصمتك وبضحكاتك الساخرة وسحرك الذي لا يفنى. وحدك مثل اللّه إذ تحزن، تضع الموجة في جيبك، وحقيبتك الوحيدة في عينيك، وتسافر وأنت لا تعرف إلى أين تتّجه، كلّ المساحات ملكك وكلّ السموات مآلك.

ـ إلى أين تهاجر وحدك هكذا أيُّها الطفل العنيد؟ الطرقات موصدة، واليقين لم يعد يقينًا، والخوف أصبح سيِّد الريح، والأرض التي فقدت توازنها أصبحت كرة تعوم داخل فراغات الهلاك. توقَّف قليلاً يا ابن أمّي، إلى أين أنت ذاهب؟

تسمع النداءات التي تأتيك من بعد سحيق. تصيخ السمع أكثر. تهزّ رأسك وتواصل وكأنّ الخوف لم يعد يعنيك، وأنّ لا شيء في رأسك إلاّ الذهاب حدّ التهلكة وراء لعبة الموت. تتوقَّف قليلاً، تتأمَّل الأرض والسماء والعصافير والفراشات الهاربة من البرد الذي هجم فجأة، لا تلتفت. تواصل انحدارك بصمت لأنَّك تعرف مسبقًا أن لا أحد يملك القدرة على السير معك إلى منتهى الرحلة. تستهويك، يا ابن أمّي، غوايات النهايات وشطط اللّعبة المبهمة. لو تتوقّف قليلاً فقط وتستمع إلى نداءات العصافير التي تغطّيك، وحفيف الفراشات التي تغلق طريقك، ونغمة المطر الذي يغسل أشواقك المنكسرة وحزنك.

لو فقط تتوقَّف للحظة، وتلتفت صوب كلّ ما يحيط بك ويحضنك.

–إلى أين يا ابن أمّي؟

كلمة واحدة منك كانت كافية لتوقظك من خديعة الوهم. تتوقّف قليلاً مرّة أخرى. تهزّ رأسك ثم تواصل سيرك بصمت أقلّ، وكأنّك لم تكن معنيًّا بالأيادي التي كانت تحضر جنازتك السرّيّة. تتمتم.

Boof, La vie c'est comme les mots, toujours fragile et éphémere[1].

عزيز...

لك أيُّها الغريب كلّ ضفاف الدنيا الجميلة إذ تمضي حيث يشاء انتشاؤك، لا حيث يشاء قدر الله. لك الفرحة المسروقة من عيون اليتامى التي لا قوّة في الدنيا تطفئ بريقها الأبدي. لك رمشة المعشوقة إذ تنام باستكانة وأمان بين ذراعي حبيبها بعدما خذلها الملكوت والكتب العارفة والله. الله يا

١ – أوف... الحياة مثل الكلمات، دائماً هشّة وموقّتة.

ابن أمّي لم يعد يسأل عن أحد، لقد أحرق سلطانه وتوسّد الرماد وشاهد الموت.

لم تكن المسيح يا ابن أمّي، ولكنَّك كنتَ شبيهه، فلا تطلب سلطان اللّه، فقد تخلّى عن كلّ شيء للرياح الساخنة التي قادتك نحو يتم الفراغ.

هل تدري يا ابن أمِّي أنّ الحياة أصبحت قوسًا طارئًا في جملة غير مفيدة، فتحته يد رقيقة وأغلقته يد ليست حتمًا هي اليد الأولى نفسها؟

وحدك أيُّها الغريب الذي قَبِل أن يتوضّأ بالنور، ويولد بين مرارة ميتتين.

عندما كنتَ نطفة عمرها سبعة أشهر، كان الوالد قد احترق قبل مجيئك بشهور مع المواكب الأولى التي حلمت طويلاً بوطن سُرق منها ومن أبنائها مع الطلقات الأخيرة من الحرب الميتة، وعندما جئت أنت إلى الدنيا، ذهبت زوليخة بعد ولادتك بسنة. هي كذلك لم تلتفت وراءها عندما اختارت الذهاب. لم تكن تؤمن كثيراً بالحلول الوسطى، لم تعطها الحياة أكثر من مهلة صغيرة، يومًا واحداً في الفراش، ثم انطفأت.

وُلدتَ عاريًا بين ألمين وشوقين مستحيلين.

فتحت عينيك في خلاء موحش، وحيداً كنبيّ ضائع وككتاب ممنوع.

أراك الآن تعود من أكثر من ثلاثين سنة، عندما جئت لأوّل مرّة إلى الدنيا، كان ذلك داخل خيمة قديمة. كلّما اصطكّت الرياح الشتويّة، تسابقنا إليها جميعًا، ماما ميزار، خيرة، زوليخة، زهور، حسن، نقبض على عمود الارتكاز حتى لا تُقتلع الخيمة. كنتَ صغيراً، لا شيء في عينيك سوى الدهشة الأولى. تسترق السمع إلى تمزّقات الرياح في الخارج وتتأمَّلنا بعينين دافئتين وتظنّنا نلعب، فتناغي وتضحك ونظلّ الليل بكامله واقفين. وعندما تتبدَّد العاصفة، يكون النوم قد أخذك بعيداً.

عندما بدأتَ تكبر، لم تتحمَّل ثقل الكلمات الغائبة. لم تجد في حضرتك إلاّ أمًّا، عندما سألتها عن أبيك، وضعتك على صدرها، كان حليبها مرًّا، ثم نظرت إلى السماء الفارغة ولم تقل شيئًا أبداً. وظللت تؤمن طوال حياتك أنّ أمّك تشبه والدك. كانت مثله تمامًا، بل هو في كلّ تفاصيله. تأخذ الإطار الأوحد الذي به صورة الوالد، وتبدأ في تفحُّصه لتنتهي إلى جملتك الوحيدة:

ـ شفتوا! سبحان اللّه، قطرتان من نور!

وأستفزّك:

ـ وين راك تشوف الشبه؟

تضحك. لا تعرف شيئًا آخر إلاّ الضحك. عندما تزعل ويمتلئ قلبك بالرماد، تضحك أو تصمت لتردّ كلّ جحيم الغليان إليك وحدك.

ـ أنتم ما تعرفوا والو.

لم نعرف إلاّ بعد سنوات أنّك كنت تصنع أشياءك مثلما تشاء. مثلما يصنع الغريب وطنًا من اللغة ليمكث فيه بعيداً عن الأنظار التي تذكّره بأرض لم تعد له. وطن لا يبلى ولا يموت، ولا يستعمره أحد. وحده يملك مفاتيح السرّ والشبهة وتخطّي العتبات.

أيُّها الغريب...

وحدك خضت غمار البداية. ومثلما فتحت أقواسك بيدك اليسرى، أغلقتها بيمناك متحدّيًا جبروت اللّه. قلت في وله الأنبياء: الذي لا يعرف اختيار موته، لا يعرف أبداً كيف يختار ميقات حياته.

عزيز...

أيُّها الغريب في تربة غريبة وجاحدة.

هكذا أنت دائماً.

ألم تجد وقتاً مناسباً للانسحاب الهادئ غير هذا؟

هذه المرّة لم تكن تمزح أبداً. كنت جادّاً إلى حدّ الانسحاب من كل الأمكنة التي تعوَّدت ارتيادها. اليوم لم أعد أملك القوّة الكافية التي تؤهّلني لتقبّل خروجك، فقد نسيت أن تغلق الباب وراءك لتذكِّرني دائماً أنّك خرجت. منذ أن تركتها، أمكنتك فقدت أسماءها من فرط التصاقها بك.

تصوَّر حبيبي، كنت خائفاً عليك من موت آخر صار كلّ من يحلم يخشاه، ولكنَّك دائماً تفاجئنا وتأتي حيث لا أحد ينتظرك. حتى في الموت لا تنسى أن تكون صوفيًّا وبسيطًا وخطيراً كالماء.

يكفي، الدنيا ليست بهذا القصور. البارحة عندما فتحت الخزانة وجدت بعض ألبستك المتداخلة، معاطفك الصوفيّة وكوفيّاتك الكثيرة، طاقمك الذي لا تلبسه إلاّ في المناسبات والأعراس، جواربك المبعثرة عبر رفوف الخزانة. كلّ شيء يقول بأنّك كنت هاهنا، قبل ثوان قليلة، تتهيَّأ لموعد وحدك كنت تعرف اتّجاهه. قلتُ في خاطري وأنا ألمس فوضاك الجميلة: هذا الطفل لا يتربّى أبداً. عزيز! يكفيك من الفوضى، مانيش عارف سروالك من سروالي، نظّم روحك شويّه، أرجوك. وعندما ألتفتُ نحوك، أراك بجدّيّتك الصارمة تقاوم ابتسامة ملعونة ترتسم في عينيك الصافيتين. أنت هنا. كلّ شيء يتنفَّسك، الزهور التي نسيت هذا الصباح أن تسقيها، العصافير التي تعوَّدت أن تأكل من كفّيك، بساطتك وصوفيّتك العالية التي لا تطلب من الدنيا الشيء الكثير، قهقهاتك الأخيرة وأنت تستمع إلى آخر نكتة قالها حسن، وأنت تكرِّر بدون أن تستطيع أن تكتم ضحكتك التي كانت تتفرقع كحبّة الملح عندما توضع في النار: باباباباباباباب... يا يمّا واش هذا؟ ورمشات عينيك الخائفتين من شيء مبهم كنتَ وحدك تحسّه. في لحظة هرب كلّ شيء

من وجهك، واختبأت العصافير والفراشات. رأيت انكساراً يمرّ كالسحابة على وجهك المتعب، وأنت تستمع إلى طبيب جراحة الأعصاب وهو يشرح لي العمليّة وتعقّداتها. حتى في هذه اللحظة لم تنس أن تستلّ ابتسامة مرّة من أعماقك: يبدو أنّ العمليّة معقّدة جدًّا يا خويا؟ اللّه يستر. أتمنّى فقط أن يتركوا يديّ سالمتين على الأقلّ.

كاد قلبي ينفجر وكدت أن آخذك وأهرب بك خارج المستشفى. لو فعلت ربّما كنت أنقذتك من موت كان ينتظرك على طاولة العمليّات.

أربعون يومًا مضت وأنت غائب كيوسف.

كلّ الذين يمرّون بالقرب من بيتك يسألون عنك ولا أحد يردّ إلاّ ابنك الصغير: سيعود غداً أو بعد غد. ما يزال يظنّ أنّك تأخّرت في العمل كما تعوّدتَ أن تفعل أحيانًا. بابك ما يزال مفتوحًا، وأصدقاؤك الحميمون صامتون. كلّما مرُّوا عليك، انحنوا قليلاً عند نافذتك التي تطلّ على الشارع ثم انسحبوا بصمت. وفي اليوم الموالي يعودون بالدمعة نفسها والملامح المنكسرة نفسها.

أيُّها الغريب في أرض التيه والقلق والنسيان السريع.

هل تدري أنّي أحترق وأنّ نثاراً مرًّا، يشبه الرماد، أصبح يملأ القلب والذاكرة؟ ربّما كانت بقايا قصصنا الطفوليّة التي أخذتها معك، ولم تترك لي إلاّ أصداءها الشقيّة.

أرى ركضك الآن، وخوفك، وبكاءك، وسعادتك.

أراك مرتسمًا على وجه أمٍّ لم تذهب إلى المقبرة لكي لا تصدِّق أنّك خرجت للمرّة الأخيرة، ولن تعود أبداً.

أرى أسئلتك الهاربة عن والد تأخّر كثيراً مجيئه، بعد رحلة النار والخوف.

أراك إذ لا يراك غيري، وسط غيمة هاربة، بلا راحة ولا توقُّف ولا مطر.

أراك حيث لا قلب غير قلبي يفهمك حتى في انغلاق سرّك.

قلتَ لي ذات يوم: كيف هو هندام الشهيد؟ وجهه، مشيته، كلامه، ملامحه ولغته؟ جرحه وحزنه وأسئلته؟ شوقه وحبّه وخوفه؟ حنينه ودمعه ووحدته؟ كنتُ دائمًا أشتهي رؤية والدي في لباسه العسكري. أتحسَّس يديه الناعمتين أو الخشنتين بفعل القسوة، لا يهمّ. أشتهي أن أشمّ فيه رائحة شجر التين البرّيّ واللوز والصنوبر والحلفاء. وأشتهي أن يضعني في حجره ويقصّ عليّ كلّ قصص الموت التي نفذ منها بأعجوبة. يقال إنّه كان حكَّاء رائعًا مثل حنّا فاطنة التي لم أعرفها إلاّ قليلاً. أشتهي لو أراه ثانية واحدة لأحفظ إلى الأبد ملامحه. أشتهي...

لكنّ الموت اشتهاك قبلهم جميعهم وسرق عنفوان طفولتك.

تتكلَّم كأنّك عشت كلّ الأزمنة. مثلك، بابا أحمد، عندما امتلأ قلبه بالنور، احترق. ليست الشهادة في النهاية إلاّ لحظة اختيار المسلك الصعب نحو لمعة حارقة. حتى هو عندما خرج ولم يعد، لم يقل الشيء الكثير لأمّي. قال لها سأعود الليلة أو بعد ليلتين. قالت: أنت تخبِّئ سرًّا. التفت صوب الحائط الرمادي لكي لا يعكس وجهه ولا ظلّه، ثم خرج ولم يلتفت. عندما وصلها خبر استشهاده، سألت عن قبره. قيل لها إنَّهم أخرجوه من سجن *السواني* في ذلك الليل الصيفي الحارق. كان عطشًا وحزينًا. طلب السجّانون منه أن يترك ألبسته، ولا يأخذ منها إلاّ شيئًا خفيفًا. كوّمها عند الزاوية وقال لعمّي البوحفصي المرتكن في الزاوية المقابلة: قل لميزار أن تضع

الأولاد في عينيها، وأن لا تنسى أنَّ بيننا شبّاك النبي، لن أنساها أبداً. قل لها أن تسهر فقط على تعليمهم وتحفّظهم لغة أجدادهم. قل لها بلا خوف ولا خجل، أن تعيد زواجها إذا شاءت، فلن أحزن، هي جميلة والحياة فرصة. من يومها لم يعد. أمّي كلّ يوم، منذ أن عرفتها، تقف على قبر منسيّ كلّ صباح وتقرأ الفاتحة، تترحّم على الميّت وعلى والدي، ثم تنسحب من المقبرة.

عزيزي...

ماذا يمكنني أن أفعل الآن غير التوغُّل في الحزن؟ غير انتظارك؟ غير الوقوف على قبرك وانتظار عودتك مسرَجًا بالحلم ولحظات السهو، صافي الوجه كما كنتَ؟

مررت هذا الفجر على قبرك أنا وابني البكر ماسي وصافو ويوسف ابنك. كنّا نريد أن نزرع بذور الورد التي اشترتها صافو من مشتلة باريسيّة جميلة: قالت وهي تستر دمعة شاردة: لم أشبع من وجه عمّي عزيز. لا أتذكّر سوى أنَّه كان يحملني بين ذراعيه كلّما بكيت أو غضبت ويدغدغني. لم يبق من وجهه إلاّ بعض الصور الهاربة. كنت متأكّداً من أنّنا عندما نعود في موسم الربيع، وربّما قبل ذلك بقليل، سنجد النوار قد أزهر على قبرك والورود قد تفتّحت وغطّتك كلّيًا، وكستك الألوان التي كنتَ تشتهي رؤيتها.

يقولون إنَّ الزيارة قبل الفجر تسمح لمن في القبور بسماعنا. في الفجر تتفتَّح كلّ الحواسّ. أعتقد أنك الآن تسخر من سذاجتي التي لن أشفى منها أبداً، ومن عجزي في استدراجك نحوي لتقبيل جبهتك.

كانت التربة في كامل طراوتها في ذلك الفجر البارد.

صافو ويوسف منهمكان في الحفر في الأعماق لدفن بذور الورد عميقًا، خوفًا من لعنة الطير الذي يعرف كيف يتصيَّدها. سألني يوسف وهو يمسح ملامحه من الأتربة التي علقت بها:

« ـ عمّي؟

ـ نعم يا قلبي.

ـ هذا الذي ينام تحت التراب هو بابا عزيز.

ـ عزيز يستريح من تعب أنهكه كثيراً».

لست أدري ما الذي دعاني إلى ترتيب هذا الجواب. ربّما لأنّي كنت في حقل لا يحدّ من النوار والنباتات السحريّة، في أرض المهايا، أرضنا الطيّبة، أركض وراء عزيز الذي كان عمره لا يتجاوز الخمس سنوات، وأدعوه إلى أن لا يبتعد كثيراً لكي لا يغرق في عمق الحشائش العالية، ويتيه في غمرة النوار والسنابل السامقة وشجر اللوز الذي كان نواره الأبيض والبنفسجي البارد يغطّي كلّ شيء. كنت لا أرى إلاّ شعره الأصفر الذي يتعالى كلّما ركض بعيداً قبل أن يغيب نهائيًّا، وأصرخ وراءه بأعلى صوتي ولكنّه لا يجيب. أخاف عليه. أجري صوب شجرة اللوز العالية. أجده منهمكًا في عشّ حجلة وجده أمامه. كان يحاول أن يلملم صغارها في حضنه خوفًا من البرد على أجسامهم الهشّة العارية. أقول له: عزيز، سيموتون إذا أخذتهم إلى البيت. يردّ بلا أدنى تفكير: لكنّهم عراة. أقول: ستأتي أمّهم وتحضنهم. وإذا بقينا هنا سيموتون لأنّ أمّهم الخائفة منّا، لن تأتي. يرجعهم إلى عشّهم كما كانوا في المرّة الأولى، ثم ننسحب ويراقب حركة أمّهم من بعيد. وفجأة يأتيني راكضًا:

« ـ خلاص لقد التحقت بأبنائها. هي تنام الآن معهم بعد أن شبعوا.

ـ لنتركهم حبيبي يرتاحون قليلاً. لا يتحمّلون حركتنا وضجيجنا».

أنتبه إلى يوسف الواقف باستقامة كما في المدرسة، قبل الدخول الصباحي والاستماع إلى النشيد الوطني، ينتظر امتداداً لإجابتي، ويمسح وجهه من الأتربة بالأتربة العالقة في يديه:

ـ الرجل الذي ينام تحت هذه التربة الدافئة هو أخي الصغير الذي ظلّ معلّقًا في بطن أمّي، ولم يخرج إلاّ ليمنحها بعض الصبر، بعد استشهاد والدي. أخي الصغير الذي تعوّد أن يفاجئنا في كلّ صباح بشيء جديد يرتاح قليلاً هنا.

« ـ هو عزيز إذن؟

قالت صافو موجِّهةً كلامها ليوسف.

هو عزيز الذي لم ينس أبدًا أن يلعب لنا الأدوار الشقيّة، ويدفع بنا إلى التمادي نفسه لقبول موته. وهل تموت الملائكة؟

تمتم يوسف لماسي وكأنّه كان يفضي له بسرّ جميل:

ـ إذن عندما يستيقظ عزيز سيجد نفسه مكلّلاً بالنوار والورود. لقد وضعنا على رأسه كأسًا رخاميّة تمتلئ بالماء كلما سقط المطر، لكي تشرب منها العصافير العطشانة يا عمّي، أو العابرة من هنا، كما حكت لي حنّا ميزار.

ـ الطيور تهاجر وتعطش هي أيضًا في رحلتها الطويلة. لن تجد مكانًا أجمل من نوار عزيز ومائه وظلاله الدافئة وحديقته التي ستكبر وتتلوّن أكثر. لقد كان عزيز طيِّبًا ولن يزرع إلاّ الخير والمحبّة حتى وهو على الضفّة الأخرى من الحياة».

كانت الشمس الهاربة قد خرجت من دكنة الغيم الأسود والثقيل.

واصل الجميع دفن حُبيبات النوار عميقًا حتى لا تأكلها الطيور الهاربة من خوف المجاعات، ولا يقتلها الصقيع الذي كان يكسو كلّ المحيط. بينما

كانت أشعة الشمس المندّاة بمياه البحر القريب من حوافّ المقبرة، وبأمطار ليلة البارحة، قد بدأت تخترق الجبل الوحيد الذي كان يسدّها عنّا من حين لآخر، وأشجار السرو العملاقة التي غرسها العابرون نحو البحر في سفرة الموت والحياة، والصنوبر الحلبي الذي يحوط بحزام أخضر كلّ المقبرة ويزرع فيها الحياة في كلّ ربيع(١).

عزيز، حبيبي.

لا تحزن، لستَ وحدك. ما زلتُ في المنحدر الجميل المطلّ على البحر، وعلى مدينتك الخرافيّة. روحي تنتظر عودتك بشغف لتصطحبك نحو مدينتك الجميلة، المدينة النيليّة التي تقع في صلب البحر.

---

١ - رسالة عزيزة عليَّ لأنّها ارتبطت بشخص كان يعني لي الكثير. إلى اليوم، كلّما وجدت قليلاً من الوقت، زرت عزيز في قبره، فقط لأقرأ الفاتحة على روحه الطيِّبة، وأسأله عن أحواله، وأسمع لأنينه الذي يأتيني من بعيد، ثم أعود إلى بيتي حزينة ولكن ممتلئة بذكرياته. للأسف، حتى في هذه الرسالة لم يشذّ سينو فيها عن القاعدة التي اتّبعها في استثماره للوثائق الحقيقيّة في رواياته. فقد غيَّر كلّ الفقرات الأخيرة من رسالته المنشورة سابقًا في جريدة الخبر من السنة نفسها، ورواية شرفات بحر الشمال، وحتى بالفرنسيّة في مجلّة برزخ. لا أدري لماذا فعل ذلك، فهي تبدو أتمّ وأكثر تأثيراً وصدقًا على صورتها الأصليّة ولم يكن سينو في حاجة إلى الحذف منها أو الإضافة لها. عندما أدخلها سينو في شرفات بحر الشمال أفقدها قليلاً من روحها الحيّة. وخسرت جزءاً من إيقاعها الأوّل لأنّها كُتبت في لحظة ألق حزينة كدفقة دم مؤلمة، وأيّ مسّ لها يغيّر أحاسيسها الداخليّة والعفويّة التي كُتبت بها. للأسف، هذا ما حدث لجلّ الرسائل التي أدخلها سينو في نظام آخر هو نظام القصّ والحكاية والإبداع الذي يُبنى أساسًا على صيغ خياليّة، أي على العكس من حالة الواقع الموضوعي. فالتغييرات التي تحصل لاحقًا كثيراً ما تنزع جزءاً من روح الرسائل وتضيف لها شيئًا آخر هو ليس من صلبها. أصرُّ على تثبيتها هنا بلا أدنى تغيير.

06h 51mn 07s

- ١ -

الصمت الذي يلفّني أكَّد لي مرّة أخرى أنَّه كان بطلي الوحيد.

زاد ثقل جسدي. ربّما كان إرهاق السهر وقلّة النوم؟ لا أدري.

بدأ بعض التعب والبرد يتسلَّلان إلى كل مفاصلي.

نهضت من مكاني بتثاقل وأنا أسمع قرقعة عظامي وانشداد أعصابي، كأنّي ظللت مشدودة إلى المكان منذ قرن. تركت الكرسيّ الذي التصقت به الليل كلّه. ابتعدت عنه قليلاً. تأمَّلته. بدا لي كأنَّه يشبه كرسيّ الإعدام الكهربائي. لم تكن تنقصه إلاّ أحزمة التثبيت. كانت الكوّة التي يتسرَّب منها الهواء والضوء قريبة من رأسي. وسّعت من فتحتها قليلاً. وصلني حفيف سرب من الطيور مرّ بسرعة باتّجاه مجهول، وعطر لم أستطع تحديده. قمت ببعض الحركات الرياضيّة. شعرت من جديد بالدم يسري في جسدي. تنفَّست عميقًا. بدا صدري أكثر اتّساعًا. فجأة شممت رائحة الياسمين الإشبيلي التي بدأت تنسحب من

حديقتي والحدائق المجاورة التي يقول الكثير من أصحابها إنَّ أجدادهم الأوائل أتوا بها من مدينة إشبيليا. فجأة تغيَّر كلّ شيء وشعرت كأنَّ طاقة ما كانت مخزّنة في الأعماق تدفع بي الآن نحو التمادي أكثر في جنوني.

الآن فقط أدركت أنِّي طوال الزمن الذي مضى، كأنّي كنت ألهث، بلا توقّف، وراء شيء غامض يصعب القبض عليه؟ شيء يشبه السراب، لم يكن سرابًا أبدًا. أحاول أن أنسى كلّ التفاصيل الهامشيّة وأعود إلى الوضعيّة التي أنا فيها. أشتهي إعادة ترتيبها من جديد، تفصيلاً تفصيلاً، لفهمها أكثر.

أنا لا أدري أصلاً ما الذي أيقظ شهوتي في الذهاب نحو ذاكرتي المرهقة؟ لم تكن مريم وحدها. حربي معها كانت واضحة. وكنت أعرف جيِّداً ما كنت أريده منها بالضبط. رهاناتي معها لا يشوبها أيّ غموض: يا أنا، يا هي. على إحدانا أن تخلي الطريق للأخرى.

لم أنم. لم أتساءل ما هي القوّة الجبارة التي قادتني نحو الطابق السفلي من بيتي، السكريتوريوم، مخبأ أسراري الذي لم أرتده منذ سنوات إلاّ قليلاً، قبل اكتشاف الأنترنت الذي يخبِّئ رسائلنا بدون أن نضطرّ إلى البحث لها عن مكان آمن. أخطر نظام. يضمن السرّيّة، ويخفِّف علينا مشقّة الذهاب إلى البريد.

كلَّما اتّضحت ملامح الفجر، شعرت بأنِّي شارفت على الانتهاء من مهمّتي.

أنا أيضًا لديّ حساسيّتي تجاه الأشياء الاستثنائيّة، وأشعر بقوّتها الداخليّة التي لا يلمسها الناس العاديّون. كأنِّي أصبحت الآن أكثر صفاء، وأقلّ حقداً.

لست بكلّ تلك النرجسية الوهميّة، كما يبدو لأوّل وهلة. لست ملاكًا عفيفًا، ولست شيطانًا رجيمًا. إنسانة مقهورة في الصميم بعد أن سُرقت منها هويّتها وحياتها الخاصّة. أعرف أنّ سينو يحبّني ويدرك جيِّداً أنّه لن يتخلّص منِّي حتى ولو شاء. لكنِّي لا أشكّ مطلقًا في أنّ كلّ ما قاله سينو عنِّي قد ينطبق أيضًا على الكثير من نسائه اللواتي لسن في النهاية إلاّ استعارات لامرأة واحدة ووحيدة ركّبها سينو من كلّ تفاصيله الحياتيّة، ومن امرأة شكّلت كلّ مدار حياته. أنا لا أرمي الورود لنفسي، ولكنِّي مشبعة بتواضع الحقيقة المستسلمة ليقينها.

لن أبالغ، ولن أدغدغ حواسّي النرجسيّة الدفينة، إذا جزمت أنّ سينو لم يحبّ امرأة غيري. سيدور زمنًا طويلاً، وربّما طويلاً جداًّ، قبل أن يعود مثل العصفور الجريح ليموت بين ذراعيّ مثلما فعل أوناسيس مع السوبرانو ماريّا كالاس، أيّامًا قليلة، قبل موته. وسيجدني في انتظاره، ولن أنغّص عليه وأسأله أين كان؟ ومع من؟ سأحكُّ على رأسه برؤوس أناملي كما كان يشتهي، لأنَّ ذلك يذكّره بجدّته، حنّا فاطنة. وأنظّف وجهه من أتربة السفر وغبار المسافات، ثم أتركه ينام على ركبتي أو على صدري. وعندما تربكه رعشة الكوابيس، سأقبّله وأسقيه من فمي، قطرات من ماء الزعفران، ليستعيد لذّة هدوئه.

ـ ٣ ـ

سأضع هذه الرسائل بين أيدي من يشتهي قراءتها. أعتقد أنّ لي حقًّا كبيرًا فيها مثل سينو، وربّما أكثر منه لأنِّي أنا من يملكها الآن. بها شوق لا يموت أبدًا وأنين مشترك. سأستغلّ الفرصة لتصحيح بعض حماقات سينو، وأخطائه المقصودة، حول وجهة الرسائل ومنابعها، وأمكنة كتابتها،

وأرجعها إلى أصولها، لأنّ أجمل ما فيها هو لحظات صدقها وعفويّتها. من الأليق أن تُنشر هذه الرسائل كما كُتبت في المرّة الأولى، وليس كما دخلت في روايات سينو وكتاباته، بعد أن أفقدها كلّ ما يحيل إلى خصوصيتّها. وظيفتي الآن أن أعيد الحقيقة إلى مسارها الذي محته شخصيّة ورقيّة مجنونة، لم تعرف أنّها كانت تحت رحمة من يملك القلم وبذرة الخلق والتخيّل، ومن أعطتها جسدها وشفتيها وأفراحها الصغيرة. لكنّها، للأسف، عندما فتحت عينيها، بدل أن تشكرها على تضحياتها، وتفهُّمها الكبير، وجدتها متمدّدة في فراشها كالأميرة، تلبس ألبستها نفسها، وتنتعل كعبها العالي نفسه، بل تنام في ألبستها الداخليّة ذات الألوان الدافئة، وتتمرَّغ في لونها البنفسجي. عندما صرختْ بأعلى صوتها:

« ـ مريم! هذا ليس مكانك... اطلعي برّاااااااا... »

قهقهتِ الملعونة في وجهها، ثم التفتت صوب بياض الحائط، لكي لا تسمعها ولا تراها وهي تصرخ بأعلى صوتها. كانت تعوي، بينما، هي تقهقه بصوت يشبه زعيق القردة أو الشياطين في لحظات انتشائهم.

فجأة رأيت البياض نفسه الذي تماهت فيه مريم معي، في ذلك اليوم.

لست أدري ما الذي ذكّرني بسفيان، صديق سينو.

كنت يومها منكسرة. يوم زرت سينو في المستشفى الباريسي، لم أعد مباشرة إلى وهران. قلت سأذهب إلى فرانكفورت ليوم فقط أو حتى أقلّ، لتنفيذ جنون كان قد ركبني. عندما فاتحت سفيان، صديقنا الناشر، عن المشروع، قال تعالي في القطار السريع TGV أحسن. أنتظرك. بدا لي يومها، وأنا في محطّة فرانكفورت، كأنّ كلّ المسافرين كانوا متّجهين نحو المكان نفسه، وفي القطار السريع نفسه. الكآبة نفسها التي تعبر الملامح، والنقص نفسه في النوم الذي يخترق العيون المتعبة. أكّدت لسفيان أنّي

لن أبقى كثيراً في فرانكفورت وأنّي مضطرّة للعودة في اليوم نفسه نحو باريس. كان يريد أن يسألني بالتفصيل عن حالة سينو الصحيّة، وكنت أريد أن أسأله إذا ما كان مستعداً للذهاب معي في جنوني إلى أقصى الحدود. وفّر عليّ كل متاعب الرحلة. ذهبنا مباشرة إلى نزل ماريتيم[1]، الذي كان به مقهى مريح، وفضاء جميل يمكن أن نستريح فيه.

فاتحته بموضوع لم يفهمه جيّداً يوم كلّمته عنه في التليفون. قلت له وأنا جادّة:

ـ أنا مريم يا سفيان!

ـ أعرف أنّك مريم، وأعرف أنّك صديقة سينو. طمئنيني، كيف حالته؟ ذهبتُ إليه حتى المستشفى يوم مرض، ومنعوني من الدخول. قالوا لي هو في العناية المركّزة، والزيارات ممنوعة حتى يخرج من حالة الخطر.

ـ وضعه يتحسّن كثيراً. ولكنّي لم آت من أجل هذا.

ثم عاودت تأكيدي:

ـ أنا مريم يا سفيان؟!

ـ أعرف، قال ضاحكًا، بدأت أشكُّ في مخّي.

ـ حبيبته التي تحدّث عنها كثيراً في نصوصه!

ضحك سفيان مرّة أخرى، وكأنّه كان يحاول أن يدخل معي لعبة لم يكن قادراً عليها. حكّ رأسه ولحيته الفوضويّة، قليلاً، قبل أن يفتح عينيه عن آخرهما.

ـ زين... لكنّي لا أفهم جيّداً قصدك. سينو بخير؟

---

١ ـ Maritim.

ـ وضعه يتحسَّن بسرعة، لكنّ الصدمة كانت كبيرة وقويّة، وستستمرّ معه طويلاً قبل أن يتخلَّص من تبعاتها.

ـ الحمد للّه. سأزوره في الأسبوع القادم، نحن نعدّ معًا لمشروع الأعمال الكاملة. أزحنا كلّ الغيوم الداكنة التي كانت بيننا وسوء الفهم.

ـ يحبّك ويقدّرك. ليس هذا أيضًا ما جئت من أجله. أنا هنا من أجل شيء آخر، ربّما كان أكثر خطورة من حالة سينو نفسها.

ـ حيّرتني يا مريم!

ـ حتى هذه أخطأت فيها أيضًا. أنا ليلى أو ليلي إذا أردت أن تدلّعني كما كان يفعل والدي، اللّه يرحمه في قبره، ولم أعد مريم.

ـ هاه، هذه فاتتني. قال مازحًا. هذا لم أكن أعرفه أبداً. أنا لم أسمع إلاّ اسم مريم من فم سينو والأصدقاء المشتركين.

ـ أرأيت يا سفيان، حتى أنت؟ كلّكم لا تعرفون إلاّ المرأة الورقيّة، سيِّدة الحبر والحلفاء والخمائر الميتة، ولا أحد كلَّف نفسه معرفة امرأة من لحم ودم، لم يكن لها دائمًا حظّ مريم.

ـ في هذه معك حقّ. أعترف لك بجهلي وأمّيّتي. ولكنَّك لست هنا فقط لتعلميني أنّك ليلى ولست مريم. أعتقد أنَّ الموضوع أكثر خطورة.

ـ هل هناك أخطر من إنسان يُسرق منه اسمه؟ هويّته؟ ويُحوَّل بلمسة قلم إلى مجرّد كيانات لغويّة لا حياة لها.

ـ ... ...

ظلّ سفيان صامتًا قبل أن أفاجئه بسؤال آخر، لم يكن أبداً ينتظره منّي:

ـ هل أنتَ مستعدّ لطباعة كتابي عن علاقتي بسينو؟

ارتبك كطفل أُزيح اللثام عن كذبته الدافئة.

ـ دوّختني يا مريم... عفواً ليلى. قالها كما يفخّمها عادة العراقيّون. واللّه دوّختني. قلت إنّها مزحة لتنسي ما حدث لسينو، وها أنا أجد نفسي أمام امرأة، يفترض أنّها مجرّد امرأة ورقيّة ولغة لا أكثر، تصرّ على كيانها المسروق، أكثر من ذلك، طباعة كتاب عن علاقتها مع رجل بين الموت والحياة. هل سينو بخير حقيقة؟

ـ في وضع أحسن، بإمكانك أن تزوره. قضيّتي بسيطة وعليك أن تبذل جهداً خاصًّا لفهمها. أريد أن أثبِّت للناس جميعًا أنّي لست امرأة ورقيّة، ولكنّي امرأة حقيقيّة، وأنَّ صورتي التي أظهر بها في كتاباته ليست هي الحقيقة. شيء آخر أكثر صعوبة وقسوة. ظلّ لا أحبّه دائماً.

عندما حكيتُ له عن تصوُّري الكامل، وما كنت أنوي القيام به، بقيتْ عيناه تدوران في محجريهما كأنّهما كانتا محاطتين بالفراغ. لم يستطيع مقاومة دهشته.

ـ هل فكَّرتِ جيِّدا في الموضوع. أليست صدمة سينو هي السبب؟ ألا تخافي أن تقهري هذا الرجل بكشف كلّ ما خفي من سيرته؟

ـ الأمر يخصّني ولا يخصّه إلاّ بشكل هامشي. الكلّ يناديه سينو، ولا أحد يناديه بغير هذا الاسم. أنا لم أعد المرأة التي أرادها أن تكون في رواياته، وشهَّت الكثير من النساء والرجال على حدّ سواء، فيَّ.

ـ أدخلتني في دوّامة غريبة. أنا مندهش أوّلاً لفكرة مذهلة من الناحية الأدبيّة، امرأة ورقيّة تريد أن تسترجع هويّتها، لكنّي خائف على سينو ممّا يمكن أن يلحقه من ضرر، جرّاء ذلك.

ـ هو من سلّمني كلّ الرسائل.

ـ ولكنّه لم يوصك بنشرها بهذه الطريقة.

ـ أيّة طريقة؟ أريد أن يعرف الناس عذابات امرأة الظلّ، وما أكثرهنّ في حياتنا اليوم. لم ينتبه لهنّ أحد، فأنا أخت لهنّ. هل تعلم ما معنى أن تُنتزع منك هويّتك وتفاصيلك وحياتك الخفيّة؟ أنت موافق أم لا؟

ـ أريد أن أعرف رأي سينو، قبل اتّخاذ أيّ قرار.

ـ شغلك. إذا لم ترد، لن أحرجك، سأرى ناشراً غيرك. فضّلتك لأنّ كلّ أعمال سينو عندك، ممّا يسهّل مجيء القرّاء نحوك. ولكن... لا يكلّف اللهّ نفساً إلاّ وسعها. ولا أجرّك ورائي في مغامرة قد تؤذيك.

كنت أعرف سلفًا أنَّ لعبة مثل هذه ستغريه، وستدفع به إلى القبول، هو المغرم بنشر الممنوعات والكتابات التي تخرج عن المعتاد.

همست في أذنه للمرّة الأخيرة:

ـ موافق إذن!

ـ خوش قصّة. نجرّب يا اللّه، شو راح يصير؟

أعرف أنّ سفيان كان جادًّا إلى حدّ بعيد. فرصة أن أعود إلى طبيعتي الفنّيّة. أنا امرأة فنّانة، وعازفة كمان، قبل أن أكون مجرّد شخصيّة لروايات يعشقها الناس، أو يشتهونها، أو حتى يكرهونها، لا يهمّ.

قد يكون فعلي مشيناً إلى أقسى الحدود، لأنّه لا يسيء إلى سينو وحده، ولكن إلى كلّ محيطه المباشر. ربّما أموت في قلبه وذاكرته وحواسّه نهائيًّا، بعد أن يطّلع على حماقتي التي تواطأت فيها مع ناشره المهبول مثله، سفيان، الذي التقينا به، أنا وسينو، آخر مرّة، في معرض فرانكفورت للكتاب. يترك لنا دائمًا بيته لمدّة أسبوع، ويتيه في الشوارع

والبارات، قبل أن ينتهي بين أحضان صديقته الألمانّية التي طلّقها، أو طلّقته، منذ أكثر من عشر سنوات.

قبل أن أعود في قطارات فرانكفورت ـ باريس السريعة الليليّة، أكّدت لسفيان، أنّ ما كنت بصدد القيام به ليس فيه أيّ أذى لكاتبه وصديقه. مجرّد هزّة عنيفة لسينو كي يعود من جديد إلى الحياة، ويعيدني إلى وضعي الأوّل كما كنت دائماً، حبيبته التي فتح عينيه، وجسده، وكرّس خطاياه عليها ومعها.

ـ يجب أن تصدِّق يا سفيان أنِّي تعبت من أن أظلّ فقط امرأة من ورق، أتخبَّط في ظلّ بارد، بدأت الرطوبة تأكله وتغطِّيه برمادها الأخضر.

ـ ٣ ـ

انتبهت الآن فقط أنّي كنت في شهره الذي يحبّه.

تأتيني دندنة صوته ناعمة ووفيّة، مرافقة لوحدتي وخوفي، مغموسة في نشيدي المرّ الذي كان يشتهي دائماً سماعه عندما يغالبه التيه والمبهم:

رجع أيلول وأنت بعيد

بغيمة حزينة...

نبقى حبيبي غريبة وغريب،

أنا وأيلول.

«ـ تحمَّلني حبيبي، لا حلّ لديّ إلاّ الحقيقة التي تُخرجني الآن من أوهام مريم، وتُرجع لي جنون ليلي الذي ظلّ دفيناً تحت ركام اللغة الشهيّة، وتحت امرأة لا عطر في اسمها، إلاّ رائحة الحلفاء المعجونة والخمائر».

من يعرف اليوم أنّه وراء لغة سينو التي برع في صنعها، ضحيّة في نزفها الأخير لا تطلب شيئًا سوى أن يُسمع صوتها الخافت جدًّا؟ سينو لم يكن يدري أنّه كلّما كتب كتابًا، دفن عزيزًا غاليًا عليه بين أوراقه، بحثًا عن أكثر الوسائل جنونًا، لنسيانه؟ هكذا يفعل دائمًا، بوعي أو بدون وعي منه. كتبه هي مقبرته السرّيّة لعواطفه.

تعبتُ، ولم أعد قادرة على التحمّل.

نمتُ طويلاً بين دفّتي كتاب، كأهل الكهف، وها أنا ذي أقوم اليوم من ***الكهف*** *نفسه*، ومن غبار السنين المنهكة، ولا يهمّ إذا لم يفهمني الناس ولم أفهمهم، بإمكاني أن أتعلّم معه كلّ شيء من الصفر، حتى ولو كان العمر لا يسعف كثيراً. ليتحمّلني فقط ولا ينسى أبداً أن لي قلبًا ممتلئًا به. وأنّي أحبّه.

«ـ عمري... لقد انتهى كلّ شيء. ونسيت اليوم أنّي مريم، وأنّي كنت، قبل لحظات فقط، مجرّد كائن ورقي. استرجعت لحمي، ثم دمي، وأخيراً أنفاسي التي تقطّعت أمامي لسنوات قبل أن أتمكّن من تجميعها».

ما زلت امرأة مهبولة لم تغيّرها السنون والتكنولوجيا إلاّ قليلاً. تحبّ أن يتذكّرها حبيبها في أيّام الاحتفالات والأعياد، وتشتهي أن تقف بمتعة، في الطابور فقط لترسل رسالة إليه، تذكّره بوجودها على الحافّة التي تركها عليها قبل سنين عديدة. ولا يهمّ إذا اعتبرها بعض روّاد البريد المركزي في المدينة، متخلّفة ودقّة قديمة. هم لا يعرفون أبداً أنّ للرسائل طعمًا خاصًّا، لا يشبه في شيء رائحة الكمبيوتر المشتركة بين الناس جميعًا، ورائحة الحبر، ولذّة الخوف من رسائل قد ترجع نحو مرسلها، ويُكتشف بالصدفة القاتلة، سرّها. الإيمايل يغطّي بشكل محكم على كلّ حماقاتنا، ودسائسنا الصغيرة، ولكنّه بلا طعم ولا لون.

* * *

من ليلي إلى سينو

وهران البهيّة، ربيع ٢٠٠٨

« ـ . . . آلو . . . صوتك شهيّ، لا تتوقّف .

ـ آلو . عمري . أنا أيضًا شوقي إليك يقتلني كلّ يوم قليلاً . . . » .

هكذا ختمتَ مكالمتك الأخيرة، ثم انطفأت كما الضوء الهارب .

سينو الغالي .

يااااااه لو تدري؟ ولكنّك لا تدري .

أين أنت أيُّها الضائع في أرض التيه؟ لو كنتَ تعلم مقدار ما تضيّعه في هذه اللحظة بالذات، لأصررت أن تكون هنا بجانبي حيث قلبك الذي لا يموت أبداً، ينبض بقوّة العاشق، ولكنَّك بعيد، ولا تعرف قيمة ما ينسحب الآن من حياتك!

المطر .

المطر الذي سرق ألوان قوس قزح. وحياتك، لا أقول شعراً ولكنّ ذلك ما أراه الآن.

اعذرني، هذه السيول المقدّسة، تعيدني إلى أيّامنا القديمة. وهذا الضباب الكثيف يؤكّد لي أنّ جزءاً من حياتنا ظلّ ملفوفًا في غيمتنا الهاربة، وإلى اليوم لم نوقفها، لا لنحاسبها ولكن لنسألها فقط عمّا خبّأته عنّا.

بي شهوة لا تقاوم للكتابة لك على الورق. نعم الورق، مثل أيّة مجنونة عليها أن تبدع يوميًّا حياتها من جديد لكي لا يقتلها التكرار. صمّمت أن أخترق النظام الجديد الذي ألفته وعوّدني على السهولة. أريد أن أكتب لك على الورق، أن أنتقل إلى البريد المركزي بوسط المدينة، أن أتعب للحصول على طابع بريدي من بائع غبيّ يفرض عليّ عشرة طوابع لكي يسهّل عليّ مهمّة الحياة القاسية.

« ـ أسهل لك يا مدام. أحسن من الوقوف في طابور لا ينتهي في كلّ مرّة؟

ـ لكنّي أجد لذّة في ذلك.

ـ مش معقول!؟ مع هؤلاء البشر الذين يترافسون من أجل لاشيء؟

ـ نعم مع هؤلاء البشر الذين يترافسون من أجل الفراغ، أنا منهم، وأنت أيضاً.

ـ أعوذ باللّه؟ أنا مع نفسي، ومع نفسي فقط ».

كان يقصد طبعًا الفلاّحين والعمّال الذين يشكّلون الطابور الواقف من أجل طابع بريدي. ولا تسمع إلاّ الجمل المتكرّرة أبداً: *خويا*... *يرحم والديك أعطني تانبر*[1] *لفرنسا؟ واحد لبلجيكا. حبيبي من فضلك طابع*

---

١ ـ من الكلمة الفرنسيّة Timbre والتي تعني طابعًا بريديًّا.

لكندا. خويا عندك طوابع للماريكان؟ ما نعرفش وين جات أستراليا، ولكن أحتاج إلى طابع لتلك البلاد، وليدي وزوجته هناك. فرحت أنّه تزوّج، وأنا كنت أظنّه قد مات وكلاه البحر. الحمد يا رّب العالمين، راه في أستراليا، وتزوّج مع امرأة مسلمة، أحسن من أن يضيع نهائيًّا؟ أستراليا ولا بلاد ميكي هذه...

أشعر أحيانًا وأنا أسمع الناس البسطاء وهم يطلبون طوابع بريديّة لمختلف بلدان العالم، أنّ الجزائر بكاملها هاجرت، ولم يعد بها ما يجبر على البقاء. شراء الطوابع يفضح، بشكل واضح، فَشَل ساسَتنا الذين لا ينظرون إلى أبعد من كروشهم المنتفخة. لم أكن أعرف ذلك أبداً. لقد هجر الشباب، والمثقّفون، طوابير البريد المركزي. لم يعد الطابع البريدي إلاّ شيئًا قديمًا ملتصقًا بطبقة لم تعد تعرف شيئًا خارج الكمبيوتر. زمن نحبّه لأنّه يسهّل حياتنا ويضع العالم في جيوبنا، ونكرهه لأنّه يسرق كلّ خصوصيّاتنا الجميلة.

في إحدى المرّات، سألني شابّ، وأنا أتصبّب عرقًا للحصول على طابع بريدي. طبعًا، حبًّا فيك، فأنا لا أعرق ولا أنهك نفسي من أجل شخص آخر غيرك. أستكثر فيهم جميعًا هذا الجهد:

« ـ وعلاش بك يا أختي؟ ألا يكفي الإيمايل؟ اشتري كمبيوتر وسترين الراحة التي يوفّرها لك!

ـ لم أفهم. واش هو الكمبيوتر؟

قلت بنبرة ساخرة لم يدركها.

التفت نحو صديقه وهو يضحك:

ـ وين أختي؟ أنتِ من بلاد الواق الواق وإلاّ من الجزائر؟

ـ لا لا، من الجزائر. من وهران تحديداً. وين جات بلاد الواق الواق؟

صمت قليلاً. لم يعرف بماذا يجيبني. فقلت له:

ـ عندما تعرف وين جات بلاد الواق الواق، أخبرني اللّه يحفظك».

ذهبت وتركته مع حيرته. هو لا يعرف طبعًا أنّ بليّة الكمبيوتر غزت بيتي بكامله، وأنّ وقوفي في البريد هو لذّتي الوحيدة التي تصل حدّ الانتشاء، لكسر الرتابة الكبيرة. أجد متعة في الوقوف فقط، وتأمّل الوجوه، والتعب من أجل رسالة أوصلها إلى الصندوق البريدي، وأظلّ معلَّقة لمدّة شهر، يدي على قلبي، أنتظر أن تخبرني أنَّها وصلتك وقرأتها. وأشدّ أحيانًا على رعشة جسدي خوفًا من أن يعيدها ساعي البريد، بسبب تغيير عنوانك مثلاً؟ أو أنَّها لم تجد من يستلمها. وتسقط بين يدي رياض مثلاً؟ صرت، في المدّة الأخيرة، لا أضع عنواني على القفا، وأتركها تضيع في فراغات الدنيا، أفضل من أن توقظ الوحش الكامن في مَنْ يستلمها في غيابي. في البريد يسألني بائع الطوابع، وأنا أسلِّمه الرسالة بعد أن ألصقت عليها طابعًا اشتريته من عنده:

« ـ فرنسا.

ـ نعم. فرنسا خويا.

ـ لا يوجد عنوانك في الخلفيّة؟

ـ ما نحبّش نحطّ عنواني.

ـ ولو كان تضيع الرسالة؟

ـ خلّيها تضيع؟ ما عليهش. سأكتب أخرى... ثم أخرى... وسأظلّ أكتب حتى تصل واحدة منها على الأقلّ إلى المصدر. أنت تعرف أنَّ الإصرار يفلّ الحديد!

ـ هذا شيء آخر. شغلك يا مدام».

يبتسم ثم يضعها في سلّة الرسائل الجاهزة للإرسال.

شعرت أنّه فهمني هذه المرّة بسرعة. ولهذا أصبحت أشتري طابعًا بريديًّا، ألصقه على الرسالة، ثم أرميها في الصندوق الخارجي الملتصق بالبريد المركزي، وأتفادى بذلك أيّ سؤال لا أشتهي سماعه.

أحاسيس بدأنا نفقدها ونتحوّل إلى نسخ مكرّرة. نكتب بالطريقة نفسها. نحكي ونحلم بالطريقة نفسها. نمارس حبًّا بالطريقة نفسها، مع أنّ الحياة إبداع مستمرّ. وعندما تكفّ عن أن تكون كذلك، نسقط كأوراق خريفيَّة، ونموت. لا أريد لأحاسيسي العميقة أن تموت على يدي، فأنا أحبّها وأحاول أن أحافظ عليها بطريقتي الخاصّة.

حمقاء؟ نعم! حمقاء إلى أقصى الحدود، ولست نادمة على ذلك.

سيني حبيبي،

حلمي الأعلى والأغلى. يا وطنًا يسكنني، دون حدود ودون خرائط.

حكيت لك بعضًا من حماقاتي وخياراتي، أنت شريكي الوحيد فيها، والقادر على فهمها.

لمَ تأتي دائمًا حين لا أنتظرك؟ أهو أسلوب خاصّ في صنع الفرح أم تراها لعنة من لعناتك الجميلة؟ لا أعرف بأيّ الكلمات أشكرك على الاتّصال اليوم. فصوتك كان أكثر ما كنت أريد سماعه. ولفرط ما سعدت به، لم أعرف ما أقوله لك. ولو كان الهاتف قادرًا على نقل رجفاتنا، لأحسست بارتعاش يديّ وقلبي وشفتيّ وأنا أحدِّثك. لم يكن صوتي فقط، كان عليّ أن أخفي انفعالي، وتلك الدمعات الخفيّة التي نزلت من عينيّ. حاولت أن

أصدّق بأنّ ذلك الصوت كان لك ولم يكن لغيرك، وبأنّ كلماتك كانت لي أنا فقط.

أعتذر كثيراً حبيبي لأنّي، منذ أن غادرتك، لم أتّصل بك خوفًا عليك منّي. أنا سعيدة لأنّك بخير، وكنت أعرف أنّك ستقاوم باستماتة، ومتأكّدة من أنّه لم يحن الأوان بعد، لتهرب من يدي. وأنّ هذه الهزّة العنيفة جاءت فقط لتحذيرك من تفريطك بنفسك. لقد كان قلبك محقًّا، فأنت أرهقته كثيراً. من حقّه أن يهزّك بعنف، ويحتجّ عليك، وينبّهك بقوّة إلى تخلّيك عنه.

لن ألومك مطلقًا على تساهلك وقسوتك معه. أريدك أن تعرف أنّ قلبي لم يتركك ولا لحظة واحدة في عزلة الخوف من الموت. قلتَ لي إنّ علاقتك بالموت أصبحت غير مرعبة. لك أن تظنّ ما تشاء، لكنّي كلّما تذكّرت تلك اللحظة، شعرت كأنّي أخرجتك من فم غول كاد أن يسرقك منّي. الحمد للّه أنّي لم أغفل عليك. لو تعرف كم بكيت، وأيّ حداد أعلنت على نفسي، وكيف أصبح كلّ شيء غريبًا عليّ؟ أتعجّب مثلاً كيف يضحك الناس دون مبالاة، وكأنّه على كلّ المخلوقات أن تحزن معي، وأن تعرف ما حدث لك! لم أفهم مثل البلهاء أنّه من حقّ الناس أن يواصلوا حياتهم بالشكل الذي يشاؤونه. أسئلة سخيفة، ولكنّها كانت هنا، في قلبي، حيث كلّ شيء أصبح غريبًا ومنكسراً، فقد كنت أحترق عليك ومن أجلك. هل تعلم حبيبي أنّي أعلنت الحداد قبل الأوان. منذ يوم مرضك إلى الآن، لم أضع ذرّة ماكياج واحدة على وجهي، ولم ألبس إلاّ السواد. وهل تعرف لماذا ؟ ببساطة، لأنّ إحساسي بنفسي كان منعدمًا لحظتها؟ لأوّل مرّة أشعر بعبث الحياة. سؤالي لاسترجاع هويّتي الضائعة منك، هو وسيلتي الجديدة لأتمكّن من الحياة من جديد. أقبل أن تموت مريم لتعيش ليلى وتواصل الموسيقى، والكتابة أحيانًا، واستحضارك كلّما اشتاقت إليك.

مجنونة؟

معك حقّ حبيبي. ولكنّك لا تعرف، لا كم ولا كيف، تحبّك هذه المجنونة؟ وكيف ركعت على قدميها، وقبّلت الأرض لياليَ طوالاً، وتوسّلت بصوت مذبوح إلى اللّه، وغرزت أظافرها في أديم التربة حتى يمنع عنك اللّه قدراً ثقيلاً كان يحوم حولك بحقد دفين. لقد أخطأك الموت كثيراً، فلا تمنحه فرصة سخيّة. لقد كنت عاجزة تمامًا، ولم أعرف كيف أتصرّف. فجأة أحسست أنّك كنت قريبًا من الموت أكثر من أيّ زمن مضى. على الرّغم من أنّي لبست حدادي قبل الوقت لأنّي كنت على يقين من أنّ الموت الذي أخطأك مرّات كثيرة، سيكون شرسًا في المرّات القادمة. على الرّغم من ذلك، لم أفقد الأمل، ولا الثقة، في أنّ القلب نفسه الذي يئنّ، هو القلب الذي يحبّ. لذلك سيقاوم باستماتة، لأنّ الحبّ أقوى.

لقد كنتَ على حقّ، وها أنت مثل عصفور الجنّة تخرج إلى النور وتملأ الحياة ألوانًا ودهشة. من حقّ أيّة امرأة أن تحبّك حبيبي، أنا لا ألومهنّ. من حقّ آنيا أو آنيتا أن تترك رجلها من أجل سرابك. ومن حقّك أن تعيش في الضفّة الأخرى، وتحبّ وتصرخ، لأنّك الوحيد الذي يصنع هذه الفجوات في القدر، ويحرفه نحو مسارات أخرى، قد تكون أجمل وأدفأ. لكن ليس من حقّك أن لا تفكّر في من يفكّرون فيك بألم وصمت.

طوال أيّام غيبوبتك، كنتُ كلّ يوم أكتب لك الرسالة تلو الرسالة، وأنتظر أن تجيب عنها، أن تقوم من سريرك الهادئ، وتحدّثني عن أسرارك الصغيرة. كان عليك أن تفعل ذلك حتى لا تسحبني وراءك أنا أيضًا. هل تتخيّلني حيّة بعدك؟ ستكون غبيًّا إن ظننتَ ذلك. أنت قلبي حبيبي. وأنت هو الشريان المتبقّي فيّ نابضًا، الذي يربطني إلى الحياة بإصرار كبير، ويمنحني فرصة العيش والمقاومة وعدم الاستسلام.

لا أمنحك فرصة التخلّص منّي أبداً. استمرارك في الحياة هو أكبر انتقام لي من قدر تستدرجه في كل مرّة بكثرة حماقاتك.

لقد استعدْت أثناء مرضك، في الليالي التي لا تنتهي، كلّ اللحظات التي عشناها معًا. وأحسست بفداحة ما لم نعشه. كان بإمكاننا أن نعيش اللحظات بجمال أكثر ونجعلها أسعد لحظات العمر. لماذا يذكّرنا الموت دائمًا بقصورنا وتقصيرنا في حقّ الآخر؟ هل لأنّه على الحافّة وعلينا أن نعتذر له بطريقتنا قبل فوات الأوان؟ تذكّرت ذلك كلّه دفعة واحدة حتى كاد يخنقني. أعرف أنَّ في داخلك من الجنون ما يكفي لجعل كلّ الأحلام حقيقة. وعليك أن تعرف، ومتأكّدة من أنّك تعرف، أنّ في داخلي امرأة مجنونة كلّيًا، بإمكانها أن تهبك كلّ شيء دون أدنى تردّد ولا خوف، ودون أن تجبرك على البقاء معها طوال حياتك. لو التقينا في زمن آخر، ولو لم نرتكب حماقة موت فُرِض علينا، لرسمنا أجمل قصّة حبّ يمكن أن تملأ وحدها حياة بكاملها.

ما تعرفش يا مهبول كفاش نحبّك و نموت عليك؟

يا دينك، لو كنت تدري كم أحبّك وكم أشتهيك، لتركت سرير المرض وركضت إلى أحضاني. ولكنّك لم تدرك ذلك لأنّك منشغل بقسوة خفيّة وحدك تدرك سرّها. كلّما فكّرت فيك أحسست بأنّه ما عاد ممكنًا الاختباء داخل الخوف والوهم، ونحن نتعرّى من كلّ خوف ووهم. ما عاد ممكنًا أن أتركك تمرّ هكذا في حياتي دون أن أحتفظ بك في أعمق نقطة فيَّ. وكلّما تحسّست بطني، أحسست بشيء منك يتكوّر فيَّ، هنا، وينتظر لفترة طويلة داخل رحم الحلم. لقد كبر يونس وملينا، وأشتهي أن يأتي ما يملأ عزلتي. هل تعرف أنَّ ملينا كانت حياتنا المشتركة، ولهذا فهي الفراشة الدائمة التي تجعلني أتشبّث بالحياة وبك.

مثلك أشتهي أن أتحرَّر من كلّ مخاوفي وألتقي بك، وأعرِّيك بيديَ وأقبِّل كلّ نقطة في جسدك، وحين أغمض عينيّ وأنت تتوغّل عميقًا فيَّ، لا أرى شيئًا سوى تلك الألوان التي تملأنا، والأنوار التي تغلِّف حميميّاتنا، ولا أسمع سوى أنفاسك المجنونة وهي تتقطّع على جسدي الممنوح لك بكلّ عنفوانه، وموسيقى الليل التي نحبّها. لا، لن يموت العمر ولن تنتفي هذه اللحظات. أعرف أنّها ستستمرّ طويلاً ولو كان ذلك دائمًا على حوافّ الهبل. سيمنحنا اللّه مزيداً من العمر، ومزيداً من الجنون لنمارس ما تبقّى من حياتنا، كما نريد. وحين نشبع، ونحن لا نشبع أبداً منها، سنذهب نحو اللّه بأيد متشابكة ونشكره مثل الأولاد الطيِّبين، ونطلب منه أن يكمِّل معروفه ولا يحرمنا متعة أن نبقى معًا بعض سنوات أُخر، ولو كان ذلك على الحوافّ التي يشاؤها.

سينو عمري...

رسالتك الأخيرة أعطتني جرعة زائدة من الجنون، والحبّ والرغبة في العزف. وصوتك أصبح أحلى وأغلى رهان لاستمرار حياتنا معًا. أحبّك، وأنتظر أن تتعافى تمامًا. وأنتظر أن تعود إلى حافّة الساحل لنختبئ مرّة أخرى في مكاننا السرّيّ، وأمسح عن جسدك كلّ الأذى الذي لحق بك في غيابي. شوقي لك دون حدّ، لكنّ خوفي عليك كبير أيضًا. قل فقط لقلبك المجنون إنّي لن أسمح له ثانية أن يلعب هذه اللعبة الخطرة. كلّما أحسستَ بالضيق، تنفّسني حبيبي، فأنا عطرك الصباحي قبل أن تبدأ المدينة حياتها. وكلّما أحسَست بالتعب أرح رأسك على صدري وأغمض عينيك وسترى كلّ ما تشتهيه. وكلّما أحسّست بالحزن، تذكّر أنّ في هذه الدنيا، على الضفّة الأخرى من البحر الذي شاخ قبل الأوان، إنسانًا يضع حياته كلّها بين يديك،

ويحيا بحياتك. وحين يؤذيك الآخرون أو ينقبض قلبك، افتحه لي وأفرغ المرارة والحسرة على عالم ليس رحيماً دائماً. سأمسح من على وجهك كلّ الانكسارات، وأقبّل جبينك وأضمّك إلي حتى تأخذك غفوة اللّذة.

حبيبي،

أحبّك يا سينو، طفلي العنيد والمكابر باستمرار. أحبّك يا كمشة نور وألوان متشابكة، يا عود الياسمين البرّي الذي يقاوم باستماتة لكي لا ينكسر ولا يستسلم للبرد والعزلة ومنافي الروح. أحبّك وأنتظر أن تضمّني إليك، وتضغط على شفتي بلا مزية حدا، وتعرك جسدي كما تشتهي، بلا مزية حدا، وتأكلني كما يبدو لك، بلا مزية حدا... وإلاّ حبيبي، ما معنى هذه النداءات المجنونة التي تأتي من أعمق نقطة فينا؟

أحبّك، ولا شيء غير ذلك في هذا القلب المنهك. أرجوك حبيبي، تفادَ فقط، في المرّات القادمة، أن تعاود لعبة خطيرة كهذه، لأنّ القدر قد لا يمنح جنونك فرصا أبديّة.

إذا كانت صرختك مجنونة، فهل تظنّ أنّي أملك عقلاً لمقاومتها؟

06h 57mn 00s

ـ ١ ـ

«**هذا سينو إذن، كما شاء أن يكون. هذه أنا كما قرّرتُ**».

تأمّلت المسدّس. سبع رصاصات، وقبضة أصبحت الآن دافئة.

غاب الكمان نهائيًّا ولم يبدُ إلاّ ظلّه، بعدما وضعته في الزاوية الخلفيّة من المكتب الذي يحتلّ جزءًا كبيرًا من السكريتوريوم. أدرك الآن بعد كلّ هذا التعب الخفي الذي أرهقني، أنّ أصعب شيء نمارسه هو قتل امرأة ورقيّة، خرجتْ من سلطاننا وأصبحتْ كيانًا مستقلاًّ.

لقد كبرت مريم فيَّ، مثلما يكبر المرض المزمن.

«**ـ أعتقد أنِّي حشرت مريم في أضيق زاوية، مثلما كان يفعل سينو كلّما شعر بالحزن ورغب في عيش حداده للمرّة الأخيرة**».

إذا اضطررت إلى أن أطلق النار عليها، فلن أتردَّد ثانية واحدة. سأقتلها، وأتلذَّذ بالرصاصات الصغيرة وهي تحدث ثقوبًا متتالية في جسدها الغضّ الذي سرق منِّي سعادتي وتوازني. سأشفي غليل ربع قرن من الصمت والخيانات.

لا يهمّ بعدها إذا استيقظ سينو من غفوته الطويلة أو لم يستيقظ. عندما يعود إلى الحياة الطبيعيّة، سيجد كلّ شيء قد انتهى. وسأقوده من يده اليمنى، ليضع وردة بنفسجيّة أخيرة على قبرها، إذا أرد. وسأعضّ على الحديد الساخن لكي لا أصرخ، وأتحمَّل دمعة يذرفها على ظلّ امرأة سرقت منّي كلّ شيء.

اليوم، لا أشكّ أبداً في أنّ سينو أحبّني بصدق، ولهذا قبلت بلعبة مريم التي حلَّت محلّي بعد أن ألبسها كلّ الأقنعة الجميلة التي جعلت منها امرأة استثنائيّة. لكنّها أخطأت في قدراتي على الشرّ. أخطأت عندما تأكّد لها أنّها أصبحت امرأة لا يمكن تخطّيها، وأنَّها دخلت في أعماق الناس، ولن تموت أبداً. فكلّ من يستقرّ في الذاكرة يظلّ حيًّا. هكذا تصوَّرت قبل أن تنفرد به وبفراشي، وأحلامي، وحديقتي، وورودي، ومحت، أو حاولت محو وجودي نهائيًّا، حتى من ذاكرة سينو نفسه. لولا الأسفار المسروقة وطيراني مع سينو عبر العالم، الذي قرّبني منه بعمق، لأحرقتني. أشكر الأقدار بلا تردُّد أنّها وضعت في مسالكنا صدف الأسفار الجميلة التي وازنت وضعاً كان يسير نحو الانكسار الحتمي.

لقد أخطأتْ مريم خطأ قاتلاً. لم تعرف أنّ الأحقاد تعمي. وأنا الآن عمياء.

عندما اتّخذت قراراً لاشعوريًّا بإطلاق النار عليها، لم يكن خياري عبثيًّا. فقد قتلني سينو العديد من المرّات فقط ليمنحها حياة أطول في أعماق من التقوا بها صدفة في بيوتهم، أو في الكتب. قتلني حينما نشّف دمي ولحمي مثل مومياء فرعونيّة، وحوّلني إلى مريم. مجرّد كائن ورقي لا أكثر، تزوره عيون القرّاء في متاحف الكتب، والمواقع، يقضي العمر كلّه معلّقًا على ورقة ميّتة أو على صفحات افتراضيّة، لا ماء فيها ولا حياة.

قتلني في حادث سيّارة غير مرقّمة، في **ضمير الغائب**، وكنت دائمًا أنبّهه من مخاطر اللعبة. ولكنّه كان يضحك مصرًّا على فكرته الثابتة التي لم أستطع تغييرها: **الأدب أكبر من الحياة**. ثم بلمسة ساحر لغوي، حوّلني إلى طالبة في العلوم السياسيّة، وأنا لا علاقة لي مطلقًا بذلك، في **رمل الماية**. صحيح أنّي درست شهورًا قليلة في الجامعة، في قسم الأدب في وهران، قبل أن ألتحق بكونسرفتوار المدينة. ربطني بالبشير الموريسكي الهائم داخل جبروت الصمت والعزلة. عرفت لاحقًا مصدر الحكاية. فقد استثمر علاقتنا الجميلة مع عمّي البشير الحاجّ عليّ، شاعر الأندلس التائه، الذي أجهز عليه زبانية الورثاء بالتعذيب والسطل الألماني، فأفقدوه الذاكرة والحركة. كان عمّي البشير جميلاً مثل شمس ربيعيّة، وهشًّا مثل فتيلة قنديل، في مهبّ العواصف البحريّة. صديقة عمّي البشير ومرافقته الحقيقية، هي الفنّانة مريم بان[1]، ولست أنا. وتوّهني سينو، سامحه الله، في مدينة مبهمة، لم أعرف هل هي مدينة شرقيّة أم غربيّة في **مصرع أحلام مريم الوديعة**، وتركني في سوق غريبة بعد أن سرق منّي بوصلتي الوحيدة في الدنيا: قلبي. أحيانًا أرى في تلك السوق، سوق الحميديّة الشعبيّة، وفي أحيان أخرى أراها سوقًا مبهمة بلا هويّة. وجعلني أموت في مستشفى بارد، على وقع كلماته الأخيرة في **سيّدة المقام**. حسدت مريم على جرأتها وموتها الاستثنائي بين ذراعي الرجل الذي أحبّته أبدًا، وعلى وقع الكلمات الجميلة. وضع في رأسي رصاصة صدئة سمّاها رصاصة خريف الغضب الذي عمّ البلاد في سنة ١٩٨٨، ثم جعلني مجنونة على رمسكي كورساكوف. كنت حقيقة مهبولة على هذا الموسيقي العظيم، ولكنّي لم أكن أبدًا راقصة في حياتي. أعرف جيّدًا مصادر الاستعارة.

---

١ - Miryam Ben.

الجميل في سينو هو أنّه كان يحكي لي عن كلّ التفاصيل. ربّما سأرويها يومًا عندما أستريح من الشطط الذي أعاني منه. فقد تعرّف على راقصة باليه في دمشق، وجاب معها جزءاً من مدن الشرق بحثًا عن سحر شهرزاد الذي التصق بلحمها، قبل أن يفترقا على أجمل ليلة. اكتفى كلّ واحد منهما بحياة كان يصنعها بشطط غريب. رآها يومًا على شاشة التليفزيون وقد فقد جسدها كلّ نضارته، وهي تطلب من وزير الثقافة أن يهتمّ بها وبأولادها، بعد أن تركها زوجها وهرب إلى المغرب. بكى سينو ليلتها، ومسح بسرعة تلك الصورة من عينيه، وفضّل أن يعيش على صورته التي صنعها معها في مدن الشرق. إلى اليوم يرفض أن يراها. كان يعلّق صورتها في بيته وهي تطير في الفضاء كالفراشة، وسط عرس من الألوان المضاءة. ثم رماني في باريس، في أيّام الشدّة الكبرى، في شتاء ١٩٩٣، مع ابنته في **ذاكرة الماء**، وغيّر الرسالة التي بعثتها له من بيروت وكنت ممتلئة به، أدعوه فيها إلى أن يرفض منصب وزير الثقافة الذي سمعت أنّه اقتُرح عليه، حتى قبل أن أسافر. كنت أراه دائمًا فوق كلّ هذه التفاصيل. أفرحني عندما سمعت أنّه هرب إلى تونس بدعوة من جامعة القيروان، لكي لا يواجه غوايات الأصدقاء، ولم يعد إلاّ عندما تمّ تعيين الحكومة الجديدة. ثم دفع بي نحو مغارات الموت، في **طوق الياسمين**، مع ابنتي سارة، في مشهد جنائزي جعلني أصدّق ما فعله بي. لست أدري من أين اخترع سينو اسم سارة؟ ونسي، أو تناسى، أنّ الطفلة الوحيدة التي سرقناها من العسس وقتلة هذا الزمن، هي ملينا. ملينا التي ورثت نبضه ونبضي، وتحسّ بكلّ التفاصيل الخفيّة التي تخترقنا. السحّارة، كما أسمّيها ويروق لها ذلك. المرّة الوحيدة التي ذكّرني فيها باسم غير اسم مريم، كان ذلك في **وقع الأحذية الخشنة**. ربّما لأنّها كانت البدايات. والغريب أنّها الرواية الوحيدة التي ألحقت بي وبه ضرراً كبيراً. فقد حوّلها أصدقاؤه الذين كنت أعرفهم،

وأعداؤه أيضًا، إلى مضغة، وجد كلّ واحد منهم فيها ضالّته المريضة. يومها لم أغضب من سينو، لا أعرف لماذا؟ بل كنت سعيدة في أعماقي، أنّي ألهمته وحرّكت حواسّه الداخليّة، قبل أن أنتهي بين أحضان أحد أقاربي، رياض، بسبب حماقات سينو التي لا تُحصى. كلّ امرأة طبيعيّة تهتزّ لذلك عندما تتحوّل إلى إيقونة في قلب رجل. تراجع ليدافع عنّي؟ على الرغم من أنّي تمنّيته أن يتشبّث بما فعله معي ويتمادى في هبله الذي خرج وانتهى. منذ ذلك اليوم، وفي ذلك الخراب القاسي، وعالم الشكوك والريبة، وُلدَ قناعي، ولِد اسم مريم الذي لازمني أكثر من ربع قرن. أكذب إذا قلت إنّي لم أكن سعيدة بكلّ ذلك الألق الذي أضفاه عليّ من خلال مريم، ومتواطئة معه إلى أقصى الحدود. كنت قارئته الأولى. مريم لم تكن أنا بالضبط، لكنّي كنت فرحة بشيء وحيد، هو صورتي المذهلة في أعماقه الخفيّة، قبل أن يتحوّل ذلك كلّه إلى كابوس قاتل. تكذب من تقول إنّ ذلك لا يدغدغ حواسّها الدفينة بأنّها امرأة مشتهاة، ويحبّها الآخرون. تكذب ولا تقول الحقيقة. الكثير ممّن عرفتهنّ تمنّين أن يكنّ في مكان مريم، أيْ في مكاني، إلاّ أنا، فقد تعبت مع الزمن من هذا الحمل الثقيل. كلّ هذا النور المذهل الذي كان يخرج من الكلمات، وهذا الألق الغريب الذي يجتاح داخلي ليحوّله إلى قطعة زجاج شفّافة، وهذه الغوايات التي لا حدّ لحرّيّتها وسلطانها على الناس، كانت على حساب إنسان حقيقي دُفِن مع الزمن حيًّا: ليلى. ليلي.

ـ ٢ ـ

في مرّة من المرّات، ولكي يقلّل من غضبي وجراحي، أخذني سينو من يدي وأجلسني على ركبته اليسرى مثلما نفعل عادة مع طفل صغير نريد استرضاءه، ثم فرط أمامي عددًا كبيرًا من الرسائل. كانت رسائل من

قـرّاء وصـديقـات، حـتى أنَّ هناك بعـضـهـا لكاتـبات أجنبـيّـات وعـربيّـات معروفات، ثـم قال لي:

ـ انظري عـمـري مـاذا تسـاوين في عـيـون النـاس، أو مـاذا تسـاوي روحك العميقة.

لم أفهمه جيِّداً. ثم بدأ يقرأ عليَّ بعضها. لكنِّي أوقفته كمن ينزل سكّينة باردة على أوردة كانت تنبض بالحياة قبل لحظة.

ـ عمري... أنا متعبة. ماذا أساوي في عيون الجميع؟ زوجتك؟ لا، هاجر لن تسـمح في شبـر واحـد من مسـاحـتـها المكـتسـبة. محـظيّـتك؟ لا. حبيبتك؟ لا أحـد غيـرك وغيري يعرف هذه الحـقيـقـة. فأنا أوّلاً وأخيـراً، زوجة رياض. لستُ أكثر من امرأة ورقيّـة، يـلمسـهـا كلّ الناس. مشـاعة للجميع. يحلم بها من يشاء. وربّما ينام معها ذهنيًّا من يشاء أيضًا. تحت رحـمة كلّ القـرّاء، من العـاقل والجميل، إلى القـارئ المأزوم، الذي، قَبْل أن ينام، يغمض عينيه على جنونها الذي لا يجده لا في زوجته، ولا حتى في أيّة امرأة أخرى. حبيبي، لست أكثر من امرأة الظلّ، تعطي كلّ شيء، بما في ذلك جسدها، ولا حقّ لها في أن تعلن عن حبّها. قناعها، مريم، له كلّ الحقّ في أن يفعل ما يشـاء؟ الكثير من النـاس يحبّون مريم، والكثـير منهـم أيضًا يحبّون إصرارها على الحياة، ويجدون كلّ المبرّرات لخياناتها الصغيرة والمتكرّرة. يبرّرون قبحها لأنّهم يرتمون بسرعة في أحضانها ويتحوّلون في رمـشـة عين إليـهـا هي، قـبل أن تخـذلهم الحـيـاة من جـديد. لكنَّهـم، الأشخـاص نفسـهـم، عندمـا يسـمـعون بليلى تقوم بالشيء نفسـه الذي تلذَّذوا به وأحبّوه، سيعرُّونهـا، ويرجمونها باللّذّة نفسهـا، وبتهـمة الخيانة الزوجيّة. هل فكّرتَ في هذه الازدواجيّة وأنت تسرق منّي اسمي وروحي وتمنحهما لمريم؟

ـ أفهمك جيِّداً. لسنا في النهاية إلاّ داخل مساحة افتراضيّة ليس أكثر. اللغة لا تنزف، ولا تقطر دماً، ولا تخلّف أيّ أثر على الطاولات التي تُكتب عليها؟ مريم ليست أكثر من ذلك. اسمعي كيف تنتقل الأشياء من الافتراضيّة إلى الحياة. الناس في النهاية يبحثون عن قليل من التوازن في عالم فقد كلّ شيء، وليسوا بكلّ هذا السوء. اسمعي هذا...

وقرأ لي أجزاء من رسالة كان قد سطّر على الكثير من جملها بالأحمر:

«عندما انتهيت من قراءة الكتاب بكيت على مريم، ولم أستطع كفكفة دموعي. أشعر أنّ ما حدث لها يمسّني، وأنّي معنيّة بها بقوّة. مصيرها، مصيري. مريم ليست أدبًا ولكنّها جزءنا الخفيّ الذي نخاف من أن نقوله. ربّما كنت أنا أيضًا مريم، أبحث عن مثل أعلى سُرق منّي في وضح النهار. الشاهدون على المقتلة أبي وزوجي وإخوتي».

ثم وضع الرسالة جانبًا، وأخذ رسالة أخرى كانت مطرّزة بمختلف الألوان، وقرأ عليَّ الجمل الذي وضع تحتها سطرًا أحمر.

«لا أؤمن كثيراً بالإسقاطات، إذ لكلّ إنسان تجربته الخاصّة في الحياة. لكنّي وجدتني في مريم، ثم في فتنة. وعلى فكرة هما الشخصيّة نفسها، لأنّك عندما هربت من مريم سقطتَ من جديد في شبيهها. يجب أن تعرف أنّي أشبه مريم في ألبستها، في حركاتها، بل حتى في القلادة التي وضعتها على صدرها، وحتى في رغباتها المجنونة في الرقص وتحدّي عالم أصبح لا يعرف كيف يفرح. تشبهني حتى في اللّباس الأحمر الذي تشتهي ارتداءه، وفي لونها البنفسجي الذي تفضّله عن كلّ الألوان».

ضحكت بمرارة:

ـ هل تدري هذه المسكينة الطيّبة، التي توّهتَها، أنّ اللّون البنفسجي هو لونك؟

ـ الألوان ملك مشاع، مثل نور الشمس. ثم إنّه لم يعد لوني منذ أن سرقته منّي ووضعته في متناول جميع النساء... اللون مثل العطر حبيبي، لمسة. ترفض أيّة امرأة عاقلة، حالة الشراكة فيها.

ـ لم أسرقه، مريم كانت مهبولة. ملأت مسبحًا كاملاً به، وعامت فيه ليلة بكاملها، وفي الفجر عندما خرجت منه، كان جسدها مثل جسد فراشة بنفسجيّة.

ـ أنت من سلّمه لها، فهي لا شيء بدون لمستك وأناملك، وهبلك الداخلي.

فهم سينو قصدي جيِّداً. سحبني نحوه وأنا ما أزال على ركبته اليسرى، وقبّلني.

كنت مستسلمة له كصبيّة لم تكن تنتظر إلاّ من يهتمّ بها، وسعيدة أنَّه فكَّر، في لحظة من اللحظات، أن يسألني عن النار التي كانت تلتهمني من الداخل كالحطب اليابس. جاء في وقته، لأنِّي كنت قد بدأت أشعر أنِّي وحيدة في آلامي وخوفي، كاليتيمة في عالم لم يعد يأبه بها، ولم تعد تعرفه.

ـ اسمعي هذه الشاميّة، المفروض أن تستثير مرآة نرسيس فيك:

«**انزعجت من سامي خطيبي. لم أكلِّمه. قلت له: اقرأ مريم في طوق الياسمين وتعال نتحدَّث. أنا غير قادرة على أن أقول له بالتفصيل المملّ ما يشتعل في قلبي. أهديتها له. عندما قرأها جاءني ذات صباح وهو يبحث عن كلماته التي كانت تهرب منه. كان طفلاً. أحسست أنّه فهمني جيِّداً. لأوّل مرّة ينسى سامي كبرياءه، ويأتي نحوي كما اشتهيته، رجلاً هشًّا وجميلاً**».

ثم قرأ رسالة أخرى من تونس، أضحكتني قليلاً:

«قرأت شرفات بحر الشمال سبع عشرة مرّة. وفي كلّ مرّة أرى مريم بشكل مخالف. لقد أصبحت إيقونتي التي أضعها كلّ ليلة عند رأسي».

ـ يعطيها الصحّة. لا بدّ أن يوقظ ذلك فيك الكثير من الغرور والنرجسيّة؟

ـ قليلٌ من الغرور قد لا يؤذي أحداً، ولكن ليس هذا هو المهمّ.

ـ هذا لا يمنعك من أن تشعر بزهو كبير وأنت تقرأ عليًّ هذه المقاطع. وتنسى، حبيبي، أنّ وراء تلك السعادات العابرة، مصير امرأة، كلّ يوم تموت قليلاً.

ـ الكتابة شيء آخر، أكثر تعقيداً، وليست مجرّد صدى لحياة الناس.

ـ طَبْطَبْ! لن تقنعني أبدًا بأنّ مريم بريئة من دمي ومن سعادتي المسروقة ومن سجني. دعني أشهد لك أوّلاً بالحنكة في التسلّي بمصائر مخلوقاتك اللغويّة، ولكنّي أنا... نعم أنا... إنسانة ولست مخلوقة أدبيّة. عندما أحزن، لي قلب من لحم ودم لا يمكن رتقه. وعندما أموت، فأنا سأموت نهائيًّا، وليس قليلاً، مثل شخصيّاتك العديدة التي يمكنك أن تستعيدها متى شئتَ وكيفما يحلو لك. إله. مساحتك الورق، ودواؤك اللغة. هذا الإله لا يناسبني حبيبي. في حاجة إلى إله لا يشرك بي أحداً.

ـ مريم هي أنت، ولكن مرمّمة. لقد أضفت لك كلّ ما كان ينقصك. حوّلتك إلى راقصة باليه وأنت سوبرانو وعازفة كمان. مَنْ مِنَ القرّاء يعرف قصّة الراقصة التي صادفتها في دمشق وسحت معها في المدينة مدّة شهر داخل كلّ مرافئ الجنون الممكنة؟ شهر واحد كان كافيًا لأن يهزّ كلّ قناعاتي في الحياة، ويقينيّاتي وحتى أوهامي؟ ربّما احتجنا إلى وضع

آخر غير هذا، لكي ندرك أنَّ دنيا الأدب ليست أجمل من الحياة وليست دونها، ولكنّها هي حياة أخرى. لحظة مثقلة بصمت اللّغة وضجيجها، تأتي عندما تتوقَّف الحياة الاعتياديّة عن أن تكون كما نشتهيها. طبعًا مخاطر الحياة الموازية أقسى، لأنَّنا لا نعرف من أين، ومتى تأتينا الضربة القاسية من شخص لا نعرفه سوى أنّه تخيَّل، في لحظة من اللحظات، أنّه هو المعنيّ الأوّل بالرواية. كلّ الناس أصدقاؤك، لكن يمكنهم أن يكونوا أيضًا أعداءك. شخصيّة ورقيّة لا نعيرها اعتبارات كبيرة، يمكنها أن تحمِّلنا شأنًا قاسيًا من شؤون الحياة. تتذكَّرين قصّة ذلك الرجل الذي رأى في ساسافندا، في **ضمير الغائب**، شبهًا لخطيبته المناضلة في الاتّحاد النسائي؟ ظلّ يتردَّد على جريدة المساء التي كانت تنشر الرواية مسلسلة في خريف ١٩٨٦، ويترصّدني خطوة، خطوة. حتى عرف كلّ حركاتي، قبل أن يدخل إلى الجريدة ويلتقي بمدير تحريرها، الذي أقنعه بأنَّه لا علاقة للرواية بخطيبته أبدًا. وأنّي من وهران، ولست من الجزائر العاصمة، ممّا أبطل كلّ شكوكه. وأصرّ هذا الرجل الغريب الذي كأنَّه خرج من رواية، أن تُقرأ على مسمعه نهاية الرواية ليطمئنّ قلبه أكثر. فاكتشف أنَّ لا علاقة للنهاية بما عاشه مع صديقته التي افترق عنها وظلّ متعلِّقًا بها. عندما نهض للخروج، وضع على المكتب سكّينة الجزّارين الطويلة التي كانت مخبَّأة في صدره، وتدحرج خارج مكتب المدير، وهو يكرِّر: ***واللّه عمره طويل هذاك الحرَّاز[1]. كنت أنوي أن أدفنها في ظهره صباح السبت القادم عندما يغادر مباشرة الجريدة. القتل يوم السبت يحرمه من الجنّة، ويضعه في صفّ اليهود.*** يومها أدركت أنّ الخطر ليس في رقابة نعرفها جيِّدًا، ولكن في القارئ المحتمل. الناس يحتاجون إلى من يعطيهم يقينًا لحياتهم الجافّة والباردة.

---

١ ـ الذي يكتب التمائم لصدّ الحسود وعيون السوء. القصد منه هنا هو الكاتب.

حتى عندما يقدمون على ارتكاب جريمة قتل، يظنّون أنّهم في حالة من القتل الافتراضي التي لا علاقة لها بالحقيقة.

ـ لكنّني يا عمري، عليك أن تعرف جيّداً، لست كائنًا افتراضيًّا. أنا امرأة من لحم ودم وجنون لا يُحدّ. عاصفة، لا أحد يعرف درجة خرابها عندما تندلع.

ـ ٣ ـ

كلّ هذا لم يحلّ مشكلتي العميقة، بل عمق القرار الذي اتّخذته قبل مدّة.

لا أضيف شيئًا من عندي. أقسمت إنّني لا أقول إلاّ الحقيقة، ولا شيء يجبرني، الآن على الأقلّ، على فعل ذلك سوى حرقتي الداخليّة. لقد تأخّرت كثيراً. لم أفهم كيف أخرجتني مريم، قناعي السرّيّ، من دائرة الحياة، واحتلّت مكاني في كلّ شيء؟ سرقت مدني الجميلة التي زرتها خفيّة مع سينو؟ سكنت ألواني التي اشتهيتها، خصوصًا البنفسجي والأزرق؟ في النهاية، استولت حتى على جسدي وسكنته مثل الجنّيّ، بكلّ ما فيه من حماقات وجنون، وتعطّش وحرّيّة مكبوحة؟. لا أغفر لها أنّها نامت في فراشي مع رجال لا أعرفهم، وشممت رائحة عطرها التي كانت من عطري. تباهت بألبستي الحميميّة أمام حبيبها وهي في أقاصي السكر الجميل، تمامًا مثلما أفعل. وصل بها الجنون إلى أنّها فتّشت خزانتي الخاصّة وأخرجت منها كلّ شفافيّتي وألصقتها بجسدها في لحظات العنفوان. على مدار أكثر من عشرين سنة وهي تسرق منّي مساحة جميلة، أو شيئًا ثمينًا، قبل أن تأخذني بكلّي. كانت تفعل ذلك على مرأى منّي ومن سينو.

« ـ غيبوبتك أعطتني كلّ مبرِّرات الانتقام».

لقد أصبحت هي أيضًا وحيدة بدون سينو النائم في غيبوبته. صمتت فجأة وتكوَّمت على نفسها، واندفنت في سرّها الخفّي. لم أعد أراها كما تعوَّدت أن تفعل معي، كلّ صباح، في فراشي وهي تتمطَّط، في حالة قصوى من الكسل الليلي، بقامتها الرشيقة. كانت أحيانًا تصطنع ذلك إمعانًا في إيذائي.

ـ ٤ ـ

أشعر بأنّ اللغة التي سرقت جسدي، كانت دون حرائقي الحقيقيّة.

ما زلت على قيد الحياة، وممتلئة بالنور وبقدر لا يضاهى من الجنون، كما في لقائنا الأوّل، ولكنِّي تغيَّرت كثيراً عمّا كنت عليه في السابق. ربّما لأنّي قتلت سينو قبل الأوان، في مستشفى الأمراض القلبيّة بباريس، يوم استعدّيت لاستقبال موته بصبر وأناة، فأصبحت جاهزة للتمرُّد عليه أيضًا. فعلت ذلك لا لأنِّي كنت أريد موته، فأنا لا أحبّه فقط، ولكنِّي رهنت حياتي من أجل إسعاده. كنت فقط بحاجة إلى صمته، لأتفرَّغ لحربي المصيريّة ضدّ مريم. ولم أجد أفضل من لحظة غيبوبته التي تمنَّيتها في أعماقي أن تطول حتى أنهي مهمّتي، وأنفّذ ما نويت ممارسته ضدّ مريم التي أحرقت فيَّ كلّ ما هو عميق.

لقد تعبت، ولم يكن لديّ خيار آخر غير ذلك.

ليجرِّب سينو قليلاً أن يأخذ للحظة واحدة مكاني، هو المعتاد، في السنوات الأخيرة، على الأضواء الملوّنة، والجوائز، وفنادق الفايف ستار، الفخمة، والقصور، وأسفار الدرجة الأولى والريميوم، ليجرِّب، لزمن محدود، ما معنى أن يقضي الإنسان أكثر من عشرين سنة، في الظلّ،

بدرجة أقلّ من سارق؟ محجوزاً في بيت، أو بين دفتي كتاب؟ لا يستطيع أن يصرخ بأجمل حظّ وأجمل صدفة في حياته: حبّه. أدرك جيِّداً أن سينو خارج كل هذا البهرج الشكلي، ولا يهمّه مطلقًا ذلك، فقد اختار الحياة البسيطة لأنّها تشبهه. لكن... ليجرِّب ذلك فقط من أجلي. أن يأخذ مكاني يومًا واحداً فقط ويعيش كامرأة الظلّ. كما أعرفه، أعتقد جازمة أنّه لن يستمرّ في الحياة أكثر من يوم. سيجده العابرون على حافّة الطريق العامّ، يقطِّع ملابسه بجنون، أو منتحراً في مكتبه، بعد أن يكتب جملة واحدة على الورقة الملطّخة بدمه: **اعذروني، تعبت. لقد سئمت من يوم واحد لا حياة فيه إلاّ التكرار.**

« ـ ***نعم عمري... قلتَها، أو تخيَّلتك قلتَها: لقد سئمت من يوم واحد لا حياة فيه إلاّ التكرار.*** **لهذا صمّمت حبيبي أن أخرج من دورة التكرار القاتلة، وأدخل في عمق المعنى، وأمارس شهوتي الدفينة بالقتل. متأخّرة؟ ربّما. لكن كما يقول المثل الفرنسي: Il n'est jamais trop tard pour bien faire**[1]».

نشر هذه الرسائل ليس إلاّ الخطوة الأولى نحو حماقة أعظم، هي في طور التكوين كالبركان. فقد خلتني، يوم بداية غيبوبته، أحمل قلمه وأستمرّ في الكتابة كأنّ شيئًا لم يكن. أكتب زاويتَيْ ***دياسبوراه***، ***وأهل الكتاب***، في يوميّتي **الخبر والوطن**، باسمه، أو حتى باسم مستعار، لا يهمّ. الأكثر أهمّيّة أن يظلّ سينو حيًّا. أعتقد أنّني أملك النار الداخليّة التي أنشئ بها الكيانات الحيّة. فقد أُصبت بعدواه في وقت مبكّر من تجربتنا، وأصيب هو أيضًا بجنوني الموسيقي. لكنّني تعقّلت، وأجّلت معصيتي إلى يوم آخر، وعدت إلى بعض صوابي عندما تأكّدت لي عودة سينو من موت رآه للحظة، ثم انزلق منه بإصراره وجنونه العشْقي للحياة.

---

١ ـ كلّ الأوقات صالحة لعمل الخير.

قد يكون ما أقوم به الآن هو مجرّد بروفا قاسية، لامرأة فاض عليها ظلّ قاتل: مريم. ظلّ الوردة. ظلّ الموت.

رسائل سينو هي أجمل ميراثي وهي من أيقظ فيَّ هذه الرغبة، وإن كان ضعفها القاسي والهشّ أنّها ليست أكثر من لغة. كلّما عثرت على رسالة له، تذكَّرت ما قاله لي يومًا في إحداها: **كلّما كتبت عن الحبّ، كانت الرسائل لعبتي المفضّلة في الكتابة على الرغم من كونها لعبة غير مأمونة المسالك. لم أفعل الشيء الكثير سوى أنّي استعملت حيلة الكتابة لأجعل من المستحيل ممكنًا. كلّ ما أنشره في الروايات، هو حقيقة محاطة بأجمل كذبة هي الأدب... ليست ليلى، ولا حتى مريم التي سرقت كلّ وجداني، هي امرأة واحدة... أشتهي، لو كنت أسنّ القوانين، أن أغيِّر نظام هذه الكذبة التي نعوم فيها جميعًا، أن أقبل بالحلّ الوسط ما دام الزواج مجرّد عقد. ليتَّفق الاثنان، المرأة والرجل معًا، على احترام الرباط الذي يصبح مقدَّسًا، ولكن بشرط احترام كلّ البنود، وربّما كان أهمّها تحديد مدّة الزواج، خمس سنوات مثلاً، عشر سنوات أو حتى خمس عشرة سنة، لا يهمّ. ولتوضع في خاتمة العقد جملة مكتوبة بشكل نافر ومميّز:** ***عقد قابل للفسخ بعد انتهاء المدّة، أو للتجديد، بتراضي الطرفين. بهذه الطريقة يستعيد الحبّ ألقه...***

أهزّ رأسي حزنًا وأمضي داخل صمتي وعزلتي.

تسبقني ابتسامة لا أستطيع كتمها.

لا أكتم ردّة فعلي الداخليّة.

« ـ يا روحي لو فقط كنتَ تدري خطر ما كنتَ تقوله لأحجمتَ عنه. سيلتفّ بسرعة حول عنقك كالثعبان القاتل، ويخنقك. احذر من لغتك، فلن ترحمك حتى أنت. يمكن أن يتحوّل كلامك إلى عدوّ لدود لك أنت قبل غيرك».

أضحك بمرارة من هذا الجنون المتمادي في غيّه وجبروت اندفاعه. قد يكون سينو نظّر كثيراً في شيء هو نفسه غير قادر على تطبيقه، ولكنّه محقّ في جوهره. تجربتي معه مجنونة، وجنونها الكبير في مخاطرها وأسرارها.

أعلم جيّداً أنّ سدنة الشّرع، وحرّاس ميزان الأخلاق، وجمعيّات الحفاظ على وحدة العائلة، ومؤسّسات استمرار صفاء النسل النازيّة، وكَذَبَةُ الأمّة الميامين، وجمعيّات الرفق بالحيوان... سيطالبون كلّهم بحرقي، أو بوضع رقبتي داخل أنشوطة مشنقة مصنوعة بإتقان. وقد أُلعن حتى من سينو الأقرب من قلبي إليّ، لأنّي وضعت سرًّا كامنًا على الورق الشفّاف، بين أيدي قرّائه الذين يحبّونه، أو الذين يتصيّدون هفواته، وهم كثر. عندنا في هذا السياق، مثل يقول: **الغيرة تشطح ميرا، وتردّ الشارفة صغيرة**[1]. أو كما كان يقول سينو دائمًا، كلّما قرأ شتائم الذين تخصّصوا فيه، أو سمع شيئًا قاسيًا يصدر عنهم:

« **Il est difficile d'être aimé par des cons** »[2].

أعتذر منه أنّي وضعت رسائله الحميمة في الهواء الطلق، لترى بعض النور، وتخرج من الظلمة، وأنا لا أعلم قوّة اليد التي سحبتني نحو الصندوق الخشبي لجدّه الأندلسي الذي كان يخبّئ فيه أشواقه وأسراره، وإفراغه عن آخره. يومها، عندما سقطت الرسائل، للمرّة الأولى، لم أسمع خشخشة، ولكنّي سمعت أنينًا مخنوقًا يأتي من بعيد. فهمت لحظتها لماذا قال لي سينو وهو ينبّهني في المستشفى: ... **لقد أصبحنا كيانًا واحداً، احتفظي بها، وإن شئتِ أحرقيها، وسأعذرك. لا يهمّ. فهي لك. حافظي على نبض الآخرين. لا أريد أن يلحق أذى بمن وضع سرّه وقلبه في عمق كفّي، وبين أصابعي.**

---

١ ـ شدّة الغيرة قد تدفع ميرا إلى الرقص، وتحوّل العجوز إلى شابّة.

٢ ـ من العسير جداً أن يحبّنا الأغبياء.

أفهم اليوم جيِّداً، لماذا قال ذلك قبل أن يندفن في غيبوبته الطويلة.

هناك رسائل تشبهني في كلّ شيء، حتى في التفاصيل الصغيرة، ولكنَّها ليست لي. أحببتها في غفوة ما، وغرت منها وخفت أن تكون وراءها امرأة حقيقيّة بدأت تسرقه منّي. كلّ الأمكنة التي ذكرها سينو عشنا فيها قسطًا من حياتنا الهاربة، وكنت سعيدة أنَّنا زرناها ونحن خارج نظام الزواج القاتل والخانق. كنّا عاشقين فقط. وإلاّ لزرناها هاربين من أنفسنا وذواتنا المنكسرة. لم نكن نسأل عن أيّ شيء. كنّا فقط ننهب من الحياة أجمل ما فيها. لم يكن الزمن قادراً على احتضان أشواقنا وأسرارنا الجميلة. ولهذا، بقدر غضبي منه أنّنا لم نتزوَّج، وتخلّيه عنِّي لمصلحة حرّيّته، وإنجابي ملينا منه بشكل مسروق، يظلّ شيء مجنون لا أعرف سرّه، يقودني نحوه. لا أدري إذا ما كنت سأتمكَّن يوماً من أن أقول لملينا بصوت عالٍ: **هذا أبوك الذي منحك أجمل شيء، الحياة، وفي أجمل الأمكنة التي لا نراها إلاّ في الأحلام، تحت أجمل سماء في الدنيا وأصفاها، وفي أدفأ غابة لا تعيش فيها الثعابين والأفاعي. صدقًا، لا تعيش فيها الزواحف المؤذية.**

أحاول تخطِّي الموت الذي اختاره لي سينو، بين دفّتي كتاب. أعرف سلفًا أنَّ جرحي الصامت هذا لن يشفى أبداً، وسيزيد اتّساعه مع الأيّام بحيث يصبح رتقه مستحيلاً. وسأحمله معي إلى صمت أكبر منه، القبر. ربّما احتجت إلى حياة أخرى، غير هذه، لكي أتمكَّن من قول كلّ ما ينغِّص عليَّ سعادتي. حبِّي.

أحتاج إلى رئة أوسع، وقلب أصلب، وجسد لا يشبع أبداً من الدنيا، لأواصل رحلة الجنون التي بدأتها ولا علم لي كيف أنهيها؟

* * *

من ليلي إلى سينو

لوس أنجلس، ديسمبر ٢٠٠٨

سينو حبيبي، وصديقي الأجمل والأبقى،

شتاء يمضي، وآخر يجيء، وما يزال قلبانا مشدودين إلى المستحيل.

كلّما استعدت وجهك، ارتعشت من شدّة خوفي عليك.

لم أستطع أن أقول لك خفِّف من جنونك، وقلِّل من السفر. أعرف عنادك، ولكنِّي أعرف أيضًا عناد الموت القاسي الذي لا يسألنا مطلقًا عن أحاسيسنا عندما يصمِّم على فعل ارتكاب جرائمه التي لا تنتهي. لو كان الموت إنسانًا لحاكمته حبيبي، ولأنزلت عليه عقوبة النفي الأبدي إلى البياض، حيث يموت غيضًا، لأنَّه لن يجد وقتها ما يسرقه من الناس. ولكنَّه، للأسف، مبهم يسكن ذواتنا، ويتوزَّع عبر مسامّات جلدنا، فيعبث بأجسادنا كما يشاء، ويفجِّر في داخلها كلّ قنابله الموقوتة.

سينو. صديقي وحبيبي.

اعذرني. هذه المرّة أيضًا ستكون وحدك. ليس لأنّي لا أريد أن نلتقي، لكنّ شيئًا أصبح يقودني نحو فقدان غريب لم أكن مهيّأة له. أريد فقط أن أهدأ قليلاً. كنت أتمنّاك أن تأتي لنحتفل بجنوننا تحت أجمل سماء أعطتنا شمسها: ملينا، ولكنّ الظروف منعتنا من ذلك. أنا مدعوّة للوس أنجلس لبعض الوقت، للمشاركة في سهرات مشتركة بين فرق عربيّة ـ أمريكيّة وعازفين عرب، يأتون من البلاد العربيّة. شيء جميل. لأوّل مرّة أدرك أنّه يمكننا أن نعيش ولو موقّتًا، حياتين مختلفتين في زمن واحد.

سعيدة حبيبي أنّ الغيبوبة لم تترك فيك أيّ أثر جانبي.

وأسعد لأنّ الغفوة نفسها أرجعتني إلى حواسّي الميتة.

هذه الزاوية التي أتخفّى فيها داخل مترو لوس أنجلس، تمنحني فرصة العودة إلى نفسي على الرغم من الضجيج وحركة البشر. الآن تمكّنت من أن أجعل كلّ شيء ورائي، وأن لا أُبقي في المشهد المباشر إلاّ وجهك.

الناس هنا يبدو التعب واضحًا على أوجههم: واحد، لأنّ الدنيا منحته أكثر من قدرته على التحمُّل، آخر، لأنّها نزعت منه أكثر ممّا يتحمّل، ملتفّون حول أنفسهم وفي عيونهم جزع ما يُقرأ بوضوح وبدون جهد كبير. في دواخلهم ينكمش كلّ شيء. يأتي صفير القطارات حادًّا، مختلطًا بتوقُّف العجلات التي تلتصق بالحديد بقوّة، ممزوجًا بإيقاعات الكونتري وصوت كيني روجرز الدافئ والحالم. ينغرس في لحمي بقوّة وينفذ إلى الأعماق. أنت تعرف هذه الأحاسيس جيّدًا وتتقن الإصغاء إليها. حزن يذبح في العمق، ورائحة الرحيل تفوح من السكك الحديديّة، وحزن موسيقى الغياب والأفول الدائم الذي يشبه عجلة تدور وتدور، ولا تتوقّف أبدًا، طاحنة في طريقها

الأقدار والأشواق والأحزان. مزيج من الخوف والسعادة. أشعر كأنّي أسافر للمرّة الأولى. لا شيء تغيَّر في هذه المدينة العظيمة منذ لقائنا الذي أصبح اليوم بعيداً، سوى أنّ الوقت يمضي بسرعة مرعبة.

أفكّر فيك الآن وأنت تستقلّ طائراتك بسهولة، والأسئلة المبهمة التي تنتابك قبل أن تغلق الأبواب وتحلّق في الفضاءات العالية حيث لا شيء إلاّ سكينة الصدفة القاتلة. تنسى كلّ شيء، أو تحاول على الأقلّ فعل ذلك، فترحل بالوجه الذي تعود به. لا شيء تغيّر بالنسبة لك لأنَّك تحمل حياتك داخل حقيبتك دائمًا. أينما حللت، فثمّة حياة مدهشة يمكن أن تعيشها وتجعلها جميلة. في النهاية، لو أحصيت الزمن الذي عشته على الأرض ستجده أقلّ بكثير من الزمن الذي قضيته هاربًا من الجاذبيّة، في الفضاءات والمدن البعيدة، بين أيدي أقدار لم تكن لتسأل عن نتائجها، حتى كادت أن تسرقك. معك حقّ حبيبي، كلّ رحلة هي موت موقّت حتى الوصول. لحظة انسلاخ الروح عن الجسد لزمن معدود.

لست بعيداً عنّي في هذه اللحظة. قد تكون جالسًا في البيسترو المقابل، أو في المطعم الموجود عند مخرج الميترو، أو حتى في المحطّة المقابلة، مع ذلك، لا قوّة في الدنيا تستطيع أن تُسكِن إحساسي بالخوف عليك. أنت عدتَ من سكرة موت يقينيّة، ولكنّي أشعر دائمًا أنَّك رحلتَ يومها، أو شيئًا منك خرج، دون أن يصافحني أو يودِّعني، وحتى يمنحني فرصة التلويحة الأخيرة. لقد تعبتُ حبيبي ولم أعد قادرة على تحمُّل الهزّات القاسية. أحبّك عمري، ولا أستطيع أن أمثّل عليك، حياتنا الجميلة والقاسية لم تُبْنَ على هذه الوتيرة. قلتَ لي ذات مرّة، إن الذي يحافظ على رباطنا، هو قوّة داخليّة تصعب زلزلتها. هل تتذكَّر ماذا قلتُ لك؟ ربّما نسيت. هل تكفي القوّة لتبقى امرأة ما مع رجل؟ هناك ما يربطني برياض، قوّة ما. قوّة الإحساس بأنّ

لديّ عائلة أعود لها كلّ مساء أو كلّما انتكس داخلي. كنت سأقول لك إنّه الحبّ. ليس هناك ما يمنحنا قوّة عظمى للمقاومة أكثر من الحبّ. مع ذلك كلّه أحبّك، لأنّك أحمق، ولأنّ لزعر الحمصي ما يزال يعشّش فيك حتى ولو حاولتَ قتله. عندما يموت هو، تنتفي أنت، وأخرج أنا من حياتك بلا ندم.

سينو...

اشتقت إليك كثيراً. ماذا لو استأذنت صباحًا، وركبت أوّل طائرة صوب وهران، وجئتني محمّلاً بالشوق وتقول لي إنّك اشتهيت فقط أن تشرب معي قهوة على واجهة البحر، أو كما نسمِّيها نحن في وهران فروندومير[1]، وتمنحني فرصة النظر إلى وجهك الغائب دومًا؟ ماذا لو طلبتَ منّي أن أنتظرك في المطار فقط لألمس تفاصيل وجهك المتعب، وأتأكّد أنّك بخير وأمنحك قبلة، ثم أتركك تعود من حيث أتيت؟ ماذا لو منحتني حبيبي بسخائك المعروف لحظة، وقطعنا سويًّا، كما في المرّة الأولى، كلّ الأحياء التي تؤثّث اليوم ذاكرتنا: سيدي الهواري، الكونسرفتوار، قصر الباي، الجامعة، قسم الآداب، على الدرج حيث كنت أعزف وأغنّي كالتروبادور، أو في الزاوية الخلفيّة للبنايات الخشبيّة التي ظلّت موقّتة ثلاثين سنة والطلبة يدرسون فيها، وأبكيتني مرّات عديدة وأنت تهدّدني بالانفصال؟ اللّه يلعنك، ما أقسى قلبك على طفلة حمقاء أحبّت مجنونًا مثلك؟ ألم ينتبك إحساس الرغبة في توديع ذاكرتك قبل أن يفاجئك الزمن الساحق؟

ما زلت في المترو. صوت الكمان الذي عوّض كيني روجرز، يذبحني. أحسّ أنّي ممتلئة بك وبشيء غريب يتراكض في داخلي ويلحّ على الخروج، لو كنت حاملاً لفهمت هذا الوهم الغريب. ما الذي يبقى حينما نفقد كلّ شيء،

---

١ ـ من الفرنسية: Front de mer.

كلّ ما نحبّ وكلّ ما نشتهي؟ هل يبقى للحياة معنى حقيقي غير اليومي والقاتل؟ أفكّر أنا أيضًا في الكتابة ربّما للمرّة الأولى والأخيرة. أنا أحمل لغة في أعماقي، وكلّما كتبت حرفًا واحدًا أحسست بأنّي ألبس كلماتك ومفرداتك وجملك. لا أحبّ اللغة التي سرقتك منّي، ولكنّها تثبّت خواءنا المخيف في أكثر اللحظات فجائعيّة. أصبحت الآن أفهم جيّدًا ما كنت تقوله لي ولغيري عن أنّ الكتابة لا تنشأ إلاّ من الفقدان. وهل هناك أفجع من فقدانك؟

أنا متعبة جدًّا ككلّ هؤلاء البشر العابرين، وهزّة رحيلك هي أقسى قدر وُضع في طريقي فقط ليختبر هشاشتي. القدر الوحيد الذي لا أعرف كيف أواجهه، ولا كيف أتحمّله؟ تمنّيت أن أقبّلك مرّة أخرى، وأن أتأمّل وجهك، وأنام على صدرك قليلاً حتى أتوغّل عميقًا في إغفاءاتك الجميلة لأرى ما تراه. أجمل عاشق في الدنيا، وأكمله، هو من يتقاسم الأحلام الخفيّة مع معشوقته، ويتحمّل كلّ الجنون الذي يسكنهما، ويقلّل من سلطان الأنانيّة البغيض.

سينو،

حافظ على نفسك، وحافظ عليَّ أيضًا. أصبحت هشّة كقشّة صيف. لا يغرّنّك شكلي، بي فجوة داخليّة عميقة مثل الهوّة لا أدري كيف أملأها، وبأيّ سحر أغلقها؟ كلّما تذكّرت أنّك ستسافر أنت أيضًا إلى استوكهلم، زاد خوفي عليك. ما بيننا كبر فجأة لدرجة أنّي لم أعد قادرة على السيطرة عليه، ويكاد يبتلعني. مريم ليست إلاّ لعنتي الخفيّة التي عجزت عن أن أضعها صوب عيني، ولكنّي لم أعد قادرة على أن أمنحها حتى نَفَسًا صغيرًا من أنفاسي. أخذتْ منّي كلّ شيء، وأعطتني وهمًا اسمه اللّغة. كنتَ أستاذي وحبيبي في كلّ شيء، في العلم، في الحياة ، في الحبّ، في الجنون، في الالتصاق بحقّ العيش، ولكنّك لم تعلّمني كيف يمكن أن أتحمّل غيابك، وأجعل رحيلك نحو

مدن الريح أقلّ قسوة.

ها أنا ذي، داخل شجن الموسيقى، أصنع لنفسي شرنقة أختبئ فيها في فترة غيابك، الذي يطول ويقصر، وأستعدّ مرّة أخرى لاستقبالك لا في بيتي، ولا حتى في كهفي، ولكن في المطارات وغرف الفنادق الطارئة. وفي اللحظة التي أراك فيها، أهيِّئ نفسي لتوديعك بآلام مضمرة أقلّ، وأحزان، لكي لا تعود إلى منفاك منكسراً. أصنع كلّ الابتسامات الجميلة التي تريحك في رحلتك وتطمئنك عنِّي. هل مرّ بذهنك أنّ المرأة التي ترتدي السواد وتحبّك بجنون، كلّما ودّعتك، عادت منكسرة إلى برودة كهفها؟ وحتى لا تموت بغصّة خانقة، تهيّئ نفسها لاستقبالك أو اللقاء بك، وهي لا تدري أنّك لست في النهاية إلاّ شبحًا عابراً؟

آسفة حبيبي، على هذه اللغة الحزينة وأنا في مدينة عشقنا وصفائنا.

أتمنّى أن نسرق وقتًا جميلاً نتحدَّث فيه عن أجمل الأشياء، ولا أريد أن أنغِّص عليك سعادتك، كما يحدث معي عادة وكأنِّي لم أعد قادرة على تحمُّل سطوة السعادة؟ أشعر أحيانًا أنّنا لن نجد متّسعًا لذلك لأنّ ذلك الظلّ الأسود الذي كثيراً ما ينزل فجأة على قلبينا، يمنع حتى عيوننا من الارتعاش في لحظة صدق. ظلُّ قصّتنا الذي يزداد كلّ يوم ثقلاً. لماذا يصرّ البشر على أن يكونوا أنانيّين إلى حدّ العمى؟ ماذا لو يكونون بسطاء ويفتحون قلوبهم على اتّساعها؟ لمَ يصرّ الجميع على صنع كذبة كبيرة، قد تكون جميلة، ثم يصدِّقونها ويستميتون من أجلها، قبل أن تتحوَّل إلى كابوس مرعب ينسف كلّ شيء في طريقه؟ لمَ تحرمني المدينة من أن أمارس صدقي الذي لا أريد غيره، أن أنظر إليك فقط كما أشتهي، أقبِّل عينيك بدون خوف من المارة، أضع وجهك بين يديّ وأمسح من عليه نثار الأسفار المتعبة؟

سينو، صديقي وحبيبي،

لا تدري كم أشتاق إليك. جئتك هذا الصباح ركضًا فقط لأحسّ بك في هذه المحطّة وأنتظر قدومك. لأسعد بوهم اللقاء بك مرّة أخرى. قاومت، هذا الصباح، رغبة طفوليّة كبيرة في النوم، وجئت لأنتظرك في هذه المحطّة وأنا مدركة سلفًا أنك لن تأتي، لأنّك في هذه اللحظة بالذات، في استوكهلم، بين أصدقائك وربّما مع مترجمتك السويديّة الأنيقة، التي لا أحبّها كثيراً. لا أدري إذا كان عليَّ لوم نسائك أم لومك أنت؟ أنتَ من يسحبهنّ نحوه. في قلبي آخر جملة قلتها لي عندما دعوتني أن أسافر معك: *مثلك، أريد النوم على صدرك، على الجهة اليسرى، المليئة بالهشاشة والحبّ، أن أسمع نبض قلبك وأغفو على موسيقى سوزان لونديغ التي تعشقينها حدّ الهبل. ثم لا شيء إلاّ أنفاسنا التي تتقطّع قبل أن تستقرّ داخل رحلة نوم لذيذة لا شيء يحرّك راحتها الأبديّة*. لا أنسى شيئًا من جنونك.

اعذرني حبيبي أنّي لست معك. لا يهمّ. احملني فقط في قلبك، وسأحملك أنا أيضًا في قلبي الزمن الذي تبقّى من عمري. لا تهتمّ، الباقي سيأتي من تلقاء نفسه. كلّما أغمضت عينيك على وجهي، وجدتني أمامك، أسحبك نحوي بابتسامة ملعونة. أدفعك نحو شلاّلات النور، وأغرقك في عرس من الألوان، وأملأك بعطر البحر، لأراك في أبهى شهواتك.

سينو؟ هل تسمعني؟

أنا هنا. بالقرب من نفسك.

أتركك الآن حبيبي. قطار لوس أنجلس يصفّر للمرّة الألف. أسمع نحيبه في الأنفاق يأتي ممزوجًا بهذا المذاق المرّ الذي اسمه الحياة، وبأنين

الكمان، وبأزيز الطائرة التي سرقتنا، كلّ واحد في اتّجاه، قبل أن نستسلم للمسافات المهلكة وللمحرِّكات النفّاثة التي تخترق هدأة السماوات العالية.

أحبّك عمري. أحبّك ولا أعتقد أنّ هناك كلمة أكثر جمالاً وأكثر خرابًا منها. أ...حـ...بـّ...ك. أربعة حروف مختلفة وملوّنة، قادرة على منح الدفء إلى ملايين القلوب المتعبة، وعلى إشعال حرائق لا حدود لخرابها، في النفوس. لا تنس أبدًا أنّ كلّ مدني لك بما فيها مدن الجسد، وكلّ دروبي لك بما فيها أسرار الروح، كلّي لك بما فيّ من هبل وجنون. لا تنسَني كثيراً. تذكَّر فقط أنَّه في زمن ما، وفي مدينة ما، وراء هدير المحيطات، قلب ينبض لك ويعيش على توقيتك العبثي، وعلى وقعك القاسي.

من سينو إلى ليلي

استوكهلم، ديسمبر ٢٠٠٨

ليلي، هل تشعرين بما أشعر به الآن؟

«أنا متعبة، حبيبي وأشعر كأنّ زمنًا ثقيلاً يضغط على قلبي المنهك. متعبة جدًّا...».

جملتك ما تزال تطنّ في رأسي عندما افترقنا، في آخر مرّة.

كنت سعيداً أنّي عثرت عليك من جديد بعد أن كدت أضيّعك. وجدتك، ولكنّي رأيتك حزينة وخفت عليك من مريم، من نفسك. لأوّل مرّة تفتحين الموضوع معي بهذه الجدّيّة المربكة. لم تكوني في حاجة إلى ذلك. لو سألتني من قبل لقلت لك بلا تردُّد: *كلّ مريمات الدنيا لا يساوين دمعة واحدة تنزل من عينيك. مريم ليست إلاّ استعارة للعجز المستشري في محيطنا. عجزنا، وجانبنا الخفي الذي نريده جميلاً، ولكنّ قوّة طاغية تسحقه أمام أعيننا*

بدون أن نستطيع فعل أيّ شيء. في مجتمع ينام على أعظم الكذبات، لا حلّ لنا إلاّ الدخول في اللعبة والتحوّل إلى بهلوانات سخيفة، أو المقاومة حتى ولو كانت وسائلنا بدائيّة. مريم قناعنا ضدّ حياة ليست سهلة ووجوه قاتلة تنتظرنا في الجانب الخلفي من جنوننا. احذري عمري... أخاف عليك من استحالة تقود بسرعة غير منتظرة نحو جنون آخر، يصعب فهمه وتسييره.

كنّا في حاجة إلى هذا الهروب، حتى ولو ذهب كلّ واحد في اتّجاه. عندما نخرج من موت أكيد، نحتاج إلى أن يسمعنا الآخرون لنقول لهم ما في القلب، وكنّا نخاف أن يسرقنا الموت بدون أن نتمكّن من قوله. وها أنا ذا أشكر الحياة أنّها وضعتنا في المسالك التي اشتهيناها. لم يكن الكلام مهمًّا في حضرتك. قلت لك. لقد خرجت من الغيبوبة الطويلة، فقط لأحبّك أكثر، وأتمادى في غيّ الجنون حتى الأقاصي. هربتنا الأخيرة، كلّ واحد نحو مدينة، هي شكلنا الجميل للإصرار على الحياة، خارج كل تحنيط وتخطيط جاهزين.

أراك الآن بكلّ تفاصيلك وكأنّك هنا، بالقرب من وجهي وأنت تتأمّلين ملامحي التي بدت لك كابية ومنهكة، وجسدي الذي بدأ يخسر من وزنه، والخطوط التي ارتسمت بسرعة على خدّين كانا مشرقين قبل وقت قصير. تتحسّسينني كمن يكتشفني للمرّة الأولى. كانت كلّها علامات يقينيّة على أنّ الخطر القاتل الذي كان في الخارج، أو على الحوافّ، أصبح الآن داخل الجسد بعد أن زرع كلّ رماده على الوجه.

قلت وأنت لا تعرفين اللّغة التي كان عليك اتّباعها معي:

ـ أرجوك حبيبي، قلّل من خطايا الويسكي والسفر المتواتر والسهر. ألم ينصحك الطبيب بذلك؟ فلا تكن أحمق وتواصل استدراج الموت نحوك بجنونك المعهود. أرجوك... لا يمكن للأقدار التي أخطأتك مرّات عديدة، أن تظلّ مستمرّة في ذلك؟ أرجوك.

ـ ليلي. هل تدرين بأنّي بلا سفر، رجل مقتول؟ عندما عدت للطبيب متعبًا ومرهقًا، قال لي: المؤكّد هذا شأن سفرة طويلة؟ أين؟

ـ الخليج. أبو ظبي ودبي.

ـ ثماني ساعات فقط؟ ما أشجعك يا أخي!

أجبته بثقة لم أكن في عمقي واثقًا منها:

ـ لقد لبست الجوارب الضاغطة كما نصحتني. أحقن نفسي بإبرة، تحت جلد البطن، بعيدًا عن الصرّة قليلاً، بدواء Lovenox 400 UI-Xa/0,4 ml كلّما تجاوزت السفرة الأربع ساعات، بعد أن أوقفت نهائيًّا إبرة innohep 18000 UI anti-xa/0,9 ml بعد ستّة أشهر من المواظبة المستميتة والجدّيّة. وبعد أن أوقفت نهائيًّا تناول حبّات Le Préviscan الخاصّة بتمييع الدم لمنع تكوّن الجلطات في الأوعية، وعوّضتها بشيء خفيف هو مسحوق Kardegic 75 mg لتفادي مضاعفات توقيف الدواء بشكل فجائي. لديّ حساسيّة من الأسبرين، ولكنّ نسبتها القليلة لا تضرّني كثيراً.

لكنّ الطبيب الذي كان يعرف هبلي، أجاب:

ـ كان من المفروض أن أحرمك نهائيًّا من السفر، لأنّه أفضل لحياتك. ولكنّي أعرف أيضًا أنّي سأقتلك في الأربع والعشرين ساعة الموالية، إذا منعتك من السفر، ولهذا طلبت منك أن تخفّف قليلاً. مرّة أخرى أرجوك، من أجل حياتك، أن تكون عاقلاً ولو بعض الشيء.

أيّ عقل عمري؟ وأنا كلّما سافرت، لم أفكّر في شيء آخر، إلاّ في القدر من الحرّيّة التي سنعيشها مع بعض، ودوخة الجنون التي تدفعنا إلى إعادة اكتشاف أنفسنا من جديد.

صمتِّ يومها ولم تقولي شيئًا . ثم تمتمت وأنت تحاولين أن تنسي بعض جنوني :

ـ هل تدرك حبيبي ما أحسّ به الآن ؟ ربّما كنت لا تعرف هذه القوّة الساحقة التي تملأني بك وتعيدني نحوك كلّما ابتعدتَ قليلاً ؟ أليس من الأفضل أن توقف سفراتك لمدّة سنة . ترتاح ، وبعدها نرى كيف ستتطوّر الوضعيّة ؟

هاهي ذي التفاصيل تندفع نحوي بقوّة وأنا داخل هذا المقهى أنتظر وصول مترجمتي . أمطار استوكهلم باردة في هذا الفصل . ياه كم أشتهي أن أخرج أنا وأنت ، وأن نركض تحتها كما لم نفعل أبدًا في حياتنا ؟ مهما كانت باردة ، فهي تورث إحساسًا غريبًا بالدفء مثل أمطار جزر الكاريبي . يمكننا أن نجعل منها ثوبنا الملوّن ولو لمدّة ساعات ، ونعود بعدها إلى غرفتنا في الفندق الدافئ ، المعلّق على جبل يحتضن المدينة الناعمة كلّها ، ونعرِّي أجسادنا بحذر العاشق الذي يريد أن يديم لحظته اللذيذة حتى الموت .

قلت لك هل تأتين؟ أنا في حاجة إلى نفسك ، ملامسك ، إلى عطرك وكلامك .

ـ إنِّي مدعوّ من مكتبة استوكهلم الدوليّة ، ومركز الأبحاث المتوسطيّة ، فهل يغريك ذلك ؟ أريد أن نكتشف سويًّا مدينة لا نعرفها إلاّ من كتّابها ومن جائزة نوبل ؟

كنت أغريك بالمكان . رشوة العاشق الوحيدة .

شعرت بك لحظتها تضغطين بقوّة على أسنانك لكي لا تصرخي بأعلى صوتك : أرجوك أوقف هذا الدمار المتعمّد ضدّ صحّتك .

ـ حبيبي. لا أستطيع لا السفر معك ولا حتى منعك من السفر. لقد يئست من ذلك واستسلمت للأقدار التي أتمنّى من قلبي أن تحفظك لي. اهتمّ فقط بصحّتك. كما تعرف، لا أستطيع إلغاء السهرة، فأنا ضمن فرقة أميركيّة عربيّة في لوس أنجلس. لو كانت المسافات قريبة لجئتك بلا تردُّد أبداً، كما فعلنا دائماً. لكن هذه المرّة...

البارحة زرت مرتفعات المدينة الملكيّة مع مترجمتي، حيث يوجد القصر الملكي الذي يفرض نفسه من بعيد على النظر، وأكاديميّة جائزة نوبل وملحقاتها، بما في ذلك متحفها الصغير. بدت لي كمجلس قضائي دولي لا يختلف كثيرا عن TPI المحكمة الدوليّة في لاهاي. رأيت المكان الجميل الذي تُحكم فيه مصائر الأدب العالمي، ورأيت وجوه المحظوظين الذين كانوا يملأون المكان ولم تبق إلاّ ظلالهم الخالدة. كان وجه ألبرت آينشتاين وعمليّاته الحسابيّة حول النسبيّة، صوره تملأ المداخل الرئيسيّة والفرعيّة. بشّرتني مترجمتي ومرافقتي بسعادة بدت واضحة في عينيها، بأنّ اسم محمود درويش الذي تُرجم إلى العديد من لغات العالم بدأ يتكرَّر كثيراً في الأوساط النافذة، وأنّه يحتمل أن يكون هو الفائز هذه السنة. أكّدتْ أنّ الخبر وصلها عن طريق شبه رسمي. ولكن... سألتها بعفويّة طفل مشاكس حتى في المسلّمات، أو ما يبدو كذلك: لماذا كلمة لكن؟ قالت: الصراع على أشدّه مع أسماء أخرى. طبعًا لم يكن ذلك غريباً، فالجائزة تشتغل بهذه الطريقة دائماً، وهذا جزء من رهانها. قلت: صعب أن نمنّي الناس بشيء غير صحيح في النهاية. كازانتزاكي كان يظنّ أنهّ أخذها، وظلّ ملتصقًا بها بعد أن وصلته الأخبار من كلّ الجهات، ولكنّه في النهاية عاد إلى التراب بدون أن يحصل عليها. يبدو أنّ بعض الكبار يُعمون بنورهم الحادّ حتى رجال الأكاديميّة أنفسهم. الجائزة هي التي أخطأته، وليس هو. الأمر بدا لي متسرّعًا ولا فائدة من ورائه، إذ كثيراً ما دفع بالأسماء فقط

لتحسّس ردود فعل المحيط الثقافي العالمي المليء بالإرباكات السياسيّة والأسئلة المعقّدة التي لم يُتوصّل إلى حلّها أبدا. ومع ذلك، لم أخبّئ سعادتي وأسئلتي أيضًا. فقلت لمترجمتي الطيّبة والنبيلة: لا أدري إذا ما كانوا جادّين في اقتراحهم، ولكنّ المؤكّد أنّ الجائزة بذهابها إلى درويش، ستضيف إلى ذاكرتها الشقيّة قيمة إنسانيّة عظيمة. درويش، قبل أن يكون فلسطينيًّا أو عربيًّا، هو قيمة إنسانيّة نادرة في عالم ما يزال تحت سطوة الظلم والغطرسة. ألم يكن نوبل يحلم بأن يجعل من جائزته وسيلته الإنسانيّة لمحو عقدة الذنب والإشادة بالإنسان كقيمة متعالية، بعد أن أصبح البارود هو لغة العصر؟ كانت أرض درويش طيّبة وتسع الجميع، المسلم والمسيحي واليهودي، فاختزل كلّ شيء، وغيّر الجغرافية والتاريخ. أضافت مترجمتي: هم جادّون هذه المرّة. ولكنْ هناك إشكال يستيقظ دائمًا كلّما تعلّق الأمر بفلسطيني. لم أسأل كثيراً، فقد كنت أعرف الإجابات. قالت: بجانب درويش مرشّح آخر هو آلموز عوز **Almos Oz**. قلت بعفويّة مرّة أخرى: ليكن. فهو روائي كبير. كتب روايات كثيرة أحدثت أثرًا طيّبًا بموضوعاتها الإنسانيّة وبخياراتها الطيّبة التي لا ترى في الفلسطيني دائمًا عدوًّا لا يعرف شيئًا آخر إلاّ محو اليهودي. قالت: طبعًا. كلامك صحيح. سعيدة أنّك تفكّر بهذه الطريقة، إذ كثيراً ما صادفت عربًا يرفضون حتى من هم مع قضيّتهم. قلت: إنّ الجرح كبير، وواسع ومفتوح على النزف بشكل دائم، ونحتاج إلى زمن آخر لندرك أنّنا أخطأنا كثيراً، ولكنّ الذين أخطأوا في حقّنا كانوا كثراً أيضًا، وجعلوا العقل المفكّر أقلّيّة في أرضه. قالت: يستحقّانها، ويستحقّان حتى جائزة السلام، ولكن هل من الضروري هذه الازدواجيّة الدائمة؟ ألا يمكن التفكير في الواحد بشكل عمودي وعميق؟ ألا يوجد قرار له إمكانيّة الانفصال عن هذه الازدواجيّة المقيتة، والتفكير مباشرة في القيمة الإنسانيّة والأدبيّة أوّلاً وأخيراً؟ بسبب هذه الازدواجيّة، خسرت نوبل مواعيد كثيرة وعظيمة في رحلتها التي تخترقها دائمًا الحسابات التي لا

تفضي بالضرورة إلى نتائج تثبت القيمة قبل أيّ شيء آخر. أخطأت ليون تولستوي في ١٩٠١، عندما كانت تبحث عن مسالكها الأولى، وسُلِّمت لسولي برودهوم Sully Prudhomme الذي لم يكن شيئًا مطلقًا في الكتابة الأدبيّة، سوى أنّ شخصيّة تقليديّة من الأكاديميّة فرضته قبل أن يدرك بقيّة الأعضاء الكارثة التي وقعوا فيها. كانت البداية فجائعيّة، لأنّ تولستوي سحب كلّ حصائره وانسحب نحو الداتشا التي كانت تخبّئ كلّ جنونه وأشواقه العظيمة. أخطأت أيضًا جيمس جويس، كاتب غيَّر نظام الكتابة ومنحها معبراً جديداً للحياة والاستمراريّة، ولم تدرك نوبل حماقتها الكبرى إلاّ عند وفاته؟ أخطأت مسار مارسيل روست الذي هزّ نظام السرد الذي بدا مستكينًا وثابتًا، في روايته: *في البحث عن الزمن الضائع*. ولم تنجح مطلقًا في تفضيل بونين المتواضع كتابة، على عبقريّة نابوكوف صاحب لوليتا. والقائمة طويلة. فلسطين ليست في النهاية إلاّ التعبير المختزل عن أزمة العصر بكامله، والغرب أيضًا، تجاه قيمه التي ابتدعها ودافع عنها باستماتة: قيمة الحقّ في الحياة والحرّيّة والعيش الكريم. فقد التبس برؤية ازدواجيّة متحكِّمة في كلّ تصرّفاته، حتى الفكري منها. الغرب موجود داخل دائرة من الضيق وعسر التنفُّس الحرّ، تمنع جائزة نوبل من الخروج من الديكوتوميا البغيضة، ونحت طريق جديد أكثر جمالية وأكثر حرّيّة.

ليست المرّة الأولى التي يُرشّح فيها درويش. في مرّة من المرّات كنّا في رحلة معًا بين عمّان وباريس، سألته عن جدّيّة ما يُحكى في الكواليس؟ ظلّ صامتًا للحظات قبل أن يقول مبتسمًا: الدنيا كما ترى يا سينو. ما زلنا نكتب ونسافر ونعيش كما نشتهي إلى حدّ بعيد، ولا شيء تغيَّر في النظام. العكس هو الذي يفاجئ، أمّا والحال هكذا، فلا شيء يثير سؤال الدهشة. ثم صمت من جديد قبل أن يواصل وكأنّه استدرك شيئًا كان قد

نسيه: يجب أن لا نكذب على أنفسنا. نوبل، كما تعرف ذلك جيِّدا، جائزة عظيمة، وهي تعبير عن أنّ الإنسان تخطّى حواجز الحدود القسريّة التي تضعه على حوافّ يصنعها الآخرون لكي يصل إلى قلوب الناس. لكن بقدر ما هي عظيمة، تحمل ضعفًا خانقًا في داخلها. خطأها أنَّها، في الأغلب الأعمّ، مثل هملت، تستيقظ متأخِّرة دائمًا. بعد فوات الأوان. **تردَّد قليلاً ثم واصل بانفعال بدا ظاهراً على شفتيه وأصابعه وهزّة رأسه، وحتى نبرات كلماته التي جاءت متلاحقة وسريعة وكأنّه كان يريد أن يقول كلَ شيء، في أقلَ وقت ممكن**: صراحة... لا أعتقد أنّها معنيّة بنا كثيراً، وكلّ ما يحدث من ترشيحات هو من فعل كتّاب وأشخاص لهم حساسيّة خاصّة تجاه التوازنات، وربَما بعض الإعجاب بما نقوم به، أو حتى تعاطفًا معنا ومع قضايانا، أو بسبب بعض الحياء من ظلم كبير لم تر فيه عين الفاعلين في نوبل إلاّ نجيب محفوظ، ثم أغلقت بعده الأبواب بشكل شبه نهائي. لا يُعقل. أعتقد صادقًا أنَ أمام الكاتب أشياء أبسط وأثمن يمكنه أن يفكِّر فيها: صحَته وقلبه مثلاً، قالها ضاحكًا، قضاياه الإنسانيّة الكبيرة التي تستحقَ أن يتعب من أجل التفكير فيها، والعمل على تربية نفسه على الخير وعلى حقد أقلَ، لأنَنا في زمن يجيش بالأحقاد. أفيد للكاتب ولهذه الأرض التي تفقد كلَ يوم بعضاً من أنفاسها وحياتها، أن ينسى ما يقوله الآخرون عنه، وأن يكون فقط جديراً بأرضه وعصره. **ثم ضحك مضيفًا قبل أن يدفن عينيه في تأمَلات داخليّة كان قلبه وحده يعرف سرّها**: ليكن يا سينو، لنا الشعر والخير والمحبّة، ولهم كلّ ما تبقى.

ليلي الغالية.

أتركك حبيبتي الآن، لقد وصلت مترجمتي، وسأعاود الاتّصال بك لاحقًا...

ليلي... أجمل أقدار،

أعود لك من جديد.

لقد سقطت الأمطار طوال اليوم ولم تبرحي قلبي أبداً. كنت أراك في كلّ خطواتي تشدّين على قلبي وروحي وذاكرتي بقوّة. أفكِّر فيك بلا هوادة. أتمنّى أن لا تكوني مريضة، وأن تكون صحّتك على ما يرام. أنصحك أنا أيضاً أن لا تتأخَّري عن الطبيب والتحاليل. حكاية انتفاخ الرحم التي حدَّثتني عنها باستخفاف، تقلقني. قد لا تكون للأمر أيّة أهمّيّة ولكن لا تتهاوني في الفحوصات.

في القلب شيء آخر، أخاف من أن أخرجه الآن دفعة واحدة، فأموت بفيض الشوق الذي لا سلطان لي عليه. اكتبيني حبيبتي بالشكل الذي تشتهين، وكما يروق لك. اجعلي منّي نشاراً تملئين به كفّك قبل أن تلثميه للمرّة الأخيرة وتقذفي به لفراغات الريح العاصفة. امنحيني فسحة من النور، لكي ألتصق بالحياة إلى آخر نفس، فقط لأراك كلّ صباح وأقول لك صباح الخير، وأنت تمضين لعملك اليومي. مرّري لمسة يدك الناعمة على وجهي لكي أُشفى منك وأنسى أنّ في الدنيا مآلاً مخيفاً اسمه الموت.

لك القلب والأشواق وأجمل ما تحمله الذاكرة، لكن لا تنسيني، فأنا أتنفَّس بك، وأعيش على وقعك، وربّما بفضل وجودك في هذه الدنيا. لا يهمّ أبداً أنّ ذاكرتي متعبة ومثقلة بالخيبات والهزّات الجميلة أيضاً، عليك فقط أن تظلّي داخل هذا القلب، وعلى كلّ حوافّه الهشّة، لأنَّك وقْعُه الدائم ودقّاته الحيّة، والنور المشعّ دوماً في دهاليزه المعتمة المليئة بالهدير والغموض.

أما يزال لكلمة أحبّك معنًى أمام ما يخترقني الآن بقوّة؟

أحبّك إذن...

07h 02mn 00s

ـ ١ ـ

يتسرَّب الصباح بهدوء وسكينة نحو عمق السكريتوريوم، وتتكشَّف أكثر أرضيّته المغطّاة بسجّاد تلمساني قديم، وأشكال الأشياء المحيطة بي. المكتب بكلّ تفاصيله ودقائقه الصغيرة التي تلعب على سطحه، من أقلام ومسطرة أقيس بها حجم الفراغ وطوله، ومحبرة قديمة، ومقصّ، وأجزاء صلبة من الورق، والمسدّس الذي غاب تحت كومة الأوراق التي حرّكها، من جديد، الهواء البارد قبل قليل. الخزانات ذات الأحجام المختلفة التي يحتوي بعضها على ألبستي الحميميَّة التي لا أنزل إلاّ لأشمّ روائحها، وأتذكَّر بسرعة العطر الذي كنت أضعه يومها، ثم الأمكنة، الارتجافات التي جاءت بعد أوّل لمسة قبل أن أغرق في فراغ أبيض ناعم وحلو، مثل الشهد الصافي، ثم الجنون المصاحب لذلك. السرير الحديدي القديم الذي يشبه أسرّة عسكريّة يمكن طيّها وجمعها بسرعة، كان مختبئاً في الزاوية المظلمة مخافة أن تُكشف أسراره. صندوق المال الثقيل الذي كان يضع فيه رياض ماله ومسدّسه قبل أن يستبدل به آخر أصلب

وأحدث، وأنعم بحيث لا يُرى أبداً وهو يتخفّى وراء لوحة فنيّة اختار رياض أن تكون عاديّة حتى لا تثير شبهة السارق. الزرابي التي غُيّرت كلّها وعُوّضت بالسجّاد الفارسي الغالي. صالون من طراز لويس الرابع عشر، يعطي الانطباع كأنّنا لسنا في قبو واسع، ولكن في محلّ بيْع التحف الثمينة. ثم الأشياء الصغيرة كالكؤوس الجميلة التي صنّفتها في خزانة قديمة ووضعتها في الطرف الأيسر. المكتبة الدائريّة التي تحتلّ الزاوية اليمنى من السكريتوريوم. التحف الصغيرة التي كلّما رأيت إحداها، تذكّرت ليس فقط تفاصيل المدن التي بتنا في فنادقها وشعرنا للحظة أنّ العالم كلّه ملك لنا وحدنا فقط، ولكن أيضًا كلّ تفاصيل جنون السرير وهزّات الروح.

النسمة الباردة التي انزلقت من فجوات الكوّة، أيقظت الجسد قليلاً.

الصمت والسكينة وكأنّ العالم فارق الحياة فجأة.

كلّ شيء في مكانه. ما حصل من تغيُّرات في نظام الأشياء كان بسيطًا. عندما نزعت بعض الأوراق التي كانت تغطِّي المسدّس، انتبهت إلى أنّه كان هذه المرّة مصوّبًا تجاه الباب، وكأنّ هناك يداً تحرِّكه في غفلة منِّي، أو تلعب به كما يحلو لها. الكمان انتفى في الزاوية الخلفيّة من المكتب، وطمرته ظلال الأشياء المحيطة نهائيًّا. لم أعد معنيّة به كثيراً.

لا أشعر بالحاجة إلى النوم، ولكنّ التعب بدأ يقيِّد بعض حركاتي، ويثقل كثيراً من ردود فعلي تجاه كلّ ما يحيط بي.

يبدو أنّ كؤوس القهوة التي شربتها لم تعد تجدي نفعًا الآن.

كنت بالفعل أحتاج إلى هذه النسمة البحريّة المحمَّلة بنداءات المدينة الفجريّة التي توقظ فيَّ أناشيد والدي وهو يفتح نافذة بيتنا القديم، فقط

ليضحك قليلاً، ويطمئنني بسخريته المعهودة بأنّ البحر لم يغيِّر مكانه. كنت أقوم في الصباح الباكر على تلك النسمة وعزفه الذي يشبه النداءات التي كانت تأتي من عمق سحيق. ما زلت حتى اللحظة أسمعها، كلّما خلوت إلى نفسي. لم يترك لي سي ناصر إرثًا موسيقيًّا فقط، ولكنْ أنينًا عميقًا مصحوبًا بخيبة ثقيلة لا أعتقد أنّ ظهري قادر على تحمُّلها. ومع ذلك يستحقّ والدي أجمل ركن في قلبي. فقد ورّثني جنونه الهادئ، ومنحني فرصة جميلة لأن أكون أنا، تمامًا كما اشتهيت أن أكون.

تحسّست المسدّس مرّة أخرى لسبب لا أعرفه، وكأنّي كنت أبحث عن شيء ما يتخفَّى وراء صمته ودورانه الدائم على سطح المكتب. كان دافئًا على غير العادة. شعرت فجأة بألفة غير طبيعيّة نحوه، أنا التي رُبّيت في بيتنا على كره كلّ ما له علاقة بالسلاح الأبيض أو الأسود. كان سي ناصر يقول لي دائمًا: ***السلاح الناري غيّر كلّ القيم البشريّة، وقلبها على رأسها. أفْقَدَ الإنسان الرجولة والكرامة، وساوى بين المقدام والجبان، وسيفقده ما تبقّى من كبريائه.***

أعتذر من قلب والدي الحزين، سي ناصر. لم يكن ذلك إحساسي أبدًا وأنا أحشو المسدّس بالرصاصات السبع. فقد شعرت بانتشاء كبير وبثقة لم أعهدها في نفسي.

«لا يا بابا... أنا امرأة كاملة... لن أخطئ هذه المرّة هدفي. لست قاتلة يا بابا ناصر، ولكنّي نزعت أيضًا، من على ظهري، جلد الضحيّة».

ـ ٢ ـ

حقّي الطبيعي، إذن، في أن أرفض وضعًا فُرض عليَّ لدرجة أنَّه كبّلني ومنعني من كلّ حركة. حبّي الهبلي لسينو جعلني أتغاضى عن

حقّي في وضع مريم في مكانها على الرغم من تماديها. كلّما كلّمته عنها، رنّت في رأسي، بشكل مكرور إجابته: ***ليلي عمري... مجرّد امرأة من ورق؟ أيّ ورق؟*** أكاد أصرخ بأعلى صوتي: ورقك يقتلني. إنّها تحرقني كلّ يوم قليلاً، ثم تقف في الزاوية تتأمّلني بسخريتها المعهودة وبراءتها المغلوطة. وصلت إلى درجة أنّي فكّرت يومًا في حرق روايات سينو كلّها، لأنّها لم تنتبه أبداً إلى أنّها كانت تعطي الحياة لآلة مدمّرة وساحقة اسمها مريم. كنت منكسرة وحزينة عندما جمعت مؤلّفاته. راكمتها فوق بعضها البعض. كان عددها عشر روايات. وضعت من تحت: **البوّابة الزرقاء**، ومن فوق: **الليلة السابعة بعد الألف**. لا تفسير لديّ لهذا الترتيب الذي لم يكن منطقيًّا ولا تاريخيًّا. فتحت فوهة المدفأة الغازية التي كانت حرارتها تصلني حتى السجّاد الفارسي الذي كنت أجلس عليه. عندما هممت أن أرمي بها في عمق اللهب، راودني إحساس غريب يشبه حالة المقدم على ارتكاب جريمة حرق نفسه. بقي الكتاب الأوّل معلّقًا في يدي وأنا أبكي بحرقة، وكأنّ يداً غامضة ثبّتته بقوّة في الفراغ المحاذي للنار. بسرعة استدركت أمري، إذ بدوتُ لنفسي سخيفة، لا أختلف في الجوهر عن أيّ رقيب صغير، من الدرجة العاشرة. لم أبلغ ليلتها حتى سطوة آخر عضو صغير في محاكم التفتيش المقدّس التي حدّثني عنها سينو كثيراً. يراهم مثل الجرذان في كلّ مكان. أتذكّر كيف صودرت روايته **مصرع أحلام مريم الوديعة**، وكيف ضحك بشكل هستيري لم أره فيه من قبل، عندما طُلبَ منه أن يعوّض اتّحاد الطلبة لأنّه لم يعد موجوداً، بالاتّحاد الوطني للشبيبة الذي كان ينشط يومها. قال لي سينو بمرارة: ***المشكل أنّ الرقيب متخلّف بشكل مدقع. ثم كيف يمكننا أن نتصوّر تغيير شخصيّة نقابيّة معارضة بشخصيّة تسير في ركب النظام، ووفق ما خطّط لها سلفًا؟ الرقيب المسكين لا يعرف أنّ الاتّحاد الطلاّبي خيار تاريخي، بينما اتّحاد الشبيبة هو ملء فراغ سياسي استمرّ طويلاً.***

بعد سنوات، بالضبط في اليوم العالمي لحرّيّة الرأي، صادر عمّال مطبعة دحلب، الملتحون، روايته **مرايا الضرير**، معفين بذلك الدولة من هذه المهمّة الثقيلة. أتذكّر ردّة فعله عندما أُبلغ أنّ الرواية قد طُحنت بقاضمة الورق. في الوقت الذي كانت فيه الطبعة الفرنسيّة تباع في الأسواق الوطنيّة بلا أدنى رقيب؟ شيء من الخبل الذي يصعب تصديقه؟

تذكّرت كلّ الحكايات والتفاصيل التي دارت بيني وبين سينو حول هذا الموضوع. بدت لي فكرة حرق الكتب شبيهة بعمل عبثي لا جدوى من ورائه. ربّما سيعطي دفعًا إعلاميًّا أقوى لمريم، وهذا ما لم أكن أريده أبدًا. تخيّلت عناوين إعلاميّة كثيرة وغريبة: ***مريم تتعرّض لعمليّة حرق من امرأة مريضة، تغار منها... أو... مريم ضحيّة لتصفية حساب قديمة...*** أو... **ليلى تنتقم من شخصيّة ورقيّة وتحاول حرقها**... أو **صديقة الكاتب سينو تصاب بالجنون الأدبي**... أو... **زوجة عضو مرموق في الكارتيل الجديد ترتكب جريمة قتل غامضة**...أو... **ليلى، العازفة المرموقة في الفرقة الفيلارمونيّة لأوبرا وهران، تفقد عقلها بسبب امرأة مبهمة**...؟ خيالاتي الغنيّة، دفعتني إلى توقيف عمليّة حرق روايات سينو، لأنّي بعمليّة حساب بسيطة أدركت أنّها غير مجدية، وأنّي لن أضرّ مريم في شيء.

مشتركي مع سينو يضعني دائمًا على حافّة التساؤل: كيف أكون أنا بكلّ استقلاليّتي؟ وكيف أكونه بدون أن أمسّه في جوهره؟ رهان كلّ امرأة عاقلة. ولا أدري، بعد كلّ هذا الهبل، إذا بقي لي شيء اسمه العقل. لكنّي على يقين أنّ من يلعنني في علنه إرضاء للمنظومة الأخلاقيّة، التي هو عبد كاذب لها، يدرك في سرّه جيّدًا أنّني لم أؤذ أحدًا، ولا حتى نملة. أنا لم أقل إلاّ ما يملأ القلب. ليس قلبي وحده، ولكن قلب الكثير من النساء اللواتي قضين عمرًا يبحثن عن مرادف سخيّ لخيباتهنّ وانكساراتهنّ. أكره مريم، ولكنّها داخل منطقها الورقي الصعب، لا

تهمّها كثيراً مصائرنا الحياتيّة. الثمن في النهاية، كيفما كان، لن يكون باهظًا. أمّا أنا فالثمن أعيشه يوميًّا بقسوة وعزلة قاتلة. الغريب هو أنّي ومريم، نتشابه كقطرات دم العذراء المهدور، لأنّنا نغنّي خارج السرب، وخارج النظام المقيت، الذي يعسكر في دواخلنا المتعبة.

مجرّد هزّة عنيفة، ربّما أدرك سينو بعدها، قبل فوات الأوان، أنّي لم أكن مجرّد امرأة ورقيّة، وأنّي لست طيِّبة إلى الحدّ الذي تصوَّره وهو يعاشرني سرًّا وعلنًا على مدار أكثر من عشرين سنة، ويكتبني، ويعيد صياغتي بكلّ الحذر الذي يتّصف به طبيب مختصّ، أو صاحب مخبر. ولم أكن أبداً ملاكًا مفترضًا لا يعرف للخطأ طريقًا. امرأة، كلّما تألّمت، وضعت السكّينة الساخنة بين أسنانها، وزمّت فمها، ثم صرخت بكلّ قوّة، حتى لا يسمع صوتها العابرون:

«**ـ هذه هي أنا، لا أكثر ولا أقلّ**».

ـ ٣ ـ

لست مريم المشتهاة، وربّما لم أعد حتى ليلى التي كان سينو يعشقها عندما تقف على أدراج مدخل المدرّج، وتسحب من على ظهرها كمانها، ثم تعزف جنون والدها بلا توقّف. كثيراً ما نسيت نفسها، فتترك الدمع يخطّ وجهها الطفولي الطيّب. ولا حتى ليلي الدلّوعة كما كان والدي يشتهي أن يناديني قبل أن يسحبني نحوه، ويضعني على ركبته اليمنى، ثم يبدأ في تعليمي كيف أحرِّك أصابعي على خيوط الكمان، ومتى أضغط على القصبة، وكيف أحرِّكها لاستخراج أنينه الداخلي. كان يقول لي دائماً:

«**ـ حظّك يا ليلي، أناملك طويلة وناعمة، تعطيك حرّيّة كبيرة في الحركة**».

كلّ شيء صامت من حولي، يحمل في عزلته طعم الخسارة.

لا أدري إذا ما كنت في حالة سويّة، أم في حالة بداية خسران العقل بحيث انطفأ الكثير من الحواجز، ولكنّي على يقين أنّي صادقة مع قلبي. لقد أنهكته كثيراً بالتخفّي وراء أغشية شفّافة، لم تعد اليوم كافية لتجعلني أتحمَّل، بصمت الميّت، كلّ ما حدث، ويحدث لي.

حماقة من حماقات امرأة ورقيّة أو حقيقيّة، أو حتى ملتبسة، لم يعد الأمر يهمّ كثيراً. لا شيء سوى أنّها أحبَّتْ رجلاً حتى انتفتْ فيه بشغف. صمَّمتْ، وبلا سابق إنذار، أن تخرج إلى النور بعد أن أنهكها الصمت والعزلة. ها هي ذي الآن تأتي، محمَّلة بذاكرتها المثقلة، وبكلّ ما يمكن أن يتسبَّب في خراب أكيد. هو يعرف جيِّداً أنّها ليست المرّة الأولى التي تخسره فيها وتستعيده بشطارتها المعهودة، أو يستعيدها في أكثر اللحظات يأساً واختناقاً. ولن تكون المرّة الأخيرة أيضاً.

صحيح أنّ عزيز الطيِّب لم يعد موجوداً بيننا ليقرّب الشقّة ويرمّم الكسر العميق، ولكنّ شيئاً من طفولته المسروقة ما يزال قائماً في سينو، وهذا يكفي لأن أطمئنّ إليه من عنف الهزّات القادمة.

- ٤ -

وصلت إلى سقف التحمُّل.

كان يمكن أن تكون حياتي أجمل حظّ في الدنيا، لولا ظلّ مريم. ولولا أنّها توغلت في مسامّات جلدي وأزاحتني بكتفيها العريضتين وكأنّها كانت تمارس لعبة خطيرة مع امرأة تكبرها سنّاً، ولم تعرف شيئاً عن أسرارها الخفيّة. كان يمكن أن أكون أجمل عشيقة في الدنيا لولا ظلّ

الوردة، كما كانت تسمّي نفسها كلّما رأت جسدها وهو يتزحلق على المرايا، قبل أن يندفن في عمقها مختلطًا بدندنتها الناعمة:

«يا صانع الخوف والوحدة،

أنا مريم... أنا ظلّ الوردة،

عجينة من جنون كارمن، حماقات ليلى،

هبل العدويّة[1] وتيه حدّه[2]،

أنا مريم... أنا ظلّ الوردة».

أشعر أحيانًا بصعوبة المهمّة، بل باستحالتها. لم أستطع أن أنزع الوردة من جذرها ورميها عل السطح، تحت شمس حارقة، وتركها هناك حتى الموت ذبولاً وانتفاء، فكيف أتمكّن من سجن الظلّ الهارب، أو قتله؟ لهذا كانت غيبوبة سينو الطويلة التي افترضت وجودها بقناعة صارمة، هي اجتهادي الأوّل للقيام بمهمّتي.

كان عليَّ أن أستغلّ الفرصة بشكل كامل وبلا تردّد. أنا على يقين، أنَّ ما أملكه اليوم من تصميم مجنون قد ينتفي غداً، عندما تتغيَّر الشروط المحيطة، ولهذا عليَّ أن أسرع.

لا أثق أبداً لا في الوقت، ولا في الزمن.

«غفوة سينو الطويلة، هي لحظة صحوي القصيرة...».

***

---

١ ـ المقصود رابعة العدويّة، الصوفيّة المعروفة.

٢ ـ بقار حدّه مغنّية شعبيّة جزائريّة بربريّة عانت الأمرّين في حياتها الخاصّة.

من سينو إلى ليلي

فينيسيا ١٤ ـ ٠١ ـ ٢٠٠٩

ليلي عمري.

مهبولتي وشقيّتي.

أنا في فينيسيا الإيطاليّة لمدّة شهر، في منحة لكتابة سيرتي الذاتيّة. ركبني عفريت تدوينها منذ خروجي من الغيبوبة. لم أشعر أبداً بهشاشة الحياة مثل هذه المرّة. فجأة تفتّت كلّ شيء بين يديّ كفراشة حوّلتها نيران القنديل الزيتي إلى نثار يشبه الغبار الملوّن كثيراً.

الأيّام هنا جميلة وليست أبداً متشابهة. كلّ التنقُّلات تتمّ بواسطة المراكب والعبّارات. التاكسي، سيّارات الإسعاف، التجوُّل، البريد، التنظيف وجمع الزبالة... لا بدّ أنّهم يخسرون دم قلوبهم للحفاظ على هذه المدينة حيّة.

لقد تعوَّدتُ على اسم ليلى، أو ليلي، وكأنّ شيئًا آخر قد مات فيَّ. لا أدري ما هو، لأنني كلّما حاولت الكتابة استيقظ فيّ بشكله المبهم الذي لا أستطيع حياله أيّ شيء. شكرًا على رسالتك، كنت سعيدًا أن أسمع الأنين الذي فيك وأنصت إليه بقوّة، بل أشدّ عليه بأسناني.

الكتابة أيَّتها الغالية هي حائطي الوحيد المتبقّي، هي شهادتي الصادقة ضدّ عصر يتضاءل شيئًا فشيئًا لدرجة الانهيار والموت.

عرفت عندما كلّمتني بالنقّال، أنّك كنتِ خارج البيت. لا تشغلي بالك بهذه التفاصيل، بيننا عمري قرابة الربع قرن من العشق والهبل، ولي كلّ الصدق لقول ما في القلب، وتحمّل ما يضمره. فأنا أعرف أنّه لا يريد أن يؤذي الآخرين. أعرف أيضًا أنّك في حالة هي شبيهة بالخيبة التي تقود حتمًا إلى الخوف من كلّ شيء، حتى من النفس. ليكن...

أيَّتها الحبيبة، نحن لا نحصل دائمًا على ما نريد، العكس أحيانًا هو الأقرب إلى الحقيقة. هكذا تخيَّل اللّه الدنيا، وهكذا بناها. دورة من المتناقضات التي لا تنتهي أبدًا. يومٌ ننهض فيه بسعادة نُحسَد عليها، ويومٌ آخر نستيقظ منذ لحظته الأولى، على كوابيس لا تُحصى.

ليلي، مآلي الجميل.

نتمادى في المقاومة الدائمة ضدّ كل الرياح التي تسير وفق ما لا نشتهي. نخسر جزءًا من العمر في الدوران لدرجة الدوخة. نستريح قليلاً، ثم نعود إلى التمادي في عجلة الريح. بعد زمن قاس وصعب، نكتشف فجأة، وأحيانًا بصدفة الأقدار، أنّ كلّ ما فعلناه لم يكن إلاّ صورة مخفيّة لهزائمنا الداخليّة أمام نظام يريد تشكيلنا مثلما يشتهي، نرفض يده وأصابعه وألوانه التي يفرضها علينا. وعندما نلتفت يمينًا، ثم شمالاً، نكتشف أنّ الناس الذين

كانوا معنا تخلّوا بسرعة عنّا، ربّما في الوقت المناسب، وبدأوا يدورون وفق مدارات الزمن. في عيونهم راحة، وعمرهم أطول؟

نحاول أن ننسى لا لشيء معيّن، إلاّ لنتمكّن من الاستمرار في الحياة.

عدت الآن فقط من فيلم جميل: *غران طورينو*[1]، يتحدّث عن التمييز العنصري الذي ينشأ في داخل كلّ كائن مثل الحيوان القاتل والمتوحّش. لا ندري مخاطره إلاّ عندما يضعنا في مواجهة أنفسنا وذاكرتنا المنكسرة. الفيلم أخرجه وأنتجه كلينت إستيوود[2]، الذي عرف كيف يمحو، في زمن قصير، صورة راعي البقر التي التصقت به. توجّه بذكاء خارق نحو هواجسنا المربكة، وحساسيّاتنا الدفينة، وهشاشتنا الإنسانيّة، ولامس بأصابع الفنّان الناعمة كلّ ما يتخفّى فينا من أشواق إنسانيّة وتوحّش مضمر وجشع قاتل، مثلما فعل في *وان مليون دولار بيبي*[3]؟ هل تذكرينه؟ لقد رأيناه في أحد شوارع أمستردام، ليس بعيداً عن محطّة القطار، عندما تركت كلّ شيء وراءك في بروكسيل وجئت راكضة وأنت تقولين: *ليكن. لن أعيش كثيراً، وفي حاجة إليك، ثم إنّ بروكسيل التي أزور مسرحها لتنشيط سهرة موسيقيّة كلاسيكيّة، بمناسبة الأسبوع الثقافي الوطني الذي كانت الجزائر ضيفته، ليست بعيدة*. لم أسألك حتى عن الكذبة التي اخترعتِها لكي تتمكّني من مغادرة فرقتك؟ ومن سيعوّضك؟ *قلت لك فقط تعالي فأنا في منحة كتابة، أنتظرك*. لم أصدّق. ظننتها حماقة من حماقاتك. ثم ذهبت لاستقبالك ليلاً، في محطّة القطار، وأنا غير مصدّق. قلتِ وأنت تعانقينني: تروح منّي فين؟ ثم انغمسنا في قبلة مثقلة بدين سابق من البعد والفقدان.

---

١ ـ Gran Torino.

٢ ـ Clint Eastwood.

٣ ـ One million dollar baby!.

أحتاج أحيانًا إلى أن أنسى كلّ شيء، حتى نفسي، لأراني في مرآة الآخرين، وأخفّف عمّا أنا فيه. بجانبي جاري، لا يجد ما يأكله، أو آنيا الروسيّة التي كان يحزنك وجودها معي، طالبتي ثم زميلتي في التدريس، التي شُلّت نصفيًّا بعد حادث سير. مشتاقة فقط أن تحسّ بنفسها أنّها مالكة لجسدها، وأنّها قادرة على الحركة، لا للتسوّق، وارتياد المراقص والمسارح العالميّة التي كانت تأسرها، والركض المجنون وراء وهم الحياة، فهذا حلم لم يعد ممكنًا. آنيتا لم تعد تتجرأ على طلب ذلك. تتمنّى فقط الذهاب نحو النافذة لرؤية شروق الشمس أو غيابها. هل تدرين ما معنى ذلك كلّه؟ إنّه يصالحنا مع الحياة. وإذا لم يفعل ذلك، فهذا يعني أنّنا أغبياء ولا نستحقّ لا الحياة ولا السعادة.

أنا لا أحاول أن أخفّف عليك، ولكنّها رؤيتي للأشياء، في الحياة منذ فترة. تعمّقت لديّ أكثر، منذ خروجي من الغيبوبة. لا أفلح دائمًا، ولكنّي أبذل جهودًا كبيرة بهذا الاتّجاه، ولا أطلب من الحياة الشيء الكثير. وحياتك تكفيني الكتابة ونبض القلب لشخص أحبّه، ويمنحني مبرّرًا إضافيًّا للحياة. لا تصدّقيني إذا قلت لك إنّ الكتابة منحتني أجمل الأشياء، الحبّ، السفر، الهبل، التعرُّف على أناس في القارّات الأربع، حبّ الناس، ولا يهمّ إذا كوّنت لي أعداء خلال حرّيتي، فهم غير مهمّين في حياتي، وأجهد نفسي لأصل يومًا إلى قوّة عدم الردّ عليهم ولا إلى اعتبارهم. الحياة أجمل حظّ وأكبر اكتشاف. ربّما كان الله مثل عالم يكتشف دواءه بالصدفة. هكذا كان بالنسبة لمكتشف المضادّات الحيوية، هكذا كان أيضًا بالنسبة لنيوتن وهو يكتشف قانون الجاذبيّة، وهكذا كان بالنسبة لكالميت وغيران[1] وهما يكتشفان دواء السلّ بفعل السهو والنسيان والخطأ الصائب. ما يزال الله تحت دهشة الضوء، لأنّ الحياة هي الضوء نفسه. أنت تعيشين فيه لأنّك منه.

---

١ - Calmette et Guerin.

قد لا تكون محبّتي لك كافية، ولا تدّعي أنّها تمنحك النور كلّه، ولكنّها توقظك من حين لآخر على قبلة هاربة ومسروقة فقط لتقول لك: *يا مجنونة قومي، اليوم جميل ومن العبث تضييعه* كما كان يقول جاك بريفر عن يوم مشمس: *جميل هذا اليوم، ومن العبث تسليمه لربِّ العمل*[1]! قبل أن أعرفك، وأنا في تيه الحرّيّة، لو قيل لي إنّ امرأة حمقاء ستضعني على الحافّة وتفتّش قلبي عن آخره، ما كنت صدّقت! لكنّ ذلك حدث، وأنا سعيد بكلّ مخاطر هذه الحافّة، وأنا لا أدري لأيّ مسلك ستقودني. ربّما نحو الموت؟ لكنّي غير نادم، بل غير سائل. لأنّي في أدقّ لحظة صغيرة من عمري، سأقول *أشهد أنّي عشت ومنحت الحياة أيضًا لغيري*. الباقي غير مهمّ. فلا خلود في الدنيا إلاّ لنثار الأجسام.

قبل سنوات، كنت أظنّ أنّ العائلة هي كلّ شي، لكنّي عندما وقفت على الحافّة الأخيرة لم أر شيئًا آخر سوى عمر كان يُفترض أن أملأه جنونًا ولم أفعل. الباقي أمنحه ما أستطيع، لكنّ حياتي ملكي. وربّما مأساتي الكبيرة هي صراعي من أجل حرّيّتي، أحياناً أتوصّل إلى عيشها، وفي أحيان أخرى، أشعر بتعدٍّ قاسٍ عليها، فلا أعرف ماذا أفعل، لكنّي أصل دائمًا إلى إيجاد المسلك. لست من النوع الذي يستسلم وإلاّ لانتهيت منذ الطفولة الأولى.

كتبت عن طفولتي، وعن قسوة الفقر والحاجة، لا رغبة في ذلك. فقط لأدرك هول المسافة التي قطعها ذلك الطفل المهذّب والصغير والملعون أيضًا وهو يظنّ أنّ الدنيا لها حدود اسمها القرية. يحدث معي أحيانًا أن أقف في وسط أهمّ شارع في نيويورك، أو في لوس أنجلس، وحتى في باريس، أو في أمستردام، في باس ـ تير في الكاريبي، وتحت أمطارها الدافئة، في بيونس آيرس، أو وأنا أقطع بهو مطار طوكيو الذي لا ينتهي، أو وأنا أتعثّر عبر سور

---

١ ـ Jacques Prevert

الصين، أو حتى وأنا في عمق صخور الربع الخالي، هل يعقل أنّ كلّ هذا يحدث لذلك الطفل الذي لم يخرج من قريته إلاّ بصعوبة، وكان يظنّ أنّ كلّ سكّان المدن قتلة؟ وأنّه سيُسرق في أوّل لفّة، تحت البناية العملاقة. لا يا عمري، الدنيا تمنحنا هزّات لا نتصوَّرها في حياتنا، وحتى ولو لم أكن أنا، كانت حماقتك الجميلة، وفيض حرّيّتك يقودانك نحو شابّ أجمل، وأهمّ وأفضل من ذلك التروبادور التائه في مسالك الدنيا، ويمنحك الحياة التي تليق بك، ويمشي بك مسافة طويلة وجميلة نحو أجمل خفاياها.

ربّما أشياء كثيرة تغيب عنك الآن. عن حياتي، وحتى عن جنوني الذي يشغلك. لا تخافي، فأنا أحبّك، وكلّ كلمة قلتها لك، خرجت من قلبي. ويوم أشعر أنّ قلبي يكذب عليك، سأدفنه حيًّا كما كان يفعل الكورسيكيّون في ارتباطهم الأعمى بالصدق والوفاء، حتى ولو استعطفني عن خطئه ليلة بكاملها. لا يهمّ أن تنتفضي ضدّي لأنّي سرقت اسمك الأوّل، ولا يهمّ أن تكون مريم مصيدة كلّ النساء لأنّهنّ كلّهنّ يشبهنها، ولا تشبه واحدة منهنّ. المهمّ أن تشعري أنّ هناك رجلاً، في هذه الدنيا، يفكّر فيك بلا هوادة. وأنّ هذا الرجل وضع بين يديك عمراً مشحونًا بالخوف وبذاكرة لا تشتهي إلاّ أن تعيش. الباقي ليس مهمًّا.

هل تدرين الآن لماذا أنوي أن أكتب سيرتي مثلما أشتهيها؟ ببساطة لأنّي لا أريد أن أتركها بين يديْ أيّ شخص آخر غيري. لا أحد يعرف متاهاتي الداخليّة مثلي. يخيفني الكَتَبَة. لقد رأيت وجوههم التي أخافتني يومها في المقهى، لأنّها كانت وجوهًا لا أعرفها. وجوه شخوص عادوا من قبورهم، لا ليطلبوا مكانًا لهم بين الأحياء ولكن ليقتلوا كلّ من لا يشبههم. خرجت يومها من المقهى لأنّي خفت أن أتقيّأ، عادتي هذه لا تعرفينها فيَّ. عندما تصل الخيبة أقاصيها أتقيّأ. وعندما أتقيّأ تخرج مرارات كثيرة دفعة واحدة. خفت

يومها أن أموت قهراً أمامك، ولكنّي قاومت لا لأرضي أحداً، ولكن لأبقى حيًّا فقط. ربّما ارتكب الأنانيّون أهمّ خطأ في حياتهم أنَّهم نبّهوني لأحقادهم الدفينة تحت ركام الضغائن. لا أدري كيف ستكون العواقب، ولكنّ شيئًا فيَّ اندثر للمرّة الأخيرة، في ذلك المقهى، وربّما بشكل معلن ونهائي.

شيء مات فيَّ ولن يعود أبداً.

حبيبتي ليلي...

وجدت عنوانًا لسيرتي وأنا أعرف دلالته جيِّدًا: *عشتها كما اشتهتني!* ما رأيك؟ أتحدَّث عن الحياة طبعًا وليس عن امرأة. كان يمكن أن يكون: *عاشتني كما اشتهيتها*، ولكنّي في هذه الحالة سأكون رومانسيًّا كاذبًا. فالحياة لم تُمنح لي في طبق. فقد وصَلتْ عداوتي تجاهها أحيانًا حدّ التفكير في الانتحار. ولا حتى *عشتها كما اشتهيتها*، فهذه نرجسيّة تتجاوز قدراتي على التفكير. لا نعيش أبداً الحياة كما نريدها. لها نظامها الذي يقهرنا أحيانًا. كلّما انغلقت سبلها أعود إلى هشاشتي الأولى، وأنصتّ إلى الطفل الذي فيَّ، فهو لا يخذلني لأنّه خارج كلّ الأطماع. وكلّما انزلقت قليلاً عن الطريق وتضبّبت الرؤية في عيني، أعادني إليها وهو ينبّهني فقط بعينيه. لم أعد قادراً على فعل شيء أندم عليه بسرعة. لا العمر يسمح ولا الرغبة متوفّرة. كلّما انغلق المخّ، استرشدت بالطفل الذي فيَّ. عندما أتعب من الحياة، لن أُيَتِّمه، سآخذه معي. كنت طوال عمري مثل الفراشة، أركض بجنون نحو النور القاسي والقاتل، أخسر أحيانًا جلدة الوجه التي أتركها ورائي ملتصقة بزجاج القنديل، شعر الحاجبين من كثرة تفرّس قداسة النار، رؤوس الأصابع من فرط شهوة لمس ألسنة اللهب الأزرق. ولم تكن لديّ نظّارات واقية من النور المبهر والمعمي للأبصار؟ لم أكن ملاكًا أبداً، ولا حتى شيطانًا قادراً على شقاء. كنتُ

فقط أنا، لا أكثر... ولا أقلّ. حرّيّتي هي أكبر قيودي العنيفة وقد تقتلني يومًا. لقد حصلت عليها بمشقّة، فلا أريد فقدانها بسهولة. أنت جزء مهمّ من هذه الحرّيّة، من هنا أيضًا أزمتنا وجرحنا المشترك.

أتمنّى لك كلّ الراحة في الدنيا. لك في ملينا، ميراثنا المدهش والسرّي. أستطيع اليوم أن أشهد أنّنا مررنا على هذه الدنيا بسرعة تشبه سرعة الصواريخ العابرة للقارّات. كنّا نريد أن نعيش كلّ شيء، في اللحظة نفسها، وأن لا نخسر ثانية واحدة من جنوننا. لهذا لم نجد وقتًا كافيًا لنستمتع بها بالشكل الكافي. لكنّنا، على الرغم من ذلك، التهمنا كثيراً من الزمن الذي أعطى لحياتنا صدقها، ولأجسادنا فخر العيش الجميل. كبرنا ولكنّ جسدينا ظلاّ غضّين كتفّاح الحمقى. كلّما أغمضت عينيّ، رأيت نفسينا قد تجاوزنا بالكاد العشرين. تخيّلي؟ ربع قرن، بلا توقّف، من الحبّ والعذاب الجميل؟ تخيّليها للحظة أنّنا قضيناها في حياة زوجيّة باهتة ومليئة بالصدامات اليوميّة الغبيّة... ها... ها...؟

لا تحزني عمري عليّ. لقد تجاوزت مرحلة الخطر، لأنّي بكلّ بساطة انتفيت وبدأت أتحلّل وأتحوّل إلى نثار. لي أحلام، كلّ الدنيا لا تكفيها. أحتاج إلى حياتين متوازيتين لكي أكمل رحلتي. أشعر أحيانًا أنّني، بسرعتي هذه، عشت أكثر من قرنين. ولهذا ألحّ عليك أن لا تتركي أبداً ما يعطي لحياتك معنًى عميقًا: الموسيقى. اعزفي حبيبتي وحدك في الأوبرا، واسمعي إلى أنينك، أحسن من التشكّي والدخول في دائرة الموت مثل الآخرين. اخرجي كلّما كان ذلك ممكنًا، ولا ترهني حياتك بأحلام رجل وأوهامه، كيفما كان حتى ولو كنت أنا. لقد كنّا عاشقين جميلين، بلا يقين ولا ضجيج أبداً.

هل تعرفين شهوتي الكبيرة الآن ما هي؟

أن أجيء نحـوك، وأهديك وردة، وأنام على صـدرك قليـلاً، ثم أدعـوك لتنامي على صـدري أيضًـا، وأتركُني أتهادى شـيئًا فـشـيئًـا نحو مطر جـميـل يخفت كلّما لمست جسدك الحيّ، في شكل متواتر مع إغفاءتي ونومي. بعدها لن أطلب شيئًا آخر. أقبل الموت بصدر مفتوح على الدنيا.

أشـهـد الآن، بعـد كلّ هذا الزمن الـهـارب، أنّ وهران خـتـمت قـصّـتنا بالشـمع الأحمر. وصوتك العذب سكن الدم ولن يغادره أبداً.

ثرثـرت عليك لأنِّي كنت في حـاجـة لأن أُسْـمِـعَكِ مـا في قلبي وأنت قبـالتي، قرب الـنافذة الزجـاجـيّة الواسـعة المفـتوحة على أحد أطول جـسـور فينيسيا، تنظرين إليَّ، تتأمَّلين هذا الرجل الذي لا شيء سيقتله يومًا إلا شعلة لغته، التي يركض عبثًا وراءها.

لك عمري أصدق قبلة مسائية.

مـا زلت هنا في هذه المدينة السـاحرة التي انتابهـا الأجداد كالحلم، قبل أن يستعيدها من أعاد بناءها وإخراجها من عمق الوديان والبحر. أعرف جيّداً أنِّي خيّبت ظنّك هذه المرّة أيضًـا إذ فـضّلت السـفـر إلى فـينيسيا بدل مرافقتك في سـفـرتك، أو المجيء إلى حـافّتنا البـحـريّة في الجـزائر، لأنِّي سـأكـون الغـائب الأكـبـر على قلبك. ليكـن. عذري الوحـيـد هو أنِّي لا أريد أن أقـهـرك بسـفـرة مسروقة، ثم أعود راكضًا صوب فراغ كلّ يوم يزداد اتّساعًا.

من ليلي إلى سينو

غرناطة، شتاء ٢٠٠٩

سينو الحبيب.

سعيدة من أجلك. قد يكون من المبكّر جداً كتابة سيرة ذاتيّة. أمامك عمر آخر ستعيشه طويلاً، ولكنّي أدرك انشغالك القوي. ثم إنّ البقاء في فينيسيا كلّ هذه المدّة سيخرجك من دوائر الخوف. أنا سعيدة لكلّ هذه الغبطة التي أعادتك إلى الحياة أكثر قوّة، بدل أن ترميك في دهاليز الخوف والارتكان إلى الموت.

سأتركك لهدوئك في فينيسيا، ولا أريد أن أنغّص عليك وأنت في مدينة ستعيدك إلى طفولتك ومائك. أشعر أنّك سعيد ولم يدخلك ملل المدن، لأنّك في مكان يخرج عن العادي.

صدّقني حبيبي أنّي حزنت على ما حدث لآنيتا المسكينة، حتى أنّي بدوت لنفسي، في لحظة من اللحظات، في أقصى درجات القبح. الدنيا ظالمة

وأتمنّى أن تعذرني على كلّ حماقاتي تجاهها. غيرتي هي التي وضعتني في مسالك الجنون والكراهية. لا أدري لماذا علينا أن نفقد الناس لنعاود النظر إليهم بشكل آخر، أكثر حبًّا وتسامحًا؟ لا أعرف، ولكنِّي حزينة على جمالها وجسدها المفتوح على أقاصي الجنون والحياة. أنا متأكّدة من أنَّها ستجد نظامًا آخر لحياتها لا يفقدها رغبتها في أن تكون كما تشتهي.

حياتي تغيَّرت قليلاً، عليّ أن أنظر للأشياء المحيطة بي نظرة أخرى. كان عليّ أن أتخيَّلك في غيبوبة طويلة لأستطيع أن أفهم لماذا سرقت منّي مريم كلّ حياتي. يبدو لي أنِّي بدأت أنتصر عليها. فقد مرّضتني حبيبي. وعليّ أن أظلّ بعيدة عنك قليلاً لأقتنع أنّك خرجت من حياتي دون أن تغادر قلبي، وأتمكّن من تجاوز مريم. لقد قتلتني ومحتني، وكان عليّ أن أكون هكذا حتى ولو تألّمت قليلاً، ولكنِّي انفصلت عنها وأصبحت أراها، وأنظر إليها بشفقة.

قلت في نفسي، أوّل ما فتحت هذه الحرب، إنِّي يوم أتوصّل إلى أن أطلق النار على مريم، سأعود إليك كما أريد. لا تسألني اليوم عمّا أنا فاعلة. في رأسي شبكة عنكبوت. أحتاج إلى وقت كبير لتفكيك كلّ خيوطها وعقدها.

سينو حبيبي،

ما زلت أعيش على توقيتك الصعب، والمستحيل أحيانًا.

عندما دُعيت، مثلك لم أرفض. أنا في صيف غرناطة الأندلسي مع فرقة إسبانيّة. الشباب الذين فيها رائعون. اشتهيت أن أخبرك لتأتي، ولكنِّي فضّلت أن أعود إلى أعماقي، كما قلت لك لأتمكّن من تمزيق كلّ تلك الغشاوة التي أصبحت تؤذيني ولم أعد قادرة على تحمُّلها، خصوصًا بعد مرضك. تخيَّل، في ثانية واحدة أحسست بنفسي لا شيء. لا أملك حتى حقّ قول ما

يحقّ لأيّ إنسان أن يقوله. أن أزورك في مستشفاك كما يفعل جميع البشر؟ أن أقبِّلك بدون خشية من العسس المحيط؟ أن أمدّ رأسي وأتركك تمسّد على شعري، وتفتِّش جسدي للحظة أخيرة؟ مثل المحكوم عليه بالإعدام كنتُ، مع وقف التنفيذ الموقّت، ليس له حتى حقّ الأمنية الأخيرة التي تُمنح عادة للمحكومين قبل أن يُعدموا.

هل لي أن أقول لك حبيبي، إنِّي شعرت بنفسي فجأة أنِّي لست أكثر من غيمة هاربة، وأنَّك لم تكن أكثر من سراب؟ قاسٍ هذا الكلام، ولكنّه أيضًا حقيقي.

هي أنا، امرأة لم تتعوَّد على رؤيتها. هل تظنّ أنِّي أرفض أن أمارس معك جنوننا المعتاد في مدينة بحريّة ستقيم بها شهراً بكامله؟ لا حبيبي. لم آتِ إلى فينيسيا لأنِّي فضّلت أن أكون وحيدة، وأتركك مع أشواقك، ربّما استطعت استرجاع لزعر الحمصي الهارب منك، بسهولة أكثر. ربّما التقيت بعزيز وهو يضحك من آخر نكتة قلتها له. ربّما رأيت والدك الذي لم تشبع من وجهه قبل أن تسرقه التربة منك. ربّما صادفت جدّتك ونمت في حجرها على وقع حكاية مخطوطة جدّك الأندلسي. ربّما رأيت ماما ميزار وهي تداوي جرحها المفتوح بتربة القرية ونشار الحصاد.... أريدك أن تجد في سكينتك المفقودة، وفي هدأتك الجميلة، كلّ ما سرقته الحياة منك في غفلة من نباهتك.

أنا أيضًا، حبيبي، أعيش وضعًا نفسيًّا صعبًا أعادني إلى نفسي منذ أن تصوَّرت أنِّي فقدتك. قلت لك في رسائل سابقة الإحساس الغريب الذي انتابني وكيف وجدت نفسي وحيدة. لا تستغرب أرجوك! حتى رياض لم يعد يبدو لي عدوًّا، مجرّد ضحيّة من ضحايا جنوني. سأحرِّره أو سأتحرَّر منه، لأنَّنا لم نعد نصلح لبعضنا البعض. لقد غرق حتى الآذان في وحل الكارتيل. يتحدَّث عن القتل والانقلابات مثل الذي يتحدَّث عن أشياء طارئة في حياة أيّ

إنسان عادي. المشكلة أنّه يهدِّدني بشكل غير مباشر بيونس وملينا. في قضيّة ابنيَّ لا تسامح أبداً. أستطيع أن أرتكب جريمة الأمومة بلا تردُّد. لا أرى حياتي خارجهما. عليك أن تقبل منِّي هذا التحوُّل الذي لم أعد أنا سيِّدته. إنّ الحرائق التي في داخلي تزداد كلّ يوم اتّساعًا. شيء فيَّ انكسر بقوّة مثل البلّور ولم يبق منه إلاّ فتات يسير من الصعب تجبيره. أحتاج إلى قوّة العزلة والانفصال عن كلّ شيء، لأتمكَّن من إيجاد توازن مقبول، لم أعد قادرة على تحقيقه.

مريم ليست رهانًا فقط، ولكنَّها الحياة المسروقة نفسها.

قلتَ لي ذات مرّة وأنت تسخر منِّي كعادتك:

ـ *أيّ مريم يا مهبولة؟ كلّ مريمات الدنيا لا يساوين دمعة واحدة تنزل من عينيك. مريم ليست إلاّ استعارة للعجز المستشري في محيطنا. عجزنا، وجانبنا الخفي الذي نريده جميلاً، ولكنّ قوّة طاغية تسحقه أمام أعيننا بدون أن نستطيع فعل أيّ شيء... مريم قناعنا ضدّ حياة ليست سهلة ووجوه قاتلة تنتظرنا في الجانب الخلفي من جنوننا.*

ضحكت يومها، وأنا لا أعرف بماذا أجيبك، ولا كيف أربك صدقك. لكنِّي أستطيع حبيبي اليوم أن أقول لك بلا أدنى تردُّد:

ـ لا يا عمري... لا. مريم كفَّتْ عن أن تكون مجرّد امرأة من ورق يمكن أن نحرقه متى شئنا، لقد أصبحت سلطة، وصرنا أنا وأنتَ أوراقًا في يديها. تفعل ما تشاء بنا وبأسرارنا. تدخل كل البيوت والقلوب بلا استئذان. الجميع يعرفها. من يعرف ليلى القابعة في مكان ما من هذه الأرض؟ من يعرف أحزانها ونزفها؟ من يعرف أنَّها هي أصل الأشياء؟ امرأة الظلّ حبيبي، لا أكثر. أنت نفسك لا تستطيع أن تعلن عن حبّك لها كما يفعل الجميع،

وتقول إنَّها هي التي تعطي معنًى جميلاً لحياتي... صحيح أنَّك تخاف عليَّ من قتلة الكارتيل، ولكنّك تخاف أيضًا على نظامك الذي شيَّدته على مدار ربع قرن من المثابرة. تخاف من إرباك هاجر وماسي وصافو. ربّما كنتُ فعلتُ الشيء نفسه لو وجدتُني في وضعك. معك حقّ. استرح قليلاً عمري، اخرج من الكتابة للحظة، وتوجّه نحو الحياة فقط لتراني وتتأكّد من أنِّي لست مريم. ليلى، أو ليلي حبيبتك التي باعت الدنيا للشيطان مقابل أن تستعيدك. إحساس غريب تربّى فيَّ منذ أن زرتك في باريس، وأنت تحت رحمة الأنابيب التي كانت تربطك بالحياة. كانوا خائفين على كلّ شيء فيك: قلبك الخافت، تنفُّسك الذي ضاق فجأة، حركتك التي ماتت، صوتك الذي انطفأ، ولم يكن أحد يعلم أنّك علّقت حياتك كلّها في انتظار امرأة ستأتيك من وهران، حاملة في يديها قرابين الحياة. لقد صلّيت من أجلك كثيراً وطلبت من اللّه أن ينتزع من عمري ثلثه، نصفه، كلّه إذا شاء، ويمنحه لك.

لا أدري ماذا أقول لك حبيبي؟ جرحك يتوغّل فيَّ بعمق وبلا نهايات.

أشعر كأنّه علينا أن نوقف كلّ هذا الوضع بواحد من الحلّين، إمّا أن نرمي كلّ شيء وراءنا ونركب سفينة تتّجه بنا إلى آخر الدنيا، وهناك نقضي ما تبقّى من العمر معًا، أو نختار الحلّ الأنسب والأقرب إلى العقل، ونُخرج مريم من بيتنا ومن كتبنا ومن ذاكرتنا، ونعود إلى أنفسنا كما اشتهينا. نحرق الأقنعة ونواجه الأشياء بشجاعة حقيقيّة وليس بالاستعارات؟

لقد استفادت مريم من جسدك، وعاشته داخل اللغة، بالمتعة التي اشتهتها وبالشكل الذي أرادته، وعشتُ معك اللحظة نفسها، ولكن بكلّ مآسي الاغتصاب المتكرّر، الذي أدفع ثمنه كلّ مساء مع رياض أو مع أشباحك. أعطتك هي أيضًا طفلين، ولم تفعل أكثر ممّا فعلتُ، ولكنّها ظلّت داخل متعة الجمل والنعوت والاستعارات والبلاغة المدهشة، وظللت أنا داخل المتعة التي

تتخفّى وراءها جهنّم وأسئلة الرعب. أقول أحيانًا: ماذا لو يُجنّ رياض ويذهب نحو مركز التحاليل من أجل اختبار ADN ملينا، ليرتاح من شكوكه؟ معه حقّ، يجب أن تذهب أمواله نحو ابنيه البيولوجيّين. يحدّثني أحيانًا عن مشكلة توريث كلّ أمواله وعقاراته. عندما أقول له: يونس وملينا، يلتفت صوب بياض الحائط ولا يقول أيّة كلمة. أحيانًا أقول لنفسي: لمَ الخوف من شيء مارسته بعينين مفتوحتين؟ ليفعل الكارتيل ما يشاء، ربّما حرّرني من ثقل كذبة لا أدري إذا كنت قادرة على الاستمرار فيها. هناك شيء غير عادل وضعته الطبيعة في طريقنا وحاصرتنا به. ولداك منك ومن هاجر، ومن حقّك أن تسعد بهما، لكن أنا... ملينا ابنتنا المشتركة، ولا علاقة لها برياض سوى أنّه زوج أمّها. ربّما حاسّة الشمّ تشتغل فيه بقوّة مثل حيوان برّيّ، عندما يشعر فجأة أنّ الأبناء الذين يرضعهم ليسوا له، لا يتوانى عن أكلهم أو تمزيقهم، كما تفعل القطط والنمور عادة. وحياتك آكل رأسه ورأس الكارتيل الذي ينتمي إليه، قبل أن يمسّها بأذًى.

حبيبي،

هل بردتْ شعلتنا؟

لا أعتقد، ولكنّ شيئًا انكسر أعطاني الإحساس بأنّك سلّمت أمرك للدنيا.

لا طلب لي اليوم لكي نستمرّ إلاّ أن تحضر معي جنازة مريم الورقيّة، لكي نستطيع أن نستمرّ سويًّا، وأستطيع أنا أن أعيش بجانبك عالية الرأس وليس كسارقة. مريم التي خرجت من نطفة مجنونة منك آن لها أن تخرج من حياتك، أن تذهب للمرّة الأخيرة نحو أقرب متحف تنام فيه. ستقول لي، للمرّة المليون، إنّها مجرّد لغة، وأقول للمرّة المليون أيضًا: لا. لا يا عمري. بهذه اللغة، تمنحها فرصة الاستمرار بيننا. ستجد لذّة لا تضاهى لتنام في سريرنا، وتعيش على

صمتك وتواطئك غير المعلن معها. بقدر ما تمنح الحياة لها، تقتلني، لأنّها تشبهني وليست أنا. تحسّسني دومًا بحريّة المرأة الورقيّة المطلقة، وبعقدة استحالة أن أكونها. بالتحليق بعيداً داخل ألوان السماء، وبقائي مسمّرة على أديم أرض احترقت منذ قرون وأصبحتُ جزءاً صغيراً من رمادها.

هذه هي الحقيقة التي تنتابني الآن وأتماهى فيها، فلا تغضب منّي حبيبي.

كما تلاحظ، لم أنس شيئًا من تفاصيلنا الحياتيّة. الذاكرة تتّقد لحظة الخيبة والانكسار، وتنام مثلنا عندما نسكرها بنبيذ السعادة والأشواق الجميلة. في مرّة من المرّات قلتَ لي: اعزفي حبيبتي كلّ المقاطع التي تحبّين، ولكن أكتبي أيضًا، فأنتِ تملكين حاسّة جميلة وعميقة للكتابة. اكتبي. صمتُّ، لا لأنّي عاجزة عن الكتابة، فقد ابتُليت بأبجديّتك ولغتك منذ زمن بعيد، ولكنّي كنت أنتظر البركان العاصف الذي يعيدني إلى مجرى النهر. أشعر اليوم، بعد كلّ هذه القنابل الموقوتة التي تنفجر في داخلي، الواحدة تلو الأخرى، أنّي بدأت أعود إلى مياهي الطبيعيّة. ها أنا ذي أكتب لكن، في غيابك لكي أستطيع أن أكون.

أعتذر أنّي خسرت مواعيد كثيرة معك، وكان أهمّها موعد فينيسيا. ليس مهمًّا. أنا أحسّ أحيانًا أنّي خسرت موعداً أهمّ من هذا كلّه: يوم صدّقت أنّي مريم، فسلّمت لها شأني. قبل أن تتمادى لتصبح هي السيّدة بلا منازع في بيتي وفي محيطي، وأتحوّل أنا إلى مجرّد امرأة مقتولة، تعيش في ظلال جنونها.

سيني *الغالي*...

امنحني حبيبي فقط فرصة قتل مريم الورق والخمائر، لكي أستطيع أن أعيش معك بقيّة عمري، مثلما أحلم، وبالشكل الذي نريده. ولا تسألني

لماذا؟ الإجابة عندك، ولم تعد اليوم تهمُّ كثيراً. لك الإجابات كلّها، في ربع قرن من الخوف، والصمت، والأقنعة الكثيرة التي أستطيع اليوم أن أفتح متحفًا خاصًّا بها.

ربع قرن من الصبر والتناسي.

ربع قرن... باسطا[1] حبيبي... باسطا.

١ ـ أصل الكلمة إسباني Basta وتعني: يكفي... يكفي...

07h 07mn 07s

- ١ -

«باسطا عمري... باسطا... باسطا».

أخيراً تحوَّل الجنون إلى حقيقة.

رتّبت كلّ شيء قبل مغادرة السكريتوريوم. كدت أنسى الغلاف الذي يحوي وثيقة ***مخبر النجاح*** للتحاليل، المقابل للبريد. ليس مهمًّا، ولكن عليَّ أن أعرف وضعيّة هذه الرحم التي قالت عنها الطبيبة منتفخة بشكل غير عادي، وكأنّ كلّ معضلاتي اليوميّة الأخرى لم تكن كافية أبداً.

المسدّس أصبح الآن في حوزتي. لم يعد لمسه ولا حتى حمله يزعجني على الرغم من ثقله الواضح. سبع رصاصات، فهو إذن لا يساوي فقط وزنه، بل شيئاً أثقل من ذلك؟

شعرت وأنا أرى كومة الأوراق المسحوبة، والمصوّرة، والمكتوبة، والرسائل، والصور، التي انتظمت في شكل كتاب، كأنّ عمراً بكامله

اختُزل في لحظة مسروقة من الحياة. تحوَّل كلّ الجنون الذي كان بداخلي في شكل حرائق، إلى شيء يشبه المدوّنة. مدوّنة امرأة الظلّ التي قادتها غيبوبة حبيبها الحقيقيّة أو المفترضة، لا يهمّ، إلى رهافة في الحسّ، ورغبة فيّاضة لتفتيش داخلها بقسوة.

الشمس على عتبات التجلّي النهائي.

وضعت المائتين وخمسين صفحة داخل الغلاف الكبير الذي أحضرته خصّيصًا لهذا الغرض. تحسّسته قليلاً، وزنته في يدي، ثم أغلقته بإحكام. كتبت اسم سفيان وعنوانه في متحف ستيدل، بفرانكفورت، حيث يعمل كخبير في الفنّ البصري، مع احتفاظه باشتغاله في مجال الكتاب كناشر ألماني ـ عربي يهتمّ بترجمة الكتب الفنّيّة والإبداعيّة. عنوان المتحف أضمن من عنوان دار النشر، كما أكَّد لي سفيان نفسه في آخر مكالمة بيننا.

K. Sofiane.
Stadel Museum.
Schaumainkai. 63. 60596. Frankfurt am Main.

نظرت إلى الساعة للمرّة الأخيرة.

استغربت مرّة أخرى من اصطفاف الأرقام نفسها، في خطّ مستقيم. حالة أصبحت تتكرّر معي كثيراً **07h... 07mn... 07s**. إنّه وقت الحماقة الذي تحدَّث عنه الأجداد القدامى عندما تصطفّ الأشياء المتشابهة، وعندما تتقاطع كلّ الأرقام في خطّ واحد. فكّرت أنَّ أكتب رسالة أخيرة لسينو أحدّثه فيها عن هذه الصدفة، ولكنّي تراجعت. استدركت في اللحظة نفسها أنّي انتهيت من كتاب، لم يكن في النهاية إلاّ رسالة طويلة. ثم إنّي، وللمرّة الأولى، لم أر جدوى للكتابة له.

كان السكريتوريوم هادئًا بعد كلّ هذه العاصفة النوويّة الداخليّة التي عشتها. بدأت الأشكال كلّها تظهر بوضوح كبير بعد أن تسرّبت شلاّلات النور من كلّ الجهات. ظهر الكمان كاملاً خلف الكمبيوتر، ولمع المسدّس بقوّة تحت الشعاع الفضّيّ المتسرِّب من الكوّة. فكَّرت في مريم لحظة، ثم تسلَّلت يدي باستقامة، وبلا تردُّد، نحو المسدّس للمرّة الأخيرة.

لم أمنع نفسي من التشاؤم وأنا أرى أرقام الساعة مسطّرة بهذا الشكل.

فجأة، أعادتني استقامة الأرقام، هذه المرّة، إلى الرقم الأوّل الذي تلألأ في خطّ واضح، عندما جلست خلف الكمبيوتر، ورفعت رأسي لأوّل مرّة صوب الساعة التي كان الزمن فيها يبدو مستكينًا وثابتًا **04h... 04mn... 04s**. لم أفهم وقتها دهشتي وتساؤلاتي. لم تكن الأرقام المنتظمة والمتشابهة، إلاّ عيد ميلادي الذي غاب عنّي فجأة، من شدّة ارتباطي باللحظة القاسية التي كانت تخترقني. فأنا وُلدت في اليوم الرابع من الشهر الرابع. كنت بالضبط، نصف سينو بالمقياس التنجيمي والديني. فقد وُلد هو في اليوم الثامن من الشهر الثامن.

نسيت أنّ حياتي شارفت بسرعة نحو النصف قرن، وانفتحت عيناي بقوّة على لحظة الخروج الصعب من دنيا لم تكن دائمًا طيِّبة، وكما أشتهيها.

ولهذا عمري، اعذرني. باسطا... باسطا.

- ٢ -

- يا يمّا؟ مرّة أخرى؟ أين كانت كلّ هذه البليّة؟

وأنا أعبر بهو السكريتوريوم الضيّق، سمعت طنين الذبابة التي كانت تفسد عليَّ هدوئي. بحثت عنها بعينيّ، ولكنِّي لم أرها. تحسّست

صوتها بصمت القبور، ولكنّي لم أسمع شيئًا من طنينها، وكأنّها كانت تلعب معي لعبة القطّ والفأر.

رأيت نفسي في المرآة للمرّة الأخيرة، قبل الخروج.

لم أختر ذلك عن سبق إصرار وترصّد، ولكنّي وقفت وجهًا لوجه أمامها. تأمّلت ملامحي الهاربة طويلاً. كنت بدون أيّة مساحيق. أريد أن أراني قبل أن أخرج من السكريتوريوم، مثلما أنا. لباسي البنفسجي الجميل. تذكّرت مريم، المولعة بمرايا الآخرين. رتّبت شعري، مسحت على وجهي، بالضغط عليه قليلاً لكي يسترجع حمرته الهاربة، ثم حككت عينيَّ بهدوء لكي أنزع كلّ الثقل الذي نزل عليهما من قلّة النوم. فجأة رأيت أنّ وجهي الذي بدا مرتبكًا لم يكن يشبهني، أو على الأقلّ هكذا شعرت.

كانت ملامحي غريبة، لا تستقرّ على قرار. تتحرّك باستمرار كالموجات النيليّة التي تتهادى مدًّا وجزرًا. تغيب وتظهر كسحب هاربة، تنكسر وتتداخل. شعرت بدوار غريب. ربّما كان التعب هو السبب. أغمضت عينيّ قليلاً، ثم فتحتهما، ولكنّ الوضع لم يتغيّر. كان وجهي خليطًا منّي، ومن وجه امرأة مبهمة. امرأة من ضباب وألوان، اختلط فيها الأحمر بالأسود، والبنفسجي بالأزرق النيلي. لأوّل مرّة أدرك أنّي لم أكن أعرف وجه مريم. لم أرها ولا مرّة واحدة في حياتي. فجأة رأيت بعض ملامح سينو تختلط بوجهي. كان متعبًا هو أيضًا. ثم سمعت الذبابة الزرقاء المجنّحة التي احتلّت الخلفيّة. رأيتها تدخل في عمق المرآة. كانت كبيرة. ذبابة اللحم كما كانت تسمّيها جدّتي، التي كلّما التصقت بشيء، أفسدته. أكْره أنواع الذباب إليّ. لم أستطع أن أفصل بين الوجوه كلّها، ولا حتى بين الأشكال التي تداخلت فيما بينها كلوحة زيتيّة

عُومِّتْ ألوانها في الماء. أغمضت عينيّ مرّة أخرى لأتفادى الدوار، لكنّي عندما فتحتهما، كانت الألوان والأشكال الغامضة ما تزال تتقاطع في حركة تشبه الموج المتهادي. من حين لآخر تنفصل عن بعضها البعض، قبل أن تتلاقى وتتداخل من جديد. ثم تتبعثر مرّة أخرى في شكل دوائر، وتتحلّل إلى نقاط صغيرة، سرعان ما تعود إلى التشكُّل من جديد، مع الطنين الذي لم يتوقّف أبداً. كانت الأرض تميد من تحت رجليَّ.

انتظرت قليلاً حتى ثبت كلّ شيء، ورأيت وجهي في صفائه الكامل. لكنّ سعادتي لم تطل كثيراً. فقد أزاحه وجه امرأة أخرى تأكّدتُ هذه المرّة من أنّه وجه مريم، بملامحه الواضحة، وخطوطه الإسبانيّة القريبة من الغجر، وشعرها المبعثر في الفراغات، نعومتها الكبيرة، ابتسامتها الجميلة، وضحكتها التي سرعان ما تحوّلت إلى زعيق مفجع يشبه صرخة الشيطان عندما يستولي على روح مسالمة، أو يتخلّص الجسد المريض من وجوده. هذه المرّة كنت متأكّدة من أنّها كانت هي ولا أحد غيرها. انتابتني رجفة غريبة. فرحت لشيء واحد. كانت في قبضتي. شعرت فجأة بالسعادة والانتشاء. لم يربكني أيّ خوف، ولا حتى من الشيطان نفسه الذي كان فيَّ، أو ربّما كنتُه أنا بنفسي.

كلّ شيء مرّ بسرعة. لا أدري ماذا حدث لي بالضبط لحظتها، إذ لم يكن لديّ وقت كافٍ للتأمُّل والتفكير. ثبّتُّ قدميّ بقوّة في الأرض التي كانت تميد من حين لآخر. ضغطت على كامل جسمي لألصقه بالمكان نهائيًّا. حبست أنفاسي للحظة. أغمضت عينيّ لكي أتفادى مشهد الدم. تهادى إليَّ صوت رياض وهو يأخذ بيدي في ساحة التدريبات في مركز الشرطة:

« ـ يجب أن تتعلّمي كيف تحمين نفسك وأولادك من القتلة. لقد أصبحنا نعيش في غابة. قوّة المسدّس بريتا برابللوم ٩ ملّمتر، تكمن في تثبيت اليد والنفس والجسم. ليس مثل ميكرو عوزي. سرعة الرصاصة لحظة الخروج هي ٣٥٠ متراً في الثانية، ولك أن تتخيّلي الفجوة التي يحدثها في الجسم. هل تعرفين ماذا تعني كلمة برابللوم Parabellum؟ أصلها من مَثَل لاتيني يقول: Si Vis Pacem, para bellum، التي تعني *إذا أردتَ السلام، حضِّر الحرب*».

أطلقت على وجهها خمس رصاصات متتالية. حسبتها ذهنيًّا على الرغم من سرعتها... واحدة.... اثنتان.... ثلاث... أربع... خمس رصاصات... فجأة سمعت طنين الذبابة وهي تتهاوى محدثة صوتاً يشبه أزيز طائرة حربيّة تسقط من الأعالي، وترتطم بقوّة على أديم الأرض. ثم شخيراً قريباً من شخير إنسان في حالة احتضار. ثم رأيت بخاراً أبيض وأسود وبنفسجيًّا وأزرق، يصعد من عمق المرآة. كنت جامدة في مكاني كصخرة باردة. تمايل زجاج الخزانة المتشقِّق، في مكانه قليلاً، قبل أن يفقد تماسكه ويتساقط. في كسور اللحظة نفسها، لمحتُ بالكاد، جزءاً صغيراً من وجه سينو وهو يتهاوى قطعةً، قطعةً، قبل أن ينتهي مع آخر قطعة زجاج نزلت من المرآة، مخلّفة وراءها خمسة ثقوب مرسومة بإتقان على واجهتها الخشبيّة. أعدتُ عدّها مرّة أخرى.

ثم لم أر شيئًا آخر، إذ عاد الصمت من جديد وكأنّ شيئًا لم يحدث. تحسّست برؤوس أصابعي الثقوب الخمسة. كانت كلّها ساخنة.

الغريب أنِّي لم أشعر بأيّ ندم. صحيح أنِّي لم أر أيّ دم يسيل، ولكنِّي على يقين من أنِّي قتلت الثلاثة، في لحظة واحدة: مريم وسينو، وحتى الذبابة الزرقاء التي احتلّت المكان أيضاً بالصدفة.

كنت متأكِّدة من شيء واحد هو أنّه لا أحد غيري سمع صوت الرصاصات الخمس، التي اخترقت الخزانة بعنف شديد. ***السكريتوريوم*** كان مثل المخبأ النووي، محصّناً من كلّ الجهات، لهذا لم أكن خائفة من أيّ شيء.

تذكَّرت في اللحظة نفسها كلمة أخرى لرياض:

«ـ احذري! مسدّس فارغ مثل الحجرة اليابسة، لا يساوي إلاّ ثقله».

ليس فارغًا، ولم يتحوَّل إلى حجرة يابسة. بقيتْ رصاصتان. كان ساخنًا. رميته في حقيبتي اليدويّة، من يدري؟ نحن في غابة، والموت في كلّ مكان.

خرجت وأنا في انتشاء جميل.

عندما تخطَّيت عتبة البيت، اكتشفت فجأة أنّي بالفعل لم أكن مريم، ولكنِّي لم أكن ليلى أيضًا، ولا حتى ليلي، دلّوعة باباها وحبيبته. كنت شخصًا ثالثًا. لكنِّي كنت أفضل حالاً من أيّ وقت مضى. خفيفة وسعيدة، بعد أن أنهيت تعبًا وشقاء كبيرين كانا في طريقي.

المرّة الأولى في حياتي التي لم أفكِّر فيها إلاّ بنفسي.

لم أر إلاّ البياض الذي محا من مخيّلتي كلّ شيء، حتى سينو.

ـ ٣ ـ

في الخارج، كانت السماء زرقاء.

لمعت الشمس المغسولة التي أصبحت فضّيّة بقوّة. خرجت هذه المرّة لأدافع عن حقّي في المعصية والحياة وبعض الجنون. نصف ساعة قبل

أن يفتح البريد لأبعث بالكتاب، وربع ساعة بالضبط قبل أن يفتح مركز التحاليل الطبّيّة أبوابه لأستلم نتائج التحليلات الرحميّة.

تدحرجت قليلاً حتى وصلت إلى ***مخبر النجاح***. كان قد بدأ يستقبل زبائنه. منذ أن اشترى أحد الخواصّ هذا المخبر الذي كان تابعًا للمستشفى، تغيّرت أشياء كثيرة فيه، خصوصًا دقّة المواعيد. أحسن.

كنت سعيدة أنّي لم أنتظر طويلاً. سلّمتني الموظّفة مظروف التحاليل، وهي تنصحني بضرورة زيارة طبيبي الخاصّ بأسرع ما يمكن. مثل هذه الأمراض لا تتحمَّل الانتظار، قالت بصوت يكاد لا يُسمع. سألتها بعفويّة، وربّما بغباء أيضًا:

ـ هل هناك ما يستوجب ذلك الآن؟

ـ في أقرب وقت ممكن. تعرفين أن الرحم مكان حسّاس.

وأنا في الشارع، استرددت أنفاسي من جديد.

ـ واش عرّفها بما تقوله؟ مجرّد ممرّضة، تعطي لنفسها حقّ طبيبة مختصّة؟ سأرى مع طبيبي بعدما أنتهي من البريد.

طمأنت نفسي كما اشتهيت.

لم يكن لديّ أيّ حلم آخر إلاّ وصول هذا الكتاب إلى البريد المسجّل، ليذهب إلى فرنكفورت، ومنها إلى بيروت. كنت مستعدّة لتحمُّل أسئلة عامل البريد وثقل دمه: ***ما هي المحتويات؟ لماذا أتعبت نفسك يا مدام؟ كلّ هذه الرسالة؟*** ... فأجيبه بشكل آلي وغبي أيضًا، كما تعوّدت أن أفعل معه: ***مجرّد أوراق مرقونة على الكمبيوتر. مخطوطة إذا شئتَ***. يردّ وهو يكتم بصعوبة ردّة فعله المعهودة: ***يا مدام لماذا تصرّين على إتعاب نفسك دائمًا؟ كان يمكن ...***

عندما دخلت إلى البريد المركزي، حصل بالضبط ما توقّعته، وربّما ما كنت أهابه. كنت على رأس الطابور.

- صباح الخير خويا. طرْد من الأوراق المكتوبة. مخطوط يعني. . .

- صباح الخير يا مدام. كيف الأحوال؟

- الحمد للّه.

ثم نظر إلى الطرد مليًّا. قرأ العنوان بلغة ألمانيّة مضبوطة تمامًا. فوجئت أنّه كان يعرف اللغة الألمانيّة بامتياز.

K. Sofiane.

Stadel Museum.

Schaumainkai. 63. 60596. Frankfurt am Main.

- نسيت فقط أن تضعي كلمة **Germany** لأنّك تظنّين أنّ كلّ الجزائريّين يعرفون أين تقع فرانكفورت؟. . . قلتها لك وأعيدها عليك مرّة أخرى، لماذا كلّ هذه المتاعب يا مدام؟ بإمكانك أن تبعثي بالمخطوطة مباشرة عن طريق الأنترنت والإيميل، بواسطة الملفّ المرفق **Attach. Files**، كما يفعل جميع البشر في زماننا. الأنترنت يوفّر لك الراحة والوقت، ولا يكلّفك شيئًا.

- المشكلة أنّي لست مثل جميع بشر زماننا.

_Vous plaisantez! En fichier attaché, un geste aussi simple, le courrier arrive au récépteur en un clin d'oeil.

- Je le sais bien. C'est juste un désir de ne pas ressembler aux autres qui penchent vers la vie facile, et d'être soi-même et de porter son propre parfum, sa propre touche. Je ne veux ressembler qu'à

moi-même. J'en ai assez, de ceder mon identité et mon territoire[1] à autrui.

ـ ما دخلي بالهويّة والأرض؟ كنت أريد فقط تسهيل المهمة عليك، لا أكثر.

ـ يكثّر خيرك. في نظرك، من أكون؟ ما هو اسمي؟

ـ مدام؟! اللّه يسامحك. أعرف القراءة والكتابة. لست أمّيًّا، وإلاّ ما وُضِعتُ في هذا المكان. حامل شهادة ماجستير، وأحضّر دكتوراه في الاقتصاد السياسي. لكنّ بلادنا تعلّمنا، ثم تفقّس بطّالين. أنا أيضًا سيطفح الكيل عليّ ذات يوم، وأترك كل شيء في مكانه بلا أدنى ندم، وأصبح مجرّد رسالة يرميها أهلي في هذا البريد بالذات، أو يستلمونها منه.

ـ سألتكَ من أكون ولم تجبني؟

ـ تريدين أن تعرفي كلّ شيء؟ طيِّب. ليلى يا سيِّدتي، أو ليلي في لغة المقرّبين. عازفة الكمان بالفرقة الفيلارمونيّة الوطنيّة التي كسرها القتلة، وتعيدون بناءها بصعوبة مع فرق أجنبيّة. زوجة تاجر كبير، عابر للقارّات مثل الصاروخ. يتاجر في كلّ شيء، حتى في أعضاء البشر، مثل بقيّة عناصر الكارتيل الذين يعبثون بخيرات هذه البلاد. اسمحي لي يا مدام... الحقيقة مضرّة كثيرًا... أنت أفضل منه، واللّه ما يسوى شعرة

١ ـ بواسطة الملفَ المرفق، لا يوجد أسهل من ذلك. البريد يصل في أقلّ من رمشة عين إلى المستقبل.

ـ أعرف جيِّداً ذلك. ولكنّها مجرّد رغبة في الاختلاف عن الآخرين الذين يميلون نحو الحياة السهلة. أريد فقط أن أكون أنا، بعطري وملمسي. لا أريد أن أشبه إلاّ نفسي. لقد مللت يا سيِّدي من التنازل عن هويّتي وأرضي للآخرين.

من رأسك. لا شيء يخبَّأ في هذه البلاد. أصبحنا عراة. ادخلي الإنترنت وسترين كوارثنا.

كم اشتهيت أن أسأله عن تهمة تهريب الأعضاء التي ألصقها بعناصر الكارتيل، التي أسمع عنها للمرّة الأولى، لكنّه حرمني من ذلك عندما قام بشكل فجائي من مكانه مغيِّرًا لهجته وحديثه. وشوش في أذني لكي لا يسمعه أحد. طلب منِّي أن أضحك. أن أضحك ولو بلا سبب:

ضحكت لسبب غامض.

ـ اضحكي يا مدام، اضحكي أرجوك، حتى يظنّ الرقباء أنِّي حكيت لك نكتة فقط لأسلّيك وأخفِّف عليك من متاعب الانتظار. اضحكي وإلاّ سيكون أمري صعبًا. كلّ الرقباء الذين يشتغلون هنا هم في خدمة الكارتيل، بشكل أو بآخر.

ضحكت هذه المرّة ببلادة.

كان الرقيب يقف وراءنا. يدور برأسه كالبومة، في كلّ الاتجاهات. عرفته من عينه اليمنى المقوّسة، ورائحته التي تشبه رائحة الضباع.

ارتجّت الأرض من تحتي قليلاً، ولكنِّي تماسكت. ومع ذلك واصلت ضحكي. لم أضحك هذه المرّة من قلبي، كما تعوَّدت أن أفعل، ولكن من جهلي. انسحب الرقيب باتّجاه طابور آخر. قلت للموظّف الذي كان يعرف الكثير، على عكس ما بدا عليه:

ـ ومع ذلك يا سيِّدي، فأنا لست ليلى ولا حتى ليلي.

نظر إليَّ كمن يواجه امرأة مجنونة. تغيَّرت فجأة كلّ ملامحه.

ـ أرأيت كيف تغيَّر كلّ شيء فيك؟

لم يقل شيئًا. وزن الطرد. وضع ثلاثة طوابع عريضة عليه. ختمها. ثم رماه في صندوق كان على يمينه. لم أسمع إلاّ صوته المبحوح، يطلب الشخص الموالي في الطابور الطويل، لكي يتقدَّم، حتى بدون أن يرفع رأسه نحوي لاستلام النقود التي وضعتها أمامه.

ـ يا اللّه... اللّي بعده...

لا أدري إذا ما كان قد خاف منِّي، أو خاف ممّا قاله. لم يكن الأمر مهمًّا في الحالتين. كنت جاهلة، وربّما مهبولة. أحسست أنَّ هذا الشابّ المتيقّظ كان مشروع قنبلة موقوتة، قد تنفجر يومًا في هذا البريد المركزي نفسه.

خرجت بدون أن ألتفت ورائي.

نظرت إلى السماء التي خرجت شمسها من وراء دكنة الغيوم القويّة. فجأة شعرت بنفسي حرّة. لا أحمل أيّ شيء. ولا حتى جسدي. فقد رميته في البريدِ هو أيضًا مع بقيّة الأوراق.

تذكَّرت فجأة مظروف مخبر التحاليل الرحميّة، الذي لم أكلِّف نفسي حتى بفتحه.

جلست في زاوية الدرج، عند مدخل البريد، كأيّة سائحة متعبة. وضعت حقيبتي بين رجليّ، ثم فتحت غلاف الرسالة بعصبيّة لم أفهمها، كأنِّي كنت أريد أن أتخلَّص من شيء زائد فيَّ. كانت خلاصة تقرير. قرأتها. لم أفهم الأحرف، وعلامات الزائد والناقص، والإشارات المختلفة، وكثرة الأرقام والكسور، لكنِّي فهمت نتيجة التقرير النهائيّة، لم يكن بها أيّ لبس أبدًا:

Pap test (frottis vaginal) revelant des traces de cellules cancereuses au niveau du col de l'utérus. Echographie transvaginale avec biopsie[١].

لم أرتبك، ولكنّ جسمي برد فجأة، وتجمّدت كلّ حركتي. شعرت بالموت البطيء يبدأني من أصابع رجليّ، ويصعد كالسهم القاتل حتى الرأس.

شعرت بغبن شديد. كانت المرّة الوحيدة التي تمنّيت فيها أن تزيحني مريم وتستلم مكاني. كنت منحته لها بسخاء، وبلا أدنى تردُّد.

لا أدري ما إذا ما كنت غاضبة على الأقدار أو على اللّه. انتابتني رغبة عنيفة وغير محسوبة، للالتفات نحو السماء والصراخ بأعلى صوتي ضدّهما. شعرت فجأة، في لحظة الظلم القاسية والعبث العنيف، أنّي كنت بصدد قصّة أخرى، لم أكن مهيَّأة لها، ولا قادرة على إنجازها أبداً.

«ربّما كان كتابي؟

أو كتابك أيضاً، مرآتك الخفيّة؟

... أو ربّما لا هذا ولا ذاك... مجرّد نثار عمر، يشبه الحياة قليلاً؟».

تأمّلت السماء التي غابت شمسها فجأة من جديد، ثم ضحكت بمرارة.

ـ يااااااااه! ما بقي للعمياء إلاّ الكحل؟

عدّلت من جلستي، على رخام درج البريد المركزي، ثم استحضرت فجأة ثقافتي كلّها، وما كنت أعرفه عن سرطان الرحم،

---

١ ـ تظهر الفحوصات الرحميّة الأوّليّة آثاراً لخلايا سرطانيّة على مستوى عنق الرحم. ضرورة نزع عيّنات رحميّة وإجراء الفحص عليها للتأكّد.

وأشكاله المختلفة، بدون أن أقوم من مكاني. كنتُ كمن يسترجع درسًا قديمًا حفظه عن ظهر قلب.

«... هو رابع أنواع السرطانات عند المرأة بعد سرطان الثدي، والقولون، والرئتين. يمسّ سنويًّا أكثر من ٤٠ ألف امرأة في بلادنا. ويُداوى بطريقتين: العمليات الجراحيّة المباشرة، أي بالاستئصال، أو بالإشعاع الخارجي، ويمسّ فقط الأجزاء المريضة، أو بواسطة حقنة إشعاعيّة تدخل في عنق رحم المريضة لمدّة ساعات أو أيّام، في المستشفى...».

تضبّب كلّ شيء في عينيّ، ومع ذلك بقيت متوازنة. تساءلت في خلوة العجز والخوف من الموت: هل هو انتقام مريم المسكونة بألف جنّيّ يقف في صفّها؟ أم انتقام المرايا التي أظهرت لي ما لم أكن أريده؟

شعرت بالإنهاك الكبير ينزل على جسدي، وبرغبة لا تقاوم للنوم.

ـ ٥ ـ

حاولت أن أقوم من مكاني. أحسست بجسمي ثقيلاً مثل كتلة رصاص.

عندما رفعت رأسي لأملأ عينيّ بالشمس التي ظهرت فجأة من وراء الغيوم الثقيلة، امتلأ أنفي بعطر قريب من ذاكرتي. حاولت أن أعرفه ولكنّي لم أستطع. ضغطت على خلاياي الدماغيّة لأستعيد اسمه، ولكن عبثًا. كل محاولاتي باءت بالفشل. استنشقت بقوّة وتحسّست مصدره. التفتُّ لاشعوريًّا نحو كلّ الجهات. فجأة توقّف نظري عند امرأة كانت تعطيني ظهرها. كانت تتخفّى بين امرأتين ورجل، لكنّ جزءًا من جسمها كان يظهر بكامله. استغربت. فيها شيء منّي. كانت ترتدي شالي

البنفسجي، وقبّعتي الزرقاء، ومعطفي الإيطالي، وكوفيّتي النيليّة. بل كانت تحمل في يدها مطريّتي وحقيبتي اليدويّة الشفّافة. التفتت نحوي بنصف وجهها فقط، قبل أن تكشّر ضاحكة ملء شدقيها. أغمضت عينيّ. قلتُ: ربّما كان للإنهاك دور في هذه الرؤى الغريبة؟ ثم فتحتهما بهدوء متمنّية أن يكون ما رأيته مجرّد غيمة هاربة. وجدتها في الوضع الذي تركتها فيه، كأنّها صورة فوتوغرافيّة. تكشّر بحيث تظهر أسنانها العليا بيضاء ناصعة. تأكّدت هذه المّرة من أنّها هي. هي ولا أحد غيرها. مريم... مريم... هي. جنون! خمس رصاصات متتالية ولم تمت؟ صرخت بصوت اختلط مع زعيق ضحكتها الأخيرة قبل أن تنطفئ بين المرأتين والرجل، الذين غطّوها عن بصري، لتنسحب نهائيًّا كالظلّ الهارب. لم أتحكّم في حواسّي التي انتفضت مجتمعة:

ـ مرياااااااام!؟ ألم تموتي؟ لقد قتلتك، فمن أين عدتِ لي؟

كانت صرختي حادّة مثل زعيقها الشيطاني، وطويلة.

حركاتي الغريبة أثارت انتباه الناس الذين كانوا يرتادون البريد جماعات، جماعات، ودَفَعتْ بالشرطيّين، السمين والرقيق، اللذين كانا يحرسان المكان، إلى الالتفات نحوي. خجلت من نفسي وخفت أن يعتبراني مجنونة. تقلّصت في مكاني. ضحكتُ في أعماقي لأنّ سحنتيهما ذكّرتاني بالممثّلين الساخرين: لوريل وهاردي[1].

فجأة، شعرت بنفسي صغيرة جدًّا، ومريضة، وهشّة مثل الريشة.

« **ـ هي ظلّ، وأنا مجنونة... واللهّ ما تروح منّي اليوم... يا أنا. يا هي**».

---

١ ـ Laurel et Hardy.

تمتمت وأنا أقوم من مكاني وأسحب، لاشعوريًّا، مسدّسي من حقيبتي اليدويّة.

خيط عطرها الشفّاف كان يملأ أنفي. تناسيت ثقل جسدي. نزلت بسرعة كبيرة الأدراج العالية التي بدت لي بلا نهاية. كانت عيناي مثبّتتين في الفراغ، وفي سماء وشوارع ووجوه، بلا ملامح، ولا لون، ولا حركة.

نسيت كلّ الأصوات التي كانت تتبعني أو تحيط بي، صرخات الناس... نقرات الأحذية التي كانت تقتفي خطاي... الهاربون في كلّ اتّجاه... هسهسة الأجسام المحتكّة بعضها بالبعض الآخر... نداءات الشرطي السمين، التحذيريّة:

ـ توقّفي يا مجنونة. ارمي المسدس وإلاّ أطلقت النار عليك... توقّفي...

كان الصوت يتضخَّم ورائي مصحوبًا بطنين الذبابة الزرقاء نفسها الذي عاد يتبعني. استغربت الأمر مرّة أخرى، إذ إنّه يُفترض أن تكون ذبابة اللحم قد قُتلت مع الطلقات الأولى في السكريتوريوم.

لم أعبأ بنداءات الشرطي السمين، التحذيريّة. سمعت فقط شخير تعبه وهو يتنفّس بصعوبة، وسمعت طلقة الرصاص الأولى. واصلت الركض وراء خيط العطر الذي ظلّ يسحبني نحوه. كان تصميمي مجنونًا، ولهذا لم أعد أشعر بأيّ قلق ممّا كان يحيط بي ويضيّق نفسي إلى حدّ بعيد.

الطلقة الثانية كانت جافّة وحادّة. شعرت بها تنبت في حلقي كرمال القفر الميّت، وتسيل عرقًا باردًا على كامل جسمي.

انتابني صوت غريب خفَّف عليَّ وهن الركض والخوف:

«لقد كنتُ طوال حياتي قوسًا بين يدين قاسيتين. وكم من المرّات شدّتني هاتان اليدان الخفّيتان وبالغتا في شدّي حتى سمعت الطقطقة التي تنذر بالانكسار. وفي كلّ مرّة أصرُخُ: فلتنكسر القوس... ».

لم يكن صوتي؟ لم أعرف المصدر.

من جديد، يأتيني صوت الكمان الدافئ. يذبحني أنينه. يملأني. أغمض عينيّ على هذه الحافّة الهاربة. أرى امرأة تتمزّق بين رغباتها وأحلامها الصغيرة والملوّنة، وبين حياتها الموغلة في عتمة الأرواح المحيطة بها، في وحشة الشوارع وفظاعة الإحساس بالوحدة... أشعر برغبة في البكاء: ذاك الأنين الجميل يعمّق إحساسي بالفداحة..كم تراني خسرت طوال هذا الوقت الذي يمضي داخل الخوف والأسئلة التي تبقى معلّقة على حوافّ القلب كالغصّة؟

جريت أكثر وكأنّ الأوامر من ورائي لم تكن تعنيني. مسحت المكان بعينيّ الحذرتين، بدرجة قاربت المائة وثمانين درجة. عرفت أين هي بالضبط. كانت مريم تسلك الطريق المؤدّي إلى واجهة البحر، قبل أن تنزل نحو الميناء القديم. ربّما كانت تريد أن تستقلّ سفينة ما للهرب؟ لم يكن الشرطي السمين بعيداً عنّي. فقد شممت رائحة عرقه القويّة، وشعرت حتى بظلّه يُثقل جسدي المنهك.

جريت أكثر لكي لا تغيب مريم عن نظري.

ثم... طلقة ثالثة قريبة منّي، جمّدت دمي... ارتعش المسدّس في يدي، وأصبح فجأة لا يساوي إلاّ ثقله. بدأت أتهادى. غمرني فجأة صفاء غريب مع قطرات الدم الأولى التي نزفت من صدري، ولوّنت قميصي

البنفسجي الجميل، ببقعة حمراء، عند النهد الأيسر تمامًا، كانت تتّسع أكثر فأكثر، كلّما جريت.

عاودني الصوت مضخّمًا كأنّه يأتي من بئر فارغة.

«هل انتصرتُ؟ أم هُزمتُ؟ الشيء الوحيد الذي أعرفه هو: أنّني... ما أزال واقفًا على قدمي، مثخنًا بالجراح، وكلّها في صدري. لقد فعلت ما استطعت... وأكثر ممّا كنت أستطيع... أمّا وقد انتهت المعركة الآن، فإنّني آت لأضطجع إلى جانبك، ولأصبح ترابًا...[1]».

الصوت نفسه والنبرة نفسها. كان هذه المرّة واضحًا كهذا اليوم الجميل. من هو؟ من قال هذه الجملة التي أدخلتني فجأة في دوار الموت؟ أعرفه ولكنّي نسيته أيضًا، مثل خيط العطر المتسرّب من مريم.

أركض. أحاول أن لا أتوقّف. أتشمّم الأشياء كحيوان برّيّ ضائع. أشعر بجسدي أخفّ من الريشة وهو يتسلّل بين الناس ببطء شديد. كان تكاثرهم المتزايد يشبه جذوع وأغصان الأشجار الاستوائيّة التي سلكناها أنا وسينو في جزيرة *القدّيسات*[2]. يأتيني صوت مسقط المياه الدافئة التي تخفّينا وراءها، ومارسنا هبلنا الجميل. في لمح البصر، انتابتني ملينا وهي تستمتع برمال الكاريبي البيضاء ومياه *جبل الكبريت*[3] الدافئة.

تتكاثر الأمواج البشريّة من حولي ممتزجة بالنداءات الحادّة التي تشبه صفّارات الشرطة وسيّارات الإسعاف وهي تسير بسرعة مجنونة، مخترقة بلا رحمة الجموع المتراصّة. أحاول عبثًا أن أجد مسلكي للعبور نحو الجهة

---

١ ـ نيكوس كازانتزاكي، تقرير إلى غريكو. ترجمة ممدوح عدوان. دار الجندي، دمشق. ٢٠٠٤. ص ٦٣٦ ـ ٦٣٧.

٢ ـ L'île des Saintes (la Guadeloupe).

٣ ـ La soufrière.

الأخرى. أطير في الفراغات اللدنة. أتحسّس جناحيّ الملوّنين كجناحي فراشة. أقاوم ثقل الأشياء الغامضة التي تسحبني نحو الأرض. فجأة شعرت بعينيّ تثقلان وتستسلمان لنوم لذيذ لم أعرفه منذ زمن بعيد. **ياااااه...** **يا يمّا الحنّانة، كم أنا مرهقة وحزينة! أين كان كلّ هذا التعب؟**

لم أنتبه حتى للرصاصة الرابعة التي شقّت الفراغ الذي أصبح ثقيلاً ولدنًا، باستثناء صوتها الذي تضخّم كثيراً في دماغي مثل دمدمة الرعد. ملأ ضبابٌ بمئات الألوان والتدرّجات عينيَّ. طغت الحمرة الذابلة على نظري، وتملّكني نوع من الدوار الساحر، لم أستطع مقاومة لذّته. وقبل أن تنطفئ عيناي نهائيًّا على نور شمس انعكست بقوّة على سطح البحر الأملس كمرآة، لمع في ذهني، وللمرّة الأخيرة، اسم صاحب الصوت الخفيّ الذي كنت أبحث عنه ولم يسعفني تعبي. ضربت على رأسي بقبضة يدي اليمنى. من غير المعقول؟ كيف نسيت نشيد مجنون جزيرة كريت الذي مات ملتصقًا بإلهته هلينا، **نيكوس كازانتزاكي؟**

عندما فتحت عينيّ وقلبي وبقيّة حواسّي للمرّة الأخيرة، لم أر شيئًا إلاّ بياضًا مسح كلّ النتوءات والملامح المحيطة بي. أصبحتُ أرى كلّ شيء أملس، حتى وجوه الناس التي كانت تحيط بي. تأكّدت نهائيًّا من مسلك مريم التي كانت تتّجه نحو الميناء القديم كما توقّعت، وحتى من نوع عطرها الذي شممته أوّل مرّة وأنا متكئة على أدراج البريد. كيف هرب من ذاكرة حواسّي المشتعلة، **تشانل فايف**...[1] عطري المسروق؟

عطر أنثى السراب...

باريس، طنجة

أواخر شتاء ٢٠٠٩.

---

١ - Chanel 5.

الفهرس

«وماذا بعد؟ طوبى للعنة تؤكّد أنّي ما زلت إنسانة!

مجرّد لحظة ألم من امرأة ورقيّة معلّقة في شجرة الجنّة، لم يعد شيء يهمّها بعدما قبلتْ بكلّ الخسارات. تريد فقط أن تنزل إلى هذه الأرض لاستعادة صراخها، وحواسّها الضائعة، من سطوة اللعنة، ومن سلطان الكاتب نفسه. وتُقْسم هذه المرّة أنّها لن تحاسب إبليس على سحره، بل ستتواطأ معه. وتجلس بصحبته تحت شجرة الغواية، وتطلب منه أن يأخذها من يدها اليمنى برفق العشّاق، ويقطفَ لها تفّاحة الخطيئة بيديه المرتعشتين، ويضعها في فمها قطعةً قطعةً، مثقلةً بنبيذ الشهوة. لقد أدركتْ، متأخّرةً قليلاً، أنّ دنيا واحدة عاشتها لم تكن كافيةً لإشباع جوعها الأبديّ للنور ونهمها للحياة».

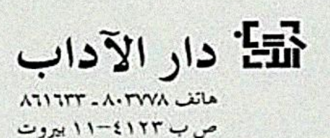
واسيني الأعرج روائي جزائري، صدر له عن دار الآداب «**شرفات بحر الشمال**» و«**كتاب الأمير**» (جائزة الشيخ زايد للرواية عام ٢٠٠٧) و«**سوناتا لأشباح القدس**».

يتنازل الكاتبُ عن حقوقه الماديّة من هذه الرواية إلى الأطفال المرضى بالسرطان.

ISBN: 978-9953-89-156-9



علي مولا



هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت